تَفْسِيرُ
سُورَةِ النُّورِ

سورةُ النُّورِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النُّورِ)[1]، مما يدُلُّ على ذلك:

١- عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: ((سُئِلتُ عن المتلاعنَينِ -في إمرةِ مُصعَبٍ-: أيُفَرَّقُ بيْنهما؟ قال: فما دَرَيتُ ما أقولُ، فمضيتُ إلى منزلِ ابنِ عُمرَ بمكَّةَ، فقلتُ للغلامِ: استأذِنْ لي، قال: إنَّه قائِلٌ[2]، فسَمِعَ صَوتي، قال ابنُ جُبَيرٍ؟ قلتُ: نعَمْ، قال: ادخُلْ، فواللهِ ما جاء بك هذه السَّاعةَ إلَّا حاجةٌ، فدخلتُ، فإذا هو مفترِشٌ بَرْذَعةً[3]، متوسِّدٌ وِسادةً حَشوُها ليفٌ، قلتُ: أبا عبدِ الرَّحمنِ، المتلاعِنانِ أيُفَرَّقُ بيْنهما؟ قال: سُبحانَ اللهِ، نعَمْ! إنَّ أوَّلَ مَن سأل عن ذلك فلانُ بنُ فلانٍ، قال: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ أنْ لو وجدَ أحدُنا امرأتَه على فاحشةٍ، كيف يَصنعُ؟ إنْ تكلَّمَ تكلَّمَ بأمرٍ عظيمٍ، وإنْ سكتَ سكتَ على مثلِ ذلك! قال: فسكَتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم يُجِبْه، فلمَّا كان بعْدَ ذلك أتاهُ، فقال: إنَّ الذي سألْتُك عنه قد ابتُليتُ به! فأنزل الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الآياتِ في سورة «النُّورِ»: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ... ﴾ [النور: ٦ - ٩]، فتلاهُنَّ عليه، ووعَظَه وذَكَّره، وأخبرَه أنَّ عذابَ

---

(١) سُمِّيَت هذه السورةُ بسورةِ (النورِ)؛ لكثرةِ ذِكرِ (النورِ) فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٤).

قال ابن عاشور: (وهذه تسميتُها في المصاحفِ وكتبِ التَّفسيرِ والسُّنَّةِ، ولا يُعْرَفُ لها اسمٌ آخَرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٩).

(٢) قائل: هو اسمُ فاعِلٍ مِن: قالَ يَقِيلُ؛ فهو مِن القَيلولةِ، وهي النَّومُ نِصفَ النَّهارِ. يُنظر: ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٢٩٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٢٤).

(٣) البَرْذَعةُ: ما يُوضَعُ على ظَهرِ البَعيرِ والدَّابَّةِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٥/ ٥٤٦).

الدُّنيا أهوَنُ مِن عذابِ الآخرةِ. قال: لا، والَّذي بعَثَك بالحَقِّ ما كذَبْتُ عليها. ثمَّ دعاها، فوعَظَها وذكَّرَها، وأخبَرَها أنَّ عذابَ الدُّنيا أهوَنُ مِن عذابِ الآخرةِ. قالت: لا، والَّذي بعَثَك بالحَقِّ إنَّه لكاذِبٌ. فبدأ بالرجُلِ، فشَهِدَ أربَعَ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الصادقينَ، والخامِسةُ أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إنْ كان مِن الكاذبينَ، ثمَّ ثنَّى بالمرأةِ، فشَهِدَت أربعَ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الكاذبينَ، والخامِسةُ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إنْ كان من الصَّادقينَ، ثمَّ فَرَّق بيْنهما))[1].

٢- عن أبي إسحاقَ الشَّيْبانيِّ، قال: ((سألتُ عبدَ اللهِ بنَ أبي أَوفَى: هل رَجَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؟ قال: نعَمْ. قال: قلتُ: بعدَما أُنزِلَت سورةُ «النُّورِ» أمْ قبْلَها؟ قال: لا أدري))[2].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ النُّورِ مَدَنيَّةٌ[3]، ونقلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[4].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

من أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ: ذِكرُ أحكامِ العفافِ والسترِ[5].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٨).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨).

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ النُّورِ:

١- تقريرُ وُجوبِ الانقيادِ لِما أُنزِلَ في هذه السورةِ مِن أحكامٍ وآدابٍ.

٢- بيانُ حَدِّ الزِّنا.

٣- بيانُ عُقوبةِ قاذِفِي المُحصَناتِ.

٤- حُكمُ قَذفِ الزَّوجاتِ، وتَشريعُ اللِّعانِ.

٥- ذِكرُ قِصَّةِ الإفكِ.

٦- ذِكرُ آدابِ الاستِئذانِ، ووجوبِ غَضِّ البَصَرِ وحِفظِ الفُروجِ.

٧- نَهيُ النِّساءِ عن إبداءِ زينتِهِنَّ إلَّا لِمَن استَثناهم اللهُ تعالى.

٨- الأمرُ بإنكاحِ الأيامَى مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ.

٩- الحديثُ عن مظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى في هذا الكَونِ.

١٠- ذَمُّ أحوالِ أهلِ النِّفاقِ، والإشارةُ إلى سوءِ طَوِيَّتِهم.

١١- وَعدُ اللهِ تعالى للمُؤمِنينَ بالاستِخلافِ في الأرضِ، والتَّمكينِ للدِّينِ، والأمنِ بعدَ الخَوفِ.

١٢- بيانُ صِفاتِ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

الآيات (١-٣)

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُورَةٌ﴾: السُّورةُ: مَجموعُ آياتٍ ممَّا أنزل اللهُ تعالى، معلومُ الابتِداءِ والانتِهاءِ، والسُّورَةُ: بالهَمزِ وبتَركِه؛ فبالهَمزِ مِن السُّؤْرِ: وهو البَقيَّةُ مِمَّا يَشرَبُ الشَّارِبُ؛ لأنَّ كُلَّ سُورةٍ مِن القُرآنِ بَقيَّةٌ منه. وبغيرِ الهَمزِ: قيل: مِنَ السُّورِ بمعنى الجماعةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مُشتَمِلةٌ على جماعةِ الآياتِ. أو مِن السُّورِ المُحيطِ بالأبنيةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مُحيطةٌ بالآياتِ. وقيلَ غَيرُ ذلك(١).

﴿رَأْفَةٌ﴾: الرأفةُ: أرقُّ الرَّحْمةِ، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحْمةٍ(٢).

﴿طَائِفَةٌ﴾: أي: جماعةٌ، والطَّائِفةُ: جماعةٌ مِن النَّاسِ؛ وتُطلَقُ على الواحِدِ فما فَوْقَه، وأصلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ هذه السُّورةَ أنزَلَها، ووضَّحَ فيها واجباتٍ ونواهيَ، وقدَّرَ فيها ما تضَمَّنَتْه من الحُدودِ والحُقوقِ، وأوجبَ العملَ بما اشتمَلَتْ عليه، وأنزَلَ فيها آياتٍ واضحاتٍ فيها تِبيانٌ للحَقِّ لِمَن تَدبَّرها؛ وذلك لكي تَتذكَّروا بهذه الآياتِ وتَتَّعظوا بها وتَعملُوا.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه بعدَ ذلك حدَّ الزاني والزانيةِ؛ فيأمُرُ تعالى بجَلْدِهما مِئةَ جَلدةٍ لكلٍّ منهما -إذا كانا حُرَّينِ، مكلَّفينِ، بِكرَينِ، غيرَ مُحصَنَينِ-، وينهَى المُؤمنينَ أنْ تَأخُذَهم بهما رِقَّةٌ في حُكمِ الله، تَمنعُهم من إقامةِ الحَدِّ عليهما كما أمَرَ اللهُ تعالى، إنْ كانوا يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ، ويأمُرُ أنْ يَشهَدَ ذلك الجَلْدَ جَماعةٌ مِن المُؤمنِينَ.

ويبيِّنُ تعالى أنَّ الزانيَ لا ينكِحُ إلَّا زانيةً مِثلَه أو مُشرِكةً، والزانيةَ لا ينكِحُها إلَّا زَانٍ مِثلُها أو مُشرِكٌ، وأنَّه سبحانَه حرَّمَ ذلك على المُؤمنِينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قولِه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ قراءتانِ:

١- قِراءة ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾ بتَشديدِ الرَّاء؛ أي: فَرضْنا فرائضَها، فحُذف المضافُ. وقيل: معناها: أَنزَلْنا فيها الأحكامَ الكَثيرةَ فَرْضًا بَعدَ فَرْضٍ. وقيل: بَيَّنَّا وفصَّلْنا ما

فيها مِن أمرٍ ونَهيٍ، وتَوقيفٍ وحَدٍّ[١].

٢- قِراءة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ بتَخفيفِ الرَّاء؛ أي: أَلْزَمْناكُم العملَ بما فَرَضْنا فيها وبَيَّنَّا من الواجباتِ والحُقوقِ[٢].

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾.

أي: هذه سُورةٌ أَنزَلْناها وبَيَّنَّا ما فيها مِن الواجباتِ والنَّواهي، وقدَّرْنا ما فيها مِن الحُدودِ والحُقوقِ، وأَوجَبْنا الإيمانَ بها وبما تضمَّنَتْه، والعملَ بما فيها[٣].

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

أي: وأنزَلْنا في هذِه السُّورةِ علاماتٍ، ودَلالاتٍ واضحاتٍ تُبيِّنُ الحقَّ لِمَن تَدَبَّرها[٤].

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) قرَأ بها ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو. يُنظر: ((التيسير)) لأبي عمرو الداني (ص: ١٦١)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩، ٢٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٤).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((التيسير)) لأبي عمرو الداني (ص: ١٦١)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٢، ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

أي: وذلك لكي تَتذكَّروا بهذه الآياتِ وتَتَّعظوا، وتَعملُوا بها[١].

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾.

أي: مَن زَنَى مِن النِّساءِ أو الرِّجالِ -إذا كانا حُرَّينِ، مكلَّفينِ، بِكرَينِ، غيرَ مُحصَنَينِ- فاجْلِدوا كلَّ واحدٍ مِنهما مِئةَ جَلدةٍ؛ عُقوبةً لهما[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٩).

قال السَّمعاني: (وأمَّا قولُ عامَّةِ العُلَماءِ فهو: أنَّ الآيةَ مخصوصةٌ للأبكارِ، وأنَّ الثيِّبَ يُرجَمُ ولا يُجلَدُ، واتَّفَق أهلُ العِلمِ أنَّ هذه الآيةَ ناسِخةٌ للآيةِ المذكورةِ في الإمساكِ في سورة النساءِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٨).

وقال القرطبي: (هذه الآيةُ ناسخةٌ لآيةِ الحَبسِ وآيةِ الأذى، اللَّتَينِ في سورة النِّساء، باتِّفاقٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٩).

وقال السخاوي: (وقيل: ليس هذا بنَسْخٍ؛ لأنَّه سبحانه قال: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾؛ لأنَّه قد كان الحُكمُ مُنتظَرًا). ((جمال القراء)) (٢/ ٦٥٢).

وقال الشنقيطي: (حَبسُ الزَّواني في البُيوتِ مَنسوخٌ بالجَلدِ والرَّجمِ، أو أنَّه كانت له غايةٌ يَنتهي إليها، هي جَعلُ اللهِ لهنَّ السَّبيلَ، فجَعَل اللهُ السَّبيلَ بالحَدِّ، كما يدُلُّ عليه قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «خُذُوا عنِّي، قد جعَلَ اللهُ لهنَّ سَبيلًا...» الحديثَ). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٥٥، ٥٦).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور:٢] هذه الآيةُ ناسِخةٌ لآيةِ النِّساءِ، وإن شِئتَ فقُلْ: مُبيِّنةٌ؛ لأنَّ آيةَ النِّساءِ ليس فيها جَزمٌ أنَّ هذه هي العُقوبةُ؛ لأنَّ الله قال: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، فجَعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا). ((لقاء الباب المفتوح- اللقاء رقم ١٨٦)) بتصرف. =

عن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((خُذُوا عنِّي، خُذُوا عنِّي؛ قد جَعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلًا[1]؛ البِكْرُ بالبِكْرِ: جَلْدُ مِئةٍ، ونَفيُ سَنةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مِئةٍ، والرَّجمُ[2]))[3].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.

= وقال الشوكاني: (وأمَّا مَن كان مُحصَنًا مِن الأحرارِ، فعليه الرَّجمُ؛ بالسُّنَّةِ الصَّحيحةِ المتواترةِ بإجماعِ أهلِ العِلمِ، وبالقرآنِ المنسوخِ لَفظُه الباقي حُكمُه، وهو: «الشَّيخُ والشَّيخةُ إذا زنَيَا، فارجُموهُما البتَّةَ»). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦).

وقال السعدي: (هذا الحُكمُ في الزَّاني والزانية البِكرَين: أنَّهما يُجلَدُ كلٌّ منهما مئةَ جَلدةٍ، وأمَّا الثيِّبُ فقد دلَّت السُّنَّةُ الصحيحةُ المشهورةُ أنَّ حدَّه الرَّجمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

وقال ابن عاشور: (لا شكَّ في أنَّ القضاءَ بالرَّجمِ وقَع بعدَ نزولِ سورةِ النُّورِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٩).

قال القرطبي: (الخبرُ في قولِه: ﴿فَٱجْلِدُوا﴾؛ لأنَّ المعنى: الزانيةُ والزاني مجلودانِ بحكمِ الله. وهو قولٌ جيدٌ، وهو قولُ أكثرِ النُّحاةِ. وإن شئتَ قدَّرتَ الخبرَ: يَنبغي أن يُجلَدَا). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

(١) سَبيلًا: أي: طريقًا وحَدًّا واضِحًا، أشار إلى قَولِه تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٨٨)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٣٢٨).

(٢) قال النووي: (واختلَفوا في جَلْدِ الثَّيِّبِ مع الرَّجمِ؛ فقالت طائفةٌ: يجِبُ الجَمعُ بيْنهما، فيُجلَدُ ثمَّ يُرجَمُ. وبه قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، والحَسَنُ البَصريُّ، وإسحاقُ بنُ راهَوَيه، وداودُ، وأهلُ الظَّاهِرِ، وبَعضُ أصحابِ الشَّافعيِّ. وقال جماهيرُ العُلَماءِ: الواجِبُ الرَّجمُ وَحْدَه... وحُجَّةُ الجُمهورِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم اقتصَرَ على رَجمِ الثَّيِّبِ في أحاديثَ كثيرةٍ؛ منها: قِصَّةُ ماعِزٍ، وقِصَّةُ المرأةِ الغامِديَّةِ، وفي قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «واغْدُ يا أُنَيسُ على امرأةِ هذا، فإنِ اعترَفَت فارجُمْها». قالوا: وحديثُ الجَمعِ بينَ الجَلْدِ والرَّجمِ مَنسوخٌ؛ فإنَّه كان في أوَّلِ الأمرِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٨٩). ويُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (١٢/ ١٧٣-١٧٨)، ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٣٥-٣٨).

(٣) رواه مسلم (١٦٩٠).

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾، وكان الجَلْدُ مُوجِعًا، وكان المُباشِرُ له قد يَرِقُّ على المَجلودِ مِن وَجَعِه؛ نُهيَ المُسلِمون أنْ تأخُذَهم رَأفةٌ بالزَّانيةِ والزَّاني، فيَترُكوا الحدَّ أو يَنقُصوه أو يُخفِّفوه[1]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَأخُذْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- بالزَّانيةِ والزَّاني رِقَّةٌ في حُكمِ الله، تَمنعُكم مِن إقامةِ الحَدِّ عليهما على الوجهِ الذي أمَرَ به اللهُ تعالى[2].

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

أي: إنْ كُنتُم -أيُّها المؤمنون- تُؤمِنونَ حقًّا باللهِ وبالبَعثِ يومَ القِيامةِ للجَزاءِ على الأعمالِ، ثوابًا أو عِقابًا، فأقيموا الحَدَّ على الزَّانِيَينِ كما أمرَكَم اللهُ، ولا تَأخُذْكم بهما رأفةٌ في دِينِه[3].

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولْيَحضُرْ جَلْدَ الزَّانِيَينِ جماعةٌ[4]..........................

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩، ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠، ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٤) قال الرازي: (اختلفوا في أقَلِّ الطَّائفةِ؛ على أقوالٍ:
أحَدُها: أنَّه رجُلٌ واحِدٌ. وهو قَولُ النَّخَعيِّ، ومجاهِدٍ، واحتجَّا بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩].
وثانيها: أنَّه اثنانِ. وهو قَولُ عِكرمةَ، وعَطاءٍ ... =

مِن المُؤمنِينَ، تَحُفُّ وتُحيطُ بهما[١].

= وثالثُها: أنَّه ثلاثةٌ. وهو قَولُ الزُّهريِّ، وقتادةَ. قالوا: الطَّائفةُ هي الفِرقةُ التي يمكِنُ أن تكونَ حَلْقةً، كأنَّها الجماعةُ الحافَّةُ حوْلَ الشَّيءِ، وهذه الصُّورةُ أقَلُّ ما لا بُدَّ في حُصولِها هو الثَّلاثةُ.

ورابعُها: أنَّه أربعةٌ بعَدَدِ شُهودِ الزِّنا. وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، والشَّافعيِّ رَضِيَ الله عنهما.

وخامِسُها: أنَّه عَشرةٌ. وهو قَولُ الحَسَنِ البَصريِّ؛ لأنَّ العَشَرةَ هي العَدَدُ الكامِلُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٧). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (٦/ ١٦٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩).

قال ابنُ جرير: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ: قولُ مَن قال: أقَلُّ ما ينبغي حضورُ ذلك مِن عَدَدِ المُسلِمينَ: الواحدُ فصاعدًا؛ وذلك أنَّ اللهَ عَمَّ بقَولِه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ [النور: ٢]، والطَّائِفةُ: قد تقعُ عند العَرَبِ على الواحِدِ فصاعدًا، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكُنِ اللهُ -تعالى ذِكرُه- وضَع دَلالةً على أنَّ مُرادَه مِن ذلك خاصٌّ مِنَ العَدَدِ؛ كان معلومًا أنَّ حضورَ ما وقَع عليه أدنى اسمِ الطَّائفةِ ذلك المحْضَرَ مُخرِجٌ مُقيمَ الحدِّ ممَّا أمَره اللهُ به بقَولِه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، غيرَ أنِّي -وإنْ كان الأمرُ على ما وَصفتُ- أستحِبُّ ألَّا يُقصَّرَ بعدَدِ مَن يحضُرُ ذلك الموضعَ عن أربعةِ أنفُسٍ؛ عدَدِ مَن تُقبلُ شَهادتُه على الزِّنا؛ لأنَّ ذلك إذا كان كذلك فلا خِلافَ بيْن الجَمعِ أنَّه قد أدَّى المقيمُ الحدَّ ما عليه في ذلك، وهُم فيما دونَ ذلك مُختَلِفونَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ وأنَّ المرادَ اثنانِ فصاعِدًا: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ وأنَّ المرادَ ثلاثةٌ فأكثرُ: البيضاوي، وأبو حيان، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

قال ابنُ عطيةَ: (وقَولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المَقصَدُ بالآيةِ الإغلاظُ على الزُّناةِ، والتَّوبيخُ بحَضرةِ النَّاسِ، فلا خِلافَ أنَّ «الطَّائِفة» كُلَّما كثُرَت فهو أليَقُ بامتِثالِ الأمرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٥، ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨، ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

قال الشنقيطي: (قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي: حدَّهما بلا نِزاعٍ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٦٤).

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

سَببُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رجلٌ يُقالُ له: مَرْثَدُ ابنُ أبي مرثدٍ، وكان رجلًا يَحمِلُ الأسرى من مكَّةَ حتى يأتيَ بهم المدينةَ. قال: وكانت امرأةٌ بَغِيٌّ بمكةَ يُقالُ لها: عَناقُ، وكانت صديقةً له، وإنَّه كان وعَدَ رجلًا مِن أُسارى مكَّةَ يَحمِلُه. قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظلِّ حائطٍ مِن حوائطِ مكَّةَ في ليلةٍ مُقمِرةٍ. قال: فجاءت عَناقُ فأبصرَت سوادَ ظلِّي بجنبِ الحائطِ، فلمَّا انتهَت إليَّ عرَفَتْ[1]، فقالت: مرثدٌ؟! فقلتُ: مَرثدٌ، قالت: مرحبًا وأهلاً، هلُمَّ فبِتْ عندَنا الليلةَ، قلتُ: يا عَناقُ، حرَّم اللهُ الزِّنا! قالت: يا أهلَ الخيامِ، هذا الرجلُ يحمِلُ أُسَراءَكم[2]، قال: فتَبِعني ثمانيةٌ وسلكتُ الخَندَمةَ[3]، فانتهيتُ إلى كهفٍ أو غارٍ فدخلتُ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظلَّ بولُهم على رأسي، وأعماهم اللهُ عنِّي. قال: ثمَّ رجَعوا ورجعتُ إلى صاحبي فحمَلتُه، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيتُ إلى الإذخِرِ[4]، ففككتُ عنه كَبْلَه[5]، فجعلتُ أحمِلُه ويُعْيِيني[6] حتى قَدِمتُ المدينةَ، فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

(١) عَرَفَتْ: أي: عَرَفَتْني. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٢) أُسَراء: جمْعُ أسير، والمعنى: تنبَّهوا يا أهلَ الخيام وخُذوا هذا الرجلَ الذي يذهب بأُساراكم. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٣) الخَندَمة: جبلٌ بمكَّة. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (٢/ ٣٩٢).

(٤) المرادُ بالإذخرِ هنا: مكانٌ خارج مكَّة، يَنبُتُ فيه الإذخرُ. ويَحتمِلُ أنْ يكون المرادُ بالإذخرِ: أذاخرَ، وهو موضعٌ قُربَ مكَّة. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٥) كَبْلَه: أي: قَيْدَه. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٦) ويعييني: أي: يُتعِبُني ويُجهِدُني. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنكِحُ عناقَ -مرتين-؟ فأمسك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يرُدَّ عليَّ شيئًا، حتَّى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا مَرْثَدُ، الزَّاني لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ؛ فلا تَنْكِحْها))[١].

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان في الحكمِ المذكورِ في الآيةِ السابقةِ مِن الغلظةِ على الزَّاني لما ارتَكب مِن الحرامِ المتصفِ بالعارِ ما يُفهِمُ مجانبتَه؛ صرَّح به[٢]، فقال تعالى:

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

أي: الزَّاني لا يَنْكِحُ إلَّا زَانيةً مِثلَه أو مُشرِكةً باللهِ، والزَّانيةُ لا يَنْكِحُهَا إلا زانٍ مِثلُها أو مُشرِكٌ بالله[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥١)، والترمذي (٣١٧٧)، والنسائي (٣٢٢٨).

قال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٢٦٠): (حسن صحيح جدًّا). وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٥١): (حسن صحيح).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩، ٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٥ - ٣٢١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٢٢ - ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

قال الشنقيطي: (العُلماءُ اختَلَفوا في المرادِ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ؛ فقال جماعةٌ: المرادُ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ: الوَطءُ الذي هو نفْسُ الزِّنا. وقالت جماعةٌ أُخرى مِن أهلِ العِلمِ: إنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ هو عقدُ النِّكاحِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤١٧، ٤١٨). =

= ممن اختار أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ هنا: عقدُ الزواجِ: الزجَّاجُ، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١١٣-١١٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٥-٦٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢).
والمعنى على هذا القول: أنَّ مَن اتَّصف بالزِّنا، من رجُل أو امرأة، ولم يتُبْ من ذلك، أنَّ المُقدِمَ على الزواجِ به إمَّا أنْ يلتزمَ حُكمَ الله سُبحانَه ويعتقدَ وجوبَه عليه، أو لا؛ فإنْ لم يلتزِمْه ولم يعتقِدْه فهو مشركٌ، وإنِ التزمه واعتقَد وجوبه وخالفَه فهو زانٍ. يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابن عباس في راويةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بن جُبير في روايةٍ عنه، وعطاء ابن أبي رباح، وقتادة، والزُّهري، والشعبي، والقاسم بن أبي بزة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٨٠).
قال الشنقيطي: (وهؤلاء الذين فسَّروا النكاحَ بالعقدِ انقسَموا قِسمين؛ منهم مَن قال: لا يجوزُ نكاحُ الزانيةِ بحالٍ ... ومنهم مَن ذهَب إلى جوازِ نكاحِها، وقالوا: إنَّ الآيةَ منسوخةٌ بقولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]...). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٣٧).
وممن اختار أنَّ معنى النِّكاحِ هنا: الوطءُ: ابنُ جرير، وابن عطيَّة، وابن جُزَيٍّ، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).
والمعنى على هذا القَولِ: لا يقَعُ في الزِّنا إلَّا زانٍ عاصٍ أو مُشرِكٌ لا يعتَقِدُ حُرمتَه، ولا يُوافِقُه عليه مِنَ النِّساءِ إلَّا زانيةٌ عاصيةٌ أو مُشرِكةٌ لا تَعتَقِدُ حُرمتَه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).
وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وعِكرِمةُ، وسعيدُ بن جُبَيرٍ في رواية عنه، وعُروةُ بن الزُّبَير، والضَّحَّاك، ومكحولٌ، ومقاتل بن حيان، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).
وذهب الشِّنقيطيُّ إلى أنَّ لفظَ النِّكاحِ مُشترَكٌ بين الوطءِ والتَّزويجِ، فيُحمَلُ النِّكاحُ في هذه الآيةِ على الوَطءِ وعلى التزويجِ معًا، ويكونُ ذِكرُ المُشرِكةِ والمُشرِكِ على تفسيرِ النِّكاحِ بالوَطءِ دونَ العَقدِ، فقال: (هذه الآيةُ الكريمةُ مِن أصعَبِ الآياتِ تحقيقًا؛ لأنَّ حمْلَ النِّكاحِ فيها على التَّزويجِ لا يُلائِمُ ذِكرَ المُشرِكةِ والمُشرِكِ، وحمْلَ النِّكاحِ فيها على الوَطءِ لا يُلائِمُ الأحاديثَ الواردةَ المتعلِّقةَ بالآيةِ؛ فإنها تُعيِّنُ أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ: التَّزويجُ، ولا أعلَمُ مَخرجًا واضِحًا =

عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا يَنكِحُ الزاني المجلودُ إلَّا مِثلَه))(١).

= من الإشكالِ في هذه الآية إلَّا مع بَعضِ تَعَسُّفٍ، وهو أنَّ أصحَّ الأقوالِ عند الأصوليِّين -كما حرَّره أبو العباسِ ابنُ تيميَّةَ في رسالتِه في عُلومِ القُرآنِ، وعزاه لأجلَّاءِ عُلَماءِ المذاهِبِ الأربعةِ: هو جوازُ حَملِ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه، أو معانيه... وإذا عَلِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ النِّكاحَ مُشتَرَكٌ بين الوَطءِ والتَّزويجِ...، وإذا جاز حَملُ المُشتَرَكِ على معنَيَيه فيُحمَلُ النِّكاحُ في الآيةِ على الوَطءِ، وعلى التَّزويجِ معًا، ويكونُ ذِكرُ المُشرِكةِ والمُشرِكِ على تَفسيرِ النِّكاحِ بالوَطءِ دونَ العَقدِ، وهذا هو نوعُ التعسُّفِ الذي أشَرْنا له، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٢٥).

وقيل: المعنى: أنَّه في الأعمِّ الأغلَبِ أنَّ الفاسِقَ الخَبيثَ الذي من شأنِه الزِّنا لا يَرغَبُ في نكاحِ الصَّالحاتِ مِنَ النِّساءِ، وإنما يَرغَبُ في فاسقةٍ خبيثةٍ مِن شَكلِه، أو مُشركةٍ، والفاسِقةَ الخَبيثةَ المُسافِحةَ كذلك لا يَرغَبُ في نِكاحِها الصُّلَحاءُ مِن الرِّجالِ، وإنَّما يَرغَبُ فيها مَن هو مِن شَكلِها مِن الفَسَقةِ أو المُشرِكينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملة: القَفَّالُ -ونَسَبه إليه الرازيُّ-، والزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ مِن قَولِه: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ...﴾ إلخ: مَن كان الزِّنا دأبًا له قبل الإسلامِ وتخلَّق به، ثمَّ أسلمَ وأراد تزوُّجَ امرأةٍ مُلازمةٍ للزِّنا مِثلِ البغايا ومُتَّخِذاتِ الأخدانِ، ولا يكُنَّ إلَّا غيرَ مُسلِماتٍ لا محالةَ؛ فنَهَى اللهُ المسلمين عن تزوُّجِ مِثلِها بقَولِه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقدَّم له ما يُفيدُ تَشويهَه بأنَّه لا يُلائِمُ حالَ المسلِمِ، وإنَّما هو شأنُ أهلِ الزِّنا، أي: غيرِ المؤمِنينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ لا يكونُ الزِّنا له دأبًا، ولو صدَر منه لكان على سبيلِ الفَلتةِ، كما وقَع لِماعِزِ بنِ مالك؛ فقولُه: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ تمهيدٌ، وليس بتشريعٍ؛ لأنَّ الزَّانيَ -بمعنى مَن الزِّنا له عادةٌ- لا يكونُ مُؤمِنًا؛ فلا تُشرَعُ له أحكامُ الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٥).

وقيل في معنى الآيةِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٢) واللفظ له، وأحمد (٨٣٠٠).

صحَّحه ابنُ القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤٨٩). وجوَّد إسنادَه محمد بن عبد الهادي =

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وحَرَّمَ اللهُ ذلك[١] على المُؤمنِينَ[٢].

= في ((تنقيح التعليق)) (٣/ ١٨٠)، وابنُ كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٤٩) وقوَّاه. ووثَّق رجالَه ابن حجر في ((بلوغ المرام)) (٢٩٦)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٥٢).

(١) قيل: الإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجعُ إلى تزوُّجِ المؤمنِ غيرِ الزَّاني بزانيةٍ، والعكس، وذلك بِناءً على أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ عقدُ الزَّواجِ.

قال ابن تيميَّة: (لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بعُقوبةِ الزَّانيينِ حرَّمَ مُناكَحتَهما على المُؤمِنينَ؛ هَجْرًا لهما، ولِمَا معهما مِن الذُّنوبِ والسيِّئاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣١٥).

وقيل: الإشارةُ تَرجعُ إلى الزِّنا، أي: حُرِّم الزِّنا على المؤمنينَ، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ الوَطءُ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ العلماءَ اختَلَفوا في جَوازِ نِكاحِ العفيفِ الزَّانيةَ، ونِكاحِ العفيفةِ الزَّانيَ، فذَهَب جَماعَةٌ مِن أهلِ العلمِ؛ منهم الأئمَّةُ الثَّلاثةُ إلى جوازِ نِكاحِ الزَّانيةِ مع الكراهةِ التَّنْزيهيَّةِ عندَ مالِكٍ وأصحابِه، ومَن وافَقَهم). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤١٨). ويُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نجيم (٣/ ١١٤)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي، (٣/ ١٧٢)، ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (٩/ ١٨٩).

وقال الشوكاني: (وقيل: هو مكروهٌ فقطْ [أي: نكاح الزواني]، وعَبَّر بالتَّحريمِ عن كراهةِ التَّنزيهِ مُبالغةً في الزَّجْرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨).

وقال الشنقيطي: (وهنا قد يرِدُ سؤالٌ، وهو كيفَ سوَّغ هؤلاء الأئمةُ الأجِلَّاءُ للمسلمِ العفيفِ مقاربةَ الزانيةِ بالزَّواجِ منها، وهي زانيةٌ خبيثةٌ خسيسةٌ؟

والجوابُ: أنَّ هؤلاء الأئمةَ لم يُجيزوا له ذلك على أن يترُكَها وشأنَها، وإنَّما جوَّزوا له ذلك معَ المحافظةِ عليها، والضربِ على يدِها وزجرِها، وإذا وقَع منها ما لا يَنبَغي مِن ارتكابِ الفاحشةِ، وهو لا يدري وقد عمِل ما يقدرُ عليه مِن الاحتياطاتِ التي تحولُ بينها وبينَ ذلك فلا حرجَ عليه، وتكونُ معَه على حدِّ قولِ القائلِ: اجْتَنِ الثِّمارَ، وألْقِ الخشبةَ في النارِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٣٧). =

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- سُمِّيَتْ سُورةُ النورِ بهذا الاسمِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وإذا تأمَّلتَ السُّورةَ وَجدتَ ذِكْرَ النورِ فيها، وأنَّ اللهَ نورُ السمواتِ والأرضِ، وقولَه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ تَبيَّنَ لك أنَّ العِفَّةَ مِن أسبابِ نورِ القَلبِ، وأنَّ ضِدَّها -وهو الفُجورُ- مِن أسبابِ ظُلمةِ القَلبِ؛ ولذلك فإنَّ الزِّنا -سواءٌ كان بالعَينِ، أو بالرِّجلِ، أو باليَدِ، أو باللِّسانِ، أو بالفرْجِ- تأثيرُه على القَلبِ وعلى نُورِ القلبِ أعظَمُ مِن غيرِه، وتأثيرُ العِفَّةِ في نُورِ القلبِ أبلغُ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ بَيَّنَ تعالى أنَّه هو الذي أَنزلها، مُعَبِّرًا عن نفْسِه بصيغةِ الجَمعِ التي تدُلُّ على عَظَمتِه تعالى، وذلك يتضمَّنُ عَظَمةَ هذه السورةِ؛ ويدلُّ على وجوبِ امتِثالِ أوامرِها، وما فيها مِن حدودٍ وأحكامٍ وآدابٍ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ تأمَّلْ هذا السِّرَّ العظيمَ مِن أسرارِ التَّنزيلِ، وإعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمَّا ذكَرَ في فاتحةِ سُورةِ النور شناعةَ جَريمةِ الزِّنا، وتحريمَه تحريمًا

= وقال ابن تيميَّة: (والذين لم يَعملوا بهذه الآيةِ ذكَروا لها تأويلًا ونَسخًا؛ أمَّا التأويلُ فقالوا: المرادُ بالنِّكاحِ الوَطءُ... وأمَّا النَّسخُ فقال سعيدُ بنُ المسيِّبِ وطائفةٌ: نسَخَها قَولُه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]). وبيَّن ضَعفَ هذا القولِ. يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١٧٨/٣).

وذهب الحنابلةُ إلى أنَّه يَحرُمُ الزواجُ بالزانيةِ حتى تَتوبَ. يُنظر: ((المبدع في شرح المقنع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٦/ ١٣٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٢).

غائيًّا؛ ذكَرَ سُبحانَه مِن فاتحتِها إلى تمامِ ثلاثٍ وثلاثينَ آيةً أربَعَ عَشْرةَ وسيلةً وقائيَّةً، تحجُبُ هذه الفاحِشةَ، وتقاوِمُ وقوعَها في مجتَمَعِ الطُّهرِ والعَفافِ؛ جماعةِ المسلمينَ، وهي:

الأولى: تطهيرُ الزُّناةِ والزَّواني بالعُقوبةِ الحَدِّيَّةِ.

الثانية: التطهُّرُ باجتنابِ نِكاحِ الزانيةِ وإنكاحِ الزَّواني، إلَّا بعد التَّوبةِ ومَعرفةِ الصِّدقِ فيها.

الثالثة: تطهيرُ الألسنةِ عن رميِ النَّاسِ بفاحشةِ الزِّنا، ومَن قال ولا بيِّنةَ فيُحَدُّ حَدَّ القَذفِ.

الرابعة: تطهيرُ لسانِ الزَّوجِ عن رَميِ زَوجتِه بالزِّنا ولا بَيِّنةَ، وإلَّا فاللِّعانُ.

الخامسة: تطهيرُ النُّفوسِ وحَجبُ القلوبِ عن ظَنِّ السُّوءِ بمُسلمٍ بفعلِ الفاحِشةِ.

السادسة: تطهيرُ الإرادةِ وحَجبُها عن محبَّةِ إشاعةِ الفاحِشةِ في المسلمينَ.

السابعة: الوِقايةُ العامَّةُ بتطهيرِ النَّفْسِ مِن الوساوِسِ والخَطَراتِ التي هي أُولى خُطواتِ الشَّيطانِ في نُفوسِ المؤمِنينَ؛ لِيُوقِعَهم في الفاحشةِ، وهذا غايةٌ في الوقايةِ مِن الفاحِشةِ.

الثامنة: مشروعيَّةُ الاستِئذانِ عندَ إرادةِ دُخولِ البَيتِ؛ حتى لا يقَعَ النَّظَرُ على العَوْراتِ.

التاسعة والعاشرة: تطهيرُ العَينِ مِن النَّظَرِ المحَرَّمِ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ، أو منها إلى الرجُلِ الأجنبيِّ عنها.

الحاديةَ عشرةَ: تحريمُ إبداءِ المرأةِ زينتَها للأجانِبِ عنها.

الثانيةَ عشرةَ: مَنعُ ما يُحَرِّك الرَّجُلَ ويُثيرُه، كضَربِ المرأةِ برِجْلِها؛ لِيُسمَعَ صَوتُ خَلخالِها، فيَجلِبَ ذَوي النُّفوسِ المريضةِ إليها.

الثالثةَ عشرةَ والرابعةَ عشرةَ: الأمرُ بالاستعفافِ لِمَن لا يجِدُ ما يستطيعُ به الزَّواجَ، وفعلِ الأسبابِ(١).

٤- ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قد نهانا اللهُ عزَّ وجلَّ أن تأخذَنا بالزُّناةِ رأفةٌ، بل نُقيم عليهم الحدَّ؛ فكيف بما هو دون ذلك من هَجرٍ وأدبٍ باطنٍ، ونهيٍ وتوبيخٍ وغيرِ ذلك؟! وبهذا يتبيَّنُ لك أنَّ العقوباتِ الشرعيَّةَ كلَّها أدويةٌ نافعةٌ يُصلِحُ اللهُ بها مرَضَ القلوبِ، وهي مِن رحمةِ اللهِ بعبادِه، ورأفتِه بهمُ الدَّاخِلةِ في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فمَن ترَك هذه الرحمةَ النافعةَ لرأفةٍ يَجِدُها بالمريضِ، فهو الذي أعان على عذابِه وهلاكِه، وإنْ كان لا يُريدُ إلا الخيرَ؛ إذ هو في ذلك جاهلٌ أحمقُ، كما يَفعلُه بعضُ النساءِ والرجالِ الجُهَّالِ بمرضاهم وبمَن يُرَبُّونه مِن أولادِهم وغِلمانِهم وغيرِهم، في ترْكِ تأديبِهم وعُقوبتِهم على ما يأتونه مِن الشرِّ، ويتركونَه مِن الخيرِ؛ رأفةً بهم؛ فيكونُ ذلك سببَ فَسادِهم وعداوتِهم وهلاكِهم. ومِن الناسِ مَن تأخذُه الرأفةُ بهم؛ لمشاركتِه لهم في ذلك المرضِ، وذَوقِه ما ذاقوه مِن قوَّةِ الشهوةِ وبُرودةِ القلبِ والدِّياثةِ؛ فيتركُ ما أمَر اللهُ به مِن العقوبةِ، وهو في ذلك مِن أظلَمِ الناس وأديَثِهم في حقِّ نفْسِه ونُظرائِه. ومنهم مَن تأخذُه الرأفةُ؛ لكونِ أحدِ الزانيَينِ مَحبوبًا له، فمَن لم يكن مُبغِضًا للفواحشِ، كارهًا لها ولأهلِها، ولا يَغضبُ عندَ رُؤيتِها وسماعِها؛ لم يكُنْ مريدًا للعقوبةِ عليها، إنَّ الرأفةَ والرحمةَ يُحِبُّهما اللهُ ما لم تكُنْ مضيعةً لِدينِ اللهِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٧ - ٢٩١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه أنَّ الزِّنا حرامٌ، وهو مِن الكَبائرِ، ويدُلُّ عليه أنَّ اللهَ تعالى أوجبَ المئةَ فيها بكَمالِها، بخِلافِ حَدِّ القذفِ وشُربِ الخَمرِ، وشرَع فيه الرَّجْمَ، ونهَى المؤمنينَ عن الرَّأفةِ بِمَن ارتَكبَ هذه الفاحشةَ، وأمَرَ بشهودِ الطائفةِ للتَّشهيرِ(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فيه أنَّ المؤمِنَ الصالِحَ لا يَتزوَّجُ الزانيةَ؛ ذلك لأنَّ الدُّربةَ على الزِّنا يَتكوَّنُ بها خُلُقٌ يُناسِبُ أحوالَ الزُّناةِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ؛ فلا يَرغَبُ في مُعاشرةِ الزانيةِ إلَّا مَن تَرُوقُه أخلاقُ أمثالِها(٢).

٧- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَمَّا أمَرَ الله تعالى بعُقوبةِ الزَّانيينِ حَرَّم مُناكحتَهما على المُؤمنِينَ؛ هَجرًا لهما، ولِمَا معهما مِن الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، وجعَل مُجالِسَ فاعِلِ ذلك المُنكَرِ مِثلَه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، وهو زَوجٌ له، وقد قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: عُشراءَهم وقُرناءَهم، وأشباهَهم ونُظراءَهم؛ ولهذا يُقال: المُستمِعُ شريكُ المُغتابِ، فإذا كانَ هذا في المجالسةِ والعِشْرةِ العارضةِ حينَ فِعلِهم للمنكَرِ يَكونُ مُجالِسُهم مِثْلًا لهم، فكيفَ بالعِشرةِ الدَّائمةِ(٣)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يُستدَلُّ به لِمَا يُصدِّرُ به المؤلِّفون أمامَ كُتبَهم، والشُّروعِ في مَقاصدِهم مِن الخُطبِ والدِّيباجاتِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فيها حُجَجٌ وتوحيدٌ، وفيها دلائِلُ الأحكامِ، والكُلُّ آياتٌ بَيِّناتٌ: حُجَجُ العُقولِ تُرشِدُ إلى مسائِلِ التَّوحيدِ، ودلائِلُ الأحكامِ تُرشِدُ إلى وجهِ الحَقِّ، وترفَعُ غُمَّةَ الجَهلِ، وهذا هو شَرفُ السورةِ، وهو أَقَلُّ ما وقع التحَدِّي به في سَبيلِ المُعجِزةِ؛ فيكونُ شَرفًا للنبيِّ في الوِلايةِ، وشَرفًا لنا في الهدايةِ(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ذَكَر اللهُ سُبحانَه وتعالَى الذَّكَرَ والأُنثَى، و(الزاني) كان يَكفي منهما؛ فقيل: ذَكرَهما للتأكيدِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ ذَكَرَهما هنا لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ الرجُلَ لَمَّا كان هو الواطِئَ، والمرأةُ محلٌّ، ليستْ بواطئةٍ، فلا يجبُ عليها حَدٌّ(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: إنَّ العبدَ إذا زنَى بحُرَّةٍ يُرجَمُ، أو أَمَةٍ يُجلَدُ، وعلى مَن قال: لا تُحَدُّ العاقلةُ إذا زنَى بها مجنونٌ، أو الكبيرةُ إذا زنَى بها صبيٌّ، أو عكسُه لا يُحَدُّ، وعلى مَن قال: لا حدَّ على الزاني بحَربيَّةٍ أو مُسلِمةٍ في بلادِ الحَرْبِ، أو في عَسْكرِ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

أهلِ البغيِ، أو بنَصرانيَّةٍ مُطلقًا، أو بأَمَةِ امرأتِه، أو مَحْرَمٍ، أو مَن استَدخلَتْ ذَكَرَ نائمٍ[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فيه وجوبُ الجلدِ على الزَّاني والزَّانيةِ، وأنَّه مِئةُ جَلدةٍ، أي: في البِكرِ كما بيَّنَتْه السُّنَّةُ[(٢)].

٦- قولُه تعالى: ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّه ليس أحدُهما بأَولَى بالعُقوبةِ مِنَ الآخَرِ[(٣)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يُكتَفَى بالضربِ بها مَجموعةً ضربةً واحدةً، صحيحًا كان أو مريضًا[(٤)]؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾، والذي يَضرِبُ بها مَجموعةً ضربةً واحدةً لم يجلِدْ مئةَ جلدةٍ، إنَّما جلَد جَلدةً[(٥)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ حَدَّ الجَلْدِ هذا يُقامُ عَلانيةً غيرَ سِرٍّ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتقدَّم الكلامُ عن حديثِ عبادةَ بنِ الصَّامتِ في الجمعِ بينَ الجلدِ والرَّجمِ للثيِّبِ (ص: ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

وذهَب الجمهورُ مِن الحنفيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلةِ إلى أنَّ المريضَ مرضًا لا يُرجَى زوالُه يُضرَبُ بها مجموعةً، دَفعةً واحدةً، وذلك في الجملةِ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (٥/ ٢٤٥)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٤/ ١٥٤)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٣٨٣).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمَر تعالى أنْ يَحضُرَ عذابَ الزانيَينِ جماعةٌ مِن المُؤمِنينَ؛ ليشتهرَ ويَحصُلَ بذلك الخزيُ، وليُشاهِدوا الحدَّ فِعلًا؛ فإنَّ مُشاهَدَةَ أحكامِ الشرعِ بالفِعلِ ممَّا يَقْوَى بها العِلمُ، ويستقرُّ به الفَهمُ، ويكونُ أقربَ لإصابةِ الصوابِ؛ فلا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ[1]. وأيضًا فإنَّه أمَر بذلك؛ تحقيقًا لإقامةِ الحدِّ، وحذرًا مِن التساهُلِ فيه؛ فإنَّ الإخفاءَ ذريعةٌ للإنساءِ، فإذا لم يَشْهَدْه المؤمنون فقد يَتساءلون عن عدمِ إقامتِه، فإذا تبيَّنَ لهم إهمالُه فلا يُعدَمُ بيْنهم مَن يقومُ بتغيير المنكَرِ مِن تعطيلِ الحُدودِ.

وفيه فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ مِن مقاصدِ الحدودِ مع عُقوبةِ الجاني: أنْ يَرتدِعَ غيرُه، وبحُضورِ طائفةٍ مِن المؤمنين يتَّعظُ به الحاضرونُ ويَزدَجِرون، ويَشيعُ الحديثُ فيه بنَقْلِ الحاضِرِ إلى الغائِبِ[2].

وفيه أيضًا تنكيلٌ للزَّانيَينِ إذا جُلِدا بحضرةِ النَّاسِ؛ فإنَّ ذلك يكونُ أبلغَ في زجرِهما، وأنجَعَ في رَدعِهما، فإنَّ في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحةً إذا كان النَّاسُ حُضورًا[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، قولُه تعالى: ﴿بِهِمَا رَأْفَةٞ﴾ أي: لِينٌ، ولعلَّه عَبَّر بها إعلامًا بأنَّه لم يَنْهَ عن مُطلَقِ الرحمةِ؛ لأنَّ الرأفةَ أشدُّ الرحمةِ أو أرَقُّها، وتكونُ عن أسبابٍ مِن المرؤوفِ به، وكذا قولُه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذي شَرَعَه لكم المَلِكُ المحيطُ بصِفاتِ الكَمالِ؛ إشارةً إلى أنَّ الممنوعَ منه رحمةٌ تُؤدِّي إلى ترْكِ الحدِّ أو شيءٍ منه، أو التَّهاوُنِ به، أو الرِّضا عن

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨).

مُنتهِكِه، لا رِقَّةُ القلبِ المطبوعُ عليها البشرُ[١].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ فيه الحثُّ على إقامةِ الحدودِ، والنهيُ عن تَعطيلِها، وأنَّه لا يجوزُ العفوُ عنها للإمامِ ولا لغَيرِه، وفيه ردٌّ على مَن أجازَ للسيِّدِ العَفوَ[٢].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ مُوجِبٌ لانتفاءِ هذه الرأفةِ المانعةِ مِن إقامةِ أمْرِ اللهِ؛ فرحمتُه حَقيقةً بإقامةِ حدِّ اللهِ عليه[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ سؤالٌ: أنَّ الرَّأفةَ والرَّحمةَ مِن الانفعالاتِ التي لا يملكُ الإنسانُ ترْكَها، والأمرُ والنهيُ إنما يتوجَّهانِ إلى الأفعالِ الاختياريَّةِ، فكيف يُوَجَّهُ النَّهيُ هنا عمَّا ليس هو مِن الأفعالِ الاختياريَّةِ؟

الجوابُ: أنَّ النهيَ مُتَوَجِّهٌ إلى أن تَحْمِلَ الرأفةُ بهما على المحاباةِ في ترْكِ الحَدِّ، أو تخفيفِه، أو نقصِ العددِ؛ فلا يُقامُ الحَدُّ كما يَنبغي[٤]، أمَّا رِقَّةُ القلبِ التي لا تَمنعُ مِن إقامةِ الحَدِّ كما يَنبغي، فلا يَتعلَّقُ بها النَّهيُ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ «إنْ» تُفيدُ الشكَّ، ومع ذلك تأتي في الكتابِ والسُّنَّةِ في الأمورِ المتحقِّقةِ الوقوعِ كما

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٤) والقاعدةُ: أنَّ مُتعلَّقَ الخِطابِ إذا كان مَقدورًا حُمِل عليه، وإنْ كان غيْرَ مَقدورٍ صُرِف الخِطابُ للأثرِ أو سَببِه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤-٧٨٧). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٨، ٣٤٩) و(٤/ ١٨٦-١٨٨) و(٥/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٢، ٣٣).

هنا، وكما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]؟

الجوابُ: قدِ اختلفَ الكوفيُّونَ والبصريُّونَ في الجوابِ عن ذلك؛ فالكوفيُّون يقولون: إنَّها في كلِّ المواضعِ للتَّعليلِ؛ فهي مُطَّرِدةٌ عندَهم بهذا المعنى.

وأمَّا البصريُّون فيقولون: إنْ جاءتْ مع فعْلِ المشيئةِ كما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، فالشرطُ دَخَل على أمْرٍ مُحَقَّقٍ؛ وليس المرادُ منه الشكَّ، بلِ المرادُ تعليمُ الخلائقِ بألَّا يتحَدَّثوا عن المستقبلِ إلَّا بالمشيئةِ، وإنْ لم تكنْ مع فعْلِ المشيئةِ -كما في هذه الآيةِ التي نحنُ بصددِها: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ﴾- فهي شرطيَّةٌ لم يُجَأْ بها لتعليقِ الجزاءِ على الشرطِ، بل جِيءَ بها للتَّهييجِ والحثِّ على العملِ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ، كما يقالُ: «إنْ كنتَ ابنَ الكرامِ فافعَلْ كذا»، وأنت لا تشكُّ في كونِه ابنَ الكرامِ؛ ولكنْ تَحُثُّه على العملِ[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا﴾ المرادُ بالعذابِ هنا: الجَلْدُ المنصوصُ عليه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الجَلْدَ يُسمَّى عذابًا[2].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فأخْبَر الله تعالى أنَّ الزَّانيَ لا يَنكحُ إلَّا زانيةً أو مشركةً، ثم قال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ الإيمانَ يَمنعُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٤).

ذلك ويَزجُرُ؛ وأنَّ فاعلَه إمَّا مُشركٌ وإمَّا زانٍ؛ ليس مِن المؤمنين الذين يَمنعُهم إيمانُهم من ذلك؛ فإنَّ كمالَ الإيمانِ وحقيقتَه يمنعُ ذلك، فلا يَقَعُ إلَّا عندَ نوعِ ضَعفٍ في الإيمانِ، وفي الصَّحيحِ: ((لا يَزني الزَّاني حِين يَزني وهو مُؤمِنٌ))[1]، فسَلَبه حقيقةَ الإيمانِ الَّتي بها يستحِقُّ حُصولَ الثَّوابِ والنَّجاةِ مِن العقابِ؛ وإنْ كانَ معَه أصلُ الإيمانِ الَّذي يُفارِقُ به الكفَّارَ، ويَخرُجُ به مِن النَّارِ[2].

١٧- إذا كان رَجُلٌ له جاريةٌ تَزني؛ فليس له أنْ يَطَأَها حتَّى تَحيضَ ويَستبرِئَها مِن الزِّنا؛ فإنَّ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ عَقدًا ووطْئًا، ومتى وَطِئَها -مع كونِها زانيةً- كان دَيُّوثًا[3].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أَسندَ النِّكاحَ في الموضِعَينِ إلى الرَّجُلِ؛ تنبيهًا إلى أنَّ النساءَ لا حَقَّ لهنَّ في مُباشَرةِ العَقدِ[4]، وذلك بِناءً على أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ هاهنا: العقدُ.

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ صريحٌ على تَحريمِ نِكاحِ الزانيةِ حتى تَتوبَ، وكذلك إنكاحُ الزاني حتَّى يتوبَ؛ فإنَّ مُقارَنةَ الزوجِ لزوجتِه، والزوجةِ لزَوجِها أشدُّ الاقتراناتِ والازدِواجاتِ، وقد قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: قُرناءَهم؛ فحرَّمَ اللهُ ذلك؛ لِمَا فيه مِن الشرِّ العظيمِ، ممَّا بعضُه كافٍ للتحريمِ[5]، وذلك أنَّ الزانيةَ فيها إفسادُ فِراشِ الرَّجُلِ،

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٦)، (٢٠/ ١٢٤)، (٢٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

وفي مُناكحتِها مُعاشرةُ الفاجرةِ دائمًا ومصاحبتُها، والله قدْ أمَرَ بهَجرِ السُّوءِ وأهلِه ما داموا عليه، وهذا المعنى موجودٌ في الزاني؛ فإنَّ الزانيَ إنْ لم يُفسِدْ فراشَ امرأتِه كان قَرينَ سُوءٍ لها، كما قال الشعبيُّ: (مَن زَوَّجَ كريمتَه من فاسقٍ فقدْ قطَعَ رَحِمَها)(١)، وهذا ممَّا يَدخُلُ به على المرأةِ ضَررٌ في دِينها ودُنياها؛ فنِكاحُ الزانيةِ أشدُّ مِن جِهةِ الفراشِ، ونِكاحُ الزاني أشدُّ من جِهةِ أنَّه السيِّدُ المالكُ الحاكمُ على المرأةِ؛ فتَبقَى المرأةُ الحُرَّةُ العفيفةُ في أَسْرِ الفاجرِ الزاني، الذي يُقصِّرُ في حُقوقِها، ويَتعدَّى عليها(٢).

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على تحريمِ نِكاحِ الزَّواني والزُّناةِ على الأعفَّاءِ والعفائفِ، ويدُلُّ لذلك قولُه: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ [النساء: ٢٥]، وقولُه: ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ بعُمومِها على خِلافِ ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٤]؟

والجواب عن هذا مُختَلَفٌ فيه اختلافًا مَبنيًّا على الاختلافِ في حُكمِ تَزوُّجِ العفيفِ للزَّانيةِ، أو العفيفةِ للزَّاني؛ فمَن يقولُ: هو حرامٌ، يقولُ: هذه الآيةُ مُخصِّصةٌ لعُمومِ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾، وعُمومِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾، والذين يقولون بعَدمِ المنعِ -وهُم الأكثرُ- أجابوا بأجوبةٍ:

الأوَّل: أنَّها مَنسوخةٌ بقولِه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾.

الثَّاني: أنَّ النِّكاحَ في هذه الآيةِ الوطءُ؛ وعليه فالمرادُ بالآيةِ أنَّ الزَّانيَ لا يُطاوِعُه

(١) الأثر في: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٤/ ٣١٤)، ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (١١/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٦).

على فِعلِه ويُشارِكُه في مُرادِه إلَّا زانيةٌ مِثلُه، أو مُشرِكةٌ لا ترَى حُرمةَ الزِّنا.

الثَّالث: أنَّ هذا خاصٌّ؛ لأنَّه كان في نِسوةٍ بَغايا، كان الرَّجُلُ يتزوَّجُ إحداهُنَّ على أنْ تُنفِقَ عليه ممَّا كَسَبَتْه مِن الزِّنا؛ لأنَّ ذلك هو سببُ نزولِ الآيةِ؛ فزَعَم بعضُهم أنَّها مُختَصَّةٌ بذلك السببِ؛ بدليلِ قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[١].

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لو زَوَّجَ الأبُ عفيفةً بفاجِرٍ؛ فإنَّ النِّكاحَ فاسِدٌ[٢].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنَّما خَصَّهم بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هم المنتَفِعون بالأمرِ والنَّهيِ، والتَّحليلِ والتحريمِ؛ فلا دليلَ فيه لِمَن يقولُ: إنَّ الكفَّارَ ليسوا مخاطَبينَ بفروعِ الشَّريعةِ[٣]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿سُورَةٌ﴾ خبرُ مبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هذه سُورةٌ، وإنَّما أُشيرَ إليها مع عَدمِ سَبْقِ ذِكْرِها؛ لأنَّها باعتِبارِ كَونِها في شرَفِ الذِّكرِ في حُكْمِ الحاضِرِ المُشاهَدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص:١٦٧). وقال الشنقيطي عن الجوابِ الثالثِ: (وهذا أضعفُها).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

- قَولُه: ﴿أَنزَلْنَهَا وَفَرَضْنَهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ صِفاتٌ لـ﴿سُورَةٌ﴾، والمقصودُ مِن تلكَ الأوصافِ: التَّنْويهُ بهذه السُّورةِ؛ ليُقْبِلَ المُسلِمونَ على تَلقِّي ما فيها. وفي ذلكَ امتِنانٌ على الأُمَّةِ بتَحديدِ أحكامِ سِيرتِها في أحوالِها؛ ففي قولِه: ﴿أَنزَلْنَهَا﴾ تَنْويهٌ بالسُّورةِ بما يَدُلُّ عليه (أَنزَلْنا) مِنَ الإسنادِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ الدَّالِّ على العِنايةِ بها وتَشريفِها. والمَقصودُ مِن إسنادِ إنزالِها إلى اللهِ تعالى: تَنْويهٌ بها. وعَبَّرَ عن إنزالِها بصِيغةِ المُضِيِّ -وإنَّما هو واقِعٌ في الحالِ- باعتِبارِ إرادةِ إنزالِها، فكأنَّه قيل: أرَدْنا إنزالَها وإبلاغَها، فجَعَل ذلكَ الاعتِناءَ كالماضي؛ حِرصًا عليه. وهذا مِن استِعمالِ الفِعلِ في معنى إرادةِ وُقوعِه[1]. وقولُه: ﴿أَنزَلْنَهَا ...﴾ مع ما عُطِفَ عليه صِفاتٌ للسُّورةِ، مُؤكِّدةٌ لِما أفادَه التَّنكيرُ مِنَ الفَخامةِ مِن حيثُ الذَّاتُ بالفَخامةِ مِن حيثُ الصِّفاتُ[2].

- قَولُه: ﴿وَفَرَضْنَهَا﴾، أي: فَرَضْنا ما بُيِّن فيها، وإنَّما قال ذلكَ؛ لأنَّ أكثَرَ ما في هذه السُّورةِ مِن بابِ الأَحكامِ والحُدودِ[3]؛ فقولُه: ﴿وَفَرَضْنَهَا﴾ بمَنزلةِ بَراعةِ الاستِهلالِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا ...﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ مِنَ الأحكامِ كالتَّفصيلِ[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَفَرَضْنَهَا﴾ مِنَ الإيذانِ بغايةِ وكادةِ الفَرْضيَّةِ ما لا يَخفَى[5].

- قَولُه: ﴿وَفَرَضْنَهَا﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ هكذا ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾؛ لِلمُبالَغةِ في الإيجابِ وتَوكيدِه، أو لأنَّ فيها فرائضَ شتَّى، أو لكثرةِ المفروضِ عليهم[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

- وقولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إنْ أُريدَ بها الآياتُ الَّتي نِيطَتْ بها الأَحكامُ المَفروضةُ، فتكريرُ (أَنْزَلْنَا) مع استِلزامِ إنزالِ السُّورةِ لإنزالِها؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بشأْنِها. وإنْ أُريدَ جَميعُ الآياتِ، فتكريرُ (أَنْزَلْنَا) مع أنَّ جميعَ الآياتِ عَيْنُ السُّورةِ، وإنزالَها عَيْنُ إنزالِها؛ لاستِقلالِها بعُنوانٍ رائقٍ داعٍ إلى تَخصيصِ إنزالِها بالذِّكرِ؛ إبانةً لخَطَرِها، ورَفعًا لمَحلِّها[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تَنْويهٌ آخَرُ بهذه السُّورةِ؛ تَنويهٌ بكلِّ آيةٍ اشتَملَتْ عليها السُّورةُ: مِنَ الهَدْيِ إلى التَّوحيدِ، وحَقِّيَّةِ الإسلامِ، ومِن حُجَجٍ وتَمثيلٍ، وما في دَلائلِ صُنعِ اللهِ على سَعةِ قُدرتِه وعِلْمِه وحِكْمتِه، وهي ما أشارَ إليه قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ إلى قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٣ - ٤٦]. ومِنَ الآياتِ البَيِّناتِ الَّتي أُنزِلَتْ فيها: إطْلاعُ اللهِ رسولَه على دَخائلِ المُنافِقينَ ممَّا كَتَموه في نُفوسِهم، مِن قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٤٨- ٥٣]؛ فحَصَل التَّنويهُ بمَجموعِ السُّورةِ ابتِداءً، والتَّنويهُ بكلِّ جُزءٍ منها ثانيًا؛ فالمرادُ مِنَ الآياتِ المُنزَّلةِ في هذه السُّورةِ: جَميعُ ما اشتَملَتْ عليه مِنَ الآياتِ، لا آياتٌ مَخصوصةٌ مِن بَيْنِها. والمَقصودُ: التَّنويهُ بآياتِها، بإجراءِ وَصْفِ (بَيِّناتٍ) عليها[٢].

- قَولُه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ حَقَّها أنْ تَكونَ على ذُكْرٍ منهُم، بحيثُ

= (٨/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٣، ١٤٤).

متى مَسَّتِ الحاجةُ إليها استَحضَرُوها[١].

- وجُملةُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُرتبطةٌ بجُملةِ: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لأنَّ الآياتِ بهذا المعنى مَظِنَّةُ التَّذكُّرِ، أي: دلائِلُ، مَظِنَّةٌ لحُصولِ تذكُّرِكُم؛ فحَصَلَ بهذا الرَّجاءِ وَصْفٌ آخَرُ للسُّورةِ، هو: أنَّها مَبعَثُ تَذكُّرٍ وعِظَةٍ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ابتِداءُ كلامٍ، وهو كالعُنوانِ والتَّرجمةِ في التَّبويبِ؛ فلذلكَ أُتِيَ بَعدَه بالفاءِ المُؤْذِنةِ بأنَّ ما بَعدَها في قُوَّةِ الجوابِ، وأنَّ ما قَبْلَها في قُوَّةِ الشَّرطِ؛ فالتَّقديرُ: الزَّانيةُ والزَّاني ممَّا أُنزِلَتْ له هذه السُّورةُ وفُرِضَتْ. ولَمَّا كان هذا يَستَدعي استِشرافَ السَّامعِ، كان الكلامُ في قُوَّةِ: إنْ أرَدْتُم حُكْمَهما فاجْلِدوا كلَّ واحدٍ منهُما مئةَ جَلْدةٍ[٣]. وإنَّما بُدِئَ بالزِّنا، مع أنَّ السُّورةَ تَضمَّنَتْ أحكامًا كثيرةً فيما يَتعلَّقُ بالزِّنا ونِكاحِ الزَّواني، وقَذْفِ المُحْصَناتِ، والتَّلاعُنِ، والحِجابِ، وغَيرِ ذلكَ؛ لقُبحِ الزِّنا، وما يَحدُثُ عنه مِنَ المَفاسدِ والعارِ[٤].

- وقُدِّمَ ذِكْرُ الزَّانيةِ على الزَّاني للاهتِمامِ بالحُكمِ؛ لأنَّ المرأةَ هي الباعِثُ على زِنَا الرَّجُلِ، وبمُساعَفَتِها الرَّجُلَ يَحصُلُ الزِّنا، ولو مَنَعَتِ المرأةُ نفْسَها ما وَجَد الرَّجُلُ إلى الزِّنا تَمكينًا؛ فتَقديمُ المرأةِ في الذِّكْرِ لأنَّه أشَدُّ في تَحذيرِها، ولأنَّها أصلُ الفِتنةِ بهَتْكِ ما أُمِرَتْ به مِن حِجابِ التَّستُّرِ والتَّصوُّنِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧).

والتَّحذُّرِ[١]. وقيل: قُدِّمَتْ لأنَّ زِناها أفحَشُ وأكثَرُ عارًا، وهو لأجلِ الحَبَلِ أضَرُّ؛ فقدَّمها لأنَّ أثَرَ الزِّنا يَبدُو عليها مِن الحَبَلِ وزَوالِ البَكارةِ، وحالُ النِّساءِ الحَجبَةُ والصِّيانةُ؛ فقَدَّمَ ذِكْرَهُنَّ تَغليظًا واهتمامًا[٢]. وقيل: قُدِّمتِ الزانيةُ في الآيةِ؛ لأنَّه في ذلك الزَّمانِ كان زِنَا النساءِ فاشيًا، وكان لإماءِ العربِ وبغايا الوقتِ راياتٌ، وكُنَّ مُجاهِراتٍ بذلك[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاءَ قولُه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآيةَ، فقُدِّمَتِ المرأةُ في آيةِ حَدِّ الزِّنا، وأُخِّرَتْ في آيةِ حدِّ السَّرِقةِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أمَّا وجهُ تقديمِ المرأةِ في آيةِ حَدِّ الزِّنا فقد سبَق، وأمَّا وجهُ تقديمِ الرجُلِ في آيةِ حدِّ السَّرِقةِ فلأنَّ السَّرِقةَ إنَّما تَتولَّدُ مِنَ الجَسارةِ والقُوَّةِ والجُرأةِ، وهي مِنَ الرَّجُلِ أَقوى وأكثَرُ[٤].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ سؤالٌ: ما الموجِبُ لدخولِ الفاءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾؟

والجوابُ: ما ذَكَرَه بعضُ العلماءِ مِن أنَّ الموصولَ إذا تضمَّنَ معنى الشرطِ دخلتِ الفاءُ في خبرِه، و(أل) في: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ موصولةٌ مضمَّنةٌ الشَّرطَ؛ لأنَّها دخلَتْ على صفةٍ صريحةٍ، والمعنى: إذا زنَيَا فاجلِدوهما[٥].

- قَولُه: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ في لَفظِ الجَلْدِ إشارةٌ إلى أنَّه لا يَنبَغي أنْ يَتجاوَزَ الألمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٥، ٢٦).

إلى اللَّحمِ؛ لأنَّ الجَلْدَ ضَرْبُ الجِلْدِ، أي: لا يَكونُ الضَّربُ يُطيِّرُ الجِلْدَ حتَّى يَظهَرَ اللَّحمُ؛ فاختيارُ هذا اللَّفظِ دُون الضَّربِ مَقصودٌ به الإشارةُ إلى هذا المعنى على طَريقةِ الإدماجِ[1].

- قَولُه: ﴿كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ تأكيدٌ للعُمومِ المُستفادِ مِنَ التَّعريفِ في ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾؛ فلمْ يَكتَفِ بأنْ يُقالَ: فاجلِدوهُما، كما قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[2] [المائدة: ٣٨]، ولئلاَّ يُتوهَّمَ أنَّ المئةَ بيْنَهما مُناصَفةً.

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ قُدِّمَ المَجرورُ ﴿بِهِمَا﴾ على عامِلِه ﴿رَأْفَةٌ﴾؛ للاهتِمامِ بذِكْرِ الزَّاني والزَّانيةِ؛ تَنبيهًا على الاعتِناءِ بإقامةِ الحدِّ. والنَّهيُ عن أنْ تأخُذَهم رَأفةٌ: كِنايةٌ عنِ النَّهيِ عن أثَرِ ذلك، وهو تَرْكُ الحدِّ أو نَقْصُه أو تخفيفُه[3].

- وعُلِّقَ بالرَّأفةِ قولُه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ أنَّها رَأفةٌ غيرُ مَحمودةٍ؛ لأنَّها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٧).

والإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٥٠).

تُعطِّلُ دِينَ اللهِ، أي: أحكامَه، وإنَّما شَرَعَ اللهُ الحدَّ استِصلاحًا؛ فكانتِ الرَّأفةُ في إقامتِه فَسادًا. وفيه تَعريضٌ بأنَّ اللهَ الَّذي شَرَعَ الحدَّ هو أرأفُ بعِبادِه مِن بعضِهم ببَعضٍ[١].

وقيل: سرُّ تقييدِ النَّهيِ عنِ الرأفةِ بقولِه تعالى: ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾، هو أنَّ الرِّقَّةَ إذا منَعَتْ مِن إقامةِ الحَدِّ فهي واقعةٌ في دينِ اللهِ، ودينُ اللهِ هو الإسلامُ، ويدخلُ فيه الأوامِرُ والنَّواهي والحدودُ، وغيرُ ذلك ممَّا يَشملُه الدِّينُ[٢].

- وجُملةُ: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ شَرْطٌ مَحذوفُ الجوابِ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: إنْ كنتُم مُؤمِنينَ فلا تأخُذْكُم بهِما رَأفةٌ، أي: لا تؤَثِّرْ فيكُم رَأفةٌ بهما. والمقصودُ: شِدَّةُ التَّحذيرِ مِن أنْ يَتأثَّروا بالرَّأفةِ بهما، بحيثُ يُفرَضُ أنَّهم لا يُؤْمِنونَ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ مِن بابِ التَّلهيبِ والتَّهييجِ والغضبِ للهِ، حتَّى يقولَ السَّامعُ: كيف لا أُومِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؟! فإنَّ الإيمانَ بهما يَقتضِي الجِدَّ في طاعتِه تعالى، والاجتهادَ في إجراءِ أحكامِه، وذُكِرَ اليومُ الآخِرُ؛ لتَذكيرِ ما فيه مِن العِقابِ في مُقابلةِ المُسامحةِ والتَّعطيلِ[٤].

- وعَطْفُ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ على الإيمانِ باللهِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ للتَّذكيرِ بأنَّ الرَّأفةَ بهما في تَعطيلِ الحدِّ أو نَقْصِه نِسيانٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠، ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٢، ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦١، ٥٦٢).

لليومِ الآخِرِ؛ فإنَّ تلكَ الرَّأفةَ تُفضِي بهما إلى أنْ يُؤخَذَ منهما العِقابُ يومَ القيامةِ؛ فهي رَأفةٌ ضارَّةٌ، كرَأفةِ تَرْكِ الدَّواءِ للمَريضِ؛ فإنَّ الحُدودَ جَوابرُ على ما تُؤْذِنُ به أدِلَّةُ الشَّريعةِ[1].

- قَولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سَمَّى الجَلدَ عذابًا؛ إذْ فيه إيلامٌ وافتِضاحٌ، وهو عُقوبةٌ على ذلك الفِعلِ[2]. وقولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ زِيادةٌ في التَّنكيلِ؛ فإنَّ التَّفضيحَ قد يُنكِّلُ أكثَرَ ممَّا يُنكِّلُ التَّعذيبُ[3]. واختِصاصُه المُؤمِنينَ؛ لأنَّ ذلك أفضَحُ، والفاسقُ بيْنَ صُلَحاءِ قَومِه أخجَلُ[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَوقِعُ هذه الآيةِ مَوقِعُ المَقصودِ مِنَ الكلامِ بَعدَ المُقدِّمةِ؛ ولذلك جاءَتْ مُستأنَفةً كما تَقَعُ النَّتائجُ بَعدَ أدِلَّتِها، وقُدِّمَ قَبْلَها حُكْمُ عُقوبةِ الزِّنا؛ لإفادةِ حُكْمِه وما يَقتَضيه ذلك مِن تَشنيعِ فِعْلِه[5].

- وقولُه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ حُكْمٌ مُؤَسَّسٌ على الغالبِ المُعتادِ؛ جِيءَ به لزَجْرِ المُؤمِنينَ عن نِكاحِ الزَّواني -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، بَعدَ زَجْرِهم عنِ الزِّنا بهنَّ، كأنَّه قيلَ: الزَّاني لا يَرغَبُ إلَّا في نِكاحِ إحداهما، والزَّانيةُ لا يَرغَبُ في نِكاحِها إلَّا أحدُهُما، فلا تَحومُوا حَولَه؛ كيْ لا تَنتَظِموا في سِلْكِهما، أو تَتَّسِموا بِسمَتِهما؛ فإيرادُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٦).

الجُملةِ الأُولى مع أنَّ مَناطَ التَّنفيرِ هي الثَّانيةُ؛ إمَّا للتَّعريضِ بقَصْرِهم الرَّغبةَ عليهِنَّ، أو لتأكيدِ العَلاقةِ بيْن الجانِبَينِ؛ مُبالَغةً في الزَّجرِ والتَّنفيرِ. وعَدَمُ التَّعرُّضِ في الجُملةِ الثَّانيةِ للمُشرِكةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَناطَ الزَّجرِ والتَّنفيرِ هو الزِّنا لا مُجرَّدُ الإشراكِ، وإنَّما تُعرِّضَ لها في الأُولى؛ إشباعًا في التَّنفيرِ عنِ الزَّانيةِ بنَظْمِها في سِلْكِ المُشرِكةِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَتِ الزَّانيةُ على الزَّاني أوَّلًا، ثمَّ قُدِّمَ عليها ثانيًا؛ وذلك لأنَّ تلك الآيةَ سِيقَتْ لعُقوبَتِهما على ما جَنَيَا، والمرأةُ هي المادَّةُ الَّتي منها نَشأتِ الجِنايةُ؛ لأنَّها لو لمْ تُطْمِعِ الرَّجُلَ، ولمْ تُومِضْ له، ولمْ تُمكِّنْه: لمْ يَطمَعْ ولمْ يَتمكَّنْ؛ فلمَّا كانتْ أصْلًا وأوَّلًا في ذلك بدَأَ بذِكْرِها، وأمَّا الثَّانيةُ فمَسوقةٌ لذِكْرِ النِّكاحِ، والرَّجُلُ أصْلٌ فيه؛ لأنَّه هو الرَّاغِبُ والخاطِبُ، ومنه يَبدأُ الطَّلَبُ[٢]. وقيل: لأنَّ سبَبَ نُزولِ هذه الآيةِ كان رَغبةَ رَجُلٍ في تَزوُّجِ امرأةٍ تَعوَّدَتِ الزِّنا؛ فكان المَقامُ مُقتَضيًا الاهتِمامَ بما يَترتَّبُ على هذا السُّؤالِ مِن مَذمَّةِ الرَّجُلِ الَّذي يَتزوَّجُ مِثْلَ تلك المرأةِ[٣].

- وعَطْفُ قولِه: ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ على ﴿زَانِيَةً﴾، وقولِه: ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ على ﴿إِلَّا زَانٍ﴾؛ لِزيادةِ التَّفظيعِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تكميلٌ للمَقصودِ مِنَ الجُملتينِ قَبْلَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٣، ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٥٦).

وهو تَصريحٌ بما أُريدَ مِن تَفظيعِ نِكاحِ الزَّانيةِ، ببَيانِ الحُكْمِ الشَّرعيِّ في القَضيَّةِ، وعُطِفَتِ الجُملةُ؛ لأنَّها أفادَتْ تَكميلًا لِما قبلَها، وشأْنُ التَّكميلِ أنْ يكونَ بطَريقِ العَطفِ[1].

- قَولُه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا كان معنَى الآيةِ على الخَبرِ؛ فيَكونُ فيه التَّعبيرُ عنِ التَّنزيهِ بالتَّحريمِ؛ مُبالَغةً في الزَّجرِ، وإذا كان مَعناها النَّهيَ؛ فقولُه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مؤكِّدٌ لمعنَى النَّهيِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

الآيتان (٤-٥)

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَرۡمُونَ﴾: أي: يَشتُمون، ويَقْذِفون بالزِّنَا، وأصْلُ (رمي): نَبْذُ الشَّيءِ[1].

﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾: أي: ذواتَ الأزواجِ، والمُحْصَناتُ أيضًا: الحرائرُ وإنْ لم يكُنَّ مُتزوِّجاتٍ، والعفائفُ، وأصْلُ (حصن): الحِفْظُ والحِياطةُ والحِرْزُ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى تشريعًا آخَرَ يكفُلُ حمايةَ الأعراضِ، فيقولُ مبيِّنًا حدَّ القذفِ: والذين يَقذِفونَ المسلماتِ الحرائرَ المكلَّفاتِ العَفيفاتِ بالفاحشةِ دونَ أن يشهَدَ معهم أربعةُ شُهداءَ مِن الرجالِ العدولِ، فيُجلَدُ كلُّ واحدٍ منهم ثمانينَ جَلدةً، ولا تُقبَلُ لهم شهادةٌ أبدًا، وأولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ الله، إلَّا الذين تابوا ونَدِموا على ما فعَلوا، وأصلحوا أعمالَهم؛ فإنَّ اللهَ يغفِرُ ذنوبَهم ويرحَمُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٥).

قال الرازي: (الإحصان... مأخوذٌ مِن منْعِ الفرْجِ، فإذا تزوَّجَتْ منعَتْه إلَّا مِن زَوجِها، وغيرُ المُتزوِّجةِ تَمنَعُه كلَّ أحدٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نفَّرَ اللهُ تعالى مِن نكاحِ مَنِ اتَّصفَ بالزِّنا مِن رجُلٍ أو امرأةٍ- عطَفَ على ذلك تَحريمَ القذْفِ بما يُوجِبُ تَعظيمَ الرَّغبةِ في السَّترِ، وصِيانةِ الأعراضِ، وإخفاءِ الفواحشِ[١].

وأيضًا لَمَّا عظَّمَ اللهُ تعالى أمْرَ الزَّاني بوُجوبِ جَلْدِه، وكذا رَجْمُه إنْ كان مُحصَنًا، وأنَّه لا تَجوزُ مُقارَنتُه، ولا مُخالَطتُه على وَجْهٍ لا يَسلَمُ فيه العبْدُ مِنَ الشَّرِّ- بيَّنَ تعالى تَعظيمَ الإقدامِ على الأعراضِ بالرَّميِ بالزِّنا؛ فقال[٢]:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾.

أي: والَّذين يَقْذِفون[٣] المسلماتِ الحرائرَ المكلَّفاتِ العَفيفاتِ[٤] بالزِّنا، ولم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٣) حكى الرازي الاتفاقَ على دُخولِ الكافرِ تحتَ عُمومِ قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾، قال: (لأنَّ الاسمَ يتناولُه). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿يَرۡمُونَ﴾ معناهُ: يَقْذِفون المُحْصَناتِ بالزِّنا صريحًا، أو ما يَستلزِمُ الزِّنا؛ كنَفْيِ نسَبِ ولَدِ المُحْصَنةِ عن أبيهِ؛ لأنَّه إنْ كان مِن غَيرِ أبيه كان مِن زِنًا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٢٨).

(٤) قال البِقَاعيُّ: (﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ جمعُ مُحصَنةٍ، وهي هنا المُسلِمةُ، الحُرَّةُ، المُكلَّفةُ، العَفيفةُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢١٤).

وقال الرازيُّ: (ظاهِرُ الآيةِ يَتناوَلُ جميعَ العفائفِ؛ سواءٌ كانت مُسلمةً أو كافرةً، وسواءٌ كانت حُرَّةً أو رقيقةً، إلَّا أنَّ الفُقهاءَ قالوا: شرائطُ الإحصانِ خمسةٌ: الإسلامُ، والعقْلُ، والبُلوغُ، =

يُحضِروا أربعةً مِنَ الرِّجالِ العُدولِ؛ لِيَشْهدوا علَيهِنَّ أنَّهم رأَوْهُنَّ يَفعلْنَ الزِّنا؛ فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهم ثمانينَ جَلدةً؛ عُقوبةً لهم على القذفِ بلا بيِّنةٍ[1].

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾.

أي: ولا تَقْبَلوا للقاذِفِينَ بعدَ جَلدِهم شَهادةً في بَقيَّةِ حياتِهم؛ عُقوبةً أُخرى لهم على مَعصيَتِهم[2].

= والحُرِّيةُ، والعِفَّةُ مِن الزِّنا). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

وهذه الشرائطُ الخمسةُ اتفقَتْ عليها المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ، وخالَف الحنابلةُ في البلوغِ؛ فقالوا: لا يُشترَطُ في المَقذوفِ البلوغُ، بل أن يَكونَ مِثلُه يَطأُ أو يُوطأُ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٧/ ٤٠)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٨/ ٨٦)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٧/ ٤٣٧،١٠٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ١٠٥).

وقال القرطبيُّ: (قذفُ الرِّجالِ داخلٌ في حُكمِ الآيةِ بالمعنى، وإجماعِ الأُمَّةِ على ذلك... وحكى الزَّهراويُّ أنَّ المعنى: الأنفُسَ المُحْصناتِ؛ فهي بلَفْظِها تعُمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ، ويدُلُّ على ذلك قولُه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٤]). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٢). وممَّن حكى الإجماعَ أيضًا: ابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩).

قال ابنُ عاشورٍ: (الشُّهداءُ الأربعةُ هم غيرُ القاذِفِ؛ لأنَّ معنى: ﴿يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ لا يتحقَّقُ فيما إذا كان القاذِفُ مِن جُملةِ الشُّهداءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

قال الشنقيطيُّ: (يُشترَطُ في شُهودِ الزِّنا أنْ يكونوا ذُكورًا، ولا تصِحُّ فيه شَهادةُ النِّساءِ بحالٍ، ولا نعلَمُ أحدًا مِن أهلِ العلْمِ خالَفَ في ذلك، إلَّا شيئًا يُروى عن عطاءٍ وحمَّادٍ: أنَّه يُقبَلُ فيه ثلاثةُ رجالٍ وامرأتانِ. وقال ابنُ قُدامةَ في «المُغْني»: وهو شُذوذٌ لا يُعوَّلُ عليه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٧٣). ويُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١). =

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

أي: وأُولئِكَ القاذِفونَ هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ(١).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾.

أي: إلَّا الَّذين نَدِموا على قَذْفِهم، وأقلَعوا عن مَعصيةِ القذفِ بعدَ وُقوعِهم فيها، وعَزَموا على عدَمِ العودةِ إليها(٢)، ....

= قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ فهذا نَصٌّ في أنَّ هؤلاء القَذَفةَ لا تُقبَلُ لهم شَهادةٌ أبدًا، واحدًا كانوا أو عَددًا؛ بلْ لفظُ الآيةِ يَنتظِمُ العدَدَ على سَبيلِ الجمْعِ والبدَلِ؛ لأنَّ الآيةَ نزَلَت في أهْلِ الإفكِ باتِّفاقِ أهْلِ العلْمِ والحديثِ والفِقهِ والتَّفسيرِ، وكان الَّذين قَذَفوا عائشةَ عددًا، ولم يَكونوا واحدًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٨/ ٥٠٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٢) قال ابن عطية: (تضَمَّنَت الآيةُ ثلاثةَ أحكامٍ في القاذِفِ: جَلْدَه، ورَدَّ شهادتِه أبدًا، وفِسقَه؛ فالاستِثناءُ غيرُ عاملٍ في جَلْدِه بإجماعٍ، وعامِلٌ في فِسْقِه بإجماعٍ، واختَلَف النَّاسُ في عَمَلِه في رَدِّ الشَّهادةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٥).

ممَّن نَقَل الاتِّفاقَ أيضًا على أنَّ الاستثناءَ لا يَرجِعُ إلى جملةِ الجَلْدِ، وأنَّ القاذِفَ إذا تاب وأصلَحَ لا يَسقُطُ عنه حَدُّ القَذفِ بالتَّوبةِ: ابنُ جرير، وابنُ رُشْد، وابن كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١).

قال الشنقيطي: (الجُملةُ الأُولى التي هي: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةٗ﴾ لا يَرجِعُ لها الاستِثناءُ في قَولِ عامَّةِ أهلِ العِلمِ، ولم يخالِفْ إلَّا مَن شَذَّ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣٢).

وممَّن نَقَل الاتِّفاقَ أيضًا على أنَّ الفِسقَ يَزولُ بالتَّوبةِ، وأنَّ الجُملةَ الأخيرةَ التي هي قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ يَرجِعُ لها الاستِثناءُ: ابنُ جرير، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٢).

واختَلَفوا في قَبولِ الشَّهادةِ بعد التَّوبةِ؛ فذَهَب الجُمهورُ إلى أنَّ الاستِثناءَ عامِلٌ في رَدِّ =

= الشَّهادةِ، فإذا تاب القاذِفُ قُبِلَت شَهادتُه، ومِمَّن نَسَبه إلى الجُمهورِ: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، ونسبه الرازيُّ إلى أكثرِ الصَّحابةِ والتابعينَ، وممَّن اختاره: السعديُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥).

وهو مذهَبُ جُمهورِ الفُقَهاءِ مِنَ المالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٤/ ٢٤٦)، ((البيان في مذهب الإمام الشافعي)) للعمراني (١٣/ ٣١٧)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٥٩٠).

قال مكِّيٌّ: (وهو مذهَبُ أكثَرِ الفُقَهاءِ؛ منهم: الشَّعْبيُّ، والزُّهْري، وأبو الزناد، ومالكٌ، والشافعيُّ، وأحمدُ، وإسحاق، وأبو ثور، وأبو عبيد، وهو قول عُمرَ بنِ الخطابِ، وابن أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وعطاء، ومجاهد، وطاوُس، وبه قال عُمرُ بن عبد العزيز، وعبد الله بن عتبة، وابنُ المسَيِّب.(((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٨/ ٥٠٣٤).

وقال أبو حيان: (وقد وقَعَ الخِلافُ في قَبولِ شهادتِهم إذا تابوا؛ بِناءً على أنَّ هذا الاستثناءَ راجِعٌ إلى جُملةِ النَّهيِ، وجملةِ الحُكم بالفِسقِ، أو هو راجِعٌ إلى الجملةِ الأخيرةِ، وهي الثَّالِثةُ، وهي الحُكمُ بفِسقِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥).

وقال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ المقَرَّرَ في أُصولِ المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ: أنَّ الاستِثناءَ إذا جاء بعد جُمَلٍ مُتعاطِفاتٍ أو مُفرَداتٍ مُتعاطِفاتٍ: أنَّه يرجِعُ لجَميعِها إلَّا لدليلٍ مِن نَقلٍ أو عَقلٍ يُخَصِّصُه ببَعضِها، خلافًا لأبي حنيفةَ القائِلِ برُجوعِ الاستِثناءِ للجُملةِ الأخيرةِ فقط). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٠).

وقال أيضًا: (الذي يَظهَرُ لنا في مسألةِ الاستثناءِ بعد جُمَلٍ مُتعاطِفاتٍ أو مُفرَداتٍ مُتعاطِفاتٍ: هو ما ذكَرَه بَعضُ المتأخِّرين؛ كابنِ الحاجِبِ مِنَ المالكيَّةِ، والغزاليِّ من الشَّافعيَّةِ، والآمديِّ مِن الحنابلةِ: مِن أنَّ الحُكمَ في الاستثناءِ الآتي بعد متعاطِفاتٍ هو الوَقفُ، ولا يُحكَمُ برُجوعِه إلى الجَميعِ ولا إلى الأخيرةِ إلَّا بدَليلٍ. وإنَّما قُلْنا: إنَّ هذا هو الأظهَرُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وإذا ردَدْنا النِّزاعَ في هذه المسألةِ إلى اللهِ وَجَدْنا القُرآنَ دالًّا على ما ذكَرْنا أنَّه الأظهَرُ عندَنا، وهو الوَقفُ؛ وذلك لأنَّ بعضَ الآياتِ لم يَرجِعْ فيها الاستثناءُ للأُولى، وبَعضَها لم يَرجِعْ فيه الاستثناءُ للأخيرةِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ رُجوعَه لِما قَبلَه ليس شيئًا مُطَّرِدًا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣٢).

وقال الماوَرْدي: (وفي صفةِ التَّوبةِ قولانِ: أحدُهما: أنَّها بإكذابِه نَفْسَه، وقد رواه الزُّهري عن =

وأصلَحوا أحوالَهم وأعمالَهم[1].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يَستُرُ ذُنوبَهم ويَتجاوزُ عن مُؤاخذَتِهم بها، رَحيمٌ بهم، فاقْبَلوا

= ابن المسَيِّبِ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ جَلَد أبا بَكْرةَ وشِبلَ بنَ مَعبدٍ ونافعَ بنَ الحارثِ بنِ كَلَدةَ، وقال لهم: مَن أكذَبَ نَفْسَه، أحرزَ شَهادتَه. فأكذَبَ نَفْسَه شِبلٌ ونافِعٌ، وأبى أبو بَكرةَ أن يَفعَلَ. قال الزُّهريُّ: وهو واللهِ السُّنَّةُ، فاحفَظوه. الثاني: أنَّ توبتَه منه تكونُ بصلاحِ حالِه، وندَمِه على قَذفِه، والاستغفارِ منه، وتَركِ العَودِ إلى مِثلِه. قاله ابنُ جريرٍ. ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ التوبةَ لا تحصُلُ إلَّا بإكذابِه نَفْسَه: السمعانيُّ، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

وممَّن قال به من السَّلَفِ: طاوسٌ، وعطاءٌ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، والشَّعبيُّ، والزُّهريُّ، وإسحاقُ، وأبو عُبيد، وأبو ثور. يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٧/ ١٠٨).

وهو مذهبُ الشافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (١٧/ ٣٢)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٥٩٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّه لا يُشترَطُ إكذابُه نَفْسَه، بل توبتُه بأن يُصلِحَ حالَه، ويُقلِعَ ويَندَمَ، ويَعزِمَ ألَّا يَعودَ لمِثلِ ذلك: ابنُ جرير، وابنُ جُزي، وهو ظاهِرُ اختيارِ الشوكانيِّ، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

وهو مذهبُ المالكيَّةِ. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (٢/ ٨٩٧)، ((الذخيرة)) للقرافي (١٠/ ٢٢١).

قال ابنُ عاشورٍ: (ليس مِن شَرطِ التَّوبةِ أنْ يُكذِّبَ نفْسَه فيما قذَفَ به...؛ لأنَّه قد يكونُ صادقًا، ولكنَّه عجَزَ عن إثباتِ ذلك بأربعةِ شُهداءَ على الصِّفةِ المعلومةِ؛ فتَوبَتُه أنْ يُصلِحَ ويُحسِّنَ حالَه، ويَتثبَّتَ في أمْرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢، ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨، ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

شَهادتَهم، ولا تُسَمُّوهم فاسِقينَ؛ فقد صاروا عُدولًا غيرَ فَسقةٍ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- عاقَبَ هؤلاء القاذِفينَ للمُحصَناتِ بثَلاثِ عُقوباتٍ:

أُولاها: حِسِّيَّةٌ، وتتمَثَّلُ في جَلْدِهم ثمانينَ جَلدةً، وهي عُقوبةٌ قَريبةٌ مِن عُقوبةِ الزِّنا.

وثانيتُها: مَعنويَّةٌ، وتتمَثَّلُ في عدَمِ قَبولِ شَهادتِهم؛ بأن تُهدَرَ أقوالُهم، ويَصيروا في المجتمَعِ أشبَهَ ما يكونون بالمَنبوذينَ الذين إنْ قالوا لا يُصَدِّقُ النَّاسُ أقوالَهم، وإن شَهِدوا لا تُقبَلُ شهادتُهم؛ لأنَّهم انسلَخَت عنهم صِفةُ الثِّقةِ مِن النَّاسِ فيهم.

وثالثتُها: دينيَّةٌ، وتتمَثَّلُ في وَصفِ اللهِ تعالى لهم بالفِسقِ، أي: بالخُروجِ عن طاعتِه سُبحانَه، وعن آدابِ دينِه وشريعتِه.

وما عاقَبَ اللهُ تعالى هؤلاء القاذِفينَ في أعراضِ النَّاسِ بتلك العُقوباتِ الرَّادِعةِ إلَّا لحِكَمٍ؛ مِن أهَمِّها: حمايةُ أعراضِ المُسلِمينَ مِن ألسِنةِ السُّوءِ، وصيانتُهم مِن كُلِّ ما يَخدِشُ كرامتَهم، ويَجرَحُ عَفافَهم، وأقسى شَيءٍ على النُّفوسِ الحُرَّةِ الشَّريفةِ الطَّاهِرةِ: أن تُلصَقَ بهم التُّهَمُ الباطِلةُ. وعلى رأسِ الرَّذائِلِ التي تُؤدِّي إلى فسادِ المُجتمَعِ: تَركُ ألسِنةِ السُّوءِ تَنهَشُ أعراضَ الشُّرَفاءِ دونَ أن تجِدَ هذه الألسِنةُ مَن يُخرِسُها أو يَردَعُها[2].

٢- قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فعطَفَ الإصلاحَ على التَّوبةِ؛ لأنَّ التَّوبةَ التي لا أثَرَ لها في العَمَلِ لا شأنَ لها ولا قيمةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٨٦).

في نَظَرِ الدِّينِ؛ ولذلك جرى القُرآنُ على عَطفِ العَمَلِ الصَّالحِ عليها عندَ ذِكرِها أو وَصْفِها بالنَّصُوحِ، وترى كثيرًا مِنَ النَّاسِ يُظهِرونَ التَّوبةَ بالنَّدَمِ والاستِغفارِ والرُّجوعِ عن الذَّنبِ، ثمَّ لا يَلبَثونَ أن يعودوا إلى ما كانوا تابوا عنه؛ ذلك بأنَّه لم يكُنْ للتَّوبةِ أثَرٌ في نُفوسِهم يُنَبِّهُهم إذا غَفَلوا كَيْ لا يعودوا إلى ما اقترَفوا، ويهديهم إلى اتِّخاذِ الوَسائِلِ لإصلاحِ شَأنِهم، وتقويمِ أمْرِهم[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ لَمَّا كانت مَعصيةُ الزِّنا كبيرةً مِن أُمَّهاتِ الكبائرِ، وكان مُتعاطِيها كثيرًا ما يَتستَّرُ بها، فقلَّما يَطَّلِعُ أحدٌ عليها- شدَّدَ اللهُ تعالى على القاذفِ؛ حيثُ شرَطَ فيها أربعةَ شُهداءَ؛ رَحمةً بعِبادِه، وسَترًا لهم[2].

٢- القاذِفُ قد يكونُ ذكَرًا والمقذوفُ أُنثى، وقد يكونُ أُنثى والمقذوفُ ذكَرًا، وقد يكونُ ذكرًا والمقذوفُ ذكرًا، وقد يكونُ أنثى والمقذوفُ أنثى؛ فالقِسمةُ رباعيَّةٌ. وقد نصَّ في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ على قذْفِ الذُّكورِ للإناثِ، وبقيَّةُ الصوَرِ المسكوتِ عنها داخِلةٌ في حُكمِ المنصوصِ بالإلحاقِ بنفيِ الفارقِ[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ احْتُجَّ به على أنَّ مَن قذَفَ نفْسَه، ثمَّ رجَعَ، لا يُحَدُّ لنفْسِه؛ لأنَّه لم يَرْمِ أحدًا[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

أنَّ الزِّنا لا يُقبَلُ فيه إلَّا أربعةُ رِجالٍ، لا أقَلُّ، وسواءٌ شَهِدوا مُجتَمِعينَ أو مُتفرِّقينَ، ولا يُقبَلُ فيه نِساءٌ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هذه الآيةُ أصْلٌ في حَدِّ الفِرْيةِ والقذْفِ الَّذي كان أوَّلُ ظُهورِه في رَمْيِ المُحصَناتِ بالزِّنا(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ فيه أنَّه يُجلَدُ القاذِفُ ثمانينَ إذا قذَفَ مُحصَنةً، ومَفهومُه: أنَّه إذا قذَفَ مَن عُرِفَت بالزِّنا لا يُحَدُّ للقذْفِ، ويُصرِّحُ بذلك قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾(٣)، لكنْ ينبغي صَونُ الألسنةِ عن الخوضِ في الأعراضِ.

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ فيه أنَّ القاذِفَ لا تُقبَلُ شَهادتُه(٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ أنَّ عدمَ قَبولِ شهادةِ القاذِفِ لا يجري حُكْمُه على الرِّوايةِ، فتُقْبَلُ روايتُه في حالِ أنَّ شهادتَه لا تُقْبَلُ، سواءٌ كان قَبْلَ توبتِه أو بعْدَها عندَ مَن يقولُ بعدَمِ قَبولِها -أي: الشهادةِ- بعدَ التَّوبةِ؛ ولهذا لم يتوقَّفِ البخاريُّ ومسلمٌ في روايةِ أبي بَكْرةَ. وهنا قد يَرِدُ سؤالٌ لطالبِ العلمِ، وهو: كيف تُقْبَلُ روايتُه دونَ شهادتِه، مع أنَّ كلًّا منهما تترتَّبُ عليه أحكامٌ، وهو إخبارٌ؟!

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والجوابُ: أنَّ الشَّرعَ فَرَّقَ بيْن الشَّهادةِ والروايةِ؛ فشهادةُ المرأةِ لا تُقْبَلُ في دِرهمٍ إلَّا إذا كانت مع غيرِها مِن النِّساءِ، وتكونُ شَهادةُ اثنتَينِ كشَهادةِ رجُلٍ واحدٍ؛ وروايتُها تُقْبَلُ ولو كانت في نصٍّ تُزهَقُ به النُّفوسُ(١).

٩- الفِسْقُ قد يكونُ ناقِلًا عن المِلَّةِ؛ كما قال في حقِّ إبليسَ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]. وقد لا يكونُ الفِسْقُ ناقِلًا عن المِلَّةِ؛ كقولِه تعالى في الَّذين يَرْمُون المُحصَناتِ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾(٢) [البقرة: ٢٨٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فيه تَحريمُ القذْفِ، وأنَّه فِسْقٌ(٣). وقولُه: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أي: الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، الَّذين قد كثُرَ شَرُّهم؛ وذلك لانتِهاكِ ما حرَّمَ اللهُ، وانتِهاكِ عِرْضِ أخيهِ، وتَسليطِ النَّاسِ على الكلامِ بما تكلَّمَ به، وإزالةِ الأُخُوَّةِ الَّتي عقَدَها اللهُ بيْن أهْلِ الإيمانِ، ومَحبَّةِ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمنوا، وهذا دليلٌ على أنَّ القذفَ مِن كبائرِ الذُّنوبِ(٤)، ولأنَّ اسمَ الفِسقِ لا يقَعُ إلَّا على صاحِبِ كبيرةٍ(٥).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٩٩).

جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾، يُستدَلُّ بالآيةِ لقولِ مَن قال: إنَّ شَهادةَ القاذِفِ لا تَسقُطُ بمُجرَّدِ القذْفِ حتَّى يُقامَ عليه الحدُّ؛ لأنَّه تعالى إنَّما نَهى عن قَبولِ شَهادتِهم إذا لم يأْتوا بالشُّهداءِ، وللقاذِفِ الإتيانُ بالشُّهداءِ ما لم يُحَدَّ، فهذا بَيِّنٌ أنَّ شَهادتَه لا تَسقُطُ إلَّا بإقامةِ الحدِّ عليه؛ لاحتِمالِ إتيانِه بالشُّهداءِ[1].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ حدَّ القذْفِ مِن حُقوقِ اللهِ؛ فلا يَجوزُ العفْوُ عنه[2].

١٣- في قولِه تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ دَليلٌ على أنَّ شَهادةَ القاذفِ بعدَ التَّوبةِ مَقبولةٌ، وذَنْبَه مَغفورٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٤٤)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

وهذا مَذهَبُ الحَنَفيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ عَفوُ المقذوفِ عن القاذِفِ، خِلافًا للجُمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ الذين يرَوْنَ جوازَ ذلك، وأنَّه يَسقُطُ حَدُّ القَذفِ بالعَفوِ عن المقذوفِ، وقَيَّد المالكيَّةُ جوازَه بكَونِه قبْلَ الرَّفعِ إلى الإمامِ وصاحِبِ الشُّرطةِ أو الحَرَسِ، إلَّا أن يريدَ سَترًا على نَفْسِه، فيجوزُ أيضًا بعد الرَّفعِ. يُنظر: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجصَّاص (٦/ ٢١٠-٢١٣)، ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((الذخيرة)) للقرافي (٤/ ٣٣٧) و(١٢/ ١٨٨)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٨/ ٩٠، ٩١)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٧/ ١١٠)، ((المغني)) لابن قدامة (١٠/ ٢١٣)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (٤/ ٢٥٩).

قال ابنُ القَيِّم: (الحَدُّ يَستحِقُّه المقذوفُ، فلا يُستوفَى إلَّا بطَلَبِه، باتِّفاقِ الفُقَهاءِ، فإنْ عفا عنه سَقَط عندَ جمهورِ العُلَماءِ؛ لأنَّ المُغلَّبَ فيه حقُّ الآدميِّ، كالقِصاصِ والأموالِ. وقيل: لا يَسقُطُ؛ تغليبًا لحَقِّ اللهِ؛ لعَدَمِ المماثَلةِ، كسائرِ الحُدودِ). ((السياسة الشرعية)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤١٥).

وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في ذلك (ص: ٤٣).

١٤- في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ مَنِ اغتابَ مُسلِمًا، وأوصَلَ إليه أذَى القَولِ في شَتْمِ نفْسٍ أو آباءٍ؛ فتَوبتُه منه تَحُطُّ ذَنْبَه، وتَغفِرُ خَطيئتَه، وإنْ لم يُحَلِّلْهُ صاحبُه[١]؛ ألَا ترى أنَّ القاذِفَ قد غَمَّ المَقذوفَ وآذاهُ بقَذْفِه، ثمَّ أوجَبَ اللهُ له المَغفِرةَ والرَّحمةَ بتَوبَتِه منه، ولم يَشترِطْ عليه تَحليلَ المقذوفِ عنه؟ فالقِصَاصُ والمَظالِمُ ما كان في مالٍ أو نَفْسٍ أو جُرْحٍ دونَ الكلامِ، واللهُ أعلمُ[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ...﴾ خُصَّ النِّساءُ بذلك، وإنْ كان الرِّجالُ يَشْرَكونَهنَّ في الحُكْمِ؛ تَنبيهًا على عَظيمِ حَقِّ أُمِّ المُؤمنينَ عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها[٣]، ولأنَّ القَذفَ فيهِنَّ أشنَعُ وأنكَرُ للنُّفوسِ، ومِن حيث هُنَّ هَوَى الرِّجالِ؛ ففيه إيذاءٌ لهُنَّ ولأزواجِهِنَّ وقَراباتِهِنَّ[٤].

- وفي التَّعبيرِ عنِ التَّفَوُّهِ بما قالوا في حقِّهِنَّ بالرَّميِ ﴿يَرْمُونَ﴾ المُنْبِئِ عن صَلابةِ الآلةِ، وإيلامِ المَرْميِّ، وبُعْدِه عنِ الرَّامي: إيذانٌ بشِدَّةِ تأثيرِه فيهِنَّ،

---

(١) ومِن أهلِ العلمِ مَن يرَى أنه يُشترَطُ في توبةِ المغتابِ والقاذفِ طلبُ عفوِ مَنِ اغتابه وإبرائِه، ومنهم مَن فرَّق بيْن ما إذا عَلِم به مَنِ اغتابه وقذَفَه فيَستحِلُّه حينَئذٍ، وإلَّا دعا له واستَغْفَر ولم يُعْلِمْه. وحُكي عن أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٧-٣٣٩)، ((الأذكار)) للنووي (ص: ٣٤٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((الإنصاف)) للمرداوي (١٠/ ٢٢٥)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٦/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦١، ٥٦٢).

وكَونِه رَجْمًا بالغَيبِ، والمُرادُ به رَمْيُهنَّ بالزِّنا لا غَيرُ، وعَدَمُ التَّصريحِ به؛ للاكتِفاءِ بإيرادِهنَّ عَقِيبَ الزَّواني، ووَصْفِهنَّ بالإحصانِ الدَّالِّ بالوَضعِ على نَزاهتِهنَّ عنِ الزِّنا خاصَّةً؛ فإنَّ ذلك بمَنزلةِ التَّصريحِ بكَونِ رَمْيِهنَّ به لا مَحالةَ[١]؛ فحُذِفَ المَرميُّ به في هذه الآيةِ لظُهورِ المَقصودِ بقَرينةِ السِّياقِ وذِكْرِ المُحْصَناتِ، أي: يَرمُون المُحْصَناتِ بالزِّنا[٢].

- ولَمَّا كان إقْدامُ المُجترِئ على القَذْفِ -معَ ما شرَطَه فيه لدَرءِ الحدِّ إرادةَ السَّترِ- بَعيدًا؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾[٣].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلَّقِ الشَّهادةِ؛ لظُهورِ أنَّهم شُهداءُ على إثباتِ ما رَمى به القاذِفُ[٤].

- قَولُه: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ فيه تَخصيصُ رَمْيِهنَّ بهذا الحُكْمِ، مع أنَّ حُكمَ رَمْيِ المُحصَنِينَ أيضًا كذلك؛ لخُصوصِ الواقعةِ، وشُيوعِ الرَّمْيِ فيهنَّ[٥].

- قَولُه: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ عَطفٌ على (اجْلِدُوا)، داخِلٌ في حُكْمِه تَتِمَّةً له؛ لِمَا فيه مِن معنَى الزَّجرِ؛ لأنَّه مُؤلِمٌ للقلبِ، كما أنَّ الجَلدَ مُؤلِمٌ للبَدنِ، وقد آذَى المَقذوفَ بِلسانِه؛ فعُوقِبَ بإهدارِ مَنافِعِه جَزاءً وِفاقًا[٦].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن ﴿شَهَادَةً﴾؛ قُدِّمتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

عليها لكَونِها نَكِرةً، ولو تأَخَّرَتْ عنها لكانتْ صِفَةً لها، وفائدَتُها: تَخصيصُ الرَّدِّ بشَهادتِهمُ النَّاشِئةِ عن أهْلِيَّتِهمُ الثَّابتةِ لهم عندَ الرَّمْيِ(١).

- قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه، ومُبيِّنٌ لسُوءِ حالِهم عندَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وما في اسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ والفسادِ(٢)؛ فعُبِّرَ باسمِ الإشارةِ؛ للإعلانِ بفِسْقِهم؛ ليَتميَّزوا في هذه الصِّفةِ الذَّميمةِ(٣).

- والحَصرُ(٤) في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ لِلمُبالَغةِ في شَناعةِ فِسْقِهم، حتَّى كأنَّ ما عَداهُ مِن الفُسوقِ لا يُعَدُّ فِسْقًا(٥).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قَولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ لتَهويلِ المَتوبِ عنه، أي: مِن بَعدِ ما اقتَرفُوا ذلك الذَّنْبَ العظيمَ الهائِلَ(٦).

- ومَفعولُ (أَصْلَحُوا) مَحذوفٌ؛ دَلَّ عليه السِّياقُ، أي: أصلَحوا أنفُسَهم باجتِنابِ ما نُهُوا عنه(٧)، وأصلَحوا أعمالَهم بالتَّدارُكِ، ومنه الاستِسلامُ للحَدِّ، أو الاستِحلالُ مِنَ المَقذوفِ(٨).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

(٤) وهو المستفادُ مِن دُخولِ ضميرِ الفَصلِ ﴿هُمُ﴾ بيْن طَرَفَي الجُملةِ؛ لتَقويةِ النِّسبةِ، وكذلك دُخولُ (أل) على الخبرِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ فكأنَّهمُ استَحَقُّوا الوَصفَ الكاملَ مِنَ الفِسقِ، وأنَّه لا فاسِقَ إلَّا هُم.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

(٨) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليلٌ لِما يُفيدُه الاستِثناءُ مِن العَفْوِ عنِ المُؤاخَذةِ بمُوجَبِ الفِسْقِ[1]؛ ففَرَّعَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على ما يَقتَضيهِ الاستِثناءُ مِن معنًى: فاقبَلوا شَهادتَهم، واغفِروا لهم ما سَلَفَ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ، أي: فإنَّ اللهَ أمَرَ بالمَغفرةِ لهم؛ لأنَّه غَفورٌ رَحيمٌ، كما قال في آيةِ البقرةِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وإنَّما صُرِّحَ في آيةِ البقرةِ بما قُدِّرَ نَظيرُه هنا؛ لأنَّ المَقامَ هنالِك مَقامُ إطنابٍ؛ لشِدَّةِ الاهتِمامِ بأمْرِهِم؛ إذْ تابُوا إلى الإيمانِ والإصلاحِ، وبَيانِ ما أُنزِلَ إليهِم مِن الهُدى بَعْدَ ما كَتَموه وكَتَمه سَلَفُهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

الآيات (٦-١٠)

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَيَدۡرَؤُاْ ﴾: أي: يَدْفعُ، وأصْلُ (درأ): دَفْعُ الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

بعْدَ أن بيَّن الله تعالى حُكمَ القذفِ بصِفةٍ عامَّةٍ، يُبيِّنُ حُكمَ القذفِ إذا ما حدَث بيْنَ الزَّوجينِ، فيقولُ: والذين يَرمونَ زوجاتِهم بالزِّنا، وليس لهم شهودٌ يَشهدون بما رمَوهنَّ به مِن الزِّنا إلا أنفُسُهم، فشهادةُ أحدِهم التي تُزيلُ عنه حدَّ القَذفِ أن يَحلِفَ بالله أربعَ مرَّاتٍ إنَّه صادقٌ فيما رماها به مِن الزِّنا، ويَحلفُ في المرَّةِ الخامسةِ بأنَّ لعنةَ الله عليه إن كان كاذبًا فيما رماها به. ويدفَعُ عن الزوجةِ المقذوفةِ حدَّ الزنا -وهو الرجمُ حتى الموتِ- أن تَحلِفَ أربعَ مرَّاتٍ إنَّه لكاذبٌ في اتِّهامه لها بالزِّنا، وتحلفُ في المرَّة الخامسةِ باستحقاقِها غضَبَ اللهِ إن كان زوجُها صادقًا في اتِّهامه لها بالزِّنا. ويُبيِّنُ تعالى أنَّه لولا فَضْلُه عليكم ورحمتُه، لعاجَلَكم بالعقوبةِ، وأنَّ اللهَ توَّابٌ لِمَن تاب مِن عبادِه، حكيمٌ فيما شرَعَ مِنَ الأحكامِ، ومِن جملتِها حُكمُ اللِّعانِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى رمْيَ المُحصَناتِ، دخَلَ في عمومِه الزوجُ إذا رمى زوجتَه، ولمَّا كان له أحكامٌ خاصَّةٌ، والقرائِنُ تدُلُّ على أنَّه لا يَرمي زوجتَه إلَّا إذا كان صادِقًا؛ لأنَّ زناها مصيبةٌ وعارٌ عليه هو، والإنسانُ لا يَذْكرُ عيبًا يَعودُ عليه- جعَلَ اللهُ تعالى له مَخرَجًا إذا قذَفَ زوجتَه، بتشريعِ حُكمِ اللِّعانِ[١].

سَببُ النُّزولِ:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رضِيَ اللهُ عنْهما: ((أنَّ عُوَيْمِرًا أتَى عاصِمَ بنَ عَدِيٍّ، وكان سيِّدَ بَني عَجْلانَ، فقال: كيف تقولونَ في رَجُلٍ وجَدَ مع امرأتِه رَجُلًا: أيقتُلُه فتَقْتُلونه، أمْ كيف يَصنَعُ؟ سَلْ لي رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلك. فأتَى عاصِمٌ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، فَكَرِهَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المسائِلَ، فسألَهُ عُوَيْمِرٌ، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَرِهَ المسائلَ وعابَهَا، قال عُوَيْمِرٌ: واللهِ لا أنْتَهي حتَّى أسأَلَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلك، فجاء عُوَيْمِرٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، رجُلٌ وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا: أيقتُلُه فتَقْتُلونه، أمْ كيف يصنَعُ؟ فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قد أنزَلَ اللهُ القُرآنَ فيك وفي صاحِبَتِكَ، فأمَرَهُما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالمُلاعَنةِ بما سمَّى اللهُ في كِتابِه، فلاعَنَها، ثمَّ قال: يا رسولَ اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥١).

إنْ حبَسْتُها فقد ظلَمْتُها، فطلَّقَها، فكانتْ سُنَّةً لِمَن كان بَعْدَهما في المُتلاعنَين، ثمَّ قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: انْظُروا؛ فإنْ جاءتْ به أَسْحَمَ(١)، أدْعَجَ العينَين(٢)، عظيمَ الأَلْيَتَين، خَدَلَّجَ السَّاقين(٣)؛ فلا أحسبُ عُويمرًا إلَّا قد صدَقَ عليها، وإنْ جاءت به أُحيمِرَ كأنَّه وَحَرَةٌ(٤)، فلا أحسبُ عُويمرًا إلاَّ قد كذَبَ عليها. فجاءت به على النَّعتِ الَّذي نعَتَ به رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن تَصديقِ عُويمرٍ، فكان بَعْدُ يُنسَبُ إلى أُمِّهِ))(٥).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ هِلالَ بنَ أُميَّةَ قذَفَ امرأتَه(٦) عندَ

---

(١) أسْحَمَ: أي: أسودَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٨).

(٢) أدْعَجَ العينَينِ: أي: شديدَ سَوادِهما. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٧).

(٣) خَدَلَّجَ السَّاقينِ: أي: مُمتلئَ السَّاقَينِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٠).

(٤) كأنَّه وَحَرَةٌ: الوَحَرةُ: حَشرةٌ من حَشراتِ الأرض تُشبِهُ الحرباءَ، وهي حمراءُ، وإذا دبَّت على اللَّحْمِ وَحَر، أي: اشْتَدَّ حماه. يُنظر: ((الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي)) للهروي (٢٢٢)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (١٣٤).

(٥) رواه البخاري (٤٧٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٢).

(٦) قال ابنُ حَجَر: (في هذه الرِّوايةِ أنَّ آياتِ اللِّعانِ نزَلَت في قِصَّةِ هلالِ بنِ أُمَيَّةَ، وفي حديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ الماضي أنَّها نزَلَت في عُوَيمرٍ...

وقد اختلف الأئمَّةُ في هذا الموضِعِ؛ فمنهم مَن رجَّح أنَّها نزلت في شأنِ عُوَيمرٍ، ومنهم مَن رجَّح أنَّها نزلت في شأنِ هلالٍ، ومنهم مَن جمَع بينَهما بأنَّ أوَّلَ مَن وقع له ذلك هلالٌ، وصادف مجيءُ عويمرٍ أيضًا؛ فنزَلت في شأنِهما معًا في وقتٍ واحدٍ، وقد جنح النوويُّ إلى هذا، وسبَقَه الخطيبُ... ويؤيِّدُ التعَدُّدَ أنَّ القائِلَ في قِصَّةِ هلالٍ: سَعدُ بنُ عُبادةَ... والقائِلَ في قِصَّةِ عُوَيمرٍ: عاصِمُ بنُ عَدِيٍّ... ولا مانِعَ أن تتعدَّدَ القِصَصُ ويتَّحِدَ النُّزولُ... ويحتَمِلُ أنَّ النُّزولَ سَبق بسببِ هلالٍ، فلما جاء عويمرٌ ولم يكُنْ عَلِمَ بما وقع لهلالٍ أعلمَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحُكمِ... وجنح القُرطبيُّ إلى تجويزِ نُزولِ الآيةِ مرَّتينِ، قال: وهذه الاحتمالاتُ وإن بَعُدت أولى من تغليطِ الرُّواةِ الحُفَّاظِ. وقد أنكرَ جماعةٌ ذِكْرَ هلالٍ فيمن لاعَنَ ... وكلامُ الجَميعِ =

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشَريكِ ابنِ سَحْماءَ، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: البيِّنَةَ، أو حَدٌّ في ظَهْرِكَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجُلًا، يَنطلِقُ يلْتمِسُ البيِّنَةَ؟! فجعَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: البيِّنَةَ، وإلَّا حَدٌّ في ظَهْرِكَ، فقال هِلالٌ: والَّذي بعثَكَ بالحقِّ إنِّي لصادِقٌ؛ فلَيُنزِلَنَّ اللهُ ما يُبرِّئُ ظَهْري مِن الحدِّ، فنزَلَ جبريلُ وأنزَلَ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩]، فانصرَفَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأرسَلَ إليها، فجاء هِلالٌ فشَهِدَ، والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّ أحَدَكما كاذِبٌ؛ فهلْ منْكما تائبٌ؟ ثمَّ قامتْ فشَهِدَتْ، فلمَّا كانت عندَ الخامسةِ وَقَّفُوها، وقالوا: إنَّها مُوجِبةٌ، قال ابنُ عبَّاسٍ: فتلكَّأَتْ ونكَصَتْ، حتَّى ظَنَنَّا أنَّها ترجِعُ، ثمَّ قالت: لا أفضَحُ قَومي سائرَ اليومِ، فمَضَتْ، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أبْصِروها؛ فإنْ جاءت به أكحَلَ العينَينِ[1]، سابغَ الأَلْيَتينِ[2]، خَدَلَّجَ السَّاقينِ؛ فهو لشَريكِ ابنِ سَحماءَ، فجاءت به كذلك، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لولا ما مَضى مِن كِتابِ اللهِ

= مُتعَقَّبٌ. ((فتح الباري)) (٨/ ٤٥٠، ٤٥١). ويُنظر: ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٣٠٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٢٠)، ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) للمزيني (٢/ ٧١٩-٧٤٢).

(١) أكْحَلَ العَينينِ: الكَحَل: سَوادٌ في أجْفانِ العَيْنِ خِلْقةً. يُنظر: ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (١٦٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٥٤).

(٢) سابغَ الأَلْيَتَينِ: أي تامَّهما وعَظيمَهما، والألْيةُ: العَجيزَةُ والمؤخِّرةُ، للنَّاسِ وغيرِهِم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٣٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٧/ ٩٥).

لَكان لي ولَها شَأْنٌ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّا لَيلةَ الجُمُعةِ في المسجِدِ، إذ جاء رجُلٌ مِن الأنصارِ، فقال: لو أنَّ رجُلًا وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا فتكلَّمَ جلَدْتُموهُ، أو قتَلَ قَتلْتُموه، وإنْ سكَتَ سكَتَ على غَيظٍ! واللهِ لَأسألَنَّ عنه رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا كان مِنَ الغدِ أتى رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسألَهَ فقال: لو أنَّ رجُلًا وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا فتكلَّمَ جلَدْتُموهُ، أو قتَلَ قَتلْتُموه، أو سكَتَ سكَتَ على غَيظٍ؟ فقال: اللَّهُمَّ افتَحْ. وجعَلَ يَدْعو، فنزلَتْ آيةُ اللِّعانِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ...﴾ هذه الآيات؛ فابتُلِيَ به ذلك الرَّجلُ مِن بيْنِ النَّاسِ، فجاء هو وامرأتُه إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فتلاعَنَا، فشَهِدَ الرَّجلُ أربَعَ شَهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ، ثمَّ لعَنَ الخامسةَ: أنَّ لَعنةَ اللهِ عليه إنْ كان مِنَ الكاذبينَ، فذهبَتْ لِتَلْعَنَ، فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَهْ(٢)! فأبَتْ، فلعَنَتْ، فلمَّا أدبَرَا، قال: لعلَّها أنْ تَجِيءَ به أسْوَدَ جَعْدًا، فجاءت به أسوَدَ جَعْدًا))(٣).

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾.

أي: والَّذين يَقذِفون زَوجاتِهم بالزِّنا، وليس لدَيْهم أربعةُ شُهودٍ يَشْهَدون على صِحَّةِ ما رَمَوهنَّ به غيرُ أنفُسِهم(٤).

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٢) مَهْ: هي كَلِمةُ زَجرٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٩٣).

(٣) رواه مسلم (١٤٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

أي: ففي تلك الحالِ يَشهَدُ الزَّوجُ أربعَ شَهاداتٍ، يَحلِفُ فيها باللهِ فيقولُ: إنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ فيما رَمَى به زَوجتَه مِن الزِّنا[1].

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾.

أي: والشَّهادةُ الخامِسةُ يقولُ فيها: إنَّ لَعنةَ اللهِ عليه واجِبةٌ وحالَّةٌ إنْ كان مِنَ الكاذبينَ فيما رَمَى به زوجتَه مِنَ الزِّنا[2].

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت هذه الأيمانُ مُقتضِيةً صِدقَ دَعوى الزَّوجِ على المرأةِ، كان مِن أثَرِ ذلك أنْ تُعتبرَ المرأةُ زانيةً، أو أن يكونَ حَملُها ليس منه؛ فهو مِن زِنًا؛ لأنَّها في عِصمةٍ؛ فكان ذلك مُقْتضِيًا أنْ يُقامَ عليها حَدُّ الزِّنا، فلمْ تُهمِلِ الشَّريعةُ حقَّ المرأةِ، ولم تَجعَلْها مأخوذةً بأيمانٍ قد يكونُ حالِفُها كاذِبًا فيها؛ لأنَّه يُتَّهمُ بالكذِبِ لِتَبْرئةِ نفْسِه، فجعَلَ للزَّوجةِ مُعارَضةَ أيمانِ زَوجِها، كما جعَلَ للمشهودِ عليه الطَّعنَ في الشَّهادةِ بالتَّجريحِ أو المُعارَضةِ؛ فقال تعالى[3]:

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾.

أي: ويَدفَعُ حَدَّ الزِّنا عن الزَّوجةِ أنْ تَشهَدَ أربعَ شَهاداتٍ، تَحلِفُ فيها باللهِ فتقولُ: إنَّ زوجَها لَمِنَ الكاذبينَ فيما رَمَاها به مِنَ الزِّنا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤، ١٥)، =

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: وتَشهَدُ المرأةُ الشَّهادةَ الخامِسةَ، فتقولُ فيها: إنَّ غضَبَ اللهِ عليها إنْ كان زَوجُها مِنَ الصَّادقينَ فيما رمَاها به مِنَ الزِّنا(١).

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٦٤).

قال الرازي: (قولُه تعالى: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ﴾ الألِفُ واللَّامُ الدَّاخِلانِ على العذابِ لا يفيدانِ العُمومَ؛ لأنَّه لم يَجِبْ عليها جميعُ أنواعِ العذابِ، فوجَبَ صَرفُهما إلى المعهودِ السَّابقِ، والمعهودُ السَّابِقُ هو الحَدُّ؛ لأنَّه تعالى ذكَرَ في أوَّلِ السُّورة: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]، والمرادُ منه الحَدُّ، وإذا ثبَت أنَّ المرادَ مِنَ العذابِ في قَولِه: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ هو الحَدُّ، ثبت أنَّها لو لم تلاعِنْ لحُدَّت، وأنَّها باللِّعانِ دَفَعَت الحَدَّ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩).

قال مكِّي: (قَولُه: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ يعني الحَدَّ، أي: يَدفَعُ عنها حَدَّ الزَّانيةِ شَهادتُها باللهِ أربَعَ شَهاداتٍ إنَّه لَمِنَ الكاذِبينَ، والخامِسةَ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إن كان مِن الصَّادقينَ. وقيل: العذابُ هنا: الرَّجمُ، ومعناه: العذابُ الذي عَهِدْتُم مِن فِعْلِ نَبِيِّكم؛ ولذلك أتى بالألِفِ واللَّامِ. وقيل: هو الجَلدُ إن كانت غيرَ مُحصَنةٍ، والرَّجمُ إن كانت مُحصَنةً). ((الهداية الى بلوغ النهاية)) (٨/ ٥٠٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٠).

ويترتَّبُ على اللِّعانِ ثُبوتُ الفُرقةِ بيْنَ الزَّوجَينِ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٧/ ٤٠)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٤/ ١٣٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥١)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٨/ ٨٢).

وتحرمُ الزَّوجةُ بذلك على الزَّوجِ تَحريمًا مُؤَبَّدًا، وهو مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((التاج والإكليل)) للمواق (٤/ ١٣٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥١)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٨/ ٨٢).

أي: ولولا فَضْلُ اللهِ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ورَحمَتُه بكم، وأنَّ اللهَ يجودُ على خَلْقِه بنِعَمِه، ويُنزِلُ رَحمتَه على مَن تابَ مِن عِبادِه، حَكيمٌ في قدَرِه وشَرْعِه وتَدبيرِ خلْقِه، ومِن ذلك ما شرَعَ لعِبادِه مِن حُكْمِ اللِّعانِ- لَعاجَلَكم بالعُقوبةِ على مَعاصيكم، ولفَضَحَ المُذْنِبينَ منكم، فاشْكُروا اللهَ واتَّقوهُ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الضَّميرُ هنا ضَميرُ غَيْبةٍ؛ إلَّا أنَّ الزَّوجَ يَجعَلُه ضَميرَ مُتكلِّمٍ؛ يعني يقولُ: (أنَّ لَعنةَ اللهِ عَلَيَّ)، ولا يقولُ: (عليه)، وهذا مِن بابِ التَّأدُّبِ في اللَّفظِ: أنْ يُعَبِّرَ بضَميرِ الغَيْبةِ؛ لئلَّا يُضِيفَ المُتكلِّمُ اللَّعنةَ إلى نَفْسِه[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فيه مِن أحكامِ الحِكَمِ البالِغةِ، وآثارِ التَّفضُّلِ والرَّحمةِ ما لا يَخفى؛ أمَّا على الصَّادقِ فظاهرٌ، وأمَّا على الكاذبِ فهو إمهالُه، والسَّترُ عليه في الدُّنيا، ودَرْءُ الحدِّ عنه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣).

قال السعدي: (﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جوابُ الشرطِ محذوفٌ، يدُلُّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: لَأَحَلَّ بأحدِ المُتلاعنَينِ الكاذبِ منهما ما دعا به على نفْسِه، ومِن رحمَتِه وفضْلِه ثبوتُ هذا الحُكمِ الخاصِّ بالزوجينِ؛ لشِدَّةِ الحاجةِ إليه، وأنْ بيَّنَ لكم شِدَّةَ الزِّنا وفظاعتَه، وفظاعةَ القذْفِ به، وأنْ شرعَ التَّوبةَ مِن هذه الكبائرِ وغيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢، ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٩٠).

قال النووي: (مِن آدابِ الكلامِ ... أنَّه إذا عرَضَ في الحكايةِ عن الغَيرِ ما فيه سوءٌ، واقتضَتِ الحكايةُ رُجوعَ الضَّميرِ إلى المُتكلِّمِ؛ صرَفَ الحاكي الضميرَ عن نفْسِه؛ تَصاوُنًا عن صورةِ إضافةِ السُّوءِ إلى نفْسِه). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٧١) و(١/ ٢١٤).

وتَعريضُه للتَّوبةِ، حسْبَما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعُنوانِ تَوَّابيَّتِه سُبحانه، ما أعظَمَ شَأنَه، وأوسَعَ رَحْمتَه، وأدَقَّ حِكمتَه[1]!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه أنَّ شَرْطَ اللِّعانِ سَبْقُ قَذْفٍ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ كلَّ زوجٍ رَمى زَوجتَه -حُرَّةً كانتْ أو أَمَةً، مُسلِمةً أو ذِمِّيَّةً-؛ فاللِّعانُ بيْنَهما واجبٌ، لا يُزيلُه افتراقُ أحوالِ الأزواجِ، وأنَّه باسمِ الزَّوجيَّةِ لا بغيرِها[3]، فاللِّعانُ إنَّما يَكونُ بيْنَ الزَّوجينِ، لا بيْنَ الرجُلِ وأجْنبيَّةٍ، ولا السَّيِّدِ وأمَتِه[4].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ عمومُ الآيةِ في قولِه: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ يَشمَلُ ما قبْلَ الدُّخولِ وما بعدَه، فلو عقَدَ على امرأةٍ ثمَّ رماها بالزِّنا، أُجْرِيَ بيْنهما اللِّعانُ؛ لأنَّها زَوجتُه[5].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ظاهِرُه يَدُلُّ على اشتِراطِ هذه الألفاظِ عندَ اللِّعانِ مِن المُلاعِنِ ومِن المُلاعِنَةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٣).

واشتراطِ التَّرتيبِ فيها، وألَّا يُنْقَصَ منها شَيءٌ، ولا يُبَدَّلَ شَيءٌ بشَيءٍ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ فيه أنَّ اللِّعانَ مُختَصٌّ بالزَّوجِ إذا رمَى امرأتَه، لا بالعَكْسِ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ فيه أنَّ الشَّبهَ في الولَدِ مع اللِّعانِ لا عِبْرةَ به، كما لا يُعتبَرُ مع الفِراشِ، وإنَّما يُعتبَرُ الشَّبهُ حيث لا مُرجِّحَ إلَّا هو[٣].

٧- قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ ... ﴾ يؤخَذُ مِن هذه الآياتِ قاعدةٌ عظيمةٌ مِن قواعِدِ الشَّرعِ، ودَلالتُها عليها في غايةِ الصَّراحةِ، والقاعِدةُ هي: (أنَّ أحكامَ الشَّرعِ تكونُ على حسَبِ الظَّاهرِ، ولو كان الواقعُ يخالِفُه)؛ لأنَّ المتلاعِنَينِ متكاذِبانِ، فالزَّوجُ يُثبِتُ أنَّ زوجتَه زانيةٌ، وهي تدَّعي أنَّه قاذِفٌ كاذبٌ، ونحن نقطَعُ أنَّ أحدَهما كاذِبٌ، كما قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]، ولو أَقَرَّ الرجُلُ لوجَبَ عليه حَدُّ القَذفِ، ولو أقرَّتِ المرأةُ لوَجبَ عليها الرَّجمُ، ومع ذلك فالشَّرعُ صَدَّقَهما في الظَّاهرِ مع الجَزمِ بأنَّ أحدَهما كاذِبٌ، وقد أشار اللهُ تعالى في آخِرِ هذه الآياتِ إلى أنَّ الأخذَ يَكونُ بالظَّاهِرِ، وأنَّ ذلك رحمةٌ منه تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾، أي: لولا ذلك لَمَا قَبِلَ منكم هذه الظَّواهرَ، والبواطنُ غيرُ صحيحةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر ما رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٤).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ استدَلَّ به مَن قال: لا لِعانَ إذا أقام الزَّوجُ البيِّنةَ بزِنا زَوجتِه[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ اللِّعانَ شَهادةٌ لا يمينٌ[2].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ أنَّ البَدَلَ يُجْعَلُ له حُكْمُ المُبْدَلِ منه؛ فإنَّه لَمَّا كانتِ البيِّنةُ على الزِّنا أربعةَ شُهودٍ؛ وكان الزَّوجُ إذا قذَفَ زوجتَه بالزِّنا يُعتبَرُ شاهِدًا، والتَّعدُّدُ الشَّخصيُّ في حَقِّه مُمتنِعٌ؛ جُعِلَ التَّعدُّدُ في نَفْسِ الشَّهادةِ، ويَكونُ هذا تقْريرًا للقاعدةِ المشهورةِ المعروفةِ: أنَّ البَدَلَ له حُكْمُ المُبْدَلِ منه؛ فلمَّا كانت شَهادةُ الزَّوجِ على زَوجتِه بالزِّنا بمَنزلَةِ شَهادةِ رجُلٍ، صار تَكرارُها بمَنزلةِ تَكرارِ الرِّجالِ وتعدُّدِ الشُّهودِ[3].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ فسمَّاها شهادةً؛ لأنَّها نائبةٌ منابَ الشهودِ، بأن يقولَ: (أشهدُ باللهِ إنِّي لَمِنَ الصادقينَ فيما رميتُها به)[4].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ أفادتِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ هذه الشَّهادةَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا مَذهَبُ الحَنَفيَّةِ، خلافًا للجُمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ الَّذينَ قالوا: إنَّ اللِّعانَ يَمينٌ وليس بشهادةٍ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٤/ ٢٧٨)، ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١٤)، ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (٢/ ٦١٠)، ((بداية المجتهد)) لابن رُشْد (٢/ ١١٨، ١١٩)، ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (١١/ ١٢)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

مَقْرونةٌ بقَسَمٍ؛ لأنَّه يقولُ: (أشهَدُ باللهِ)، كأنَّما قال: (أشهَدُ مُقْسِمًا باللهِ)؛ ولهذا سمَّاها اللهُ تعالى شَهادةً[(١)].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنَّما كانت شَهاداتُ الزَّوجِ على زَوجتِه دارِئةً عنه الحدَّ؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الزَّوجَ لا يُقدِمُ على رَمْيِ زَوجتِه الَّتي يُدنِّسُه ما يُدنِّسُها إلَّا إذا كان صادقًا، ولأنَّ له في ذلك حقًّا، وخوفًا مِن إلْحاقِ أولادٍ ليسوا منه به، ولغيرِ ذلك مِن الحِكَمِ المَفقودةِ في غَيرِه[(٢)].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ احتُجَّ به على بُطلانِ قَولِ الخوارجِ في أنَّ الزِّنا والقذْفَ كُفْرٌ؛ مِن وَجهينِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الرَّامِيَ إنْ صدَقَ فهي زانيةٌ، وإنْ كذَبَ فهو قاذفٌ، فلا بُدَّ -على قَولِهم- مِن وُقوعِ الكُفرِ مِن أحَدِهما، وذلك يكونُ رِدَّةً، فيجِبُ على هذا: أنْ تقَعَ الفُرقةُ، ولا لِعانَ أصْلًا، وأنْ تكونَ فُرقةَ الرِّدَّةِ؛ حتَّى لا يتعلَّقَ بذلك توارُثٌ الْبتَّةَ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّ الكُفْرَ إذا ثبَتَ عليها بلِعانِه، فالواجِبُ أنْ تُقتَلَ لا أنْ تُجلَدَ أو تُرجَمَ؛ لأنَّ عُقوبةَ المُرتَدِّ مُباينةٌ للحدِّ في الزِّنا[(٣)].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٦).

أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ الآيةُ دالَّةٌ على بُطلانِ قَولِ مَن يقولُ: إنَّ وُقوعَ الزِّنا يُفسِدُ النِّكاحَ؛ وذلك لأنَّه يجِبُ إذا رمَاها بالزِّنا أنْ يكونَ قولُه هذا كأنَّه مُعترِفٌ بفَسادِ النِّكاحِ، حتَّى يَكونَ سَبيلُه سَبيلَ مَن يُقِرُّ بأنَّها أُختُه مِن الرَّضاعِ أو بأنَّها كافرةٌ، ولو كان كذلك لَوجَبَ أنْ تقَعَ الفُرقةُ بنفْسِ الرَّميِ مِن قبْلِ اللِّعانِ، وقد ثبَتَ بالإجماعِ فسادُ ذلك(١).

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ ليس لها مُقابِلٌ في عدَدِ شُهودِ الزِّنا، فلعلَّ حِكْمةَ زِيادةِ هذه اليمينِ مع الأيمانِ الأربَعِ القائمةِ مَقامَ الشُّهودِ الأربعةِ: أنَّها لِتَقويةِ الأيمانِ الأربَعِ، باستِذكارِ ما يترتَّبُ على أَيْمانِه إنْ كانت غَموسًا مِن الحِرمانِ مِن رَحمةِ اللهِ تعالى. وهذا هو وَجْهُ كَونِها مُخالِفةً في صِيغَتِها لصِيَغِ الشَّهاداتِ الأربَعِ الَّتي تقدَّمَتْها. وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الأربَعَ هي المجعولةُ بدَلًا عن الشُّهودِ، وأنَّ هذه الخامسةَ تَذييلٌ للشَّهادةِ، وتَغليظٌ لها(٢).

١٧- في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ دَلالةٌ على جَوازِ الاستِثناءِ في الدُّعاءِ(٣).

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فيه أنَّ لِعانَ الزَّوجِ يُوجِبُ على المرأةِ حدَّ الزِّنا، وأنَّ لها دفْعَه بأنْ تقولَ أربعَ مرَّاتٍ: أشهَدُ باللهِ إنَّه لَمِنَ الكاذبينَ، والخامسةَ: أنَّ غضَبَ اللهِ عليها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتاوى أركان الإسلام)) لابن عثيمين (ص: ٤١٠).

إنْ كان مِنَ الصَّادقينَ[١].

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ تَقديمُ لِعانِ الزَّوجةِ على لِعانِ الزَّوجِ[٢].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لَمَّا كانت أَيمانُ المرأةِ لِرَدِّ أيمانِ الرَّجلِ، وكانت أيمانُ الرَّجلِ بدَلًا مِنَ الشَّهادةِ وسُمِّيت شَهادةً؛ كانت أيمانُ المرأةِ -لِرَدِّها- يُناسِبُ أنْ تُسمَّى شَهادةً، ولأنَّها كالشَّهادةِ المُعارِضةِ، ولكَونِها بمَنزلةِ المُعارِضةِ؛ كانت أيمانُ المرأةِ كلُّها على إبطالِ دَعواهُ، لا على إثباتِ بَراءتِها أو صِدْقِها[٣].

٢١- قال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لا ريبَ أنَّ المرأةَ المزوَّجةَ الزانيةَ استحقَّتِ الغضبَ لشيئَينِ: لأجْلِ ما في الزِّنا من التحريمِ، ولأنَّها اعتَدَتْ فيه على الزوجِ فأفسَدَتْ فِراشَه؛ ولهذا كان للزَّوجِ إذا قذَف امرأتَه ولم يأتِ بأربعةِ شُهداءَ أن يلاعِنَها؛ لِما له في ذلك مِن الحَقِّ، ولأنَّه مظلومٌ إذا كان صادقًا، وعليه في زناها من الضَّررِ ما يحتاجُ إلى دفعِه بما شرَعَه اللهُ، كالمقذوفِ الذي له أن يستوفيَ حَدَّ القذفِ مِن القاذِفِ الذي ظلَمَه في عِرضِه، فكذلك الزوجُ له أن يستوفيَ حَدَّ الفاحشةِ مِن البَغِيِّ الظَّالمةِ له، المُعتَديةِ عليه، كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حقِّ الرجُلِ على امرأتِه: ((فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم مَن تَكرَهونَ))[٤]؛ فلهذا كان له أن يَقذِفَها ابتِداءً، وقذفُها إمَّا مباحٌ له،

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٨٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٩١٦٩)، وابن ماجه (١٨٥١) =

وإمَّا واجِبٌ عليه إذا احتاج إليه لنفيِ النَّسَبِ، ويَضطرُّها بذلك إلى أحدِ أمرينِ: إمَّا أن تعترَفَ فيُقامَ عليها الحَدُّ، فيَكونَ قد استوفى حَقَّه، وتطهَّرت هي أيضًا من الجزاءِ لها والنَّكالِ في الآخرةِ بما حصَل. وإمَّا أن تبوءَ بغضَبِ اللهِ عليها وعقابِه في الآخرةِ الذي هو أعظَمُ مِن عقابِ الدُّنيا؛ فإنَّ الزَّوجَ مظلومٌ معها، والمظلومُ له استيفاءُ حَقِّه؛ إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرةِ، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾(١) [النساء: ١٤٨].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ يؤخَذُ مِن هذه الآيةِ رَدٌّ على بعضِ العلماءِ -كالمالكيَّةِ- القائلينَ: «إنَّ التخصيصَ بالشَّرطِ المتأخِّرِ لا يُفيدُ، وإنَّما يكونُ ندَمًا»؛ فإنَّهم قالوا: لو قال للمرأةِ: «أنا المخالِعُ لكِ إنْ أمضى وليُّك» حصَلتِ المخالَعةُ وإنْ لم يُمْضِ الوليُّ، بخِلافِ ما لو قال: «إنْ أمضى وليُّك فأنا المخالِعُ لكِ» فإنَّ المخالَعةَ لا تحصُلُ إذا لم يُمْضِ الوليُّ. والقرآنُ يدُلُّ على خلافِ ما ذهَبوا إليه؛ فإنَّ الشَّرطَ تأخَّرَ، وصيغةُ الفعلِ «غضب» متقدِّمةٌ، وهي تفيدُه لو تأخَّرَتْ(٢).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه قد يُخَفَّفُ في التشريعِ تخفيفٌ يَلزَمُ معه قطعُ النظَرِ عن الواقعِ في نفْسِ الأمرِ؛ ففي الآيةِ تخفيفٌ اقتضَتْهُ رحمةُ اللهِ وحِكمتُه، فالأحكامُ قد تَكونُ مشروعةً تشريعًا قطعيًّا بِناءً على الظَّاهرِ، والباطنُ غيرُ صَحيحٍ(٣)!

= من حديث عمرو ابن الأحوص رضي الله عنه.

قال الترمذي، وابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٥٠): (حسَنٌ صحيحٌ)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٨٥١).

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٧-٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).

٢٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ حُجَّةٌ لِمَن يَحذِفُ مِن لفْظِ الكلامِ ما لا يَتِمُّ على الحَقيقةِ إلَّا به؛ الْتِماسَ الإيجازِ والاختِصارِ، كقولِ الشَّاعرِ:

فَإنَّ المَنيَّةَ مَن يَخْشَها ... فسَوفَ تُصادِفُه أيْنَما(١)

لأنَّه جلَّ وتَعالى ابتدأَ بـ ﴿لَوْلَا﴾، ولم يَصِلْه بشَيءٍ يكونُ تمامُه ظاهرًا في اللَّفظِ؛ فكأنَّه -واللهُ أعلَمُ-: (ولولَا فضْلُ اللهِ عليكم ورَحمتُه، وأنَّ اللهَ توَّابٌ حكيمٌ؛ لَمَا بَيَّنَ لكم هذه الأحكامَ الَّتي قَبْلَ هذا الكلامِ، ولكنْ مِن فَضْلِه عليكم بَيَّنَ لكم، وأنصَفَ المَرْمِيَّ مِن الرَّامي، وطَهَّرَ الزَّانيَ والزَّانيةَ بالجَلْدِ)، أو شَيءٌ هذا معناهُ(٢).

٢٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ والموانعِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ فيها مانِعٌ وفيها سبَبٌ؛ فالسَّببُ ذُنوبُنا وما نحنُ عليه مِنَ الأخطاءِ، والمانعُ الَّذي يَمنَعُ مِن العُقوبةِ هو فَضْلُ اللهِ ورَحمتُه(٣).

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فيه بَيانُ فضلِ اللهِ ورَحمتِه على عِبادِه بالشَّرعِ والقدَرِ؛ لقولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ فإنَّ هذا يتعلَّقُ بالشَّرعِ وبالقدَرِ؛ أمَّا بالشَّرعِ فلولا أنَّ اللهَ تفضَّلَ علينا ورَحِمَنا، وشرَعَ للأزواجِ ما شرَعَ مِن اللِّعانِ، لَكان الزَّوجُ يقَعُ في حرَجٍ عظيمٍ؛ لأنَّه إنْ تكلَّمَ يُقامُ عليه حَدُّ القذْفِ، وإنْ سكَتَ سكَتَ عن أمْرٍ عظيمٍ، لكنْ مِن رَحمةِ اللهِ وفضْلِه أنَّه شرَعَ اللِّعانَ.

---

(١) أيْنَما: المرادُ: أيْنَما ذهَب. وقائلُ البيت هو: النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٣).

كذلك في القدَرِ في قضيَّةِ المُتلاعنَين: أنَّه لولا أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ السَّتْرَ، لَفضحَ المرأةَ، وأظهَرَ آيةً تدُلُّ على صِدْقِ الزَّوجِ، أو بالعكْسِ إذا كان الزَّوجُ كاذبًا، لكنْ مِن رَحمةِ اللهِ أنَّه سُبحانَه وتَعالى يَستُرُ على عِبادِه في الدُّنيا مِثْلَ هذه الأمورِ، ثمَّ يُجازيهم عليها في الآخرةِ(١).

٢٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إنَّ بادئَ الرأيِ يقتضي (توَّاب رحيم)؛ لأنَّ الرَّحمةَ مُناسِبةٌ للتوبةِ، لكنْ عبَّرَ به؛ إشارةً إلى فائدةِ مَشروعيَّةِ اللِّعانِ وحِكمتِه، وهي السَّترُ عن هذه الفاحِشةِ العَظيمةِ(٢)، وأيضًا ففي ذِكْرِ وَصْفِ (الحكيم) هنا مع وَصْفِ (تَوَّاب): إشارةٌ إلى أنَّ في هذه التَّوبةِ حِكْمةً، وهي استِصلاحُ النَّاسِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- بدأ اللهُ سُبحانَه في اللِّعَان بذِكْرِ الزَّوجِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩]، وبدأ في حَدِّ الزنا بذِكْرِ المرأةِ، فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾، وهذا في غايةِ المناسَبةِ؛ لأنَّ في اللِّعانِ الزوجُ هو الذي قذَفَها، وعرَّضَها لِلِّعَانِ، وهَتَكَ عِرْضَها، ورَماها بالعَظيمةِ، وفَضحَها عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩).

قَومِها وأهلِها؛ ولهذا يجبُ عليه الحَدُّ إذا لم يُلَاعِنْ؛ فكانتِ البُداءةُ به في اللِّعَان أَوْلى مِن البُداءةِ بها، وأمَّا في الزِّنا فهو مِن المرأةِ أقبَحُ منه بالرَّجُلِ؛ لأنَّها تَزيدُ على هَتْكِ حقِّ الله: إفسادَ فِراشِ بَعلِها، وتَعليقَ نَسَبٍ مِن غيرِه عليه، وفَضيحةَ أهلِها وأقارِبِها، والجِنايةَ على مَحْضِ حقِّ الزَّوجِ، وخِيانتَه فيه، وإسقاطَ حُرْمتِه عندَ الناسِ، وتَعييرَه بإمساكِ البَغِيِّ، وغيرَ ذلك مِن مَفاسِدِ زِنَاها؛ فكانتِ البُداءةُ بها في الحَدِّ أهَمَّ[١].

- قَولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ لم يُقَيَّدْ بعَددٍ؛ اكتِفاءً بالتَّقييدِ في قَذْفِ غيرِ الزَّوجاتِ[٢].

- و﴿أَنفُسُهُمْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿شُهَدَآءُ﴾، أو صِفَةٌ لها، على أنَّ (إلَّا) بمعنَى (غَير)؛ جُعِلوا مِن جُملةِ الشُّهداءِ؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمرِ بعَدَمِ إلغاءِ قَولِهم بالمرَّةِ، ونَظْمِه في سِلْكِ الشَّهادةِ في الجُملةِ؛ وبذلك ازدادَ حُسْنُ إضافةِ الشَّهادةِ إليهم في قولِه تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿شُهَدَآءُ﴾؛ لظُهورِه مِنَ السِّياقِ، أي: شُهداءُ على ما ادَّعَوْهُ ممَّا رَمَوْا به أزواجَهُم[٤].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أصْلُه: (على أنَّه)، فحُذِفَ الجارُّ، وكُسِرَتْ (إنَّ)، وعُلِّقَ العاملُ عنها باللَّامِ؛ للتَّأكيدِ[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

- قَولُه: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾ فيه إفرادُ الشَّهادةِ الخامسةِ عنهُنَّ، مع كَونِها شَهادةً أيضًا؛ لاستِقلالِها بالفَحوى، وبِكادَتِها في إفادةِ ما يُقصَدُ بالشَّهادةِ مِن تَحقيقِ الخَبرِ وإظهارِ الصِّدقِ[١].

- قَولُه: ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فيه تَعيينُ خُصوصِ اللَّعنةِ له في الدُّعاءِ؛ لأنَّه إنْ كان كاذبًا فقد عَرَّضَ بامرأتِه لِلَعْنةِ النَّاسِ ونَبْذِ الأزواجِ إيَّاها؛ فناسَبَ أنْ يكونَ جَزاؤُه اللَّعنةَ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾ عُيِّنَ لها في الخامسةِ الدُّعاءُ بغضَبِ اللهِ عليها إنْ صَدَقَ زَوْجُها؛ لأنَّها أغضبَتْ زَوْجَها بفِعلِها؛ فناسَبَ أنْ يكونَ جَزاؤُها على ذلك غَضَبَ ربِّها عليها كما أغضبَتْ بَعْلَها[٣]. أو لأنَّ النِّساءَ كثيرًا ما يَستَعمِلْنَ اللَّعنَ، فربَّما يَجترِئْنَ على التَّفوُّهِ به؛ لسُقوطِ وَقْعِه عن قُلوبِهنَّ، بخِلافِ غضَبِه تعالى[٤].

وقيل: خُصَّتِ المرأةُ بالغضَبِ؛ لأنَّه أبلَغُ مِنَ اللَّعنِ الَّذي هو الطَّردُ؛ لأنَّه قد يَكونُ بسبَبٍ غيرِ الغضَبِ، وسبَبُ التَّغليظِ عليها: الحَثُّ على اعترافِها بالحقِّ؛ لِمَا يُصدِّقُ الزَّوجَ مِنَ القَرينةِ؛ مِن أنَّه لا يَتجشَّمُ فَضيحةَ أهْلِه -المُستلزِمِ لفَضيحَتِه- إلَّا وهو صادِقٌ[٥]، وهي تَعلمُ صِدقَه فيما رماها به؛ ولهذا كانت الخامسةُ في حقِّها أنَّ غضبَ الله عليها، والمغضوبُ عليه هو الذي يَعلَمُ الحقَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠١).

ثم يَحيدُ عنه[١]، ولأنَّها مادَّةُ الفسادِ، وخالِطةُ الأنسابِ[٢].

وقيل: خُصَّتِ المرأةُ بلفْظِ الغضبِ؛ لِعِظَمِ الذَّنْبِ بالنِّسبةِ إليها؛ لأنَّ الرجُلَ إذا كان كاذبًا لم يَصِلْ ذنبُه إلى أكثرَ مِن القذْفِ، وإنْ كانت هي كاذبةً فذنبُها أعظَمُ؛ لِمَا فيه مِن تلويثِ الفِراشِ، والتَّعرُّضِ لإلحاقِ مَن ليس مِن الزَّوجِ به؛ فتَنتشِرُ المَحْرميَّةُ، وتثبُتُ الوَلايةُ والمِيراثُ لِمَن لا يَستحِقُّهما[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ لِما مَرَّ مِن الأحكامِ العظيمةِ المُشتمِلةِ على التَّفضُّلِ مِن اللهِ والرَّحمةِ منه، والمُؤْذِنةِ بأنَّه توَّابٌ على مَن تابَ مِن عِبادِه، والمُنْبِئةِ بكَمالِ حِكْمَتِه تعالى، فلمَّا دخَلَتْ تلك الأحكامُ تحتَ كُلِّيٍّ هذه الصِّفاتِ، كان ذِكْرُ الصِّفاتِ تَذييلًا[٤].

- وجَوابُ (لَوْلَا) في قولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ مَحذوفٌ؛ لقَصْدِ تَهويلِ مَضمونِه وتَعظيمِه؛ فيَدُلُّ تَهويلُه على تَفخيمِ مَضمونِ الشَّرطِ الَّذي كان سببًا في امتِناعِ حُصولِه[٥]، وأيضًا لِتَذهَبَ النَّفْسُ كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ في تَقديرِه بحسَبِ المَقامِ[٦]. وأيضًا ثَمَّ حذْفٌ مع جَوابِ (لولا)، أي: كأنْ يُقالَ في بَيانِه: فلانٌ صادِقٌ في قذفِه فلانةَ بالزِّنا؛ لكونِ المقذوفةِ قد زَنتْ في نفْسِ الواقعِ. أو يُقال: فلانٌ كاذبٌ في قَذْفِه؛ لكونِ المقذوفةِ لم تَزْنِ في نفْسِ الواقِعِ؛ وسُدِلَ السِّتارُ على ذلك كلِّه؛ لأنَّ الغَرَضَ الأسْمى هو الصَّونُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٨، ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

والصَّونُ يتطلَّبُ التحوُّطَ، والتَّحوُّطُ يَستدعي السُّكوتَ عمَّا لا يَحسُنُ التَّصريحُ به[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الْتِفاتٌ؛ فقد الْتُفِتَ مِنَ الغَيبةِ إلى خِطابِ الرَّامينَ والمَرميَّاتِ؛ لتَسجيلِ المِنَّةِ على المُخاطَبينَ، بحيثُ لا تَبقَى لدَيْهم أعذارٌ واهيةٌ يَتشبَّثُون بها إذا هُم تَجاوَزوا حُدودَ ما بَيَّنَه لهم[٢].

- قَولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيه ما يُعرَفُ بالتَّغليبِ؛ فقد غَلَّبَ صِيغةَ الذُّكورِ على صِيغةِ الإناثِ، حيثُ لمْ يَقُلْ: عليكُم وعليكُنَّ؛ لأنَّه بِصَددِ مُخاطَبةِ الفريقَينِ، أي: القاذِفينَ والمَقذوفاتِ[٣].

- وقد تَكرَّرَ قولُه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أربعَ مَرَّاتٍ [النور: ١٠، ١٤، ٢٠، ٢١]؛ كرَّرَه لاختِلافِ الأجوبةِ فيه؛ إذْ جَوابُ الأوَّلِ مَحذوفٌ تَقديرُه: لَفَضَحَكُم، وجوابُ الثَّاني قولُه: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، وجوابُ الثَّالثِ مَحذوفٌ تَقديرُه: لعَجَّلَ لكمُ العَذابَ، وجوابُ الرَّابعِ: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[٤] [النور: ٢١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاءَ قولُه هنا في آخِرِ العَشْرِ الأُولى مِنَ السُّورةِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، وقال في آخِرِ العِشرينَ مِن أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠]؛ فاختَلَفَتْ خاتِمَتَا الآيتَينِ، وحُذِفَ جَوابُ (لَوْلَا) منهما؛ ووَجْهُه: أنه ذُكِرَ هنا وَصْفُ اللهِ بأنَّه ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾؛ لِمَا مرَّ مِن الأحكامِ العظيمةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٤).

المشتملةِ على التفضُّلِ مِن الله والرحمةِ منه، والمُؤْذِنةِ بأنَّه توَّابٌ على مَن تاب مِن عبادِه، والمُنبئةِ بكمالِ حكمتِه تعالى؛ إذ وضَعَ الشِّدَّةَ مَوضعَها، والرفقَ مَوضعَه، وكفَّ بعضَ الناسِ عن بعضٍ، وذُكِرَ بعد ذلك وصْفُه بأنَّه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ هذا التَّنبيهَ الَّذي تَضمَّنَه التَّذييلُ فيه انتِشالٌ للأُمَّةِ مِن اضْطِرابٍ عظيمٍ في أخلاقِها وآدابِها، وانفِصامِ عُرَى وَحْدَتِها، فأنقَذَها مِن ذلك رَأفةً ورَحمةً لآحادِها وجَماعتِها، وحِفْظًا لأواصِرِها. وذَكَر وَصْفَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ هنا؛ لأنَّه قد تَقدَّمَه إنقاذُه إيَّاهُم مِن سُوءِ مَحبَّةٍ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمَنوا، تلك المَحبَّةُ الَّتي انطَوَتْ عليها ضَمائرُ المُنافِقينَ، كان إنقاذُ المُؤمِنينَ مِن التَّخلُّقِ بها رأفةً بهم مِن العذابِ، ورَحمةً لهم بثَوابِ المَتابِ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥، ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٥٠).

الآيات (١١-١٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾: أي: الكَذِبِ والبُهتانِ، وقيل: الإفْكُ: أسوأُ الكذبِ، وأصلُه يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه(١).

﴿عُصۡبَةٞ﴾: العُصبةُ: الجماعةُ مِن العَشَرةِ إلى الأربعينَ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على ربطِ شَيءٍ بشَيءٍ(٢).

﴿كِبۡرَهُۥ﴾: أي: مُعظَمَه، أي: معظمَ ذلك الإثمِ والإفكِ، ومنه الكِبْرُ: وذلك أن يرى الإنسانُ نفْسَه أكبرَ مِن غيرِه، وقيلَ: الكِبْرُ: الإثمُ، وهو مِن الكبيرةِ، وأصلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦).

(كبر): خِلافُ الصِّغَرِ[1].

﴿أَفَضْتُمْ﴾: أي: خُضتُم، وأصلُ (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[2].

﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾: أي: يُلقيه بعضُكم إلى بعضٍ، يقالُ: تلقَّيتُ الحديثَ مِن فلانٍ، أي: أخذتُه عنه فقَبِلتُه، وأصلُ التلقِّي: التكَلُّفُ لِلِقاءِ الغَيرِ[3].

﴿هَيِّنًا﴾: يَسيرًا سَهلًا، لا تَبِعةَ فيه، وأصلُه يدلُّ على اليُسرِ والسُّهولةِ[4].

﴿بُهْتَانٌ﴾: أي: افتِراءٌ وكَذِبٌ يَبهَتُ سامِعَه لفظاعتِه، يقالُ: بَهَت فلانٌ فُلانًا: إذا كذَب عليه، وأصلُه مِن قولِهم: بُهِت الرجُلُ: إذا تحيَّر؛ فالبهتانُ كَذِبٌ يُحيِّرُ الإنسانَ لعِظَمِه، ثم جُعِلَ كلُّ باطلٍ يُتحيَّرُ مِن بطلانِه بُهتانًا[5].

﴿يَعِظُكُمُ﴾: أي: يُوصِيكُم ويُذكِّرُكم، والوَعظُ: زجرٌ مُقتَرِنٌ بتخويفٍ[6].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٧٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (٦/ ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ١٢٦)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين قذَفوا أمَّ المؤمنينَ عائِشةَ كَذِبًا وباطلًا، جماعةٌ منكم -أيُّها المُسلِمونَ-، لا تَحسَبوا قذْفَهم لها شرًّا لكم، بل هو خيرٌ لكم؛ لكلِّ فردٍ من أولئك القاذفينَ حظُّه من العذابِ بقَدْرِ جُرمِه، والذي تحمَّلَ مُعظَمَ ذلك الافتِراءِ والكَذِبِ له عذابٌ عظيمٌ. هلَّا حين سَمِعتُم ذلك الإفكَ ظننتُم -أيُّها المُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ- بإخوانِكم وأخواتِكم خيرًا مِن العفافِ والصَّلاحِ، وقلتُم: هذا القذفُ كَذِبٌ وافتراءٌ باطِلٌ! وهلَّا جاء هؤلاء المُفتَرونَ القاذِفونَ بالباطِلِ بأربعةِ رجالٍ عُدولٍ يشهَدون على صِحَّةِ قولِهم! وما داموا لم يأتوا بالشُّهداءِ فإنَّهم -في حُكمِ الله تعالى- كاذِبونَ.

ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم -بإمهالِكم للتَّوبةِ، وعدَمِ تعجيلِ العقوبةِ لكم، وعَفوِه عنكم- لنزَلَ بكم بسبَبِ خَوضِكم في حديثِ الإفكِ عذابٌ عظيمٌ حينَ تناقلتُم بيْنكم هذا الحديثَ السيِّئَ دون تحرُّجٍ أو تمهُّلٍ، وتفَوَّهتُم بكلامٍ لا عِلمَ لكم بحقيقتِه، ولا دليلَ معكم على صِدقِه، وتظنُّونَ خَوضَكم الباطِلَ هذا شيئًا يسيرًا سهلًا، وهو -عندَ اللهِ- ذنْبٌ عظيمٌ!

وهلَّا قلتُم وقتَ سماعِكم هذا الإفكَ: ما يَصِحُّ لنا أن نتكلَّم بهذا الباطِلِ، نُنزِّهُك -يا ربَّنا- ونتعجَّبُ مِن شناعةِ ما سَمِعْناه، ونبرَأُ إليك مِن هذا الافتراءِ العظيمِ! يُذَكِّرُكم اللهُ ويُحَذِّرُكم مِن العودةِ لهذا الإثمِ العظيمِ إن كنتُم مؤمنينَ بالله حقًّا، ويوضِّحُ اللهُ لكم آياتِه، واللهُ عليمٌ بأحوالِ خَلقِه، حكيمٌ فيما يأمُرُ به ويَنهى عنه.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى حُكْمَ القَذفِ بالنِّسبةِ للمُحصَناتِ، وبالنِّسبةِ للزَّوجاتِ، أتبَعَ ذلك بإيرادِ مثَلٍ لِما قاله المُنافِقونَ في شأنِ أمِّ المؤمِنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، ولِما كان يجبُ على المؤمِنينَ أن يَفعلوه في مِثلِ هذه الأحوالِ[١]. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ...﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن الزُّهْريِّ، قال: أخبَرَني سعيدُ بنُ المسيِّبِ وعُرْوةُ بنُ الزُّبيرِ وعَلْقَمةُ بنُ وقَّاصٍ وعُبَيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ بنِ مَسعودٍ، عن حديثِ عائشةَ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حين قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فبَرَّأها اللهُ ممَّا قالوا، وكلُّهم حدَّثَني طائفةً مِن حديثِها، وبعضُهم كان أَوْعَى لحديثِها مِن بعضٍ، وأثبَتَ اقتِصاصًا، وقد وَعَيتُ عن كلِّ واحدٍ منهم الحديثَ الذي حدَّثني، وبعضُ حديثِهم يُصَدِّقُ بعضًا؛ ذكروا أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالت: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أراد أن يَخرُجَ سَفرًا[٢] أقرَع بيْنَ نسائِه، فأيَّتُهنَّ خرَج سهمُها خرَج بها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معه. قالت عائشةُ: فأقرَع بيْنَنا في غزوةٍ غزاها، فخرَج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسولِ الله صلَّى

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٩١).

(٢) سَفرًا: أي: إلى سفرٍ؛ فهو نُصِب بنزعِ الخافضِ، أو ضُمِّن (يَخرُجُ) معنَى: يُنشئ؛ فالنصبُ على المفعوليةِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٣٩٠).

اللهُ عليه وسلَّم، وذلك بعدَما أُنزِل الحِجابُ، فأنا أُحمَلُ في هَوْدَجي[١]، وأُنزَلُ فيه مَسيرَنا، حتى إذا فَرَغ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن غَزْوِه وقَفَلَ[٢]، ودَنَوْنا مِن المدينةِ؛ آذَنَ[٣] لَيلةً بالرَّحيلِ، فقُمتُ حين آذَنوا بالرَّحيلِ، فمَشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلمَّا قضيتُ مِن شأني أقبلتُ إلى الرَّحلِ، فلمَستُ صدري، فإذا عِقْدي مِن جَزْعِ ظَفَارِ[٤] قد انقطع، فرجعتُ، فالتمستُ عِقدي، فحبَسَني ابتغاؤُه، وأقبل الرَّهطُ الذين كانوا يَرْحَلون لي[٥]، فحَمَلوا هَوْدَجي، فرَحَلوه على بعيري الذي كنتُ أركَبُ، وهم يَحسَبون أنِّي فيه -قالت: وكانت النِّساءُ إذ ذاك خِفافًا، لم يُهَبَّلْنَ[٦] ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ؛ إنَّما يأكُلنَ العُلْقةَ[٧] مِن الطعامِ، فلمْ يَستنكرِ القومُ ثِقَلَ الهَودَجِ حين رحَلوه ورفَعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ- فبَعَثوا الجملَ وساروا، ووجدتُ عِقدي بعدَما استمَرَّ الجيشُ، فجِئتُ منازِلَهم وليس بها داعٍ ولا مُجيبٌ، فتيمَّمتُ[٨] منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القومَ سيَفقِدوني فيرجِعونَ إليَّ، فبيْنا أنا جالسةٌ في منزلي غلبَتْني عيني فنِمتُ، وكان صفوانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلميُّ ثمَّ الذَّكْوانيُّ قد عَرَّسَ[٩] مِن وراءِ الجيشِ،

(١) الهَوْدَجُ: مَركَبٌ مِن مَراكِبِ النِّساءِ يكونُ على البعيرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٢) وقَفَل: أي: رَجَع. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٥٨).

(٣) آذَنَ: أي: أعلَمَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٥٨).

(٤) جَزْعِ ظَفَارِ: الجَزعُ: خَرَزٌ يماني، وظَفَارِ: قَريةٌ في اليَمَنِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٥) يَرْحَلون لي: أي: يَجعَلونَ الرَّحْلَ على البعيرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٦) يُهَبَّلْنَ: أي: يَثقُلْنَ باللَّحمِ والشَّحمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٧) العُلْقةَ: أي: القَليلَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٨) فتيمَّمتُ: أي: قَصَدتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٩) عرَّس: التَّعريسُ: النُّزولُ آخِرَ اللَّيلِ في السَّفَرِ لِنَومٍ أو استراحةٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

فادَّلَجَ[١] فأصبَحَ عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرَفَني حينَ رآني -وقد كان يراني قبْلَ أن يُضرَبَ الحِجابُ علَيَّ- فاستيقظتُ باسترِجاعِه حينَ عرَفَني، فخَمَّرتُ[٢] وجهي بجِلبابي، وواللهِ ما يُكَلِّمُني كَلِمةً، ولا سمِعْتُ منه كَلِمةً غيرَ استِرجاعِه، حتى أناخَ[٣] راحلتَه، فوَطِئَ على يَدِها فرَكِبْتُها، فانطلَق يَقودُ بيَ الراحلةَ، حتى أتَيْنا الجيشَ بعدَما نزَلوا مُوغِرينَ[٤] في نَحْرِ الظَّهيرةِ[٥]، فهَلَكَ مَن هلَكَ في شأني، وكان الذي تولَّى كِبْرَه عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ.

فقَدِمْنا المدينةَ، فاشتكيتُ حينَ قَدِمْنا المدينةَ شَهرًا، والنَّاسُ يُفيضونَ في قَولِ أهلِ الإفكِ، ولا أَشعُرُ بشَيءٍ مِن ذلك، وهو يَريبُني[٦] في وَجَعي أنِّي لا أعرِفُ مِن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللُّطفَ الذي كنتُ أرى منه حينَ أشتكي؛ إنَّما يَدخُلُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيُسَلِّمُ، ثمَّ يقولُ: كيف تِيكُمْ؟ فذاك يَريبُني، ولا أشعُرُ بالشَّرِّ.

حتى خرجتُ بعدَما نَقَهْتُ[٧]، وخرَجَتْ معي أمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَناصِعِ[٨] -وهو مُتبَرَّزُنا- ولا نخرُجُ إلَّا لَيلًا إلى لَيْلٍ، وذلك قبْلَ أن نتَّخِذَ الكُنُفَ قَريبًا

---

(١) ادَّلَجَ: أي: سار آخِرَ اللَّيلِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٢) فخمَّرتُ: أي: غطَّيتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٣) أناخ: أي: أبرَكَ بَعيرَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٣٩١).

(٤) مُوغِرين: الموغِرُ: النازلُ في وقت الوَغْرة، وهي شِدَّةِ الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٥) نحرِ الظَّهيرةِ: أي: وقت القائلةِ وشِدَّة الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٦) يَريبُني: أي: يُوهِمُني ويُشَكِّكني. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

(٧) نَقَهْتُ: بَرِئْتُ مِن المَرَضِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

(٨) المَناصِعُ: مَواضِعُ خارجَ المدينةِ كانوا يتبرَّزونَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

مِن بُيوتِنا، وأمْرُنا أمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ في التنَزُّهِ، وكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخِذَها عندَ بيوتِنا، فانطلقتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ -وهي بنتُ أبي رُهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبدِ مَنافٍ، وأمُّها ابنةُ صَخرِ ابنِ عامرٍ، خالةُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وابنُها مِسطَحُ بنُ أُثاثةَ بنِ عبَّادِ بنِ المُطَّلِبِ- فأقبلتُ أنا وبنتُ أبي رُهْمٍ قِبَلَ بيتي حين فرَغْنا مِن شأنِنا، فعَثَرَتْ أمُّ مِسطَحٍ في مِرْطِها[١]، فقالت: تَعِسَ مِسطَحٌ! فقلتُ لها: بئسَ ما قُلتِ! أتسُبِّينَ رجُلًا قد شَهِدَ بَدرًا؟! قالت: أيْ هَنْتَاهُ[٢]، أوَلَمْ تَسمَعي ما قال؟! قلتُ: وماذا قال؟ قالت: فأخبَرَتني بقولِ أهلِ الإفكِ؛ فازددتُ مرضًا إلى مرَضي، فلمَّا رجعتُ إلى بيتي، فدخَل علَيَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسلَّم، ثمَّ قال: كيف تِيكُمْ؟ قلتُ: أتأذَنُ لي أن آتيَ أبَوَيَّ؟ -قالت: وأنا حينَئِذٍ أريدُ أن أتيقَّنَ الخبرَ مِن قِبَلِهما-، فأذِنَ لي رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فجِئتُ أبَوَيَّ، فقُلتُ لأمي: يا أُمَّتَاهْ، ما يتحدَّثُ الناسُ؟! فقالت: يا بُنَيَّةُ، هَوِّني عليك؛ فواللهِ لَقَلَّما كانت امرأةٌ قَطُّ وَضِيئةً[٣] عندَ رجُلٍ يحِبُّها، ولها ضرائِرُ، إلاَّ كثَّرْنَ عليها، قالت: قلتُ: سُبحانَ اللهِ، وقد تحدَّث النَّاسُ بهذا؟! قالت: فبكيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ لا يَرْقأُ[٤] لي دَمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، ثم أصبحتُ أبكي.

ودعا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليَّ بنَ أبي طالبٍ وأُسامةَ بنَ زيدٍ حين استلبثَ الوحيُ، يستشيرُهما في فِراقِ أهلِه، قالت: فأمَّا أسامةُ بنُ زيدٍ فأشار على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالذي يَعلمُ مِن براءةِ أهلِه، وبالذي يعلَمُ في نفْسِه لهم مِن الوُدِّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هم أهلُك، ولا نعلمُ إلَّا خيرًا. وأمَّا

---

(١) مِرطِها: المِرطُ: كِساءٌ مِن صُوفٍ أو غَيرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

(٢) هَنْتَاهُ: أي: يا هذه، أو يا امرأةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

(٣) وضيئةً: أي: جميلةً حَسناءَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

(٤) لا يَرقأُ: أي: لا يَنقَطِعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: لم يُضَيِّقِ اللهُ عليك، والنِّساءُ سواها كثيرٌ، وإنْ تسألِ الجاريةَ تَصْدُقْك. قالت: فدعا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَريرةَ، فقال: أيْ بَريرةُ، هل رأيتِ مِن شَيءٍ يَرِيبُكِ مِن عائشةَ؟ قالت له بَريرةُ: والذي بعثَك بالحَقِّ، إنْ رأيتُ عليها أمرًا قَطُّ أَغْمِصُه[١] عليها أكثرَ مِن أنَّها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تنام عن عَجينِ أهلِها، فتأتي الدَّاجِنُ[٢] فتأكُلُه. قالت: فقام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المِنبرِ، فاستَعْذَرَ[٣] مِن عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ ابنِ سَلولَ، قالت: فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على المِنبرِ: يا مَعشرَ المُسلمينَ، مَن يَعذِرُني مِن رجُلٍ قد بلغ أذاه في أهلِ بيتي؟ فوالله ما عَلِمتُ على أهلي إلَّا خيرًا، ولقد ذكَروا رجلًا ما علمتُ عليه إلَّا خيرًا، وما كان يدخُلُ على أهلي إلَّا معي. فقام سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ، فقال: أنا أَعذِرُك منه يا رسولَ اللهِ، إن كان مِن الأَوسِ ضَرَبْنا عُنُقَه، وإن كان مِن إخوانِنا الخَزرجِ أمَرْتَنا ففعَلْنا أمْرَك، قالت: فقام سعدُ بنُ عُبادةَ -وهو سَيِّدُ الخَزرجِ، وكان رجلًا صالِحًا، ولكِنِ اجتَهَلَتْه الحَمِيَّةُ[٤]- فقال لسَعدِ بنِ مُعاذٍ: كذَبْتَ، لعَمْرُ اللهِ[٥] لا تقتُلُه، ولا تقدِرُ على قَتلِه! فقام أُسَيْدُ بنُ حُضَيرٍ -وهو ابنُ عَمِّ سعدِ بنِ مُعاذ- فقال لسَعدِ بنِ عُبادةَ: كذَبْتَ، لَعَمْرُ اللهِ لنَقتُلَنَّه؛ فإنَّك منافِقٌ تجادِلُ عن المنافقين! فثار الحَيَّانِ: الأَوسُ والخزرجُ، حتى هَمُّوا أن يَقتَتِلوا، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِمٌ على المِنبَر، فلم يزَلْ

---

(١) أغمِصُه عليها: أي: أعيبُها به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٢) الدَّاجِنُ: أي: الشاةُ التي تألَفُ البَيتَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٣) فاستعذر: أي: قال مَن يقومُ بعُذري إن كافأتُه على قبيحِ فِعالِه ولا يلومُني، أو من ينصُرُني؟ يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٤) اجتَهَلَتْه: أي: استَخَفَّتْه وأغضَبَتْه وحَمَلَتْه على الجَهلِ. والحَمِيَّةُ: أي: العَصبيَّةُ والأنفَةُ والغَضَبُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٢٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٠).

(٥) لعَمْرُ اللهِ: هو قَسَمٌ ببَقاءِ اللهِ تعالى ودَوامِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٩٨).

رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخَفِّضُهم[١] حتى سكَتوا وسكَتَ.

قالت: وبكيتُ يَومي ذلك لا يَرْقأُ لي دمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، ثمَّ بكيتُ ليلتي المُقبِلةَ لا يَرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، وأبَوايَ يَظُنَّانِ أنَّ البكاءَ فالِقٌ كَبِدي، فبيْنما هما جالِسانِ عندي وأنا أبكي استأذنَتْ علَيَّ امرأةٌ من الأنصارِ، فأذِنتُ لها، فجَلَسَت تبكي. قالت: فبيْنا نحنُ على ذلك دخَلَ علينا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَلَّم ثمَّ جلس، قالت: ولم يجلِسْ عندي منذُ قيلَ لي ما قيل، وقد لَبِث شَهرًا لا يُوحَى إليه في شأني بشَيءٍ. قالت: فتشهَّدَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ جلَس، ثمَّ قال: أمَّا بعدُ، يا عائشةُ، فإنَّه قد بلغَني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كُنتِ بريئةً فسيُبَرِّئُك اللهُ، وإن كنتِ ألممْتِ[٢] بذنْبٍ فاستغفري اللهَ وتوبي إليه؛ فإنَّ العبدَ إذا اعترَف بذنبٍ ثم تاب، تاب الله عليه. قالت: فلمَّا قضى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مقالتَه، قَلَصَ[٣] دمعي حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً! فقلتُ لأبي: أجِبْ عنِّي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما قال، فقال: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقلتُ لأمي: أجيبي عنِّي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقلتُ -وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، لا أقرأُ كثيرًا مِن القرآنِ-: إنِّي واللهِ لقد عرَفْتُ أنَّكم قد سمِعتُم بهذا حتى استقَرَّ في نفوسِكم، وصدَّقتُم به، فإنْ قلتُ لكم: إنِّي بريئةٌ -واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةٌ- لا تُصَدِّقوني بذلك، ولئنْ اعترَفْتُ لكم بأمرٍ -واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةٌ- لَتُصدِّقونَني! وإنِّي واللهِ ما أجِدُ لي ولكم مثلًا إلَّا كما قال أبو يوسفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:

(١) يُخفِّضُهم: أي: يُسَكِّنُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٨).

(٢) ألممْتِ: أي: فعَلْتِ ذَنبًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١١).

(٣) قلَصَ: أي: استمسَك نزولُه فانقَطَع. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٥).

١٨]، قالت: ثمَّ تحوَّلتُ فاضْطَجَعتُ على فِراشي.

قالت: وأنا -واللهِ- حينَئذٍ أعلَمُ أنِّي بريئةٌ، وأنَّ اللهَ مُبَرِّئي ببَراءتي، ولكِنْ واللهِ ما كنتُ أظُنُّ أن يُنزَلَ في شأني وحْيٌ يُتلَى، ولَشَأني كان أحقَرَ في نفْسي مِن أن يتكلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيَّ بأمرٍ يُتلى! ولكنِّي كنتُ أرجو أن يرَى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّومِ رُؤيا يُبَرِّئُني اللهُ بها. قالت: فواللهِ ما رامَ[١] رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مجلِسَه، ولا خرَج مِن أهلِ البَيتِ أحدٌ حتى أنزَل اللهُ عزَّ وجَلَّ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخَذه ما كان يأخُذُه مِن البُرَحاءِ[٢] عندَ الوَحيِ، حتى إنَّه لَيَتحَدَّرُ منه مِثلُ الجُمَانِ[٣] مِن العَرَقِ في اليومِ الشَّاتِ؛ مِن ثِقَلِ القَولِ الذي أُنزِلَ عليه، قالت: فلمَّا سُرِّيَ[٤] عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يضحَكُ، فكان أوَّلَ كَلِمةٍ تكلَّمَ بها أنْ قال: أَبْشِري يا عائشةُ، أمَّا اللهُ فقد برَّأَكِ! فقالت لي أمِّي: قُومي إليه، فقلتُ: واللهِ لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلَّا اللهَ؛ هو الذي أنزل براءتي! قالت: فأنزل اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] عشْرَ آياتٍ، فأنزل اللهُ عَزَّ وجَلَّ هؤلاء الآياتِ براءتي.

قالت: فقال أبو بكرٍ -وكان يُنفِقُ على مِسْطَحٍ؛ لقَرابتِه منه وفَقرِه-: واللهِ لا أُنفِقُ عليه شيئًا أبدًا بعدَ الذي قال لعائشةَ؛ فأنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]...، فقال أبو بكرٍ: واللهِ إنِّي لَأُحِبُّ أن يغفِرَ اللهُ لي، فرجَع إلى مِسطَحٍ النَّفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال:

---

(١) ما رام: أي: ما فارق. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٢) البُرَحاءِ: أي: شِدَّةِ الحُمَّى أو شِدَّةِ الكَربِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٣) الجُمَانِ: أي: اللُّؤلؤ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٤) سُرِّيَ: أيْ: كُشِفَ وأُزيلَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٢).

لا أَنزِعُها منه أبدًا.

قالت عائشةُ: وكان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سأل زينبَ بنتَ جَحشٍ زوجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أمري: ما عَلِمْتِ؟ -أو: ما رأيتِ؟- فقالت: يا رسولَ اللهِ، أَحْمي سَمعي وبصري، واللهِ ما عَلِمتُ إلَّا خيرًا. قالت عائشةُ: وهي التي كانت تُسامِيني[1] مِن أزواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعصَمَها اللهُ بالوَرَعِ، وطَفِقَتْ أختُها حَمْنةُ بنتُ جَحشٍ تُحارِبُ لها، فهلَكَت فيمَن هلَكَ)).
قال الزُّهْريُّ: فهذا ما انتهى إلينا مِن أمرِ هؤلاءِ الرَّهطِ[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾.

أي: إنَّ الذين جاؤوا بالبُهتانِ والكَذِبِ الشَّنيعِ بقَذفِهم عائشةَ، جماعةٌ في عدادِكم، أيُّها المُسلِمونَ[3].

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: لا تظنُّوا قَذْفَهم لها شَرًّا لكم، بل هو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ[4].

---

(١) تُسامِيني: أي: تُعالِيني. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) واللفظُ له.

قال ابنُ الجوزي: (أجمع المفسِّرون أنَّ هذه الآيةَ وما يتعلَّقُ بها بعدَها نزلت في قصَّةِ عائشةَ رضيَ الله عنها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٢). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٢١-٢٢٣).

قال ابنُ كثير: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ منكم، يعني: ما هو واحِدٌ ولا اثنانِ، بل جماعةٌ، فكان المقدَّمُ في هذه اللَّعنةِ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ: رأسَ المنافقين؛ فإنَّه كان يجمَعُه ويستوشيه، حتى دخَل ذلك في أذهانِ بعضِ المسلِمينَ، فتكَلَّموا به، وجوَّزه آخرون منهم، وبقِيَ الأمرُ كذلك قريبًا من شهرٍ، حتى نزَل القرآنُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾.

أي: لكلِّ واحدٍ ممَّن تكلَّم بالإفكِ نَصيبُه مِن العذابِ؛ جزاءً له بقَدرِ ذَنبِه(١).

= كثير)) (٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٢١-٢٢٣).

قال ابن عاشور: (خيرٌ لهم؛ لأنَّ فيه منافعَ كثيرةً؛ إذ يميِّزُ به المؤمنون الخُلَّصُ مِن المنافقين، وتُشرَعُ لهم بسبَبِه أحكامٌ تردَعُ أهلَ الفِسقِ عن فِسقِهم، وتتبيَّنُ منه براءةُ فُضَلائِهم، ويزدادُ المنافِقونَ غيظًا، ويُصبِحونَ محقَّرينَ مذمومينَ، ولا يفرحون بظَنِّهم حُزْنَ المسلمين؛ فإنَّهم لَمَّا اختلَقوا هذا الخبَرَ ما أرادوا إلَّا أذَى المسلمينَ، وتجيءُ منه مُعجِزاتٌ بنزولِ هذه الآياتِ بالإنباء بالغيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

وقال ابنُ جُزي: (والخيرُ في ذلك من خمسةِ أوجُهٍ: تَبرِئةُ أمِّ المؤمنينَ، وكرامةُ اللهِ لها بإنزالِ الوَحيِ في شأنِها، والأجرُ الجزيلُ لها في الفِرْيةِ عليها، ومَوعِظةُ المؤمِنينَ، والانتِقامُ مِن المُفتَرينَ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٢١٧).

وقال ابن الأثير: (قال عروةُ: لو لم يكُنْ لعائشةَ مِن الفضائلِ إلَّا قصةُ الإفكِ لكفَى بها فضلًا وعلوَّ مجدٍ؛ فإنَّها نزَل فيها مِن القرآنِ ما يُتلَى إلى يومِ القيامةِ). ((أسد الغابة)) (٦/ ١٩١).

ومِن أوجُهِ الخَيريَّةِ أيضًا: أنَّه ظهر بذلك نقاءُ وطُهرُ فِراشِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه لا يُمكِنُ لفِراشِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتدَنَّس بهذا.

ومنها: الأجرُ العظيمُ الذي ترتَّب على ما أصاب المؤمِنينَ في هذه الحادثةِ مِنَ الأذى والمشقَّةِ والجَهدِ الجَهيدِ، حتى إنَّه مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أنَّ الوَحيَ انقطَعَ شَهرًا كامِلًا!

ومنها: رِفعةُ شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِكَونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يدافِعُ بنَفْسِه عنه.

ومنها: تأديبُ المؤمنينَ وعِظَتُهم بما يَنبغي أن يَكونوا عليه مِن عدَمِ إطلاقِ القَولِ والتَّجَرُّؤِ على أعراضِ الأعِفَّاءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٢)، ((الوسيط)) =

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: والذي تحمَّل مُعظَمَ ذلك الإثمِ والإفكِ، له عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ(١).

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى قِصَّةَ الإفكِ، وذكَرَ حالَ المقذوفينَ والقاذفينَ؛ عقَّبَها بما يليقُ بها مِن الآدابِ والزَّواجرِ(٢).

وأيضًا لَمَّا أخبر اللهُ سُبحانَه وتعالى بعقابِ أهلِ الإفكِ، وكان في المؤمنينَ

= للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

وقال ابن كثير: (﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ قيل: ابتدأ به. وقيل: الذي كان يجمَعُه ويَستوشيه ويُذيعُه ويُشيعُه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

قال ابنُ جرير: (لا خِلافَ بيْن أهلِ العِلمِ بالسِّيَرِ أنَّ الذي بدأ بذكْرِ الإفكِ، وكان يجمعُ أهلَه ويحدِّثُهم: عبدُ الله بنُ أبيٍّ ابنُ سَلولَ، وفِعلُه ذلك على ما وصفتُ كان تولِّيَه كِبْرَ ذلك الأمرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩٧).

وقال ابن عطية: (والإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ إلى عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ، والعذابُ المتوَعَّدُ به هو عذابُ الآخرةِ، وهذا قولُ الجمهورِ، وهو ظاهِرُ الحديثِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٩)

وممَّن نسَبَ إلى الأكثرينَ أيضًا أنَّه عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ: السمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقيل: بل المرادُ به حسَّانُ بنُ ثابتٍ، وهو قولٌ غريبٌ، ولولا أنَّه وقَع في صحيح البخاريِّ ما قد يدُلُّ على ذلك لَمَا كان لإيرادِه كبيرُ فائدةٍ؛ فإنَّه مِنَ الصحابةِ الذين كان لهم فضائلُ ومناقبُ ومآثِرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٠).

مَن سَمِعَه وسكَت، وفيهم مَن سَمِعه فتحَدَّث به متعجِّبًا مِن قائِلِه، أو متثبِّتًا في أمرِه، وفيهم مَن أكذَبه- أتْبَعه سُبحانَه وتعالى بعتابِهم في أسلوبِ خطابِهم، مُثنيًا على مَن كذَّبه، فقال مُستأنفًا مُحرِّضًا(١):

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾.

أي: هلَّا حين سَمِعتُم قولَ أهلِ الإفكِ ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم ببعضٍ السلامةَ مما رُمُوا به مِن الإفكِ(٢)!

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي: وقال المؤمنونَ والمؤمناتُ: هذا الذي يقولُه أهلُ الإفكِ كَذِبٌ واضِحٌ على أُمِّ المؤمنينَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بإخوانِهم وأهلِ دينِهم الذين هم منهم مِن المؤمنينَ والمؤمناتِ خيرًا: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّه كان يَنبغي أن يَقيسَ فُضلاءُ المؤمنينَ والمؤمناتِ الأمرَ على أنفُسِهم، وإذا كان ذلك يَبعُدُ في حقِّهم، فهو في حقِّ عائشةَ أبْعَدُ؛ لفَضلِها: ابنُ عطية، وابنُ جزي، وابن كثير، والثعالبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير أبي =

﴿لَوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾.

أي: هلَّا جاء أهلُ الإفكِ بأربعةِ رِجالٍ عُدولٍ يَشهَدونَ على صِحَّةِ ما رَمَوا به عائشةَ رَضِي اللهُ عنها[1]!

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

أي: فإذ لم يأتِ القاذِفون بأربعةِ شُهَداءَ يَشهَدونَ على صِحَّةِ ما قالوا، فإنَّهم في حُكمِ اللهِ كاذِبونَ[2].

= السعود)) (٦/ ١٦١).

قال ابنُ كثير: (﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كَذِبٌ ظاهِرٌ على أمِّ المؤمنينَ؛ فإنَّ الذي وقع لم يكن ريبةً، وذلك أنَّ مجيءَ أمِّ المؤمنين راكبةً جَهرةً على راحلةِ صفوانَ بنِ المُعطِّلِ في وقتِ الظَّهيرةِ، والجيشُ بكمالِه يُشاهِدونَ ذلك، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْن أظهُرِهم، لو كان هذا الأمرُ فيه ريبةٌ لم يكنْ هكذا جهرةً، ولا كانا يَقدَمانِ على مِثلِ ذلك على رؤوسِ الأشهادِ، بل كان يكونُ هذا -لو قُدِّرَ- خُفيةً مستورًا؛ فتعيَّن أنَّ ما جاء به أهلُ الإفك ممَّا رَمَوا به أمَّ المؤمنينَ هو الكَذِبُ البَحتُ، والقولُ الزورُ، والرُّعونةُ الفاحشةُ الفاجرةُ، والصفقةُ الخاسرةُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

قال القرطبي: (قد يعجِزُ الرجلُ عن إقامةِ البيِّنة وهو صادقٌ في قذفِه، ولكنَّه في حُكمِ الشَّرع وظاهِرِ الأمرِ كاذبٌ، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانَه إنَّما رتَّب الحدودَ على حُكمِه الذي شرعه في الدُّنيا لا على مقتضى عِلمِه... وأجمع العُلَماءُ أنَّ أحكامَ الدُّنيا على الظاهر، وأنَّ السَّرائرَ إلى الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٣).

وقال ابنُ تيمية: (القاذِفُ كاذِبٌ، ولو كان قد قذَف مَن زنى في نفسِ الأمرِ؛ لأنَّه أخبَر بما =

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى لهم بإقامةِ الدَّليلِ على كَذِبِ الخائضينَ في هذا الكلامِ أنَّهم استحَقُّوا الملامَ، وكان ذلك مرَغِّبًا لأهلِ التقوى؛ بيَّن أنَّهم استحقُّوا بالتقصيرِ في الإنكارِ عمومَ الانتقامِ في سياقٍ مُبَشِّرٍ بالعفوِ[(١)]، فقال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: ولولا فضلُ الله عليكم -أيُّها الخائضون في الإفكِ- ورحمتُه بكم في الدُّنيا والآخرةِ، بإمهالِه لكم لتتوبوا، وقَبولِ توبتِكم، وعَفوِه عنكم، وعدَمِ معُاجلتِكم بالعقوبةِ- لأصابَكم بسبَبِ خوضِكم في عِرضِ عائشةَ عذابٌ عظيمٌ[(٢)].

= لا يحلُّ له الإخبارُ به، وتكلَّف ما لا عِلمَ له به). ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٣٧١).

وقال السعدي: (فإنَّهم كاذبونَ في حُكمِ الله؛ لأنَّ الله حرَّم عليهم التكلُّمَ بذلك، مِن دونِ أربعةِ شهودٍ؛ ولهذا قال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ ولم يقل «فأولئك هم الكاذبون» وهذا كلُّه من تعظيمِ حُرمةِ عِرضِ المسلمِ؛ بحيث لا يجوزُ الإقدامُ على رميه، مِن دون نصابِ الشَّهادةِ بالصِّدقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

قال ابنُ كثير: (وهذا فيمن عندَه إيمانٌ رزقه اللهُ بسببِه التوبةَ إليه؛ كمِسطحٍ، وحسانَ، وحَمْنةَ بنتِ جحشٍ أختِ زينبَ بنتِ جحش. فأمَّا مَن خاض فيه مِن المنافقين -كعبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ وأضرابِه- فليس أولئك مرادينَ في هذه الآيةِ؛ لأنَّه ليس عندَهم مِن الإيمانِ والعملِ الصالحِ ما يُعادِلُ هذا ولا ما يُعارِضُه، وهكذا شأنُ ما يَرِدُ مِن الوعيدِ على فِعلٍ معيَّنٍ، يكونُ مطلَقًا =

﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾.

﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾.

أي: لَمَسَّكم عذابٌ عظيمٌ حين تتلقَّونَ الإفكَ، ويأخُذُه ويَرويه بعضُكم عن بعضٍ(١).

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾.

أي: وتقولونَ في عائشةَ كلامًا ليس لكم أيُّ دليلٍ على صحَّتِه(٢)!

﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾.

= مشروطًا بعدمِ التوبةِ، أو ما يقابِلُه مِن عملٍ صالحٍ يوازنُه أو يرجَحُ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

قال ابن الجوزي: (ذَكَرَ الوقتَ الذي لولا فَضلُه لأصابهم فيه العذابُ، فقال: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ﴾، وكان الرجُلُ منهم يَلْقى الرجُلَ فيقولُ: بلَغَني كذا، فيتلقَّاه بعضُهم من بعضٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٠٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قوله: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ فهذا بيانٌ لسببِ العذابِ، وهو تلقِّي الباطِلِ بالألسنةِ، والقَولِ بالأفواه، وهما نوعانِ محرَّمانِ: القولُ بالباطِلِ، والقولُ بلا علمٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣١).

وقال ابن جُزي: (في هذا الكلامِ عِتابٌ لهم على خوضِهم في حديثِ الإفكِ، وإن كانوا لم يُصَدِّقوه؛ فإنَّ الواجِبَ كان الإغضاءَ عن ذِكرِه، والتركَ له بالكلِّيَّةِ، فعاتَبَهم على ثلاثةِ أشياءَ، وهي: تلقِّيه بالألسنةِ، أي: السؤالُ عنه، وأخْذُه مِن المسؤولِ، والثاني: قولُهم ذلك، والثالث: أنهم حَسِبوه هيِّنًا، وهو عندَ الله عظيمٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣، ٦٤).

أي: وتَظُنُّونَ أنَّ تلقِّيَكم الإفكَ، وروايةَ بَعضِكم له عن بعضٍ، والخوضَ فيه بلا علمٍ- أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، وهو عندَ اللهِ ذنْبٌ عظيمٌ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ(٢)، قيل: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحفِ(٣)، وقَذفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ))(٤).

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

أي: وهلَّا حين سَمِعتُم الإفكَ قلتُم: ما يَنبغي لنا أن نتكلَّمَ بهذا الباطِلِ أو نذكُرَه لأحدٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨).

(٢) المُوبقاتِ: أي: المُهلِكاتِ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم)) للقاضي عياض (١/ ٣٥٦).

(٣) التولِّي يومَ الزَّحفِ: أي: الإعراضُ عن الحَربِ، والفِرارُ مِن الكُفَّارِ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٢/ ٥٠٥)، ((عمدة القاري)) للعَيني (١٤/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) واللفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠).

قال ابن كثير: (هذا تأديبٌ آخَرُ بعد الأوَّلِ: الأمرِ بالظنِّ خيرًا، أي: إذا ذُكِرَ ما لا يَليقُ من القولِ في شأنِ الخِيَرَةِ، فأَوْلى يَنبغي الظَّنُّ بهم خيرًا، وألا يُشعِرَ نفْسَه سوى ذلك، ثم إن عَلِقَ بنفْسِه شَيءٌ من ذلك -وسوسةٌ أو خيالٌ- فلا يَنبغي أن يتكلَّم به). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩). =

﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ننزِّهُك -يا ربَّنا- ونبرأُ إليك من هذا الكَذِبِ العظيمِ[(١)]!

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧)﴾.

أي: يَنصَحُكم اللهُ ويُذَكِّرُكم ويَنهاكم؛ لئلَّا تَعودُوا لِقَذفِ المُحصَناتِ، والخَوضِ في أعراضِهنَّ بلا عِلمٍ، إن كنتُم مؤمنينَ باللهِ وشَرعِه، وتتَّعظونَ بِعِظاتِه، فتنتهُون عمَّا نهاكم عنه، وتأتمِرون بأمرِه[(٢)].

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾.

أي: ويوضِّحُ اللهُ لكم آياتِ كتابِه، فيَجعَلُها لكم واضِحةَ الدَّلالةِ على المقصودِ؛ لتَعمَلوا بها وتتَّعِظوا[(٣)].

= وقال ابن عاشور: (معنى ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا﴾ أن يقولوا لِلَّذينَ أخبَروهم بهذا الخبرِ الآفِك، أي: قلتُم لهم زجرًا وموعِظةً. وضميرُ ﴿لَنَا﴾ مرادٌ به القائِلون والمخاطَبون؛ فأمَّا المخاطَبون فلأنَّهم تكلَّموا به حين حدَّثوهم بخبرِ الإفكِ، والمعنى: ما يَكونُ لكم أن تتكلَّموا بهذا. وأمَّا المتكَلِّمون فلِتنزُّهِهم مِن أن يجريَ ذلك البهتانُ على ألسنَتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

قال الشوكاني: (وعظ سُبحانَه الذين خاضوا في الإفكِ، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أي: ينصَحُكم اللهُ، أو يُحَرِّمُ عليكم، أو يَنهاكم؛ كراهةَ أن تعودوا، أو مِن أن تعودوا، أو في أن تعودوا لِمثلِ هذا القذفِ مُدَّةَ حياتِكم إن كنتم مؤمِنينَ؛ فإنَّ الإيمانَ يَقتضي عدَمَ الوقوعِ في مِثلِه ما دمتُم، وفيه تهييجٌ عَظيمٌ، وتقريعٌ بالغٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بعبادِه وما يُصلِحُهم، وعِلمُه بأعمالِهم، فيُجازي كلًّا بما قدَّم مِن خيرٍ أو شرٍّ، وهو ذو الحكمةِ التامَّةِ العامَّةِ، ومِن ذلك حكمتُه في شرعِه، وتكليفِ عِبادِه، وتدبيرِ خَلقِه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللائِقِ به[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المؤمِنِ إذا سَمِعَ قالةً في أخيه أن يبنيَ الأمرَ فيه على ظَنِّ الخيرِ، وأن يقولَ بِناءً على ظَنِّه: هذا إفكٌ مُبينٌ، هكذا باللَّفظِ الصَّريحِ ببراءةِ أخيه، كما يقولُ المُستيقنُ المطَّلِعُ على حقيقةِ الحالِ، وهذا مِن الأدبِ الحسَنِ[2]، فالواجِبُ على المؤمِنين إذا سَمِعوا قَولَ القاذِفِ أن يُكَذِّبوه، ويَشتَغِلوا بإحسانِ الظَّنِّ، ولا يُسرِعوا إلى التُّهمةِ فيمن عرَفوا فيه الطَّهارةَ[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ الواجِبَ فيمن كان ظاهِرُه العدالةَ أن يُظَنَّ به خيرٌ،

= (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٣).

قال البِقاعي: (﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أي: بما له مِن الاتِّصافِ بصِفاتِ الجلالِ والإكرامِ ﴿لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: العلاماتِ الموضِّحةَ للحَقِّ والباطِلِ، مِن كُلِّ أمرٍ دينيٍّ أو دُنيويٍّ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤١).

ويوجِبُ أن تكونَ عُقودُ المسلمين وتصرُّفاتُهم محمولةً على الصِّحَّةِ والجوازِ[(١)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المسلمينَ عُدولٌ ما لم يظهَرْ منهم رِيبةٌ؛ لأنَّا مأمورونَ بحُسنِ الظَّنِّ، وذلك يوجِبُ قَبولَ الشهادةِ ما لم يَظهَرْ منه ريبةٌ توجِبُ التوقُّفَ عنها أو ردَّها[(٢)].

٤- في قولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ دليلٌ على أنَّ التصديقَ بالذَّايِعِ مِن الخبرِ المُنْكَرِ والنِّحلةِ الفاحشةِ إلى المُخْبَرِ عنه- مُحَرَّمٌ؛ وهو مُوجِبٌ على سامِعِه إعدادَه في وجوهِ الكذبِ والزُّورِ، بل لازمٌ له أن يَلفِظَ بتكذيبِه، ولا يقتصرَ على إضمارِ القلبِ ونُبُوِّه عنه[(٣)]!

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه تحريمُ ظَنِّ السُّوءِ، وأنَّه لا يُحكَمُ بالظنِّ[(٤)].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه أنَّ مَن عُرِف بالصلاحِ لا يُعدَلُ به عنه لخبرٍ مُحتَمَلٍ، وأنَّ القاذِفَ يُكذَّبُ شرعًا ما لم يأتِ بالشُّهَداءِ[(٥)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ جعَل اللهُ الخطابَ عامًّا مع المؤمنين كلِّهم، وأخبر تعالى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَدْحَ بعضِهم ببعضٍ كقَدحٍ في أنفُسِهم -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-؛ ففيه أنَّ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، واجتماعِهم على مصالِحِهم- كالجَسَدِ الواحِدِ؛ والمؤمِنَ للمؤمِنِ كالبُنيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا، فكما أنَّه يُكرهُ أن يقدَحَ أحَدٌ في عِرضِه، فلْيَكرَهْ مِن كلِّ أحدٍ أن يَقدحَ في أخيه المؤمِنِ الذي بمنزلةِ نفْسِه، وما لم يَصِلِ العبدُ إلى هذه الحالةِ فإنَّه مِن نقصِ إيمانِه، وعدَمِ نُصحِه[1]!

٨- وفي عَطْفِ ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٞ مُّبِينٞ﴾ على قولِه: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ تَشريعٌ لوُجوبِ المُبادَرةِ بإنكارِ ما يَسمَعُه المُسلِمُ مِن الطَّعنِ في المُسلِمِ بالقَولِ كما يُنكِرُه بالظَّنِّ، وكذلك تَغييرُ المُنكَرِ بالقلبِ واللِّسانِ[2].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ في هذا تربيةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ تُفيدُ أنَّ الإنسانَ يتثبَّتُ فيما يقولُ؛ لِيَكونَ قولُه معتبرًا، ولِيَسْلَمَ مِن إثمِ القولِ بلا علمٍ، لا سيَّما إذا كان القولُ على الله؛ فإنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن افترَى على الله كذبًا، أو كان القولُ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآلِ بيتِه وأصحابِه[3]. ففيه مِن الأدَبِ الأخلاقيِّ أنَّ المرءَ لا يقولُ بلِسانِه إلاَّ ما يعلَمُه ويتحَقَّقُه، وإلَّا فهو أحدُ رجُلين: أَفِنٌ[4] الرأيِ، يقولُ الشَّيءَ قبْلَ أن يتبيَّنَ له الأمرُ، فيُوشِكُ أن يقولَ الكَذِبَ فيَحسَبَه النَّاسُ كذَّابًا، وفي الحديثِ: ((كفَى بالمرءِ كذبًا أن يحَدِّثَ بكُلِّ ما سمِعَ))[5]، أو رجُلٌ مُمَوِّهٌ مُراءٍ، يقولُ ما يعتَقِدُ خِلافَه؛ قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٨٤).

(٤) أفِنٌ: الأفَنُ: النَّقصُ. ورجُلٌ أفينٌ ومأفونٌ، أي: ناقِصُ العقلِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٥٧).

(٥) أخرجه مسلم (٥).

تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وقال: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]. هذا في الخبرِ، وكذلك الشأنُ في الوعدِ، فلا يَعِدُ إلَّا بما يعلَمُ أنَّه يستطيعُ الوفاءَ به، وفي الحديثِ: ((آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلفَ، وإذا ائتُمِنَ خان))[1].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ يُرشِدُ إلى أنَّ الواجِبَ على المكلَّفِ في كلِّ محرَّمٍ أن يَستعظِمَ الإقدامَ عليه؛ إذ لا يأمَنُ أنَّه من الكبائرِ[2]، فهذا فيه الزَّجرُ البليغُ عن تعاطي بعضِ الذنوبِ على وجهِ التَّهاونِ بها؛ فإنَّ العبدَ لا يُفيدُه حسبانُه شيئًا، ولا يُخفِّفُ مِن عقوبةِ الذَّنبِ، بل يُضاعفُ الذَّنبَ، ويُسهِّلُ عليه مواقعتَه مرَّةً أُخرَى[3].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ فيه مِن أدبِ الشريعةِ أنَّ احترامَ القوانينِ الشرعيَّةِ يجبُ أن يكونَ سواءً في الغَيبةِ والحضرةِ، والسرِّ والعلانيةِ[4].

١٢- قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ وصْفُ اللهِ سُبحانَه وتعالى أو ذِكرُه ينبغي أن يُذكرَ في كلِّ مَحَلٍّ بما يُناسبُه؛ فعندَما يكونُ الأمرُ يقتضي انتِقاصَ اللهِ عزَّ وجلَّ نأتي بالتَّسبيحِ، وعندَما يكونُ الأمرُ موجِبًا لإظهارِ فضْلِ اللهِ ورحمتِه نأتي بالحَمدِ، وعندَما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

والحديث أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩).

يَشعُرُ الإنسانُ في نَفْسِه بعُلُوٍّ يأتي بالتَّكبيرِ؛ ولهذا كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وجيوشُه إذا علَوُا الثَّنايا كبَّروا، وإذا هبَطوا سبَّحوا[١]، فالإنسانُ عندَما يَعلو يَشعُرُ في نَفسِه بالكبرياءِ، فيُكَبِّرُ اللهَ، وعندما يَهْبِطُ فيقتضي أنْ يُسَبِّحَ اللهَ؛ لِيُنَزِّهَه عن السُّفُولِ[٢].

١٣- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فلا يَنبغي لمن يؤمِنُ باللهِ تعالى ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يخالِجَ قلبَه بعدَ الوقوفِ على الآياتِ والأخبارِ شَكٌّ في طهارةِ نساءِ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ- عن الفُجورِ في حياةِ أزواجِهنَّ، وبعدَ وفاتِهم عنهنَّ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّه يجِبُ على الإنسانِ إذا سَمِعَ إفكًا ألَّا يتكلَّمَ به، بل يُدافِعُ عنِ المَقولِ فيه، ويقولُ: هذا إفكٌ ظاهِرٌ كبيرٌ[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإيمانَ الصَّادِقَ يمنَعُ صاحِبَه من الإقدامِ على المحَرَّماتِ[٥].

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ فثِقوا ببيانِه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضَعُ شَيئًا إلَّا في أحكَمِ مواضِعِه، وإن دَقَّ عليكم فَهْمُ ذلك؛ فلا تتوقَّفوا في

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٩)، والبيهقي في ((الدعوات الكبير)) (٤٦٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

حسَّن إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٣٩٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

أمرٍ مِن أوامِرِه، واعلَموا أنَّه لم يختَرْ لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا الخُلَّصَ مِن عِبادِه، على حسَبِ مَنازِلِهم عندَه، وقُربِهم مِن قَلبِه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ نزل في براءةِ عائشةَ -رضي الله عنها- فيما قُذِفَت به، فاستدَلَّ به الفُقَهاءُ على أنَّ قاذِفَها يُقتَلُ؛ لتكذيبِه لنصِّ القرآنِ(٢)، قال مالكٌ: فمَن رماها فقد خالفَ القرآنَ، ومَن خالفَ القرآنَ قُتِل(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ ترَكَ تسميةَ عائشةَ رضيَ الله عنها؟

الجوابُ: أنَّه ترَكَه تنزيهًا لها عن هذا القالِ، وإبعادًا لِصَونِ جانبِها العَليِّ عن هذا المرادِ(٤).

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ كمالُ غَيرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه جَلَّ وعلا يدافِعُ عن نبيِّه وعن فِراشِ نبيِّه هذه المدافَعةَ البليغةَ(٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الخطابُ للمؤمنينَ، وكونُهم مِن المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (١٢/ ٤٤٠)، ((الشفا)) للقاضي عياض (٢/ ١١٠٩).

قال ابن حزم: (قول مالكٍ هاهنا صحيحٌ، وهي رِدَّةٌ تامَّةٌ، وتكذيبٌ لله تعالى في قَطعِه ببَراءتِها). ((المحلى)) (١٢/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٧).

يدُلُّ على أنَّهم لم يَخرجوا مِن الإيمانِ بذلك -أي: بهذا القذفِ-؛ لأنه صَدَرَ قبْلَ أنْ يَتبيَّنَ الحُكمُ في هذا[(١)]، فالآيَةُ فُهِم منها أنَّ كِبارَ الذُّنوبِ لا تُخرِجُ المُسلمَ عن دائرةِ الإسلامِ، وكونُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ منهم لا يَضُرُّ؛ فإنَّ القُرآنَ يتكلَّمُ عنِ الظَّاهرِ، وهو في ظاهِرِه منهم، له أحكامُ الإسلامِ[(٢)]، وإلاَّ فمَن قذَف عائشةَ بما رُمِيتْ به فإنَّه يَكفرُ؛ لأنَّه مكذِّبٌ للقرآنِ[(٣)]، قال العُلماءُ: قَذْفُ عائِشةَ -رضي الله عنها- كُفرٌ؛ لأنَّ اللهَ سَبَّح نفْسَه عندَ ذِكرِه، فقال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، كما سبَّح نفْسَه عند ذِكرِ ما وصفَه به المُشرِكونَ من الزَّوجةِ والولَدِ[(٤)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لإزالةِ ما حصل في نفُوسِ المؤمنينَ مِن الأسَفِ مِن اجتراءِ عُصبةٍ على هذا البُهتانِ الذي اشتملت عليه القِصَّةُ، فضميرُ ﴿تَحْسَبُوهُ﴾ عائدٌ إلى الإفكِ[(٥)].

٦- في قولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن لحِقَه غَمٌّ بالمُتَقَوَّلِ عليه مِن الزُّورِ، فإنَّه شريكُه في الأجرِ؛ لأنَّ المَرميَّةَ بالإفكِ أمُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٦).

قال النوويُّ: (براءةُ عائشةَ رضي الله عنها مِن الإفكِ، وهي براءةٌ قطعيَّةٌ بنصِّ القرآنِ العزيزِ، فلو تَشكَّكَ فيها إنسانٌ -والعياذُ بالله- صار كافرًا مرتدًّا بإجماعِ المسلمينَ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٧).

وقال ابن القيم: (واتَّفقَتِ الأمَّةُ على كُفرِ قاذِفِها). ((زاد المعاد)) (١/ ١٠٣).

وقال ابن كثير: (وقد أجمَعَ العلماءُ رحمهمُ اللهُ قاطِبةً على أنَّ مَن سبَّها بعدَ هذا ورماها بما رماها به بعدَ هذا الذي ذُكِر في هذه الآيةِ، فإنَّه كافرٌ؛ لأنَّه معانِدٌ للقرآنِ. وفي بقيَّةِ أمَّهاتِ المؤمنينَ قولانِ؛ أصحُّهما: أنَّهُنَّ كَهِيَ، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧١).

المؤمنين رضي الله عنها وحْدَها، فجَمَعَ اللهُ معها مَن لَحِقَه أذَى القولِ، ورسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأبوَيها وكلَّ مَن لَحِقَه غَمٌّ بسبَبِها، فقال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على لفظِ الجميع[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنَّ الخيرَ قد يكونُ فيما يَتوقَّعُ الإنسانُ منه الشَّرَّ[(٢)].

٨- في قولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ دليلٌ على أنَّ قولَ الزُّورِ في المَقولِ خيرٌ مُدَّخَرٌ له، يُثابُ عليه في الآخرةِ، وشَرٌّ على قائلِه، معدودٌ عليه في عِدادِ ذُنوبِه[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ عُدِلَ عن «على» إلى «اللام»؛ لِتُفيدَ الاستِحقاقَ، أي: لبيانِ أنَّ هؤلاء العُصبةَ الذين ارتكَبوا ما ارتكبوا مستحِقُّون لِمَا عليهم مِن الإثمِ[(٤)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ كمالُ عَدْلِ اللهِ جلَّ وعلا؛ لأنه لا يُحَمِّلُ الإنسانَ أكثرَ ممَّا يَستحِقُّ، ولا يُحَمِّلُ أحدًا وِزْرَ أحدٍ، فهذه الآيةُ دليلٌ على مسألتينِ: أنَّ الإنسانَ يُجازَى بقَدرِ عَمَلِه، وأنَّه لا يُجازَى بذَنْبِ غَيرِه[(٥)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن سَنَّ شرًّا أعظمُ إثمًا ممَّن واطأهُ عليه؛ لأنَّ المتولِّيَ للكِبْرِ كان السابقَ إلى الإفكِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

وسائرَهم صَدَّقَ قولَه؛ فاستوجَبَ ضِعْفَ العذابِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ الإنكارَ يكونُ بالقَلبِ واللِّسانِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ مِن فوائدِ الإيمانِ أنَّ صاحبَه مَحَلٌّ للثِّقةِ، وأنَّ الإيمانَ مُوجِبٌ للعدالةِ؛ حيثُ إنَّ اللهَ نهَى أنْ يُظَنَّ بالمؤمنينَ إلَّا الخيرُ[٣].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه وجوبُ إنزالِ الناسِ مَنازِلَهم؛ فالمؤمنُ يُظَنُّ به الخيرُ، والفاسِقُ -الذي هو مَحَلُّ التُّهمةِ- يُظَنُّ به ما يليقُ به[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ وجوبُ احترامِ أعراضِ المؤمنينَ؛ وألَّا تُعَرَّضَ لِمَا يُسيءُ إليها وما يَخدِشُ المجتمعَ الإسلاميَّ، فإذا كان المقذوفُ له مكانةٌ في المجتمعِ الإسلاميِّ؛ فإنّ قَذْفَه ليس عيبًا لشخصِه فقط، بل عيبٌ للإسلامِ كلِّه، وذلك كالعيبِ في علماءِ المسلمينَ، فهذا في الحقيقةِ عيبٌ للإسلامِ كلِّه؛ لأننا إذا عِبْنا واجهةَ الإسلامِ -وهم علماؤه- فقد عِبْنا الإسلامَ كلَّه[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ ظَنَّ السُّوءِ بمَن يَستحِقُّه لا يُنافي الإيمانَ؛ فالمؤمنُ ليس مَحَلًّا لسُوءِ الظنِّ، أمَّا غيرُه مِن

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفُسَّاقِ إذا كان مَحَلًّا فلا بأسَ، فإذا دَلَّتِ القرائنُ مثلًا على أنَّ هذا الرجُلَ مَحَلٌّ لسُوءِ الظنِّ، فلا بأسَ أنْ نَظُنَّ به، بل قد يجبُ على الإنسانِ أن يَتَّهِمَ الشَّخصَ الذي دَلَّتِ القرائنُ على اتِّهامِه[١].

١٧- القرائنُ لها تأثيرٌ، والإنسانُ يَحكُمُ بالظَّنِّ بحَسَبِ القرائنِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، فهذا يدُلُّ على أنَّ القرائنَ لها تأثيرٌ في الأحكامِ، وأنَّ الإنسانَ يجِبُ عليه أن يبنيَ ظَنَّه على قرائنَ[٢]، فالآيةُ فيها تنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المؤمِنِ أن ينظُرَ في قرائنِ الأحوالِ وصلاحيةِ المقامِ، فإذا نُسِبَ سُوءٌ إلى مَن عُرِف بالخير، ظَنَّ أنَّ ذلك إفكٌ وبهتانٌ حتى يتَّضِحَ البُرهانُ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّه يجبُ على القُضاةِ أن يَحكُموا ببُطلانِ مِثلِ هذه الإشاعاتِ في الذين ظاهِرُهم البراءةُ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يُقبَلُ في شَهادةِ الزِّنا إلَّا أربعةُ رجالٍ؛ وذلك لأنَّ «أربعة» مؤنَّثةٌ؛ فيكونُ المعدودُ مُذكَّرًا[٥].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ حمايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ للأعراضِ؛ حيثُ جعَلَ البَيِّنةَ على الزِّنا أربعةَ رجالٍ[٦].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ بيانُ أنَّ مِن الكذبِ: الخبرَ الذي لا يجوزُ الإخبارُ به -وإنْ كان خَبَرُه مطابِقًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٦٨).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٤٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٦).

للمُخبَرِ به- فحُكمُ اللهِ في مِثلِ هذا أن يُعاقَبَ عقوبةَ المفتري الكاذبِ، وإنْ كان خبرُه مُطابِقًا، وعلى هذا فلا تتحقَّقُ توبتُه حتى يَعترفَ بأنَّه كاذِبٌ عندَ اللهِ -وهذا على أحدِ القولَينِ-، كما أخبرَ اللهُ تعالى به عنه، فإذا لم يَعترِفْ بأنَّه كاذِبٌ وجعَلَه اللهُ كاذِبًا، فأيُّ توبةٍ له؟ وهل هذا إلَّا محضُ الإصرارِ والمجاهرةِ بمخالفةِ حُكمِ اللهِ الذي حكَمَ به عليه[١]؟!

٢٢- قولُه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ...﴾ فيه تَوبيخٌ وتَعنيفٌ للَّذين سَمِعوا الإفكَ فلمْ يَجِدُّوا في دَفْعِه وإنكارِه، واحتِجاجٌ عليهم بما هو ظاهرٌ مَكشوفٌ في الشَّرعِ: مِن وُجوبِ تكذيبِ القاذِفِ بغَيرِ بَيِّنةٍ، والتَّنكيلِ به إذا قَذَف امرأةً مُحْصَنةً مِن عُرْضِ نِساءِ المُسلِمينَ؛ فكيف بأُمِّ المُؤمِنينَ، الصِّدِّيقةِ بنتِ الصِّدِّيق، حُرْمةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وحَبيبةِ حَبيبِ اللهِ[٢]؟!

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّ الأسبابَ قد يَحصُلُ لها مِن الموانعِ ما يمنعُ تأثيرَها؛ فقد يَجعَلُ اللهُ تعالى مِن الموانعِ ما يمنعُ حصولَ الشَّيءِ مع تحقُّقِ أسبابِه؛ لأنَّ الأسبابَ موجودةٌ -وهي المَسُّ بعذابٍ عظيمٍ- والمانعُ مِن هذا فضلُ اللهِ ورحمتُه[٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وربطُها بمسبَّباتِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّ شُيوعَ المعصيةِ بيْنَ النَّاسِ سببٌ للعُقوبةِ العامَّةِ[1].

٢٦- قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ نبَّه بقَولِه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ على أنَّ عِظَمَ المعصيةِ لا يختَلِفُ بظَنِّ فاعِلِها وحُسبانِه، بل ربَّما كان ذلك مؤكِّدًا لعِظَمِها؛ مِن حيثُ جهلُ كَونِها عظيمًا[2].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ بيانُ عِظَمِ قَذْفِ زَوجاتِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالزِّنا[3].

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ القَذفَ مِن الكبائِرِ ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[4].

٢٩- لَمَّا وصَفَ طَعنَ اليَهودِ في مريمَ بأنَّه بُهتانٌ عَظيمٌ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، ووصَف طَعْنَ المنافقينَ في عائشةَ بأنَّه بهتانٌ عظيمٌ؛ حيث قال هنا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾- دَلَّ ذلك على أنَّ الرَّوافِضَ الذين يَطعنونَ في عائشةَ -رضِيَ اللهُ عنها- بمنزلةِ اليهودِ الذين يطعنونَ في مريمَ عليها السَّلامُ[5].

٣٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١١١).

بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ هذا من بابِ الآدابِ، أي: هلَّا إذ سمِعتُموه قلتُم: ما يكونُ لنا أن نتكلَّم بهذا! وإنما وجَب عليهم الامتناعُ منه؛ لوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ المقتضيَ لكونِهم تاركينَ لهذا الفعلِ قائِمٌ، وهو العقلُ والدِّينُ، ولم يوجَدْ ما يعارِضُه؛ فوجبَ أن يكونَ ظَنُّ كونِهم تاركينَ للمَعصيةِ أقوى مِن ظَنِّ كَونِهم فاعلينَ لها، فلو أنَّه أخبر عن صدورِ المعصيةِ، لكان قد رجَّح المرجوحَ على الرَّاجِحِ، وهو غيرُ جائزٍ.

وثانيها: أنَّه يتضَمَّنُ إيذاءَ الرَّسولِ، وذلك سببٌ لِلَّعنِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وثالثها: أنَّه سببٌ لإيذاء عائشةَ وإيذاءِ أبوَيها ومَن يتَّصِلُ بهم، مِن غيرِ سَبَبٍ عُرِفَ إقدامُهم عليه، ولا جنايةٍ عُرِفَ صدورُها عنهم، وذلك حرامٌ.

ورابعها: أنَّه إقدامٌ على ما يجوزُ أن يكونَ سببًا للضَّررِ مع الاستِغناءِ عنه، والعقلُ يقتضي التباعُدَ عنه؛ لأنَّ القاذِفَ بتقديرِ كونِه صادقًا لا يستحِقُّ الثوابَ على صدقِه، بل يستحِقُّ العقابَ؛ لأنَّه أشاع الفاحشةَ، وبتقديرِ كونِه كاذبًا فإنَّه يستحِقُّ العقابَ العظيمَ، ومِثلُ ذلك ممَّا يقتضي صريحُ العقلِ الاحترازَ عنه.

وخامسها: أنَّه تضييعٌ للوقتِ بما لا فائدةَ فيه.

وسادسها: أنَّ في إظهارِ محاسِنِ النَّاسِ وسَترِ مقابِحِهم اتِّصافًا بمقتضياتِ صفاتِ اللهِ تعالى.

فهذه الوجوه توجِبُ على العاقِلِ أنَّه إذا سَمِع القَذفَ أن يسكُتَ عنه، وأن يجتَهِدَ في الاحترازِ عن الوقوعِ فيه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يليقُ (سُبحانَك) بهذا الموضِعِ؟

الجواب مِن وُجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أنَّ المرادَ منه التعجُّبُ مِن عِظَمِ الأمر، وإنَّما استُعمِلَ في معنى التعجُّبِ؛ لأنَّه يُسَبَّحُ اللهُ عندَ رؤيةِ العجيبِ مِن صنائعِه، ثمَّ كثُرَ حتى استُعملَ في كلِّ متعَجَّبٍ منه.

الوجه الثاني: المرادُ تنزيهُ الله تعالى عن أن تكونَ زوجةُ نبيِّه فاجرةً.

الوجه الثالث: أنَّه مُنزَّهٌ عن أنْ يرضَى هؤلاء الفِرقةَ المُفترينَ.

الوجه الرابع: أنَّه مُنزَّهٌ عن ألَّا يعاقِبَ هؤلاء القَذَفةَ الظَّلَمةَ[١].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أنَّ المؤمنَ هو الذي يَنتفِعُ بالموعظةِ، أمَّا غيرُه فإنَّه لا يَنتفِعُ[٢].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فضلُ اللهِ ورحمتُه بالعِبادِ؛ حيثُ كان اللهُ سُبحانَه وتعالى يَعِظُهم عمَّا يضُرُّهم ويُنافي إيمانَهم، ولا شكَّ أنَّ الذي يَعِظُك ويُرشِدُك وينصَحُك له فَضلٌ عليك[٣].

٣٤- أنَّه ينبغي للمؤمِنِ إذا خَفِيَ عليه شيءٌ أن يَتأمَّلَ؛ لأنَّ الآياتِ مُبَيَّنةٌ وظاهِرةٌ، فمثلًا إذا خَفِيَ عليك حُكمُ شيءٍ مِن كتابِ اللهِ، فأعِدِ النظرَ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾، فالآياتُ مُبيَّناتٌ، وخفاؤُها على الإنسانِ في بعضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأحيانِ يدُلُّ على قُصورِه؛ إمَّا في العلمِ، أو الفَهمِ، أو التَّدبُّرِ[١].

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ والأسماءِ؛ لأنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِن أسماءِ الله جلَّ وعلا، و﴿حَكِيمٌ﴾ من أسمائِه أيضًا، وهما متضَمِّنانِ لِصِفَتينِ: العِلمِ، والحِكمةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نَزَل في قِصَّةِ الإفكِ آياتٌ؛ كلُّ واحدةٍ منها مُستقِلَّةٌ بما هو تَعظيمٌ لشأْنِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليةٌ له، وتَنزيهٌ لأُمِّ المُؤمِنينَ رِضوانُ اللهِ عليها، وتَطهيرٌ لأهْلِ البَيتِ، وتَهويلٌ لمَن تَكلَّمَ في ذلكَ أو سَمِع به فلمْ تَمُجَّه أُذُناهُ، وعِدَّةُ أَلْطافٍ للسَّامِعينَ والتَّالينَ إلى يَومِ القيامةِ، وفوائدُ دِينيَّةٌ، وأحكامٌ وآدابٌ لا تَخفَى على مُتأمِّليها[٣].

- قَولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[٤]. وفي لفظِ (المَجيءِ) إشارةٌ إلى أنَّهم أظْهَروه مِن عندِ أنفُسِهم مِن غيرِ أنْ يكونَ له أصْلٌ[٥].

- قَولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ معناه: قَصَدوا واهتَمُّوا. وأصلُه: أنَّ الَّذي يُخبِرُ بخبرٍ غريبٍ يُقالُ له: جاء بخبرٍ كذا؛ لأنَّ شأنَ الأخبارِ الغريبةِ أنْ تَكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

مع الوافِدينَ مِن أسفارٍ، أو المُبتَعِدينَ عن الحَيِّ[١].

- قَولُه: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ ذِكْرُ ﴿عُصۡبَةٞ﴾ تَحقيرٌ لهُم ولقَولِهم، أي: لا يُعبَأُ بقَولِهم في جانبِ تَزكيةِ جميعِ الأُمَّةِ لمَن رُمِيَتْ بالإفكِ. ووَصْفُ العُصبةِ بكَونِهم ﴿مِّنكُمۡ﴾ يَدُلُّ على أنَّهم مِن المُسلِمينَ، وفي ذلك تَعريضٌ بهم بأنَّهم حادُوا عن خُلُقِ الإسلامِ، حيثُ تَصَدَّوا لِأَذَى المُسلِمينَ[٢].

- قَولُه: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُم﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ[٣]. وقيل: استِئنافٌ خُوطِبَ به رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأبو بكرٍ وعائشةُ وصَفْوانُ رضِيَ اللهُ عنهم؛ تَسليةً لهم مِن أوَّلِ الأمرِ[٤].

- قَولُه: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ إضْرابُ إبطالٍ أنْ يَحسَبوه شَرًّا، وإثباتُ أنَّه خَيرٌ لهُم؛ لأنَّ فيه مَنافعَ كثيرةً. وعَدَل عن أنْ يَعطِفَ خَيرًا على ﴿شَرّٗا﴾ بحَرفِ (بَلْ)، فيُقالُ: بَلْ خَيرًا لكم؛ إيثارًا للجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ في التَّعبيرِ عنه بـ (الَّذي)، وتَكريرِ الإسنادِ[٦]، وتَنكيرِ العذابِ، ووَصْفِه بالعِظَمِ: مِن تَهويلِ الخَطْبِ ما لا يَخفَى[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٢).

(٦) لم يقُلْ: (وللذي تولَّى كبرَه عذابٌ أليمٌ)؛ إنَّما كرَّر الإسنادَ بجَعْلِ الجملةِ الظرفيَّةِ خبرًا للموصولِ؛ لتقويةِ الحُكم.

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ استِئنافٌ لتَوبيخِ عُصْبةِ الإفكِ مِن المُؤمِنينَ وتَعنيفِهم بَعدَ أنْ سَمَّاهُ إفْكًا. و﴿لَّوْلَآ﴾ هنا حَرفٌ بمعنَى (هَلَّا) للتَّوبيخِ كما هو شأنُها إذا وَلِيَها الفِعلُ الماضي، وهو هنا ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وأمَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ فهو ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ الظَّنِّ؛ فقُدِّمَ عليه، ومَحَلُّ التَّوبيخِ جُملةُ: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، فأُسنِدَ السَّماعُ إلى جَميعِ المُخاطَبينَ، وخُصَّ بالتَّوبيخِ مَن سَمِعوا ولم يُكذِّبوا الخَبرَ(١).

- وفي قولِه: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ جَرى الكلامُ على الإبهامِ في التَّوبيخِ بطَريقةِ التَّعبيرِ بصِيغَةِ الجَمْعِ، وإنْ كان المَقصودُ دُونَ عددِ الجَمْعِ؛ فإنَّ مَن لمْ يَظُنَّ خيرًا رَجُلانِ، فعُبِّرَ عنهما بالمُؤمِنينَ، وامرأةٌ، فعُبِّرَ عنها بالمُؤمِناتِ، على حَدِّ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾(٢) [آل عمران: ١٧٣].

- وكذلك ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه التَّعبيرُ بالأنفُسِ عنِ الآخَرينَ -هذا على قولٍ في التفسيرِ-؛ والتَّعبيرُ بالأنفُسِ عنِ الآخَرينَ يَنطوي على أبعَدِ النُّكتِ مَرمًى، وأكثَرِها حُفولًا بالمعاني السَّامِيَةِ؛ فهو أوَّلًا يُهيبُ بالمُؤمِنينَ إلى التَّعاطُفِ وإجراءِ التَّوبيخِ على النَّفْسِ بدَلًا مِن أنْ يَذكُرَه بسُوءٍ، وذلك أدْعَى إلى اصطِناعِه وجَعْلِه مَحمولًا على المُوالاةِ والاصطِفاءِ، وذلك بتَصويرِه بصُورةِ مَن أخَذَ يَقذِفُ نَفْسَه ويَرميها بما ليس فيها مِن الفاحشةِ، فأُطلقتِ الأنفسُ مرادًا بها الإخوانُ؛ لبيانِ شدَّةِ ارتباطِ المُسلمِ بأخيه المُسلمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٧٤).

وأنَّه كنَفْسِه؛ تنفيرًا له مِن أنْ يعمَلَ معه ما يَسوؤُه. ومجيءُ النَّفسِ مُرادًا بها الإخوانُ كثيرٌ في القُرآنِ. وهو ثانيًا يَحتمِلُ أنْ يَكونَ التَّعبيرُ بالأنفُسِ حقيقةً، والمَقصودُ إلزامُ سَيِّئِ الظَّنِّ بنَفْسِه؛ لأنَّه لم يَعْتَدَّ بنَوازِعِ الإيمانِ ووَزائِعِه في حَقِّ غَيرِه وألْغاهُ، واعتبَرَه في حَقِّ نفْسِه وادَّعى لها البَراءةَ قَبْلَ مَعرفتِه، بحُكْمِ الهَوى لا بحُكْمِ الهُدى، والمعنى: أنَّه كما تظُنُّ بنَفسِك الخيرَ، يجبُ أنْ تظنَّ ذلك بأخيك، إلَّا بيقينٍ يُبَيِّنُ خِلافَ ذلك[١]. وقيل: قال ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأنَّ أهلَ الإسلامِ كلَّهم بمنزلةِ نفسٍ واحدةٍ؛ لأنَّهم أهلُ ملةٍ واحدةٍ[٢].

- ووقَعَ قولُه: ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ في مُقابَلةِ ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾؛ فيَقتَضي التَّوزيعَ، أي: ظَنَّ كلُّ واحدٍ منهُم بالآخَرينَ ممَّن رُمُوا بالإفكِ خَيرًا -على قولٍ في التفسيرِ-؛ إذْ لا يَظُنُّ المَرءُ بنفْسِه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: لا يَلْمِزْ بعضُكُم بعضًا[٣].

- وتَوسيطُ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾ بيْن ﴿لَّوْلَآ﴾ وفِعْلِها ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ لتَخصيصِ التَّحضيضِ بأوَّلِ زمانِ سماعِهم، وقَصْرُ التَّوبيخِ على تأخيرِ الإتيانِ بالمُحضَّضِ عليه عن ذلك الآنِ والتَّردُّدِ فيه؛ ليُفِيدَ أنَّ عدَمَ الإتيانِ به رأسًا في غايةِ ما يكونُ مِن القَباحةِ والشَّناعةِ، أي: كان الواجِبُ أنْ يَظُنَّ المُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ أوَّلَ ما سَمِعوه ممَّن اختَرَعَه بالذَّاتِ أو بالواسطةِ، مِن غَيرِ تَلَعثُمٍ وتَردُّدٍ بمِثْلِهم مِن آحادِ المُؤمِنينَ: خَيرًا[٤]، فذِكرُه مُنبِّهٌ على الاهتمامِ به؛ لوجوبِ المبادرةِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٧، ٥٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧)، =

إلى المحضَّضِ عليه[١]، وأنَّه كان الواجِبُ عليهم أن يحترِزوا أوَّلَ ما سَمِعوا بالإفكِ عن التكَلُّمِ به[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لمْ يَقُلْ: (لولا إذْ سمِعتُموه ظنَنْتُم بأنفسِكُم خَيرًا وقُلتُم)، وعَدَلَ عنِ الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وعنِ الضَّميرِ إلى الظَّاهرِ؛ ليُبالِغَ في التَّوبيخِ بطريقةِ الالتِفاتِ، ولِيُصرِّحَ بلَفظِ الإيمانِ؛ دَلالةً على أنَّ الاشتِراكَ فيه مُقتَضٍ ألَّا يُصَدِّقَ مُؤمِنٌ على أخيه ولا مُؤمِنةٌ على أُختِها قولَ غائبٍ ولا طاعنٍ. وفيه: تَنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المُؤمِنِ إذا سمِعَ قالةً في أخيهِ أنْ يَبْنِيَ الأمرَ فيها على الظَّنِّ لا على الشَّكِّ، وأنْ يقولَ بمِلْءِ فيه -بِناءً على ظَنِّه بالمُؤمِنِ الخَيرَ-: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، هكذا بلَفظِ المُصرِّحِ ببَراءةِ أخيهِ وبَراءةِ ساحتِه، كما يقولُ المُستيقِنُ المُطَّلِعُ على حقيقةِ الحال. وهذا مِنَ الأدبِ الحَسنِ[٣]. وقيل: والأصلُ أيضًا: (وظنَنْتُم بها)، أي: بأُمِّ المُؤمِنينَ -رضِيَ اللهُ عنها- خيرًا؛ وعدَلَ عن المُفرَدِ إلى الجماعةِ؛ لأنَّ في العُدولِ مِنَ المفرَدِ إلى الجماعةِ وسُلوكِ طريقِ الكِنايةِ: الإشعارَ بتَعظيمِ شأْنِها، ورِفعةِ مَنزلتِها[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾

= ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٨، ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤، ٣٥).

- قَولُه: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ...﴾ استِئنافٌ ثانٍ لتَوبيخِ العُصْبةِ الَّذين جاؤُوا بالإفكِ، وذَمٌّ لهُم[١]. وقيل: هو إمَّا مِن تَمامِ القولِ المُحضَّضِ عليهِ، مَسوقٌ لحَثِّ السَّامِعينَ على إلْزامِ المُسمِّعين وتَكذيبِهم إثْرَ تَكذيبِ ما سَمِعوه منهُم بقولِهم: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾، وتَوبيخِهم على تَرْكِه، وإنَّما قيل: ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ. وإمَّا كلامٌ مُبتدَأٌ مَسوقٌ مِن جِهَتِه تعالى للاحتِجاجِ على كَذِبِهم، بكَونِ ما قالُوه قَولًا لا يُساعِدُه الدَّليلُ أصلًا[٢].

- قَولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخائِضينَ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ بغُلوِّهِم في الفسادِ، وبُعْدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ[٣]. وأيضًا التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ؛ لزِيادةِ تَمييزِهِم بهذه الصِّفةِ؛ لِيَحذَرَ النَّاسُ أمثالَهم[٤].

- وصِيغةُ الحَصرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ للمُبالَغةِ؛ كأنَّ كَذِبَهم -لِقُوَّتِه وشَناعَتِه- لا يُعَدُّ غَيرُهم مِن الكاذِبِينَ كاذِبًا؛ فكأنَّهم انحصَرَتْ فيهم ماهيَّةُ المَوصوفِينَ بالكَذِبِ. والتَّقييدُ بقولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لزِيادةِ تَحقيقِ كَذِبِهم، أي: هو كَذِبٌ في عِلْمِ اللهِ؛ فإنَّ عِلْمَ اللهَ لا يكونُ إلَّا مُوافِقًا لنفْسِ الأمرِ، واسمُ الإشارةِ لزيادةِ تمييزِهم بهذه الصفةِ؛ لِيَحذَرَ الناسُ أمثالَهم[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ على القولِ بأنَّ المعنى: ولولا فضْلُ اللهِ عليكُم ورَحمتُه لمَسَّكُم فيما أفَضْتُم فيه عذابٌ عظيمٌ في الدُّنيا والآخِرةِ مَعًا؛ فيكونُ فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ[١].

- قَولُه: ﴿ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾، أي: حديثِ الإفكِ، والإبهامُ لتَهويلِ أمْرِه، والاستِهجانِ بذِكْرِه[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

- قَولُه: ﴿ إِذْ ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿ أَفَضْتُمْ ﴾ [النور: ١٤]، والمقصودُ منه ومِن الجُملةِ المُضافِ هو إليها: استِحضارُ صُورةِ حَديثِهم في الإفكِ، وتَفظيعُها[٣].

- وفي قولِه: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ تَعريضٌ بحِرْصِهم على تَلَقِّي هذا الخبرِ؛ فهم حين يَتلقَّوْنَه يُبادِرونَ بالإخبارِ به بلا تَرَوٍّ ولا تَرَيُّثٍ، وهذا تَعريضٌ بالتَّوبيخِ أيضًا[٤].

- فإنْ قيل: كيفَ يُسنَدُ التَّلَقِّي إلى الألسنةِ مع أنَّ الكلامَ يُتلقَّى بالأُذنِ؟

والجوابُ: أنَّه لَمَّا كان المقصودُ مِن تلقِّيه بالأذُنِ أن يُتكلَّمَ به ويُشاعَ باللِّسانِ، عَبَّرَ عنه بحسَبِ المقصودِ؛ فكأنَّ اللِّسانَ هو الذي يَتلقَّاه.

وقيل: إنَّ في الكلامِ حَذفًا دلَّ عليه المقامُ؛ أي: تَلَقَّونه حالَ كونِكم تُشِيعونَه بألسنتِكم؛ ففيه إشارةٌ إلى سرعةِ إشاعتِه، بحيث كأنَّه لا يقَعُ على الأسماعِ، وإنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٧٨).

يقَعُ على اللِّسانِ ثمَّ يُنقَلُ مُباشَرةً! وليس فيه تَكرارٌ على هذا التَّقديرِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ توبيخٍ يقتضي الإطنابَ[(١)]. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

- وَجْهُ ذِكْرِ ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ في قولِه: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مع أنَّ القَولَ لا يكونُ بغَيرِ الأفواهِ: أنَّه أُرِيدَ التَّمهيدُ لقَولِه: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: هو قَولٌ غَيرُ مُوافِقٍ لِما في العِلْمِ، ولكنَّه عن مُجرَّدِ تَصوُّرٍ؛ لأنَّ أدلَّةَ العِلْمِ قائمةٌ بنَقيضِ مَدلولِ هذا القولِ؛ فصارَ الكلامُ مُجرَّدَ ألْفاظٍ تَجري على الأفواهِ؛ فالشَّيءُ المعلومُ يكونُ عِلْمُه في القلبِ، فيُتَرجِمُ عنه اللِّسانُ، وهذا الإفكُ ليس إلَّا قَولًا يَجري على ألْسنتِكُم، ويَدورُ في أفواهِكُم مِن غَيرِ تَرجمةٍ عن عِلْمٍ[(٣)].

- قَولُه: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، فيه تنكيرُ ﴿عِلْمٌ﴾؛ للتحقيرِ[(٤)].

- قَولُه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ زِيادةٌ في تَوبيخِهم، أي: تَحسَبون الحديثَ بالقَذْفِ أمْرًا هَيِّنًا[(٥)].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري-الحاشية)) (٣/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٧ - ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ توسيطُ الظَّرفِ بيْن (لَوْلَا) و(قُلْتُمْ)؛ لتَخصيصِ التَّحضيضِ بأوَّلِ وَقْتِ السَّماعِ، وقَصْرِ التَّوبيخِ واللَّومِ على تأخيرِ القَولِ المذكورِ عن ذلكَ الآنِ؛ ليُفيدَ أنَّه المُحتملُ للوُقوعِ، المُفتقِرُ إلى التَّحضيضِ على تَرْكِه[1].

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ [النور: ١٢]. وأُعيدَتْ (لَوْلَا) وشَرْطُها وجَوابُها؛ لزِيادةِ الاهتِمامِ بالجُملةِ[2].

- قَولُه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، ولمْ يَقُلْ: (ليس لنا أنْ نَتكلَّمَ بهذا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكلامَ في هذا وكَيْنونةَ الخَوضِ فيه حَقيقٌ بالانتِفاءِ؛ وذلكَ أنَّ قَولَك: (ما يَكونُ لي أنْ أفعَلَ) أشَدُّ في نَفْيِ الفِعْلِ عنك مِن قَولِك: ليس لي أنْ أفعَلَ. وهذا مَسوقٌ للتَّوبيخِ على تَناقُلِهمُ الخبرَ الكاذبَ. وكان الشَّأنُ أنْ يقولَ القائلُ في نَفْسِه: ما يكونُ لنا أنْ نَتكلَّمَ بهذا، ويقولَ ذلك لمَن يُجالِسُه ويَسمَعُه منه؛ فهذا زِيادةٌ على التَّوبيخِ على السُّكوتِ عليه في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[3].

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تَعجُّبٌ مِن ذلك الإفكِ، أو ممَّن يقولُ ذلك[4]؛ فقولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ جُملةُ إنشاءٍ وقَعَتْ مُعترِضةً بيْن جُملةِ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).

بِهَٰذَا﴾ وجُملةِ: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ للتَّعجُّبِ. والأحسَنُ أنْ يكونَ هنا لإعلانِ المُتكلِّمِ البَراءةَ مِن شَيءٍ، بتَمثيلِ حالِ نَفْسِه بحالِ مَن يُشهِدُ اللهَ على ما يقولُ، فيَبتَدِئُ بخِطابِ اللهِ بتَعظيمِه، ثمَّ يقولُ: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ تَبرُّؤًا مِن لازِمِ ذلك، وهو مُبالَغةٌ في إنكارِ الشَّيءِ، والتَّعجُّبِ مِن وُقوعِه[1].

- وتَوجيهُ الخِطابِ إلى اللهِ تعالى في قولِه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ اللهَ غاضبٌ على مَن يَخوضُ في ذلك، فعليهِم أنْ يتَوجَّهوا للهِ بالتَّوبةِ منه لِمَن خاضُوا فيه، وبالاحتِرازِ مِن المُشارَكةِ فيه لِمَن لمْ يَخوضوا فيه[2].

- وجُملةُ: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾؛ فهي داخِلةٌ في تَوبيخِ المَقولِ لهم. ووَصْفُ البُهتانِ بأنَّه ﴿عَظِيمٌ﴾ مَعناهُ: أنَّه عَظيمٌ في وُقوعِه، أي: بالِغٌ في كُنْهِ البُهتانِ مَبْلغًا قَويًّا[3].

٧- قَولُه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

- قَولُه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾، في الكلامِ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ ففِعلُ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ لا يَتعدَّى إلى مفعولٍ ثانٍ بنَفْسِه؛ فالمصدرُ المأخوذُ مِن ﴿أَن تَعُودُواْ﴾ لا يكونُ مَعمولًا لفِعلِ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ إلَّا بتقديرِ شَيءٍ محذوفٍ، أو بتَضمينِ فِعلِ الوَعظِ معنَى فِعلٍ مُتعَدٍّ، أو بتقديرِ حرْفِ جرٍّ محذوفٍ؛ فجائزٌ أنْ يُضمَّنَ فِعلُ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ معنى التَّحذيرِ؛ والتقديرُ: يُحذِّرُكم مِن العَودِ لمِثلِه، أو يُقدَّرَ: يَعِظُكم الله في العودِ لمِثلِه، أو يُقدَّرَ حرْفُ نَفيٍ، أي: ألَّا تعودوا لمِثلِه، وحَذْفُ حرْفِ النَّفيِ كثيرٌ إذا دلَّ عليه السِّياقُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨٢).

- وقولُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تَهييجٌ وإلْهابٌ لهم، يَبعَثُ حِرْصَهم على ألَّا يَعودوا لمِثْلِه؛ لأنَّهم حَريصونَ على إثْباتِ إيمانِهم؛ فالشَّرطُ في مِثْلِ هذا لا يُقصَدُ بالتَّعليقِ؛ إذْ ليس المعنَى: إنْ لمْ تَكونوا مُؤمِنينَ فعُودوا لمِثْلِه، ولكنْ لَمَّا كان احتِمالُ حُصولِ مَفهومِ الشَّرطِ مُجْتنَبًا، كان في ذِكْرِ الشَّرطِ بَعْثٌ على الامتِثالِ[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجَليلِ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ البَيانِ[٢]، ولتَأكيدِ استِقلالِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، والإشعارِ بعِلَّةِ الأُلوهيَّةِ للعِلْمِ والحِكمةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩-٢٢)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ تَشِيعَ ﴾: أي: تفشُوَ وتَذيعَ، وأصلُ (شيع): يدلُّ على بَثٍّ وإشادةٍ[١].

﴿ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾: أي: الزِّنا، والفاحِشةُ: كلُّ شَيءٍ مُستقبَحٍ ومُستشنَعٍ؛ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ[٢].

﴿ رَءُوفٌ ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، والرؤوفُ: ذو الرأفةِ، والرأفةُ أعلَى معاني الرحمةِ وأرَقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورحمةٍ[٣].

﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾: سَبيلَه ومَسلَكَه، وخُطواتٌ جمعُ خُطوةٍ، والخُطوةُ: ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) (٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥، ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

بيْن القَدَمين[١].

﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: الفحشاءُ مِن المعاصي: ما تناهَى قُبْحُه ممَّا يَستفحشُه مَن له عقلٌ سليمٌ، أو: هي كلُّ شيءٍ مُستقبَحٍ ومُستشنَعٍ، من قولٍ أو فِعلٍ، أو: ما ظهَر قُبْحُه لكلِّ أحدٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبْحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ[٢].

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: المنكَرُ: كلُّ معصيةٍ تَستنكرُها العقولُ والفِطَرُ، أو: ما لم يُعرَفْ حُسنُه ولم يُؤْلَفْ، وأصْلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يَسكُنُ إليها القلْبُ[٣].

﴿زَكَىٰ﴾: أي: صلَح وطَهُر، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على طهارةٍ[٤].

﴿يَأْتَلِ﴾: أي: يَحلِفْ، مِن الأَلِيَّةِ، وهي اليَمينُ، وأصلُه يدُلُّ على الاجتِهادِ والمُبالَغةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١، ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: أي: الغِنى والجِدَةِ، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ(١).

﴿وَلۡيَعۡفُواْ﴾: العفْوُ: التَّجاوزُ عَنِ الذَّنْبِ، وتركُ المؤاخَذةِ عليه، وأصلُ (عفو) هنا يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيءِ. وقيل: أصلُه المحوُ والطَّمْسُ، مِن: عَفَت الرِّيحُ الأثرَ؛ إذا طَمَسَتْه، والمعنى: فَلْيَطْمِسوا آثارَ الإساءةِ بِحِلْمِهم وتجاوُزِهم(٢).

﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾: الصَّفْحُ: الإعراضُ عن المؤاخَذةِ بالذَّنْبِ، وتركُ التَّثريبِ والعِتابِ، وهو أبلَغُ مِن العفوِ، يُقالُ: صَفحتُ عنه: إذا أعرضْتَ عن ذنْبِه، والأصلُ فيه أنَّ مَن أعرَض عن صاحبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه (أي: جانبَه)، وصرَف عنه وجْهَه، فكأنَّه أعرَض بوجهِه عن ذنْبِه(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين يُحبُّون أنْ يَظهرَ الزِّنا، ويَشيعَ خبرُه، والقذفُ به في المؤمنين؛ لهم عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدُّنيا والآخِرةِ، واللهُ يعلَمُ، وأنتم لا تعلمون إلَّا ما علَّمكم سبحانه وتعالى، ولولا فَضلُ اللهِ على عبادِه ورحمتُه بهم، وأنَّه بهم رؤوفٌ رحيمٌ؛ لعجَّل لهم العُقوبةَ.

يا أيُّها الذين آمَنوا لا تتَّبِعوا طرقَ الشَّيطانِ، ولا تَسلُكوا مسالِكَه، ومَن يَسلُكْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠، ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٢)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

طُرُقَ الشيطانِ فإنَّه يأمُرُه بقبيحِ الأفعالِ ومُنكَراتِها، ولولا فَضلُ الله ورحمتُه بكم -أيُّها المؤمِنونَ- ما تطهَّرَ أحدٌ منكم مِن الأوزارِ، ولكِنَّ اللهَ برحمتِه وفَضلِه يطهِّرُ من يشاءُ، واللهُ سميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأعمالِكم ونيَّاتِكم.

ثمَّ يقولُ الله تعالى: ولا يحلِفْ أهلُ الفَضلِ وأصحابُ الغِنى على ألَّا يُؤتوا أقاربَهم والمساكينَ والمهاجرينَ ما كانوا يُعطونهم إيَّاه من الإحسانِ؛ بسبَبِ ذنْبٍ فَعَلوه، ولْيَعفوا عمَّا كان منهم مِن جُرمٍ، ولْيُعرِضوا عن ذَنبِهم ويَترُكوا عُقوبتَهم، ولْيُحسِنوا إليهم، ألَا تُحِبُّونَ أن يغفِرَ اللهُ لكم؟ واللهُ غفورٌ رحيمٌ مع كمالِ قُدرتِه على العقابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه ما على أهلِ الإفكِ وما على مَن سَمِع منهم، وما يَنبغي أن يتمَسَّكوا به من آدابِ الدِّينِ؛ أتبَعَه بقَولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّ من أحَبَّ ذلك فقد شارك في هذا الذَّمِّ، كما شارك فيه مَن فَعَلَه ومَن لم يُنكِرْه، ولِيُعلَمَ أنَّ أهلَ الإفكِ كما عليهم العقوبةُ فيما أظهروه، فكذلك يَستحِقُّون العقابَ بما أسرُّوه مِن محبَّةِ إشاعةِ الفاحشةِ في المؤمنينَ(١).

وأيضًا لَمَّا حذَّر اللهُ المؤمنينَ مِن العَودِ إلى مِثلِ ما خاضوا به مِن الإفكِ على جميعِ أزمِنةِ المُستقبَلِ؛ أعقبَ تحذيرَهم بالوعيدِ على ما عسى أن يَصدُرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٥).

منهم في المستقبَلِ، بالوعيدِ على محبَّةِ شُيوعِ الفاحشةِ في المؤمنين؛ فهو تحذيرٌ للمُؤمِنينَ، وإخبارٌ عن المنافِقينَ والمُشرِكينَ(١).

وأيضًا لَمَّا كان مِن أعظمِ الوعظِ: بيانُ ما يستحقُّ على الذنْبِ مِن العقابِ؛ بيَّنه بقولِه(٢):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾.

أي: إنَّ الذين يُحِبُّون(٣) أنْ يظهرَ الزِّنا، ويَشيعَ خبرُه، والقذفُ به(٤) في أوساطِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٩).

(٣) قال ابن جزي: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ الإشارةُ بذلك إلى المنافقينَ الذين أَحَبُّوا أن يَشيعَ حديثُ الإفكِ، ثمَّ هو عامٌّ في غَيرِهم ممَّن اتَّصَف بصِفتِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

وقال ابن عطية: (وقالت فِرقةٌ -وقَولُها الأظهَرُ: الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ قاذِفٍ، منافقًا كان أو مؤمِنًا؛ فالقاذِفُ المؤمِنُ لا يَتَّصِفُ بحُبِّ شِياعِ الفاحشةِ في المؤمنينَ جُملةً، لكنَّه يُحِبُّها لمَقذوفِه، وكذلك آخَرُ لمَقذوفِه، وآخَرُ حتى تَشيعَ الفاحِشةُ مِن مجموعِ فِعلِهم؛ فهُم لها مُحِبُّون بهذا الوجهِ، مِن حيث أحَبَّ كلُّ واحدٍ جزءًا مِن شِياعِها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣).

(٤) قال الماتريدي: (هذا يحتَمِلُ وجهين؛ أحدُهما: يُشيعونَ الفاحشةَ ويُذيعونها في الذين آمنوا، هم الذين تولَّوا إشاعتَها وإذاعتَها فيهم، لهم ما ذُكِرَ من العذابِ الأليمِ.

والثاني: يُحِبُّونَ أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا؛ ليَكونَ ذلك ذريعةً لهم في المؤمنينَ، فيقولون: إنَّ دينكم لم يمنَعْكم عن الفواحِشِ والمنكَرِ). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٣٤).

وقال ابن تيميَّة: (قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الآيةَ. وهذا ذمٌّ لِمَن يُحِبُّ ذلك، وذلك يكونُ بالقَلبِ فقط، ويكونُ مع ذلك باللِّسانِ والجوارحِ، وهو ذمٌّ لِمَن يتكلَّمُ بالفاحِشةِ، أو يُخبِرُ بها؛ محبَّةً لِوُقوعِها في المؤمنينَ: إمَّا حَسَدًا أو بُغضًا، وإمَّا مَحبَّةً للفاحشةِ وإرادةً لها). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣٢). =

المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ[1]؛ لهم عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدُّنيا وفي الآخرةِ[2].

= وقال السعدي: (إذا كان هذا الوعيدُ لمجَرَّدِ محبَّةِ أن تَشيعَ الفاحِشةُ، واستِحْلاءِ ذلك بالقَلبِ، فكيف بما هو أعظَمُ من ذلك؛ مِن إظهارِه ونَقْلِه؟! وسواءٌ كانت الفاحِشةُ صادِرةً أو غيرَ صادرةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(١) ممَّن اختار أنَّ معنَى ﴿تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: أن يَذيعَ الزِّنا ويَظهَرَ ويَفْشُوَ: مقاتِلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: إشاعةُ خبرِ الفاحشةِ، والقذف بها: الواحديُّ، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

قال بكر أبو زيد: (ومحبَّةُ إشاعةِ الفاحِشةِ تَنتَظِمُ جَميعَ الوسائِلِ القبيحةِ إلى هذه الفاحِشةِ؛ سواءٌ كانت بالقَولِ، أم بالفِعلِ، أم بالإقرارِ، أو ترويجِ أسبابِها، وهكذا). ((حراسة الفضيلة)) (ص: ٧٥).

وممن اختار الجمعَ بينَ المعنيَينِ السابقينِ: ابنُ عثيمينَ، فقال: (الأظهَرُ أنَّها أعَمُّ مِن الشُّيوعِ باللِّسانِ، وأنَّها تَشيعُ بالفِعلِ بحيثُ يُشاهِدُهم النَّاسُ، وبالقَولِ بحيثُ يُشاعُ عنهم ذلك، فهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ سواءٌ يُحِبُّون أن تشيعَ بالقَولِ... أو يحبُّونَ أن تَشيعَ بالفِعلِ، بمعنى أن يَظهَرَ أمْرُهم ويَتبيَّنَ، ويُرَونَ ويُشاهَدونَ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة النور)) (ص: ٩٩).

وقال أيضًا: (يَظهَرُ أنَّ الآيةَ عامَّة لهذا ولهذا؛ أن يَشيعَ خبرُها وتَنتشِرَ إذا فُعلَتْ، وأن يَشيعَ فِعلُها وتَكثُرَ الفواحشُ في المؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين – سورة النور)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

ممَّن اختار أنَّ العذابَ الأليمَ في الدُّنيا بالحدِّ، وفي الآخرةِ بالنارِ: الواحديُّ، والسمعاني، وابن الجوزي، وأبو حيان، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧). =

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: واللهُ يَعلمُ جميعَ المعلوماتِ، ومِن جملةِ ذلك عِلمُه ما في القلوب مِن الأسرارِ والضمائرِ، فيَعلمُ مَن يُحِبُّ إشاعةَ الفاحشةِ، وهو معاقِبُه عليها، ويَعلمُ كَذِبَ الذين جاؤوا بالإفكِ، ويعلَمُ ما في ذلك من المفاسِدِ فيَعِظُكم لتَجتَنِبوا، وأنتم لا تعلمونَ إلَّا ما علَّمكم، وبيَّن لكم، فرُدُّوا الأمورَ إليه تَرْشُدوا، ولا تَرْوُوا ما لا عِلمَ لكم به(١).

عن ابنِ عُمَرَ رَضِي الله عنهما، قال: ((صَعِدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المِنبَرَ، فنادى بصوتٍ رفيعٍ، فقال: يا معشَرَ مَن أسْلَمَ بلِسانِه، ولم يُفْضِ الإيمانُ

= وممَّن قيَّد العَذابَ في الآخرةِ بالنارِ بعدَمِ التَّوبةِ ومَوتِهم مُصِرِّينَ على ذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥).

قال ابن عطية: (والعذابُ الأليمُ في الدُّنيا: الحدودُ، وفي الآخِرةِ يحتمِلُ وجهَين؛ أحَدُهما: أن يَكونَ القاذِفُ متوعَّدًا مِن بيْن العُصاةِ بعذابِ الآخرةِ لا يُزيلُه الحَدُّ حسَبَ مُقتضى حديثِ عُبادةَ بنِ الصامِتِ، ويَكونَ أمْرُه كأمرِ المُحارِبينَ إذا صُلِّبوا؛ لهم خِزْيٌ في الدُّنيا، ولهم في الآخرةِ عَذابٌ. والوجهُ الثَّاني: أن يُحكَمَ بأنَّ الحدَّ مُسقِطٌ عَذابَ الآخرةِ حسَبَ حديثِ عُبادةَ بنِ الصامِتِ، وأنَّ قولَه: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ لا يريدُ به عُمومَ القَذَفةِ، بل يريدُ إمَّا المنافقينَ، وإمَّا مَن لم يَتُبْ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١).

وقال ابن جزي: (ورد في الحديثِ: أنَّ مَن عُوقِب في الدُّنيا على ذنبٍ لم يُعاقَبْ عليه في الآخرةِ [يُنظر ما أخرجه البخاري «٣٨٩٢»، ومسلم «١٧٠٩» مِن حديثِ عُبادةَ]، فأشكَل اجتِماعُ الحَدِّ معَ عذابِ الآخرةِ في هذا الموضِعِ، فيَحتَمِلُ أن يكونَ القاذِفُ يُعذَّبُ في الآخرةِ ولا يُسقِطُ الحَدُّ عنه عذابَ الآخرةِ بخلافِ سائرِ الحدودِ، أو يكونَ هذا مختَصًّا بمن قذَفَ عائشةَ...، أو يكونَ لِمن مات مُصِرًّا غيرَ تائبٍ، أو يكونَ للمُنافِقين). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

إلى قلبِه، لا تُؤْذُوا المُسلِمينَ، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَن تتَبَّع عَوْرةَ أخيه المسلِمِ تتَبَّع اللهُ عورتَه، ومَن تتَبَّع اللهُ عَورتَه يَفْضَحْهُ ولو في جَوفِ رَحلِه))[١].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٢٠ ﴾.

أي: ولولا فَضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنَّه رؤوفٌ بكم؛ لعجَّل لكم العُقوبةَ على خَوضِكم في الإفكِ، لكِنَّه لم يعاقِبْكم، وتاب عليكم[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ تعالى بأنَّه ما أنزَل لهم هذا الشَّرعَ على لسانِ هذا الرَّسولِ الرؤوفِ الرَّحيمِ إلَّا رحمةً لهم، بعْدَ أن حذَّرهم مواردَ الجَهلِ؛ نهاهم عن التَّمادي فيه في سياقٍ مُعْلِمٍ أنَّ الدَّاعيَ إليه الشَّيطانُ العَدُوُّ[٣].

وأيضًا لَمَّا نهَى تعالى عمَّا نهَى عنه فيما سبَق بخصوصِه، نهَى عن الذنوبِ عمومًا[٤]، فقال تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان (٥٧٦٣).

قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ)، وصَحَّح إسنادَه الزَّيْلعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٣٤٤)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمنوا لا تَسلُكوا طُرُقَ الشَّيطانِ التي يَدْعوكم إليها بوساوسِه، كإشاعةِ الفاحشةِ في الذين آمنوا(١).

﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: ومَن يَسلُكْ طرُقَ الشَّيطانِ يقَعْ في الفَحشاءِ والمنكَرِ؛ لأنَّ الشيطانَ يأمُرُ النَّاسَ بفِعلِ الذُّنوبِ العظيمةِ القبيحةِ، كالزِّنا، ويأمُرُ بمُنكراتِ الأقوالِ والأفعالِ التي تُنكِرُها الشَّريعةُ والعقولُ السَّليمةُ(٢).

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

أي: ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم، ما تطهَّر أحَدٌ منكم أبدًا مِن الشِّركِ والمعاصي واتِّباعِ خُطواتِ الشَّيطانِ، ولا اهتدَى إلى الإيمانِ والتَّوبةِ النَّصوحِ وطاعةِ الرَّحمنِ(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ يُطهِّرُ مِن الذُّنوبِ وآثامِها، ويهدي إليه مَن يشاءُ مِن عبادِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

قال السعدي: (وخُطواتُ الشَّيطانِ يدخُلُ فيها سائِرُ المعاصي المتعلِّقةِ بالقَلبِ واللِّسانِ والبَدَنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

ممَّن يستحِقُّ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللهُمَّ آتِ نفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومَوْلاها))[٢].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سميعٌ لأقوالِكم كُلِّها؛ خَيرِها وشَرِّها، عليمٌ بأقوالِكم وأعمالِكم وما في قلوبِكم، وهو محيطٌ بكلِّ ذلك، ومُحصيه عليكم؛ لِيُجازيَكم به[٣].

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أمِّ المؤمنين عائِشةَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ الله عنهما- في قِصَّةِ الإفكِ، قالت: ((فأنزل اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: ١١] العشرَ الآياتِ كُلَّها في براءتي، فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ -وكان يُنفِقُ على مِسْطَحٍ لِقَرابتِه منه-: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسطَحٍ شَيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشةَ؛ فأنزل اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠).

وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]. قال أبو بكرٍ: بلى واللهِ، إنِّي لَأُحِبُّ أن يَغفِرَ اللهُ لي، فرجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال: واللهِ لا أنزِعُها عنه أبدًا))(١).

﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا يَحلِفْ باللهِ أصحابُ الفَضلِ(٢) والغِنى وذَوو السَّعةِ في الرِّزقِ، على

---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) قال الواحدي: (﴿ وَلَا يَأۡتَلِ ﴾ [النور: ٢٢] قال جماعةُ المفسرين: لا يحلِفْ). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٣).

قال ابن جزي: (والفضلُ هنا يحتمِلُ أن يُريدَ به: الفضلَ في الدِّينِ، أو الفضلَ في المالِ، وهو أن يَفضُلَ له عن مِقدارِ ما يَكفيه، والسَّعةُ هي اتِّساعُ المالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفضلِ هنا: الفضلُ في الدِّينِ: السمرقنديُّ، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والعليمي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

قال ابن عاشور: (والفضلُ: أصْلُه الزِّيادةُ؛ فهو ضِدُّ النقصِ، وشاعَ إطلاقُه على الزيادةِ في الخَيرِ والكمالِ الدِّينيِّ، وهو المرادُ هنا. ويُطلَقُ على زيادةِ المالِ فوقَ حاجةِ صاحِبِه، وليس مرادًا هنا؛ لأنَّ عَطْفَ ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ عليه يُبعِدُ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أن المرادَ به: الفضلُ في المالِ والغنى: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠).

قال ابن جرير: (ذَوو الفَضلِ منكم، يعني: ذَوي التفضُّلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢). =

أَلَّا يُنفِقوا ويُعطوا الصَّدَقاتِ أقارِبَهم والمساكينَ والمُهاجرينَ في سَبيلِ اللهِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ

= وقال ابن كثير: (﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: الطَّوْلِ والصدقةِ والإحسانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٦).

قال الواحدي: (﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾... وهو أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ الله عنه، في قولِ جميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ١٧٣).

وقال الرازي: (أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن قولِه: ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾: أبو بكرٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٩).

وقال أيضًا: (أجمعوا على أنَّ المرادَ مِن قوله: ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: مِسطَحٌ؛ لأنَّه كان قريبًا لأبي بكرٍ، وكان من المساكينِ، وكان من المهاجرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٢).

وقال ابن عطية: (غيرَ أنَّ الآيةَ تتناوَلُ الأمَّةَ إلى يومِ القيامةِ، بألَّا يَغتاظَ ذو فَضلٍ وسَعةٍ فيَحلِفَ ألَّا ينفَعَ مَن هذه صِفتُه غابرَ الدَّهرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ مِن أُولي الفضلِ ابتداءً أبو بكرٍ، والمرادُ مِن أولي القُربى ابتداءً مِسطَحُ ابنُ أُثاثةَ، وتعُمُّ الآيةُ غيرَهما ممَّن شاركوا في قضية الإفكِ، وغيرَهم ممَّن يشمَلُه عمومُ لَفظِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

قال البقاعي: (ذكَرَ الصِّفاتِ المُقتَضيةَ للإحسانِ، فقال: ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وعدَّدَها بأداةِ العَطفِ؛ تكثيرًا لها وتَعظيمًا لأمرِها، وإشارةً إلى أنَّ صِفةً منها كافيةٌ في الإحسانِ، فكيف إذا اجتمَعَت؟! فقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ أي: الذين لا يجِدون ما يُغنيهم وإن لم تكن لهم قَرابةٌ، ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ لأهلِهم وديارِهم وأموالِهم، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي عَمَّ الخلائقَ بجودِه؛ لِما له من الإحاطةِ بالجلالِ والإكرامِ، وإنِ انتفى عنهم الوصفانِ الأوَّلانِ فإنَّ هذه الصِّفاتِ مُؤْذِنةٌ بأنَّهم ممَّن زكَّى الله، وتَعدادُها بجَعلِها عِلَّةً للعَفوِ- دليلٌ على أنَّ الزاكيَ مِن غيرِ المعصومين قد يَزِلُّ، فتُدرِكُه الزكاةُ بالتوبةِ، فيَرجِعُ كما كان، وقد تكونُ الثلاثةُ لِموصوفٍ واحدٍ؛ لأنَّ سَبَبَ نزولِها مِسطَحٌ رضِيَ الله عنه؛ فالعَطفُ إذَنْ للتمكُّنِ في كُلِّ وصفٍ منها). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٣٨).

بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾.

أي: ولْيَعْفُ ذَوو الفَضلِ والسَّعةِ منكم عن أولئك المحتاجينَ الذين خاضُوا في الإفكِ، ويتجاوَزوا عنهم، ويُعرِضوا عن ذَنبِهم، ويَترُكوا عُقوبتَهم؛ فلا يَمْنعوهم مِن الصَّدقاتِ والنَّفَقاتِ التي كانوا يُقدِّمونَها إليهم مِن قبْلُ[١].

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾.

أي: ألا تُحِبُّونَ أن يَستُرَ اللهُ ذُنوبَكم، ويَتجاوزَ عن مؤاخَذتِكم بها؟ إذَنْ فاعفُوا واصفَحوا عمَّن أساؤوا إليكم؛ لِيَغفِرَ اللهُ لكم[٢].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ساترٌ لذُنوبِ التَّائبينَ الطَّائعينَ، ومُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٩).

قال ابن عثيمين: (إذا قال قائلٌ: ما الفرقُ بيْن العَفوِ والصفحِ؟

الجوابُ: العفوُ بمعنَى التجاوُزِ، يعني: أنَّ اللهَ إذا عفا عنه فقد تجاوَزَ عنه، وقد يَكونُ الصفحُ بدُونِ عَفوٍ، كما لو أعرَضَ الإنسانُ عن هذا الاعتِداءِ لكنَّ قلبَه مملوءٌ على صاحِبِه، ولم يَعْفُ عنه، وقد يَكونُ العفوُ بدُونِ صَفحٍ، بأن يَتجاوَزَ ولا يُعاقِبَه على ذَنبِه، ولكنَّه ليس مُعرِضًا عن هذا الذَّمِّ كلَّما جاءت مناسَبةُ ذِكرِه؛ ولهذا أمَرَ اللهُ بالأمْرَينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢١).

وقال أيضًا: (العفو: ترْكُ المؤاخَذةِ على الذنْبِ، والصفحُ: الإعراضُ عنه... فالصفحُ معناهُ: الإعراضُ عن هذا بالكلِّيَّةِ وكأنَّه لم يَكُنْ؛ فعلى هذا يَكونُ بيْنهما فرقٌ؛ فالصفحُ أكمَلُ إذا اقترَنَ بالعَفوِ). ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨).

بعبادِه المؤمِنينَ الصَّالحينَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يدُلُّ على وجوبِ سلامةِ القَلبِ للمُؤمنينَ، كوجوبِ كَفِّ الجوارِحِ والقَولِ عمَّا يَضُرُّ بهم[٢].

٢- العاقِلُ هو الذي يتحَسَّسُ مَعايبَ نَفْسِه، ويَنظُرُ فيها لِيُصلِحَها، لا أن يَنظُرَ في معايبِ الغَيرِ لِيُشيعَها -والعياذُ باللهِ-؛ ولهذا قال اللهُ عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣].

٣- مَن كان مِن النَّاسِ مَستورًا لا يُعرَفُ بشَيءٍ مِن المعاصي، إذا وقَعَت منه هَفوةٌ أو زلَّةٌ، فإنَّه لا يجوزُ كَشفُها ولا هَتكُها، ولا التَّحدُّثُ بها؛ لأنَّ ذلك غِيبةٌ مُحرَّمةٌ، وهذا هو الذي ورَدتْ فيه النُّصوصُ، وفي ذلك قد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾، والمرادُ: إشاعةُ الفاحشةِ على المؤمِنِ المُستَتِرِ فيما وقع منه، أو اتُّهِم به وهو بريءٌ منه[٤]، فالآية فيها الحثُّ على سَترِ المؤمِنِ، وعَدَمِ هَتكِه[٥].

٤- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ إذا أَحَبُّوا إشاعتَها وإذاعتَها، فكيفَ إذا توَلَّوا هم إشاعتَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

وإذاعتَها، لا نصيحةً منهم، ولكن طاعةً لإبليسَ ونيابةً عنه[1]؟! ففي الآيةِ أنَّ هذا العقابَ ثابتٌ لِمَن أشاع الفاحِشةَ؛ لأنَّه إذا ثَبَتَ فيمَن أحَبَّها، فكذلك فيمَن أشاعَها مِن بابٍ أَولى[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يدُلُّ على أنَّ العَزمَ على الذَّنبِ العَظيمِ عَظيمٌ، وأنَّ إرادةَ الفِسقِ فِسقٌ؛ لأنَّه تعالى علَّق الوعيدَ بمحبَّةِ إشاعةِ الفاحشةِ[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ مِن أدَبِ هذه الآيةِ أنَّ شأنَ المؤمنِ ألَّا يُحِبَّ لإخوانِه المؤمنين إلَّا ما يحِبُّ لنفسِه، فكما أنَّه لا يحِبُّ أن يُشيعَ عن نَفْسِه خبرَ سوءٍ، كذلك يجِبُ عليه ألَّا يحِبَّ إشاعةَ السوءِ عن إخوانِه المؤمِنينَ[4].

٧- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ لِشُيوعِ أخبارِ الفواحِشِ بيْن المؤمِنينَ بالصِّدقِ أو بالكَذِبِ مَفسدةٌ أخلاقيَّةٌ؛ فإنَّ ممَّا يَزَعُ النَّاسَ عن المفاسِدِ تَهيُّبَهم وُقوعَها، وكراهتَهم سوءَ سُمعتِها، وذلك مِمَّا يَصرِفُ تفكيرَهم عن تذكُّرِها -بَلْهَ الإقدامِ عليها- رويدًا رويدًا حتى تُنسى وتَنْمحي صُوَرُها مِن النُّفوسِ، فإذا انتشرَ بيْن الأمَّةِ الحديثُ بوقوعِ شَيءٍ مِن الفواحِشِ، تذكَّرَتها الخواطِرُ، وخَفَّ وقْعُ خَبَرِها على الأسماعِ؛ فدَبَّ بذلك إلى النُّفوسِ التهاوُنُ بوقوعِها، وخِفَّةُ وَقعِها على الأسماعِ، فلا تلبَثُ النفوسُ الخبيثةُ أن تُقدِمَ على اقترافِها، وبمقدارِ تكرُّرِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

وُقوعِها وتكرُّرِ الحديثِ عنها تصيرُ متداوَلةً. هذا إلى ما في إشاعةِ الفاحشةِ مِن لَحاقِ الأذى والضُّرِّ بالنَّاسِ ضُرًّا متفاوِتَ المقدارِ على تفاوُتِ الأخبارِ في الصِّدقِ والكَذِبِ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ التَّحذيرُ مِن اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ، وبيانُ عاقبةِ اتِّباعِها[2]، ومِن حِكمتِه تعالى أنْ بَيَّنَ الحُكمَ، وهو: النَّهيُ عن اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ. والحِكمةَ، وهي: بيانُ ما في المَنهيِّ عنه مِنَ الشَّرِّ المُقتضي والدَّاعي لِتَركِه؛ فنَهيُ اللهِ عنها للعبادِ نِعمةٌ منه عليهم أن يَشكُروه ويَذكُروه؛ لأنَّ ذلك صيانةٌ لهم عن التدَنُّسِ بالرَّذائِلِ والقَبائحِ؛ فمِن إحسانِه عليهم أنْ نهاهم عنها كما نهاهم عن أكلِ السُّمومِ القاتِلةِ، ونَحوِها[3]. ومِن نعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى أنْ يُبيِّنَ للعِبادِ أسبابَ الشَّرِّ، ويُحَذِّرَهم منها، يعني لا يَكِلُهم إلى أنفُسِهم، بل اللهُ سُبحانَه وتعالى يتولَّى بيانَ ذلك بفَضلِه ورَحمتِه[4].

٩- في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أنَّه يَنبغي ذِكرُ الحوافزِ التي تُحَفِّزُ الإنسانَ، وتَحمِلُه على الامتثالِ؛ لقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، كأنَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنَّكم مؤمِنونَ ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ ففي هذا إثارةٌ وحافزٌ قويٌّ يُحَفِّزُ الإنسانَ على ألَّا يَتَّبِعَ خُطواتِ الشَّيطانِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٦).

١٠- زكاةُ القَلبِ مَوقوفةٌ على طهارتِه، كما أنَّ زكاةَ البدَنِ موقوفةٌ على استفراغِه مِن أخلاطِه الرَّديئةِ الفاسدةِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وذكَرَ ذلك سُبحانَه عَقِيبَ تحريمِ الزِّنا والقَذفِ ونِكاحِ الزَّانيةِ؛ فدَلَّ على أنَّ التزكِّيَ هو باجتنابِ ذلك[1].

١١- قولُه تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بجميعِ المعلوماتِ التي مِنْ جُملتِها نيَّاتُهم، وفيه حَثٌّ لهُم على الإخلاصِ في التَّوبةِ[2].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في هذه الآيةِ مِن الأخلاقِ الاجتماعيَّةِ ما يدُلُّ على أنَّ القُرآنَ تَشريعٌ سَماويٌّ؛ حيثُ يُعطِّفُ الإنسانَ على مَن تَكلَّمَ فيه بما لا يَنبغي، وليس فيه تَشجيعٌ على الجرائمِ؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ يُؤدَّبُ مِن جهةٍ؛ فالذي رمى أُدِّبَ مِن جهةِ الحَدِّ، والذي حَلَفَ ألَّا يُنفِقَ عليه أُدِّبَ مِن جهةِ تَكفيرِ يمينِه، وإيتاءِ الفَقيرِ ما يَستحِقُّ[3].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه لا تُترَكُ النَّفقةُ والإحسانُ بمعصيةِ الإنسانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ فيه الحَثُّ على العَفوِ والصَّفحِ، ولو جرى عليه ما جرى مِن أهلِ الجرائِمِ[١]. قال الإمامُ أحمدُ: (كُلُّ مَن ذكرني ففي حِلٍّ إلَّا مُبتدعًا، وقدْ جعلْتُ أبا إسحاقَ -يعني: المعتصمَ[٢]- في حِلٍّ، ورأيْتُ اللهَ يقولُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وأمَر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أبا بكرٍ بالعفوِ في قِصَّةِ مِسطحٍ). وقال أيضًا: (وما ينفعُكَ أنْ يُعَذِّبَ اللهُ أخاكَ المسلمَ في سببِكَ)[٣]؟!

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فيه ترغيبٌ عظيمٌ في العفوِ، ووَعْدُ الكريمِ بمُقابَلتِه[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ دليلٌ على أنَّ مُواصلةَ مَن قطَع، والإحسانَ إلى مَن أساء: هو خُلُقٌ مَرْضِيٌّ، ومندوبٌ إليه المرءُ[٥].

١٧- يُفيدُ قَولُه تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أنَّه ينبغي التعرُّضُ لمَغفرةِ اللهِ ورِضوانِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) فقد حُبِس، وضُرِب بينَ يدي المعتصمِ في المحنةِ بخلقِ القرآنِ. يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٤/ ٣٩٣، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١١/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ عبَّر بالحُبِّ؛ إشارةً إلى أنَّه لا يَرتكِبُ هذا مع شناعتِه إلَّا مُحِبٌّ له[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ تَعليقُ الوعيدِ على مَحبَّةِ الشِّياعِ: دَليلٌ على أنَّ إرادةَ الفِسْقِ فِسْقٌ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فضْلُ اللهِ على المؤمنينَ في حمايةِ أعراضِهم؛ حيث تَوعَّدَ مَن أحبَّ أن تَشيعَ الفاحشةُ فيهم[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ هذا الوَعيدُ الشَّديدُ يَنطَبِقُ على دُعاةِ تَحريرِ المرأةِ في بلادِ الإسلامِ مِن الحِجابِ، والتخَلُّصِ مِن الأوامِرِ الشَّرعيَّةِ الضَّابِطةِ لها في عِفَّتِها وحِشمتِها وحيائِها[4].

٥- حَسُنَ مَوقِعُ قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بعْدَ قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾؛ لأنَّ محبَّةَ القَلبِ كامِنةٌ، ونحن لا نعلَمُها إلَّا بالأماراتِ، أمَّا الله سُبحانَه فهو لا يخفَى عليه شَيءٌ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٧٥).

فصار هذا الذِّكرُ نهايةً في الزَّجرِ؛ لأنَّ مَن أحبَّ إشاعةَ الفاحشةِ -وإنْ بالغَ في إخفاءِ تلك المحبَّةِ- فهو يعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ ذلك منه، وأنَّ عِلمَه سُبحانَه بذلك الذي أخفاه كعِلمِه بالذي أظهَرَه، ويعلَمُ قَدرَ الجزاءِ عليه[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وجوبُ رَدِّ الأشياءِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وحُكمِها؛ لقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾[2].

٧- قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فيه قصورُ علمِ المخلوقِ؛ ولذلك نفى اللهُ عنه العِلمَ؛ لأنَّ ما أُوتي مِن العلمِ قليلٌ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ بيانُ فضلِ اللهِ وحكمتِه؛ حيثُ يَقرِنُ الأحكامَ بعِلَلِها؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ هذا حُكمٌ؛ علةُ النَّهيِ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾، وذِكرُ الأحكامِ بعِلَلِها له فوائدُ؛ منها: زيادةُ اطمئنانِ الإنسانِ للحُكمِ، ومعرفةُ أسرارِ الشريعةِ وكمالِها، وتعدِّي هذا الحُكمِ بتعدِّي العلَّةِ[4].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ لا يُعارِضُه قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولا قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ووجهُ ذلك في قَولِه: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أنَّه لا يزكِّيها إلَّا بتوفيقِ اللهِ وهدايتِه إيَّاه للعمَلِ الصَّالحِ، وقَبولِه منه. وكذلك الأمرُ في قَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

لا يخفى[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ فيه دليلٌ على النَّفَقةِ على القَريبِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ فضيلةُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه[٣]، فقولُه: ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ أي: في الدِّين -على قولٍ في التفسيرِ-، وكفَى به دليلًا على فضلِ الصِّدِّيقِ رضي الله تعالى عنه[٤].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فيه النَّهيُ عن الحَلِفِ ألَّا يفعَلَ خيرًا، وأنَّ مَن حلَف على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها، فيُستحَبُّ له الحِنثُ[٥]، وفيه دليلٌ على أنَّ اليمينَ إذا وقعَتْ على ما لا قُربةَ فيه إلى اللهِ، فالطَّاعةُ تَرْكُها وتَركُ المُضِيِّ عليها -وإنْ لم يكُنِ التَّركُ مفروضًا- إذا كان غيرُه أقربَ منه؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى نَدَب أبا بكرٍ إلى العَودِ إلى مِسطَحٍ بفَضلِه، وتَرْكِ مُعاقبتِه على ما كان منه إلى ابنتِه نَدبًا، ولم يَفرِضْ عليه فَرضًا، ولولا ذلك ما دَلَّه -واللهُ أعلمُ- على العَفوِ والصَّفحِ، ولا وَعَده عليه الغُفرانَ؛ إذِ العَفوُ والصَّفحُ بَابَا فَضلٍ، لا يُجبَرُ أحدٌ عليهما[٦].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٣٤).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الإساءةَ مِن الشَّخصِ لا توجِبُ إسقاطَ حُقوقِه، فإذا أساء فليس معنى ذلك أنَّنا نُسيءُ إليه بتَركِ ما يجبُ علينا؛ فإساءتُه تكونُ على نفْسِه، ونحن علينا ما يجِبُ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أنَّ اسمَ القُربى شاملٌ لكلِّ مَن مَتَّ إلى الإنسانِ برَحِم -قَرُبَت أو بَعُدَت-؛ إذِ الرَّحِمُ قُربةٌ يَقتربُ بها ذو النَّسَبِ، وقد عَرِي منها الأجنبيُّ، فلا يَمُتُّ بها أبدًا، وكذا النَّسَبُ -وإن بَعُدَ نسَبُه- فهو قُربةٌ مِن الإنسانِ لا يقتربُ بها سائرُ جِنْسِه مِن النَّاسِ، وسواءٌ كان ذلك مِن قِبَلِ الأبِ أو الأمِّ؛ لا أنَّه أسباطُ الإنسانِ وبنو عمِّه الأَدْنَونَ، كما تزعُمُ الرَّافضةُ مِن أنَّ قولَ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أنه عليٌّ والحسَنُ والحُسَينُ وفاطمةُ رضي الله عنهم، دون سائرِ قراباتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم!! ألَا ترَى أنَّ مِسطحَ بنَ أُثَاثةَ -الذي حُضَّ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه على الإنفاقِ عليه، المسمَّى بأُولي القُربى- إنَّما هو ابنُ بنتِ خالةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه، وقد سمَّاه اللهُ مِن أُولي قُرباه؟! فكيف تُخَصُّ ابنةُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وسِبْطاهُ وابنُ عمِّه دونَ سائرِ أقاربِه المسلمين، بالمودَّةِ في الآيةِ، وابنُ بنتِ خالةِ الإنسانِ قريبُه كما ترى[2]؟!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الرَّدُّ على المعتزلةِ القائلين: إنَّ الكبائرَ تُحبِطُ الأعمالَ[3]؛ لأنَّ مِسطَحًا رضي اللهُ عنه كان ممَّن خاض في رَمي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٨).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ: (إذا كانت السَّيِّئاتُ لا تُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ، فهل تُحبِطُ =

عائشةَ، وذلك كَبيرةٌ قَطعًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وتَوَعَّدَ على ذلك توعُّدًا عظيمًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ومع ذلك بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هِجرةَ مِسطَحٍ باقيةٌ، فلو كانتِ الكبيرةُ -غيرَ الشِّركِ- تُحبِطُ العمَلَ، لَمَا بَقِيت له هِجرةٌ، فلمَّا نَوَّه تعالى بهجرتِه بعدَ ارتكابِه ذَنبَ القذْفِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ سائرَ الذُّنوبِ لا تَقضي على الأعمالِ الصَّالحةِ إلَّا ذنبَ الشِّركِ الذي لا يَغفِرُه اللهُ[1]، وفيه ردٌّ على مَن يزعُمُ أنَّ الذُّنوبَ كُفرٌ، وكيف تكونُ كُفرًا وقد سمَّى اللهُ مِسطحًا -مع عظيمِ ذَنبِه- مُهاجِرًا[2]؟!

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يؤْذِنُ بأنَّ كفَّارةَ اليمينِ كانت مشروعةً مِن قبْلِ هذه القصَّةِ، ولكنَّهم كانوا يَهابون الإقدامَ على الحِنثِ[3].

١٧- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ فيه أنَّ كمالَ العَفوِ يكونُ بالصَّفحِ؛

= بقَدْرِها؟ وهل يُحبَطُ بعضُ الحَسَناتِ بذَنبٍ دونَ الكُفرِ؟ فيه قولانِ للمُنتَسِبينَ إلى السُّنَّةِ: منهم مَن يُنكِرُه، ومنهم مَن يُثبِتُه، كما دلَّت عليه النُّصوصُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٦٣٨).

وقال أيضًا: (أمَّا الصَّحابةُ وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فعلى أنَّ أهلَ الكبائرِ يَخرُجونَ مِن النَّارِ، ويُشفَعُ فيهم، وأنَّ الكبيرةَ الواحِدةَ لا تُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ، ولكِنْ قد يُحبَطُ ما يقابِلُها عند أكثرِ أهلِ السُّنَّةِ، ولا يُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ إلَّا الكُفرُ، كما لا يُحبِطُ جميعَ السَّيِّئاتِ إلَّا التَّوبةُ؛ فصاحِبُ الكبيرةِ إذا أتى بحسَناتٍ يبتغي بها رضا الله أثابه اللهُ على ذلك، وإن كان مُستَحِقًّا للعُقوبةِ على كبيرته). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٢١، ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٠).

فالعفوُ بعدمِ المؤاخَذةِ على الذنْبِ، والصَّفحُ بالإعراضِ عنه بالكلِّيَّةِ، وكأنَّه لم يَجْرِ؛ فيكونُ تكميلًا للعفوِ(١).

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ العفوَ والصَّفحَ عن المسيءِ المسلمِ مِنْ مُوجِباتِ غفرانِ الذُّنوبِ(٢).

١٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فيه بيانُ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ(٣).

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قيل: هذه أرجَى آيةٍ في كتابِ الله تعالى(٤)؛ لأنَّ الله أوصَى بالإحسانِ إلى القاذفِ(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الجُملةُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، واسمُ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يَعُمُّ كلَّ مَن يَتَّصِفُ بمَضمونِ الصِّلَةِ؛ فيَعُمُّ المُؤمِنينَ والمُنافِقينَ والمُشرِكينَ؛ فهو تَحذيرٌ للمُؤمِنينَ، وإخبارٌ عنِ المُنافِقينَ والمُشرِكينَ(٦).

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ فيه جَعْلُ الوعيدِ على المَحبَّةِ لشُيوعِ الفاحشةِ في المُؤمِنينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٣).

(٤) قاله عبدُ الله بنُ المبارك. يُنظر: ((صحيح مسلم)) (٢٧٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨-٤٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

تَنبيهًا على أنَّ مَحبَّةَ ذلك تَستحِقُّ العُقوبةَ؛ لأنَّ مَحبَّةَ ذلك دالَّةٌ على خُبْثِ النِّيَّةِ نحوَ المُؤمِنينَ. ومِن شأْنِ تلك الطَّوِيَّةِ: ألَّا يَلْبَثَ صاحبُها إلَّا يَسيرًا حتَّى يَصدُرَ عنه ما هو مُحِبٌّ له أو يُسَرَّ بصُدورِ ذلك مِن غَيرِه؛ فالمحبَّةُ هنا كِنايةٌ عنِ التَّهيُّؤِ لإبرازِ ما يُحِبُّ وُقوعَه. وجِيءَ بصِيغةِ الفِعْلِ المُضارعِ ﴿يُحِبُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ[١].

- قيل: المرادُ بشُيوعِ الفاحشةِ في قولِه: ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ شُيوعُ خَبَرِها -على قولٍ في التفسيرِ-، أي: يُحِبُّون شُيوعَها، ويَتَصدَّون مع ذلك لإشاعتِها؛ وإنَّما لم يُصرِّحْ به اكتِفاءً بذِكْرِ المحبَّةِ؛ فإنَّها مُستتبِعةٌ له لا مَحالةَ[٢]. وقيل: إذا أُريدَ بالمحبَّةِ نفْسُها مِن غَيرِ أنْ يُقارِنَها التَّصدِّي للإشاعةِ، فيَكونُ تَرتيبُ العذابِ عليها تَنبيهًا على أنَّ عذابَ مَن يُباشِرُ الإشاعةَ ويَتَولَّاها أشَدُّ وأعظَمُ، ويَكونُ الاعتِراضُ التَّذييليُّ -وهو: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾- تَقريرًا لثُبوتِ العذابِ الأليمِ لهم، وتَعليلًا له[٣].

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تَذييلٌ، أي: يَعلَمُ ما في ذلك مِن المفاسدِ؛ فيَعِظُكم لِتَجتَنِبوا، وأنتم لا تَعلَمون فتَحسَبون التَّحدُّثَ بذلك لا يَترتَّبُ عليه ضُرٌّ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه تَكرارُ المِنَّةِ بتَرْكِ المُعاجَلةِ بالعِقابِ، وحُذِفَ جَوابُ (لَوْلَا) كما حُذِفَ ثَمَّةَ، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

هذا التَّكريرِ مع حَذْفِ الجوابِ مُبالَغةٌ عظيمةٌ، وكذلك في التَّوَّابِ والرَّؤوفِ والرَّحيمِ(١). فجَعَل هذا المعنى أوَّلًا خاتمةً لأحكامِ الزَّاني والرَّامي والمُلاعِنِ، ثمَّ أتى به في حديثِ الإفكِ؛ للإيذانِ بأنَّهما سِيَّانِ في استيجابِ سَخَطِ اللهِ ونَكالِه ولَعْنِه، وجَعَل الفاصِلةَ هنالِك: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]، وهاهنا: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ هذا أعظَمُ مِن ذلك(٢).

- قَولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ. ووُقوعُه عَقِبَ الآياتِ العَشْرِ الَّتي في قَضيَّةِ الإفكِ يُشيرُ إلى أنَّ ما تَضمَّنَتْه تلك الآياتُ مِن المَناهي وظُنونِ السُّوءِ ومَحبَّةِ شُيوعِ الفاحشةِ، كلُّه مِن وَساوِسِ الشَّيطانِ؛ فشَبَّه حالَ فاعِلِها في كَونِه مُتلبِّسًا بوَسوَسةِ الشَّيطانِ، بهَيئةِ الشَّيطانِ يَمشي، والعامِلُ بأمْرِه يَتَّبِعُ خُطَى ذلك الشَّيطانِ؛ ففي قولِه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾ تَمثيلٌ مَبنيٌّ على تَشبيهِ حالةٍ مَحسوسةٍ بحالةٍ مَعقولةٍ؛ إذْ لا يَعرِفُ السَّامِعون للشَّيطانِ خُطُواتٍ حتَّى يُنْهَوْا عنِ اتِّباعِها. وفيه: تَشبيهُ وَسوَسةِ الشَّيطانِ في نُفوسِ الَّذين جاؤُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

بالإفكِ بالمَشيِ[١].

- وقولُه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ...﴾ بيانٌ لعِلَّةِ النَّهيِ عنِ اتِّباعِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ عِلَّةٌ للجزاءِ، وُضِعَتْ مَوضِعَه، كأنَّه قيلَ: فقدِ ارتكَبَ الفَحشاءَ والمُنكَرَ؛ لأنَّ دَأْبَه المُستمِرَّ أنْ يَأمُرَ بهما، فمَنِ اتَّبَعَ خُطُواتِه فقدِ امتَثَلَ بأمْرِه قَطْعًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ...﴾ وَضْعُ الظَّاهِرَينِ مَوضِعَ ضَميرَيْهما، حيثُ لمْ يَقُلْ: (ومَن يَتَّبِعْها)، أو: (ومَن يَتَّبِعْ خُطواتِه)؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والمُبالَغةِ في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ[٤].

- قَولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ مفعولُ ﴿يَأْمُرُ﴾ مَحذوفٌ؛ لقَصْدِ العُمومِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ بيْن الوعدِ والوعيدِ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ للإيذانِ باستِدعاءِ الأُلوهيَّةِ للسَّمعِ والعِلْمِ؛ ولِيَكونَ التَّذييلُ مُستقِلًّا بنفْسِه؛ لأنَّه ممَّا يَجري مَجرَى المَثَلِ[٦].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٨).

- عطْفٌ على جُملةِ: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [النور: ٢١]؛ عطفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّه قد يَخْفى أنَّه مِن خُطواتِ الشَّيطانِ؛ فإنَّ مِن كَيدِ الشَّيطانِ أنْ يأتيَ بوَسوسةٍ في صُورةِ خواطِرِ الخيرِ إذا علِمَ أنَّ المُوسوَسَ إليه مِن الَّذين يتوخَّونَ البِرَّ والطَّاعةَ، وأنَّه ممَّن يتعذَّرُ عليه تَرويجُ وَسوستِه إذا كانت مَكشوفةً[١].

- وقولُه: ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صِفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ، جيءَ بها بطريقِ العطْفِ؛ تَنبيهًا على أنَّ كلًّا منها عِلَّةٌ مُستقلَّةٌ لاستِحقاقِه الإيتاءَ، وقيل: لمَوصوفاتٍ أُقيمتْ هي مُقامَها؛ فيكونُ أبلَغَ في تعليلِ المقصودِ. وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لغايةِ ظُهورِه، أي: على ألَّا يُؤْتوهم شيئًا[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ إنكاريٌّ، مُستعملٌ في التَّحضيضِ على السَّعيِ فيما به المغفرةُ[٣].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ على جُملةِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾؛ زِيادةً في التَّرغيبِ في العفْوِ والصَّفحِ، وتَطمينًا لنفْسِ أبي بكرٍ في حِنْثِه، وتَنبيهًا على الأمْرِ بالاتِّصافِ بمقتضياتِ صفاتِ اللهِ تعالى، مما ليس مختصًّا به سبحانَه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٩٠).

الآيات (٢٣-٢٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: حِسابَهم العَدلَ، وجزاءَهم الواجِبَ، وأصلُ (دين) وما تفرَّع عنه: جنسٌ مأخوذٌ مِن الانقيادِ والذُّلِّ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين يَقذِفون بالزِّنا العَفيفاتِ، الغافلاتِ عن الفاحِشةِ، المتَّصِفاتِ بالإيمانِ- مطرودون مِن رحمةِ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم عذابٌ عَظيمٌ في نارِ جهنَّمَ إنْ لم يتوبوا قبلَ وفاتِهم، ذلك العذابُ يومَ القيامةِ حينَ تشهَدُ عليهم ألسنتُهم، وتتكَلَّمُ أيديهم وأرجُلُهم بما اقترَفوا مِن السيِّئاتِ، في هذا اليومِ ينالُهم حِسابُهم وجزاؤُهم العادِلُ، ويَعلَمونَ حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو الحَقُّ الموجودُ الثابتُ، الظَّاهِرُ الذي لا شَكَّ فيه، المُظهِرُ للحقائِقِ في الآخرةِ.

الخبيثاتُ مِن النِّساءِ والأقوالِ والأعمالِ والأوصافِ مُناسِبةٌ للخَبيثينَ، وكذلك الخَبيثونَ مُوافِقونَ ومُناسِبونَ للخَبيثاتِ، والطيِّباتُ مِن النِّساءِ والأقوالِ والأعمالِ والأوصافِ مُناسِبةٌ للطَّيِّبينَ، وكذلك الطَّيِّبونَ أهلٌ للطَّيِّباتِ، أولئك

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٦٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥).

الطَّيِّبونَ والطَّيِّباتُ مُنزَّهونَ ممَّا تقَوَّلَه أهلُ الإفكِ، لهم على ما نالهم مِن الأذى مَغفِرةٌ لذُنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ في جنَّاتِ النَّعيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ختَمَ الآيةَ السَّابقةَ بالوَصفينِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بعْدَ الأمرِ بالعَفوِ، ربَّما جرَّأ على مِثلِ هذه الإساءةِ، فوصَلَ به مُرَهِّبًا من الوقوعِ في مثلِ ذلك قَولَه مُعَمِّمًا للحُكمِ[1]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ الذين يَقذِفونَ بالزِّنا العَفيفاتِ الغافلاتِ عن الفاحِشةِ[2] المؤمِناتِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤٠).

(٢) قال ابنُ جريرٍ بعدَ أن ذكَر الخلافَ في المحصناتِ اللاتي هذا حُكمُهنَّ: (أَوْلى هذه الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قَولُ من قال: نزَلت هذه الآيةُ في شأنِ عائشةَ، والحُكمُ بها عامٌّ في كلِّ مَن كان بالصِّفةِ التي وصَفه اللهُ بها فيها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٠). وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١-٣٣). وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السلفِ: قتادةُ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٦).
وقيل: الآيةُ خاصَّةٌ في قذفِ عائشةَ وأزواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والكرماني. يُنظر ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٧٩٣).
ونسَبَ ابنُ تيميَّةَ القولَ بأنَّ هذه الآيةَ في أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً إلى كثيرٍ مِن أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((الصارم المسلول)) (ص: ٤٤).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاك، والكلبي، وأبو الجوزاء، وسَلَمةُ بن نُبَيْط. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٨٩)، =

ولم يتوبوا مِنْ قذْفِهنَّ؛ أبعَدَهم اللهُ مِن رحمتِه في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

أي: ولهم عذابٌ عظيمٌ في جهنَّمَ، إنْ لم يتوبوا قبْلَ وفاتِهم مِن قَذفِ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ[٢].

= ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ١٦٥).

قال الشنقيطي: (وَصْفُه تعالى للمُحصَناتِ في هذه الآيةِ بكَونِهنَّ غافِلاتٍ: ثناءٌ عليهنَّ بأنَّهنَّ سليماتُ الصُّدورِ، نقيَّاتُ القُلوبِ، لا تَخطُرُ الرِّيبةُ في قُلوبِهنَّ؛ لحُسنِ سَرائِرِهنَّ، ليس فيهنَّ دَهاءٌ ولا مَكرٌ؛ لأنَّهنَّ لم يُجَرِّبْنَ الأمرَ فلا يَفْطُنَّ لِمَا تفطُنُ له المُجَرِّباتُ ذواتُ المَكرِ والدَّهاءِ، وهذا النَّوعُ مِن سلامةِ الصُّدورِ وصَفائِها مِنَ الرِّيبةِ: مِن أحسَنِ الثَّناءِ). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٦، ٢٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

قال الزجَّاج: (لم يقُلْ هاهنا: والمؤمنينَ؛ استِغناءً بأنَّه إذا رمى المؤمنةَ فلا بدَّ أن يرميَ معها مؤمنًا، فاستَغْنى عن ذِكرِ المؤمنينَ؛ لأنَّه قد جرى ذِكرُ المؤمنينَ والمؤمناتِ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٧).

وذهب النحاسُ إلى أنَّ التقديرَ: الذين يَرْمونَ الأنفُسَ المحصناتِ، فيَدخُلُ في الآية قذفُ الذكورِ والإناث. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٩١).

وقال ابن القيم: (خُصَّ الإناثُ باللَّفظِ؛ إذ كنَّ سبَبَ النُّزولِ، فنُصَّ عليهم بخُصوصهنَّ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٢٧٤).

وقال ابن عاشور: (اللعنُ في الدنيا: التَّفسيقُ، وسَلبُ أهليَّةِ الشهادة، واستيحاشُ المؤمنين منهم، وحَدُّ القذفِ؛ واللَّعنُ في الآخرة: الإبعادُ من رحمةِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٦، ٢٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

قال السعدي: (وهذا زيادةٌ على اللعنةِ، أبعَدهم عن رحمتِه، وأحلَّ بهم شدةَ نقمتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قيل: يا رَسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقَتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحفِ، وقَذفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ))(١).

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: لهم عذابٌ عظيمٌ يومَ القيامةِ حينَ تَشهَدُ عليهم ألسِنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم، فتنطِقُ بغيرِ اختيارِهم بما كانوا يكتَسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ، بأقوالِهم وأفعالِهم، كالقَذفِ وغَيرِه(٢).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضَحِكَ، فقال: هل تدرونَ ممَّ أضحَكُ؟ قلنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: مِن مخاطبةِ العبدِ ربَّه؛ يقولُ: يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظُّلمِ؟ يقولُ: بلى، فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نفْسي إلَّا شاهِدًا مِنِّي، فيقولُ: كفَى بنَفْسِك اليومَ عليك شَهيدًا، وبالكِرامِ الكاتبينَ شُهودًا! فيُختَمُ على فِيهِ، فيُقالُ لأركانِه(٣): انطِقي، فتَنطِقُ بأعمالِه، ثم يُخلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، فيقولُ: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا! فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ(٤)))(٥).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٥)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٣) لأركانِه: أي: لجوارِحِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٤) أُناضِلُ: أي أُدافِعُ وأُجادِلُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٥) رواه مسلم (٢٩٦٩).

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾.

أي: يومَئِذٍ يوفِّيهم اللهُ حِسابَهم بالعَدلِ، ويُجازيهم على أعمالِهم بلا ظُلمٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾.

أي: وينكَشِفُ لهم[2] حينَها أنَّ اللهَ هو الحَقُّ الموجودُ الثَّابتُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، الظَّاهِرُ الذي لا شَكَّ فيه، والهادي مَن يشاءُ، المُظهِرُ للحقائِقِ في الآخرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩١).

قال النحاس: (مجازاةُ الله جلَّ وعزَّ للكافرِ والمُسيءِ: بالحَقِّ والعدلِ، ومجازاتُه للمحسنينَ: بالفضلِ والإحسانِ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٩٢).

وقال البِقَاعي: (﴿الْحَقَّ﴾ أي الذي يَظهرُ لكلِّ أحدٍ مِن أهلِ ذلك المجمعِ العظيمِ أنَّهم يستحقونَه، فلا يقدرُ أحدٌ على نوعِ طعنٍ فيه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٤٢).

(٢) قيل: هم أهلُ النِّفاقِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥).

قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي: ينكشفُ للناسِ أنَّ الله هو الحقُّ... ومعنى كونِهم يعلمون أنَّ الله هو الحقُّ المبينُ: أنهم يتحقَّقونَ ذلك يومَئِذٍ بعلمٍ قطعيٍّ لا يَقبلُ الخفاءَ ولا الترددَ، وإن كانوا عالِمينَ ذلك مِن قبْلُ؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ في موعظةِ المؤمنينَ، ولكن نزَّل عِلمَهم المحتاجَ للنظرِ والمُعَرَّضَ للخفاءِ والغفلةِ منزلةَ عدمِ العلمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢، ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢، ١٩٣).

قال السعدي: (أوصافُه العظيمةُ حقٌّ، وأفعالُه هي الحقُّ، وعبادتُه هي الحقُّ، ولقاؤه حقٌّ، ووعدُه ووعيدُه، وحُكمُه الدينيُّ والجزائيُّ حقٌّ، ورُسلُه حقٌّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥). =

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن برَّأ سُبحانَه عائشةَ رضي اللهُ عنها مِمَّا رُمِيَت به مِن الإفكِ، ثمَّ ذكرَ أنَّ راميَ المُحصَناتِ الغافلاتِ مَطرودٌ مِن رَحمةِ الله- أردف ذلك دليلًا يَنفي الرِّيبةَ

= قال ابن عاشور: ((﴿ٱلْمُبِينُ﴾: اسمُ فاعلٍ مِن أبانَ، الذي يُستعمَلُ مُتعدِّيًا بمعنَى أظهَرَ، على أصلِ معنَى إفادةِ الهمزةِ التَّعديةَ، ويُستعمَلُ بمعنَى بانَ، أي: ظهَرَ، على اعتِبارِ الهمزةِ زائدةً)). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٣).

ممَّن اختار أنَّ المُبينَ بمعنَى البَيِّنِ الظاهِرِ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابنُ جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٠).

وممَّن اختار أنَّ المُبينَ بمعنَى المُظهِرِ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٤١).

والمعنى على ذلك: أنَّه يُبيِّنُ لهم حقائقَ ما كان يَعِدُهم في الدُّنيا مِن العذابِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦).

وقيل: المُظهِرُ للأشياءِ كما هي في أنفُسِها. وممَّن اختاره: الشوكانيُّ، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٤١).

وذكَرَ ابنُ عثيمينَ أنَّ مِن اللازمِ أنَّه إذا كان مُظهِرًا فهو ظاهِرٌ في نفْسِه، فالمُبينُ بمعنَى المُظهِرِ لا بدَّ أن يَكونَ بَيِّنًا بنفْسِه. وقد جمَع بيْن المعنيَينِ السابقَينِ، فقال: (الله تعالى بيِّنُ الأحَقِّيَّةِ، ومُبينٌ ذلك لعِبادِه بما ركَّبَ فيهم مِنَ الفِطَرِ السليمةِ، والعقولِ، وبالوحيِ الذي أرسَلَ به الرُّسلَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤١) بتصرف.

عن عائشةَ بأجلى وضوحٍ؛ ذاك أنَّ السُّنةَ الجاريةَ بيْن الخَلقِ مَبنيَّةٌ على مُشاكلةِ الأخلاقِ والصِّفاتِ بيْن الزَّوجَينِ؛ فالطَّيِّباتُ للطَّيِّبينَ، والخبيثاتُ للخبيثينَ؛ ورسولُ اللهِ أطيبُ الطَّيِّبينَ، فيَجِبُ كونُ الصِّدِّيقةِ مِن أطيبِ الطَّيِّباتِ على مقتضى المنطقِ السَّليمِ والعادةِ الشَّائعةِ بين الخَلقِ[1].

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾.

أي: الخَبيثاتُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك لائقةٌ ومُناسِبةٌ للخَبيثينَ، وكذلك الخَبيثونَ أهلٌ للخَبيثاتِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

قال الماوَرْدي: (قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ الآيةَ. فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: الخبيثاتُ مِن النِّساءِ للخبيثينَ مِن الرِّجالِ، والخبيثون مِنَ الرِّجالِ للخبيثاتِ مِن النِّساءِ؛ والطيِّباتُ مِن النِّساءِ للطيِّبينَ مِن الرِّجالِ، والطيِّبونَ مِن الرِّجالِ للطيِّباتِ مِن النِّساءِ. قاله ابنُ زيد.

الثاني: الخبيثاتُ مِن الأعمالِ للخَبيثين مِنَ النَّاسِ، والخَبيثون مِن النَّاسِ للخَبيثاتِ مِن الأعمالِ؛ والطيِّباتُ مِن الأعمالِ للطيِّبينَ مِن النَّاسِ، والطيِّبون مِن النَّاسِ للطيِّباتِ مِن الأعمالِ. قاله مجاهِدٌ، وقتادةُ.

الثالث: الخبيثاتُ مِن الكلامِ للخَبيثين من النَّاسِ، والخبيثون مِن النَّاسِ للخَبيثاتِ مِن الكلامِ؛ والطيِّباتُ مِن الكلامِ للطيِّبينَ مِن النَّاسِ، والطيِّبونَ مِن النَّاسِ للطيِّباتِ مِن الكلامِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٨٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: البيضاويُّ، وابن تيميَّةَ، وابنُ جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١).

وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢).

وذكَرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ هذا القولَ يرجِعُ إلى القولِ الثالثِ باللازمِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، والنحاس، ومكِّي، والواحدي، والنسفي، =

= والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥١٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٠).
ونسَبَه الثعلبيُّ والواحديُّ والبغويُّ والقُرطُبيُّ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١١).

وممَّن قال به من السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والشعبي، والحسن بن أبي الحسن البصري، وحبيب بن أبي ثابت، والضحَّاكُ. ونسَبَه ابنُ تيميَّةَ لجمهورِ السَّلَفِ. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤).

قال الزجَّاجُ: (وقَولُه جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فيها وَجهانِ: المعنى: الكَلِماتُ الخَبيثاتُ للخَبيثينَ مِنَ الرِّجالِ، والرِّجالُ الخَبيثونَ للكَلِماتِ الخبيثَاتِ، أي: لا يَتكلَّمُ بالخَبيثاتِ إلَّا الخَبيثُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، ولا يتكلَّمُ بالطيِّباتِ إلَّا الطَّيِّبُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ. ويجوزُ أن يكونَ معنى هذه: الكَلِماتُ الخَبيثاتُ إنَّما تَلصَقُ بالخَبيثينَ مِنَ الرِّجالِ والخَبيثاتِ مِن النِّساءِ، فأمَّا الطَّاهِراتُ الطَّيِّباتُ فلا يَلصَقُ بهنَّ شَيءٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧).
قال الواحديُّ: (والمعنى: أنَّ الخَبيثَ مِنَ القَولِ لا يَليقُ إلَّا بالخَبيثِ مِنَ النَّاسِ، وكُلُّ كلام إنَّما يَحسُنُ في أهلِه؛ فيُضافُ سَيِّئُ القَولِ إلى مَن يليقُ به ذلك، وكذلك الطَّيِّبُ مِنَ القَولِ، وعائِشةُ لا يَليقُ بها الخَبيثاتُ مِنَ الكَلامِ، فلا يَصدُقُ فيها؛ لأنَّها طَيِّبةٌ، فيُضافُ إليها طَيِّباتُ الكلامِ مِنَ الثَّناءِ الحَسَنِ وما يَليقُ بها). ثمَّ عَلَّق على الوَجهِ الأوَّلِ الذي ذكره الزَّجَّاجُ، فقال: (وهذا ذمٌّ للذين قذَفوا عائِشةَ بالخَبيثِ، ومَدحٌ للَّذينَ بَرَّؤوها بالطَّهارةِ). ((الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥).
وممَّن اختار العمومَ: ابنُ القيِّم، والسعديُّ. قال ابن القيِّم: (هذا وإنْ كان في النِّساءِ والرِّجالِ، فإنَّه يتناوَلُ الأعمالَ والأقوالَ، والمطاعِمَ والمشارِبَ، والملابسَ والروائحَ، إمَّا بعمومِ لفظِه، أو بعمومِ معناه). ((زاد المعاد)) (٤/ ٢٥٧).
وقال السعديُّ: (هذه كَلِمةٌ عامَّةٌ وحَصرٌ، لا يخرجُ منه شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).
ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: والطَّيِّباتُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك لائقةٌ ومُناسِبةٌ للطَّيِّبينَ، وكذلك الطيِّبون أهلٌ للطَّيِّباتِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

أي: أولئك الطَّيِّبون والطَّيِّباتُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ بُعَداءُ ومنزَّهونَ مِن الخُبْثِ الذي يَنسُبُه إليهم أهلُ الإفكِ(٢).

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: لهؤلاءِ الطيِّبين مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، في الآخرةِ، مَغفِرةٌ من اللهِ لذُنوبِهم، ورِزقٌ حسَنٌ في جنَّاتِ النَّعيمِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥).

قال السعديُّ: (الإشارةُ إلى عائشةَ رضي اللهُ عنها أصلًا، وللمؤمناتِ المُحصَناتِ الغافلاتِ تبعًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال الواحدي: (قال الفرَّاء: يعني عائِشةَ وصَفوانَ، فذكَر الاثنينِ بلَفظِ الجمعِ، كقَولِه: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١] يريدُ: أخَوين، وقَولِه: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] يريدُ: داودَ وسليمانَ. وقال الزَّجَّاجُ: كلُّ مِن قُذِفَ مِنَ المؤمنينَ والمؤمناتِ مُبَرَّؤونَ ممَّا يقولُ أهلُ الخبثِ القاذِفونَ). ((البسيط)) (١٦/ ١٨٦).

قال ابنُ جرير: (وقَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ يقولُ: الطَّيِّبونُ مِنَ النَّاسِ مُبَرَّؤونَ مِن خَبيثاتِ القَولِ، إنْ قالوها فإنَّ اللهَ يَصفَحُ لهم عنها، ويَغفِرُها لهم، وإنْ قِيلَت فيهم ضَرَّت قائِلَها ولم تَضُرَّهم، كما لو قال الطَّيِّبَ مِنَ القَولِ الخَبيثُ مِن النَّاسِ لم يَنفَعْهُ اللهُ به؛ لأنَّ اللهَ لا يَتقبَّلُه، ولو قِيلَت له لَضَرَّته؛ لأنَّه يَلحَقُه عارُها في الدُّنيا، وذُلُّها في الآخرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ قضى اللهُ العليمُ الخبيرُ أنَّ كُلَّ شَكلٍ ينضَمُّ إلى شَكلِه، ويفعَلُ أفعالَ مِثلِه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ الغالبُ الْتِئامُ الطَّيِّبةِ مع الطَّيِّبِ، والخَبيثةِ مع الخَبيثِ، لكن قد يَخْرِمُ اللهُ هذه القاعِدةَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ، فيَضرِبُها أمثالًا للنَّاسِ، كما ضَرَبَ لهم بامرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ، وامرأةِ فِرعونَ، وكما ضَرَبَ مثلًا لابنِ نوحٍ معه، وأبِي إبراهيمَ مع إبراهيمَ. والحكمةُ في ذلك: التفكُّرُ والاتِّعاظُ، وعدَمُ ركونِ الإنسانِ على قريبِه التقيِّ؛ قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، فإذا عُلِمَ أنَّ أعظمَ مُداخلةٍ بيْن النَّاسِ هي الزوجيَّةُ، ومع ذلك فَصِلَةُ امرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ بهما -وهما نبيَّانِ- لم تنفعْهما،

= كثير)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال ابن عثيمين: (أي: هؤلاء لهم مَغفِرةٌ على ذنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ على طاعاتِهم؛ فإنَّ الذنْبَ يناسِبُه المغفرةُ، والأعمالَ الصَّالحةَ يناسِبُها الرِّزقُ الكريمُ؛ لأنَّ مَن فعَلَ حَسَنةً يُجزى بعشرِ حَسَناتٍ إلى سَبعِ مئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، فنَفْهَمُ مِن هذا أنَّ هؤلاء الذين قيل عليهم ما قيل قد حصَلَ لهم تكفيرُ سَيِّئاتٍ ومغفرةُ ذُنوبٍ، وكذلك رِفعةُ دَرَجاتٍ... وهنا قال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهؤلاء أُصيبوا مُصيبةً عَظيمةً، ولا شَكَّ أنَّهم صبَروا حتى فرَّج الله عنهم هذه الغُمَّةَ، فكان جزاءَ ما أُصيبوا به في هذه القضيَّةِ أن حصَلَت لهم المغفرةُ، وفي مقابلةِ الصبرِ حصَل لهم الرِّزقُ الكريمُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤٤).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]. إذا عَلِمَ الإنسانُ ذلك وأنَّ قرابةَ الصَّالحِ لا تنفعُ العاصيَ، كان ذلك باعثًا على العمَلِ، والاتِّصافِ بالصَّلاحِ، والمعروفُ أنَّ اللهَ تعالى نهى عن مُقاربةِ أهلِ السُّوءِ، والاختلاطِ بهم، وقال فيمَن يجالِسُهم إنَّهم يكونون مِثلَهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، ولكنَّ الصالحِينَ قد يَلجَؤون إلى مُخالطةِ الفاسِدين، فلا يَضُرُّهم ذلك في حُدودِ الضَّرورةِ المُلجِئةِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ فيه أنَّ كُلَّ خَبيثٍ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، والكَلِماتِ والأفعالِ: مُناسِبٌ للخبيثِ، ومُوافِقٌ له، ومُقتَرِنٌ به، ومشاكِلٌ له؛ وكُلَّ طيِّبٍ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، والكَلِماتِ والأفعالِ: مُناسِبٌ للطيِّبِ، وموافِقٌ له، ومُقتَرِنٌ به، ومُشاكِلٌ له(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ دلَّت الآيةُ على النَّهيِ عن مُقارنةِ الفُجَّارِ ومُزاوجتِهم(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٥- ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٦).

﴿وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ لقد برَّأ اللهُ تعالى أربعةً بأربعةٍ: برَّأ يوسُفَ بلِسانِ الشَّاهِدِ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرَّأ موسى مِن قَولِ اليهودِ فيه بالحَجَرِ الذي ذهَبَ بثَوبِه[١]، وبرَّأ مريمَ بإنطاقِ ولَدِها حين نادى مِن حِجْرِها: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وبرَّأ عائشةَ بهذه الآياتِ العِظامِ في كتابِه المُعجِزِ المتلُوِّ على وجهِ الدَّهرِ مِثْلَ هذه التبرئةِ بهذه المبالغاتِ، فانظُرْ: كَمْ بيْنها وبيْن تبرئةِ أولئك؟! وما ذاك إلَّا لإظهارِ علُوِّ مَنزلةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتنبيهِ على إنافةِ محلِّ سَيِّدِ ولدِ آدمَ، وخِيرةِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وحُجَّةِ الله على العالَمينَ، ومَن أراد أن يتحقَّق عظَمةَ شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقَدُّمَ قدَمِه، وإحرازَه لقصَبِ السَّبْقِ دونَ كُلِّ سابقٍ؛ فليتلَقَّ ذلك من آياتِ الإفكِ، وليتأمَّلْ كيف غَضِبَ اللهُ في حُرمتِه، وكيف بالغَ في نفيِ التُّهمةِ عن حِجابِه[٢]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أنَّ مَن رمى زانيةً مجلودةً لا يُحَدُّ؛ لثبوتِ الفاحِشةِ فيها، وليس المرادُ مِن هذا إباحةَ عِرْضِ مَن ثَبَتَ عليه الزِّنا، فلا يجوزُ ذلك، ويُؤَدِّبُ السلطانُ مَن رماهُ بما يَراهُ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على كَمالِ النَّزاهةِ ما ليس في ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أي: السَّليماتِ الصُّدورِ، التَّقيَّاتِ القُلوبِ عن كلِّ سُوءٍ[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِي ٱلدُّنْيَا

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٧٨، ٣٤٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥، ١٦٦).

﴿وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ تضمَّنت هذه الآيةُ بيانَ أنَّ القَذْفَ مِن الكبائرِ، وهذا بِناءً على أنَّ كلَّ ما تُوُعِّدَ عليه باللَّعْنِ أو العذابِ، أو شُرِعَ فيه حَدٌّ؛ فهو كبيرةٌ، وهو المعتمَدُ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «لَعَنَهم اللهُ»، وإنما قال: ﴿لُعِنُوا﴾؛ لأجلِ أنْ يشمَلَ ذلك لعنةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى وغيرِه، وهذا مِثلُ قولِه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، يعني: أنَّ اللهَ يَلعنُهم، وكذلك اللاعِنونَ يلعنونَهم، وبِناءُ الفِعلِ للمفعولِ أفاد في هذه الآيةِ العمومَ(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا الحُكمُ وإن كان عامًّا فهو لأجلِ الصِّدِّيقةِ بالذَّاتِ وبالقَصدِ الأوَّلِ، وفيما فيه مِن التَّشديدِ الذي قَلَّ أن يوجَدَ مِثلُه في القرآنِ مِن الإعلامِ بعَلِيِّ قَدرِها، وجَلِيِّ أمرِها، في عَظيمِ فَخرِها- ما يَجِلُّ عن الوَصفِ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيدٌ مِن اللهِ تعالى للذين يَرمونَ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ؛ فأُمَّهاتُ المؤمنينَ أَولى بالدُّخولِ في هذا مِن كُلِّ مُحصَنةٍ، ولا سيَّما التي كانت سبَبَ النُّزولِ، وهي عائشةُ الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللهُ عنهما(٤).

٨- قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ١٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١، ٣٢).

﴿يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ قد أقرُّوا بوجودِه عزَّ وجَلَّ في الدُّنيا، لكنْ في ذلك اليوم يَعلَمونَ أنَّه الحقُّ المُبينُ دونَ ما سِواه؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ بصيغةِ الحَصرِ؛ فإنَّه يومئذٍ لا يبقَى أحَدٌ يُدَّعَى فيه الإلهيَّةُ، ولا أحدٌ يُشرِكُ برَبِّه أحدًا[1].

٩- في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ إنَّ هذه الأعضاءَ تنطِقُ مع أنَّ النُّطقَ في العادةِ باللِّسانِ، لكنْ يكونُ النُّطقُ بكلِّ شَيءٍ إذا أراد اللهُ سُبحانَه وتعالى؛ ولهذا تقولُ الجلودُ: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2] [فصلت: ٢١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الذين تشهَدُ عليهم ألسِنتُهم وأيديهم وأرجلُهم كثيرون، فما سببُ جمْعِها على «أفعُل» وهو مِن جُموعِ القلَّةِ؟!

والجوابُ: أنَّ هذا البحثَ قد حقَّقَه الأصوليُّونَ، وأهملَه النحْويُّونَ، وذلك أنَّ مَحَلَّ القِلَّةِ والكثرةِ حينما تكونُ الصِّيغةُ مُنكَّرةً، أمَّا إذا دخلتْ عليها «أل» أو أُضيفتْ إلى مَعرفةٍ فتكونُ عامَّةً، فهي أكثرُ مِن الكَثرةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ اللهِ الحُسنى[4].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٣).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٤٣).

وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ بيانُ أنَّ الرِّجالَ الطَّيِّبينَ للنِّساءِ الطيِّباتِ، والرِّجالَ الخَبيثين للنِّساءِ الخَبيثاتِ، وكذلك في النِّساءِ؛ فإذا كانت المرأةُ خَبيثةً كان قرينُها خَبيثًا، وإذا كان قرينُها خَبيثًا كانت خَبيثةً، وبهذا عَظُمَ القولُ فيمَن قَذَفَ عائِشةَ ونحوَها مِن أمَّهاتِ المؤمنينَ، ولولا ما على الزَّوجِ في ذلك مِن العَيبِ ما حَصَلَ هذا التَّغليظُ[1]. والأنبياءُ -خصوصًا أُولي العَزمِ منهم، خصوصًا سَيِّدَهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي هو أفضَلُ الطيِّبينَ مِن الخَلقِ على الإطلاقِ- لا يناسِبُهم إلَّا كُلُّ طَيِّبٍ مِن النِّساءِ؛ فالقَدحُ في عائشةَ رَضِيَ الله عنها بهذا الأمرِ قدْحٌ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو المقصودُ بهذا الإفكِ، مِن قَصدِ المنافِقين، فمُجَرَّدُ كَونِها زوجةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعلِمُ أنَّها لا تَكونُ إلَّا طيِّبةً طاهِرةً مِن هذا الأمرِ القَبيحِ. فكيف وهي هي؛ صِدِّيقةُ النِّساءِ، وأفضَلُهنَّ، وأعلَمُهنَّ، وأطيبُهنَّ، حَبيبةُ رَسولِ رَبِّ العالمَينَ، التي لم يَنزِلِ الوحيُ عليه وهو في لحافِ زَوجةٍ مِن زَوجاتِه غَيرِها؟! ثمَّ صرَّح بذلك، بحيثُ لا يُبقي لمُبطِلٍ مَقالًا، ولا لشَكٍّ وشُبهةٍ مَجالًا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، والإشارةُ إلى عائشةَ رَضِيَ الله عنها أصلًا، وللمُؤمِناتِ المُحصَناتِ الغافلاتِ تَبَعًا[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الرَّميَ وَقَعَ على اثنينِ، فكيف يُعَبَّرُ عنهما بصيغةِ الجَمعِ؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ هذا مِمَّا استدَلَّ به بعضُ العُلماءِ على ما رآه الإمامُ مالكٌ مِن أنَّ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، ومِثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]؛ فإنه يَصْدُقُ على اثنينِ عندَ غيرِ ابنِ عباسٍ. وقَولُه تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] أي: طَرَفاه. وقَولُه تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] أي: قَلْباكُما.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالجمعِ التَّعظيمُ.

وهناك وجهٌ ثالثٌ: وهو أنَّ مَرجِعَ الضَّميرِ هو عائشةُ وصَفْوانُ، وأبو بكرٍ والرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فالآيةُ تدُلُّ على بَعضِهم -وهما عائشةُ وصَفوانُ- بالمُطابقةِ، وعلى بعضِهم -وهما الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم وأبو بكرٍ- باللُّزومِ(١).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ نزَلتْ في براءةِ أُمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها مِمَّا رُمِيَت به، وعلى هذا فالآيةُ الكريمةُ يظهَرُ تعارُضُها مع قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠]، إلى قَولِه: ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ...﴾ [التحريم: ١١]؛ إذ الآيةُ الأولى دلَّت على خُبثِ الزَّوجَتينِ الكافرتَينِ، مع أنَّ زوجَيهما مِن أطيبِ الطيِّبينَ، وهما نوحٌ ولوطٌ عليهما وعلى نبيِّنا الصلاةُ والسَّلامُ، والآيةُ الثانيةُ دلَّت على طِيبِ امرأةِ فِرعونَ مع خُبثِ زَوجِها؟

الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:

الأول: أنَّ معنى الآيةِ: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثينَ مِن الرجالِ، والخَبيثون مِنَ الرِّجالِ للخَبيثاتِ مِنَ القَولِ؛ والطيِّباتُ مِن القَولِ للطيِّبينَ مِن الرِّجالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٧).

والطيِّبونَ مِن الرِّجالِ للطيِّباتِ مِن القَولِ، أي فما نسَبَه أهلُ النِّفاقِ إلى عائشةَ مِن كَلامِ خَبيثٍ هم أَولى به، وهي أَولى بالبراءةِ والنَّزاهة منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وعلى هذا الوجهِ فلا تعارُضَ أصلًا بين الآياتِ.

الثاني: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ إلى آخِره: مِن العامِّ المخصوصِ، بدليلِ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ فِرعَونَ، وعليه فالغالِبُ تَقييضُ كُلٍّ مِن الطيِّباتِ والطيِّبين والخبيثاتِ والخَبيثين لجِنسِه وشَكلِه الملائِمِ له في الخُبثِ أو الطِّيبِ، مع أنَّه تعالى ربَّما قَيَّض خبيثةً لطَيِّبٍ، كامرأةِ نوحٍ ولوطٍ، أو طيِّبةً لخبيثٍ، كامرأةِ فِرعَونَ؛ لحِكمةٍ بالغةٍ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التحريم: ١٠]، وقَولُه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التحريم: ١١] مع قَولِه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ فدلَّ ذلك على أنَّ تقييضَ الخبيثةِ للطيِّبِ أو الطيِّبةِ للخَبيثِ فيه حِكمةٌ لا يَعقِلُها إلَّا العُلماءُ، وهي في تقييضِ الخبيثةِ للطيِّبِ أن يبيِّنَ للنَّاسِ أنَّ القرابةَ مِن الصالحينَ لا تنفَعُ الإنسانَ، وإنَّما ينفَعُه عَمَلُه[1].

الثالث: أنَّ المرادَ بالخُبثِ: خُبثُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ كالفواحشِ، وكذلك المرادُ بالطِّيبِ: زكاءُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ مِن الفضائِلِ المعروفةِ في البشَرِ، فليس الكُفرُ مِن الخُبثِ، ولكِنَّه من متمِّماتِه، وكذلك الإيمانُ مِن مكَمِّلاتِ الطِّيبِ؛ فلذلك لم يكُنْ كُفرُ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ ناقضًا لعمومِ الآيةِ[2].

١٥- قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٨، ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فليس في الأنبياءِ ولا الصَّالحينَ مَن تزوَّج بَغِيًّا؛ لأنَّ البِغاءَ يُفسِدُ فِراشَه؛ ولهذا أُبيحَ للمسلِمِ أن يتزوَّجَ الكتابيَّةَ اليهوديَّةَ والنصرانيَّةَ إذا كان مُحصَنًا غيرَ مُسافِحٍ ولا متَّخِذِ خِدنٍ، فعُلِمَ أنَّ تزَوُّجَ الكافرةِ قد يجوزُ، وتزَوُّجَ البَغِيِّ لا يجوزُ؛ لأنَّ ضَرَرَ دِينِها لا يتعدَّى إليه، وأمَّا ضررُ بِغائِها فيتعَدَّى إليه[1].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُبَرِّئُ أهلَ الرَّجُلِ الطيِّبِ العفيفِ مِن الخُبثِ؛ لأنَّ الطيِّباتِ للطَّيِّبينَ، والطيِّبينَ للطيِّباتِ، وهذا مِن حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ: أنَّ الإنسانَ كلَّما كان طيِّبًا نظيفًا وطاهِرًا، فإنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى يُهيِّئُ له أهلًا بهذه المَثابةِ؛ جزاءً وِفاقًا، والأمرُ كذلك بالعَكسِ فيما لو كان خبيثًا، ولا سيَّما فيما يتعلَّقُ بالعِفَّةِ، وهذا هو الغالِبُ في الواقِعِ: أنَّ المرءَ ذا الخُلُقِ الخَبيثِ يكونُ أهلُه كذلك؛ لأنَّه لم يَحْمِ نَفْسَه حتى يحميَه اللهُ عزَّ وجَلَّ[2].

١٧- قَولُ الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فيه وَعدٌ بأنْ تكونَ عائشةُ رَضِيَ الله عنها -زوجةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في الجنَّةِ[3].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن أُصيبَ بمصيبةٍ قوليَّةٍ أو فعليَّةٍ، فإنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُ له، فإن صَبَر فله أجرٌ أيضًا[4].

١٩- قَولُه: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ ذِكْرُ الرِّزقِ الكريمِ هاهنا مِثْلُه في

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٨).

قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]؛ فكما أُرِيدَ بالرِّزقِ الكريمِ هنالك البِشارةُ بالجنَّةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ بدليلِ قولِه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، كذلك يَنْبغي أنْ يكونَ هاهنا؛ لأنَّ الآيتينِ مِثْلانِ، وكما أنَّ الرِّزقَ الكريمَ هناك مَسبوقٌ بـ ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، كذلك هاهنا مَسبوقٌ بقولِه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، وكما أنَّ إيتاءَ الأجرِ هناك مُسبَّبٌ عن قُنوتِهنَّ، كذلك هنا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مُسبَّبٌ عن كونِها مُبرَّأةً عمَّا قِيلَ فيها، وليس ذلك إلَّا لقُنوتِها وطَهارتِها، وكما أنَّ تلك الآيةَ في شأْنِ نِساءِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كذلك هذه في شأْنِ حَبيبتِه وصَفيَّتِه؛ فالكلامُ مَبْنيٌّ على حمْلِ المُطْلَقِ على المُقيَّدِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ...﴾ استئنافٌ بعدَ استئنافِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ [النُّور: ١٩]، والكلُّ تَفصيلٌ للموعظةِ الَّتي في قولِه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النُّور: ١٧]؛ فابْتُدِئَ بوعيدِ العَودِ إلى محبَّةِ ذلك، وثُنِّيَ بوَعيدِ العَودِ إلى إشاعةِ القالةِ؛ فالمُضارعُ ﴿يَرْمُونَ﴾ للاستقبالِ، وإنَّما لم تُعطَفْ هذه الجُملةُ؛ لوُقوعِ الفصلِ بيْنها وبيْنَ الَّتي تُناسِبُها بالآياتِ النَّازلةِ بيْنهما مِن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٢] [النور: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٠، ١٩١).

- قَولُه: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ وُقوعِهنَّ فيما رُمِينَ به؛ لأنَّ الَّذي يفعَلُ الشَّيءَ لا يكونُ غافلًا عنه؛ فالمعنى: إنَّ الَّذين يَرْمُون المُحصَناتِ كذِبًا عليهنَّ. وذُكِرَ وَصفُ ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لتَشنيعِ قذْفِ الَّذين يَقْذِفونَهنَّ كذِبًا؛ لأنَّ وصْفَ الإيمانِ وازِعٌ لهنَّ عن الخَنا[1].

- قَولُه: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المُرادُ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضِيَ اللهُ عنَها، والجمْعُ باعتبارِ أنَّ رمْيَها رمْيٌ لسائرِ أُمَّهاتِ المُؤمنينَ؛ لاشتراكِ الكلِّ في العِصمةِ والنَّزاهةِ والانتِسابِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقِيلَ: المُرادُ أُمَّهاتُ المؤمنينَ، فيَدخُلُ فيهنَّ الصِّدِّيقةُ دُخولًا أوَّليًّا[2]. أو المُرادُ أُمُّ المؤمنينَ عائشةُ، فجُمِعَت إرادةً لها ولبَناتِها مِن نِساءِ الأُمَّةِ الموصوفاتِ بالإحصانِ والغفلةِ والإيمانِ[3]. وقِيلَ: أراد بالمُحصَناتِ العُمومَ، وإنْ كان الحديثُ مَسوقًا عن عائشةَ، والمقصودُ بذِكْرِهنَّ على العُمومِ وَعيدُ مَن وقَعَ في عائشةَ على أبلغِ الوُجوهِ؛ لأنَّه إذا كان هذا وعيدَ قاذفِ آحادِ المُؤمناتِ، فما الظَّنُّ بوعيدِ مَن وقَعَ في قذْفِ سيِّدتِهنَّ؟! على أنَّ تَعميمَ الوعيدِ أبلَغُ وأقطَعُ مِن تَخصيصِه؛ ولهذا عمَّمَت امرأةُ العزيزِ حينَ قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، فعمَّمت وأرادتْ يُوسفَ؛ تَهويلًا عليه وإرجافًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥، ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٨٨).

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ إمَّا مُتَّصِلٌ بما قبْلَه، مَسوقٌ لتَقريرِ العذابِ المذكورِ بتَعيينِ وقْتِ حُلولِه وتَهويلِه ببَيانِ ظُهورِ جِناياتِهم المُوجِبةِ له، مع سائرِ جِناياتِهم المُستتبِعةِ لعُقوباتِها عَلى كيفيَّةٍ هائلةٍ وهيْئةٍ خارقةٍ للعاداتِ؛ فـ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لِمَا في الجارِّ والمجرورِ المُتقدِّمِ: ﴿وَلَهُمْ﴾ من معنى الاستقرارِ، لا لـ﴿عَذَابٌ﴾، وإنْ أغْضَينا عن وصْفِه؛ لإخلالِه بجزالةِ المعنى. وإمَّا مُنقطِعٌ عنه، مَسوقٌ لتَهويلِ اليومِ بتَهويلِ ما يَحويهِ، على أنَّه ظرفٌ لفِعلٍ مُؤخَّرٍ قد ضُرِبَ عنه الذِّكرُ صَفْحًا؛ للإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن تَفصيلِ ما يقَعُ فيه مِن الطَّامَّةِ التَّامَّةِ، والدَّاهيةِ العامَّةِ؛ كأنَّه قِيلَ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يُحِيطُ به حيطةُ المقالِ، على أنَّ الموصولَ المذكورَ عِبارةٌ عن جميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ، وجِناياتِهم القبيحةِ، لا عن جِناياتِهم المعهودةِ فقطْ. والموصولُ والمحذوفُ عبارةٌ عنها وعن فُنونِ العُقوباتِ المُترتِّبةِ عليها كافَّةً، لا عنْ إحداهما خاصَّةً؛ ففيهِ مِن ضُروبِ التَّهويلِ بالإجمالِ والتَّفصيلِ ما لا مَزيدَ عليه[١].

- والجمْعُ بين صِيغتَيِ الماضِي والمُستقبَلِ ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِهم عليها في الدُّنيا. وتَقديمُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعلِ ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كونِ الشَّهادةِ ضارَّةً لهم، مع ما فيه مِن التَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٢].

- وتَخصيصُ هذه الأعضاءِ ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ بالذِّكرِ، مع أنَّ الشَّهادةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تكونُ مِن جميعِ الجسَدِ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١]؛ لأنَّ لهذه الأعضاءِ عمَلًا في رمْيِ المُحصَناتِ؛ فهم يَنطِقون بالقذْفِ، ويُشيرون بالأيدي إلى المقذوفاتِ، ويَسْعَون بأرجُلِهم إلى مجالِسِ النَّاسِ لإبلاغِ القذْفِ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكْرَ شَهادةِ الأعضاءِ يُثِيرُ سُؤالًا عن آثارِ تلك الشَّهادةِ، فيُجابُ بأنَّ أثَرَها أنْ يُجازِيَهم اللهُ على ما شهِدَت به أعضاؤُهم عليهم(٢).

- ووصْفُ الدِّينِ بالحقِّ، وكذلك وصْفُ اللهِ تعالى بالحقِّ في قولِه: ﴿دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾، وقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ وَصْفٌ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ، ولإفادةِ تحقُّقِ اتِّصافِه بالحقِّ(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ إنْ كان وصْفُ اللهِ بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بالمعنى المصدريِّ؛ فالحصْرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصلِ ادِّعائيٌّ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بالحقِّ الَّذي يَصدُرُ مِن غيرِه مِن الحاكمينَ؛ لأنَّه وإنْ يُصادِفِ المِحَزَّ فهو مع ذلك مُعرَّضٌ للزَّوالِ وللتَّقصيرِ وللخطأِ، فكأنَّه ليس بحقٍّ، أو ليس بمُبينٍ. وإنْ كان الخبَرُ عن اللهِ بأنَّه الحقُّ بالمعنى الاسميِّ للهِ تعالى؛ فالحصْرُ حقيقيٌّ؛ إذ ليس اسمُ الحقِّ مُسمًّى به غيرُ ذاتِ اللهِ تعالى، فالمعنى: أنَّ اللهَ هو صاحبُ هذا الاسمِ. وعلى أنَّ المُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ خُصوصُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ ومَن يتَّصِلُ به مِن المُنافقينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المُبْطِنِينَ الكُفْرَ، بلْهَ الإصرارَ على ذنْبِ الإفكِ؛ إذ لا توبةَ لهم، فهم مُستمِرُّون على الإفكِ فيما بيْنهم؛ لأنَّه زُيِّنَ عندَ أنفُسِهم، فلم يَرُوموا الإقلاعَ عنه في بَواطِنِهم مع علْمِهم بأنَّه اختِلاقٌ منهم، لكنَّهم -لِخُبْثِ طَواياهم- يَجعَلون الشَّكَّ الَّذي خالَجَ أنفُسَهم بمَنزلةِ اليقينِ، فهم ملْعونونَ عندَ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ، ويعْلمون أنَّ اللهَ هو الحقُّ المُبينُ فيما كذَّبَهم فيه مِن حديثِ الإفكِ، وقد كانوا مِن قبْلُ مُبْطنينَ الشِّركَ مع اللهِ، فجاعلينَ الحقَّ ثابتًا لأصنامِهم؛ فالقصْرُ حينئذٍ إضافيٌّ[١]، أي: يعْلَمون أنَّ اللهَ وحْدَه دونَ أصنامِهم[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ هذا مِنَ التَّغليظِ الشَّديدِ الَّذي أُوعِدَ به العُصاةُ؛ ولم يُغلِّظِ اللهُ تعالى في شَيءٍ تَغليظَه في إفكِ عائشةَ رضوانُ اللهِ عليها، ولا أنزَلَ مِن الآياتِ القوارعِ، المشحونةِ بالوعيدِ الشَّديدِ، والعِتابِ البليغِ، والزَّجرِ العنيفِ، واستِعظامِ ما رُكبَ مِن ذلك،

---

(١) القصرُ -في اصطلاحِ البلاغيينَ-: هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأوَّلُ: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، وما ضربتُ إلَّا زيدًا. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكون المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصر بالإضافة إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. مثل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٣، ١٩٤).

واستِفظاعِ ما أُقْدِمَ عليه، ما أنزَلَ فيه على طُرقٍ مُختلفةٍ، وأساليبَ مُفْتَنَّةٍ، كلُّ واحدٍ منها كافٍ في بابِه، ولو لم يُنزِلْ إلَّا هذه الثلاثَ لَكفَى بها؛ حيث جعَلَ القذفةَ ملْعونينَ في الدَّارينِ جميعًا، وتوعَّدَهم بالعذابِ العظيمِ في الآخرةِ، وبأنَّ ألْسنَتَهم وأيدِيَهم وأرجُلَهم تَشهَدُ عليهم بما أفَكُوا وبَهَتوا، وأنَّه يُوفِّيهم جزاءَهم الحقَّ الواجبَ الَّذي هم أهْلُه، حتَّى يَعْلَموا عندَ ذلك أنَّ اللهَ هو الحقُّ المبينُ؛ فأوجَزَ في ذلك وأشبَعَ، وفصَّلَ وأجمَلَ، وأكَّدَ وكرَّرَ، وجاء بما لم يقَعْ في وَعيدِ المشركينَ عبدةِ الأوثانِ إلَّا ما هو دونَه في الفظاعةِ، وما ذاك إلَّا لأمْرٍ[1]؛ ففصَّلَ وأجمَلَ؛ حيث أوقَعَ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ إجمالًا لِمَا سبَقَ، وأكَّدَ وكرَّرَ من حيث إنَّ البدَلَ -وهو قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾- بدلُ تكريرٍ للمُبدَلِ وتَوكيدٍ له، وجاء بما لم يقَعْ في وَعيدِ المشركينَ إلَّا ما هو دونه في الفظاعةِ، وهو قولُه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فيه تَعريضٌ بالَّذين اختلَقوا الإفكَ بأنْ ما أفَكُوه لا يَليقُ مثْلُه إلَّا بأزواجِهم؛ فقولُه: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ تعريضٌ بالمُنافقينَ المُختلقينَ للإفكِ. والابتداءُ بذِكْرِ الخبيثاتِ؛ لأنَّ غرَضَ الكلامِ الاستِدلالُ على بَراءةِ عائشةَ وبقيَّةِ أُمَّهاتِ المؤمنينَ رضِيَ اللهُ عنهنَّ[3].

- وعطْفُ ﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ إطنابٌ؛ لمَزيدِ العنايةِ بتَقريرِ هذا الحُكْمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧، ٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٤).

ولتكونَ الجُملةُ بمَنزلةِ المَثَلِ مُستقِلَّةً بدَلالتِها على الحُكْمِ، ولِيَكونَ الاستِدلالُ على حالِ القرينِ بحالِ مُقارِنه حاصلًا مِن أيِّ جانبٍ ابتدأَهُ السَّامعُ. وذِكْرُ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ إطنابٌ أيضًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُقارَنةَ دليلٌ على حالِ القرينَينِ في الخيرِ أيضًا. وعطْفُ ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ كعطْفِ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾[1]؛ فقولُه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ...﴾ الآيةَ، هذه قضيَّةٌ كُلِّيَّةٌ؛ ولذلك حُقَّ لها أنْ تَجرِيَ مَجرى المثَلِ، وجُعِلَت في آخرِ القصَّةِ كالتَّذييلِ[2].

- قَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الطَّيِّبينَ، وأنَّهم مُبرَّؤونَ ممَّا يقولُ الخبيثونَ مِن خَبيثاتِ الكلِمِ، وهو كلامٌ جارٍ مَجرى المثَلِ لعائشةَ رضِيَ اللهُ عنها وما رُمِيَت به مِن قولٍ لا يُطابِقُ حالَها في النَّزاهةِ والطِّيبِ[3]؛ فالآيةُ عامَّةٌ تَذييلٌ للكلامِ السَّابقِ[4]. وما في اسمِ الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليهم، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفضلِ[5].

- وفي العُدولِ عن التَّعبيرِ عن الإفكِ باسْمِه إلى ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾: إيماءٌ إلى أنَّه لا يَعْدو كونَه قولًا، أي: أنَّه غيرُ مُطابِقٍ للواقعِ[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾: أي: تَستأذِنوا، وتَستعلِموا أيُريدُ أهلُها أن تَدخُلوا أم لا، والاستِئناسُ: إعلامُ مَن في الدارِ، تقولُ: استأنسْتُ فما رأيتُ أحدًا، أي: استعلَمْتُ وتعرَّفْتُ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[1].

﴿مَتَٰعٌ﴾: أي: تمتُّعٌ وانتِفاعٌ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على المنفعةِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، لا تَدخُلوا بيوتًا غيرَ بُيوتِكم حتى تستأذِنوا أهلَها في الدُّخولِ، وتُسَلِّموا عليهم، ذلكم الاستِئذانُ والتَّسليمُ خيرٌ لكم؛ لتتَّعِظوا وتعمَلوا بموجِبِ هذه الآدابِ، فإنْ لم تجِدوا في بُيوتِ الآخَرينَ أحدًا يأذَنُ لكم بالدُّخولِ فلا تَدخُلوها حتى يُسمَحَ لكم بالدُّخولِ، وإنِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

استأذَنْتُم فلم يُؤذَنْ لكم، وقيل لكم: ارجِعوا؛ فارجِعوا ولا تُلِحُّوا؛ فإنَّ الرُّجوعَ عندَئِذٍ أطهَرُ لكم، واللهُ عليمٌ بكُلِّ أعمالِكم، فيُجازيكم عليها. وليس عليكم إثمٌ وحرَجٌ أن تدخُلوا بغيرِ استِئذانٍ بُيوتًا لا تختَصُّ بسُكنى أحدٍ؛ كالبُيوتِ المبنيَّةِ على الطُّرُقِ للمُسافرينَ، والبُيوتِ الخَرِبةِ، وحوانيتِ التجَّارِ وغيرِها؛ ففيها حاجةٌ ومنافِعُ لِمَن يدخُلُها، واللهُ يعلَمُ ما تُظهِرونَ وما تُسِرُّونَ في نفوسِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى عدَلَ عمَّا يتَّصِلُ بالرَّميِ والقذفِ وما يتعلَّقُ بهما مِن الحُكمِ، إلى ما يليقُ به؛ لأنَّ أهلَ الإفكِ إنَّما وجَدوا السَّبيلَ إلى بُهتانِهم مِن حيث اتَّفقت الخَلوةُ، فصارت كأنَّها طريقُ التُّهمةِ، فأَوجَبَ اللهُ تعالى ألَّا يَدخُلَ المرءُ بيتَ غَيرِه إلَّا بعد الاستِئذانِ والسَّلامِ؛ لأنَّ في الدُّخولِ لا على هذا الوجهِ وقوعَ التُّهمةِ، وفي ذلك مِن المضَرَّةِ ما لا خَفاءَ به، فقال تعالى[(١)]:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا، لا تدخُلوا بيوتَ غيرِكم حتى تستأذِنُوا منهم في دُخولِها، وتُسلِّموا على ساكِنيها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧١٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) =

= (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).
وممَّن قال بأنَّ الاستِئناسَ هنا بمعنى الاستِئذانِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.
قال ابنُ جُزَي: (ومعنَى ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾: تَستأذِنوا، وهو مأخوذٌ مِن قَولِك: آنستُ الشَّيءَ: إذا عَلِمْتَه؛ فالاستِئناسُ: أن يَستعلِمَ: هل يريدُ أهلُ الدَّارِ الدُّخولَ أم لا؟ وقيل: هو مأخوذٌ مِنَ الأُنسِ، ضِدِّ الوَحشةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦).
قال الشنقيطي: (في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ بما يناسِبُ لَفظَها وجهانِ، ولكُلٍّ منهما شاهِدٌ مِن كتابِ الله تعالى:
الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه مِن الاستِئناسِ الظَّاهِرِ الذي هو ضِدُّ الاستيحاشِ؛ لأنَّ الذي يَقرَعُ بابَ غيرِه لا يدري أيؤْذَنُ له أمْ لا، فهو كالمُستوحِشِ من خَفاءِ الحالِ عليه، فإذا أُذِنَ له استأنَسَ وزال عنه الاستيحاشُ...
الوَجهُ الثَّاني في الآيةِ: هو أن يكونَ الاستِئناسُ بمعنى الاستِعلامِ والاستِكشافِ، فهو استفعالٌ مِن آنسَ الشَّيءَ: إذا أبصَرَه ظاهِرًا مَكشوفًا أو عَلِمَه. والمعنى: حتى تَستَعلِموا وتستكشِفوا الحالَ، هل يؤْذَنُ لكم أمْ لا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩١).
وقال القاسمي: (﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أي تَستَعلِموا وتَستكشِفوا الحالَ: هلْ يُرادُ دُخولُكم أمْ لا؟ مِنَ الاستِئناسِ وهو الاستِعلامُ... أو المعنى: حتى يؤْذَنَ لكم فتَستأنِسوا، مِنَ الاستِئناسِ الذي هو خِلافُ الاستيحاشِ؛ لِما أنَّ المستأذِنَ مُستَوحِشٌ مِن خَفاءِ الحالِ عليه، فيكون عبَّر بالشَّيءِ عمَّا هو لازِمٌ له). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦٨).
وقال ابنُ جرير: (فتأويلُ الكلامِ إذَنْ إذا كان ذلك معناه: يا أيُّها الذين آمنوا، لا تدخُلوا بُيوتًا غيرَ بُيوتِكم حتى تُسَلِّموا وتستأذِنوا، وذلك أن يقولَ أحَدُكم: السَّلامُ عليكم، أدخُلُ؟ وهو مِن المقدَّمِ الذي معناه التأخيرُ، إنما هو: حتى تسَلِّموا وتستأذِنوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٦).
وقال ابن عثيمين: (اختلف العُلَماءُ في مسألة: هل تستأذِنُ أولًا، أو تسَلِّمُ أولًا؟ على أقوالٍ ثلاثة:
فمنهم مَن يرى تقديمَ الاستئذانِ على السَّلامِ؛ لظاهِرِ الآيةِ: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾.
ومنهم مَن يرى أنَّ السَّلامَ قبل الاستئذانِ؛ لأحاديثَ وردَت في ذلك.
ومنهم مَن يرى أنَّه لو عَلِمَ أنَّ صاحِبَ البَيتِ موجودٌ، فعليه أن يسَلِّمَ أولًا ثم يستأذِنَ، وأمَّا إذا لم يَعلَمْ بوجودِه فإنَّه يستأذِنُ أولًا ثم يسَلِّمُ، وهذا القولُ أصَحُّ الأقوالِ الثلاثةِ؛ لأنَّ فيه جمعًا بين الآيةِ والأحاديثِ الواردةِ، ولأنَّه موافِقٌ تمامًا للنظَرِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٥٤). =

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ في مجلِسٍ مِن مجالسِ الأنصارِ إذ جاء أبو موسى كأنَّه مذعورٌ، فقال: استأذنتُ على عُمَرَ ثلاثًا، فلم يؤْذَنْ لي، فرَجَعْتُ، فقال: ما منَعَك؟ قلتُ: استأذنتُ ثلاثًا فلم يؤذَنْ لي فرجعْتُ، وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إذا استأذنَ أحَدُكم ثلاثًا فلم يؤْذَنْ له، فلْيَرجِعْ. فقال: واللهِ لَتُقِيمَنَّ عليه ببَيِّنةٍ، أمِنْكم أحدٌ سَمِعه من النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فقال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ: واللهِ لا يَقومُ معك إلَّا أصغَرُ القومِ! فكنتُ أصغَرَ القَومِ، فقُمتُ معه، فأخبَرْتُ عُمَرَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال ذلك))[١].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((اطَّلَع رجلٌ من جُحْرٍ[٢] في حُجَرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِدْرًى[٣] يَحُكُّ به رأسَه، فقال: لو أعلَمُ أنَّك تنظُرُ لطعَنْتُ به في عَينِك، إنَّما جُعِل الاستِئذانُ مِن أجلِ البَصَرِ))[٤].

وعن رجُلٍ من بني عامرٍ، أنَّه ((استأذَنَ علَى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وهو في بيتٍ، فقالَ: أأَلِجُ؟ فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لخادمِه: اخرُجْ إلى هذا فعلِّمهُ الاستئذانَ، فقُلْ لَه: قُلْ: السَّلامُ عليكم، أأدخُلُ؟ فسمِعَه فقال: السَّلامُ عليكم، أأدخُلُ؟ فأَذِنَ لَه النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فدخَلَ))[٥].

= وقال ابنُ جُزَي: (وليس في الآيةِ عَدَدُ الاستِئذانِ، وجاء في الحَديثِ أن يَستأذِنَ ثلاثَ مَرَّاتٍ، وهو تفسيرٌ للآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦).

(١) رواه البخاري (٦٢٤٥).

(٢) جُحْرٍ: أي: ثُقب. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٢/ ٢٣٩).

(٣) مِدْرًى: أي: حديدةٌ يُسَوَّى بها شَعرُ الرَّأسِ شِبهُ المُشطِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٣٧).

(٤) رواه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٥١٧٧) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٤٨)، وأحمد (٢٣١٢٧). =

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ذلكم الاستِئذانُ والسَّلامُ عندَ إرادةِ دُخولِ بُيوتِ النَّاسِ أفضَلُ للمُستأذِنِ ولأهلِ البَيتِ، أمَرَكم اللهُ بذلك لتُطيعوه بفِعلِ هذه الآدابِ، وتَعلَموا أنَّها خيرٌ لكم مِن الدُّخولِ بلا إذنٍ ولا سلامٍ، فتَتَّعِظوا وتأخُذوا بها[١].

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

أي: فإنْ لم تجِدوا في بُيوتِ غَيرِكم أحَدًا مِن أهلِها، فاصبِروا ولا تدخُلوها إلى أن يؤْذَنَ لكم بالدُّخولِ، فإن أُذِن لكم فادخُلوا[٢].

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾.

أي: وإنِ استأذَنْتُم مِن أهلِ البُيوتِ في دُخولِ بُيوتِهم، فلمْ يأذَنوا لكم، وقالوا لكم: انصَرِفوا؛ فانصَرِفوا بلا غَضَبٍ، ولا تُلِحُّوا عليهم في طلَبِ الإذنِ، ولا تَبقَوا عندَ بُيوتِهم مُنتَظِرينَ[٣].

= صحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٦١٩)، وصحَّح الحديثَ ابنُ القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٩٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥). =

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

أي: رجوعُكم عن بُيوتِ النَّاسِ إذا لم يأذَنوا لكم بدُخولِها، أطهَرُ لكم(١).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ بما تعمَلون مِن الطَّاعاتِ والمعاصي، ودُخولِكم بإذنٍ وبغيرِ إذنٍ، وبغيرِ ذلك مِن أعمالِكم؛ عليمٌ، وسيُجازيكم عليها؛ خَيرِها وشَرِّها(٢).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حُكمَ الدُّورِ المَسكونةِ؛ ذكَرَ بعدَه حُكمَ الدُّورِ التي هي غيرُ مَسكونةٍ؛ وذلك لأنَّ المانِعَ مِن الدُّخولِ إلَّا بإذنٍ زائِلٌ عنها(٣).

وأيضًا لَمَّا كان مِن الأماكنِ التي قد لا يُوجَدُ بها أحَدٌ، ما يُباحُ الدُّخولُ إليه؛

= قال السعدي: (﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: فلا تمتَنِعوا مِن الرُّجوعِ، ولا تغضَبوا منه؛ فإنَّ صاحِبَ المنزلِ لم يمنعْكم حقًّا واجبًا لكم، وإنما هو متبَرِّعٌ، فإن شاء أذِنَ أو منَعَ، فأنتم لا يأخُذْ أحَدَكم الكِبْرُ والاشمئزازُ مِن هذه الحالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

قال السعدي: (﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أشدُّ لتطهيرِكم مِن السيئاتِ، وتنميتِكم بالحسناتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: أنَّه أفضَلُ وخيرٌ لكم مِن أن يأذَنوا على كراهيةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٩).

لخُلوِّه، أو عَدَمِ اختِصاصِ النَّازِلِ به- أتبَع ما تقدَّمَ التَّعريفَ بأنَّه لم يَدخُلْ في النَّهيِ؛ فقال تعالى(١):

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾.

أي: لا إثمَ ولا حرجَ عليكم أن تدخُلوا -مِن غيرِ استِئذانٍ- بيوتًا لا يَسكُنُها أحدٌ؛ لتنتَفِعوا بها؛ كالبيوتِ المبنيَّةِ على الطُّرُقِ للمُسافرينَ، والبُيوتِ الخَرِبةِ، وحوانيتِ التجَّارِ، والمكتباتِ، إلى غيرِ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٨، ٢٥٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١ - ٢٠٣).

قال ابن جرير: (إنَّ الله عمَّ بقولِه: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ٢٩] كلَّ بيتٍ لا ساكنَ به لنا فيه متاعٌ، نَدخلُه بغيرِ إذنٍ، فلا وجهَ لتخصيصِ بعضِ ذلك دونَ بعضٍ، فكُلُّ بيتٍ لا مالِكَ له ولا ساكِنَ؛ مِن بيتٍ مبنيٍّ ببعضِ الطُّرُقِ للمارَّة والسَّابِلةِ؛ ليأوُوا إليه، أو بيتٍ خرابٍ قد بادَ أهلُه، ولا ساكِنَ فيه، حيث كان ذلك- فإنَّ لِمَن أراد دخولَه أن يدخُلَ بغيرِ استئذانٍ؛ لمتاعٍ له يؤويه إليه، أو للاستِمتاعِ به لقضاءِ حَقِّه؛ مِن بولٍ، أو غائطٍ، أو غيرِ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

وقال البيضاوي: (﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ كالرُّبُطِ والحوانيتِ والخاناتِ والخانقاتِ. ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ﴾ استِمتاعٌ ﴿لَّكُمْ﴾؛ كالاستِكنانِ مِن الحرِّ والبردِ، وإيواءِ الأمتعةِ، والجلوسِ للمعامَلةِ، وذلك استثناءٌ مِن الحُكمِ السَّابقِ؛ لشُمولِه البيوتَ المسكونةَ وغيرَها). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤).

قال ابن عاشور: (وأمَّا أن تكونَ تلك البيوتُ مأهولةً بأناسٍ يقطُنونَها يُؤوونَ المُسافرين ورِحالَهم ورواحِلَهم، ويحفَظون أمتِعتَهم ويُبيِّتونَهم حتى يستأنِفوا المرحلةَ؛ مثل الخاناتِ المأهولةِ والفنادقِ، وكذلك البيوتُ المعدودةُ لبيعِ السِّلَعِ، والحمَّاماتُ، وحوانيتُ التجَّارِ، وكذلك المكتباتُ وبُيوتُ المطالعةِ؛ فهذه مأهولةٌ، ولا تُسمَّى مسكونةً؛ لأنَّ السكنى هي الإقامةُ التي يَسكُنُ بها المرءُ، ويستقِرُّ فيها، ويُقيمُ فيها شؤونَه. فمعنى قولِه: ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أنَّها غيرُ مأهولةٍ على حالةِ الاستقرارِ، أو غيرُ مأهولةِ البتَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٢). =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ ما تُظهِرونَه، وما تُخفونَه في قُلوبِكم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ فيه مِن الآدابِ أنَّ المرءَ لا يَنبغي أن يكونَ كَلًّا على غَيرِه، ولا يَنبغي له أن يُعرِّضَ نفْسَه إلى الكراهيةِ والاستِثقالِ،

= وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قَولِه: ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ﴾ أنَّ المتاعَ موضوعٌ هناك قبْلَ دخولِ الدَّاخِلِ، فلا مفهومَ لهذه الصفةِ؛ لأنَّها خرجت مخرجَ التنبيهِ على العُذرِ في الدُّخولِ، ويشمَلُ ذلك أن يدخُلَها لوضعِ مَتاعِه بدَلالةِ لحنِ الخِطابِ، وكذلك يشمَلُ دُخولَ المسافِرِ وإن كان لا متاعَ له؛ لقصدِ التظَلُّلِ أو المبيتِ، بدلالةِ لحنِ الخطابِ أو القياس، وقد فُسِّر المتاعُ بالمصدر، أي: التمتُّع والانتِفاع). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: واللهُ يعلم ما تُظهِرونَ -أيُّها الناسُ- بألسنتِكم مِن الاستئذانِ إذا استأذنتُم على أهلِ البيوتِ المسكونةِ، ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ يقولُ: وما تُضمِرونَه في صدورِكم عندَ فِعلِكم ذلك، ما الذي تَقصِدون به: أطاعةَ اللهِ والانتهاءَ إلى أمرِه، أمْ غيرَ ذلك؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤).

وقال البِقَاعي: (﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ تَحذيرًا مِن أن تُزاحِموا أحدًا في مُباحٍ بما يؤذيه ويضَيِّقُ عليه، معتلِّينَ بأصلِ الإباحةِ، أو يؤْذَنَ لكم في منزلٍ فتُبطِنوا فيه الخيانةَ؛ فإنَّه وإن وقع الاحترازُ مِن الخَوَنةِ بالحِجابِ، فلا بدَّ من الخُلطةِ؛ لِما بُني عليه الإنسانُ من الحاجةِ إلى العِشرةِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٥٣).

وقال أبو السعود: (هذا وعيدٌ لِمَن يدخُلُ مَدخلًا مِن هذه المداخِلِ؛ لفسادٍ، أو اطِّلاعٍ على عَوْراتٍ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

وقال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي: أحوالَكم الظَّاهِرةَ والخَفيَّةَ، وعَلِمَ مصالحَكم؛ فلذلك شَرَع لكم ما تحتاجون إليه وتُضطَرُّون مِن الأحكامِ الشَّرعيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وأنَّه يَنبغي أن يكونَ الزَّائِرُ والمَزورُ مُتوافِقَينِ مُتآنِسَينِ، وذلك عَونٌ على توفُّرِ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أطهَرُ وأصلَحُ مِن الوقوفِ على الأبوابِ مُنتظرينَ؛ لأنَّ هذا ممَّا يجلِبُ الكراهةَ، ويقدَحُ في قلوبِ النَّاسِ، خصوصًا إذا كانوا ذَوِي مروءةٍ مُرتاضينَ للآدابِ الحَسَنةِ، وإذا نُهيَ عن ذلك لأدائِه إلى الكراهةِ، وجَبَ الانتِهاءُ عن كُلِّ ما يؤدِّي إليها؛ مِن قَرعِ البابِ بعُنفٍ، والتَّصييحِ بصاحِبِ الدارِ، وغيرِ ذلك ممَّا يَدخُلُ في عاداتِ مَن لم يتهذَّبْ، مِن أكثَرِ النَّاسِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ فيه أدبٌ عَظيمٌ: وهو تعليمُ الصَّراحةِ بالحَقِّ دونَ المواربةِ، ما لم يكنْ فيه أذًى، وتعليمُ قَبولِ الحَقِّ؛ لأنَّه أطمَنُ لنَفْسِ قابِلِه مِن تلقِّي ما لا يُدرَى أهو حَقٌّ أم مُواربةٌ، ولو اعتاد النَّاسُ التصارُحَ بالحَقِّ بيْنهم، لزالت عنهم ظُنونُ السُّوءِ بأنفُسِهم[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يُرشِدُ الباري جلَّ وعلا عبادَه المؤمنين ألَّا يَدخُلوا بيوتًا غيرَ بُيوتِهم بغير استِئذانٍ؛ فإنَّ في ذلك عِدَّةَ مفاسِدَ:

منها: ما ذكرَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حيث قال: ((إنَّما جُعِل الاستِئذانُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

مِن أجلِ البصَرِ))[١]، فبسبَبِ الإخلالِ به يقَعُ البصَرُ على العَوْراتِ التي داخِلَ البيوتِ؛ فإنَّ البيتَ للإنسانِ في سَترِ عورةِ ما وراءَه بمنزلةِ الثَّوبِ في سَترِ عورةِ جَسَدِه.

ومنها: أنَّ ذلك يوجِبُ الرِّيبةَ مِن الدَّاخِلِ، ويُتَّهَمُ بالشَّرِّ سرقةً أو غيرَها؛ لأنَّ الدُّخولَ خُفيةً يدُلُّ على الشَّرِّ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ كَلِمةَ (حتى) للغايةِ، والحُكمُ بعْدَ الغايةِ يكونُ بخلافِ ما قَبْلَها، فقولُه: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ يقتضي جوازَ الدُّخولِ بعد الاستِئذانِ، وإن لم يكُنْ مِن صاحِبِ البيتِ إذْنٌ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الله تعالى جعَلَ الغايةَ الاستِئناسَ لا الاستِئذانَ، والاستِئناسُ لا يحصُلُ إلَّا إذا حصَلَ الإذنُ بعد الاستِئذانِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا عَلِمْنا أنَّ الحِكمةَ في الاستِئذانِ: ألَّا يَدخُلَ الإنسانُ على غَيرِه بغَيرِ إذنِه؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَسوؤُه، وعَلِمْنا أنَّ هذا المقصودَ لا يحصُلُ إلَّا بعد حُصولِ الإذنِ- عَلِمْنا أنَّ الاستِئذانَ ما لم يتَّصِلْ به الإذنُ، وجَبَ ألَّا يكونَ كافيًا.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، فحظَرَ الدُّخولَ إلَّا بإذنٍ؛ فدَلَّ على أنَّ الإذنَ مَشروطٌ بإباحةِ الدُّخولِ في الآيةِ الأُولى[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٨).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ الظَّاهِرُ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أن يدخُلَ بيتَ نَفْسِه مِن غيرِ استِئذانٍ ولا سلامٍ؛ لقَولِه: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾[1]، فالآيةُ فُهِم منها أنَّ الرجُلَ لا يستأذنُ عندَ دخولِ بيتِه على امرأتِه[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ ظاهِرُ الآيةِ يَقتَضي قَبولَ الإذنِ مُطلَقًا، سواءٌ كان الآذِنُ صَبيًّا أو امرأةً أو عبدًا أو ذِمِّيًّا؛ فإنَّه لا يُعتبَرُ في هذا الإذنِ صِفاتُ الشَّهادةِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ فيه وجوبُ الاستِئذانِ عند دُخولِ بيتِ الغيرِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٠).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّه إنْ لم يكُنْ مع الرَّجُلِ في بَيتِه إلَّا امرأتُه فإنَّ الأظهَرَ أنَّه لا يستأذِنُ عليها، وذلك يُفهَمُ مِن ظاهِرِ قَولِه تعالى: ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾، ولأنَّه لا حِشمةَ بينَ الرَّجُلِ وامرأتِه، ويجوزُ بينَهما مِنَ الأحوالِ والملابَساتِ ما لا يجوزُ لأحدٍ غَيرِهما، ولو كان أبًا أو أمًّا أو ابنًا، كما لا يخفى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٠١).

لكنْ قال ابنُ كثيرٍ: (الأَولى أن يُعلِمَها بدُخولِه، ولا يُفاجِئَها به؛ لاحتِمالِ أن تكونَ على هيئةٍ لا تحِبُّ أن يراها عليها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩).

أمَّا إذا كان مع الرَّجُلِ في بيتِه مَحارِمُه، فقال الشنقيطي: (الأظهَرُ الذي لا ينبغي العُدولُ عنه أنَّ الرَّجُلَ يَلزَمُه أن يستأذِنَ على أمِّه وأختِه، وبَنِيه وبناتِه البالِغينَ؛ لأنَّه إنْ دخَلَ على مَن ذُكِرَ بغيرِ استِئذانٍ فقد تقَعُ عَينُه على عَوْراتِ مَن ذُكِرَ، وذلك لا يَحِلُّ له). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٨).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ فيه وجوبُ الرُّجوعِ إذا لم يُؤذَنْ له، وتحريمُ الدُّخولِ إذا لم يكُنْ فيها أحَدٌ، ويُستفادُ مِن هذا تحريمُ دُخولِ مِلكِ الغيرِ، والسُّكنى فيه، وشَغلِه بغيرِ إذْنِ صاحِبِه، فيدخُلُ تحتَه من المسائِلِ والفروعِ ما لا يُحصَى[1].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ هو بيانٌ لكيفيَّةِ الاستِئذانِ[2].

٨- قال تعالى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ والسَّلامُ تقرَّرتْ مَشروعيَّتُه مِن قَبْلُ في أوَّلِ الإسلامِ، ولم يكُنْ خاصًّا بحالةِ دُخولِ البيوتِ، فلم يكُنْ للسَّلامِ اختِصاصٌ هنا، وإنَّما ذُكِرَ مع الاستِئذانِ؛ للمُحافَظةِ عليه مع الاستِئذانِ؛ لئلَّا يُلْهِيَ الاستِئذانُ الطَّارِقَ، فيَنْسى السَّلامَ، أو يَحسَبَ الاستئذانَ كافيًا عن السَّلامِ[3].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ سُمِّي الاستِئذانُ استِئناسًا؛ لأنَّ به يحصُلُ الاستِئناسُ، وبعَدَمِه تحصُلُ الوَحشةُ[4].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ... ﴾ إلى قَولِه: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ الجُناحُ: الإثمُ، فيُستفادُ منه أنَّ الأوامِرَ السَّابِقةَ للوُجوبِ؛ لأنَّها هي التي يأثمُ الإنسانُ بمُخالفتِها[1].

١١- قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ في ذلك توعُّدٌ لأهلِ التجَسُّسِ على البيوتِ، وطلَبِ الدُّخولِ على غَفلةٍ للمعاصي، والنَّظَرِ لِما لا يحِلُّ[2].

١٢- قال قتادةُ: (قال بَعضُ المُهاجِرينَ: لقد طلبتُ عُمُري كلَّه هذه الآيةَ فما أدرَكْتُها: أنْ أستأذِنَ على بَعضِ إخواني، فيقولَ لي: ارجِعْ، فأرجِعُ وأنا مُغتَبِطٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾)[3].

١٣- لا مُنافاةَ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا ﴾ وبيْنَ قَولِه: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾؛ فإنَّ أهلَ البُيوتِ قد يَكونونَ غائِبينَ عن بُيوتِهم، فإذا رجَعوا وأذِنوا فلا مانِعَ مِن الدُّخولِ؛ فصاحِبُ البَيتِ قد لا يوجَدُ في وقتٍ، ويوجدُ في وَقتٍ آخَرَ، والفائدةُ في هذا نفيُ توهُّمِ جوازِ دُخولِ الدَّارِ التي لا يُوجَدُ فيها صاحِبُها؛ ظنًّا بأنَّ النَّهيَ إنَّما هو لخشيةِ الاطِّلاعِ على عَوْراتِ أهلِ الدَّارِ أنفُسِهم فحسْبُ؛ فإنَّ أهلَ الدارِ وإنْ غابوا فقد يَكرهونَ أن يَطَّلِعَ أحَدٌ على ما في دارِهم مِن مَتاعٍ وغَيرِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٣، ٩٤).

قال الزمخشريُّ: (وذلك أنَّ الاستئذانَ لم يُشرَع لئلَّا يطَّلِعَ الدَّاخِلُ بغير إذْنٍ على عورةٍ، ولا تسبِقَ عينُه إلى ما لا يحِلُّ النظرُ إليه فقط، وإنَّما شُرع لئلَّا يُوقَفَ على الأحوالِ التي يطويها النَّاسُ =

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ﴾ بُنِيَ الفِعلُ للمَجهولِ؛ لِيَدُلَّ أنَّ المستأذِنَ إذا سَمِعَ مَن يقولُ له: «ارجِعْ»، فإنَّه يجبُ عليه أن يَرجِعَ، ولو كان القائِلُ غيرَ مَن له الإذنُ مِن أهلِ البَيتِ(١).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ يدخُلُ فيه المُعَدُّ للضَّيفِ إذا أُذِنَ فيه صاحِبُه في أوَّلِ الأمرِ، ووضَعَ الضَّيفُ متاعَه فيه؛ لأنَّ الاستِئذانَ لئلَّا يُهجَمَ على ما لا يُرادُ الاطِّلاعُ عليه، ويُرادُ طَيُّه عن عِلمِ الغَيرِ، فإذا لم يُخَفْ ذلك، فلا معنى للاستِئذانِ(٢).

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ يُفهَمُ منه تحريمُ النَّظَرِ إلى النِّساءِ وعَوراتِ الرِّجالِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما جُعِلَ الاستِئذانُ مِن أجلِ البصرِ))(٣).

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ هذا مِن احتِرازاتِ القُرآنِ العَجيبةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لفظٌ عامٌّ في كلِّ بيتٍ ليس مِلكًا للإنسانِ؛ أخْرَجَ منه تعالى البيوتَ التي ليست مِلكَه، وفيها متاعُه، وليس فيها ساكِنٌ، فأسقَط الحرجَ في الدُّخولِ إليها(٤).

= في العادةِ عن غيرِهم، ويتحفَّظون مِن اطِّلاعِ أحدٍ عليها، ولأنَّه تصَرُّفٌ في مِلكِ غيرِك؛ فلا بدَّ من أن يكونَ برضاه، وإلَّا أشْبَهَ الغَصبَ والتغلُّبَ. ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

والحديث أخرجه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن لا منفعةَ له في دُخولِها لا يؤذَنُ له في دُخولِها؛ لأنَّه يُضَيِّقُ على أصحابِ الاحتياجِ إلى بِقاعِها(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ استِئنافٌ لبَيانِ أحكامِ التَّزاوُرِ، وتَعليمِ آدابِ الاستِئذانِ، وتَحديدِ ما يحصُلُ المقصودُ منه؛ كيْ لا يكونَ النَّاسُ مُختلفينَ في كَيفيَّتِه على تفاوُتِ اختلافِ مَداركِهم في المقصودِ منه والمُفيدِ(٢).

- ووَصْفُ البُيوتِ بمُغايرةِ بُيوتِهم خارجٌ مَخرجَ العادةِ الَّتي هي سُكنى كلِّ أحدٍ في ملْكِه، وإلَّا فالمؤاجِرُ والمُعيرُ أيضًا مَنْهيَّانِ عن الدُّخولِ بغيرِ إذنٍ(٣).

- قَولُه: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ كِنايةٌ لَطيفةٌ عن الاستِئذانِ، أي: أنْ يَستأذِنَ الدَّاخلُ، أي: يَطلُبَ إذنًا مِن شأنِه ألَّا يكونَ معه استيحاشُ ربِّ المنزلِ بالدَّاخلِ، إذا كان معنى الاستِئناسِ خِلافَ الاستيحاشِ؛ لأنَّ الَّذي يَطرُقُ بابَ غيرِه لا يَدْري أيُؤْذَنُ له أمْ لا، فهو كالمُستَوحشِ مِن خَفاءِ الحالِ، فإذا أُذِنَ له استأنَسَ، فالمعنى: حتَّى يُؤذَنَ لكم؛ فهذا مِن بابِ الكِناياتِ والإردافِ؛ لأنَّ هذا النَّوعَ مِن الاستئناسِ يَردُفُ الإذْنَ؛ فوُضِعَ موضعَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٨).

الإذنِ[١]. وسِرُّ ذلك: تَرغيبُ المُخاطَبينَ في الإتيانِ بالاستِئذانِ؛ فإنَّ له فائدةً وثمرةً تَميلُ النُّفوسُ إليها، وتَنفِرُ مِن ضِدِّها، وهو الاستيحاشُ الحاصلُ بتقديرِ عدَمِ الاستِئذانِ؛ ففيه تَنهيضٌ للدَّواعي على سُلوكِ هذا الأدبِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ عطَفَ الأمرَ بالسَّلامِ على الاستِئناسِ، وجعَلَ كِلاهما غايةً للنَّهيِ عن دُخولِ البيوتِ؛ تَنبيهًا على وُجوبِ الإتيانِ بهما؛ لأنَّ النَّهيَ لا يرتفِعُ إلَّا عند حُصولِهما[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يظُنَّ ظانٌّ أنَّ المنازِلَ غيرَ المسكونةِ يدخُلُها النَّاسُ في غَيبةِ أصحابِها بدونِ إذْنٍ منهم؛ توهُّمًا بأنَّ عِلَّةَ شرْعِ الاستئذانِ ما يَكرَهُ أهْلُ المنازِلِ مِن رُؤيتِهم على غيرِ تأهُّبٍ، بلِ العلَّةُ هي كراهتُهم رُؤيةَ ما يُحِبُّون سَتْرَه مِن شُؤونِهم؛ فالشَّرطُ هنا يُشبِهُ الشَّرطَ الوصليَّ؛ لأنَّه مُرادٌ به المُبالَغةُ في تَحقيقِ ما قبْلَه؛ ولذلك ليس له مفهومُ مخالفةٍ[٤].

- والغايةُ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ لتأكيدِ النَّهيِ بقولِه: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: (((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ تَذييلٌ لهذه الوصايا بتَذكيرِهم بأنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِهم؛ لِيَزدجِرَ أهْلُ الإلحاحِ عن إلْحاحِهم بالتَّثقيلِ، ولِيَزدجِرَ أهْلُ الحِيَلِ أو التَّطلُّعِ مِن الشُّقوقِ ونَحوِها. وهذا تَعريضٌ بالوعيدِ؛ لأنَّ في ذلك عِصيانًا لِمَا أمَرَ اللهُ به؛ فعِلْمُه به كِنايةٌ عن مُجازاتِه فاعِليه بما يَستحِقُّونَ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ صِفةٌ للبُيوتِ، أو استِئنافٌ جارٍ مَجْرى التَّعليلِ لعدَمِ الجُناحِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ فيه وَعيدٌ لِمَن يَدخُلُ مَدخلًا مِن هذه المداخلِ لفسادٍ أو اطِّلاعٍ على عَوراتٍ، كمَن يدخُلونَ الخَرِباتِ والدُّورَ الخاليةَ مِن أهْلِ الرِّيبةِ؛ فهذه الجُملةُ مُستعمَلةٌ في التَّحذيرِ مِن تجاوُزِ ما أشارت إليه الآيةُ مِن القيودِ، وهي كونُ البُيوتِ غيرَ مَسكونةٍ، وكونُ الدَّاخلِ مُحتاجًا إلى دُخولِها، بلْهَ أنْ يدخُلَها بقصْدِ التَّجسُّسِ على قُطَّانِها -أي: ساكنيها-، أو بقصْدِ أذاهُم، أو سَرِقةِ مَتاعِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

الآيتان (٣٠-٣١)

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا
لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ
التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ
النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغُضُّوا﴾: أي: يَكُفُّوا، وأصلُ (غضض): يدُلُّ على كَفٍّ ونَقصٍ[(١)].

﴿أَزْكَى﴾: أي: أصلَحُ وأطهَرُ، والزكاةُ: هي النَّماءُ والزِّيادةُ في الصلاحِ، وكمالُ الشيءِ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على طهارةٍ ونَماءٍ[(٢)].

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: جمعُ خِمارٍ، وهو ما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها، وكُلُّ شَيءٍ غطَّيتَه فقد خمَّرتَه، وأصلُ (خمر): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٦)، =

﴿جُيُوبِهِنَّ﴾: جَمعُ جَيبٍ، وهو طَوقُ القَميصِ الذي يُحيطُ بالعُنُقِ مِمَّا يلي الرَّقبةَ، وأصلُه مبدَلٌ مِن (جوب)، بمعنى: الخَرقِ والقَطعِ؛ لأنَّ الجيبَ هو موضِعُ القَطعِ مِنَ القَميصِ(١).

﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: جمعُ بَعْلٍ، هو الذَّكَرُ مِن الزَّوجينِ، ويُسمَّى به كلُّ مُستَعلٍ على غَيرِه، وأصلُ (بعل) هنا: الصَّاحِبُ(٢).

﴿ٱلۡإِرۡبَةِ﴾: أي: الحاجةِ إلى النِّساءِ، وأصلُ (أرب) هنا: الحاجةُ(٣).

﴿يَظۡهَرُواْ﴾: أي: يَطَّلِعوا، ويَعرِفوا، والظُّهورُ أصلُه: البروزُ دونَ ساترٍ، و(ظهر) تُطلَقُ بمعنى اطَّلَع وفَهِمَ وعَلِمَ، وبمعنى غلَب، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- للمؤمنينَ يَكُفُّوا أبصارَهم عمَّا حرَّم اللهُ عليهم،

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(١) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٧)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (١٠٩).

ويَصونوا فُروجَهم عمَّا حرَّم اللهُ؛ ذلك الغضُّ والحِفظُ أطهَرُ لقُلوبِهم، وأفضَلُ لهم في دينِهم ودُنياهم، إنَّ الله رقيبٌ عليهم، مطَّلِعٌ على أعمالِهم، لا يَخفَى عليه منها شَيءٌ.

ثمَّ يرشِدُ الله سبحانَه النِّساءَ إلى ما أرشَد إليه الرجالَ، فيقول: وقُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمِناتِ يَكفُفْنَ النظَرَ عمَّا حرَّمَ اللهُ، ويحفَظْنَ فروجَهنَّ عمَّا حَرَّم اللهُ، ولا يَكشِفْنَ زينتَهنَّ للأجانبِ إلَّا ما ظهرَ منها، كظاهرِ الثِّيابِ التي جرَت العادةُ بلُبسِها، ولْيُلقِينَ بِخُمُرِهنَّ على فتَحاتِ القُمصِ المحيطةِ بالأعناقِ؛ لئلَّا يبدوَ شَيءٌ مِن شُعورِهنَّ، وآذانِهنَّ، وأعناقِهنَّ، ونحورِهنَّ، وصُدورِهنَّ، ولا يُظْهِرْنَ زينتَهنَّ الخفيَّةَ إلَّا لأزواجِهنَّ، أو آبائهنَّ أو آباءِ أزواجِهنَّ، أو أبنائِهنَّ أو أبناءِ أزواجِهنَّ، أو إخوانِهنَّ أو أبناءِ إخوانِهنَّ، أو أبناءِ أخَواتهنَّ أو نسائِهنَّ، أو ما ملكْنَ مِنَ الإماءِ والعبيدِ، أو التَّابعينَ مِن الرِّجالِ الذين لا مَيلَ لهم ولا شَهوةَ إلى النِّساءِ، أو الأطفالِ الصِّغارِ الذين لم يَبلُغوا حدَّ الشَّهوةِ، ولا يَعرِفونَ عَوْراتِ النِّساءِ. ولا يَضرِبِ النِّساءُ بأرجُلِهنَّ الأرضَ لِيُسْمِعْنَ صَوتَ ما خَفِيَ مِن حُلِيهنَّ.

ويختمُ الله تعالى هذه الآيةَ بدعوةِ المؤمنينَ إلى التوبةِ، فيقولُ: وتوبوا -أيُّها المؤمِنونَ- إلى ربِّكم؛ لِتَفوزوا في دُنياكم وآخِرتِكم.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى حُكمَ الاستئذانِ؛ أعقَبه ببيانِ آدابِ ما تَقْتضيه المجالسةُ

بعدَ الدخولِ[١]، فقال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمنينَ يَكُفُّوا نظَرَهم[٢] عمَّا حرَّم اللهُ عليهم[٣].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والجُلوسَ بالطُّرُقاتِ. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، ما لنا مِن مجالِسِنا بُدٌّ نتحَدَّثُ فيها، فقال: إذ أبَيْتُم إلَّا المجلِسَ، فأعطُوا الطَّريقَ حَقَّه. قالوا: وما حَقُّ الطَّريقِ يا رسولَ الله؟ قال: غَضُّ البصَرِ، وكَفُّ الأذى، ورَدُّ السَّلامِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) قال الشوكاني: (﴿مِنْ﴾ في قَوله: ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ هي: التَّبعيضيَّةُ، وإليه ذهب الأكثَرونَ، وبيَّنوه بأنَّ المعنى غضُّ البصَرِ عمَّا يَحرُمُ، والاقتِصارُ به على ما يَحِلُّ. وقيل: وجهُ التَّبعيضِ أنه يُعفَى للنَّاظِرِ أوَّلُ نظرةٍ تقَعُ مِن غيرِ قَصدٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦).

وقال ابنُ جُزي بعدَ أنْ ذكَر أنَّ (مِن) للتبعيضِ في الآيةِ: (وأجاز الأخفَشُ أن تكونَ «مِنْ» زائدةً. وقيل: هي لابتداءِ الغايةِ؛ لأنَّ البَصَرَ مِفتاحُ القَلبِ، والغَضُّ المأمورُ به هو عن النَّظَرِ إلى العَورةِ، أو إلى ما لا يَحِلُّ مِنَ النِّساءِ، أو إلى كُتُبِ الغَيرِ، وشِبهِ ذلك مِمَّا يُستَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٣٦٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

قال ابنُ القطَّان: (النَّظَرُ إنَّما حَرُم في محلِّ الإجماعِ حَذرًا من الفِتنةِ، كما حَرُم الزِّنا حَذرًا من اختلاطِ الأنساب، وشُربُ الخَمرِ توقيرًا للعَقلِ، فإذا كان كذلك وَجَب غَضُّ البصرِ على كلِّ خائفٍ، وحرُمَ عليه أن يُرسِلَ طَرْفَه في مواقِعِ الفِتَنِ؛ فإنَّه إذا فعَل ذلك رأى الذي لا كُلُّه هو قادِرٌ عليه، ولا عن بَعضِه هو صابِرٌ!). ((إحكام النظر)) (ص: ٣٣٨).

(٤) رواه البخاري (٦٢٢٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٢١).

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن نظَرِ الفُجاءةِ، فأمَرَني أن أصرِفَ بَصَري))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كُتِبَ على ابنِ آدَمَ نصيبُه مِن الزِّنا، مُدرِكٌ ذلك لا مَحالةَ؛ فالعينانِ زِناهما النَّظَرُ، والأُذنانِ زِناهما الاستِماعُ، واللِّسانُ زِناه الكلامُ، واليَدُ زِناها البَطشُ، والرِّجلُ زِناها الخُطا، والقَلبُ يَهوى ويتمنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفَرجُ ويُكَذِّبُه))[٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَنظُرِ الرجُلُ إلى عَورةِ الرَّجُلِ، ولا المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ، ولا يُفضِي[٣] الرجُلُ إلى الرجُلِ في ثوبٍ واحدٍ، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأةِ في الثَّوبِ الواحدِ))[٤].

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾.

أي: ويَحفَظوا فروجَهم عمَّا حرَّم اللهُ؛ كالزِّنا، وكأنْ يَراها أو يَمَسَّها أحدٌ لا يحِلُّ له ذلك[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له.

(٣) لا يُفضِي: أي: لا يَصِلُ. والمعنى: لا يَضطَجعانِ مُتجَرِّدينِ تحت ثوبٍ واحدٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٥١).

(٤) رواه مسلم (٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٦).

قال الجصَّاص: (المعنى: حِفظُها عن سائرِ ما حُرِّمَ عليه؛ من الزِّنا، واللَّمسِ، والنَّظَرِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٧). =

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ الله عنهما، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَضْمَنْ لي ما بيْن لَحْيَيه[١] وما بيْن رِجلَيه، أَضمَنْ له الجنَّةَ))[٢].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ القُشَيريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، عوْراتُنا ما نأتي منها وما نذَرُ؟ قال: احفَظْ عورتَك إلَّا مِن زوجتِك أو ما ملَكَت يمينُك. فقال: الرجُلُ يكونُ مع الرجُلِ؟ قال: إنِ استطَعْتَ ألَّا يراها أحَدٌ، فافعَلْ. قلتُ: والرجُلُ يكونُ خاليًا؟ قال: فاللهُ أحقُّ أن يُستَحْيَا منه))[٣].

= وقال ابن عطية: (حِفظُ الفروجِ يعُمُّ الفواحِشَ، وسَترَ العورةِ، وما دون ذلك ممَّا فيه حِفظٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨).

(١) لَحْيَيه: هما العَظمانِ في جانبَيِ الفَمِ، والمرادُ بما بيْنَهما: اللِّسانُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٩٧٢)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وأحمد (٢٠٠٣٤).

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابنُ القطَّان في ((أحكام النظر)) (٩٤)، وذكر ثبوته ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢١/ ٣٣٧). وصحَّح الحديثَ ابنُ القيم في ((تهذيب السنن)) (١١/ ٥٦)، وابنُ باز في ((الفوائد العلمية)) (٦/ ١١٧)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٧٦٩).

وآخِرُ الحديث أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم قبْلَ حديث (٢٧٨)، ولفظُه: ((اللهُ أحقُّ أن يُستَحيا منه من النَّاسِ)).

﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾.

أي: غَضُّ المؤمنينَ مِن أبصارِهم، وحِفظُهم لفُروجِهم: أطهَرُ وأطيَبُ لقُلوبِهم، وأفضَلُ لهم في دينِهم ودُنياهم، وأنْمَى لأعمالِهم، وأبعَدُ لهم مِن الخَطايا والآثام[1].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يصنَع النَّاسُ، لا يَخفى عليه شَيءٌ من ذلك، فيَعلَمُ مَن يَغُضُّ بصَرَه ويحفظُ فَرجَه منهم، ومَن لا يفعَلُ ذلك؛ فلْيَجتَهِدوا في طاعتِه، ولْيَحذروا مِن مَعصيتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٨، ٣٨٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قوله: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ فالغَضُّ مِن البَصَرِ، وحِفظُ الفرجِ يتضَمَّنُ البُعدَ عن نجاسةِ الذُّنوبِ، ويتضَمَّنُ الأعمالَ الصالحةَ التي يزكو بها الإنسانُ، وهو أزكى، والزكاةُ تتضمَّنُ الطَّهارةَ؛ فإنَّ فيها معنى تَركِ السيِّئاتِ، ومعنى فِعلِ الحَسَناتِ؛ ولهذا تفسَّرُ تارةً بالطَّهارةِ، وتارةً بالزِّيادةِ والنَّماءِ، ومعناها يتضَمَّنُ الأمْرينِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى المؤمنينَ بغضِّ الأبصارِ، وحفظِ الفروجِ؛ أمَر المؤمناتِ بذلك[١]، فأردَفَ أمرَ المؤمنينَ بأمرِ المؤمِنات؛ لأنَّ الحِكمةَ في الأمْرينِ واحِدةٌ، وتصريحًا بما تقرَّرَ في أوامِرِ الشريعةِ المُخاطَبِ بها الرِّجالُ، مِن أنَّها تشملُ النِّساءَ أيضًا، ولكِنَّه لَمَّا كان هذا الأمرُ قد يُظَنُّ أنَّه خاصٌّ بالرِّجالِ؛ لأنَّهم أكثَرُ ارتِكابًا لضِدِّه- وقَع النَّصُّ على هذا الشُّمولِ بأمرِ النِّساءِ بذلك أيضًا[٢].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمِناتِ يَكفُفْنَ النظَرَ عمَّا حرَّمَ اللهُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٦)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ١٠٢ و٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

قال ابن القَطَّان: (لا خِلافَ أعلَمُه في جَوازِ نظرِ المرأةِ إلى وَجهِ الرجُلِ مُطلقًا إذا لم تَقصِدِ اللَّذَّةَ ولم تَخَفِ الفِتنةَ... [و] إنْ قصَدَت اللذَّةَ وخافت الفِتنةَ حَرُمَ بلا نزاعٍ، وكذلك إن قصَدَت ولم تَخَفْ؛ فإنَّها تاركةٌ لغضِّ البصرِ حيثُ أُمِرَت به). ((إحكام النظر)) (ص: ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٣).=

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَنظُرِ الرجُلُ إلى عَورةِ الرَّجُلِ، ولا المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ، ولا يُفضِي الرجُلُ إلى الرجُلِ في ثوبٍ واحدٍ، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأةِ في الثَّوبِ الواحِدِ))[1].

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

أي: ويحفَظْنَ فُروجَهنَّ عمَّا حرَّم اللهُ؛ كالزِّنا، وكأنْ يراها أو يمسَّها أحدٌ لا يَحِلُّ له ذلك[2].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

أي: لا يُظهِرْنَ شَيئًا مِنَ الزِّينةِ للأجانِبِ، إلَّا ما لا يُمْكِنُ إخفاؤُه؛ كظاهِرِ

= ونَظَرُ المرأةِ إلى وَجهِ الرَّجُلِ بشَهوةٍ أو مع خَوفِ الفِتنةِ حَرامٌ بالإجماعِ، أمَّا إذا لم يكُنِ النَّظَرُ بشَهوةٍ وأَمِنَت الفِتنةَ فالمذاهِبُ الفِقهيَّةُ الأربعةُ: الحَنَفيَّةُ، والمالِكيَّةُ، والشَّافِعيَّةُ، والحنابِلةُ- على جوازِه، والمسألةُ فيها خِلافٌ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٥/ ١٢٢)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ١٣٢)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ١٤). ويُنظر الخلاف في: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٨٤)، ((الشرح الكبير)) لابن قدامة (٧/ ٣٥١).

قال ابنُ كثير: (قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: عمَّا حرَّم اللهُ عليهنَّ مِن النَّظَرِ إلى غيرِ أزواجِهنَّ؛ ولهذا ذهَبَ كثيرٌ مِنَ العُلَماءِ إلى أنَّه: لا يجوزُ للمَرأةِ أن تَنظُرَ إلى الأجانبِ بشَهوةٍ ولا بغيرِ شَهوةٍ أصلًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤).

وقال ابنُ العربي: (وكما لا يَحِلُّ للرَّجُلِ أن يَنظُرَ إلى المرأةِ، فكذلك لا يحِلُّ للمَرأةِ أن تنظُرَ إلى الرَّجُلِ؛ فإنَّ عَلاقتَه بها كعَلاقتِها به، وقَصْدَه منها كقَصدِها منه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٣٨٠).

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٦).

الثِّيابِ التي جرَت العادةُ بلُبسِها(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: ظاهِرُ الثِّيابِ: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر المصادِرُ السَّابقةُ.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بن مسعود، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ في روايةٍ عنه، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وماهانُ الحنفيُّ في روايةٍ عنه، وابن سيرينَ، وأبو الجوزاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).

قال ابنُ كثير: (﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يُظهِرْنَ شَيئًا مِنَ الزِّينةِ للأجانبِ إلَّا ما لا يمكِنُ إخفاؤُه. وقال ابنُ مسعودٍ: كالرِّداءِ والثِّيابِ. يعني: على ما كان يتعاناه نِساءُ العرَبِ مِنَ المِقنَعةِ التي تجَلِّلُ ثيابَها، وما يبدو مِن أسافِلِ الثِّيابِ فلا حرَجَ عليها فيه؛ لأنَّ هذا لا يمكِنُ إخفاؤُه، ونظيرُه في زيِّ النِّساءِ ما يظهَرُ مِن إزارِها، وما لا يمكِنُ إخفاؤُه. وقال بقَولِ ابنِ مسعودٍ: الحسَنُ، وابنُ سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فما ظهَرَ مِن الزِّينةِ: هو الثِّيابُ الظَّاهِرةُ، فهذا لا جُناحَ عليها في إبدائِها إذا لم يكُنْ في ذلك محذورٌ آخَرُ؛ فإنَّ هذه لا بدَّ مِن إبدائِها، وهذا قَولُ ابنِ مسعودٍ وغيرِه، وهو المشهورُ عن أحمدَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: الوَجهُ واليدانِ مِنَ الزِّينةِ الظَّاهِرةِ. وهي الرِّوايةُ الثَّانيةُ عن أحمدَ، وهو قَولُ طائفةٍ مِن العُلَماءِ؛ كالشَّافعيِّ وغيرِه، وأمَرَ سُبحانَه النِّساءَ بإرخاءِ الجلابيبِ؛ لئَلَّا يُعرَفْنَ ولا يُؤذَينَ، وهذا دليلٌ على القَولِ الأوَّلِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٧١).

وقال ابنُ كثير: (عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وَجهَها وكَفَّيها والخاتَمَ. ورُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ، وعطاءٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وأبي الشَّعثاء، والضَّحَّاك، وإبراهيمَ النَّخَعيِّ، وغيرِهم -نحوُ ذلك. وهذا يحتَمِلُ أن يكونَ تفسيرًا للزِّينةِ التي نُهِينَ عن إبدائِها كما قال أبو إسحاقَ السَّبيعيُّ، عن أبي الأحوص، عن عبدِ الله قال في قَولِه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: الزِّينةُ: القُرطُ والدُّمْلُجُ والخَلْخالُ والقِلادةُ. وفي روايةٍ عنه بهذا الإسنادِ قال: الزِّينةُ زينتانِ: فزينةٌ لا يراها إلَّا الزَّوجُ: الخاتَمُ والسِّوارُ، وزينةٌ يراها الأجانِبُ، وهي الظَّاهِرُ مِنَ الثِّيابِ. وقال الزُّهْريُّ: لا يبدو لهؤلاء الذين سَمَّى اللهُ مِمَّن لا يحِلُّ له إلَّا الأَسْوِرةُ والأخمِرةُ والأقرِطةُ مِن غيرِ حَسْرٍ، وأمَّا عامَّةُ النَّاسِ فلا يبدو منها إلَّا الخواتِمُ. وقال مالِكٌ عن الزُّهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الخاتَمَ والخَلْخالَ. ويحتَمِلُ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ ومَن تابعه أرادوا تفسيرَ ما =

= ظهَرَ منها بالوَجهِ والكَفَّينِ، وهذا هو المشهورُ عند الجُمهورِ. ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ اللهَ جَعَل الزِّينةَ زِينتَينِ: زينةٌ ظاهِرةٌ، وزينةٌ غيرُ ظاهِرةٍ، وجوَّز لها إبداءَ زينتِها الظَّاهِرةِ لغيرِ الزَّوجِ وذَوِي المحارِمِ، وكانوا قبْلَ أن تَنزِلَ آيةُ الحِجابِ كان النِّساءُ يَخرُجْنَ بلا جِلبابٍ، يرى الرَّجُلُ وَجْهَها ويَدَيها، وكان إذ ذاك يجوزُ لها أن تُظهِرَ الوَجهَ والكَفَّينِ، وكان حينَئذٍ يجوزُ النَّظَرُ إليها؛ لأنَّه يجوزُ لها إظهارُه، ثمَّ لَمَّا أنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ آيةَ الحِجابِ بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] حُجِب النِّساءُ عن الرِّجالِ... فإذا كُنَّ مأموراتٍ بالجِلبابِ لئلَّا يُعرَفْنَ، وهو سَترُ الوَجهِ أو سَترُ الوَجهِ بالنِّقابِ؛ كان الوَجهُ واليدانِ مِنَ الزِّينةِ التي أُمِرت ألَّا تُظهِرَها للأجانِبِ، فما بَقِيَ يَحِلُّ للأجانِبِ النَّظَرُ إلَّا إلى الثِّيابِ الظَّاهِرةِ؛ فابنُ مَسعودٍ ذَكَر آخِرَ الأمْرَينِ، وابنُ عبَّاسٍ ذَكَر أوَّلَ الأمْرَينِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ١٠٩).
وقال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: الزِّينةُ الخارجيَّةُ -وهي ما تتزَيَّنُ بها المرأةُ- لا الزِّينةُ الخِلْقيَّةُ التي خَلَق اللهُ عليها المرأةَ، والدَّليلُ قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وفي آخِرِ هذه الآيةِ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] .... فكُلُّ مَن تأمَّلَ الزِّينةَ وجَدَها في الزِّينةِ الخارجيَّةِ لا فيما زَيَّن اللهُ به المرأةَ، وعلى هذا يكونُ الاستِثناءُ عائِدًا على ما يبدو مِنَ الثِّيابِ التي لا بدَّ مِن ظُهورِها... ويؤيِّدُه أيضًا أنَّه قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، ولو كان المرادُ الوَجهَ والكَفَّينِ لقال: إلَّا ما أُظهِرَ مِنها. أمَّا ثيابُ الجَمالِ فهي مِنَ الزِّينةِ الخَفيَّةِ، وكذلك الحَلْيُ وشِبهُه ممَّا تتحَلَّى به المرأةُ لا يُبدى إلَّا لِمَن ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ الحَلْيَ يمكِنُ إخفاؤُه، ليس كالعَباءةِ والجِلبابِ وشِبهِهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).
وقال الشِّنقيطي: (ظاهِرُ اللُّغةِ أنَّ الزِّينةَ تُطلَقُ على ما تتزيَّنُ به المرأةُ خارِجًا عن بَدَنِها؛ فإنَّ إطلاقَها على نفْسِ البَدَنِ يحتاجُ إلى قرينةٍ، وأمَّا استِقراءُ الشَّرعِ فالمعروفُ منه الأمرُ بالتباعُدِ عن أسبابِ الفِتنةِ، والوَجهُ محَلُّ الجَمالِ والافتِتانِ مِنَ المرأةِ؛ فالواجِبُ سَترُه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٩٩).
وقال أيضًا: (هذا القَولُ [أي: قَولُ ابنِ مَسعودٍ] هو أظهَرُ الأقوالِ عندَنا وأحوَطُها، وأبعَدُها مِنَ الرِّيبةِ وأسبابِ الفِتنةِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥١٥).
وذكر أبو يَعلَى أنَّ هذا القَولَ أشبَهُ، كما في ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠). وذهب ابنُ باز إلى أنَّ هذا القَولَ أصَحُّ، وأنَّه الموافِقُ للأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ. يُنظَر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٥/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾.

أي: ولْيُلقِينَ الخُمُرَ -وهي ما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها- على فتَحاتِ القُمُصِ المحيطةِ بالأعناقِ، ويَشدُدْنَها؛ لِيَستُرْنَ شُعورَهنَّ، وآذانَهنَّ، وأعناقَهنَّ، ونحورَهنَّ، وصُدورَهنَّ[1].

= وتُنظَرُ بقيَّةُ الأقوالِ في هذه الآيةِ في: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠).

قال الشنقيطيُّ بعد أن ذكَرَ جُملةً مِن أقوالِ أهلِ العِلمِ في الزِّينةِ الظَّاهِرةِ والزِّينةِ الباطِنةِ: (جميعُ ذلك راجِعٌ في الجُملةِ إلى ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: ما تتزَيَّنُ به المرأةُ خارجًا عن أصلِ خِلْقتِها، ولا يَستلزِمُ النَّظَرُ إليه رؤيةَ شَيءٍ مِن بَدَنِها، كقَولِ ابنِ مسعودٍ ومَن وافَقَه: إنَّها ظاهِرُ الثِّيابِ؛ لأنَّ الثِّيابَ زِينةٌ لها خارِجةٌ عن أصلِ خِلْقتِها، وهي ظاهِرةٌ بحُكمِ الاضطِرارِ كما ترى.

القَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: ما تتزَيَّنُ به وليس مِن أصلِ خِلْقتِها أيضًا، لكِنَّ النَّظَرَ إلى تلك الزِّينةِ يَستلزِمُ رُؤيةَ شَيءٍ مِن بَدَنِ المرأةِ، وذلك كالخِضابِ والكُحلِ ونحوِ ذلك؛ لأنَّ النَّظَرَ إلى ذلك يَستلزِمُ رُؤيةَ الموضِعِ المُلابِسِ له مِنَ البَدَنِ كما لا يخفى.

القَولُ الثَّالِثُ: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ الظَّاهِرةِ: بَعضُ بَدَنِ المرأةِ الذي هو مِن أصلِ خِلْقتِها، كقَولِ مَن قال: إنَّ المرادَ بما ظَهَرَ منها: الوَجهُ والكَفَّانِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

قال ابنُ عثيمين: (هل المرادُ بضَربِ الخِمارِ على الجَيبِ: أن يكونَ مِن تحتِ الوَجهِ بحيثُ يبقى الوَجهُ مَكشوفًا والجَيبُ مَستورًا، أو أنَّ المعنى أن تَضرِبَ بالخِمارِ على الجَيبِ مارًّا بالوَجهِ؟ هذا هو الأقرَبُ؛ لأنَّ الخِمارَ يَنزِلُ مِن أعلى لأنَّه فَوقَ الرَّأسِ، ثمَّ الجَيبُ إذا وجَب سَترُه فالوَجهُ مِن بابِ أولى، وكان النِّساءُ في الجاهِليَّةِ -على حَسَبِ ما قاله بَعضُ المفَسِّرينَ- كانت المرأةُ =

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: (يَرحمُ اللهُ نِساءَ المُهاجِراتِ الأُوَلَ؛ لَمَّا أنزل اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شقَّقْنَ مُروطَهنَّ[١]، فاختمَرْنَ بها[٢])[٣].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر في الآيةِ قَبْلَها ما أباح أن يَراه غيرُ ذي المَحرَمِ مِن الزِّينةِ الظَّاهِرةِ؛ ذَكَر في هذه ما أباح أن يراه الزَّوجُ وذَوو المحارِمِ مِنَ الزِّينةِ الباطِنةِ، فقال[٤]:

= تَسدُلُ الخِمارَ مِن وَرائِها، ولا يَقرَبُ وَجهَها ولا جَيبَها؛ ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى النِّساءَ أن يَضرِبنَ بخُمُرِهنَّ على جُيوبِهنَّ، وعندَ مَن يرى أنَّ المرادَ بالزِّينةِ الوَجهُ والكَفَّانِ يقولُ: تَضرِبُ بخِمارِها على جَيبِها مِن أسفَلَ، فتُغطِّي الجَيبَ، وتَكشِفُ الوَجهَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٨).

(١) مُروطَهنَّ: جمعُ مِرطٍ، وهو الإزارُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٩٠).

(٢) قال الشنقيطي: (قال ابنُ حَجَرٍ في «الفتح» في شَرحِ هذا الحَديثِ: قَولُه: فاختَمَرْنَ، أي: غَطَّينَ وُجوهَهنَّ، .... انتهى... وهذا الحديثُ الصَّحيحُ صَريحٌ في أنَّ النِّساءَ الصَّحابيَّاتِ المذكوراتِ فيه فَهِمْنَ أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يَقتَضي سَترَ وُجوهِهنَّ، وأنَّهنَّ شَقَّقْنَ أُزُرَهنَّ فاختَمَرْنَ، أي: سَتَرْنَ وُجوهَهنَّ بها؛ امتِثالًا لأمرِ اللهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ المُقتضي سَترَ وُجوهِهنَّ، وبهذا يتحَقَّقُ المُنصِفُ أنَّ احتِجابَ المرأةِ عن الرِّجالِ وسَترَها وَجهَها عنهم ثابتٌ في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ المُفَسِّرةِ لِكِتابِ اللهِ تعالى، وقد أثنَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها على تلك النِّساءِ بمُسارعتِهنَّ لامتثالِ أوامِرِ اللهِ في كتابِه، ومعلومٌ أنَّهنَّ ما فَهِمْنَ سَترَ الوُجوهِ مِن قَولِه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ إلَّا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه موجودٌ، وهنَّ يَسألْنَه عن كُلِّ ما أشكَلَ عليهنَّ في دِينِهنَّ، واللهُ جَلَّ وعلا يقولُ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ فلا يُمكِنُ أن يُفَسِّرْنَها مِن تِلقاءِ أنفُسِهنَّ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٥٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٩٠).

(٣) رواه البخاري (٤٧٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

أي: ولا يُظهِرْنَ زينتَهنَّ الخفيَّةَ(١) إلاَّ لأزواجِهنَّ(٢).

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾.

أي: أو لآبائهنَّ، وأجدادِهنَّ من جهةِ آبائهنَّ وأمهاتهنَّ، أو لآباءِ أزواجِهنَّ، وأجدادِهم مِن جهةِ آبائِهم وأمهاتِهم، أو لأبنائِهنَّ وأحفادِهنَّ مِن جهةِ أبنائهنَّ وبناتِهنَّ، أو لأبناءِ أزواجِهنَّ مِن غيرِهنَّ وأحفادِهم(٣).

﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾.

أي: أو لإخوانِهنَّ الأشقَّاءِ أو لأبٍ أو لأمٍّ، أو لبني إخوانِهنَّ وأبنائِهم ذُكورًا وإناثًا، أو لبني أخواتِهنَّ وأبنائِهم ذكورًا وإناثًا(٤).

---

(١) قال ابن جزي: (المرادُ بالزينةِ هنا: الباطنةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابن القطان: (أُجمِعَ على أنَّ الزوجَ مرادٌ بالآيةِ). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٤٣).

وقال الشوكاني: (البَعْلُ: هو الزَّوجُ والسَّيِّدُ في كلامِ العَرَبِ،... ومِثْلُه قَولُه سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابن القطَّان: (البَعلُ والأبُ يفتَرِقان في إبداءِ العَورةِ؛ فلا يحِلُّ ذلك للأبِ، وهذا لا اختلافَ ولا ريبَ فيه). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٣٨).

وقال أيضًا: (الإجماعُ مُنعَقِدٌ على أنَّ ما تُبديه للمذكورينَ أكثَرُ مِمَّا تُبديه للأجانِبِ، وعلى أنَّ المذكورينَ مُتفاوِتون فيما تُبديه لهم). ((إحكام النظر)) (ص: ١٧١). =

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾.

أي: أو لِنِسائِهِنَّ(١).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾.

= وقال أيضًا: (مَن أجازت الآيةُ التبسُّطَ بحَضرتِهم والتكَشُّفَ لهم ليسوا سواءً؛ فإنَّا لا نشُكُّ في أنَّ ابنَ بَعلِها مِن غَيرِها ليس كابنِها، وأنَّ أبا بَعلِها ليس كأبيها، وأنَّ إخوتَها وبنيهم ليسُوا كأبيها وابنِها، ولا كابنِ بَعلِها وأبيه، هذا ممَّا لا يختَلِفُ فيه كلُّ مَن رأيتُه عرَضَ للآيةِ بتَفسيرٍ، أو أجال فيها نظرًا). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٤٠).

وقد اختلَف الفُقَهاءُ فيما تُبديه المرأةُ لمحارِمِها. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (١٠/ ٣١)، ((الشَّرح الكبير)) للدَّردير (١/ ٢١٤)، ((مغني المحتاج)) للشِّربيني (٣/ ١٢٩)، ((كشَّاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٢٨٠ - ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧).

قيل: المرادُ هنا: عمومُ النساءِ؛ فللمرأةِ إبداءُ زينتِها لكلِّ امرأةٍ، ولو كانت مشركةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ العربي، والرازي، والألوسي، ومال إليه ابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٧٦-١٧٧، ١٨٠).

وقيل المراد هنا: النساءُ المسلماتُ فقط. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، والرسعني، وابن تيميَّة، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧).

وقال السعدي: (﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: يجوزُ للنِّساءِ أن ينظُرَ بعضُهنَّ إلى بعضٍ مُطلقًا، ويحتملُ أنَّ الإضافةَ تقتضي الجنسيَّةَ، أي: النِّساءِ المسلماتِ اللَّاتي مِن جنسِكنَّ؛ ففيه دليلٌ لِمَن قال: إنَّ المسلمةَ لا يجوز أن تنظُرَ إليها الذمِّيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

أي: أو لِمماليكِهنَّ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ(١).

عن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتَى فاطمةَ بعبدٍ كان قد وهَبَه لها، وعلى فاطمةَ رَضِيَ الله عنها ثوبٌ، إذا قنَّعَت به رأسَها لم يبلُغْ رِجلَيها، وإذا غطَّت به رِجلَيها لم يبلُغْ رأسَها، فلمَّا رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما تلقى قال: ((إنَّه ليس عليك بأسٌ؛ إنما هو أبوكِ وغُلامُكِ))(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٥)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال العليمي: (﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ اختلف العُلَماءُ في حُكمِ الآيةِ؛ فقال قَومٌ: هو عامٌّ، فيكونُ عَبدُ المرأةِ مَحْرَمًا لها، فيجوزُ له الدُّخولُ عليها إذا كان عَفيفًا، وأن يَنظُرَ إلى مَولاتِه كالمحارِمِ، وهو مَذهَبُ مالِكٍ والشَّافعيِّ...، وقال آخَرونَ: المرادُ: الإماءُ دونَ العَبيدِ، فيكونُ العَبدُ حُكمُه حُكمُ الأجنبيِّ معها، وهو مَذهَبُ أبي حنيفةَ وأحمدَ، مع اتِّفاقِهما على جوازِ رُؤيتِه إليها، فأبو حنيفةَ يُجَوِّزُ رؤيتَه إلى وَجهِها وكَفَّيها، وأحمدُ يُجوِّزُ رؤيتَه إلى ما يجوزُ للمَحرَمِ النَّظَرُ إليه منها كما تقدَّمَ؛ قال أحمدُ: ولا يَلزَمُ مِنَ النَّظَرِ المَحْرَميَّةُ، فلا يُباحُ لها الحَجُّ ولا السَّفَرُ معه). ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٢٩). يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (١٠/ ٣٧)، ((الذخيرة)) للقرافي (١٣/ ٣١٦)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٣/ ١٣٠)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٨/ ١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ يدُلُّ على أنَّ لها أن تبديَ الزينةَ الباطنةَ لِمَملوكها. وفيه قولان؛ قيل: المرادُ الإماءُ والإماءُ الكتابيَّاتُ، كما قاله ابنُ المسيِّبِ، ورجَّحه أحمدُ وغيرُه، وقيل: هو المملوكُ الرجُلُ، كما قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه، وهو الروايةُ الأخرى عن أحمدَ؛ فهذا يقتضي جوازَ نظَرِ العبدِ إلى مَولاتِه، وقد جاءت بذلك أحاديثُ، وهذا لأجلِ الحاجةِ؛ لأنَّها محتاجةٌ إلى مخاطَبةِ عبدِها أكثرَ مِن حاجتِها إلى رؤيةِ الشاهدِ والمعامِلِ والخاطِبِ، فإذا جاز نظَرُ أولئك، فنظَرُ العبدِ أولى). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ١١١).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ قال ابنُ جُرَيجٍ: يعني: مِن نساءِ المشركين، فيجوزُ لها أن تُظهِرَ زينتَها لها وإن كانت مشركةً؛ لأنها أمَتُها، وإليه ذهب سعيدُ بنُ المسيِّبِ. وقال الأكثرونَ: بل يجوزُ لها أن تظهَرَ على رقيقِها مِن الرجالِ والنساءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠٦)، والبيهقي (١٣٩٢٩)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١٧١٢).=

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾.

أي: أو الذين يَتْبَعونكم من الرجال ممَّن لا شَهوةَ لهم في النِّساءِ[1].

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: أو الأطفالِ الذين لم يطَّلِعوا على عَوْراتِ النِّساءِ، ولم يَعرِفوا أحوالهنَّ، ولا يشتهونَهنَّ؛ لصِغَرِهم[2].

= صحَّحه ابن القطان في ((أحكام النظر)) (١٩٦). وقال الضياء المقدسي في ((الأحاديث المختارة)) (٥/ ١٠٧): لا أعلم بإسناده بأسًا. وجوَّد إسنادَه الذهبي في ((المهذب)) (٥/ ٢٦٧١)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٧/ ٥١٠). وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال القرطبي: (واختلف النَّاسُ في معنى قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾؛ فقيل: هو الأحمقُ الذي لا حاجةَ به إلى النساءِ. وقيل: الأبلَهُ. وقيل: الرجلُ يَتْبَعُ القومَ فيأكلُ معهم، ويرتفِقُ بهم، وهو ضعيفٌ لا يَكترثُ للنساءِ ولا يشتهيهنَّ. وقيل: العِنِّينُ. وقيل: الخَصِيُّ. وقيل: المخنَّثُ. وقيل: الشيخُ الكبيرُ، والصبيُّ الذي لم يُدرِكْ. وهذا الاختلافُ كُلُّه متقاربُ المعنى، ويجتمِعُ فيمَن لا فَهْمَ له، ولا هِمَّةَ ينتبهُ بها إلى أمرِ النِّساءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال القرطبي: (الطِّفلُ يُطلقُ مِن وقتِ انفِصالِ الولدِ إلى البُلوغِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢).

وقال الماوَردي: وفي معنى قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ثلاثةُ أوجُهٍ: الأوَّلُ: لعَدَمِ شَهوتِهم. والثَّاني: لم يَعرِفوا عَوْراتِ النِّساءِ لعَدَمِ تَميِيزِهم. والثَّالِثُ: لم يُطيقوا جِماعَ النِّساءِ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٩٦).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّهم لم يَفهَموا أحوالَ النِّساءِ وعَوراتِهنَّ، ولم يَعرِفوها: ابنُ قُتَيبةَ، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

= (١٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٩).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: لصِغَرِهم لا يفهَمونَ أحوالَ النساءِ وعوراتِهنَّ؛ مِن كلامِهنَّ الرخيم، وتعطُّفِهنَّ في المِشيةِ وحَركاتِهنَّ، فإذا كان الطفلُ صغيرًا لا يفهَمُ ذلك، فلا بأسَ بدُخولِه على النساءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

وقال ابنُ عثيمين: (والمعنى: أنَّهم لا يَعرِفونَ ما يتعلَّقُ بالعَوْراتِ، فقَولُه: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ أي: لم يطَّلِعوا بحيث لا يَدرونَ ماذا يُصنَعُ بالعَوْراتِ، ولا هي لهم على بالٍ؛ فهؤلاء الأطفالُ يجوزُ أن تُبدَى لهم الزِّينةُ، هذا المرادُ، ليس المرادُ الاطِّلاعَ بالعَينِ؛ لأنَّ الاطِّلاعَ بالعَينِ هذا يكونُ في الأطفالِ وغَيرِهم، لكِنِ المرادُ أنَّهم لا يَدرونَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٨٢).

ومِمَّن اختار أنَّ المرادَ عدمُ الشهوةِ: السمرقنديُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

وممَّن جمع بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ، فقال: ليس لهم عِلمٌ بذلك، ولا وُجِدت فيهم الشَّهوةُ بعدُ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

وقيل: المعنى: لم يَطَّلِعوا على عوراتِ النِّساءِ ويَكْشِفوا عنها لِلجِماعِ. ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، والخازن، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٢).

وقيل: المعنى: لم يَبلغوا أن يُطيقُوا النِّساءَ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والنحاس، والهروي، والسمعاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥٢٦)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٢١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٣).

قال الشنقيطي: (العورةُ ما يسوؤُك أن يُطَّلَعَ عليه ... والمرادُ هنا ما تسترُه المرأةُ مِن المحاسنِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٠٦).

وقال القرطبي: (أجْمَع المسلمونَ على أنَّ السَّوأتينِ عَوْرَةٌ مِن الرَّجلِ والمرأةِ، وأنَّ المرأةَ كُلَّها عورَةٌ، إلَّا وَجْهَها ويَدَيْها؛ فإنَّهم اختَلفوا فيهما). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩).

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

أي: ولا تَضرِبِ النِّساءُ بأرجُلِهنَّ الأرضَ، أو بإحدى الرِّجلَينِ على الأخرى؛ ليَظهَرَ صَوتُ ما خَفِيَ مِن حُليِهنَّ، كأن تقرعَ الخَلخالَ بالخَلخالِ، فيسمَعَ النَّاسُ صَوتَ الخلاخِلِ المستورةِ مِن وراءِ الثِّيابِ[(١)].

﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمر تعالى بهذه الأوامِرِ الحَسَنةِ، ووصَّى بالوصايا المُستحسَنةِ، وكان لا بُدَّ مِن وقوعِ تَقصيرٍ من المؤمِنِ بذلك- أمرَ اللهُ تعالى بالتوبةِ، فقال[(٢)]:

﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: وتُوبوا -أيُّها المؤمِنونَ والمؤمِناتُ- بإخلاصٍ للهِ، وارْجِعوا إلى طاعتِه سبحانه فيما أمرَكم به، ونهاكم عنه، ومِن ذلك غَضُّ البصَرِ، وحِفظُ الفَرْجِ، وتركُ النساءِ إظهارَ ما خفِي مِن زينتهنَّ لغيرِ مَنِ استثناهُ اللهُ؛ توبوا إلى الله؛ لتفوزوا في دُنياكم وآخِرتِكم[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

قال الزجاج: (كانت المرأةُ ربَّما اجتازت وفي رِجلِها الخَلخالُ، وربما كان فيها الخلاخِلُ، فإذا ضرَبت برِجلِها عُلِمَ أنَّها ذاتُ خَلخالٍ وزينةٍ، وهذا يحَرِّكُ مِن الشهوةِ، فنهيَ عنه، كما أُمِرنَ ألَّا يُبدينَ؛ لأنَّ استماعَ صوتِه بمنزلة إبدائِه). ((معاني القرآن)) (٤/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

وعن الأَغَرِّ المُزَنيِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا أيُّها النَّاسُ، توبوا إلى الله؛ فإنِّي أتوبُ في اليَومِ إليه مئةَ مَرَّةٍ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((واللهِ، إنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليومِ أكثَرَ مِن سبعينَ مَرَّةً))(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ في هذا الأمرِ بالغَضِّ أدَبٌ شَرعيٌّ عظيمٌ في مُباعَدةِ النَّفْسِ عن التطَلُّعِ إلى ما عسى أن يُوقِعَها في الحرامِ، أو ما عسى أن يكَلِّفَها صبرًا شديدًا عليه(٣). فليحذرِ العاقلُ إطلاقَ البصرِ؛ فإنَّ العينَ ترَى غيرَ المقدورِ عليه، على غيرِ ما هو عليه، وربَّما وقَع مِن ذلك العشقُ فيهلِك البدنُ والدِّينُ، فمَن ابتُلِي بشيءٍ منه فليتفكَّرْ في عيوبِ النِّساءِ(٤).

٢- قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ وإنَّما بصَرُك نِعمةٌ مِنَ اللهِ عليك، فلا تَعْصِه بنِعَمِه، وعامِلْه بغَضِّه عن الحرامِ تَربَحْ، واحذَرْ أن تكونَ العقوبةُ سَلْبَ تلك النِّعمةِ(٥).

٣- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((الفروع)) لابن مفلح (٨/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣).

ﵟذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَﵞ في غَضِّ البصَرِ عِدَّةُ مَنافِعَ:

أحدها: أنَّه امتِثالٌ لأمرِ اللهِ، الذي هو غايةُ سَعادةِ العَبدِ في معاشِه ومَعادِه.

الثانية: أنَّه يمنَعُ مِن وصولِ أثَرِ السَّهمِ المسمومِ -الذي لعلَّ فيه هلاكَه- إلى قَلبِه.

الثالثة: أنَّه يورِثُ القلبَ أُنسًا بالله، وجمعيَّةً عليه.

الرابعة: أنَّه يقوِّي القلبَ ويُفرِحُه.

الخامسة: أنَّه يُكسِبُ القَلبَ نُورًا، كما أنَّ إطلاقَه يُلبِسُه ظُلمةً؛ ولهذا ذكَرَ الله سُبحانَه آيةَ النورِ عَقِيبَ الأمرِ بغَضِّ البصَرِ، فقال: ﵟقُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡﵞ [النور: ٣٠] ثمَّ قال إثرَ ذلك: ﵟٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖﵞ [النور: ٣٥]، أي: مَثَلُ نورِه في قَلبِ عَبدِه المؤمِنِ الذي امتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهيَه.

السادسة: أنَّه يُورِثُ العبدَ فِراسةً صادِقةً يميِّزُ بها بين الحَقِّ والباطِلِ، والصَّادِقِ والكاذِبِ، فمَن ترَكَ لله شيئًا عوَّضَه اللهُ خيرًا منه، فإذا غَضَّ بصَرَه عن محارِمِ الله، عوَّضَه اللهُ بأن يُطلِقَ نورَ بصيرتِه؛ عِوَضًا عن حَبسِ بَصَرِه لله، ويفتَحَ عليه بابَ العِلمِ والإيمانِ، والمعرفةِ والفِراسةِ الصَّادقةِ المُصيبةِ التي إنَّما تُنالُ ببَصيرةٍ.

السابعة: أنَّه يورِثُ القَلبَ ثَباتًا وشجاعةً وقُوَّةً، فجمَع الله له بيْنَ سُلطانِ النُّصرةِ والحُجَّة، وسُلطانِ القُدرةِ والقُوَّة.

الثامنة: أنَّه يَسُدُّ على الشَّيطانِ مَدخَلَه مِن القلبِ؛ فإنَّه يدخُلُ مع النَّظرةِ، ويَنفُذُ معها إلى القَلبِ أسرَعَ مِن نفوذِ الهواءِ في المكانِ الخالي، فيُمثِّلُ له صورةَ المنظورِ إليه ويزَيِّنُها، ويجعَلُها صنَمًا يَعكُفُ عليه القَلبُ، ثمَّ يَعِدُه ويُمَنِّيه، ويوقِدُ

على القَلبِ نارَ الشَّهوةِ، ويُلقي عليها حطَبَ المعاصي التي لم يكُنْ يتوصَّلُ إليها بدونِ تلك الصُّورةِ؛ فيصيرُ القَلبُ في اللَّهبِ!

التاسعة: أنَّه يُفَرِّغُ القلبَ للفِكرةِ في مصالحِه، والاشتِغالِ بها.

العاشرة: أنَّ بيْنَ العَينِ والقَلبِ مَنفذًا وطريقًا يوجِبُ انتقالَ أحَدِهما عن الآخَرِ، وأن يَصلُحَ بصلاحِه، ويَفسُد بفسادِه، فإذا فسَد القَلبُ فسَدَ النَّظرُ، وإذا فسَدَ النظَرُ فسدَ القَلبُ، وكذلك في جانبِ الصَّلاحِ، فإذا خَرِبَت العَينُ وفَسَدت خَرِب القَلبُ وفَسَد، وصار كالمَزبَلةِ التي هي محَلُّ النَّجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ، فلا يَصلُحُ لسُكنى معرفةِ اللهِ ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه، والأُنسِ به، والسُّرورِ بقُربِه فيه، وإنَّما يسكُنُ فيه أضدادُ ذلك.

فهذه إشارةٌ إلى بَعضِ فوائِدِ غَضِّ البصَرِ، تُطلِعُك على ما وراءَها[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أطهَرُ وأطيَبُ، وأنمَى لأعمالِهم؛ فإنَّ مَن حَفِظَ فَرْجَه وبصَرَه، طهُرَ من الخُبثِ الذي يتدنَّسُ به أهلُ الفواحشِ، وزكَت أعمالُه بسبب ترْكِ المحرَّمِ الذي تَطمَحُ إليه النفْسُ، وتدعو إليه؛ فمَن ترك شيئًا لله عوَّضَه الله خيرًا منه، ومَن غَضَّ بصَرَه عن المحَرَّمِ أنار اللهُ بصيرتَه، ولأنَّ العبدَ إذا حَفِظ فَرجَه وبصرَه عن الحرامِ ومقَدِّماتِه معَ داعي الشهوةِ، كان حِفظُه لغيرِه أبلَغَ؛ ولهذا سمَّاه الله حِفظًا، فالشيءُ المحفوظُ إن لم يَجتهِدْ حافظُه في مراقبتِه وحِفظِه، وعملِ الأسبابِ الموجبةِ لحفظِه؛ لم ينحفِظْ، كذلك البصرُ والفرجُ: إن لم يجتهِدِ العبدُ في حفظِهما، أوقعاه في بلايا ومِحَنٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨-١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ هذا يقتضي النَّهيَ عن كُلِّ ما مِن شأنِه أن يُذَكِّرَ الرجُلَ بلَهوِ النِّساءِ، ويُثيرَ منه إليهنَّ مِن كُلِّ ما يُرى أو يُسمَعُ، من زينةٍ أو حركةٍ؛ كالتثَنِّي، والغناءِ، وكلامِ الغزَلِ، ومِن ذلك رقصُ النِّساءِ في مجالسِ الرِّجالِ، ومِن ذلك التلَطُّخُ بالطِّيبِ الذي يغلِبُ عَبيقُه[١]، وقد أومأ إلى عِلَّةِ ذلك قولُه تعالى: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ فيه الحثُّ على الإخلاصِ بالتَّوبةِ لا لمقصَدٍ غيرِ وجهِه؛ مِن سلامةٍ مِن آفاتِ الدُّنيا، أو رياءٍ وسُمعةٍ، أو نحوِ ذلك مِن المقاصِدِ الفاسِدةِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ علَّق سُبحانَه وتعالى على التَّوبةِ الفلاحَ، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فلا سبيلَ إلى الفلاحِ إلَّا بالتوبةِ، وهي الرجوعُ مِمَّا يَكرَهُه اللهُ، ظاهِرًا وباطنًا، إلى ما يُحِبُّه ظاهِرًا وباطِنًا، ودلَّ هذا أنَّ كُلَّ مؤمنٍ محتاجٌ إلى التوبةِ؛ لأنَّ الله خاطَبَ المؤمنينَ جميعًا[٤].

٨- أُعقِبَتِ الأوامرُ والنَّواهي المُوجَّهةُ إلى المؤمنينَ والمُؤمناتِ بأمرِ جميعِهم بالتَّوبةِ إلى اللهِ؛ إيماءً إلى أنَّ فيما أُمِروا به ونُهُوا عنه دِفاعًا لداعٍ تَدْعو إليه الجِبِلَّةُ البشريَّةُ مِن الاستحسانِ والشَّهوةِ، فيَصدُرُ ذلك عن الإنسانِ عن غفلةٍ، ثمَّ يتغلغَلُ هو فيه، فأُمِروا بالتَّوبةِ؛ ليُحاسِبوا أنفُسَهم على ما يفلِتُ منهم

(١) عَبيقُه: أي: رائحتُه الطيِّبةُ الذكيَّةُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٣، ٢١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن ذلك اللَّممِ المُؤدِّي إلى ما هو أعظَمُ[١]، فأوامرُ اللهِ ونَواهيه في كلِّ بابٍ لا يَكادُ العبْدُ الضَّعيفُ يقدِرُ على مُراعاتِها وإنْ ضبَطَ نفْسَه واجتهَدَ، ولا يَخْلو مِن تَقصيرٍ يقَعُ منه؛ فلذلك وصَّى المؤمنينَ جميعًا بالتَّوبةِ والاستغفارِ، وبتأْميلِ الفلاحِ إذا تابوا واستَغْفروا[٢].

٩- قولُه تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ هي مِن أسبابِ الفَلاحِ[٣]، فقد خاطَبَ اللهُ بهذه الآيةُ أهلَ الإيمانِ وخِيارَ خَلقِه أن يَتوبوا إليه، بعد إيمانِهم وصَبرِهم، وهِجرتِهم وجِهادِهم، ثمَّ علَّق الفَلاحَ بالتَّوبةِ تعليقَ المُسَبَّبِ بسَبَبِه، وأتى بأداةِ لعلَّ المُشعِرةِ بالترجِّي؛ إيذانًا بأنَّكم إذا تُبتُم كنتُم على رجاءِ الفلاحِ، فلا يرجو الفَلاحَ إلَّا التَّائِبونَ. جعَلَنا اللهُ منهم[٤].

١٠- قال تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ في قَولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ واجِبةٌ على جَميعِ المكلَّفينَ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- البصَرُ هو البابُ الأكبَرُ إلى القلبِ، وأعمَرُ طُرُقِ الحواسِّ إليه، وبحسَبِ ذلك كثُرَ السقوطُ مِن جهتِه، ووجَب التحذيرُ منه، وغضُّه واجبٌ عن جميعِ المحرَّماتِ، وكُلِّ ما يُخشى الفتنةُ مِن أجْلِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣). =

٢- الإصرارُ على النَّظرِ إلى الحرام يُصيِّرُه كبيرةً، وقد يكونُ الإصرارُ على ذلك أعظَمَ مِن قليلِ الفواحِشِ؛ فإنَّ دوامَ النظَرِ بالشَّهوةِ وما يتَّصِلُ به من العِشقِ والمعاشرةِ والمباشرةِ قد يكون أعظَمَ بكثيرٍ مِن فَسادِ زِنًا لا إصرارَ عليه؛ ولهذا قال الفُقَهاءُ في الشَّاهِدِ العَدلِ: (ألَّا يأتيَ كبيرةً، ولا يُصِرَّ على صغيرةٍ). بل قد ينتهي النظرُ بالرَّجُلِ إلى الشِّركِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ ولهذا لا يكونُ عِشقُ الصُّوَرِ إلَّا مِن ضَعفِ محبَّةِ اللهِ، وضَعفِ الإيمانِ، واللهُ تعالى إنَّما ذكرَه في القرآنِ عن امرأةِ العزيزِ المُشرِكةِ، وعن قَومِ لُوطٍ المُشرِكين، والعاشِقُ المتَيَّمُ يَصيرُ عبدًا لِمَعشوقِه، منقادًا له، أسيرَ القَلبِ له[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ عبَّرَ بالوصفِ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّه لا يعِفُّ فيه إلَّا مَن رسَخ الإيمانُ في قلبِه؛ لخفاءِ الخيانةِ حينَئذٍ، بخلافِ ما سبَق في المنعِ مِن الدخولِ؛ حيثُ كان التعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ سؤالٌ: وهو ما عُرِفَ مِن أنَّ القاعدةَ في الفِعلِ المضارعِ المجزومِ في جَوابِ الطَّلبِ أن يكونَ جزْمُه بشَرطٍ مُقَدَّرٍ دلَّ عليه فِعْلُ الطَّلبِ، وقولُه: ﴿يَغُضُّواْ﴾ مِن هذا القَبيلِ، فالمعنى: «إنْ تَقُلْ: غُضُّوا، يَغُضُّوا»، ويُشْكِلُ على هذا أنَّه رَبَطَ الشَّرطَ بالجزاءِ،

= قال ابنُ القطَّان: (كلُّ ما قُلنا: إنَّه لا يجوزُ أن يَنظُرَ إليه الرجُلُ أو غيرُه؛ مِن عَورةٍ أو شخصٍ، فإنَّه لا يجوزُ أن يَنظُرَ إلى المُنطَبِع منه في مرآةٍ أو ماءٍ أو جِسمٍ صَقيلٍ؛ لأنَّه في الحَقيقةِ قد نظرَ إلى ذلك الشَّيءِ بعَينِه). ((إحكام النظر)) (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٣، ٢٥٤).

والرَّبطُ يقتضي عدَمَ التخَلُّفِ بمجَرَّدِ القَولِ، مع أنَّ المشاهَدَ تَخَلُّفُ الغَضِّ مِن كثيرٍ مِن النَّاسِ، فكيف يَصِحُّ الرَّبطُ مع هذا؟

الجوابُ: ما أشارتْ إليه الآيةُ، وهو العَنْونةُ بالمؤمنينَ في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ فإنَّ الإيمانَ إذا أُطلِقَ فالمرادُ به الإيمانُ الكامِلُ، أي: «قُلْ للمُؤمِنينَ -الذين كَمُلَ إيمانُهم- هذا القَولَ، يَستجيبوا»، ولا يَرِدُ على هذا أنَّ غيرَ الكاملِ الإيمانِ يَدخُلُ في هذا؛ لأنَّ اللهَ تعالى كثيرًا ما يَخُصُّ المنتَفِعَ مع أنَّه يعني غيرَه معه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، مع أنَّ الذين يُنذَرون ويُذَكَّرون هم جميعُ النَّاسِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف دخَلَت (مِن) في غَضِّ البصَرِ دونَ حِفظِ الفَرجِ؟

الجوابُ من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنه لَمَّا كان تحريمُ النظرِ تحريمَ الوسائلِ -فيُباحُ للمصلحةِ الراجحةِ؛ ويَحْرُمُ إذا خِيفَ منه الفسادُ؛ ولم يُعارِضْه مصلحةٌ أرجحُ مِن تلك المفسدةِ- لم يأمُرْ سُبحانَه بغَضِّهِ مطلقًا؛ بل أمَر بالغَضِّ منه، وأمَّا حِفْظُ الفَرْجِ فواجبٌ بكل حالٍ -لا يُباحُ إلَّا بِحَقِّهِ-؛ فلذلك عَمَّ الأمرَ بحِفْظِه[٢].

الوجه الثاني: أنَّه لَمَّا كان الغَضُّ التامُّ لا يمكِنُ، جيءَ في الآيةِ بحَرفِ (مِن) الذي هو للتَّبعيضِ إيماءً إلى ذلك؛ إذ مِن المفهومِ أنَّ المأمورَ بالغَضِّ فيه هو ما

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٩٢).

لا يَليقُ تَحديقُ النظَرِ إليه، وذلك يتذكَّرُه المسلِمُ مِن استحضارِه أحكامَ الحَلالِ والحرامِ في هذا الشَّأنِ، فيَعلَمُ أنَّ غضَّ البصَرِ مراتِبُ: منه واجِبٌ، ومنه دونَ ذلك، فيشمَلُ غَضَّ البصَرِ عما اعتاد النَّاسُ كراهيةَ التحَقُّقِ فيه، كالنظَرِ إلى خبايا المنازِلِ، بخلافِ ما ليس كذلك[1].

الوجه الثالث: أن فائدةَ ذِكرِ (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ في غضِّ البصرِ دونَ حِفْظِ الفرْجِ: الدَّلالةُ على أنَّ حُكْمَ النَّظرِ أخفُّ مِن حُكْمِ الفرْجِ؛ إذْ يَحِلُّ النَّظرُ إلى بعضِ أعضاءِ المحارمِ، ولا يَحِلُّ شَيءٌ مِن فُروجِهنَّ[2].

الوجه الرابع: أنه لمَّا كان المُسْتثنى مِن حفظِ الفرجِ كالشَّاذِّ النَّادرِ -بخلافِ الغضِّ- أطلَقَه، وقيَّدَ الغضَّ بحرْفِ التَّبعيضِ[3].

الوجه الخامس: أنَّ قَولَه ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي: يَنقُصوا مِن نظَرِهم، فالبصَرُ إذا لم يُمكَّنْ مَن عَمَلِه فهو مغضوضٌ ممنوعٌ عنه، وعلى هذا (مِن) ليست بزائدةٍ، ولا هي للتَّبعيضِ، بل هي من صِلةِ الغَضِّ، يقال: غَضَضتُ مِن فلانٍ: إذا نَقَصْتَ مِن قَدْرِه[4].

٦- سَترُ العورةِ عن أعيُنِ النَّاظرين بما لا يصِفُ البشَرةَ واجِبٌ في الجملةِ، في الصَّلاةِ وخارجَ الصلاةِ؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾، وحِفظُ الفَرجِ يعُمُّ حِفظَه مِن مَسِّ مَن لا يحِلُّ له مسُّه بجِماعٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٠، ٣٦١).

وغيرِ جماعٍ، ومِن النظرِ إليه[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بدأ سبحانَه بالغَضِّ في الموضِعَينِ قَبلَ حِفظِ الفَرجِ، لأنَّ النَّظَرَ وَسيلةٌ إلى عدَمِ حِفظِ الفَرجِ، والوسيلةُ مُقَدَّمةٌ على المتوَسَّلِ إليه[٢]. فعدمُ غَضِّ البصرِ سببٌ لعدمِ حِفْظِ الفَرجِ، والإنسانُ إذا أطلقَ بصرَه تَعَلَّقَ قلبُه بالنِّساءِ، ثم لا يزالُ به النظرُ حتى يدنوَ مِن المرأةِ ويُكَلِّمَها ويخاطِبَها، ثمَّ يَعِدَها، ثمَّ تحصُلَ الفاحشةُ[٣]؛ فغَضُّ البصرِ لَمَّا كان أصلًا لحِفْظِ الفَرْجِ بدأ بذِكْرِه[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المرأةَ يحرمُ عليها النَّظرُ إلى الرَّجلِ كحُرمةِ نظرِه إليها[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فيه أنَّ المرأةَ يجِبُ عليها سَترُ عورتِها[٦].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ كرَّرَ تعالى النَّهيَ عن إبداءِ الزِّينةِ؛ نظرًا لتنوُّعِ الاستِثناءِ، فالنَّهيُ

---

(١) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيميَّة (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٩٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

وتقدَّم الخلافُ في المسألة إذا لم يكُنِ النظرُ بشَهوةٍ أو مع خَوفِ الفِتنةِ (ص: ٢٠١) وما بعدها.

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢).

الأوَّلُ استثنى منه بعضَ الزِّينةِ التي يجوزُ للمَنظورِ أنْ يُبديَها، والأمرُ الثاني استثنَى منه بعضَ الأشخاصِ الذين يجوزُ لهم النظَرُ(١).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فيه إباحةُ النَّظَرِ للمَحارمِ(٢).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ...﴾ فمَنِ اتَّصَف بذلك دخَل في هذه الآيةِ، ودلَّت الآيةُ على أنَّ الأعمالَ بالنيَّاتِ، ويؤخَذُ مِن مَفهومِ مُخالفتِها أنَّ مَن ذَكَرَ اللهُ مِن المحارمِ إذا حَدَثَ مِن بعضِهم النظَرُ إلى مَن حُرِّمَتْ عليه بشَهوةٍ؛ أنَّه لا يجوزُ له أنْ يَنظُرَ إليها، وكذا المرأةُ إذا بَلَغَ فيها الفَسادُ إلى أنْ تتعاطى السِّحاقَ لو نظرتْ إلى امرأةٍ أخرى بشَهوةٍ؛ فلا يجوزُ لها النظَرُ إليها(٣).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كأنَّه اختير لفظُ (الضَّربِ)؛ إشارةً إلى قُوَّةِ القصدِ للسَّترِ، وإشارةً إلى العفوِ عمَّا قد يبدو عند تحَرُّكِ الخمارِ عند مزاولةِ شَيءٍ مِن العملِ(٤).

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وقال سُبحانه: ﴿وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٠).

﴿يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فنهى الله تعالى في هاتَينِ الآيتَينِ عمَّا يُوجِبُ العِلمَ بالزِّينةِ الخَفِيَّةِ بالسَّمعِ أو غيرِه[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فيه دليلٌ على وجوبِ سَترِ الصَّدرِ والنَّحرِ والعُنُقِ، وأنَّ ذلك منها عورةٌ[٢]، لا يجوزُ للأجنبيِّ النَّظرُ إلى ذلك منها[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ المرأةَ إذا مَلَكت زوجَها حَرُمت عليه، وانفسخَ نكاحُها[٤]؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ مِلْكَ يمينِ المرأةِ في عِدَادِ محارِمِها، والمَحْرَمُ لا يَصلُحُ أنْ يكونَ زوجًا بحالٍ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه إذا عُرِفَ مِن الطِّفلِ أنَّه ينظُرُ إلى المرأةِ نَظَرَ شَهوةٍ -ولو لم يكن له إلَّا عشرُ سنواتٍ- فإنَّه يجبُ عليها أنْ تحتَجِبَ عنه؛ لأنَّ نظَرَ الطِّفلِ للمرأةِ ليس مقيَّدًا بالبلوغِ، بل هو مقيَّدٌ بما إذا عُرِف من الطِّفلِ أنَّه ينظُرُ إلى المرأةِ نظَرَ شَهوةٍ[٦]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

١٨- لم يَذكُرِ اللهُ الأعمامَ والأخوالَ في عِدادِ المُستثنَياتِ؛ وذلك لعدَّةِ أوجُهٍ:

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ١٧٤).

(٤) حكى الإجماعَ على ذلك: ابنُ المنذر، وابنُ حزم، وابنُ قدامة. يُنظر: ((الإقناع)) لابن المنذر (١/ ٣١٠)، ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٦٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٧/ ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٣).

(٦) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٤٣٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

الأوَّلُ: أنَّ سُكوتَ الآيةِ عن العَمِّ والخالِ ليس لمخالفةِ حُكمِهما حُكمَ بقيَّةِ المحارِمِ، ولكِنَّه اقتِصارٌ على الذين تكثُرُ مزاولتُهم بيتَ المرأةِ؛ فالتَّعدادُ جرَى على الغالِبِ[1].

الثَّاني: أنَّه لم يذكُرِ العَمَّ والخالَ؛ لأنَّهما يجريانِ مجرى الوالِدَينِ، وقد جاء تسميةُ العَمِّ أبًا في قَولِه تعالى: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾[2] [البقرة: ١٣٣].

الثَّالِثُ: أنَّه لم يذكُرْهما لِفَهمِهما مِن بني الإخوانِ وبني الأخَواتِ[3]؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ بني الأخِ للعمَّاتِ محارِمُ، عَلِمَ أنَّ بناتِ الأخِ للأعمامِ محارِمُ، وكذلك الحالُ في أمرِ الخالِ[4]، فإذا لم يحتجِبْنَ عمَّن هنَّ عمَّاتُه ولا خالاتُه مِن أبناءِ الإخوةِ والأخَواتِ، مع رفعتِهنَّ عليهم، فعدمُ احتجابهنَّ عن عَمِّهنَّ وخالِهنَّ مِن بابِ أَولَى[5].

الرَّابِعُ: أنَّه تَرَكَ ذِكرَهما كما تَرَكَ ذِكْرَ مَحرَمِ الرَّضاعِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

قال الشنقيطي: (وقال بعضُهم: إنَّ في الآيةِ ما يُشيرُ إليه، فلو سُمِّيَ لكان فيه شِبهُ تَكرارٍ؛ فقد ذَكَرَ أنَّ ابنَ أخي المرأةِ وابنَ أُختِها مِن محارِمِها، وهي عَمَّةُ أحدِهما وخالةُ الآخَرِ، فيُؤخَذُ منه أنَّ العَمَّ والخالَ مَحْرَمانِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٠١).

(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨).

وقيل أيضًا: لأنَّ الأعمامَ ربَّما يذكُرونَ بناتِ الأخِ عند أبنائِهم، وهم غيرُ محارِمَ، وكذلك الحالُ في الخالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠). =

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ نبَّه به على أنَّ الذي لأجْلِه نُهيَ عنه: أنْ يُعلَمَ زينتُهنَّ مِن الحَلْيِ وغيرِه، فلمَّا نهَى عن استماعِ الصَّوتِ الدَّالِّ على وجودِ الزِّينةِ، فلَأنْ يدُلَّ على المنعِ مِن إظهارِ الزينةِ أَولى[1].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فيه أنَّ المرأةَ مَنهيَّةٌ عن رَفعِ صَوتِها بالكلامِ، بحيث يَسمَعُ ذلك الأجانِبُ؛ إذ كان صوتُها أقرَبَ إلى الفتنةِ مِن صوتِ خَلخالِها؛ ولذلك كَرِهوا أذانَ النِّساءِ؛ لأنَّه يُحتاجُ فيه إلى رفعِ الصَّوتِ، والمرأةُ مَنهيَّةٌ عن ذلك[2].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ تَغطيةَ المرأةِ وَجْهَها واجِبٌ؛ لأنَّه إذا كانت المرأةُ مَنهيَّةً عن الضَّربِ بالأرجُلِ خَوفًا مِن افتِتانِ الرَّجُلِ بما يَسمَعُ مِن صَوتِ خَلخالِها ونَحوِه، فكيف

= قال ابنُ عثيمين بعد أن ذكَرَ هذا الوَجْهَ: (فلمَّا كان يُخشى أنَّ العَمَّ والخالَ يَصِفُ [أحَدُهما] المرأةَ لابنِه، لم يُذكَرا؛ للتحَرُّزِ لا لمخالفةِ الحُكمِ، وهذا التَّعليلُ له بعضُ الوجهِ، والله أعلمُ بما أراد... ولا شَكَّ أنَّ قوَّةَ المَحْرَميَّةِ في العَمِّ والخالِ أضعَفُ مِن قوَّتِها فيمَن عداهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥١).

قال الشوكاني: (وقال الزَّجَّاجُ: العَمُّ والخالُ ربَّما يَصِفانِ المرأةَ لولَدَيهما؛ فإنَّ المرأةَ تحِلُّ لابنِ العَمِّ وابنِ الخالِ، فكُرِه لهما الرؤيةُ، وهذا ضعيفٌ جِدًّا؛ فإنَّ تجويزَ وَصفِ المرأةِ لِمن تحِلُّ له ممكِنٌ مِن غيرِهما ممَّن يجوزُ له النظَرُ إليها، لا سيَّما أبناءُ الإخوةِ وأبناءُ الأخواتِ، واللازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا يستلزِمُ ألَّا يجوزَ للنِّساءِ الأجنبيَّاتِ أن ينظُرْنَ إليها؛ لأنَّهنَّ يَصِفْنها، واللازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا لا وَجهَ لِما قاله الشعبي وعِكرمةُ مِن أنَّه يُكرهُ للمرأةِ أن تضعَ خِمارَها عند عَمِّها أو خالِها. والأَولى أن يقالَ: إنَّه سبحانه اقتصَرَ هاهنا على بعضِ ما ذكَرَه مِن المحارِمِ في سورةِ النورِ؛ اكتفاءً بما تقدَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بكَشفِ الوَجهِ؟! فأيُّما أعظَمُ فِتنةً: أن يَسمَعَ الرَّجُلُ خَلخالًا بقَدَمِ امرأةٍ لا يدري ما هي وما جمالُها، أو أن يَنظُرَ إلى وَجهٍ سافِرٍ جَميلٍ مُمتَلِئٍ شَبابًا ونَضارةً وحُسنًا وجَمالًا وتَجميلًا بما يجلِبُ الفِتنةَ، ويدعو إلى النَّظَرِ[(١)]؟!

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ يُؤخَذُ منه قاعدةُ سَدِّ الوسائِلِ، وأنَّ الأمرَ إذا كان مُباحًا، ولكِنَّه يُفضي إلى محَرَّمٍ، أو يُخافُ مِن وقوعِه؛ فإنَّه يُمنَعُ منه؛ فالضَّربُ بالرِّجلِ في الأرضِ الأصلُ أنَّه مباحٌ، ولكِنْ لَمَّا كان وسيلةً لِعِلمِ الزِّينةِ، مُنِع منه[(٢)]. فالآيةُ فيها دليلٌ على أنَّ المرأةَ منهيَّةٌ عن إبرازِ كلِّ ما دعا إلى الشهوةِ، وإنْ كان مُباحًا لُبسُه لها[(٣)].

٢٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قَولُه: ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللِّباسَ سَتَرَ هذه الخَلاخيلَ[(٤)]. والآيةُ نَصٌّ على أنَّ الرِّجلَينِ والسَّاقَينِ مِمَّا يُخفى ولا يَحِلُّ إبداؤُه[(٥)]، وإلَّا لاستطاعَت إحداهُنَّ أن تُبدِيَ ما تُخفِي مِنَ الزِّينةِ «وهي الخلاخيلُ»، ولاستغنَت بذلك عن الضَّربِ بالرِّجْلِ[(٦)].

٢٤- كانت المرأةُ في الجاهليَّةِ إذا كانت تمشي في الطريقِ وفي رِجلِها خَلخالٌ صامِتٌ -لا يُسمَعُ صَوتُه- ضَرَبت برِجلِها الأرضَ، فيَعلَمُ الرِّجالُ طَنينَه، فنهى اللهُ المؤمِناتِ عن مِثلِ ذلك. وكذلك إذا كان شيءٌ مِن زينتِها

---

(١) يُنظر: ((رسالة الحجاب)) لابن عثيمين (ص: ٩، ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٢/ ٢٤٧).

(٦) يُنظر: ((جلباب المرأة المسلمة)) للألباني (ص: ٨٠).

مستورًا، فتحرَّكت بحركةٍ لِتُظهِرَ ما هو خفيٌّ، دخَل في هذا النَّهيِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[1]، ومِن ذلك الكَعبُ العالي الذي تَلبَسُه بعضُ النِّساءِ فيُسمَعُ له صوتٌ إذا مَشَينَ، يلفتُ أنظارَ الرِّجالِ.

٢٥- يُؤخذُ مِن مَفهومِ المُوافَقةِ[2] في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أنَّ حُكْمَ الطِّيبِ حُكمُ الحَلْيِ؛ الحَلْيُ يُحَرِّكُ الشَّهوةَ بالسَّماعِ، والطِّيبُ يُحَرِّكُ الشَّهوةَ بالشَّمِّ، وقد نصَّتِ السُّنَّةُ على هذا المفهومِ[3]، فنُهيت المرأةُ عن التعطُّرِ والتطيُّبِ عندَ خروجِها من بيتِها لِيشَتَمَّ الرِّجالُ طِيبَها[4].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ بيانٌ لعلَّةِ النَّهيِ عن الضَّربِ بالأرجُلِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الخَلخالَ ونحوَه مِن الحُليِّ هو مِن الزِّينةِ الخفيَّةِ[5].

٢٧- ليس في كِتابِ اللهِ آيةٌ أكثرَ ضَمائرَ مِن هذه؛ جمَعَتْ خمسةً وعشرينَ ضميرًا للمُؤمناتِ مِن مَخفوضٍ ومَرفوعٍ، وسُمِّيَت لذلك: آيةَ الضَّمائرِ[6].

٢٨- في قولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فائدةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ في أمرِه سبحانَه لجميعِ المؤمنين بالتَّوبةِ -في هذا السياقِ- تنبيهًا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

(٢) مَفهومُ الموافقةِ: هو أن يكونَ المَسكوتُ عنه مُوافِقًا في الحكمِ للمَنطوقِ بِه. يُنظر: ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) لعلاء الدين البخاري (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

ويُنظر ما أخرجه مسلم (٤٤٣) من حديث زينبَ، امرأةِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما.

وما أخرجه أبو داود (٤١٧٣) والنسائي (٥١٢٦) من حديث أبي موسى الأشْعَريِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٧).

(٦) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

أَنَّه لا يخلو مؤمِنٌ مِن بعضِ هذه الذُّنوبِ التي هي: تَرك غَضِّ البصرِ وحفظِ الفرجِ، وتَركُ إبداءِ الزينةِ وما يتبَعُ ذلك، فمُستقِلٌّ ومُستكثِرٌ[1]. وفيه دليلٌ أنَّ الذَّنْبَ لا يُخرِجُ العبدَ مِن الإيمانِ؛ لأنَّه أمَرَ بالتوبةِ، ولم يَفصِلْ بينَ الكبائرِ وغيرِها، فقال بعدما أمر بالتوبةِ: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ سَمَّاهم مؤمنينَ بعدَ الذَّنْبِ[2].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مَن لم يَتُبْ فهو ناقِصُ الإيمانِ؛ لأنَّ التوبةَ مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ، وعلى حسَبِ معصيتِه يكونُ نَقصُ إيمانِه[3].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ حيثُ جَعَلَ اللهُ التوبةَ سببًا للفلاحِ، ففيه رَدٌّ على مَن أنكروا الأسبابَ، وقالوا: إنَّ الأسبابَ مجرَّدُ علاماتٍ لا مُوجِباتٍ[4]!

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التعبيرُ بالوصفِ في قولِه: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى علُوِّ مقامِ التوبةِ، بأنَّه لا يقدِرُ على ملازمتِها إلَّا راسِخُ القدَمِ في الإيمانِ، عارفٌ بأنَّه -وإن بالَغَ في الاجتهادِ- واقِعٌ في النُّقصانِ، وهذا الأمرُ للوجوبِ، وإذا كان للرَّاسخينَ في الإيمانِ، فمَن دُونَه مِن بابِ الأَولى[5].

٣٢- في قولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ توجيهُ الخطابِ للذكورِ -مع أنه يشملُ النِّساءَ بلا شكٍّ- فيه إشارةٌ -واللهُ أعلمُ-

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٤).

إلى رعايةِ الرجُلِ للمرأةِ، وأنَّ المرأةَ لا تَستقيمُ إلَّا باستقامةِ الرجلِ، فمِن أسبابِ تفريطِ النساءِ عدمُ رعايةِ الرجالِ لهنَّ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1] [النساء: ٣٤].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كَرَمُ اللهِ تعالى وفضلُه؛ نأخذُ الكرمَ والفضلَ مِن محبَّتِه للتَّوبةِ، يعني كَوْنَه يُحِبُّ أنْ يتوبَ الناسُ حتى لا يُعاقِبَهم يدُلُّ على كَرَمِه وفضْلِه، وأنَّ رحمتَه سبَقتْ غضبَه؛ بخلافِ مَن لا رحمةَ عندَه[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحكامٍ كُلِّيَّةٍ شاملةٍ للمُؤمنينَ كافَّةً، يَندرِجُ فيها حُكْمُ المُستأذنينَ عندَ دُخولِهم البيوتَ انْدراجًا أوليًّا. وتلْوينُ الخِطابِ وتَوجيهُه إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتفويضُ ما في حيِّزِه مِن الأوامرِ والنَّواهي إلى رأْيِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّها تكاليفُ مُتعلِّقةٌ بأُمورٍ جُزئيَّةٍ كثيرةِ الوُقوعِ، حَقيقةٌ بأنْ يكونَ الآمِرُ بها والمُتصدِّيَ لِتَدبيرِها حافظًا ومُهيمنًا عليهم. ومفعولُ الأمرِ أمْرٌ آخَرُ؛ قد حُذِفَ تَعويلًا على دَلالةِ جَوابِه عليه، أي: قُلْ لهم: غُضُّوا[3].

- وخَصَّ المؤمِنينَ معَ تحريمِه على غيرِهم، لكونِ قِطْعِ ذرائعِ الزِّنا الَّتي منها النَّظَرُ، هم أحَقُّ مِنْ غيرِهم بها، وأَولَى بذلك مِمَّنْ سِواهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦).

- قَولُه: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ اسمُ التَّفضيلِ ﴿أَزْكَىٰ﴾ مَسلوبُ المُفاضَلةِ، والمُرادُ تقويةُ تلك التَّزكيةِ؛ لأنَّ ذلك جُنَّةٌ مِن ارتكابِ ذُنوبٍ عظيمةٍ[١].

- قَولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تذييلٌ؛ لأنَّه كِنايةٌ عن جزاءِ ما يتضمَّنُه الأمرُ مِن الغضِّ والحِفْظِ؛ لأنَّ المقصَدَ مِن الأمرِ الامتثالُ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ عطْفٌ بالنَّهيِ عن إبداءِ مَواقعِ الزِّيَنِ مِن الجسَدِ على الأمرِ بإغضاءِ البصرِ تأكيدًا[٣].

- قَولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ فيه ذِكْرُ الزِّينةِ دونَ مَواقعِها؛ للمُبالَغةِ في الأمرِ بالتَّصوُّنِ والتَّستُّرِ؛ لأنَّ هذه الزِّينةَ واقعةٌ على مواضعَ مِن الجسَدِ لا يحِلُّ النَّظرُ إليها لغيرِ هؤلاء؛ فنَهى عن إبداءِ الزِّينةِ نفْسِها؛ لِيُعلَمَ أنَّ النَّظرَ إذا لم يحِلَّ إليها لِمُلابسَتِها تلك المواقعِ -بدَليلِ أنَّ النَّظرَ إليها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦١).

غيرَ مُلابِسَةٍ لها لا مَقالَ في حِلِّه- كان النَّظرُ إلى المواقعِ أنفُسِها مُتمكِّنًا في الحظْرِ، ثابتَ القدمِ في الحُرمةِ، شاهِدًا على أنَّ النِّساءَ حقُّهنَّ أنْ يَحتطْنَ في سَتْرِها، ويتَّقينَ اللهَ في الكشْفِ عنها[١].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ لتأكيدِ اللُّصوقِ؛ مُبالَغةً في إحكامِ وضْعِ الخِمارِ على الجَيبِ؛ زِيادةً على المُبالَغةِ المُستفادةِ مِن فِعْلِ (يضْرِبْنَ)[٢].

- وقيل: ضُمِّنَ «يَضرِبنَ» معنى «يُلْقِينَ»؛ فلذلك عُدِّيَ بـ «على»[٣].

- ولَمَّا كان أكثَرُ الزِّينةِ في الأعناقِ والأيدي والأرجُلِ، وكان دوامُ سَترِ الأعناقِ أيسَرَ وأمكَنَ؛ خَصَّها، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، جمعُ جيبٍ: وهو خَرقُ الثَّوبِ الذي يُحيطُ بالعُنُقِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فيه إعادةُ لَفْظِ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾؛ تأكيدًا للأوَّلِ، وهو قولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ المُتقدِّمُ، ولِيَبْنِيَ عليه الاستثناءَ في قولِه: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾ إلخ، الَّذي مُقْتضَى ظاهِرِه أنْ يُعطَفَ على ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ لبُعْدِ ما بيْنَ الأوَّلِ والثَّاني، أي: ولا يبدينَ زينتَهنَّ غيرَ الظاهرةِ إلَّا لمَن ذُكِروا بعدَ حرفِ الاستثناءِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾ بدأَ تعالى بالأزواجِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

لأنَّهم المقصودونَ بالزينةِ، ولأنَّ كلَّ بدَنِ الزوجةِ والسُّرِّيَّةِ حلالٌ لهم[١].

- قَولُه: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ وضَعَ الواحدَ مَوضِعَ الجمْعِ، حيث لم يقُلْ: (أو الأطفالِ)؛ لأنَّه يُفِيدُ الجِنْسَ؛ فلذلك أُجْرِي عليه الجمْعُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾[٢].

- قَولُه: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ كِنايةٌ عن خُلوِّ بالِهم مِن شَهوةِ النِّساءِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ في النَّهيِ عن إبداءِ صَوتِ الحُليِّ بعدَ النَّهيِ عن إبداءِ عَينِها، مِن المُبالَغةِ في الزَّجرِ عن إبداءِ مَوضعِها ما لا يَخْفَى[٤].

- قَولُه: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه تلْوينٌ للخِطابِ، وصرْفٌ له عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الكلِّ بطريقِ التَّغليبِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بما في حيِّزِه مِن أمْرِ التَّوبةِ، وأنَّها مِن مُعظَّماتِ المُهمَّاتِ الحقيقةِ بأنْ يكونَ سُبحانَه وتعالى هو الآمرَ بها؛ لِمَا أنَّه لا يكادُ يَخلو أحدٌ مِن المُكلَّفينَ عن نَوعِ تفريطٍ في إقامةِ مَواجبِ التَّكاليفِ كما يَنْبغي[٥]. وقيل: وقَعَ الْتفاتٌ مِن خطابِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

إلى خِطابِ الأُمَّةِ؛ لأنَّ هذا تَذكيرٌ بواجبِ التَّوبةِ المُقرَّرةِ مِن قبْلُ، وليس استئنافَ تَشريعٍ. ونبَّهَ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ على أنَّ المُخاطبينَ هم المُؤمِنون والمُؤمناتُ، وإنْ كان الخِطابُ ورَدَ بضميرِ التَّذكيرِ على التَّغليبِ، وأنْ يُؤمِّلوا الفلاحَ إنْ هم تابوا وأنابوا(١).

- والإضافةُ في قولِه: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ إلى ضَميرِ المؤمناتِ إنْ حُمِلَت على ظاهرِ الإضافةِ، كانت دالَّةً على أنَّهنَّ النِّساءُ اللَّاتي لهنَّ بهنَّ مَزيدُ اختصاصٍ؛ فقيل: المُرادُ نِساءُ أُمَّتِهنَّ، أي: المؤمناتُ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: (أو النِّساءِ)، وإنَّما أضافَهنَّ إلى ضَميرِ النِّسوةِ؛ إتْباعًا لبقيَّةِ المعدودِ؛ ففي هذه الآيةِ خمْسةٌ وعِشرونَ ضَميرًا، فجاء هذا للإتْباعِ، أي: فتكونُ الإضافةُ لغيرِ داعٍ معنويٍّ، بلْ لداعٍ لفظيٍّ تَقْتضيه الفصاحةُ، مِثْلُ الضَّميرينِ المُضافِ إليهما(٢).

- وفي تَكريرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيدٌ للإيجابِ، وإيذانٌ بأنَّ وصْفَ الإيمانِ مُوجِبٌ للامتثالِ حتْمًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

الآيتان (٣٢-٣٣)

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾: أي: الذين لا أزواجَ لهم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، واحِدُهم أَيِّمٌ[١].

﴿وَإِمَآئِكُمْ﴾: جمعُ أَمَةٍ، والأَمَةُ: ضِدُّ الحُرَّةِ، وهي المرأةُ المَملوكةُ[٢].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾: أي: لِيطلُبِ العِفَّةَ عن الزنا، والعِفَّةُ: حصولُ حالةٍ للنَّفْسِ تمتَنِعُ بها عن غَلَبةِ الشَّهوةِ، وأصلُه: الكَفُّ عن القَبيحِ[٣].

﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أي: المكاتَبةَ، وكتابةُ العبدِ: ابتياعُ نفْسِه مِن سَيِّدِه بما يؤدِّيهِ مِن كَسْبِه، فيَعْقِدُ معَه عقدًا على مالٍ بشرطِ أنَّه إذا أدَّى عَتَقَ، وأصلُه مِن الكتابِ، يُرادُ بذلك الشَّرطُ الَّذي يُكتَبُ بيْنَهما، وأصلُ (كتب): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٧)، =

﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾: أي: إمائِكم، وأصلُ (فتي): يدُلُّ على طراوةٍ وجِدَّةٍ[1].

﴿الْبِغَاءِ﴾: أي: الزِّنا، يُقالُ: بَغَى الجرحُ: تجاوَز الحدَّ في فسادِه، وبَغَتِ المرأةُ بِغَاءً: إذا فجَرت؛ وذلك لتجاوزِها إلى ما ليس لها، وأصلُ (بغي) هنا: جنسٌ مِن الفسادِ[2].

﴿تَحَصُّنًا﴾: أي: تعَفُّفًا، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحياطةٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مرشدًا عبادَه إلى ما يُعِينُ على العفافِ: وزوِّجوا -أيُّها المؤمنونَ- مَن لا زوجَ له مِن الأحرارِ والحرائرِ، ومِن مماليكِكم الصَّالحينَ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، إن يكُنْ هؤلاء الذين تُنكِحونَهم فقراءَ، يُغْنِهِمُ اللهُ مِن واسِعِ رِزقِه، واللهُ واسِعُ الفَضلِ، جَوادٌ كريمٌ، عليمٌ بأحوالِ العِبادِ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى بإعانةِ المماليكِ على ما يُحرِّرُهم مِن الرِّقِّ، فيقولُ: والذين يريدونَ أن يتحَرَّروا مِن رِقِّ العبوديَّةِ بمُكاتبتِكم، فكاتِبوهم على قَدرٍ مِن المالِ؛ ليَصيروا أحرارًا، إن عرَفتُم منهم قُدرةً على كسبِ المالِ والوفاءِ، وأعطوهم مِمَّا أعطاكم اللهُ مِن المالِ؛ ليَستعينوا به على الأداءِ. ولا تُجبِروا إماءَكم على الزِّنا؛

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

طلبًا للمالِ بطريقِ الفاحشةِ، إن أرَدْنَ التعفُّفَ عن مُقارفةِ الفاحشةِ، ومَن يُجبِرْهنَّ على الزِّنا، فإنَّ الله تعالى غفورٌ لهنَّ، رحيمٌ بهنَّ، والإثمُ على مَن أكرَههنَّ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه بغَضِّ الأبصارِ، وحِفظِ الفُروجِ؛ أرشَدَ بعد ذلك إلى ما يَحِلُّ للعِبادِ مِن النِّكاحِ الذي يكونُ به قَضاءُ الشَّهوةِ، وسُكونُ دَواعي الزِّنا، ويَسهُلُ بَعدَه غَضُّ البَصَرِ عن المُحَرَّماتِ، وحِفظُ الفَرجِ عمَّا لا يَحِلُّ(١).

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمت أوامِرُ ونواهٍ في غَضِّ البصَرِ وحِفظِ الفَرجِ وإخفاءِ الزِّينةِ وغيرِ ذلك، وكان الموجِبُ للطُّموحِ مِن الرجالِ إلى النِّساءِ، ومِن النِّساءِ إلى الرِّجالِ هو عدمَ التزوُّجِ غالبًا؛ لأنَّ في تكاليفِ النِّكاحِ وما يجِبُ لكُلِّ واحدٍ مِن الزوجينِ ما يشغَلُ- أمَرَ تعالى بإنكاحِ الأيَامَى، وهم الذين لا أزواجَ لهم مِن الصِّنفينِ؛ حتى يشتَغِلَ كُلٌّ منهما بما يلزَمُه، فلا يلتَفِتَ إلى غيرِه(٢)، فأُردِفت أوامرُ العفافِ بالإرشادِ إلى ما يُعينُ عليه، ويُعِفُّ نفوسَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ويَغُضُّ مِن أبصارِهم(٣).

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٥).

أي: وزوِّجُوا[١] -أيُّها المُسلِمونَ- كُلَّ مَن لا زوجَ له منكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الأحرارِ؛ فإنَّ الزَّواجَ طَريقُ التعفُّفِ[٢].

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾.

أي: وزوِّجُوا -أيُّها المالِكونَ للعبيدِ- كُلَّ مَن لا زوجَ له مِن مماليكِكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الصَّالحينَ[٣].

---

(١) قال القرطبي: (الخطابُ للأولياءِ. وقيل: للأزواجِ. والصحيحُ الأوَّلُ؛ إذ لو أراد الأزواجَ لقال «وانكِحوا» بغيرِ همزٍ، وكانت الألفُ للوصلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٢٨، ٥٢٩).
قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه الآيةُ لم تتعرَّضْ للصفاتِ التي بها تحرُمُ المرأةُ مطلقًا أو مؤقَّتًا، وإنَّما أمر بإنكاحِ الأيامى مِن حيثُ الجملةُ، وهو أمرٌ بإنكاحِهنَّ بالشروطِ التي بيَّنَها، وكما أنَّها لا تُنكَحُ في العِدَّةِ والإحرامِ، لا تُنكَحُ حتى تتوبَ [أي: مِن الزنا]). ((مجموع الفتاوى)) (٣٢/ ١١٥).
ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٧).
اختلف المفسِّرون في المرادِ بالصلاحِ المذكورِ هنا؛ فقيل: المرادُ به: الصلاحُ في الدِّين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٦).
وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ وَصفِ العَبيدِ والإماءِ بالصَّالحينَ أنَّ المرادَ اتِّصافُهم بالصَّلاحِ الدِّينيِّ، أي: الأتقياء. والمعنى: لا يَحمِلْكم تحقُّقُ صَلاحِهم على إهمالِ إنكاحِهم؛ لأنَّكم آمِنون مِن وقوعِهم في الزِّنا، بل عليكم أن تُزَوِّجوهم؛ رفقًا بهم، ودفعًا لِمَشقةِ العَنَتِ عنهم. فيُفيدُ أنَّهم إن لم يكونوا صالحينَ كان تزويجُهم آكَدَ أمرًا، وهذا من دَلالةِ الفَحوى؛ فيَشمَلُ غيرُ الصَّالحينَ غيرَ الأعِفَّاءِ والعفائِفِ مِن المماليكِ المُسلِمينَ، ويَشمَلُ المماليكَ غيرَ المُسلمينَ. وبهذا التفسيرِ تنقَشِعُ الحَيرةُ التي عَرَضت للمفَسِّرينَ في التَّقييدِ بهذا الوَصفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٦). =

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: إنْ يكُنْ هؤلاء الذين تُنكِحونَهم -مِن أيامى رجالِكم ونسائِكم، وعبيدِكم وإمائِكم- أهلَ فاقةٍ وفَقرٍ، فإنَّ اللهَ سيُغنيهم مِن فَضلِه؛ فلا تمتَنِعوا عن تزويجِهم بسبَبِ فَقرِهم(١).

= وقيل: المرادُ الذين يَصلُحون للنكاحِ، وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الفرس، وابنُ جزي، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٠)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩٩).

قال ابنُ القيم: (المرادُ بـ «الصالحينَ»: مَن صلَحَ للنكاحِ، هذا أصحُّ التفسيرينِ، وذهبت طائفة إلى أنه الإيمانُ، والأوَّلُ أصَحُّ؛ فإنَّ الله سبحانه لم يأمُرْهم بإنكاحِ أهلِ الصلاحِ والدِّينِ خاصَّةً مِن عبيدِهم وإمائهم، كما لم يَخُصَّهم بوجوبِ الإنفاقِ عليهم، بل يجِبُ على السيِّدِ إعفافُ عبدِه وأمَتِه، كما يجبُ عليه الإنفاقُ عليه؛ فإنَّ ذلك مِن تمامِ مصالحِه وحقوقِه على سيِّدِه). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٧٩٩).

وممَّن ذهَب إلى احتمالِ إرادةِ كِلا المعنيَينِ: السعديُّ، فقال: (﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ يحتملُ أنَّ المرادَ بالصالحينَ: صلاحُ الدِّينِ، وأنَّ الصالحَ مِن العبيدِ والإماءِ -وهو الذي لا يكونُ فاجرًا زانيًا- مأمورٌ سيِّدُه بإنكاحِه؛ جزاءً له على صلاحِه، وترغيبًا له فيه؛ ولأنَّ الفاسِدَ بالزِّنا منهيٌّ عن تزوجِه، فيكونُ مؤيِّدًا للمذكورِ في أوَّلِ السورةِ: أنَّ نكاحَ الزاني والزانيةِ مُحرَّمٌ حتى يَتوبَ، ويَكونُ التخصيصُ بالصلاحِ في العبيدِ والإماءِ دُونَ الأحرارِ؛ لكثرةِ وُجودِ ذلك في العبيدِ عادةً. ويحتملُ أنَّ المرادَ بالصالحينَ: الصالحونَ للتزوُّجِ، المحتاجون إليه مِن العبيدِ والإماءِ، يؤيِّدُ هذا المعنى أنَّ السيِّدَ غيرُ مأمورٍ بتزويجِ مملوكِه قبْلَ حاجتِه إلى الزواجِ، ولا يبعُدُ إرادةُ المعنيَينِ كِلَيْهما، والله أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

وممَّن قال بالمعنيَين: ابنُ عثيمينَ، حيث قال: (ينبغي أن يُفَسَّر قولُه: «الصالحين» بصلاحِ الدينِ، وصلاحِ الدنيا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال القرطبي: (هذا وعْدٌ بالغنى للمتزوِّجينَ؛ طلبَ رضا الله، واعتصامًا مِن معاصيه). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤١). =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ حَقٌّ على اللهِ عَونُهم: المجاهِدُ في سبَيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ[1] الَّذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكِحُ الَّذي يُريدُ العَفافَ))[2].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ واسِعُ الفَضلِ والغِنى، عليمٌ بعبادِه وأحوالِهم ونيَّاتِهم، عليمٌ بمن يستَحِقُّ منهم الإغناءَ مِن فَضلِه[3].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

= وقال الشنقيطي: (الظاهرُ أن المتزوِّجَ الذي وعده الله بالغنى هو الذي يريدُ بتزويجِه الإعانةَ على طاعةِ الله بغَضِّ البصرِ، وحِفظِ الفَرجِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣١).

(١) المُكاتَبُ: هو العَبدُ يُكاتِبُ على نَفْسِه بثَمَنِه، فإذا سعى وأدَّاه عَتَقَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٥٥) واللفظ له، والنَّسائي (٣٢١٨)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وأحمد (٧٤١٦). حسَّنه الترمذي، وقال الدارقطني -كما في ((البدر المنير)) لابن الملقِّن (٧/ ٤٣٢): اختُلِف في رفعه ووقفِه، ورفعه صحيح. وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٣/ ٥)، وابن الملقِّن في ((شرح صحيح البخاري)) (٢٤/ ٢٣٦)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (١٣/ ١٤٩)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٧٦٥)، وذكر أنَّه ورد بإسنادٍ صَحيحٍ بلَفظِ: (الغازي في سَبيلِ اللهِ) بَدَلَ (المُجاهِدُ). وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٧، ٢١٨).

قال البقاعي: (﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فهو بسَعةِ قُدرتِه يَسوقُ ما كتَبه للمرأةِ على يدِ الزوجِ، وبشمولِ علمِه يسبِّبُ أسبابَه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه تزويجَ الحرائرِ والإماءِ؛ ذكَرَ حالَ مَن يَعجِزُ عن ذلك(١).

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَ كُلَّ مَن تعلَّقَ به الأمرُ بالإنكاحِ بأن يُلازِموا العَفافَ في مُدَّةِ انتظارِهم تيسيرَ النِّكاحِ لهم بأنفُسِهم، أو بإذْنِ أوليائِهم ومَواليهم(٢).

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: ولْيلزَمِ الكفَّ والامتِناعَ عن الوقوعِ فيما حرَّمَ اللهُ مِنَ الفواحِشِ، الذين لا يَجِدونَ قُدرةً على النِّكاحِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الأحرارِ والعبيدِ، ولْيصبِروا على مشقَّةِ العُزوبةِ حتى ييسِّرَ اللهُ لهم مِن فَضلِه ما يتزوَّجونَ به(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا الاستِعفافُ المأمورُ به في هذه الآيةِ الكريمةِ هو المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ونحوِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣٢).

قال السعدي: (قولُه: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يَقدِرونَ نِكاحًا؛ إمَّا لفَقرِهم أو فقرِ أوليائِهم وأسيادِهم، أو امتناعِهم مِن تزويجِهم، وليس لهم مِن قدرةٍ على إجبارِهم على ذلك، وهذا التقديرُ أحسَنُ مِن تقديرِ مَن قدَّر: «لا يجدون مهرَ نكاحٍ» وجعلوا المضافَ إليه نائبًا مَنابَ المضافِ؛ فإنَّ في ذلك محذورينِ؛ أحدهما: الحذفُ في الكلامِ، والأصلُ عدمُ الحذفِ. والثاني: كونُ المعنى قاصرًا على مَن له حالانِ: حالةُ غنًى بمالِه، وحالةُ عدَمٍ، فيخرجُ العبيدُ والإماءُ ومَن إنكاحُه على وليِّه، كما ذكرنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شَبابًا لا نجِدُ شيئًا، فقال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا معشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استطاع الباءةَ[(١)] فلْيَتزَوَّجْ؛ فإنَّه أغَضُّ للبصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ[(٢)]))[(٣)].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ومَن يَستعفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، ومَن يَستغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، ومَن يَتصبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسَعَ مِنَ الصَّبرِ))[(٤)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾.

أي: والذين يَلتَمِسونَ المُكاتَبةَ منكم -أيُّها المالِكونَ للعَبيدِ[(٥)]- مِن مماليكِكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، فأجيبوهم إلى ما طَلَبوا ليتحَرَّروا مِن الرِّقِّ، إنْ عَلِمتُم فيهم

---

(١) الباءةَ: أي: الجِماعَ أو مُؤَنَ النِّكاحِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٧٣).

(٢) وِجاءٌ: أي: قاطِعٌ للشَّهوةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ١١٩).

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٠٠).

(٤) رواه البخاري (١٤٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٣).

(٥) قال ابنُ الفرس: (والمخاطبونَ بإنكاحِهنَّ السادةُ، ولا خلافَ في هذا). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٣٧٥).

قُدرةً على كَسبِ المالِ، وأمانةً للوفاءِ بما التَزموا لكم(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

قال القرطبي: (معنى المكاتَبةِ في الشَّرعِ: هو أن يُكاتِبَ الرجُلُ عبْدَه على مالٍ يؤدِّيه مُنجَّمًا عليه [أي: على أقساط]، فإذا أدَّاه فهو حرٌّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٤).

اختلف أهلُ العلمِ في الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾؛ هل هو للوُجوبِ، أو للاستِحبابِ؟ فالمذاهِبُ الفِقهيَّةُ الأربعةُ: الحَنَفيَّةُ، والمالِكيَّةُ، والشَّافِعيَّةُ، والحنابِلةُ- على أنَّه للاستِحبابِ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ العلمِ خِلافًا للظَّاهِريَّةِ وبعضِ السلفِ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٤/ ١٣٤)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ٣٧٤)، ((البيان في مذهب الإمام الشافعي)) للعمراني (٨/ ٤١٢)، ((المغني)) لابن قدامة (١٠/ ٣٦٥).

قال ابنُ رشد: (قال أهلُ الظَّاهِرِ: هو واجِبٌ، واحتَجُّوا بظاهِرِ قَولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ والأمرُ على الوُجوبِ، وأمَّا الجُمهورُ فإنَّهم لَمَّا رَأَوا أنَّ الأصلَ هو ألَّا يُجبرَ أحَدٌ على عِتقِ مَملوكِه، حمَلوا هذه الآيةَ على النَّدبِ؛ لئَلَّا تكونَ مُعارِضةً لهذا الأصلِ، وأيضًا فإنَّه لم يكُنْ للعَبدِ أن يُحكَمَ له على سَيِّدِه بالبَيعِ له، وهو خروجُ رَقَبتِه عن مِلكِه بعِوَضٍ؛ فأحرى ألَّا يُحكَمَ له عليه بخُروجِه عن غَيرِ عِوَضٍ هو مالِكُه؛ وذلك أنَّ كَسْبَ العَبدِ هو للسَّيِّدِ). ((بداية المجتهد)) (٢/ ٣٧٤).

وقال ابنُ عثيمين في بيانِ دليلِ الجُمهورِ: (وحُجَّتُهم في ذلك أنَّ العبدَ مملوكٌ لك، ولا يجِبُ عليك إخراجُ مِلكِك إلَّا برضًا منك، فكما أنَّ الإنسانَ لا يُجبَرُ على بيعِ بَيتِه وعلى بَيعِ دابَّتِه، لا يُجبَرُ كذلك على بَيعِ عَبدِه، فإذا طَلَب منِّي المكاتَبةَ فأنا حُرٌّ؛ لأنَّه مالي؛ ولهذا سمَّاه الله تعالى مِلكًا، فلا يُجبَرُ على إخراجِ مِلكِه مِن مِلكِه؛ «لا يحِلُّ مالُ امرئٍ مُسلِمٍ إلَّا بطِيبِ نَفْسٍ منه»، وإذا كان كذلك، فإنَّ الأمرَ هنا للاستِحبابِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٠).

وقال ابنُ حجر: (وقال أبو سعيدٍ الإصطخري: القرينةُ الصارفةُ للأمرِ في هذا عن الوجوبِ: الشرطُ في قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾؛ فإنَّه وكَل الاجتهادَ في ذلك إلى المولَى، ومقتضاه أنَّه إذا رأى عدمَه لم يُجبَرْ عليه؛ فدلَّ على أنَّه غيرُ واجبٍ. وقال غيرُه: الكتابةُ عقدُ غررٍ، وكان الأصلُ أن لا تجوزَ، فلمَّا وقَع الإذنُ فيها كان أمرًا بعدَ منعٍ، والأمرُ بعدَ المنعِ للإباحةِ، ولا يَرِدُ على هذا كونُها مستحبةً؛ لأنَّ استحبابَها ثبَت بأدلةٍ أخرَى). ((فتح الباري)) (٥/ ١٨٧). =

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

= واختُلِف في معنى الخَيرِ في قَولِه: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾:

فقيل: ﴿خَيْرًا﴾ أي: مَالًا. وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، ونَسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، والسُّدِّيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وقَتادةُ، والحسنُ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وعطاءٌ، ومقاتلُ بنُ حيان، وطاووسٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٣٦).

وقيل: المرادُ بالخَيرِ: القُوَّةُ على الاحتِرافِ والاكتِسابِ، والقُدرةُ على أداءِ ما كُوتِبَ عليه، والوَفاءِ بما أوجَب على نفْسِه وألزَمَها. ومِمَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والزجَّاج، ومكِّي، والواحديُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عُمرَ، وابنُ عبَّاسٍ في رواية عنه، ومالكُ بن أنس، وزيد، والثوري . يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦).

وقيل: المرادُ بالخَيرِ: الأمانةُ، والقُدرةُ على الكَسبِ وأداءِ المالِ بالاحترافِ. وممَّن اختاره: الشافعيُّ، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٨/ ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ في رواية عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وطاووسٌ في رواية عنه، وأبو صالح، وإبراهيم، وعطاء، وعَمرُو بن دينار، وسفيان، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦).

وقال البِقَاعي: (﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: تصَرُّفًا صالحًا في دينِهم ودُنياهم؛ لئَلَّا يَفسُدَ حالُهم بعدَ الاستِقلالِ بأنفُسِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٦٨).

وقال السعدي: (﴿خَيْرًا﴾ أي: قدرةً على التكَسُّبِ، وصلاحًا في دينِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

أي: وأعطُوا المكاتَبينَ مِن مالِ اللهِ الذي رزَقَكم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٢، ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قيل: عَنَى به إيتاءَهم سَهْمَهم مِنَ الزَّكاةِ المفروضةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وزيدُ بنُ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٣).

قال النسفي: (﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمرٌ للمُسلِمينَ على وَجهِ الوُجوبِ بإعانةِ المُكاتَبينَ، وإعطائِهم سَهْمَهم مِنَ الزَّكاةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٣).

وقيل: هذا أمرٌ للسَّادةِ بإعانتِهم في مالِ الكتابةِ؛ إمَّا بأن يُعطوهم شيئًا ممَّا في أيديهم، أو يحطُّوا عنهم شيئًا. وممَّن قال بذلك: الزجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيان، والبقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في رواية، وعِكرمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اختلَف المفسِّرون فيه؛ فقال قائلون: معناه: اطرَحوا لهم مِن الكتابةِ بعضَها، ثمَّ قال بعضُهم: مقدارُ الرُّبُعِ. وقيل: الثُّلُثُ. وقيل: النِّصْفُ. وقيل: جزءٌ من الكتابةِ مِن غيرِ حَدٍّ.

وقال آخَرونَ: بل المرادُ مِن قَولِه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هو النَّصيبُ الذي فَرَض الله لهم مِن أموالِ الزَّكواتِ... والقولُ الأوَّلُ أشهرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣، ٥٤).

وممَّن جمع بيْن القولينِ السَّابقَينِ: القاسميُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨). =

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أرشَدَ اللهُ سُبحانَه المَواليَ إلى نِكاحِ الصَّالِحينَ مِنَ المماليكِ؛ نهَى المُسلِمينَ عمَّا كان يَفعَلُه أهلُ الجاهِليَّةِ مِن إكراهِ إمائِهم على الزِّنا[1].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ جاريةً لعبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ يقالُ لها: مُسَيكةُ، وأُخرى يُقالُ لها: أُميمةُ، فكان يُكرِهُهما على الزِّنا، فشكَتَا ذلك إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

أي: ولا تُكرِهوا إماءَكم على الزِّنا إنْ أرَدْنَ التعفُّفَ عنه[3].

= قال السعدي: (يدخلُ في ذلك أمرُ سَيِّدِه الذي كاتَبه أن يعطيَه مِن كتابتِه، أو يُسقِطَ عنه منها، وأمرُ النَّاسِ بمعونتِهم؛ ولهذا جعَل الله للمُكاتَبينَ قِسطًا مِن الزَّكاةِ، ورغَّب في إعطائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابن كثير: (كان أهلُ الجاهلية إذا كان لأحدِهم أمَةٌ أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبةً يأخُذُها منها كلَّ وقتٍ! فلمَّا جاء الإسلامُ نهى اللهُ المسلمينَ عن ذلك... وقولُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا خرجَ مَخرجَ الغالِبِ؛ فلا مفهومَ له). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤، ٥٦).

وقال الشوكاني: (وقيل: إنَّ هذا الشرطَ خرَج مخرجَ الغالبِ؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الإكراهَ لا يكونُ إلَّا عندَ إرادةِ التحصُّنِ؛ فلا يلزمُ منه جوازُ الإكراهِ عندَ عدمِ إرادةِ التحَصُّنِ، وهذا الوجهُ أقوى =

﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: وذلك لِتَطلبوا بإكراهِ إمائِكم على الزِّنا مالًا مِن كَسبِهنَّ به(١).

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: ومَن يُكرِهْ إماءَه على الزِّنا، فإنَّ اللهَ مِن بعدِ إكراهِهِنَّ غفورٌ لهنَّ، رحيمٌ بهنَّ، وإثمُهنَّ على مَن أكرهَهنَّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

= هذه الوجوه؛ فإنَّ الأمَةَ قد تكونُ غيرَ مريدةٍ للحلالِ ولا للحرام، كما فيمَن لا رغبةَ لها في النكاحِ كالصغيرةِ، فتوصَفُ بأنها مُكرَهةٌ على الزِّنا، مع عدمِ إرادتِها للتحصُّنِ، فلا يتِمُّ ما قيل مِن أنَّه لا يُتصَوَّرُ الإكراهُ إلَّا عندَ إرادةِ التحصُّنِ، إلَّا أن يُقالَ: إنَّ المرادَ بالتحصُّنِ هنا مجرَّدُ التعَفُّفِ، وأنَّه لا يَصدُقُ على مَن كانت تريدُ الزواجَ أنَّها مريدةٌ للتحصُّنِ، وهو بعيدٌ، فقد قال الحَبرُ ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ المرادَ بالتحصُّنِ: التعفُّفُ والتزوُّجُ، وتابَعه على ذلك غيرُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥).

وقال النووي: (المقصودُ أنَّ الإكراهَ على الزِّنا حرامٌ، سواءٌ أرَدْنَ تحَصُّنًا أم لا، وصورةُ الإكراهِ مع أنَّها لا تُريدُ التحَصُّنَ أن تكونَ هي مريدةَ الزِّنا بإنسانٍ، فيُكرِهُها على الزِّنا بغَيرِه، وكلُّه حرامٌ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

قال البغوي: (﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: لتَطلُبوا مِن أموالِ الدنيا، يريدُ: مِن كسبِهنَّ، وبيعِ أولادِهنَّ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٤).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: مِن خراجِهنَّ ومُهورهنَّ وأولادِهنَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

قال الشنقيطي (﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهنَّ، وليس المرادُ أنَّه غَفورٌ رَحيمٌ للذين أكرَهوهنَّ؛ لأنَّ الغُفرانَ والرَّحمةَ يُناسِبانِ المقهورَ المُكرَهَ، لا المُجرِمَ المُكرِهَ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٢٠).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ وضَعَ عن أمَّتي الخطأَ، والنِّسيانَ، وما استُكرِهوا عليه))(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- فائدةُ ربْطِه الغِنى بالنِّكاحِ في قولِه: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أنَّه قد ركَزَ في الطِّباعِ السُّكونُ إلى الأسبابِ، والاعتمادُ عليها، والغَفلةُ عن المُسبِّبِ جلَّ وعلا، حتَّى غلَبَ الوهمُ على العقْلِ، فخيَّلَ أنَّ كثرةَ العيالِ سبَبٌ يُوجِبُ الفقرَ حتْمًا، وعدَمَها سببٌ يُوجِبُ تَوفيرَ المالِ جزْمًا، وإنْ كان واحدٌ مِن هذينِ السَّببينِ غيرَ مُؤثِّرٍ فيما ربطَهُ الوهمُ به؛ فأُرِيدَ قلْعُ هذا الخَيالِ المُتمكِّنِ مِن الطَّبعِ، بالايذانِ بأنَّ اللهَ تعالى قد يُوفِّرُ المالَ ويُنمِّيه مع كثرةِ العيالِ الَّتي هي سببٌ في الأوهامِ لنَفادِ المالِ، وقد يُقدِّرُ الإملاقَ مع عدَمِه الَّذي هو سبَبٌ في الإكثارِ عندَ الأوهامِ، والواقِعُ يَشهَدُ بذلك بلا مِراءٍ؛ فدلَّ ذلك قطْعًا على أنَّ الأسبابَ الَّتي يَتوهَّمُها البشرُ مُرتبِطاتٍ بمُسبَّباتِها ارتباطًا لا ينفكُّ ليست على ما يَزْعُمونه، وإنَّما يُقدِّرُ الغِنى والفقرَ مُسبِّبُ الأسبابِ، غيرُ مَوقوفٍ تقديرُ ذاك إلَّا على مَشيئةٍ خاصَّةٍ، وحينَئذٍ لا يَنفِرُ العاقلُ المُتيقِّظُ مِن النِّكاحِ؛ لأنَّه استقرَّ عنده أنْ لا أثَرَ له في الإقتارِ، وأنَّ اللهَ تعالى لا يمنَعُه ذلك مِن إغنائِه، ولا يُؤثِّرُ أيضًا الخُلوُّ عن

---

(١) أخرجه من طرق ابن ماجه (٢٠٤٥) واللفظ له، وابن حبان (٧٢١٩)، والحاكم (٢٨٠١) ذكر العقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (٤/ ١٤٥) أن له إسنادًا جيدًا، وصحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وصحَّحه ابن حزم في ((المحلى)) (١٠/ ٢٠٥)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٠٤٥)، وحسنه النووي في ((المجموع)) (٢/ ٢٦٧)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٥١٠)، والحديث استنكره الإمام أحمد وأبو حاتم. يُنظر: ((العلل ومعرفة الرجال)) (١/ ٥٦١)، ((علل الحديث)) لابن أبي حاتم (٤/ ١١٦).

لكن قال ابنُ العربي: (والخبرُ، وإنْ لم يصحَّ سندُه، فإنَّ معناه صحيحٌ باتِّفاقِ العلماءِ). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٢١٢).

النِّكاحِ لأجلِ التَّوفيرِ؛ لأنَّه قد استقَرَّ أنْ لا أثَرَ له فيه، وأنَّ اللهَ تعالى لا يمنَعُه مانعٌ أنْ يَقتُرَ عليه، وأنَّ العبْدَ إنْ تَعاطى سببًا، فلا يكُنْ ناظرًا إليه، ولكنْ إلى مَشيئةِ اللهِ تعالى وتقدَّسَ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فيه استِحبابُ الصَّبرِ عن النكاحِ لِمن لا يقدِرُ على أُهبتِه، والاستِعفافُ بأن يَكسِرَ شَهوتَه بالصَّومِ، كما بيَّنه الحديثُ[(٢)].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فيه حثٌّ على التزَوُّجِ، ووعدٌ للمُتزوِّجِ بالغِنَى بعدَ الفَقرِ[(٣)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أخَذَ بعضُ العُلَماءِ مِن هذه الآيةِ أنَّ العَبدَ التقيَّ الصَّالحَ في دينِه كُفُؤٌ للحُرَّةِ، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾[(٤)] [البقرة: ٢٢١]. فمَن أباح نِكاحَ العبَدِ الحُرَّةَ استدَلَّ بعمومِ آيةِ سورةِ (النُّورِ)[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

والحديث المشار إليه أخرجه البخاري (١٩٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنَّا مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ((مَن استطاع الباءةَ فلْيَتزَوَّجْ؛ فإنَّه أغَضُّ للبصرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يَستطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أخَذَ مِن الآيةِ بَعضُ العُلَماءِ أنَّ العبدَ إذا طلَبَ التَّزويجَ لِيَعِفَّ نفْسَه أنَّه ليس للسيِّدِ أن يمنَعَه، بل يجِبُ عليه أن يأذَنَ له بذلك[1]؛ للأمرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[2]. وأنَّه يُجبَرُ على إنكاحِ عبدِه وأمَتِه[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ حجَّةٌ واضحةٌ في أنَّه ليس للبِكْرِ ولا للثَّيِّبِ أنْ تتزوَّجَ بغيرِ أمرِ وَليِّها؛ إذْ لو كان لها ذلك ما أُمِرَ غيرُها بإنكاحِها[4]! فالآيةُ فيها دليلٌ على اعتبارِ الوَليِّ؛ لأنَّ الخِطابَ له، وعدَمِ استقلالِ المرأةِ بالنِّكاحِ[5].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن أباح نكاحَ الإماءِ بلا شرطٍ[6].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ دَلالةٌ على جوازِ قولِ القائلِ: «عبدي» أو «أَمَتي»[7]، والنَّهْيُ الَّذي ورَد في الحديثِ عن

---

(١) قال ابنُ تيمية: (وإذا طَلَب النِّكاحَ فعلى السَّيِّدِ أنْ يُزَوِّجَه، لِقولِ اللَّهِ تعالَى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾). ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

وهو مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ؛ أنه لا يَصِحُّ النِّكاحُ بدونِ وليٍّ للمَرأةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٢٠)،))روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٥٠)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٧) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ١٧٨).

قولِ الرجُلِ: «عبدي» و«أَمَتي»[١] للتَّنزيهِ، لا للتَّحريمِ. وقيل: المرادُ بالنَّهيِ: مَنِ استعمَله على جهةِ التعاظُمِ والارتفاعِ، لا للوصفِ والتعريفِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّه ليس للعبدِ ولا للأَمَةِ أنْ يتزوَّجا بغيرِ إذْنِ سيِّدِهما[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فيه أمرُ الأولياءِ بإنكاحِ مَن تحتَ ولايتِهم مِن الأيامَى، وهم مَن لا أزواجَ لهم مِن رجالٍ ونساءٍ، ثيِّباتٍ وأبكارٍ، فيجبُ على القريبِ ووليِّ اليتيمِ أن يزوِّجَ مَن يحتاجُ للزَّواجِ ممن تجِبُ نفقتُه عليه، وإذا كانوا مأمورينَ بإنكاحِ مَن تحتَ أيديهم، كان أمرُهم بالنِّكاحِ بأنفُسِهم مِن بابِ أولى[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنَّ العبيدَ والإماءَ يَملِكونَ، ولا يكونُ المِلْكُ مضافًا إليهم على المجازِ وحقيقتُه للسَّادةِ؛ إذْ لو كان كذلك ما استغنَوا بالإنكاحِ، ولكانوا فقراءَ قَبْلَه وبَعْدَه؛ لأنَّ مَن لا يملِكُ شيئًا لا يقعُ عليه اسمُ غِنًى[٥]!

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٧)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٣/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٥٠).

قال الرازي: (لكنِ المفسِّرونَ تَأَوَّلوه على الأحرارِ خاصَّةً؛ فكأنَّهم قالوا: هو راجعٌ إلى الأيامَى، أمَّا إذا فسَّرْنا الغنى بالعفافِ فالاستدلالُ به على ذلك ساقِطٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧١).

قال ابنُ قُدامةَ: (ولا يملكُ العبدُ شيئًا، إذا لم يملِّكْه سيدُه، في قولِ عامةِ أهلِ العلمِ. وقال أهلُ الظاهرِ: يملكُ). ((المغني)) لابن قدامة (٤/ ١٣١). ويُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (٨/ ٣٧٤).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لا يَمنَعْكم فَقْرُ الخاطِبِ إليكم -إذا كان كفُؤًا- عن تزويجِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى سيُغنيهم، وفي هذا الرَّبطِ دليلٌ على أنَّ النِّكاحَ سببٌ في الغنى، قال بعضُ السَّلَفِ: (التَمِسوا الغِنى في النِّكاحِ)[1]. ولكِنْ في هذا الرَّبطِ إشكالٌ، وهو أنَّنا نَجِدُ كثيرًا مِن النَّاسِ يَتزوَّجون ويَبقَونَ فُقراءَ؟

الجوابُ مِن وَجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ غِناهم مُقيَّدٌ بالمشيئةِ؛ فمَن شاء تعالى أغناه، ومَن لم يشأْ بقِيَ على فَقرِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

الوجهُ الثاني: أنَّ الرَّبطَ على بابِه، ولكنْ قد يحصُلُ مانعٌ لبعضِ النَّاسِ مِن الغنى؛ كعَدَمِ الطَّاعةِ، أو وجودِ المعصيةِ، أو أنَّ المتزوِّجَ لم يُرِدْ بزواجِه العِفَّةَ، واللهُ تعالى إنَّما وَعَدَ عبادَه الطائِعينَ[2].

١١- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أنَّ الفقرَ في الحالِ لا يمنَعُ التزويجَ؛ لاحتمالِ حصولِ المالِ في المآلِ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ سُؤالٌ: وهو كَونُ اللهِ تعالى جَعَلَ غايةَ طلبِ العفَّةِ بحُصولِ الغِنى، وطلبُ العفَّةِ فَرضٌ في كلِّ وَقتٍ؟!

الجوابُ: أنَّ هذه الغايةَ لا مَفهومَ لها؛ فليس المرادُ أنَّ اللهَ إذا أغناهم مِن فضْلِه

---

(١) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٧/ ٢٧٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه. ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٣١).

فلا حاجةَ إلى طلبِهم العفَّةَ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فليس المرادُ أنَّه إذا بَلَغَ أشُدَّه فاقرَبوه بغيرِ التي هي أحسنُ! وإنَّما سَكَتَ عمَّا بعدَ الغايةِ؛ لأنَّ الذي لم يجِدْ ما يتزوَّجُ به هو الذي يَحتاجُ إلى أنْ يتكَلَّفَ طلبَ العفَّةِ؛ لشِدَّةِ حرارةِ الشَّهوةِ والغَريزةِ الجنسيَّةِ ما دامَ غيرَ متزَوِّجٍ، فإذا أغناه اللهُ تعالى بالزَّواجِ، فلا يحتاجُ إلى تكلُّفِ العفَّةِ الذي كان واجِبًا عليه مِن قَبلُ؛ لأنَّ الغالبَ على المؤمنِ أنْ يستغنيَ بالحَلالِ عنِ الحرامِ، واللهُ تعالى أعلمُ(١).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ استدلَّ بعضُهم به على بُطلانِ نِكاحِ المُتعةِ؛ لأنَّه لو صحَّ لم يَتعيَّن الاستعفافُ على فاقدِ المهرِ، وظاهرُ الآيةِ تعيُّنُه، ولا يلزمُ مِن ذلك تحريمُ مِلكِ اليمينِ؛ لأنَّ مَن لا يقدِرُ على النِّكاحِ لعدمِ المهرِ، لا يقدِرُ على شراءِ الجاريةِ غالبًا(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دليلٌ على وجوبِ نفقةِ الزَّوجاتِ -إماءً كُنَّ أو حرائرَ-، وعلى أنَّ المهرَ يكونُ نَقدًا إلَّا أنْ ترضَى المرأةُ بتأخيرِه؛ إذْ لا نَجِدُ شيئًا يلزمُ الراغبَ في النِّكاحِ غيرَ هذين الشيئينِ؛ مِن نَقْدِ المهرِ والإنفاقِ، وإلَّا فلِمَ لا يَجِدُ النكاحَ(٣)؟!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العِفَّةَ سببٌ للغِنى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٧٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٩).

١٦- إنْ قيلَ: قد قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أمَرَهم بالاستِعفافِ إلى وَقتِ الغِنى، وأمَرَ بتَزويجِ أولئك مع الفَقرِ، وأخبَرَ أنَّه تعالى يُغنيهم. فما مَحمَلُ كُلٍّ مِنَ الآيتَينِ؟

الجَوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في حَقِّ الأحرارِ، أمَرَهم اللهُ تعالى أن يَستَعِفُّوا حتى يُغنيَهم اللهُ مِن فَضلِه؛ فإنَّهم إن تزَوَّجوا مع الفَقرِ التزَموا حُقوقًا لم يَقدِروا عليها، وليس لهم مَن يَقومُ بها عنهم. وأمَّا قَولُه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فإنَّه سُبحانَه أمَرَهم فيها أن يُنكِحوا الأَيامى وهنَّ النِّساءَ اللَّواتي لا أزواجَ لهُنَّ. هذا هو المَشهورُ مِن لَفظِ الأيِّمِ عندَ الإطلاقِ، وإنِ استُعمِلَ في حَقِّ الرَّجُلِ بالتَّقييدِ، مع أنَّ العَزَبَ عندَ الإطلاقِ للرَّجُلِ وإنِ استُعمِلَ في حَقِّ المرأةِ، ثمَّ أمَرَهم سُبحانَه أن يُزَوِّجوا عَبيدَهم وإماءَهم إذا صَلَحوا للنِّكاحِ؛ فالآيةُ الأُولى في حُكمِ تزَوُّجِهم لأنفُسِهم، والثَّانيةُ في حُكمِ تَزويجِهم لِغَيرِهم، وقَولُه في هذا القِسمِ: ﴿وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ يَعُمُّ الأنواعَ الثَّلاثةَ التي ذُكِرَت فيه؛ فإنَّ الأيِّمَ تَستغني بنَفَقةِ زَوجِها، وكذلك الأَمَةُ، وأمَّا العَبدُ فإنَّه لَمَّا كان لا مالَ له، وكان مالُه لسَيِّده، فهو فقيرٌ ما دام رقيقًا، فلا يُمكِنُ أن يُجعَلَ لِنكاحِه غايةٌ، وهي غِناه ما دام عَبدًا، بل غِناه إنَّما يكونُ إذا عَتَقَ واستغنى بهذا العِتقِ، والحاجةُ تَدعوه إلى النِّكاحِ في الرِّقِّ- فأَمَر سُبحانَه بإنكاحِه، وأخبَرَ أنَّه يُغنيه مِن فَضْلِه؛ إمَّا بكَسْبِه، وإمَّا بإنفاقِ سَيِّدِه عليه وعلى امرأتِه، فلم يُمكِنْ أن يَنتَظِرَ بنِكاحِه الغِنى الذي يُنتظَرُ بنِكاحِ الحُرِّ. واللهُ أعلَمُ[1].

---

(١) يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٣١٧).

١٧- تشَوَّفَ الشَّارِعُ تَشَوُّفًا شَديدًا للحُرِّيَّةِ والإخراجِ مِنَ الرِّقِّ، فأكثَرَ أسبابَ ذلك، كما أوجَبَه في الكفَّاراتِ؛ مِن قَتلٍ خَطَأٍ، وظِهارٍ، ويَمينٍ، وغَيرِ ذلك، وأوجبَ سِرايةَ العِتقِ[١]، وأمَرَ بالكِتابةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]، ورَغَّب في الإعتاقِ تَرغيبًا شَديدًا[٢].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ استُدلَّ به على أنَّه فَرْضٌ على السَّيِّدِ -إذا عَرَف مِن عَبدِه خيرًا أو مِن أَمَتِه- أنْ يُكاتِبَهما إذا التمَسَا منه الكِتابةَ، ولا يكونَ بالخِيارِ في إجابتِهما؛ لأنَّ ظاهرَ الآيةِ أمرٌ[٣]، والأصلُ في أوامرِ اللهِ ورَسولِه الوُجوبُ[٤].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ مفهومُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ العبدَ إذا لم يطلُبِ الكتابةَ لا يُؤمَرُ سَيِّدُه أن يبتدئَ بكتابتِه، وأنَّه إذا لم يعلَمْ منه خيرًا -بأنْ عَلِمَ منه عكْسَه-؛ إمَّا أنَّه يعلمُ أنَّه لا كسْبَ له، فيكونُ بسبَبِ ذلك كَلًّا على الناسِ ضائِعًا، وإمَّا أن يخافَ إذا أُعتِقَ وصار في حرِّيَّةِ نَفْسِه أن يتمكَّنَ مِن الفساد- فهذا لا يُؤمَرُ بكتابتِه، بل يُنهى عن ذلك؛ لِما فيه من المحذورِ المذكورِ[٥].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾

---

(١) سِرايةَ العِتقِ: أي: نُفوذَه فيما يُضافُ إليه، وسَرَيانَه إلى باقِيه. كما لو أعتَق جزءًا له مِن عبدٍ مشتركٍ، فإنَّه يسري إلى حصَّةِ شريكِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٧٥)، ((المنثور في القواعد الفقهية)) للزركشي (٢/ ٢٠٠)، ((إعانة الطالبين)) للبكري (٢/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢١٣). وسبق أن الجمهورَ حمَلوا الأمرَ في الآيةِ على الندبِ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

فيه سؤالٌ: كيف يصِحُّ أن يبيعَ مالَه بمالِه؟

الجوابُ: إذا ورد الشرعُ به أنَّه يجوزُ -كما إذا علَّقَ عِتقَه على مالٍ يكتَسِبُه فيؤدِّيه أو يؤدَّى عنه- صار سببًا لعِتقِه[1].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ استدَلَّ به الشافعيُّ على وجوبِ أن يحُطَّ السيِّدُ عن المكاتَبِ جُزءًا من المال الذي كاتَبه عليه، أو يدفَعَه إليه. وقال غيرُه: هو أمرُ نَدبٍ[2].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ في الآية ردٌّ على من حدَّد القَدْرَ المؤتَى[3].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ دليلٌ على أنَّ السيِّدَ الذي له مملوكاتٌ -ولو كُنَّ كبارًا- يُزوِّجُهنَّ بغيرِ إذنِهنَّ؛ لأنَّه مالكٌ لهُنَّ ملكًا مطلقًا، فمفهومُ الآيةِ أنَّ إكراهَهُنَّ على غيرِ البغاءِ -كالنكاحِ الصحيحِ- لا بأسَ به[4].

٢٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ فيه أنَّ الإكراهَ على الزِّنا يُتصَوَّرُ[5]، وإنَّما ذَكَر اللَّهُ إرادةَ التَّحَصُّنِ مِن المرأةِ؛ لأنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

والقول بأنَّ الأمر في الآيةِ للوجوبِ هو مذهبُ الشافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((المجموع)) للنووي (١٦/ ٢٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٤/ ٥٦٠).

ومذهبُ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ أنَّه على النَّدبِ. يُنظر: ((البناية شرح الهداية)) للعيني (١٠/ ٣٦٤)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٤/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣، ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

هو الَّذي يُصَوِّرُ الإكراهَ، فأمَّا إذا كانَتْ راغبةً في الزِّنا لم يُتَصَوَّرْ إكراهٌ[١].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه أنَّ مَهرَ البَغِيِّ حرامٌ[٢].

٢٦- قال تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بكسبِهنَّ وبيعِ أولادهنَّ مِن الفجورِ[٣]، وفيه دليلٌ على أنَّ وَلَدَ الأَمَةِ مِن زنًى عَبدٌ لسَيِّدِها[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلٌ على أنَّ إِثْمَ الزِّنا مدفوعٌ عن المكرَهةِ، ولا حَدَّ عليها فيه[٥]، وأنَّ المُكرَهَ غيرُ مُكَلَّفٍ ولا آثمٍ[٦]، فالآيةُ فيها ردٌّ على مَن أوجَب الحَدَّ على المُكرَهِ[٧].

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استُدلَّ به على إبطالِ قولِ مَن قال: «إنَّ الرجلَ إذا أكرَى جاريتَه مِن الفُسَّاقِ بِيْعَتْ عليه»؛ أَلَا ترى أنَّ اللهَ تعالى وعَدَها الغفرانَ على الإكراهِ؟! ولو كان البيعُ عليه جائزًا لكان حائِلًا بيْنها وبينَ الإكراهِ، فلا يكونُ السيدُ بعدَه مُكرِهًا، ولا هي محتاجةً بسببِ الإكراهِ إلى المغفرةِ والرحمةِ، وإنْ كانت محتاجةً في غيرِه[٨]!

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧١).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧١).

٢٩- في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلٌ لِمن قال بإباحةِ الأفعالِ المُحَرَّمةِ بالإكراهِ، فلا يَختصُّ بالأقوالِ فقط، وهذا في الأفعالِ المحرَّمةِ لحقِّ اللهِ فيها، فأمَّا قَتلُ المعصومِ فلا يُباحُ بالإكراهِ بلا نزاعٍ[1]، فالآيةُ فيها رَدٌّ على مَن فَرَّقَ مِن أهلِ العلمِ بين الإكراهِ على القَولِ والإكراهِ على الفِعلِ، ففي هذه الصُّورةِ الإكراهُ على البِغاءِ، والبِغاءُ فِعلٌ[2]. فليس كلُّ مَكرَهٍ على فِعلٍ مُحَرَّمٍ يأثَمُ به، وعليه جمهورُ العُلَماءِ، وقد دَلَّ على ذلك نَصُّ هذه الآيةِ، فإذا كان هذا في الإكراهِ على البِغاءِ، فالإكراهُ على شُربِ الخَمرِ وأكلِ المَيتةِ دونَ ذلك؛ فإنَّ الزِّنا مِن أكبرِ الكبائرِ بعد القَتلِ، كما دلَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ذلك عندَما سُئِلَ: أيُّ الذَّنْبِ أعظَمُ؟ قال: ((أن تجعَلَ لله نِدًّا...)) الحديثَ، إلى قَولِه: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ((أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِك))، ثمَّ قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[3] [الفرقان: ٦٨]، ومعلومٌ أنَّ المُكرَهاتِ مِن الإماءِ على البغاءِ -كما كان ابنُ أُبَيٍّ وأمثالُه يُكرِهونَ إماءَهم على الاكتسابِ بالبغاءِ- ليس هو أن يفعَلَ بها بلا فِعلٍ منها، بل هو أن تُكرَهَ حتى تقصِدَ ذلك وتفعَلَه؛ ولهذا سَمَّاه بِغاءً[4].

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعلَّه عبَّرَ بلَفظِ (بَعد) إشارةً إلى العَفوِ عن الميلِ إلى ذلك الفِعلِ عند مواقَعتِه إن رجَعَت إلى الكَراهةِ بعْدَه؛ فإنَّ النَّفْسَ لا تَملِكُ بُغضَه حينَئذٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيميَّة (٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٠١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٤) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٠).

٣١- قال تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وحاجَتُهنَّ إلى المغفرةِ المُنبئةِ عن سابقةِ الإثمِ: إمَّا باعتبارِ أنَّهنَّ وإنْ كنَّ مُكرَهاتٍ لا يَخْلونَ في تَضاعيفِ الزِّنا عن شائبةِ مُطاوَعةٍ ما بحُكْمِ الجِبلَّةِ البشريَّةِ، وإمَّا باعتبارِ أنَّ الإكراهَ قد يكونُ قاصِرًا عن حدِّ الإلجاءِ المُزيلِ للاختيارِ بالمرَّةِ، وإمَّا لغايةِ تَهويلِ أمْرِ الزِّنا، وحثِّ المُكرَهاتِ على التَّثبُّتِ في التَّجافي عنه، والتَّشديدِ في تَحذيرِ المُكرِهينَ، ببَيانِ أنَّهنَّ حيث كنَّ عُرضةً للعُقوبةِ لولا أنْ تَداركَهنَّ المغفرةُ والرَّحمةُ، مع قِيامِ العُذْرِ في حَقِّهنَّ؛ فما حالُ مَن يُكْرِهُهنَّ في استحقاقِ العذابِ[1]؟!

٣٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، في قَولِه: ﴿رَّحِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ سيجعلُ لهنَّ فَرَجًا؛ لأنَّ الرحمةَ بها حصولُ المطلوبِ وزوالُ المرهوبِ؛ لذلك نقولُ: إنَّ في هذه الآيةِ إشارةً إلى الفَرَجِ لِمَن أُكرِه على فِعل مُحَرَّمٍ؛ وأنَّ اللهَ تعالى سيَجْعَلُ له فَرَجًا، ويؤيِّدُ ذلك قولُ النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((واعلمْ أنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العُسرِ يُسرًا))[2].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُسلِمَ إذا وَقَعَ في ذَنبٍ وهو مُكرَهٌ مقهورٌ، لا يُؤخَذُ به، والقرآنُ الكريمُ قد دلَّ على أنَّ المكرهَ لا يُؤاخَذُ بما أُكْرِه عليه، كما قال تعالى: ﴿ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٥).

والحديث أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والطبراني (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكم (٦٣٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

صحَّحه عبدالحق الإشبيلي في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، وحسَّنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧)، والسخاوي في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨).

كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1] [النحل: ١٠٦].

بلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ خصَّ الصَّالحينَ؛ لِيُحصِّنَ دِينَهم، ويَحفَظَ عليهم صَلاحَهم -وذلك على أحدِ الأقوالِ في معنى الصلاحِ في الآيةِ-، ولأنَّ الصَّالحينَ مِن الأرِقَّاءِ هم الَّذين مَواليهم يُشفِقون عليهم، ويُنزِّلونَهم مَنزِلةَ الأولادِ في الأثَرةِ والمودَّةِ؛ فكانوا مَظِنَّةً للتَّوصيةِ بشأْنِهم، والاهتمامِ بهم، وتقبُّلِ الوصيةِ فيهم، والمُفسِدون منهم حالُهم عندَ مَواليهم على عكْسِ ذلك[2].

- وجُملةُ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ ...﴾ إلخ، استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ عُمومَ الأيامى والعبيدِ والإماءِ في صِيغةِ الأمرِ يُثيرُ سُؤالَ الأولياءِ والموالي: أنْ يكونَ الرَّاغبُ في تزوُّجِ المرأةِ الأيِّمِ فقيرًا؛ فهل يرُدُّه الوليُّ؟ وأنْ يكونَ سيِّدُ العبدِ فقيرًا لا يجِدُ ما يُنفِقُه على زَوجِه، وكذلك سيِّدُ الأمَةِ يخطُبُها رجُلٌ فقيرٌ حُرٌّ أو عبْدٌ؟ فجاء هذا لبَيانِ إرادةِ العُمومِ في الأحوالِ[3].

- و﴿عَلِيمٞ﴾ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ تكميلٌ لقولِه: ﴿وَٰسِعٌ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٧).

فذِكْرُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بعدَ ﴿وَٰسِعٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يُعْطي فضْلَه على مُقْتضى ما عَلِمَه مِن الحِكمةِ في مِقدارِ الإعطاءِ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ للمُبالَغةِ في الفِعلِ[2].

- وقولُه: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قيل: فيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: لا يَجِدون قُدرةً على النِّكاحِ[3].

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه تَرجيةٌ للمُستعفِّينَ، وتَقدِمةُ وَعدٍ بالتَّفضُّلِ عليهم بالغِنى؛ ليكونَ انتظارُ ذلك وتأْميلُه لُطْفًا لهم في استعفافِهم، وربْطًا على قُلوبِهم، وليَظهَرَ بذلك أنَّ فضْلَه أَوْلَى بالأعِفَّاءِ، وأدْنَى مِن الصُّلحاءِ؛ ففي إيقاعِ الغِنى غايةً للأمرِ بالاستعفافِ فائدتانِ؛ إحداهما: أنْ يُوطِّنَ المُستعفِفُ نفْسَه على الإمساكِ عن النِّكاحِ، ولا يَستعجِلَ قبْلَ الاستغناءِ. وثانيهما: أنَّه تعالى لمَّا رتَّبَ الأمرَ بالاستعفافِ على قولِه: ﴿يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، آذَنَ أنَّ فضْلَه أَولى بالأعِفَّاءِ؛ لأنَّ ترتُّبَ الحُكْمِ على الوصفِ المُناسِبِ مُشعِرٌ بالعِلِّيَّةِ، وكأنَّه قِيل: استَعِفُّوا إلى أنْ يُغنِيَكم اللهُ مِن فضْلِه[4].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٩)، =

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ دُخولُ الفاءِ في ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾؛ لتَضمينِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ...﴾ معنى الشَّرطيَّةِ؛ كأنَّه قِيل: إنِ ابْتَغى الكتابَ ما ملَكَتْ أيمانُكم فكاتِبوهم؛ تأْكيدًا لترتُّبِ الخيرِ على تحقُّقِ مَضمونِ صِلَةِ الموصولِ بأنْ يكونَ كترتُّبِ المشروطِ على الشَّرطِ[1].

- قَولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ فيه إضافةُ المالِ إليه تعالى، ووَصْفُه بإيتائِه إيَّاهم؛ للحثِّ على الامتثالِ بالأمْرِ بتَحقيقِ المأْمورِ به، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧]؛ فإنَّ مُلاحظةَ وُصولِ المالِ إليهم مِن جِهَتِه تعالى مع كونِه هو المالِكَ الحقيقيَّ له: مِن أقْوى الدَّواعي إلى صَرْفِه إلى الجِهةِ المأمورِ بها، والإضافةُ والوَصْفُ لتَعيينِ المأخَذِ[2]. وقِيل: إضافةُ المالِ إلى اللهِ؛ لأنَّه مُيسِّرُ أسبابِ تَحصيلِه. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الإعطاءَ مِن ذلك المالِ شُكرٌ، والإمساكَ جَحدٌ للنِّعمةِ قد يَتعرَّضُ به المُمسِكُ لسلبِ النِّعمةِ عنه[3].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ على القولِ بأنَّه وصْفٌ لاسمِ الجَلالةِ؛ فيكونُ امتنانًا وحثًّا على الامتثالِ بتذكيرِ أنَّه ولِيُّ النِّعمةِ، ويكونُ مَفعولُ ﴿ءَاتَىٰكُمۡ﴾ مَحذوفًا للعُمومِ، أي: آتاكم نِعَمًا كثيرةً، كقولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾[4] [إبراهيم: ٣٤].

= ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيه مِن زِيادةِ تَقبيحِ حالِهم وتَشنيعِهم على ما كانوا عليه مِن القبائحِ ما لا يخفى؛ فإنَّ مَن له أدْنى مُروءةٍ لا يَكادُ يَرضى بفُجورِ مَن يَحويهِ حرَمُه مِن إمائِه، فضْلًا عن أمْرِهنَّ به أو إكراهِهنَّ عليه، لا سيَّما عندَ إرادتِهنَّ التَّعفُّفَ[1].

- قَولُه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾، أي: إماءَكم؛ فإنَّ كُلًّا مِن الفَتَى والفَتاةِ كِنايةٌ مَشهورةٌ عن العبدِ والأمَةِ، ولهذه العبارةِ في هذا المقامِ باعتبارِ مَفهومِها الأصليِّ حُسْنُ مَوقعٍ، ومَزيدُ مُناسَبةٍ لقولِه تعالى: ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ وهو الزِّنا مِن حيثُ صُدورُه عن النِّساءِ؛ لأنَّهنَّ اللَّاتي يُتوقَّعُ منهنَّ ذلك غالبًا دُون مَن عداهنَّ مِن العجائزِ والصَّغائرِ[2].

- قَولُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ في التعبيرِ بكلمةِ (إنْ) وإيثارُها على (إذا) إيذانٌ بأنَّ المُساعياتِ كنَّ يَفعلْنَ ذلك برغبةٍ وطواعيةٍ منهنَّ، وأنَّ ما وُجِدَ مِن إرادةِ التَّحصُّنِ مِن خبَرِ الشَّاذِّ النَّادرِ[3]. وقِيل: إيثارُ كَلمةِ (إنْ) على (إذا) مع تحقُّقِ الإرادةِ في مَوردِ النَّصِّ حتْمًا؛ للإيذانِ بوُجوبِ الانتهاءِ عن الإكراهِ عندَ كونِ إرادةِ التَّحصُّنِ في حيِّزِ التَّردُّدِ والشَّكِّ؛ فكيف إذا كانت مُحقَّقةَ الوُقوعِ كما هو الواقعُ[4]؟!

- وقولُه: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿تُكْرِهُوا﴾، أي: لا تُكْرِهوهنَّ لهذه العِلَّةِ؛ ذكَرَ هذه العِلَّةَ لزِيادةِ التَّبشيعِ[5]. فهو قَيدٌ للإكراهِ، لكنْ لا باعتبارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٧).

أنَّه مَدارُ النَّهيِ عنه، بلْ باعتبارِ أنَّه المُعتادُ فيما بيْنهم؛ تَشنيعًا لهُم فيما هُم عليه مِن احتمالِ الوِزْرِ الكبيرِ لأجْلِ النَّزْرِ الحقيرِ(١)؛ فإنَّ العَرَضَ مُتَحَقِّقٌ فيه الزوالُ، والدنيا مُشْتَقَّةٌ مِن الدناءةِ(٢).

- قَولُه: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جَملةٌ مُستأنفةٌ سِيقَت لتَقريرِ النَّهيِ، وتأْكيدِ وُجوبِ العمَلِ به، ببَيانِ خَلاصِ المُكْرَهاتِ مِن عُقوبةِ المُكرَهِ عليه عِبارةً، ورُجوعِ غائلةِ الإكراهِ إلى المُكرِهينَ إشارةً(٣).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه توسيطُ الإكراهِ بيْن اسم (إنَّ) وخبَرِها؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك هو السَّببُ للمغفرةِ والرَّحمةِ. وفي تَخصيصِهما بهنَّ، وتَعيينِ مَدارِهما، مع سَبْقِ ذِكْرِ المُكرِهينَ أيضًا في الشَّرطيةِ: دَلالةٌ بيِّنةٌ على كونِهم مَحرومينَ منهما بالكُلِّيَّةِ؛ كأنَّه قِيل: لا للمُكْرِهِ. ولظُهورِ هذا التَّقديرِ اكْتَفى به عن العائدِ إلى اسمِ الشَّرطِ.

- قَولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قِيل: إنَّه دَليلُ جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ؛ إذ حُذِفَ الجوابُ إيجازًا، واستُغْنِيَ عن ذِكْرِه بذِكْرِ عِلَّتِه الَّتي تشمَلُه وغيرَه. والتَّقديرُ: فلا إثْمَ عليهنَّ؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ لأمْثالِهنَّ ممَّن أُكْرِهَ على فِعْلِ جريمةٍ. وحرْفُ (إنَّ) في هذا المقامِ يُفِيدُ التَّعليلَ، ويُغْني غَناءَ لامِ التَّعليلِ(٤).

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعريضٌ بالوعيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨).

للَّذين يُكْرِهون الإماءَ على البغاءِ[١].

- وفي الآياتِ الثَّلاثِ السَّابقةِ تَرتيبٌ حسَنٌ بَديعٌ؛ فما أحسَنَ ما رتَّبَ هذه الأوامِرَ! حيث أمَرَ أوَّلًا بما يَعصِمُ مِن الفتنةِ، ويُبعِدُ مِن مُواقَعةِ المعصيةِ؛ وهو غضُّ البصرِ، ثمَّ بالنِّكاحِ الَّذي يُحصَنُ به الدِّينُ، ويقَعُ به الاستغناءُ بالحلالِ عن الحرامِ، ثمَّ بالحمْلِ على النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، وعزْفِها عن الطُّموحِ إلى الشَّهوةِ عندَ العجْزِ عن النِّكاحِ إلى أنْ يُرزَقَ القُدرةَ عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩).

الآيتان (٣٤-٣٥)

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَثَلًا﴾: أي: قصةً عجيبةً، أو شبَهًا، أو أخبارًا تكونُ لكم مثلًا، وأصلُ (مثل): يَدُلُّ على مُناظرَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ[1].

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: المشكاةُ: الكَوَّةُ في الحائطِ غيرُ النافذةِ يُوضَعُ فيها المصباحُ، وقيل: مَوضِعُ الفتيلةِ مِن القنديلِ، واختُلِف هل هي عربيةٌ أو حبشيَّةٌ مُعَرَّبةٌ[2].

﴿دُرِّىٌّ﴾: أي: مضيءٌ؛ منسوبٌ إلى الدُّرِّ، وهو كِبارُ اللُّؤْلُؤِ، تَشْبيهًا بصفائِه، والدريُّ: الشَّديدُ الإنارةِ، وأصلُ (دري) هنا: يدلُّ على اضْطِرابٍ في شيءٍ، وسُمِّي الدرُّ بذلك؛ لاضطرابٍ يُرَى فيه لِصَفائِه، كأنَّه ماءٌ يَضْطَرِبُ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجوه والنظائر)) لأبي هلال العسكري (ص: ٤٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١). ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٣). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٢). ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦). ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولقد أنزَلْنا إليكم آياتٍ واضحاتٍ موضِّحاتٍ، ومَثَلًا بمَن سبقَكم مِن الأُمَمِ؛ لتتَّعِظوا وتعتَبِروا، وعِظةً وذِكرى للمتَّقين. اللهُ نورُ السَّمواتِ والأرضِ، وهادي مَن فيهما، مَثَلُ نورِ الله في قلبِ المؤمِنِ ككَوَّةٍ في حائطٍ غيرِ نافذةٍ، فيها مِصباحٌ، المِصباحُ في زُجاجةٍ مُتوهِّجةٍ كأنَّها كوكبٌ مُضيءٌ كالدُّرِّ، يوقَدُ المصباحُ مِن زيتِ شَجَرةِ زيتونٍ مُبارَكةٍ، لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، فلا يستُرُها عن الشَّمسِ شَيءٌ في الصَّباحِ أو في المساءِ، يكادُ زيتُها -لصفائِه- يضيءُ ولو لم تمسَسْه نارٌ، نورٌ على نورٍ؛ نورُ النَّارِ مع نورِ الزَّيتِ والزجاجة، وانعكاسه مِن الكوَّةِ، وهكذا قلبُ المؤمنِ إذا أشرقَ فيه نورُ الهدايةِ، واللهُ يَهدي لنورِه مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويضرِبُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ، واللهُ بكُلِّ شيءٍ عَليمٌ، لا يخفى عليه شَيءٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن فصَّل هذه الأحكامَ التي سبَقت وبيَّنها؛ امتنَّ على عبادِه بذلك، فقال[1]:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بفتح الياءِ، بمعنى: واضحاتٍ مفسَّراتٍ مفصَّلاتٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٠٦).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو بكر شعبة، ونافع، وأبو جعفر، وأبو عمرو، ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨). =

٢- قراءةُ ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياءِ، بمعنى: موضِّحاتٍ؛ تُبَيِّنُ الحقَّ والصوابَ للنَّاسِ(١).

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: ولقد أنزَلْنا إليكم(٢) آياتٍ واضحاتٍ مُفَصَّلاَتٍ، توضِّحُ الحقَّ، وتميِّزُه مِن الباطلِ، وتُبَيِّنُ الأحكامَ(٣).

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليكم قِصَّةً عجيبةً في هذه السُّورةِ مِن جنسِ قَصَصِ الأُمَمِ الماضينَ مِن قَبْلِكم(٤).

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨).

(٢) قال ابنُ جريرٍ: (ولقد أنزلنا إليكم أيُّها الناسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٣١، ٢٣٢).

قال البِقاعي: (﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مفصَّلٌ فيها الحقُّ من الباطلِ، موضَّحٌ بالنقل والعقلِ، بحيث صارت لشدَّةِ بيانِها تبينُ هي لمن تدبَّرها طرقَ الصوابِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٦).

قال ابن عاشور: (وفي الكلامِ حذفُ مُضافٍ يَدُلُّ عليه السِّياقُ، تقديرُه: مِنْ أمثالِ الَّذينَ خَلَوا مِنْ قبلِكم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠).

وممَّن قال بهذا القولِ: الزمخشريُّ، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦). =

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليكم من الوَعدِ والوعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ ما يَعتبِرُ به الذين يتَّقون اللهَ، ويخافونَ عقابَه، فيَمتثِلون أوامِرَه، ويجتَنِبون نواهيَه(١).

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه مِنَ الأحكامِ ما بَيَّنَ، أردَف ذلك بكَونِه سُبحانَه في غايةِ الكَمالِ(٢)، وعلَّل إنزالَه ما سبَق على هذا السَّنَنِ الأقوَمِ، والنَّظْمِ المُحكَمِ(٣).

= وقال الشنقيطي: ((المرادُ بالقِصَّةِ العجيبةِ التي أنزل إلينا، وعبَّر عنها بقَولِه: ﴿وَمَثَلًا﴾ هي براءةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها مِمَّا رماها به أهلُ الإفك... لأنَّ كُلًّا مِن عائشةَ ومريمَ ويوسُفَ رُمي بما لا يليقُ، وكلٌّ منهم برَّأه الله، وقِصَّةُ كُلٍّ منهم عجيبةٌ؛ ولذا أطلَقَ عليها اسمَ المَثَل)). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣٤، ٥٣٦).

وقال ابنُ عثيمين: ((المرادُ بالمَثَلِ -والله أعلم- هنا ما هو أعَمُّ مِن الواقِعِ، يعني: أمثالًا مِن الذين خَلَوا، وليس هذا خاصًّا بخبَرِ عائشةَ رضِيَ الله عنها ومريمَ ويوسُفَ، بل هو أعَمُّ مِن ذلك... فاللهُ سُبحانه وتعالى ضرَبَ لنا أمثالًا ممَّن خلا مِن قَبلِنا فيما يتعلَّقُ بالعِفَّةِ والصِّيانةِ، وفيما يتعلَّقُ بالأمرِ بالدِّينِ والإيمانِ والقُدوةِ الحَسَنةِ)). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى ببَعضِ الأُمورِ التي لا غِنَى للنَّاسِ عنها، ونَهى عن بَعضِ الأُمورِ التي بارتِكابِها يَحصُلُ الضَّرَرُ على المُجتمَعِ والأفرادِ، وحَثَّ على بَعضِ الآدابِ؛ بَيَّن سُبحانَه أنَّ امتِثالَ تلك الأوامِرِ، واجتِنابَ تلك النَّواهي، والتِزامَ تلك الآدابِ: يُنَوِّرُ لها قُلوبَ بَعضِ عِبادِه؛ فيُوفِّقُهم لها، ويَطمِسُ قُلوبَ آخَرينَ؛ فلا يَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَرتَكِبونَ نواهيَه، فضَرَبَ للمُوَفَّقِ هذا المَثَلَ، وضَرَب للضَّالِّينَ المَثَلَ الآتيَ بعدَ ذلك[١].

وأيضًا لَمَّا كان غَضُّ البصرِ يَكْسِبُ القَلبَ نُورًا، كما أنَّ إطلاقَه يُلْبِسُه ظُلمةً؛ ذَكَرَ اللهُ سبحانَه آيةَ النُّورِ عَقِيبَ الأمرِ بغَضِّ البصرِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ، وهادي مَن فيهما، ومُدبِّرُ أمورِهم، وهو بذاتِه نورٌ جلَّ وعلا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٣٩١)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٤ - ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٩).

قال ابنُ القيِّم: (اللهُ سبحانَه وتعالى سمَّى نفسَه نورًا، وجعل كتابَه نورًا، ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نورًا، ودينَه نورًا، واحتجَبَ عن خلقِه بالنورِ، وجعَلَ دارَ أوليائِه نورًا تتلألأ... وقد فُسِّر: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] الآيةَ: بكونِه مُنَوِّرَ السَّموات والأرضِ، وهاديَ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فبُنورِه اهتدى أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، وهذا إنَّما هو فِعلُه، وإلَّا فالنورُ الذي هو من أوصافِه قائِمٌ به، ومنه اشتُقَّ له اسمُ النورِ الذي هو أحدُ الأسماءِ الحُسنى.

والنورُ يُضافُ إليه سُبحانَه على أحدِ وَجهَينِ: إضافةُ صِفةٍ إلى موصوفِها، وإضافةُ مَفعولٍ =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو مِنَ اللَّيلِ: ((اللهُمَّ لك الحمدُ، أنت ربُّ السَّمواتِ والأرضِ، لك الحمدُ أنت قَيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، لك الحمدُ أنت نورُ السَّمواتِ والأرضِ، قولُك الحقُّ، ووعدُك الحقُّ، ولِقاؤُك حَقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصَمتُ، وإليك حاكَمتُ؛ فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وأسرَرتُ وأعلَنتُ، أنت إلهي لا إلهَ لي غيرُك))(١).

= إلى فاعِلِه. فالأوَّلُ: كقَولِه تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ...﴾ [الزمر: ٦٩] الآيةَ، فهذا إشراقُها يومَ القيامةِ بنورِه تعالى إذا جاء لفَصلِ القَضاءِ... وفي مُعجَمِ الطَّبَرانيِّ والسُّنَّةِ له، وكتابِ عُثمانَ الدَّارميِّ، وغيرِها، عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: «ليس عند ربِّكم ليلٌ ولا نهارٌ؛ نورُ السَّمواتِ والأرضِ مِن نورِ وَجهِه»، وهذا الذي قاله ابنُ مسعودٍ رَضِيَ الله عنه أقرَبُ إلى تفسيرِ الآيةِ مِن قَولِ مَن فسَّرها بأنَّه هادي أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، وأمَّا مَن فسَّرها بأنَّه مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ، فلا تنافيَ بينَه وبيْن قَولِ ابنِ مَسعودٍ، والحَقُّ أنَّه نورُ السَّمواتِ والأرضِ بهذه الاعتِباراتِ كُلِّها). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٤٤-٤٦).

وقال السَّعدي: (﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الحسِّيُّ والمعنويُّ؛ وذلك أنَّه تعالى بذاتِه نورٌ، وحِجابُه -الذي لولا لُطفُه لأحرَقَت سُبُحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بصَرُه مِن خَلقِه- نورٌ، وبه استنار العَرشُ والكرسيُّ، والشَّمسُ والقَمَرُ والنورُ، وبه استنارت الجنَّةُ. وكذلك النورُ المعنويُّ يَرجِعُ إلى الله؛ فكتابُه نورٌ، وشَرعُه نورٌ، والإيمانُ والمعرفةُ في قُلوبِ رُسُلِه وعبادِه المؤمنين نورٌ. فلولا نورُه تعالى لتَراكمت الظُّلُمات؛ ولهذا كُلُّ محَلٍّ يَفقِدُ نورَه، فثَمَّ الظُّلمةُ والحَصرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقال ابنُ عثيمين: (النُّورُ حقيقيٌّ لله سبحانَه وتعالى؛ فهو نورٌ، وصِفاتُه نورٌ، وكذلك آياتُه نورٌ؛ سَمَّاها اللهُ تعالى نورًا لأنَّ اللهَ تعالى وَصَف نَفْسَه بهذا الشَّيءِ، ولكِنْ ليس كالنُّورِ الذي نتصَوَّرُه أو نتخيَّلُه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٨).

وقال ابن تيميَّةَ: (اللهُ تعالَى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ فإنَّه ليس كشَيءٍ مِنَ الأنوارِ، كما أنَّ ذاتَه ليست كشيءٍ مِنَ الذَّواتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٩٥).

(١) رواه البخاري (٧٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٧٦٩).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلَق خَلْقَه في ظُلمةٍ، فألقَى عليهم مِن نُورِه، فمَن أصابَه مِن ذلك النُّورِ اهتدَى، ومَن أخطأه ضلَّ؛ فلذلك أقولُ: جفَّ القَلمُ على عِلمِ اللهِ))(١).

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

أي: مَثَلُ نورِ الله(٢) في قَلبِ المؤمنِ الذي هداه الله مثلُ كَوَّةٍ غيرِ نافذةٍ، وُضِع

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢) واللفظُ له، وأحمد (٦٦٤٤) مُطوَّلاً.

حسَّنه الترمذي، وصَحَّحه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (١/ ٨٤) وقال: (قد تداوله الأئمَّةُ، وقد احتجَّا بجميعِ رُواتِه ثُمَّ لم يُخَرِّجاه، ولا أعلمُ له عِلَّةً). وحَسَّنه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٣١٦)، وصَحَّح إسنادَه البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (١/ ١٦٦)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/ ٧٩)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٢).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ يعودُ إلى اللهِ تعالى: البغويُّ، وابن جُزي، والخازن، وابن القيم، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٧)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٤).

قال السمعاني: (﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحَدُها: أنَّ معناه: مَثَلُ نُورِ اللهِ في قَلبِ المُؤمِنِ، وهو النُّورُ الذي يُهتدَى به، وهذا في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. والقَولُ الثَّاني: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: نورِ قَلبِ المؤمنِ بالإيمانِ. والقَولُ الثَّالِثُ: أنَّه نورُ مُحمَّدٍ، ومنهم مَن أوَّلَ على القُرآنِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٩).

قال ابنُ عطيَّة: (واختلف المتأوِّلون في الضَّميرِ في ﴿نُورِهِۦ﴾ على مَن يعودُ؛ فقال كَعبُ الأحبارِ وابنُ جُبَيرٍ: هو عائِدٌ على محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: مَثَلُ نُورِ محمَّدٍ. وقال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ، وابنُ جُبَيرٍ [في روايةٍ أُخرَى]، والضحَّاكُ: هو عائِدٌ على المؤمِنينَ... وقال الحسَنُ: هو عائِدٌ على القُرآنِ والإيمانِ... وهذه أقوالٌ فيها عَودُ الضَّميرِ على مَن لم يَجْرِ له ذِكرٌ، وفيها قَطعُ المعنى المرادِ بالآيةِ. =

فيها مِصباحٌ[1].

= وقالت فِرقةٌ: الضَّميرُ في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائدٌ على الله، ثم اختَلَفت هذه الفِرقةُ في المرادِ بـالنورِ الذي أُضيفَ إلى اللهِ تعالى إضافةَ خَلقٍ إلى خالِقٍ، كما تقولُ: سماءُ اللهِ، وناقةُ الله؛ فقال بعضُها: هو محمَّدٌ. وقال بعضُها: هو المؤمِنُ. وقال بعضُها: هو الإيمانُ والقرآنُ. وهذه الأقوالُ متَّجِهةٌ مطَّرِدٌ معها المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٣).

قال ابن جزي: (المعنى: صفةُ نورِ الله في وضوحِه كصفةِ مِشكاةٍ فيها مِصباحٌ، على أعظَمِ ما يَتصوَّرُه البَشَرُ مِن الإضاءةِ والإنارةِ... وقيل: الضَّميرُ في نورِه عائدٌ على سيدِنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقيل: على القرآنِ، وقيل: على المؤمنِ. وهذه الأقوالُ ضعيفةٌ؛ لأنَّه لم يتقدَّمْ ما يعودُ عليه الضَّميرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠).

وقال ابن القيم: (وقد اختُلف في تفسيرِ الضميرِ في ﴿نُورِهِۦ﴾؛ فقيل: هو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: مثَلُ نورِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقيل: تفسيرُه المؤمنُ، أي: مثَلُ نورِ المؤمنِ، والصحيحُ أنَّه يعودُ على الله عزَّ وجلَّ، والمعنى: مثَلُ نورِ الله سبحانه وتعالى في قلبِ عبدِه. وأعظَمُ عبادِه نصيبًا مِن هذا النورِ رسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، فهذا مع ما تضمَّنه عودُ الضميرِ إلى المذكورِ، وهو وجهُ الكلامِ يتضمَّنُ التقاديرَ الثلاثةَ، وهو أتمُّ معنًى ولفظًا). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥).

ممَّن اختار أنَّ المشكاةَ هي الكَوَّةُ غيرُ النَّافذةِ في الجِدارِ: الفَرَّاءُ، وأبو عبيدة، وابنُ قُتَيبة، والزجَّاج، والسمعاني، والراغب الأصبهاني، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية -ونَسَبه لجمهورِ المفسِّرين-، وابن جزي، وابن القيم، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٢)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٦٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٠)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤١).

قال الألوسي: (والمُعَوَّلُ عليه قَولُ الجُمهورِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٥٩). =

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾.

= قال الواحدي: (﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي كَوَّةٌ غيرُ نافذةٍ، في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٢٠).
وقال أيضًا: (قال ابنُ عباسٍ في رواية عطاءٍ وسليمانَ [ابن قتَّة]: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ يعني: كَوَّةً غيرَ نافذةٍ بلِسانِ الحَبَشِ. وهذا قولُ السُّدِّي، والكلبي، وقتادةَ، وجميعِ المفسِّرين. قالوا: هي الكَوَّةُ غيرُ النافذةِ، كما قال أهلُ اللغةِ، غيرَ أنَّ بعضَهم ذكر أنَّها بلُغةِ الحبَشَةِ). ((البسيط)) (١٦/ ٢٦٠).
وقال ابن عاشور: (المِشْكاةُ: المعروفُ مِن كلامِ أهلِ اللُّغةِ أنَّها فُرجةٌ في الجِدارِ مِثلُ الكَوَّةِ، لكِنَّها غيرُ نافِذةٍ، فإن كانت نافِذةً فهي الكَوَّةُ. ولا يُوجَدُ في كلامِ الموثوقِ عنهم من أهلِ العربيَّةِ غيرُ هذا المعنى، واقتصَرَ عليه الرَّاغِبُ، وصاحِبُ «القاموس»، و «الكشَّاف»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عمر، وابنُ عَبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وكعب الأحبار، والحسن، وابن جُرَيج، وسعد بن عياض، والسُّدِّي، وعِكْرِمة، والكلبي، وسليمان بن قتة، وقتادة، والضحاك، وأبو مالك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٦٠).

وقيل: المِشْكاةُ: هي مَوضِعُ الفَتيلةِ مِنَ القِنديلِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير، وابن كثير، والسيوطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهِدٌ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨).

قال الواحدي: (﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي: الكَوَّةُ غيرُ النَّافذةِ، والمرادُ بها هاهنا: الذي وسَطَ القِنديلِ كالكَوَّةِ يُوضَعُ فيها الذُّبالةُ). ((الوجيز)) (ص: ٧٦٤). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٦٦).

وقال ابنُ العربي: (لا خِلافَ بينَ المُحَقِّقينَ الذين يُنزلونَ التَّفسيرَ مَنازِلَه، ويَضَعونَ التَّأويلَ مَواضِعَه مِن غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ: أنَّ هذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ تعالى لنُورِه، ولا يُمكِنُ أن يَضرِبَ لنُورِه المُعَظَّمِ مَثَلًا تنبيهًا لخَلقِه إلَّا ببَعضِ خَلْقِه؛ لأنَّ الخَلْقَ بقُصورِهم لا يَفهَمونَ إلَّا بأنفُسِهم ومِن أنفُسِهم، ولولا ذلك ما عَرَفَ اللهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٤).

أي: وهذا المِصباحُ داخلَ زجاجةٍ تُحيطُ به[١].

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿دُرِّيٌّ﴾ قِراءاتٌ:

١- قِراءةُ: ﴿دِرِّيءٌ﴾ بكَسرِ الدَّالِ مع المَدِّ والهَمزِ، وهو فِعِّيلٌ، مِثلُ سِكِّيرٍ؛ مِنَ الدَّرْءِ: وهو الدَّفعُ، والمعنى: أنَّ الخَفاءَ يُدفَعُ عنه لِتَلألُئِه في ظُهورِه، أو أنَّه يَدفَعُ بنُورِه مِن أن يَنظُرَ النَّاظِرُ إليه. وقيل: سُمِّيَ دِرِّيئًا؛ لأنَّ الكوكَبَ يَدفَعُ الشَّياطينَ مِنَ السَّماءِ، وشَبَّهَه بحالةِ الدَّفعِ؛ لأنَّه يكونُ في تلك الحالةِ أضوَأَ وأنوَرَ. ويُقالُ: هو مِنَ دَرَأَ الكَوكبُ: إذا اندفَعَ مُنقَبِضًا، فيَتَضاعَفُ ضَوؤُه في ذلك الوَقتِ. وقيل: إنَّما سُمِّيَ دِرِّيئًا؛ لأنَّه يَطلُعُ عليك مِن مَطْلِعِه، يُقالُ: دَرَأَ النَّجمُ: إذا طَلَع وارتَفَع[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿دُرِّيءٌ﴾ بضَمِّ الدَّالِ والمَدِّ والهَمزِ، وهو فُعِّيلٌ مِنَ الدَّرءِ: وهو الدَّفعُ[٣].

٣- قِراءةُ: ﴿دُرِّيٌّ﴾ نِسبةً إلى الدُّرِّ؛ لفَرطِ ضِيائِه وبَهائِه ونُورِه، ويجوزُ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦).

(٢) قرأ بها أبو عمرو والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩).

(٣) قرأ بها حمزة وشعبة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩).

يكونَ فُعِّيلًا مِنَ الدَّرءِ: وهو الدَّفعُ، فخُفِّفَت الهَمزةُ فانقَلَبَت ياءً، ثم أُدغِمَت الياءُ في الياءِ، فتكونُ بمعنى القِراءةِ السَّابقةِ[1].

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾.

أي: الزُّجاجةُ صافيةٌ وبهيَّةٌ كأنَّها كوكَبٌ صافٍ حَسَنٍ مُضيءٍ، وهكذا قَلبُ المؤمِنِ الخالِصِ من الكُفرِ والشَّكِّ، المتطهِّرِ من دَنَسِ المعاصي[2].

عن حُذيفةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ[3] فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلبينِ؛ على أبيَضَ مِثلِ الصَّفا[4]، فلا تضُرُّه فِتنةٌ ما دامت السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسوَدُ مِرْبادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا[5]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلاَّ ما أُشرِبَ مِن هواه!))[6].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٩)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال البقاعي: (فإنه إذا كان في زجاجةٍ صافيةٍ انعكَست الأشعةُ المنفصلةُ عنه مِن بعضٍ جوانبِ الزُّجاجةِ إلى بعضٍ؛ لِما فيها مِن الصَّفاءِ والشفيفِ، فيزدادُ النورُ، ويبلغُ النهايةَ، كما أنَّ شعاعَ الشمسِ إذا وقَع على ماءٍ أو زجاجةٍ صافيةٍ تضاعَف النُّورُ، حتى إنَّه يَظهرُ فيما يقابلُه مثلُ ذلك النُّورِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٧٣).

(٣) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٤) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٥) مُجَخِّيًا: أي: مائِلاً مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُوقَدُ﴾ قِراءاتٌ:

١- قِراءةُ ﴿يُوقَدُ﴾ وفاعِلُ (يوقَدُ) المِصباحُ. وقيل: يجوزُ أن يكونَ التوقُّدُ للكَوكَبِ[1].

٢- قِراءةُ ﴿تَوَقَّدَ﴾: فعلٌ ماضٍ بزِنةِ (تَفَعَّلَ)، وفاعِلُ (تَوقَّدَ) المِصباحُ. ويجوزُ أن يكونَ التوقُّدُ للكوكَبِ. وقيل: لا يعودُ على (كوكب)؛ لفَسادِ المعنى[2].

٣- قِراءةُ ﴿تُوقَدُ﴾ على أنَّ الإيقادَ للزُّجاجةِ[3].

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.

أي: يَستَمِدُّ المصباحُ نورَه مِن زيتِ شَجرةِ زيتونٍ، مُبارَكةٍ كَثيرةِ المنافِعِ،

---

(١) قرأ بها نافع، وابن عامر، وحفص. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٠٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٠٧).
قال ابن زنجلة: (فإنْ قِيلَ: كيف وُصِفَت الزُّجاجةُ بأنَّها تُوقَدُ، وإنَّما يكونُ الاتِّقادُ للنَّارِ؟ قيل: لَمَّا كان الاتِّقادُ فيها جازَ أن يُوصَفَ به؛ لارتفاعِ اللَّبسِ عن وَهمِ السَّامِعينَ، وعِلمِهم بالمرادِ مِن الكَلامِ، والعَرَبُ قد تُسنِدُ الأفعالَ كثيرًا إلى ما لا فِعْلَ له في الحقيقةِ إذا كان الفِعلُ يَقَعُ فيه، فيقولونَ: ليلٌ نائِمٌ؛ لأنَّ النَّومَ فيه يكونُ). ((حجة القراءات)) (ص: ٥٠٠)

لا شرقيَّةٍ تصيبُها الشَّمسُ عند الشُّروقِ فقط، ولا غربيَّةٍ تصيبُها الشَّمسُ عند الغروبِ فقط، بل الشَّمسُ تصيبُها طوالَ النَّهارِ؛ فيكونُ زيتُها أصفى وأجوَدَ وأشدَّ إضاءةً(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٠، ٣١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ: الفرَّاءُ، وابن جرير، والزجاج، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٦).

ونسَبَ السمعانيُّ هذا القولَ لأكثرِ أهلِ المعاني، ونسَبَه البغويُّ للأكثرينَ، والرَّسعنيُّ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٥).

قال ابن عثيمين: (فهي إمَّا في رَبْوةٍ، وذلك أكمَلُ وأبيَنُ وأعلى وأطيَبُ زَيتًا، وإمَّا في مكانٍ مُستَوٍ؛ صحراويَّة). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٥).

وقال الشنقيطيُّ بعد أن ذكَر أنَّ أظهَرَ الأقوالِ أنَّها باديةٌ لا يَستُرُها شَيءٌ عن الشمسِ، قال: (وذلك بألَّا يَكونَ في شَرقِها ولا في غَربِها شجَرٌ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٣٧).

وقيل: ليست مِن المَشرقِ ولا مِن المَغربِ، بلْ في الوسَطِ منهما، وهو الشامُ، وأجْوَدُ الزَّيتونِ زَيتونُ الشامِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الكرمانيُّ، والزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٧٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٨)، وقد وصَف هذا القولَ بأنَّه غيرُ سديد.

وقال السعدي: (﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تُصيبَها الشمسُ آخِرَ النهارِ، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تُصيبَها الشمسُ أوَّلَ النهارِ، وإذا انتفى عنها الأمْرانِ، كانت متوسِّطةً مِن الأرضِ؛ كزَيتونِ الشامِ، تُصيبُها الشمسُ أوَّلَ النهارِ وآخِرَه؛ فتَحسُنُ وتَطيبُ، ويَكونُ أصْفى لزَيتِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقيل: المعنى: أنَّها شجرةٌ بيْن الأشجارِ، لا هي بارزةٌ للشمسِ عندَ شُروقِها، ولا هي بارزةٌ عندَ غروبِها. وذكَر الشنقيطيُّ أنَّه باطلٌ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٨). =

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾.

أي: يُقارِبُ زَيتُ هذه الشَّجَرةِ المباركةِ أن يضيءَ بنَفسِه ولو لم تمسَسْه نارٌ؛ مِن شدَّةِ صَفائِه وتلألُئِه، فإذا مسَّتْه النارُ أضاء إضاءةً عظيمةً[1].

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾.

أي: اجتمعُ نورُ النَّارِ مع نور الزَّيتِ، وهكذا المؤمِنُ قَلبُه مضيءٌ، يكادُ يعرِفُ

= وقال السمرقندي: (ورُويَ عن الحسَنِ أنَّه قال: ليس هذه مِن أشجارِ الدُّنيا، لكنْ مِن أشجارِ الآخِرةِ، يعني: أنَّ أشجارَ الدُّنيا لا تَخلو مِن أن تَكونَ شرقيَّةً أو غربيَّةً، ولكنْ هذه مِن أشجارِ الآخرةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٣).

وقال ابنُ القيِّم: (كذلك مادَّةُ نورِ المِصباحِ الذي في قلبِ المؤْمِنِ هو مِن شجرةِ الوحيِ التي هي أعظَمُ الأشياءِ بَرَكةً، وأبعَدُها مِن الانحرافِ، بل هي أوسَطُ الأمورِ وأعْدَلُها وأفضَلُها، لم تَنحرِفِ انحرافَ النصرانيَّةِ، ولا انحرافَ اليهوديَّةِ، بل هي وسَطٌ بيْن الطرفَينِ المَذمومَينِ في كلِّ شَيءٍ، فهذه مادَّةُ مِصباحِ الإيمانِ في قلبِ المؤمِنِ). ((الوابل الصيب)) (ص: ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابنُ جرير: (وعُنيَ بقَولِه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ أنَّ حُجَجَ اللهِ تعالى ذِكرُه على خَلقِه تَكادُ مِن بَيانِها ووُضوحِها تُضيءُ لِمَن فكَّر فيها، ونظَرَ، أو أعرَضَ عنها ولها. ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ يقولُ: ولو لم يَزِدْها الله بيانًا ووضوحًا بإنزالِه هذا القرآنَ إليهم، مُنبِّهًا لهم على تَوحيدِه، فكيف إذا نبَّهَهم به، وذكَّرهم بآياتِه، فزادهم به حُجَّةً إلى حُجَجِه عليهم قبْلَ ذلك؟! فذلك بيانٌ مِنَ الله، ونورٌ على البيانِ والنُّورِ الذي كان قد وصَفَه لهم ونصَبَه قبْلَ نُزولِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣، ٣١٤).

وقال السمعانيُّ: (يَكادُ قلبُ المؤمنِ يَعرِفُ الحقَّ قبْلَ أن يُبيَّنَ له؛ لِموافقَتِه إيَّاه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٣).

وقال القرطبيُّ: (تَكادُ حُجَجُ القرآنِ تتَّضِحُ، ولو لم يُقرَأْ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤).

وقال ابنُ القيِّم: (وهكذا المؤمِنُ؛ قلبُه مُضيءٌ، يَكادُ يَعرِفُ الحقَّ بفِطرتِه وعَقلِه، ولكنْ لا مادَّةَ له مِن نفْسِه). ((الوابل الصيب)) (ص: ٥٣).

الحَقَّ بفِطرتِه وعَقلِه، فإذا نزلت آياتُ الوحيِ فباشرَت قلبَه وخالطت بَشاشتَه، ازداد نورًا بالوَحيِ على نورِ الإيمانِ الذي فطَرَه اللهُ تعالى عليه[1].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٢)، ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابن القيِّم: (النورُ على النورِ: نورُ الفِطرةِ الصحيحةِ والإدراكِ الصحيحِ، ونورُ الوَحيِ والكِتابِ، فيَنضافُ أحَدُ النُّورَينِ إلى الآخَرِ؛ فيَزدادُ العبدُ نورًا على نورٍ... فيَتَّفِقُ عندَه شاهِدُ العقلِ والشرعِ، والفِطرةِ والوَحيِ، فيُريهِ عقلُه وفِطرتُه وذَوقُه أنَّ الذي جاء به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو الحقُّ، لا يَتعارَضُ عندَه العقلُ والنقلُ البَتَّةَ، بل يَتصادَقانِ ويَتوافَقانِ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٥٢).

وقد تقدَّمَ (ص: ٢٧١) اختِلافُ المفسِّرينَ -الذين ذهبوا إلى أن الضميرَ في قولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ يَعودُ على اللهِ- في المرادِ بالنورِ، وأنَّ منهم مَن قال: المرادُ به محمَّدٌ. ومنهم مَن قال: المؤمِنُ. ومنهم مَن قال: القرآنُ والإيمانُ.

قال ابنُ عطيَّةَ: (فعلى قَولِ مَن قال: الممثَّلُ به محمَّدٌ عليه السَّلامُ، وهو قَولُ كَعبِ الحَبْرِ؛ فرسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو «المشكاة» أو صدرُه، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ هو النُّبوءةُ وما يتَّصِلُ بها مِن عمَلِه وهُداهُ، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ قلبُه، و«الشجرة المباركة» هي الوحيُ، والملائكةُ رُسُلٌ إليه وسببُه المتَّصِلُ به، والزَّيتُ هو الحُجَجُ والبَراهينُ، والآياتُ التي تضَمَّنها الوحيُ.

وعلى قَولِ مَن قال: الممَثَّلُ به المؤمِنُ -وهذا قَولُ أُبيِّ بنِ كعبٍ- فـ «المشكاة» صدرُه، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ الإيمانُ والعِلمُ، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ قلبُه، و«الشجرةُ» القرآنُ، وزَيتُها هو الحُجَجُ والحِكمةُ التي تضَمَّنها. قال أُبيٌّ: فهو على أحسَنِ الحالِ؛ يَمْشي في الناسِ كالرجُلِ الحيِّ يمشي في قُبورِ الأمواتِ.

ومَن قال: إنَّ الممثَّلَ به القرآنُ والإيمانُ، فتقديرُ الكلامِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي هو الإيمانُ في صدرِ المؤمِنِ في قلبِه ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، أي: كهذه الجُملةِ. وهذا القولُ ليس في مقابلةِ التَّشبيهِ كالأوَّلَينِ؛ لأنَّ المِشكاةَ ليست تُقابِلُ الإيمانَ. وتَحتمِلُ الآيةُ معنًى آخَرَ ليس فيه مُقابَلةُ جُزءٍ مِنَ المِثالِ لجُزءٍ مِنَ المُمَثَّلِ، بل وقَع التَّشبيهُ فيه جُملةً بجُملةٍ، وذلك أن يُريدَ: مَثَلُ نورِ الله الذي هو هُداهُ وإتقانُه صَنعةَ كلِّ مَخلوقٍ وبراهينُه الساطِعةُ على الجملةِ كهذه الجُملةِ مِن النورِ الذي تتَّخِذونه أنتم على هذه الصِّفةِ التي هي أبلَغُ صِفاتِ النورِ الذي بيْن أيدي الناسِ، أي: فمثَلُ نورِ الله في الوضوحِ كهذا الذي هو مُنتهاكم أيُّها البشَرُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٣). =

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الإخبارُ عن مُضاعفةِ هذا النُّورِ موجِبًا لاعتقادِ أنَّه لا يخفَى عن أحدٍ، أشار إلى أنَّه -بشُمولِ عِلمِه، وتمامِ قُدرتِه- يُعمي عنه مَن يريدُ، مع شِدَّةِ ضيائِه، وعظيمِ لألائِه، فقال[1]:

= وقال الرسعني: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: هذا مثَلٌ للمؤمنِ؛ فـ «المشكاةُ»: قلبُه، و«الزجاجةُ»: صدرُه، و«المِصباحُ»: هو الإيمانُ والقرآنُ، «توقدُ مِن شجرةٍ مبارَكةٍ»: وهي الإخلاصُ، «لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ»: بل هي مُسَلَّمةٌ ممَّا يوجِبُ نَقصًا فيها، كذلك المؤمِنُ قد أُجيرَ وحُرِسَ مِن الفِتَنِ القادِحةِ في نورِ إيمانِه، فإنْ أُعطيَ شَكَر، وإنِ ابتُليَ صبَر، وإنْ قال صَدَق، وإنْ حَكَم عَدَل، يَكادُ قلبُ المؤمنِ يَعمَلُ بالهُدى ولو لم يأتِه العِلمُ، فإذا أتاه العِلمُ ازداد نورًا على نورِه الذي جُبِل عليه). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٧).

وقال السعديُّ: (وجْهُ هذا المثَلِ الذي ضرَبه الله، وتطبيقه على حالةِ المؤمِنِ، ونور الله في قلبِه: أنَّ فِطرتَه التي فُطِر عليها بمَنزلةِ الزَّيتِ الصافي، ففِطرتُه صافيةٌ، مُستعِدَّةٌ للتعاليمِ الإلهيَّةِ، والعملِ المشروعِ، فإذا وصَل إليه العِلمُ والإيمانُ اشتَعَل ذلك النورُ في قلبِه، بمَنزلةِ اشتِعالِ النارِ في فَتيلةِ ذلك المِصباحِ، وهو صافي القلبِ مِن سوءِ القَصدِ، وسوءِ الفَهمِ عن الله، إذا وصَل إليه الإيمانُ أضاء إضاءةً عظيمةً؛ لصفائه مِن الكُدوراتِ، وذلك بمَنزلةِ صفاءِ الزُّجاجةِ الدُّرِّيَّةِ؛ فيَجتمِعُ له نورُ الفِطرةِ، ونورُ الإيمانِ، ونورُ العِلمِ، وصَفاءُ المعرفةِ؛ نورٌ على نورِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقال ابن عثيمينَ: (اللهُ شَبَّهَ النورَ الذي في قلبِ المؤمنِ بهذه القضيةِ كلِّها: «مشكاة فيها مِصباحٌ»، والذي يُقابِلُ المِشكاةَ هو القلبُ، والنورُ الذي يَقذِفُه الله في قلبه مع نورِ الإيمانِ هو المِصباحُ، لكنْ هذا المِصباحُ مُرَكَّبٌ في زُجاجةٍ، والزُّجاجةُ صافيةٌ لامِعةٌ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ ووَقودُ هذا النورِ ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ جيِّدةٍ؛ لأنَّ الزُّجاجةَ تَقي النورَ وتُصفِّيه...، فتَجدُ أنَّ هذا النورَ قد كمَلَتْ فيه أسبابُ الصفاءِ مِن حيث الوَقودُ والمكانُ، وكذلك أسبابُ الشمولِ والقوةِ من حيث كوْنُه في مِشكاةٍ، النورُ الذي في قلبِ المؤمنِ مثلُ هذا، ولكنِ المرادُ المؤمِنُ كامِلُ الإيمانِ في الحقيقةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٥).

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يوفِّقُ الله لنورِه مَن يختارُه ممن يعلمُ زكاءَه وطهارتَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال الشوكاني: (﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ عِبادِه، أي: هدايةً خاصَّةً مُوَصِّلةً إلى المطلوبِ، وليس المرادُ بالهدايةِ هنا مجرَّدَ الدَّلالةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠).

وقال الواحدي: (قَولُه تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لدينِه الإسلامِ، وإنْ شِئتَ قُلتَ: للقُرآنِ، وإنْ شِئتَ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على اختِلافِ التَّفسيرِ في قَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾). ((البسيط)) (١٦/ ٢٨٧).

وقال السعدي: (ولمَّا كان هذا مِن نورِ الله تعالى، وليس كلُّ أحدٍ يصلحُ له ذلك، قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يعلمُ زكاءَه وطهارته، وأنَّه يزكو معه وينمو). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

أي: ويُبيِّن اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ؛ ليفهَموا معانيَها، ويُدرِكوا مراميَها، كما مثَّل لهم نورَ القرآنِ في قلبِ المؤمِنِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

أي: واللهُ محيطٌ عِلمًا بجميعِ الأشياءِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلمُه بمَن هو قابلٌ للهُدى، ومَن هو مُصِرٌّ على ضلالِه، ومِن ذلك عِلمُه بما يَضرِبُ مِن الأمثالِ، فهو ضَربُ مَن يعلَمُ حقائِقَ الأمورِ وتفاصيلَها، وأنَّها مَصلحةٌ للعبادِ، فليكُنِ اشتغالُكم بتدبُّرِها وتعقُّلِها، لا بالاعتراضِ عليها أو بمعارَضتِها؛ فهو سُبحانَه يعلَمُ وأنتم لا تعلَمونَ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ أي: مَثَلُ نورِه في قَلبِ عَبدِه المؤمِنِ الذي امتَثَل أوامِرَه واجتَنَب نواهيَه، وإذا استنار القَلبُ أقبلتْ وفودُ الخيراتِ إليه مِن كُلِّ ناحيةٍ، كما أنَّه إذا أظلَم أقبَلَت سحائِبُ البلاءِ والشَّرِّ عليه مِن كُلِّ مكانٍ، فما شِئتَ مِن بِدَعٍ وضلالةٍ، واتِّباعِ هَوًى، واجتنابِ هُدًى، وإعراضٍ عن أسبابِ السَّعادة، واشتغالٍ بأسبابِ الشَّقاوةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

فإنَّ ذلك إنَّما يَكشِفُه له النورُ الذي في القلبِ، فإذا نَفِدَ ذلك النورُ بَقِيَ صاحِبُه كالأعمَى الذي يجوسُ في حنادِسِ الظَّلامِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ يُومِئ إلى الحاجةِ إلى اجتِهادِ عُلَماءِ الدِّينِ في استخراجِ إرشادِ الإسلامِ على مرورِ الأزمنةِ؛ لأنَّ استخراجَ الزَّيتِ مِن ثَمَرِ الشَّجرةِ يتوقَّفُ على اعتِصارِ الثَّمَرةِ، وهو الاستِنباطُ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ ...﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ صريحٌ على أنَّ اللهَ أنزلَ القرآنَ مِن عندِه، وأنَّ النُّزولَ ليس بمعنى الوحيِ فقط، بل هو معنًى خاصٌّ أخَصُّ مِن الوحيِ، وأنَّه يلزَمُ مِن الإنزالِ أن يكونَ المُنزِلُ عاليًا(٣)، فالنُّزولُ لا يَكونُ إلَّا مِن أعلَى؛ ففيه إثباتُ علُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي هو مِن صفاتِه الذاتيَّةِ اللازمةِ له، التي لم يَزَلْ ولا يَزالُ متَّصِفًا بها(٤).

٢- الإيمانُ له نورٌ في القلبِ، قال تعالى ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: مثَلُ نورِه في قلبِ المُؤمِنِ كمِشكاةٍ فِيهَا مِصباحٌ، إلى قولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فسمَّى الايمانَ الذي يَهَبُه للعبدِ نورًا(٥).

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ إنْ قيل: لمَ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٩) (٣/ ٤٤٧).

(٥) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ١٤٣).

خَصَّ الزُّجاجةَ بالذِّكرِ؟

فالجوابُ: أنَّه قيل: إنَّما ذكَرَ الزُّجاجةَ؛ لأنَّ المِصباحَ فيها أضوأُ. وقيل: ذكَرَ الزُّجاجةَ؛ لأنَّها إذا انكَسَرت لا يُنتفَعُ منها بشَيءٍ، كذلك القَلبُ إذا فسَد لا يُنتفَعُ منه بشَيءٍ[١]، ولأنَّها جمعت أوصافًا هي في قلبِ المؤمنِ، وهي الصَّفاءُ والرِّقَّةُ، فيَرى الحقَّ والهدى بصفائِه، وتحصُلُ منه الرأفةُ والرَّحمةُ والشَّفَقةُ برِقَّتِه، ويجاهِدُ أعداءَ الله تعالى ويُغلِظُ عليهم ويشتَدُّ في الحَقِّ ويَصلُبُ فيه بصلابتِه، ولا تُبطِلُ صِفةٌ منه صِفةً أخرى ولا تُعارِضُها، بل تُساعِدُها وتُعاضِدُها ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ إن قيلَ: لِمَ شبَّهَ بالكواكِبِ، ولم يشَبِّهْ بالشَّمسِ والقَمرِ؟

الجواب: لأنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يلحَقُهما الخُسوفُ والكسوفُ، والكواكِبُ لا يلحَقُها ذلك[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ المرادُ بالشَّجَرةِ هاهنا: شجرةُ الزَّيتونِ، وبَرَكتُها مِن وجوهٍ: أنَّها تجمَعُ الأُدمَ والدُّهنَ والوَقودَ؛ فيُوقَدُ بحطَبِ الزَّيتونِ، ويُغسَلُ برَمادِه الإبْرِيسَمُ[٤]، ويُستخرَجُ دُهنُه أسهلَ استخراجٍ، ويُورِقُ غُصنُه مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، وإنَّما خُصَّت بالذِّكرِ هاهنا دونَ غيرِها؛ لأنَّ دُهنَها أصفَى وأضوأُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٣).

(٤) الإبريسَمُ: أي: الحريرُ، أو الخامُ الخالِصُ منه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣١/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ دليلٌ وإرشادٌ إلى أنَّه يَنبغي للإنسانِ إذا وَضَعَ الشجرَ ألَّا يَضعَه في مكانٍ يَحتجِبُ عن الشمسِ شرقًا أو غربًا؛ بل يَنبغي أن يوضَعَ الشجرُ في مكانٍ يَبرُزُ للشمسِ شرقًا وغربًا[1]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ، وأنَّها إمَّا في رَبْوةٍ -وذلك أكمَلُ وأبْيَنُ وأعلى وأطيَبُ زَيتًا-؛ وإمَّا في مكانٍ مُستوٍ؛ صحراويَّةً.

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فيه أنَّ وضوحَ الدَّلائِلِ لا يَكفي ولا ينفَعُ ما لم يَخلُقِ اللهُ الإيمانَ[2]. وقَولُه: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ مَناطَ هذه الهدايةِ ومِلاكَها ليس إلَّا مَشيئتَه تعالى، وأنَّ تظاهُرَ الأسبابِ بدُونِها بمَعزلٍ مِن الإفضاءِ إلى المَطالِبِ[3].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، جِيءَ به في تَضاعيفِ ما ورَدَ مِن الآياتِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ؛ لبَيانِ جَلالةِ شُؤونِها المُستوجبةِ للإقبالِ الكُلِّيِّ على العمَلِ بمَضمونِها[4].

- وابتُدِئَ الكلامُ بلامِ القسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بشأْنِه[5].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث وصَفَ هذه الآياتِ المُنزَّلةِ بثلاثِ صِفاتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٩).

-﴿مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾- كما وصَفَ السُّورةَ في طالِعَتِها بثلاثِ صِفاتٍ -﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [النور: ١]-، والمقصدُ مِن الأوصافِ في الموضعينِ هو الامتِنانُ؛ فكأنَّ هذا يُشبِهُ رَدَّ العجُزِ على الصَّدرِ، فجُملةُ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافَ التَّذييلِ، وكان مُقْتضى الظَّاهِرِ ألَّا تُعطَفَ؛ لأنَّ شأْنَ التَّذييلِ والاستئنافِ الفصْلُ، وإنَّما عُدِلَ عن الفصْلِ إلى العطفِ؛ لأنَّ هذا خِتامُ التَّشريعاتِ والأحكامِ الَّتي نزَلَتِ السُّورةُ لأسبابِها. وقد خُلِّلَت بمِثْلِ هذا التَّذييلِ مرَّتينِ قبْلَ هذا بقولِه تعالى في ابتداءِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [النور: ١]، ثمَّ قولِه: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]، ثمَّ قولِه هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾؛ فكان كلُّ واحدٍ مِن هذه التَّذييلاتِ زائدًا على الَّذي قبْلَه؛ فالأوَّلُ زائدٌ بقولِه: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [النور: ١٨]؛ لأنَّه أفاد أنَّ بَيانَ الآياتِ لِفائدةِ الأمَّةِ، وما هنا زاد بقولِه: ﴿وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ فكانت كلُّ زِيادةٍ مِن هاتينِ مُقْتضيةً العطفَ؛ لِمَا حصَلَ مِن المُغايَرةِ بيْنها وبيْن أخْتِها، وتُعتبَرُ كلُّ واحدةٍ عطفًا على نَظيرتِها؛ فوُصِفَتِ السُّورةُ كلُّها بثلاثِ صِفاتٍ، ووُصِفَ ما كان مِن هذه السُّورةِ مُشتمِلًا على أحكامِ القذْفِ والحُدودِ وما يُفْضي إليها أو إلى مُقاربِها مِن أحوالِ المُعاشَرةِ بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ بثلاثِ صِفاتٍ؛ فقولُه هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ يُطابِقُ قولَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [النور: ١]، وقولُه: ﴿وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يُقابِلُ قولَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ [النور: ١]، على أنَّ مَعنى الفرْضِ التَّعيينُ والتَّقديرُ؛ لأنَّ في التَّمثيلِ تقْديرًا وتَصويرًا للمعاني بنَظائرِها، وفي ذلك كشْفٌ للحقائقِ، وقولُه: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ يُقابِلُ قولَه في أوَّلِها

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] [النور: ١].

- وإنَّما قِيلَ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع شُمولِ الموعظةِ للكلِّ -حسَبَ شُمولِ الإنزالِ لقولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾-؛ حثًّا للمُخاطَبينَ على الاعتِناءِ بالانتِظامِ في سِلْكِ المُتَّقينَ، ببَيانِ أنَّهم المُغتنِمون لآثارِها، المُقتبِسون مِن أنوارِها[2]، والمنتَفِعون بها[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بذِكْرِ الواوِ و﴿إِلَيْكُمْ﴾، وقالَه بعْدُ بحذْفِهما: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٤٦]؛ ووَجْهُه: أنَّ اتِّصالَ ما هنا بما قبْلَه أشدُّ؛ إذ قولُه بعْدُ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مَصروفٌ إلى الجُمَلِ السَّابقةِ مِن قولِه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾[النور: ٣٣] إلى آخِرِه، وفيه مَعطوفانِ بالواوِ؛ فناسَبَ ذِكرَها العطْفُ، وذكَرَ ﴿إِلَيْكُمْ﴾؛ ليُفِيدَ أنَّ الآياتِ المُبيِّناتِ نزَلَتْ في المُخاطبينَ في الجُمَلِ السَّابقةِ، وما ذُكِرَ بعدُ خالٍ عن ذلك؛ فناسَبَهُ الاستِئنافُ والحذْفُ[4].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ جاءت هذه الآيةُ رابطةً لقصَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٢).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٦).

بَراءةِ ساحةِ حِجابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمِّ المُؤمنين الصِّدِّيقةِ بنتِ الصِّدِّيقِ رضِيَ اللهُ عنهما بقولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وتخلُّصًا منها إليه، وقد كرَّرَ هذا المعنى في هذه السُّورةِ الكريمةِ مِرارًا؛ تَرجيعًا إلى ما هو مُهتمٌّ به، وتخلُّصًا إلى ما يَنْبغي أنْ يَشرَعَ فيه. منها: قولُه تعالى في فاتحةِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]. ومِن ثَمَّ جاء في هذا المقامِ مَفصولًا استئنافًا على بَيانِ المُوجَبِ؛ امتِنانًا على المُنزَّلِ عليهم، كأنَّه قِيل: إنَّما أنزَلَ اللهُ إليكم هذه الآياتِ ومثَلًا مِن الَّذين خَلَوا مِن قبْلِكم ومَوعظةً للمُتَّقين؛ لأنَّه هادي أهلِ السَّمواتِ وأهلِ الأرضِ بإنزالِ الآياتِ البيِّناتِ والكتابِ المُنيرِ المُشتمِلِ على ما تأْتون به وتَذَرون؛ ففيهِ مع الامتِنانِ تَعظيمُ شأْنِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حيث استشهَدَ لبراءةِ حِجابِه بمثْلِ هذه الآيةِ الكريمةِ الجامعةِ، وفي جَعْلِ تلك الآيةِ تخلُّصًا لهذه، وإنَّها مِن الجوامعِ المُحتويةِ على الأمَّهاتِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ يَشتمِلُ على جميعِ ما يَستحِقُّ أن يُبيَّنَ مِن أصولِ الدِّينِ وفُروعِه(١).

- قَولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه إتْباعُ مِنَّةِ الهدايةِ الخاصَّةِ في أحكامٍ خاصَّةٍ -المُفادةِ من قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ الآيةَ [النور: ٣٤]- بالامتِنانِ بأنَّ اللهَ هو مُكوِّنُ أصولِ الهدايةِ العامَّةِ والمعارفِ الحقَّةِ للنَّاسِ كلِّهم بإرسالِ رسولِه بالهُدى ودِينِ الحقِّ، مع ما في هذا الامتِنانِ مِن الإعلامِ بعَظَمةِ اللهِ تعالى ومجْدِه، وعُمومِ عِلْمِه وقُدرتِه(٢).

- وإذا كان المُرادُ بالآياتِ المُبيِّناتِ والمثَلِ والموعظةِ جميعَ ما في القُرآنِ المجيدِ مِن الآياتِ والأمثالِ والمواعظِ؛ فقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠).

وَٱلْأَرْضِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما فيها مِن البَيانِ، مع الإشعارِ بكونِه في غايةِ الكَمالِ. وإذا كان المُرادُ بالآياتِ المُبيِّناتِ والمثَلِ والموعظةِ ما نُزِّلَ في هذه السُّورةِ؛ فهو استِئنافٌ مَسوقٌ لتَحقيقِ أنَّ بَيانَه تعالى ليس مَقصُورًا على ما ورَدَ في السُّورةِ الكريمةِ، بلْ هو شاملٌ لكلِّ ما يحِقُّ بَيانُه مِن الأحكامِ والشَّرائعِ، ومَباديها وغاياتِها المُترتِّبةِ عليها في الدُّنيا والآخرةِ، وغيرِ ذلك ممَّا له مَدخلٌ في البَيانِ، وأنَّه واقِعٌ منه تعالى على أتمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها؛ حيث عبَّرَ عنه بالتَّنويرِ الَّذي هو أقْوى مَراتبِ البَيانِ وأجْلاها، وعبَّرَ عن المُنوِّرِ بنفْسِ النُّورِ؛ تَنبيهًا على قُوَّةِ التَّنويرِ، وشدَّةِ التَّأثيرِ، وإيذانًا بأنَّه تعالى ظاهرٌ بذاتِه، وكلُّ ما سِواهُ ظاهرٌ بإظهارِه[1].

- وفي الانتِقالِ مِن ضَميرِ التَّعظيمِ ﴿أَنزَلْنَآ﴾ إلى اسمِ الذَّاتِ ﴿ٱللَّهُ﴾ خطْبٌ جليلٌ، وخطَرٌ خطيرٌ، وإيذانٌ بأنَّ تلك الهِدايةَ أيضًا جامعةٌ لِمَا يُناطُ به أُمورُ الدِّينِ؛ مِن بَعثةِ الرُّسلِ، وإنزالِ الكُتبِ، وغيرِ ذلك[2].

- وهذه الجُملةُ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ ...﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]؛ إذ كان يَنْطوي في معنى آياتٍ ووَصْفِها بـ ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ ما يَستشرِفُ إليه السَّامعُ مِن بَيانٍ لـ: ما هي الآياتُ، وما هو تَبيينُها؟ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا. ووقعَتْ جُملةُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُعترِضةً بيْنَ هذه الجُملةِ والَّتي قبْلَها؛ تَمهيدًا لعَظَمةِ هذا النُّورِ المُمثَّلِ بالمِشكاةِ. وقيل: إنَّها بَيانٌ لجُملةِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فيَكونُ مَوقعُها مَوقعَ عطْفِ البَيانِ؛ فلذلك فُصِلَت فلمْ تُعطَفْ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣١، ٢٣٤).

- ومُناسَبةُ مَوقعِ جُملةِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ بعدَ جُملةِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]: أنَّ آياتِ القُرآنِ نُورٌ؛ قال تعالى في سُورةِ النِّساءِ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة: ١٥]، فكان قولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلمةً جامعةً لِمَعانٍ جَمَّةٍ تتبَعُ معاني النُّورِ في إطلاقِه في الكلامِ. ومَوقعُ الجُملةِ عجيبٌ مِن عدَّةِ جِهاتٍ، وانتقالٌ مِن بَيانِ الأحكامِ إلى غرَضٍ آخَرَ مِن أغراضِ الإرشادِ، وأفانينَ مِن الموعظةِ والبُرهانِ(١).

- قَولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النُّورُ اسمٌ جامدٌ لمعنًى؛ فهو كالمصدرِ، وبذلك كان الإخبارُ به بمَنزلةِ الإخبارِ بالمصدَرِ أو باسمِ الجِنسِ في إفادةِ المُبالَغةِ(٢).

- وإضافةُ النُّورِ إلى السَّمواتِ والأرضِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إمَّا للدَّلالةِ على سَعةِ إشراقِه وفُشوِّ إضاءتِه حتَّى تُضيءَ له السَّمواتُ والأرضُ، وإمَّا أنْ يُرادَ أهْلُ السَّمواتِ والأرضِ وأنَّهم يَستضيئون به، وإمَّا لاشتِمالِها على الأنوارِ الحِسِّيَّةِ والعقليَّةِ، وقُصورِ الإدراكاتِ عليهما، وعلى المُتعلِّقِ بهما، والمَدلولِ لهما(٣)، فيجوزُ أنْ يُرادَ بالسَّمواتِ والأرضِ مَن فيهما مِن بابِ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهو أبلَغُ مِن ذِكْرِ المُضافِ المحذوفِ؛ لأنَّ في هذا الحذْفِ إيهامَ أنَّ السَّمواتِ والأرضَ قابلةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣).

لهذا النُّورِ، كما أنَّ القريةَ نفْسَها تَشهَدُ بما يُسأَلُ منها، وذلك أبلَغُ في الدَّلالةِ على الإحاطةِ بالمقصودِ وألْطَفُ دَلالةً[1].

- قَولُه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

- هذا التَّشبيهُ العجيبُ الذي تَضمَّنه قَولُه سُبحانَه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فيه مِن الأسرارِ والمعاني وإظهارِ تَمامِ نِعمةِ اللهِ تعالَى على عبْدِه المؤمِنِ بما أنالَه مِن نُورِه ما تَقَرُّ به عيونُ أهلِه، وتَبتهِجُ به قلوبُهم. وهذا التَّشبيهُ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[2]؛ حيثُ جاء التَّشبيهُ هنا بواسطةِ الأداةِ وهي الكافُ، ولأهلِ البَلاغةِ والمعاني في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٣).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به للمُشبَّهِ. وقد اتَّفقَ الأدباءُ على شَرفِه في أنواعِ البَلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمَالًا، وكساها حُلَّةً وجَمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العَربِ، بلْ هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسمُ التشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَد. ومنه: التشبيهُ المُركَّبُ: وهو الذي يكونُ وجهُ الشَّبهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ هنا مُركَّبٌ من أحوالِ الحِمارِ. وخَصَّ البيانيُّونَ لفظَ «التمثيل» بالتشبيهِ المركَّبِ. ومنه: التشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التشبيهِ فيه مَحذوفةً. وينقسمُ التشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السحابِ. ومُرْسَل: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

هذا التَّشبيهِ طَريقتانِ؛ أحدُهما: طريقةُ التَّشبيهِ المركَّبِ، وهي أقرَبُ مأخْذًا، وأسلَمُ مِن التكلُّفِ، وهي أن تُشبَّهَ الجُملةُ برُمَّتِها بنورِ المؤمنِ مِن غيرِ تعرُّضٍ لتفصيلِ كلِّ جزءٍ مِن أجزاءِ المشبَّهِ، ومقابلتِه بجزءٍ مِن المشبَّهِ به، وعلى هذا عامَّةُ أمثالِ القرآنِ الكريمِ. فتأمَّلْ صِفةَ مشكاةٍ -وهي كَوَّةٌ لا تَنفذُ؛ لتكونَ أجمعَ للضوءِ- قد وُضع فيها مِصباحٌ، وذلك المصباحُ داخلُ زُجاجةٍ تُشبِهُ الكوكبَ الدُّرِّيَّ في صفائِها وحسنِها، ومادَّتُه مِن أصفَى الأدْهانِ وأتمِّها وَقودًا مِن زَيتِ شجرةٍ في وسَطِ القَراحِ[1]، لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، فمِن شِدَّةِ إضاءةِ زَيتِها وصَفائِه وحُسنِه يَكادُ يُضيءُ مِن غيرِ أنْ تمسَّه نارٌ، فهذا المجموعُ المركَّبُ هو مثَلُ نورِ الله تعالَى الذي وضَعه في قلْبِ عَبدِه المؤمنِ وخصَّه به؛ فمثَلُ نُورِه في قلْبِ عبْدِه المُخلِصِ كمِشكاةٍ، والمِشكاةُ: القلْبُ، والمِصباحُ: النُّورُ الَّذي قُذِفَ فيه، والمعرفةُ تُضِيءُ في قلْبِ العارفِ بنُورِ التَّوفيقِ في مِصباحِ النُّورِ، توقَدُ مِن شَجرةٍ مُبارَكةٍ، تُضِيءُ على شخصٍ مُبارَكٍ، تتبيَّنُ أنوارُ باطنِه على آدابِ ظاهرِه، وحُسنِ مُعامَلتِه، زَيتونةٍ لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، جَوهرةٍ صافيةٍ.

والطَّريقةُ الثانية: طريقةُ التَّشبيهِ المفصَّلِ؛ فقيل: المِشكاةُ صَدرُ المؤمنِ، والزُّجاجةُ قلبُه، وشَبَّه قلبَه بالزُّجاجةِ؛ لرِقَّتِها وصَفائِها وصَلابتِها، وكذلك قلبُ المؤمنِ فإنَّه قد جمَع الأوصافَ الثلاثةَ؛ فهو يَرحمُ ويُحسنُ ويتحنَّنُ ويُشفقُ على الخَلقِ برِقَّتِه. وبصَفائِه تَتجلَّى فيه صُوَرُ الحقائقِ والعُلومِ على ما هي عليه، ويُباعِدُ الكَدرَ والدَّرَنَ والوَسخَ بحسَبِ ما فيه مِن الصَّفاءِ، وبصَلابتِه يَشتدُّ في أمرِ الله تعالى، ويَتصلَّبُ في ذاتِ الله تعالى، ويُغلظُ على أعداءِ الله تعالى، ويَقومُ بالحقِّ لله تعالى. والمصباحُ هو نورُ الإيمانِ في قلبِه، والشجرةُ المباركةُ

(١) القَراحِ: أي: المَزْرَعةِ التي ليس فيها بِناءٌ ولا شَجَرٌ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٦).

هي شجرةُ الوحيِ المتضمِّنةُ للهُدَى ودِينِ الحقِّ، وهي مادَّةُ المِصباحِ التي يتَّقدُ منها. والنورُ على النورِ: نورُ الفِطرةِ الصَّحيحةِ والإدراكِ الصحيحِ، ونورُ الوحيِ والكِتابِ؛ فيَنضافُ أحدُ النُّورينِ إلى الآخَرِ فيَزدادُ العبدُ نورًا على نورٍ.

وقيل: هذا مَثَلٌ ضرَبَهُ اللهُ لنَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: المِشكاةُ: صدْرُه، والزُّجاجةُ: قلْبُه، والمِصباحُ فيه: النُّبوَّةُ. والمِصباحُ: ما في قلْبِه مِن الدِّينِ. وقيل: المِشكاةُ: جوفُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والزُّجاجةُ: قلْبُه، والمِصباحُ: النُّورُ الَّذي فيه.

وقيل: الشَّجرةُ المُبارَكةُ شَجرةُ الوَحيِ، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾: تَكادُ حُجَّةُ القُرآنِ تَتَّضِحُ وإنْ لم يُقْرَأْ. وقيل: هي شَجرةُ النُّبوَّةِ. وقيل وجْهٌ آخَرُ: وهو أنْ يُشبَّهَ القُرآنُ بالمِصباحِ على ما سبَقَ، ونفْسُه الزَّكيَّةُ الطَّاهرةُ صلواتُ اللهِ على صاحبِها بالشَّجرةِ؛ لكونِها ثابتةً مِن أرضِ الدِّينِ، مُتشعِّبةً فُروعُها إلى سماءِ الإيمانِ، مُتدلِّيةً أثمارُها إلى فضاءِ الإخلاصِ والإحسانِ؛ وذلك لاستقامتِها بمُقْتضَى قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، غيرَ مائلةٍ إلى طرفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ. ويُشبَّهُ ما مُحِّضَ مِن تلك الثَّمراتِ بعدَ التَّصفيةِ التَّامَّةِ للتَّهيئةِ، وقَبولِ تلك الأنوارِ: بالزَّيتِ الصَّافي؛ لوُفورِ قوَّةِ استعدادِها للاستضاءةِ، وهي الدُّهنيَّةُ القابلةُ للاشتعالِ، ومِن ثَمَّ خُصَّتْ شجرةُ الزَّيتونِ؛ لأنَّ لُبَّ ثَمرتِها الزَّيتُ الَّذي تشتعِلُ به المصابيحُ، وخُصَّ هذا الدُّهنُ؛ لمزيدِ إشراقِه، مع قِلَّةِ الدُّخانِ، يَكادُ زيتُ استِعدادِه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه -لصفائِه وذَكائِه- يُضِيءُ ولو لم يمَسَّهُ نُورُ القُرآنِ(١).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٥ - ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٩ - ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٠٨- ٦٠٩).

- وأيضًا ذُكِرَ في معنَى هذا التَّمثيلِ وُجوهٌ أُخرَى؛ الأوَّلُ: أنَّه تمثيلٌ للهُدى الَّذي دلَّتْ عليه الآياتُ المُبيِّناتُ في جَلاءِ مَدْلولِها، وظُهورِ ما تضمَّنَه مِن الهُدى بالمشكاةِ المنعوتةِ. الثاني: أنَّه تَشبيهٌ للهُدى مِن حيثُ إنَّه محفوفٌ بظُلماتِ أوهامِ النَّاسِ وخيالاتِهم بالمصباحِ، وإنَّما ولِيَ الكافُ المِشكاةَ؛ لاشتِمالِها عليه، وتَشبيهُه به أوفَقُ مِن تَشبيهِه بالشَّمسِ. وقيل غيرُ ذلك[١].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ، أي: مَثَلُ نورِ اللهِ سُبحانَه، أي: مثَلُه في إنارةِ عُقولِ المُهتدينَ؛ فالكلامُ تَمثيلٌ لهيئةِ إرشادِ اللهِ المؤمنينَ بهَيئةِ المِصباحِ الَّذي حفَّتْ به وسائلُ قوَّةِ الإشراقِ، فهو نورُ اللهِ لا مَحالةَ، وإنَّما أُوثِرَ تَشبيهُه بالمِصباحِ الموصوفِ بما معه مِن الصِّفاتِ دونَ أنْ يُشبَّهَ نُورُه بطُلوعِ الشَّمسِ بعدَ ظُلمةِ اللَّيلِ؛ لقصْدِ إكمالِ مُشابَهةِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها بأنَّها حالةُ ظُهورِ نُورٍ يَبْدو في خِلالِ ظُلمةٍ، فتَنقشِعُ به تلك الظُّلمةُ في مِساحةٍ يُرادُ تَنويرُها. ودونَ أنْ يُشبَّهَ بهَيئةِ بزُوغِ القمَرِ في خِلالِ ظُلمةِ الأُفقِ؛ لقصْدِ إكمالِ المُشابَهةِ؛ لأنَّ القمَرَ يَبْدو ويَغيبُ في بعضِ اللَّيلةِ، بخِلافِ المصباحِ الموصوفِ، وبعْدَ هذا: فلأنَّ المقصودَ ذِكْرُ ما حفَّ بالمِصباحِ مِن الأدواتِ؛ لِيَتسنَّى كَمالُ التَّمثيلِ بقَبولِه تَفريقَ التَّشبيهاتِ، وذلك لا يتأتَّى في القمَرِ، والمثَلُ: تَشبيهُ حالٍ بحالٍ؛ فمعنى ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: شَبيهُ هَدْيِه حالُ مِشكاةٍ... إلى آخرِه. فالمُشبَّهُ به هو المِشكاةُ وما يتْبَعُها[٢].

- وإنَّما قدَّمَ المِشكاةَ في الذِّكرِ؛ لأنَّ المُشبَّهَ به هو مَجموعُ الهيئةِ؛ فاللَّفظُ الدَّالُّ على المُشبَّهِ به هو مَجموعُ المُركَّبِ المُبْتَدِئِ بقولِه: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، والمُنْتهي بقولِه: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾؛ فلذلك كان دُخولُ كافِ الشَّبهِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٨- ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٤، ٢٣٥).

على كلمةِ (مِشكاة) دونَ لفْظِ (مِصباح) لا يَقْتضي أصالةَ لفْظِ (مِشكاةٍ) في الهيئةِ المُشبَّهِ بها دونَ لفْظِ (مِصباح)، بلْ مُوجبُ هذا التَّرتيبِ مُراعاةُ التَّرتيبِ الذِّهنيِّ في تصوُّرِ هذه الهيئةِ المُتخيَّلةِ حين يلمَحُ النَّاظِرُ إلى انبثاقِ النُّورِ، ثمَّ ينظُرُ إلى مَصدرِه، فيَرى مِشكاةً، ثمَّ يَبْدو له مِصباحٌ في زُجاجةٍ(١).

- وهذا تَشبيهٌ بالِغٌ كَمالَ الإفصاحِ، بحيثُ هو مع أنَّه تَشبيهُ هَيئةٍ بهيئةٍ هو أيضًا مُفرَّقُ التَّشبيهاتِ لأجزاءِ المُركَّبِ المُشبَّهِ مع أجزاءِ المُركَّبِ المُشبَّهِ به؛ وذلك أقْصَى كَمالِ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ في صناعةِ البلاغةِ، ولَمَّا كان المقصودُ تَشبيهَ الهَيئةِ بالهيئةِ والمُركَّبِ بالمُركَّبِ، حسُنَ دُخولُ حرفِ التَّشبيهِ على بَعضِ ما يدُلُّ على بعضِ المُركَّبِ؛ ليَكونَ قَرينةً على أنَّ المُرادَ التَّشبيهُ المُركَّبُ، ولو كان المُرادُ تَشبيهَ الهُدَى فقطْ، لَقال: نُورُه كمِصباحٍ في مِشكاةٍ... إلى آخرِه؛ فالنُّورُ هو مَعرفةُ الحقِّ على ما هو عليه، المُكتسَبةُ مِن وحْيِ اللهِ، وهو القُرآنُ. شُبِّهَ بالمصباحِ المحفوفِ بكُلِّ ما يَزيدُ نُورَه انتشارًا وإشراقًا(٢).

- وفي إعادةِ المصباحِ والزُّجاجةِ مُعرَّفينِ إثْرَ سبْقِهما مُنكَّرينِ، والإخبارِ عنهما بما بعْدَهما مع انتِظامِ الكلامِ بأنْ يُقالَ: كمشكاةٍ فيها مِصباحٌ في زُجاجةٍ، كأنَّها كَوكبٌ دُرِّيٌّ: مِن تفخيمِ شأْنِهما، ورفعِ مكانِهما؛ بالتَّفسيرِ إثْرَ الإبهامِ، والتَّفصيلِ بعْدَ الإجمالِ، وبإثباتِ ما بعْدَهما لهما بطريقِ الإخبارِ المُنْبِئِ عن القصْدِ الأصليِّ، دونَ الوَصفِ المَبْنيِّ على الإشارةِ إلى الثُّبوتِ في الجُملةِ- ما لا يَخْفى(٣).

- وإعادةُ لفْظِ المِصباحِ دونَ أنْ يُقالَ: فيها مِصباحٌ في زُجاجةٍ، كما قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦).

﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّنويهِ بذِكْرِ المِصباحِ؛ لأنَّه أعظَمُ أركانِ هذا التَّمثيلِ، وكذلك إعادةُ لَفْظِ الزُّجاجةِ في قولِه: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ لأنَّه مِن أعظَمِ أركانِ التَّمثيلِ. ويُسمَّى مِثْلُ هذه الإعادةِ تَشابُهَ الأطرافِ في فنِّ البديعِ[١].

- قَولُه: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ إنَّما سلَكَ طريقَ التَّشبيهِ في التَّعبيرِ عن شدَّةِ صَفاءِ الزُّجاجةِ؛ لأنَّه أوجَزُ لفْظًا، وأبيَنُ وصْفًا. وهذا تَشبيهُ مُفردٍ في أثناءِ التَّمثيلِ، ولا حَظَّ له في التَّمثيلِ[٢].

- وفي صِيغةِ المُضارعِ على قِراءةِ الأكثرينَ -﴿يُوقَدُ﴾ و(تَوَقَّدُ)- إفادةُ تجدُّدِ إيقادِه، أي: لا يَذْوِي ولا يُطفَأُ. وعلى القِراءةِ بصِيغةِ المُضِيِّ -(تَوَقَّدَ)- إفادةُ أنَّ وَقودَه ثبَتَ وتحقَّقَ[٣].

- وذُكِرَتِ الشَّجرةُ باسمِ جِنْسِها، ثمَّ أُبْدِلَ منه ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ وهو اسمُ نَوعِها؛ للإبهامِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ اهتِمامًا بتقرُّرِ ذلك في الذِّهنِ، وتَفخيمًا لشأْنِها[٤].

- ووَصَفَ الزَّيتونةَ بالمُبارَكةِ؛ لِمَا فيها مِن كثرةِ النَّفعِ؛ فإنَّها يُنتفَعُ بحَبِّها أكلًا، وبزَيتِها كذلك، ويُستنارُ بزَيتِها، ويدخُلُ في أدويةٍ وإصلاحِ أُمورٍ كثيرةٍ، ويُنتفَعُ بحطَبِها، وهو أحسَنُ حطَبٍ؛ لأنَّ فيه المادَّةَ الدُّهنيَّةَ، قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٦).

تَشابُهِ الأطرافِ: وهو أنْ يَنظُرَ المُتكلِّمُ إلى لفظةٍ وقَعَتْ في آخرِ جُملةٍ مِن الفقرةِ في النَّثرِ، أو آخرِ لفْظةٍ وقعَتْ في آخرِ المِصراعِ الأوَّلِ في النَّظمِ؛ فيَبْتدِئُ بها. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٠).

﴿تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ويُنتفَعُ بجَودةِ هواءِ غاباتِها. وقد قِيل: إنَّ بَرَكتَها؛ لأنَّها مِن شجَرِ بلادِ الشَّامِ، والشَّامُ بَلدٌ مُبارَكٌ مِن عهْدِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، يُريد أرضَ الشَّامِ. ووَصْفُ الزَّيتونةِ بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ على هذا وصْفٌ كاشفٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ وصْفًا مُخصِّصًا لـ ﴿زَيْتُونَةٍ﴾، أي: شَجرةٍ ذاتِ بَرَكةٍ، أي: نَماءٍ ووَفرةِ ثمَرٍ مِن بيْنِ شجَرِ الزَّيتونِ؛ فيكونَ ذِكْرُ هذا الوصْفِ لتَحسينِ المُشبَّهِ به؛ ليَنجَرَّ منه تَحسينٌ للمُشبَّهِ(١).

- وفي قولِه: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ وصْفٌ لـ ﴿زَيْتُونَةٍ﴾، دخَلَ حرْفُ (لا) النَّافيةِ في كِلَا الوصفينِ، فصار بمَنزلةِ حَرفِ هِجاءٍ مِن الكلمةِ بعْدَه؛ لإفادةِ الاتِّصافِ بنفْيِ كلِّ وصْفٍ، وعُطِفَ على كلِّ وصْفٍ ضِدُّه؛ لإرادةِ الاتِّصافِ بوصْفٍ وسَطٍ بيْن الوصفَينِ المَنْفيَّينِ؛ لأنَّ الوصفَينِ ضِدَّانِ، على طريقةِ قولِهم: الرُّمَّانُ حُلوٌ حامضٌ. والعطْفُ هنا مِن عطْفِ الصِّفاتِ؛ كقولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، والمعنى: أنَّها زَيتونةٌ جِهتُها بيْن جِهةِ الشَّرقِ وجِهةِ الغرْبِ، فنَفى عنها أنْ تكونَ شرقيَّةً وأنْ تكونَ غربيَّةً، وهذا الاستِعمالُ مِن قَبيلِ الكِنايةِ؛ لأنَّ المقصودَ لازمُ المعنى لا صريحُه. وأمَّا إذا لم يكُنِ الأمرانِ المَنفيَّانِ مُتضادَّينِ، فإنَّ نَفْيَهما لا يَقْتضي أكثَرَ مِن نفْيِ وُقوعِهما؛ كقولِه تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤]. وهذا الاستعمالُ يكونُ في عطْفِ نفْيِ الأسماءِ(٢).

- قولُه: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مُبالَغةٌ في صَفاءِ الزَّيتِ، وأنَّه -لإشراقِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٤٠، ٢٤١).

وجَودتِه- يكادُ يُضِيءُ مِن غيرِ نارٍ[١].

- وكلمةُ (لو) لبَيانِ تحقُّقِ ما يُفيدُه الكلامُ السَّابقُ مِن الحُكْمِ المُوجَبِ على كلِّ حالٍ مَفروضٍ مِن الأحوالِ المُقارِنةِ له إجمالًا بإدخالِها على أبعَدِها منه؛ إمَّا لوُجودِ المانعِ كما في قولِه تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨]، وإمَّا لعدَمِ الشَّرطِ كما في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ لِيَظهَرَ بثُبوتِه أو انتفائِه معه ثُبوتُه أو انتفاؤُه مع عداهُ مِن الأحوالِ بطريقِ الأولويَّةِ؛ لِمَا أنَّ الشَّيءَ متى تحقَّقَ مع ما يُنافِيه مِن وُجودِ المانعِ أو عدَمِ الشَّرطِ، فلَأنْ يتحقَّقَ بدونِ ذلك أَولى. وتَقديرُ الآيةِ الكريمةِ: يَكادُ زيتُها يُضِيءُ لو مسَّتْه نارٌ ولو لم تَمَسَّهُ نارٌ، أي: يُضِيءُ كائنًا على كلِّ حالٍ مِن وُجودِ الشَّرطِ وعدَمِه، وقد حُذِفَتِ الجُملةُ الأُولى حسْبَما هو المُطَّرِدُ في البابِ؛ لدَلالةِ الثَّانيةِ عليها دَلالةً واضحةً[٢].

- قَولُه: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صِفةٌ له، مُؤكِّدةٌ لِما أفادَهُ التَّنكيرُ مِن الفَخامةِ، والجُملةُ فَذْلكةٌ للتَّمثيلِ، وتَصريحٌ بما حصَلَ منه، وتَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه، أي: ذلك النُّورُ الَّذي عُبِّرَ به عن القُرآنِ[٣].

- وفي تَنكيرِ قولِه: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ ضَربٌ مِن الفَخامةِ والمُبالَغةِ[٤].

- جُملةُ: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ مُستأنَفةٌ، إشارةً إلى أنَّ المقصودَ مِن مجموعِ أجزاءِ المُركَّبِ التَّمثيليِّ هنا هو البُلوغُ إلى إيضاحِ أنَّ الهيئةَ المُشبَّهَ بها قد بلغَتْ حدَّ المُضاعَفةِ لوسائلِ الإنارةِ؛ إذ تظاهَرَتْ فيها المِشكاةُ والمِصباحُ والزُّجاجُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦، ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١١).

الخالصُ والزَّيتُ الصَّافي؛ فالمِصباحُ إذا كان في مِشكاةٍ، كان شُعاعُه مُنحصِرًا فيها غيرَ مُنتشِرٍ، فكان أشدَّ إضاءةً لها ممَّا لو كان في بَيتٍ، وإذا كان مَوضوعًا في زُجاجةٍ صافيةٍ تضاعَفَ نُورُه، وإذا كان زَيتُه نقيًّا صافيًا كان أشدَّ إسراجًا؛ فحصَلَ تَمثيلُ حالِ الدِّينِ أو الكتابِ المُنزَّلِ مِن اللهِ في بَيانِه وسُرعةِ فُشوِّه في النَّاسِ، بحالِ انبثاقِ نُورِ المِصباحِ وانتشارِه فيما حفَّ به مِن أسبابِ قوَّةِ شُعاعِه وانتشارِه في الجهةِ المُضاءةِ به[1].

- قَولُه: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيه إظهارُ كَلمةِ النُّورِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ تَقريرِه، وتأكيدِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بفَخامَتِه الإضافيَّةِ النَّاشئةِ مِن إضافتِه إلى ضَميرِه عَزَّ وجَلَّ[2].

- قَولُه: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهُ﴾ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإيذانِ باختِلافِ حالِ ما أُسنِدَ إليه تعالى مِن الهدايةِ الخاصَّةِ، وضَرْبِ الأمثالِ الَّذي هو مِن قَبيلِ الهدايةِ العامَّةِ، كما يُفصِحُ عنه تَعليقُ الأُولى بمَن يشاءُ، والثَّانيةِ بالنَّاسِ كافَّةً[3].

- وفي قولِه: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ الإشعارُ بأنَّ هذه تَقريباتٌ وتلْويحاتٌ بحسَبِ الاستِعداداتِ، وأنَّ بَيانَ نُورِه الحقيقيِّ لا يسَعُه نِطاقُ التَّحريرِ، لكنَّ اللهَ بعِلْمِه الواسعِ يَعلَمُ حَقيقتَه، واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ[4].

- قَولُه: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الجُملُ الثَّلاثُ مُعترضةٌ، أو تَذييلٌ للتَّمثيلِ، والمعنى: دفْعُ التَّعجُّبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٧، ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٩).

مِن عدَمِ اهتِداءِ كثيرٍ مِن النَّاسِ بالنُّورِ الَّذي أنزلَهُ اللهُ، وهو القُرآنُ والإسلامُ؛ فإنَّ اللهَ إذا لم يشَأْ هدْيَ أحَدٍ خلَقَه وجبَلَه على العِنادِ والكُفرِ، وأنَّ اللهَ يَضرِبُ الأمثالَ للنَّاسِ مَرْجُوًّا منهم التَّذكُّرُ بها: فمِنْهم مَن يَعتبِرُ بها فيَهْتدي، ومنْهم مَن يُعرِضُ فيَستمِرُّ على ضَلالِه، ولكنْ شأْنُ تلك الأمثالِ أنْ يَهتدِيَ بها غيرُ مَن طُبِعَ على قلْبِه[1].

- قَولُه: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ...﴾ جاء مفصولًا للاستِئنافِ، وبَيانِ أنَّ اللهَ يختَصُّ بتلك الهدايةِ مَن يشاءُ، وقولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠] جاء مُقابِلًا لهذه الآياتِ، والمعنى: أنَّ أعمالَهم الصَّالحةَ الَّتي لم تكُنْ مُقتبسةً مِن مِشكاةِ النُّبوَّةِ ضائعةٌ؛ ألَا ترى كيف أوقَعَ قولَه: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ الكافرَ كان فاقِدَ ذلك النُّورِ عند عمَلِه؟ وقولُه: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ ولهذا ختَمَها بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾. وقيل: إنَّه تعالى لمَّا وصَفَ هِدايةَ المؤمنِ بأنَّها في نِهايةِ مِن الجَلاءِ والظُّهورِ، عقَّبَها بأنْ قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، ولمَّا وصَفَ ضَلالةَ الكافرِ بأنَّها في نِهايةِ الظُّلمةِ، عقَّبَها بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ مُظهِرًا أنَّ المُرادَ بالنُّورِ: الهدايةُ بإنزالِ الكُتبِ وإرسالِ الرُّسلِ، شبَّهَها في ظُهورِها في نفْسِها والبَيانِ والجَلاءِ، وفي كَونِها مُبيِّنًا لغيرِها ممَّا يُناطُ به أمرُ الدِّينِ بالنُّورِ؛ لأنَّه ظاهرٌ في نفْسِه، مُظهِرٌ لغيرِه[2].

- قَولُه: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ لمَضمونِ الجُملتينِ قبْلَها، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٢).

لا يَعزُبُ عن عِلْمِه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلْمُ مَن هو قابِلٌ للهُدى، ومَن هو مُصِرٌّ على غيِّه. وهذا تَعريضٌ بالوعدِ للأوَّلينَ، والوعيدِ للآخِرينَ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ إظهارُ الاسمِ الجَليلِ ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ لتأكيدِ استِقلالِ الجُملةِ، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكْمِ وبما ذُكِرَ مِن اختلافِ حالِ المحكومِ به ذاتًا وتعلُّقًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

الآيات (٣٦-٣٨)

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِالْغُدُوِّ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدلُّ على زمانٍ[1].

﴿وَالْآصَالِ﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ وَقتَ اصفِرارِ الشَّمسِ في آخرِ المساءِ، وأصلُ (أصل): يَدلُّ على زمانٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه أهمَّ أماكنِ هذا النورِ، ومَن ينتفعُ به، فيقولُ تعالى: في مَساجِدَ أَذِنَ سبحانَه أن تُبنى وتُشادَ، وتُعظَّمَ وتُطهَّرَ، ويُذكَرَ فيها اسمُ الله، يُسبِّحُ للهِ فيها بإخلاصٍ في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه- رجالٌ لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ رَبِّهم، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ لِمُستحقِّيها، يخافونَ يومَ القيامةِ الذي تَضْطَرِبُ مِن شِدَّةِ هَولِه وفزَعِه قلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم؛ ليُكافِئَهم اللهُ على أعمالِهم في الدُّنيا بأحسَنِ ما عَمِلوا، ويَزيدَهم مِن فَضلِه جزاءً عليها، واللهُ يرزُقُ مَن يشاءُ بغيرِ حِسابٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ضَرَب اللهُ المَثَلَ لهذا النُّورِ، جَعَل ظَرْفَه أحسَنَ البِقاعِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان نورُ الإيمانِ والقُرآنِ أكثَرُ وقوعِ أسبابِه في المساجِدِ، ذكَرَها اللهُ تعالى مُنَوِّهًا بها، فقال تعالى[(٢)]:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾.

أي: في مَساجِدَ[(٣)] أمرَ اللهُ أن تُرفَعَ حِسًّا في البناءِ، وتُرفَعَ معنًى بتَعظيمِها

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٦٨).

(٣) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾... قال ابنُ عبَّاسٍ وأكثرُ المفسِّرينَ: يعني: المساجدَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٨). ونسَبَه الواحديُّ أيضًا لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وسالم بن عمر، وعِكْرِمةُ في رواية عنه، وأبو صالح، ومجاهد في رواية عنه، والضحَّاكُ، والحسن في رواية عنه، ونافع بن جُبَير، وأبو بكر ابن سليمان بن أبي حَثْمَةَ، وسفيان بن حسين، وقتادة، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٠٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٠٢).

وقال الشوكاني: (قَولُه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ بمَ هو مُتعَلِّقٌ؟ فقيل: مُتعَلِّقٌ بما قَبْلَه، أي: كمِشْكاةٍ في بَعضِ بُيوتِ اللهِ، وهي المساجِدُ، كأنَّه قيل: مَثَلُ نُورِه كما ترى في المَسجِدِ نُورَ المِشْكاةِ التي من صِفَتِها كَيْتَ وكَيْتَ. وقيل: مُتعَلِّقٌ بمِصْباح. وقال ابنُ الأنباري: سمِعتُ أبا العبَّاسِ يقولُ: هو حالٌ للمِصباحِ والزُّجاجةِ والكَوكَبِ، كأنَّه قيل: وهي في بُيوتٍ. وقيل: مُتعَلِّقٌ بـ﴿يُوقَدُ﴾، أي: يُوقَدُ في بُيوتٍ. وقد قيل: متعَلِّقٌ بما بعْدَه، وهو: ﴿يُسَبِّحُ﴾، أي: يُسَبِّحُ له رِجالٌ في بُيوتٍ، وعلى هذا يكونُ قَولُه: ﴿فِيهَا﴾ تكريرًا، كقَولِك: زيدٌ في الدَّارِ جالِسٌ فيها. وقيل: إنَّه مُنفَصِلٌ عمَّا قَبْلَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠). =

وتَطهيرِها وتَنزيهِها عن كلِّ ما لا يَليقُ بها؛ مِن الرَّوائِحِ الكريهةِ، والأقوالِ السَّيِّئةِ، وغيرِ ذلك[1].

= وممَّن اختار أنَّ الجارَّ والمجرورَ مُتعَلِّقانِ بمِشكاةٍ: الزجَّاجُ، والزمخشري، والغزنوي، والبقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٢)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧).

وممَّن اختار أن الجارَّ والمجرورَ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلِّقانِ بـ (مصباح) المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، أي: ذلك المِصباحُ في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧).

قال الشنقيطيُّ بعدَ أن ذكَر هذَينِ القولينِ السَّابِقينِ: (وكِلاهما مُتقاربانِ، والمرادُ كينونةُ هذا النُّورِ العظيمِ في أعظَمِ المواضعِ المناسِبةِ له، وهي المساجدُ؛ لأنَّها بُنِيت لهذا النُّورِ خاصَّةً). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٤١).

وممَّن اختار أنَّ قَولَه: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ والتَّقديرُ: يُسَبِّحُ للهِ رِجالٌ في بُيوتٍ: جلال الدين المحلِّي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥١).

قال الواحدي: (الاختيارُ ألَّا تُجعَلَ هذه الآيةُ مُتَّصِلةً بما قَبلَها؛ لأنَّ الآيةَ الأُولى في ضَربِ المَثَلِ لنُورِ المُؤمِنِ بالمِشْكاةِ التي فيها مِصباحٌ يُزهِرُ بزَيتٍ مُضيءٍ، ولا فائِدةَ في وَصفِ المِصْباحِ بكَونِه في بُيوتٍ أو في غَيرِها، ولا تأكيدَ لِضَوئِها بأن تُوصَفَ أنَّها في بُيوتٍ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ، وأيضًا فإنَّه وَحَّدَ المِشْكاةَ وجَمَع البُيوتَ، ولا تكونُ مِشكاةٌ في بُيوتٍ؛ فإذَنِ الأَوْلى أن يقالَ: قَولُه: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ في وَصفِ مَساجِدِ المُؤمِنينَ الذين يَذكُرونَ اللهَ فيها ويَعبُدونَه ويُصَلُّونَ له). ((البسيط)) (١٦/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

عن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن بنى مَسجِدًا -قال بُكَيرٌ[١]: حَسِبتُ أنَّه قال: يَبتغي به وجْهَ اللهِ- بنى الله له مِثلَه في الجنَّةِ))[٢].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ هذه المساجِدَ لا تصلُحُ لشَيءٍ مِن هذا البَولِ ولا القَذَرِ، إنَّما هي لذِكرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، والصَّلاةِ، وقراءةِ القرآنِ)) أو كما قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَمِعَ رجُلًا يَنشُدُ ضالَّةً[٤] في المسجِدِ، فلْيقُلْ: لا ردَّها الله عليك؛ فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لهذا))[٥].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من أكَلَ البصَلَ والثُّومَ والكُرَّاثَ فلا يقرَبَنَّ مَسجِدَنا؛ فإنَّ الملائكةَ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدَمَ))[٦].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لِيَلِني منكم أُولو الأحلامِ والنُّهى، ثمَّ الذين يَلونَهم -ثلاثًا-، وإيَّاكم

---

(١) بكيرُ بنُ عبد الله الاشجُّ، وهو أحدُ رواةِ الحديثِ. ينظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٤/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥).

(٤) يَنشُدُ ضالَّةً: أي: يَطلُبُها برَفعِ الصَّوتِ ويَسألُ عنها، والضَّالَّةُ: الحَيوانُ الضَّائعُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٢/ ٤١٣).

(٥) رواه مسلم (٥٦٨).

(٦) رواه البخاري (٨٥٤)، ومسلم (٥٦٨) واللفظ له.

وهَيْشاتِ الأسواقِ[(١)]))[(٢)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّه نهى عن تَناشُدِ الأشعارِ في المسجِدِ، وعن البَيعِ والاشتِراءِ فيه، وأن يتحَلَّقَ[(٣)] النَّاسُ فيه يومَ الجمُعةِ قبْلَ الصَّلاةِ))[(٤)].

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

أي: وأذِنَ اللهُ لعِبادِه أن يَذْكُروا في المساجِدِ اسمَه وحْدَه لا شريكَ له[(٥)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

---

(١) هَيشاتِ الأسواقِ: أي: اختِلاطَها، والمُنازَعةَ والخُصوماتِ، وارتِفاعَ الأصواتِ، واللَّغَطَ والفِتَنَ التي فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١٥٦).

(٢) رواه مسلم (٤٣٢).

(٣) يتحَلَّقَ النَّاسُ: أي: يَجلِسوا على هَيئةِ الحَلْقةِ، يُقالُ: تحَلَّقَ القَومُ: إذا جَلَسوا حَلْقةً حَلْقةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦١٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٢) واللَّفظُ له، والنَّسائي (٧١٥)، وابن ماجه (٧٤٩)، وأحمد (٦٦٧٦). حَسَّنه الترمذي، وصَحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (١/ ٣٥٤)، وحَسَّنه النووي في ((المجموع)) (٢/ ١٧٧)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٢٩٧)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٢)، وجوَّد أسانيدَه ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٦).

قال ابن عثيمين: (المرادُ أنَّ اللهَ يُذكَرُ بأسمائِه؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الاسمُ ذُكِرَ المُسمَّى، لكِنْ بأيِّ شيءٍ يُذكَرُ؟ بالقراءةِ والتَّسبيحِ...، المهِمُّ أن يُذكَرَ بالثَّناءِ والتَّمجيدِ، وهذا يشمَلُ الصَّلاةَ وغيرَ الصَّلاةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يُتْلَى فيها كِتابُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤).

وقال ابن عطية: (وذِكرُ اسْمِه تعالى، هو بالصلاةِ والعبادةِ قولًا وفعلًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٦).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما اجتمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ، يتلُونَ كِتابَ الله، ويَتدارَسونَه بيْنهم، إلَّا نزلتْ عليهمُ السَّكينةُ، وغَشِيَتْهمُ الرَّحمةُ، وحفَّتْهمُ الملائِكةُ، وذكَرَهمُ اللهُ فيمَن عِندَه))(١).

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾.

أي: يُسبِّحُ للهِ بإخلاصٍ في المساجِدِ في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابن الجوزي: (﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ فيها قولانِ:

أحَدُهما: أنَّه الصَّلاةُ، ثمَّ في صلاةِ الغُدُوِّ قَولانِ: أحَدُهما: أنَّها صلاةُ الفَجرِ. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثاني: صلاةُ الضُّحى، روى ابنُ أبي مُلَيكة عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: إنَّ صلاةَ الضُّحى لَفِي كِتابِ اللهِ، وما يَغوصُ عليها إلَّا غوَّاصٌ، ثمَّ قرأ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾. وفي صلاةِ الآصالِ قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّها صَلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ والمَغرِبِ والعِشاءِ، قاله ابنُ السَّائبِ. والثَّاني: صلاةُ العَصرِ. قاله أبو سليمانَ الدمشقيُّ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّه التَّسبيحُ المعروفُ. ذكره بعضُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: الصَّلاةُ: مقاتِلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والرسعني، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٨).

وعزا الثَّعلبيُّ والبَغَويُّ إلى أهلِ التَّفسيرِ القَولَ بأنَّ المرادَ الصَّلواتُ المَفروضةُ، وأنَّ التي تُؤدَّى بالغَداةِ صَلاةُ الصُّبحِ، والتي تُؤدَّى بالآصالِ صَلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ والعِشاءَينِ، وعزاه =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وعن عُمارةَ بنِ رُؤَيْبةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لن يَلِجَ النَّارَ أحدٌ صلَّى قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبلَ غُروبِها)) يعني: الفجرَ والعَصرَ(١).

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾.

= القرطبيُّ والشوكانيُّ إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

وقيل: الغُدُوُّ: صلاةُ الصُّبحِ، والآصالُ: الظُّهرُ والعَصرُ. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٧).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الصُّبحِ وصلاةُ العَصرِ. وممَّن اختاره: مكِّيٌّ، والسمعاني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: التَّنزيهُ: الشوكانيُّ، فقال: (قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: معناه الحقيقيُّ، وهو تنزيهُ اللهِ سُبحانَه عمَّا لا يليقُ به في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، ويؤيِّدُ هذا ذِكرُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ بَعْدَه، وهذا أرجَحُ ممَّا قَبْلَه؛ لكَونِه المعنى الحقيقيَّ، مع وجودِ دليلٍ يدُلُّ على خِلافِ ما ذهب إليه الأوَّلونَ، وهو ما ذكَرْناه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

وممَّن اختار الجَمْعَ بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

قال السعدي: (يدخُلُ في ذلك التَّسبيحُ في الصَّلاةِ وغَيرِها؛ ولهذا شُرِعت أذكارُ الصَّباحِ والمساءِ وأورادُهما عندَ الصَّباحِ والمساءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ أعمُّ مِن كَونِهم يُصَلُّون، بل هم يُسَبِّحون اللهَ بالصَّلاةِ وغَيرِها مِمَّا يكونُ به تنزيهُ اللهِ سُبحانه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

(١) رواه مسلم (٦٣٤).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: رِجالٌ لا تَشغَلُهم أيُّ تجارةٍ ولا أيُّ بيعٍ عن ذِكرِ اللهِ تعالى(١).

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾.

أي: ولا تَشغَلُهمُ التِّجارةُ ولا البيعُ عن حُضورِ المساجِدِ لأداءِ الصَّلواتِ بحُدودِها في أوقاتِها، ولا عن أداءِ الزَّكاةِ لِمُستحِقِّيها في وقتِها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بذكرِ الله هنا: الأذانُ؛ لأنَّهم كانوا إذا سَمِعوا المؤذِّنَ تَركوا بيعَهم، وقاموا إلى الصَّلاةِ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بذكرِ الله: حُضورُ المساجِدِ لإقامةِ الصَّلَواتِ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

واختار مقاتلُ بنُ سليمانَ والعليميُّ أنَّ المرادَ: الصَّلواتُ المفروضةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٢).

وقيل: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ باللِّسانِ والقَلبِ. وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩١).

وقال الشوكانيُّ: (ومعنى ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: هو ما تقَدَّمَ في قَولِه: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾)، وذكَر في تفسيرِ هذه الآيةِ أنَّ المرادَ: يُتْلَى فيها كتابُه. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥١١٧، ٥١١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى لإيتاءِ الزكاةِ: مكيُّ بن أبي طالب، والرازي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥١١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢).

وقيل: معناها: طاعةُ الله تعالى، والإخلاصُ له. وممَّن رُوي عنه القولُ بذلك: ابنُ عباسٍ -رَضِيَ اللهُ عنهما- في إحدى الرِّوايتينِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٤). =

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان تَركُ الدُّنيا شديدًا على أكثَرِ النُّفوسِ، وحُبُّ المكاسِبِ بأنواعِ التِّجاراتِ محبوبًا لها، ويشُقُّ عليها تَركُه في الغالبِ، وتتكَلَّفُ من تقديمِ حَقِّ الله على ذلك- ذكرَ ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا، فقال(١):

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

أي: يخافونَ يومَ القيامةِ الذي تتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ فيه قلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم؛ مِن شِدَّةِ الأهوالِ والفَزَعِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ

= قال الرازي: ((اختلفوا في الصَّلاةِ؛ فمنهم مَن قال: هي الفرائِضُ، ومنهم مَن أدخَلَ فيها النَّفلَ ....، والأوَّلُ أقرَبُ؛ لأنَّه إلى التَّعريفِ أقرَبُ، وكذلك القَولُ في الزَّكاةِ أنَّ المرادَ المفروضُ؛ لأنَّه المعروفُ في الشَّرعِ المُسمَّى بذلك، وقال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: المرادُ مِن الزَّكاةِ: طاعةُ اللهِ تعالى والإخلاصُ، وكذا في قَولِه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٥٥]، وقَولِه: ﴿مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [النور: ٢١]، وقَولِه: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا ضَعيفٌ؛ لِما تقَدَّم، ولأنَّه تعالى عَلَّق الزَّكاةَ بالإيتاءِ، وهذا لا يُحمَلُ إلَّا على ما يُعطى مِن حُقوقِ المالِ)). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٨).

وقيل: معنى تقَلُّبِ القُلوبِ: أنَّ النَّاسَ يومَ القيامةِ يَكونونَ بيْن الطَّمَعِ بالنَّجاةِ، والحَذَرِ مِنَ الهلاكِ، ومعنى تقَلُّبِ الأبصارِ: أنَّهم يَنظُرونَ إلى أيِّ ناحيةٍ يُؤخَذُ بهم: أذاتَ اليمينِ أمْ ذاتَ الشِّمالِ؟ ومِن أين يُؤتَونَ كُتُبَهم: أمِنْ قِبَلِ الأيمانِ أم مِن قِبَلِ الشَّمائِلِ؟ وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢).

مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧ - ١٠].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أفعالَ هؤلاء الرِّجالِ التي أقبَلوا بها عليه، وأعرَضوا عمَّا عداه؛ بيَّنَ غايتَهم فيها، فقال تعالى[١]:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

أي: أنَّهم فَعَلوا ما فَعَلوا[٢]؛كي يُثيبَهمُ اللهُ يومَ القيامةِ بأحسَنِ ما عَمِلوه في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨١).

(٢) قال أبو حيان: (اللامُ في ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فعَلوا ذلك لِيَجزيَهم، ويجوزُ أن تتعلَّقَ بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾، وهو الظَّاهِرُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠).

مِمَّن اختار في الجُملةِ القَولَ الأوَّلَ، أي: اشتَغَلوا بذِكرِ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ لِيَجزيَهم، أو فعلوا ذلك، أو يَفعَلون ما يَفعَلون مِن هذه القُرُباتِ؛ لِيَجزيَهم: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، والرازي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢).

ومِمَّن اختار القَولَ الثَّانيَ: أنَّها تتعلَّقُ بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾: الواحديُّ، وابن الجوزي، وأبو حيان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: يُسَبِّحونَ ويخافون؛ لِيَجزيَهم ثوابَهم: الزمخشريُّ، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٨)، ((أضواء البيان)) =

الدُّنيا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

= للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

وقال ابنُ عاشور: (ويتعلَّقُ قَولُه: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ بـ﴿يَخَافُونَ﴾، أي: كان خَوفُهم سَبَبًا للجَزاءِ على أعمالِهم النَّاشِئةِ عن ذلك الخَوفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قيل: المرادُ بالأحسَنِ: جميعُ الحَسَناتِ وما عَمِلوا من الخيرِ، فهي موصوفةٌ في مُقابَلةِ الذُّنوبِ بأنَّها أحسَنُ، ولهم مَساوئُ فلا يَجزيهم بها. ومِمَّن اختار هذا القَولَ: مقاتل بن سليمان، والواحدي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

وقيل: المرادُ: أحسَن جزاءِ أعمالِهم حَسْبَما وعَدَهم مِن تضعيفِ ذلك إلى عَشَرةِ أمثالِه وإلى سبْعِ مئةِ ضِعفٍ . وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾: أعمالُهم الحَسَنةُ الصَّالحةُ؛ لأنَّها أحسَنُ ما عَمِلوا؛ لأنَّهم يَعمَلونَ المباحاتِ وغيرَها، فالثَّوابُ لا يَكونُ إلَّا على العمَلِ الحسَنِ. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وهذا على القَولِ بأنَّ المباحَ ليس مِن قِسمِ الحَسَنِ. واختار الشنقيطيُّ أنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّ المباحَ مِن الحَسَنِ؛ وعليه فإنَّ أعمالَ الإنسانِ منها الحَسَنُ -وهو المباحُ- وهذا لا يُجازَى عليه، ومنها الأحسَنُ، وهو المندوبُ والواجِبُ، وهما المرادُ بقَولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾. يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٦).

وقيل: يَجزيهم أحسَنَ وأفضَلَ مِن أعمالِهم، وهو الجنَّةُ. وقيل: يَجزيهم ويَغفِرُ لهم بأحسَنِ أعمالِهم، ويبقى سائِرُ أعمالِهم فَضلًا. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥).

وقال سُبحانَه: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: ويَزيدَهمُ اللهُ على ثوابِ أعمالِهم الصَّالحةِ فَوقَ ما يستَحِقُّونَه بأعمالِهم[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: واللهُ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ، فيَرزُقُه أرزاقًا كثيرةً لا حدَّ لها ولا عَدَّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

قال أبو السعود: (﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يتفضَّلَ عليهم بأشياءَ لم تُوعَدْ لهم بخصوصيَّاتِها أو بمقاديرِها، ولم تخطُرْ ببالِهم كيفيَّاتُها ولا كَمِّيَّاتُها، بل إنَّما وُعِدَت بطريقِ الإجمالِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا زائِدٌ على ثوابِ العمَلِ، وذلك ما يَحصُلُ مِن زيادةِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وزيادةِ الرِّزقِ في الدُّنيا، وزيادةِ ما يُدَّخَرُ لهم عندَ الله في الجنَّةِ؛ كالنَّظَرِ إلى وَجهِ اللهِ سُبحانَه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

مِمَّن اختار أنَّ المعنى: مِن غيرِ أن يُحاسِبَه على ما بَذَل له وأعطاه، فيَرزُقُه ولا يُحاسِبُه: ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨١).

وقال مقاتل بن سليمان: (﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقولُ اللهُ تعالى: ليس فوقي مَلِكٌ يُحاسِبني، أنا المَلِكُ أُعطي مَن شِئتُ بغيرِ حِسابٍ، لا أخافُ مِن أحدٍ يُحاسِبُني). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١). =

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ فيه دليلٌ على حَثِّ المسلمين أنْ يُصَلُّوا في المساجِدِ[1]، وفيه استِحبابُ ذِكرِ الله فيها[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ وصْفُه تعالى لهؤلاء الرِّجالِ الذين يُسَبِّحون له بالغدُوِّ والآصالِ بكَونِهم لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، على سبيلِ مَدحِهم والثَّناءِ

= وقال يحيى بن سلام: (قَولُه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغيرِ أن يُحاسِبَ نفْسَه، أي: لا يَنقُصُ ما عندَ اللهِ كما يَنقُصُ ما في أيدي النَّاسِ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٣).

وقيل: هو كنايةٌ عن كثرةِ العَطاءِ وسَعتِه، فهو يُوسِّعُ كأنَّه لا يَحسِبُ ما يُنفِقُه ويُعطيه. ومِمَّن اختار هذا القَولَ في الجُملةِ: جلال الدين المحلي، والبِقاعي، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

وقال السمرقندي: (﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ... يقالُ: يَرزقُه رزقًا لا يُدرَكُ حِسابُه،... ويقال: بغيرِ حسابٍ، أي: مِن غيرِ حِسابٍ، أي: مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان المعنى: رِزقًا يفوقُ الحَدَّ، ويفوتُ العَدَّ؛ عَبَّرَ عنه بقَولِه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فهو كنايةٌ عن السَّعةِ، ويجوزُ أن يكونَ مع السَّعةِ التَّوفيقُ، فيكونَ بِشارةً بنَفيِ الحِسابِ في الآخرةِ أيضًا أصلًا ورأسًا؛ لأنَّ ذلك المَرزوقَ لم يَعمَلْ ما فيه دَرَكٌ عليه، فلا يُحاسَبُ، أو يحاسَبُ ولا يُعاقَبُ؛ فيكونَ المرادُ بنَفيِ الحِسابِ نَفيَ عُسرِه وعِقابِه، ويجوزُ أن يُرادَ الرزقُ كَفافًا، وقد ورد أنَّه لا حِسابَ فيه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

عليهم- يدُلُّ على أنَّ تلك الصِّفاتِ لا يَنبغي التَّساهُلُ فيها بحالٍ؛ لأنَّ ثناءَ الله على المتَّصِفِ بها يدُلُّ على أنَّ مَن أخَلَّ بها يستحِقُّ الذَّمَّ الذي هو ضِدُّ الثَّناءِ، ويوضِّحُ ذلك أنَّ الله نهَى عن الإخلالِ بها نهيًا جازمًا في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة: ٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ[١].

٣- قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ في تعقيبِ المَثَلِ بذكرِ كونِ المساجِدِ ظرفًا لذلك النُّورِ -على أحدِ الأقوالِ-؛ تنبيهٌ على أنَّ صَقالةَ القَلبِ تكونُ بتزويدِه بالطَّاعةِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فيه أنَّ التِّجارةَ لا تُنافي الصَّلاحَ؛ لأنَّ مَقصودَ الآيةِ أنَّهم يتعاطَونَها، ومع ذلك لا تُلهيهم عن الصَّلاةِ وحُضورِ الجماعةِ[٣]. فهؤلاء الرِّجالُ وإنِ اتَّجَروا وباعُوا واشتَرَوا، فإنَّ ذلك لا محذورَ فيه، لكِنَّه لا تُلهيهم تلك، بأن يقَدِّموها ويُؤثِروها على ذِكرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، بل جَعَلوا طاعةَ اللهِ وعِبادتَه غايةَ مُرادِهم، ونهايةَ مَقصدِهم، فما حالَ بيْنَهم وبيْنَها رَفَضوه[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ بيَّن سُبحانَه وتعالى أنَّ هؤلاء الرِّجالَ وإن تعَبَّدوا بذِكرِ اللهِ والطَّاعاتِ، فإنَّهم مع ذلك موصوفون

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

بالوجَلِ والخَوفِ(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قولُه تعالى: ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ هذان مجموعُ أحكامِ المساجِدِ، فيدخُلُ في رَفعِها بناؤُها وكَنسُها وتنظيفُها مِن النَّجاسةِ والأذى، وصونُها مِن المجانينِ والصِّبيانِ الذين لا يتحَرَّزونَ عن النَّجاسةِ، وعن الكافِرِ، وأن تُصانَ عن اللَّغوِ فيها، ورَفعِ الأصواتِ بغيرِ ذِكرِ الله، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يدخُلُ في ذلك الصَّلاةُ كُلُّها؛ فرضُها ونَفلُها، وقراءةُ القرآنِ، والتسبيحُ، والتهليلُ، وغيرُه من أنواعِ الذِّكرِ، وتعلُّمُ العِلمِ وتعليمُه، والمذاكرةُ فيها، والاعتكافُ، وغيرُ ذلك مِن العباداتِ التي تُفعَلُ في المساجِدِ؛ ولهذا كانت عمارةُ المساجِدِ على قِسمَينِ: عمارةِ بُنيانٍ وصيانةٍ لها، وعِمارةٍ بذكرِ اسمِ الله، مِن الصَّلاةِ وغَيرِها، وهذا أشرَفُ القِسمَينِ؛ ولهذا شُرِعَت الصَّلواتُ الخَمسُ والجُمُعةُ في المساجِدِ(٢).

٢- قولُه: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فيه فضيلةُ وشَرَفُ المساجِدِ؛ لأنَّها مَحَلُّ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتعظيمِه؛ فالمكانُ يَشرُفُ بشَرَفِ العَمَلِ فيه، كما أنَّ الزَّمانَ أيضًا يَشرُفُ بشَرَفِ العَمَلِ فيه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أنَّ الأفضَلَ في الذِّكرِ أنْ يكونَ بالقلبِ واللِّسانِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أن يُذكَرَ فيها اسمُه إلَّا باللِّسانِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ أنَّ النِّساءَ لَسْنَ مكَلَّفاتٍ بصَلاةِ الجَماعةِ وزيارةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

المساجِدِ؛ لأنَّ اللهَ خَصَّ بها الرِّجالَ[١]، ومفهومُ المُخالَفةِ الذي دلَّتْ عليه هذه الآيةُ بيَّنَتْه الأحاديثُ الصَّحيحةُ، وهو أنَّ صَلاةَ المرأةِ في بَيتِها أفضلُ مِن صلاتِها في المَسجِدِ[٢]، وأنَّ النِّساءَ لَسْنَ كالرِّجالِ في حكمِ الخروجِ إلى المساجِدِ، وأنَّه يجوزُ لهنَّ الخروجُ إلى المساجِدِ بِشُروطٍ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ هؤلاء الرجالُ لو كانوا لا يَعرِفونَ التِّجارةَ ولا يستطيعونَ التِّجارةَ، قُلْنا: إنَّ لجوءَهم إلى بيوتِ اللهِ مِن بابِ الضَّرورةِ -يعني: لأجْلِ أنْ يقضُوا الوقتَ عن أنفُسِهم، ويتسَلَّوا بذلك- لكنَّهم قومٌ لهم تِجارةٌ، فالصَّارِفُ عن ذِكْرِ اللهِ في المساجِدِ موجودٌ، وهو التِّجارةُ، لكنَّهم مع ذلك لا تُلهيهم، وكُلَّما قَوِيَ الصَّارِفُ ولم ينصَرِفِ الإنسانُ، فهو أكمَلُ ممَّن لا صارفَ له[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قَولُه: ﴿رِجَالٌ﴾

---

(١) قال الشنقيطي: (الحاصِلُ: أنَّ لَفظَ الرِّجالِ في الآيةِ وإن كان في الاصطِلاحِ لَقَبًا، فإنَّ ما يَشتَمِلُ عليه مِن أوصافِ الذُّكورةِ المُناسِبةِ للفَرقِ بينَ الذُّكورِ والإناثِ- يَقتضي اعتِبارَ مَفهومِ المُخالَفةِ في لَفظِ رِجالٍ، فهو في الحقيقةِ مَفهومُ صِفةٍ لا مَفهومُ لَقَبٍ؛ لأنَّ لَفظَ الرِّجالِ مُستَلزِمٌ لأوصافٍ صالحةٍ لإناطةِ الحُكمِ به، والفَرقُ في ذلك بين الرِّجالِ والنِّساءِ كما لا يخفى... [و] مَفهومُ الصِّفةِ مُعتبَرٌ عند الجُمهورِ، خِلافًا لأبي حنيفةَ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٩).

ويُنظَرُ في أفضليَّةِ صَلاةِ المرأةِ في بَيتِها: ما أخرَجَه أبو داود (٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٧٦) (٥٤٦٨) مِن حديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، وما أخرجه أبو داود (٥٧٠) من حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

ويُنظَرُ في شروطِ خُروجِ المرأةِ إلى المسجِدِ: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٧).

فيه إشعارٌ بهِمَمِهم السَّاميةِ، ونيَّاتِهم وعَزائِمِهم العاليةِ، التي بها صاروا عُمَّارًا للمَساجِدِ التي هي بُيوتُ اللهِ في أرضِه، ومواطِنُ عِبادتِه وشُكرِه، وتَوحيدِه وتَنزيهِه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣](١).

٧- إيرادُ قولِه: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هاهنا وإنْ لم يكُنْ ممَّا يُفعَلُ في البُيوتِ؛ لكونِه قَرينةً لا تُفارِقُ إقامةَ الصَّلاةِ في عامَّةِ المواضعِ، مع ما فيه مِن التَّنبيهِ على أنَّ مَحاسنَ أعمالِهم غيرُ مُنْحصرةٍ فيما يقَعُ في المساجِدِ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾ إلخ؛ فليس خَوفُهم مَقصُورًا على كونِهم في المساجِدِ(٢).

٨- أنَّ مَن تَعَبَّدَ للهِ خَوفًا فهو محمودٌ؛ لقَولِه: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾، وقد أثنى اللهُ على مَن تَعبَّدَ خوفًا منه مِن العذابِ، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وهنا قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وأثنى اللهُ تعالى على مَن تَعَبَّدَ طلبًا، قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ مِن الصوفيَّةِ أو غيرِهم إلى أنَّ الأفضلَ في التَّعبُّدِ ألَّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه؛ وإنما يَعْبُدُ اللهَ لذاتِه فقط، لا قصدًا لفضلِه، ولا حذرًا مِن عقابِه! وهذا نبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهؤلاء أصحابُه -وهم أكملُ حالًا- قد ذَكَر اللهُ عنهم أنَّهم كانوا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وكذلك فإنَّ مَن يَعْبُدُ اللهَ سبحانَه لِينالَ فضْلَه وينجوَ مِن عقابِه، هو يريدُ الوصولَ إلى رِضوانِ اللهِ وإلى رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، التي هي مِن جملةِ النَّعيمِ في الجنَّةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٨).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ ردٌّ على مَن يزعُمُ أنَّه لا ينبغي أنْ يعمَلَ الإنسانُ لأجلِ الجَزاءِ الذي ينالُه مِن اللهِ؛ لأنَّه يكونُ في زَعمِهم مِن بابِ المُتاجرةِ، بل يجِبُ أنْ يعمَلَ العمَلَ تعظيمًا وإجلالًا للهِ! فهذا يخالِفُ ثناءَ اللهِ تعالى ومدْحَه لِمَن عَمِلَ لأجلِ نَيلِ جزاءِ اللهِ[١].

١٠- أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، بل هو في الطَّاعاتِ أحسَنُ مِن العمَلِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ شيئًا فوقَ ما عَمِلوه[٢]، فاللهُ تعالى جعَل الحُسْنَ للعملِ نفْسِه، مع أنَّ الحُسْنَ للثَّوابِ -على قولٍ في التفسيرِ- ؛ إشارةً إلى أنَّ الجزاءَ بقَدْرِ العملِ؛ ولذلك عَبَّر به عنه[٣].

١١- استُدِلَّ بقولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ ونحوِ ذلك مِن الآياتِ على أنَّ المباحَ حَسَنٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ صيغةُ تفضيلٍ، وصيغةُ التَّفضيلِ المذكورةُ تَدُلُّ على أنَّ مِن أعمالِهم حَسَنًا لَمْ يُجْزَوْه، وهو المباحُ، فصيغَةُ التفضيلِ تَدُلُّ على المشاركةِ، والواجبُ أحسَنُ مِن المندوبِ، والمندوبُ أحسَنُ مِن المباحِ؛ فيُجازَوْنَ بالأحسَنِ الَّذي هو الواجبُ والمندوبُ -على قولٍ في التفسيرِ-، دونَ مُشارِكِهما في الحُسنِ، وهو المباحُ[٤].

١٢- قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ فذَكَر الجزاءَ على الحَسَناتِ، ولم يَذكُرِ الجزاءَ على السَّيِّئاتِ وإن كان يُجازى عليها؛ لأمْرَينِ:

أحَدُهما: أنَّه تَرغيبٌ، فاقتَصَر على ذِكرِ الرَّغبةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩)، (٥/ ٥٤٩).

الثَّاني: أنَّه يكونُ في صِفةِ قَومٍ لا تكونُ منهم الكبائِرُ، فكانت صَغائِرُهم مَغفورةً[(١)].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فيه تَنبيهٌ على كَمالِ القُدرةِ، ونَفاذِ المشيئةِ، وسَعةِ الإحسانِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾

- قيل: قولُه: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مِن تَمامِ التَّمثيلِ؛ فيكونُ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مُتعلِّقًا بشَيءٍ ممَّا قبْلَه؛ فقيل: يتعلَّقُ بقولِه: ﴿يُوقَدُ﴾ [النور: ٣٥]، أي: يُوقَدُ المِصباحُ في بيوتٍ. وقيل: هو صِفةٌ لمِشكاةٍ، أي: مِشكاةٍ في بُيوت، وما بيْنهما اعتراضٌ، وإنَّما جاء (بيوت) بصِيغةِ الجمْعِ مع أنَّ (مِشكاة) و(مِصباح) مُفرَدانِ؛ لأنَّ المُرادَ بهما الجنسُ؛ فتَساوى الإفرادُ والجمْعُ. والمقصدُ مِن ذِكرِ هذا زيادةُ إيضاحِ المُشبَّهِ به. وفيه مع ذلك تَحسينُ المُشبَّهِ به؛ ليَسريَ ذلك إلى تَحسينِ المُشبَّهِ؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن وصْفِ البيوتِ وما يجري فيها مما يُكسِبُها حُسنًا في نُفوسِ المؤمنينَ[(٣)].

- ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ غيرَ مُرتبِطٍ بما قبْلَه، وأنَّه مبدَأُ استِئنافٍ ابتدائيٍّ، وأنَّ المجرورَ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ استِئنافٌ. وتَقديمُ المجرورِ للاهتِمامِ بتلك البُيوتِ، وللتَّشويقِ إلى مُتعلَّقِ المجرورِ، وهو التَّسبيحُ وأصحابُه. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ خبرًا مُقدَّمًا، و﴿رِجَالٞ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٥، ٢٤٦).

مُبتدأً، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]؛ فيسأَلُ السَّائلُ في نفْسِه عن تَعيينِ بعضٍ ممَّن هداهُ اللهُ لنُورِه، فقيل: رِجالٌ في بُيوتٍ(١). وقيل: كَلِمةُ (في) في قولِه: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، وقولُه تعالى: ﴿فِيهَا﴾ تَكريرٌ لها للتَّأكيدِ والتَّذكيرِ؛ لِمَا بيْنهما مِن الفاصلةِ، وللإيذانِ بأنَّ التَّقديمَ للاهتِمامِ، لا لقصْرِ التَّسبيحِ على الوُقوعِ في البُيوتِ فقطْ(٢). وفي ذلك تَنويهٌ بالمساجدِ، وإيقاعِ الصَّلاةِ والذِّكْرِ فيها(٣).

- وتَنكيرُ: ﴿بُيُوتٍ﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ(٤). وأتَى بجمعِ الكثرةِ (بيوت) دونَ جمعِ القِلَّةِ؛ للتعظيمِ(٥).

- وفي التَّعبيرِ بالإذنِ في قولِه: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ تلْويحٌ بأنَّ اللَّائقَ بحالِ المأمورِ أنْ يكونَ مُتوجِّهًا إلى المأمورِ به قبْلَ وُرودِ الأمرِ به ناويًا لتَحقيقِه، كأنَّه مُستأذِنٌ في ذلك، فيقَعُ الأمرُ به مَوقِعَ الإذْنِ فيه(٦).

- قولُه: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قيل: فيه إفرادُ طَرَفَيِ النَّهارِ بالذِّكرِ؛ لقِيامِهما مَقامَ كلِّها؛ لكونِهما العُمدةَ فيها؛ بكونِهما مَشهودَينِ، وكَونِهما أشهَرَ ما يقَعُ فيه المُباشَرةُ للأعمالِ، والاشتِغالُ بالأشغالِ. وقيل: خصَّ هذَينِ الوقتَينِ؛ لشَرَفِهما، ولتيسُّرِ السَّيرِ فيهما إلى اللهِ وسُهولتِه(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

٢- قَولُه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾

- قولُه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ * رِجَالٌ ...﴾ ﴿رِجَالٌ﴾ فاعلُ ﴿يُسَبِّحُ﴾، وتأخيرُه عن الظُّروفِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، ولأنَّ في وَصْفِه نوعَ طُولٍ، فيُخِلُّ تَقديمُه بحُسنِ الانتِظامِ[١].

- وخَصَّ الرِّجالَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ النِّساءَ لَسْنَ مِن أهلِ التِّجاراتِ أو الجماعاتِ[٢].

- قولُه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ صِفَةٌ لـ﴿رِجَالٌ﴾، مُؤكِّدةٌ لِمَا أفادَهُ التَّنكيرُ مِن الفخامةِ، مُفيدةٌ لكَمالِ تَبتُّلِهم إلى اللهِ تعالى، واستغراقِهم فيما حُكِيَ عنهم مِن التَّسبيحِ، مِن غيرِ صارفٍ يَلْويهم، ولا عاطفٍ يَثْنيهم كائنًا ما كان. وتَخصيصُ التِّجارةِ بالذِّكرِ؛ لكونِها أقوى الصَّوارفِ عندَهم وأشهَرَها[٣]، فهي أعظَمُ ما يشتَغِلُ به الإنسانُ عن الصَّلاةِ[٤].

- وعُطِفَ البَيعُ على التِّجارةِ في قولِه: ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لمُغايَرةِ التِّجارةِ والبَيعِ؛ فاحتمَلَ أنْ تكونَ ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ مِن إطلاقِ العامِّ، ويُرادُ به الخاصُّ، فأرادَ بالتِّجارةِ الشِّراءَ، ولذلك قابلَه بالبيعِ. أو يُرادُ تِجارةُ الجلَبِ، ويُقال: تَجَرَ فُلانٌ في كذا، إذا جلَبَهُ، وبالبيعِ البيعُ بالأسواقِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ مِن الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ لأنَّ التِّجارةَ هي البيعُ والشِّراءُ طلبًا للرِّبْحِ. وإفرادُه بالذِّكرِ مع اندراجِه تحتَ التِّجارةِ؛ لأنَّه في الإلهاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٩).

أدخَلُ؛ لأنَّ الربحَ الحاصلَ في البيعِ مُتيقَّنٌ ناجزٌ، والربحُ الحاصلُ في الشراء شكٌّ مستقبَلٌ، مُتوقَّعٌ في ثاني الحالِ عندَ البيعِ، ولذلك كُرِّرت كلمةُ (لا)؛ لتَذكيرِ النَّفيِ وتأكيدِه[١]. ويحتمِلُ أنَّه عطَفَه عليها؛ لئلاَّ يُتوهَّمَ القصورُ على بيعِ التِّجارةِ[٢]، فالإنسانُ قد يُضْطَرُّ إلى الخروجِ بالبَيعِ عن بَعضِ ما يَملِكُ؛ للاقتياتِ بثَمَنِه، أو التبلُّغِ به إلى بَعضِ المُهمَّاتِ التي لا وصولَ له إليها إلَّا به، أو بتحصيلِ ما لا يملِكُ كذلك؛ لذا قال: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أي: وإن لم يكُنْ على وجهِ التِّجارةِ[٣]، فالتَّاجِرُ مَن يَجعلُ البيعَ والشِّراءَ حِرفةً له يستفيدُ منهما، والبائِعُ قد يَبيعُ السِّلعةَ مرَّةً واحدةً لحاجةٍ، ولا يُريدُ مِن البَيعِ التِّجارةَ[٤].

- على القولِ بأنَّ قولَه تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: تَسبيحِ اللهِ؛ فـ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مُظْهَرٌ وُضِعَ مَوضِعَ المُضمَرِ، وتَقديرُ الكلامِ: يُسبِّحُ له فيها بالغُدوِّ والآصالِ رجالٌ لا تُلْهيهم تِجارةٌ ولا بيعٌ عنه[٥].

- وأعادَ ذِكرَ (الصَّلاةِ) بعدَ ذِكرِها بالتَّسبيحِ -على قولٍ في التفسيرِ- تَصريحًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٤).

وقال ابن عثيمين: (التِّجارةُ أعَمُّ مِن البَيعِ؛ قد يلهو الإنسانُ في تجارتِه بتَصنيفِها وتبويبِها وحِفظِها وصيانتِها، وما أشبَهَ ذلك. ربَّما لا يلهو وهو يبيعُ ويشتري، لكنْ يلهو بطَريقٍ آخَرَ بهذه التجارةِ؛ لذلك نقولُ: المرادُ بالتِّجارةِ في الآيةِ: ما يتَّجِرُ به الإنسانُ، ولَهْوُه به ليس بالشِّراءِ، بل بما هو أعَمُّ، أمَّا الشِّراءُ فمَفهومٌ مِن البيعِ؛ لأنَّهم إذا اشتَرَوا فقد باع عليهم غيرُهم، وإذا باعوا فقد اشتَرى منهم غيرُهم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٠٩).

بها؛ تأكيدًا لها، وحَثًّا على حِفظِ وَقتِها؛ لأنَّه مِن جملة مقَوِّماتِها، وكذا جميعُ حدودِها، ولو بأوجَزِ ما يكونُ من أدنى الكَمالِ، بما أشار إليه حذفُ التاءِ في (إِقامِ)[١]؛ إشعارًا بأنَّ هذا المدحَ لا يتوقَّفُ على أنهى الكَمالِ[٢].

- قولُه: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ وقولُه: ﴿يَخَافُونَ ...﴾ فيه تَعريضٌ بالمُنافِقين[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ للزِّيادةِ، وعْدٌ كريمٌ بأنَّه تعالى يُعْطِيهم غيرَ أجْزيةِ أعمالِهم مِن الخيراتِ ما لا يَفِي به الحِسابُ[٤]. وقد حصَلَ التَّذييلُ؛ لِمَا في قولِه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن العُمومِ، أي: وهُمْ ممَّن يَشاءُ اللهُ لهم الزِّيادةَ[٥].

- والاسمُ الموصولُ (مَن) في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عبارةٌ عمَّن ذُكِرَتْ صِفاتُهم الجميلةُ؛ كأنَّه قيل: واللهُ يرزُقُهم بغيرِ حِسابٍ، ولكنْ وُضِعَ الموصولُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ، على أنَّ مناطَ الرِّزقِ المذكورِ في مَحضِ مَشيئتِه تعالى لا أعمالُهم المَحكيَّةُ، كما أنَّها المناطُ

---

(١) قال الرسعني: (فإن قيل: لِمَ حذفوا التاءَ مِن إقام الصلاةِ، فإنَّ أصْلَها: إقامة الصلاة؟ قلتُ: لأنها عِوَضٌ مِن العَينِ الساقطةِ للإعْلالِ، وأصلُها: إقوام، فلمَّا أُضيفت جعَلوا الإضافةَ مقامَ حرفِ العِوَضِ؛ فأُسقِطتْ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٣).

وقيل: حَذْفُ هاءِ (إقامة) تخفيفٌ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

لِمَا سبَقَ مِن الهِدايةِ لنُورِه تعالى لا لظاهرِ الأسبابِ، وللإيذانِ بأنَّهم ممَّن شاءَ اللهُ تعالى لأنْ يَرزُقَهم، كما أنَّهم ممَّن شاء اللهُ تعالى أنْ يَهديَهم لنُورِه، حسْبَما يُعرِبُ عنه ما فُصِّلَ مِن أعمالِهم الحَسنةِ؛ فإنَّ جميعَ ما ذُكِر مِن الذِّكرِ والتَّسبيحِ، وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، وخوفِ اليومِ الآخِرِ وأهوالِه، ورجاءِ الثَّوابِ: مُقتبَسٌ مِن القُرآنِ الكريمِ العظيمِ الَّذي هو المَعْنيُّ بالنُّورِ، وبه يتِمُّ بَيانُ أحوالِ مَنِ اهْتَدى بهُداه، على أوضَحِ وجْهٍ وأجلاه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

الآيتان (٣٩-٤٠)

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ كَسَرَابٍ ﴾: السَّرابُ: ما رأيتَ مِن الشَّمسِ كالماءِ نِصفَ النَّهارِ، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ[١].

﴿ بِقِيعَةٍ ﴾: القِيعَةُ جمعُ قاعٍ، وهو المُستَوي مِن الأرضِ، وأصلُ (قوع): يدُلُّ على تبسُّطٍ في مكانٍ[٢].

﴿ لُجِّيٍّ ﴾: أي: عَميقٍ لا يُدرَكُ قَعرُه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بعضٍ، وترديدِ الشَّيءِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يضرِبُ الله تعالى مَثلَيْنِ لأعمالِ الكفَّارِ، فيذكرُ المثَلَ الأولَ، فيقولُ تعالى: والذين كفَروا برَبِّهم وكذَّبوا رسُلَه، أعمالُهم التي عَمِلوها ظنًّا منهم أنَّها تنفَعُهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).

لا ثوابَ لها، مِثْلُ السَّرابِ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِن البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، يراه العَطشانُ فيظُنُّه ماءً، فإذا أتاه لم يجِدْه ماءً، وكذا الكافِرُ يظُنُّ أنَّ أعمالَه تنفَعُه، حتَّى إذا مات وبُعِثَ لم يجِدْ ثوابَها، ووجدَ رَبَّه عندَه بالمرصادِ، فوفَّاه حِسابَ عَمَلِه كاملًا، واللهُ سَريعُ الحِسابِ.

ثمَّ يذكَرُ الله تعالى المثَلَ الثاني، وما هم فيه مِن ضَلالٍ وجَهلٍ لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، فيقولُ: أو أعمالُهم مِثْلُ ظُلُماتٍ في بحرٍ عَميقٍ يَعلوه موجٌ، مِن فَوقِ ذلك الموجِ مَوجٌ آخَرُ، مِن فَوقِه سَحابٌ، ظُلُماتٌ مُتراكِمٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، إذا أخرجَ مَن وقَع في هذه الظُّلُماتِ يَدَه لم يُقارِبْ رُؤيتَها؛ مِن شِدَّةِ الظُّلُماتِ، ومَن لم يَهْدِه اللهُ للإيمانِ ويَنَوِّرْ قَلبَه بنورِ الإسلامِ، فما له مِن هادٍ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى فيما تقَدَّمَ حالةَ الإيمانِ والمُؤمِنينَ، وتَنويرَه قُلوبَهم؛ عَقَّبَ ذلك بذِكرِ الكَفَرةِ وأعمالِهم(١).

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه حالَ المؤمِنِ، وأنَّه في الدُّنيا يكونُ في النُّورِ، وبسَبَبِه يكونُ متمَسِّكًا بالعمَلِ الصَّالحِ، ثمَّ بيَّن أنَّه في الآخرةِ يكونُ فائزًا بالنَّعيمِ المقيمِ والثَّوابِ العظيمِ- أتبعَ ذلك بأنْ بيَّن أنَّ الكافِرَ يكونُ في الآخرةِ في أشَدِّ الخُسرانِ، وفي الدُّنيا في أعظَمِ الظُّلُماتِ، وضرَبَ لكلٍّ واحدٍ منهما مثَلًا(٢)،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٩).

فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾.

أي: ومَثَلُ أعمالِ الذين كفَروا مَثَلُ سَرابٍ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِن البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ وغيرِها مِن المعالِمِ[1].

﴿ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾.

أي: يظُنُّ العَطشانُ ذلك السَّرابَ ماءً، حتى إذا جاء إلى موضِعِه يلتَمِسُ الماءَ، لم يجِدِ السَّرابَ شَيئًا مِمَّا كان يظُنُّه؛ فيَهلِكُ، وكذلك الكافِرونَ: يظُنُّونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٧٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابنُ كثير: (هذان مَثَلانِ ضَرَبهما اللهُ تعالى لنَوعَيِ الكُفَّارِ... فأمَّا الأوَّلُ مِن هذَينِ المَثَلينِ فهو للكُفَّارِ الدُّعاةِ إلى كُفرِهم، الذين يَحسَبونَ أنَّهم على شَيءٍ مِنَ الأعمالِ والاعتقاداتِ، وليسوا في نفْسِ الأمرِ على شَيءٍ؛ فمَثَلُهم في ذلك كالسَّرابِ الذي يُرى في القِيعانِ مِنَ الأرضِ عن بُعدٍ كأنَّه بَحرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٠، ٧١). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٧٥) و (٧/ ٢٧٨) و (١٠/ ١٠١).

وقال ابنُ القيم: (ذكَرَ سُبحانَه للكافِرينَ مَثَلين: مَثَلًا بالسَّرابِ، ومَثَلًا بالظُّلماتِ المتراكِمةِ؛ وذلك لأنَّ المُعرِضينَ عن الهُدى والحَقِّ نوعانِ؛ أحَدُهما: مَن يَظُنُّ أنَّه على شَيءٍ، فيتبَيَّنُ له عندَ انكِشافِ الحقائِقِ خِلافُ ما كان يظُنُّه، وهذه حالُ أهلِ الجَهلِ وأهلِ البِدَعِ والأهواءِ الذين يظُنُّونَ أنَّهم على هُدًى وعِلمٍ، فإذا انكشَفَت الحقائِقُ تبَيَّنَ لهم أنَّهم لم يكونوا على شَيءٍ، وأنَّ عقائِدَهم وأعمالَهم التي ترتَّبَت عليها كانت كسَرابٍ بقِيعةٍ يُرى في عينِ النَّاظِرِ ماءً، ولا حقيقةَ له! وهكذا الأعمالُ التي لغيرِ اللهِ وعلى غيرِ أمْرِه، يَحسَبُها العامِلُ نافِعةً له، وليست كذلك!... وتأمَّلْ جَعْلَ اللهِ سُبحانَه السَّرابَ بالقِيعةِ -وهي الأرضُ القَفرُ الخاليةُ مِنَ البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ والمعالمِ- فمَحَلُّ السَّرابِ أرضٌ قَفرٌ لا شَيءَ بها، والسَّرابُ لا حقيقةَ له، وذلك مُطابِقٌ لأعمالِهم وقُلوبِهم التي أقفَرَت مِنَ الإيمانِ والهُدى!... فهذا مَثَلُ الضَّالِّ الذي يَحسَبُ أنَّه على هُدًى). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢٠، ١٢١).

اعتقاداتِهم وأعمالَهم تنفعُهم، فإذا جاؤوا يومَ القيامةِ وجَدوها غيرَ مَقبولةٍ عندَ اللهِ؛ فلا ينتَفِعونَ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾.

أي: ووجَدَ الكافِرُ ربَّه عندَه بالمرصادِ[2]، فيُجازيه يومَ القيامةِ على جميعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٢، ٢٨٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) قال الشوكاني: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: وَجَد اللهَ بالمرصادِ فوَفَّاه حِسابَه... وقيلَ: وَجَد وَعْدَ اللهِ بالجَزاءِ على عَمَلِه. وقيلَ: وَجَد أمرَ اللهَ عندَ حَشرِه. وقيلَ: وَجَد حُكمَه وقضاءَه عندَ المجيءِ. وقيلَ: عندَ العَمَلِ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

مِمَّن اختار أنَّ المعنى: وَجَد اللهَ بالمِرصادِ: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

قال القاسمي: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: وَجَد عِقابَ اللهِ وجَزاءَه عندَ السَّرابِ، أو العَمَلِ... وقيل: المعنى: وَجَده مُحاسِبًا إيَّاه؛ فالعِنْديَّةُ بمعنى الحِسابِ على طريقِ الكِنايةِ؛ لذِكرِ التَّوفيةِ بَعْدَه. قيل: هذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾، ولا حاجةَ إلى عَطْفِه على ما يُفيدُه مِن نَحوِ: لم يجِدْ ما عَمِلَه نافِعًا. =

أعمالِه التي عَمِلَها في الدُّنيا بما يَستَحِقُّه مِن العذابِ جزاءً وافيًا[1].

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: واللهُ سريعُ المحاسَبةِ لعِبادِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، ولا يَشغَلُه حِسابٌ عن حِسابٍ[2].

= وقال الشِّهابُ: ويحتَمِلُ أن يكونَ بيانًا لحالِ المُشَبَّهِ به الكافِرِ، فيُعطَفَ بحَسَبِ المعنى على التَّمثيلِ بتَمامِه. ولو قيلَ على الأوَّلِ: إنَّه مِن تَتِمَّةِ وَصفِ السَّرابِ. والمعنى: وَجَد مَقدورَه تعالى من الهَلاكِ بالظَّمَأِ عند السَّرابِ، فوَفَّاه ما كُتِبَ له مَن لا يؤخِّرُ الحِسابَ- كان الكَلامُ مُتناسِبًا. واختار الثَّاني أبو السعود. ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٢). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٣٨٨).

ومِمَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿عِندَهُۥ﴾ يعودُ إلى العملِ: مقاتلُ بن سليمان، والفرَّاء، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن جزي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٤).

قال السمعاني: (وقَولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عِندَ عَمَلِه، ومعناهُ: أنَّه لَقِيَ اللهَ في الآخِرةِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦).

وقال ابنُ جزي: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ ضميرُ الفاعِلِ في «وَجَدَ» للكافِرِ، والضَّميرُ في ﴿عِندَهُۥ﴾ لعمَلِه، والمعنى: وَجَد اللهَ عندَه بالجزاءِ، أو وجَدَ زَبانِيَةَ اللهِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢).

وقال النسفي: (﴿عِندَهُۥ﴾ عندَ الكافِرِ). يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩).

وقال ابن جرير: (عندَ هلاكِه). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦، ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩).

قال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا يَستبطِئِ الجاهلونَ ذلك الوعدَ؛ فإنَّه لا بدَّ مِن إتيانِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩). =

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بالمثالِ السَّابِقِ أنَّ الكافرينَ لم يَصِلوا إلى شيءٍ غيرِ التَّعَبِ المُثمِرِ للعَطَبِ، وكان هذا لا يفعَلُه بنَفْسِه عاقِلٌ- ضرَب مثالًا آخَرَ بيَّن الحامِلَ لهم على الوقوعِ في ذلك، وهو السَّيرُ بغيرِ دليلٍ، الموقِعُ في خَبطِ العَشواءِ، كالماشي في الظَّلامِ[1].

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾.

أي: أو مَثَلُ أعمالِ الكافرينَ[2] في ضَلالِهم وجَهلِهم الذي لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، مَثَلُ ظُلُماتٍ في بحرٍ عَميقٍ[3].

= وقال ابن عثيمين: (ما المرادُ بالسُّرعةِ هنا؟ هل المرادُ قُربُ وقتِ المجازاةِ، فتكونَ السُّرعةُ زَمنيةً؟ أو المرادُ إنجازُ الحِسابِ فتكونَ السُّرعةُ عَمَليَّةً؟ أو كلاهما؟ هل المعنى أنَّه في محاسَبتِه سريعٌ، أو المعنى حسابُه للعبادِ قريبٌ، أو كلاهما؟ الجواب: كلاهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ قال أكثرُ المفسِّرينَ: هذا المَثَلُ لأعمالِ الكفَّارِ أيضًا). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثيرٍ.

قال ابنُ تيميَّةَ: (ذَكَر سُبحانَه مَثَلينِ:... والمَثَلُ الثَّاني: مَثَلُ الكُفرِ والجَهلِ البَسيطِ الذي لا يَتبيَّنُ فيه صاحِبُه حَقًّا، ولا يَرى فيه هُدًى، والكُفرُ المُرَكَّبُ مُستلزِمٌ للبَسيطِ، وكُلُّ كُفرٍ فلا بُدَّ فيه مِن جَهلٍ مُرَكَّبٍ؛ فضَرَب اللهُ سُبحانَه المَثَلينِ بذلك؛ لِيُبَيِّنَ حالَ الاعتقادِ الفاسِدِ، ويُبَيِّنَ حالَ عدَمِ مَعرفةِ الحقِّ، وهو يُشبِهُ حالَ المغضوبِ عليهم والضَّالِّينَ، حالَ المُصَمِّمِ على الباطِلِ حتى =

= يَحُلَّ به العذابُ، وحالَ الضَّالِّ الذي لا يرى طريقَ الهُدى). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٧٥).
وقال ابنُ كثير: (وهذا المِثالُ مِثالٌ لِذَوي الجَهلِ المُرَكَّبِ، فأمَّا أصحابُ الجَهلِ البَسيطِ، وهم... المقَلِّدونَ لأئمَّةِ الكُفرِ، الصُّمُّ البُكمُ الذين لا يَعقِلونَ... فهذا مَثَلُ قَلبِ الكافِرِ الجاهِلِ البَسيطِ المقَلِّدِ الذي لا يَدري أين يَذهَبُ، ولا هو يَعرِفُ حالَ مَن يَقودُه، بل كما يُقالُ في المَثَلِ للجاهِلِ: أين تذهَبُ؟ قال: معهم. قيل: فإلى أينَ يَذهَبون؟ قال: لا أدري!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).
وقال ابنُ القيِّم: (النوع الثَّاني: أصحابُ مثَلِ الظُّلُماتِ المُتراكِمةِ، وهُمُ الذين عرَفوا الحقَّ والهُدى، وآثَروا عليه ظُلُماتِ الباطِلِ والضَّلالِ، فتراكَمَتْ عليهم ظُلْمةُ الطَّبعِ، وظُلمةُ النفوسِ، وظُلمةُ الجهلِ حيث لم يَعمَلوا بعِلمِهم فصاروا جاهِلين، وظُلمةُ اتِّباعِ الغَيِّ والهَوى، فحالُهم كحالِ مَن كان في بحرٍ لُجِّيٍّ لا ساحلَ له، وقد غَشِيَه مَوجٌ، ومِن فَوقِ ذلك المَوجِ مَوجٌ، ومِن فَوقِه سَحابٌ مُظلِمٌ؛ فهو في ظُلمةِ البحرِ، وظُلمةِ المَوجِ، وظُلمةِ السَّحابِ، وهذا نَظيرُ ما هو فيه مِنَ الظُّلُماتِ التي لم يُخرِجْهُ الله منها إلى نورِ الإيمانِ... فكذلك الكفَّارُ في هذَينِ المثَلَينِ؛ حَظُّهم مِنَ الماءِ السَّرابُ الذي يَغُرُّ الناظِرَ ولا حقيقةَ له، وحَظُّهمُ الظُّلُماتُ المُتراكِمةُ. وهذا يَجوزُ أن يَكونَ المرادُ به حالَ كلِّ طائفةٍ مِن طوائفِ الكفَّارِ، وأنَّهم عَدِموا مادَّةَ الحياةِ والإضاءةِ بإعراضِهم عن الوَحيِ؛ فيَكونَ المَثَلانِ صِفَتَينِ لمَوصوفٍ واحِدٍ. ويَجوزُ أن يَكونَ المرادُ به تنويعَ أحوالِ الكفَّارِ، وأنَّ أصحابَ المَثَلِ الأوَّلِ هُمُ الذين عمِلوا على غَيرِ عِلمٍ ولا بصيرةٍ، بل على جهلٍ وحُسنِ ظَنٍّ بالأسلافِ، فكانوا يَحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا، وأصحابَ المَثَلِ الثَّاني هم الذين استَحَبُّوا الضَّلالةَ على الهُدى، وآثَروا الباطلَ على الحقِّ، وعَمُوا عنه بعْدَ أن أبصَروه، وجَحَدوه بعْدَ أن عرَفوه، فهذا حالُ المغضوبِ عليهم، والأوَّلُ حالُ الضَّالِّينَ... فالمَثَلُ الأوَّلُ مِنَ المَثَلينِ لأصحابِ العملِ الباطلِ الذي لا يَنفَعُ، والمثَلُ الثَّاني لأصحابِ العِلمِ الذي لا يَنفَعُ والاعتِقاداتِ الباطِلةِ، وكِلاهما مُضادٌّ للهُدى ودينِ الحقِّ؛ ولهذا مثَّلَ حالَ الفريقِ الثَّاني في تلاطُمِ أمواجِ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ والعلومِ الفاسدةِ في قلوبِهم بتلاطُمِ أمواجِ البحرِ فيه، وأنَّها أمواجٌ مُتراكِمةٌ مِن فَوقِها سَحابٌ مُظلِمٌ، وهكذا أمواجُ الشُّكوكِ والشُّبَهِ في قلوبِهم المُظلِمةِ التي قد تراكمتْ عليها سُحُبُ الغَيِّ والهوى والباطِلِ. فلْيَتدبَّرِ اللَّبيبُ أحوالَ الفريقَينِ، ولْيُطابِقْ بيْنهما وبيْن المَثَلينِ؛ يَعرِفْ عَظَمةَ القرآنِ وجَلالتَه، وأنَّه تَنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢١، ١٢٢).
وقال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ هذَينِ المِثالَينِ لأعمالِ جميعِ الكفَّارِ، كلٌّ منهما مُنطبِقٌ عليها، وعدَّدهما لتعدُّدِ الأوصافِ. ويحتمِلُ أنَّ كلَّ مثالٍ لطائفةٍ وفِرقةٍ؛ فالأوَّلُ للمتبوعينَ، والثَّاني =

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ (سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ): برفعِ (سَحَابٌ) منوَّنًا، و(ظُلُمَاتٍ) بالخفضِ بدلًا مِن قَولِه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾[1].

٢- قراءة (سَحَابُ ظُلُمَاتٍ): برفعِ (سَحَابُ) مِن غيرِ تنوينٍ، و(ظُلُمَاتٍ) بالخفضِ، جعلَ الموجَ المتراكِمَ بمنزلةِ السَّحابِ، كما يُقالُ: سَحابةُ رحمةٍ، فأضافَ (سَحَابُ) إلى (ظُلُمَاتٍ) ليبيِّنَ في أيِّ شَيءٍ هو[2].

٣- قراءةُ ﴿سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتٌ﴾: برفعِهما جميعًا وتنوينِهما، و(ظُلُمَاتٌ) تبيينٌ لِقَولِه: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، فهذه ثلاثُ ظُلُماتٍ[3].

= للتابِعينَ، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿أَوْ﴾ للتَّنويعِ في قَولِه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾، يعني: أو أعمالُهم كظُلُماتٍ... إلى آخِرِه... وهذا التقسيمُ للتَّنويعِ كما تقدَّم؛ فالأوَّلُ -والله أعلمُ- في حالِ الكافِرِ المجتَهِدِ الذي عندَه فَهمٌ واجتِهادٌ، الذي يظُنُّ أنَّ عَمَله يَنفَعُه، والثاني: في حالِ المقَلِّدِ الذي لا يَدري وعِندَه جَهلٌ وضَلالٌ، فهو في ظُلمةٍ، يسيرُ مع الكُفَّارِ وهو لا يَدري). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٧، ٢٧٨).

(١) قرأ بها قنبل عن ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٧٣).

(٢) قرأ بها البزِّي عن ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٢)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٧٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٣)، ((الدر المصون)) للحلبي (٨/ ٤١٥).

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾.

أي: يَعلو ذلك البَحرَ اللُّجِّيَّ مَوجٌ، ومِن فوقِ الموجِ مَوجٌ آخَرُ يَعلوه، ومِن فَوقِ الموجِ الثَّاني سَحابٌ مُظلِمٌ(١).

﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

أي: ظُلمةُ البَحرِ، وظُلمةُ المَوجِ، وظُلمةُ السَّحابِ؛ هي ظُلُماتٌ مُتراكِمةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢١).

قال ابن القيم: (تصويرٌ لحال هذا المُعرِضِ عن وَحْيِه، فشَبَّه تلاطُمَ أمواجِ الشُّبَهِ والباطِلِ في صدرِه بتلاطُمِ أمواجِ ذلك البحرِ، وأنَّها أمواجٌ بعضُها فوقَ بَعضٍ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٥٨).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ بمعنى: يغطِّي هذا الكافِرَ ﴿مَّوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أيضًا؛ أمواجٌ عاليةٌ، لكنْ ما حَدُّ الموجِ الثاني مِن الأوَّلِ؟ يعني: ما الذي يميِّزُ الموجَ الثَّانيَ عن الموجِ الأوَّلِ؟

الجوابُ: إمَّا أن يقالَ بالاتِّجاهِ، يعني: الأمواج تتلاقى؛ موجٌ يأتي مِن هنا، والثَّاني أعلى منه، أتى مِن جهةٍ ثانيةٍ؛ مِن أجْلِ أن يتبيَّنَ عُلوُّ هذا على ذاك، أو أنَّها أمواجٌ مُتلاحِقةٌ، مثلًا مَوجٌ مُقبِلٌ كارتفاعِ الجبَلِ، ووراءَه موجٌ آخَرُ أعلى منه، فإذا لَحِقَه صار مَوجًا مِن فَوقِه مَوجٌ، وأمَّا أنَّه موجٌ واحِدٌ فلا يمكِنُ أن يُفصَلَ بَعضُه عن بعضٍ، ومَن شاهَد البحرَ وجد الأمرَ كذلك؛ تجِدُ أمواجًا متلاحِقةً، أحيانًا إذا انعكس الهواءُ تتقابَلُ، وأحيانًا تتلاحَقُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٨).

قال الشوكاني: (يجتمِعُ حينئذٍ عليهم خوفُ البحرِ وأمواجِه، والسحابِ المرتفِعِ فوقَه. وقيلَ إنَّ المعنَى: يَغشاهُ موجٌ مِن بعدِ موجٌ، فيكونُ الموجُ يَتْبَعُ بعضُه بعضًا حتَّى كأنَّه بعضَه فوقَ بعضٍ، والبحرُ أخوفُ ما يكونُ إذا توالَتْ أمواجُه، فإذا انْضَمَّ إلى ذلك وجودُ السَّحابِ مِن فوقِه، زادَ الخوفُ شِدَّةً، لأنَّها تَسْتُرُ النُّجومَ الَّتي يَهْتَدي بها مَن في البحرِ، ثمَّ إذا أمطَرت تلك السحبُ وَهَبَّتِ الرِّيحُ المعتادَةُ في الغالبِ عندَ نُزولِ المطرِ، تكاثَفَتِ الهمومُ، وترادَفَتِ الغمومُ، وبَلَغ الأمرُ إلى الغايةِ الَّتي ليسَ وراءَها غايةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

بَعضُها فوقَ بعضٍ[(١)].

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾.

أي: إذا أخرجَ مَن كان في هذه الظُّلُماتِ يَدَه لِيَنظُرَ إليها، لم يقارِبْ رُؤيتَها؛ مِن شِدَّةِ الظَّلامِ، فلا يراها مُطلقًا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٦).

قال ابنُ جرير: (فجعَلَ الظُّلُماتِ مَثَلًا لأعمالِهم، والبَحرَ اللُّجِّيَّ مَثَلًا لقَلبِ الكافِرِ، يقولُ: عَمَلُه بنيَّةِ قَلبٍ قد غمَره الجَهلُ، وتغَشَّتْه الضَّلالةُ والحَيرةُ، كما يَغشى هذا البَحرَ اللُّجِّيَّ ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾، فكذلك قَلبُ هذا الكافِرِ الذي مَثَلُ عَمَلِه مَثَلُ هذه الظُّلُماتِ؛ يغشاه الجَهلُ بالله، بأنَّ اللهَ ختَمَ عليه فلا يَعقِلُ عن الله، وعلى سَمعِه فلا يَسمَعُ مَواعِظَ الله، وجعَلَ على بصَرِه غِشاوةً فلا يُبصِرُ به حُجَجَ الله، فتلك ظُلُماتٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٠،٣٢٩).

وقال السعدي: (كذلك الكُفَّارُ؛ تراكمت على قلوبِهم الظُّلُماتُ: ظُلمةُ الطبيعة التي لا خيرَ فيها، وفوقَها ظلمةُ الكُفرِ، وفوقَ ذلك ظُلمةُ الجَهلِ، وفوقَ ذلك ظُلمةُ الأعمالِ الصَّادرة عمَّا ذُكر، فبقُوا في الظلمةِ متحيِّرين، وفي غمرتِهم يَعْمَهون، وعن الصراطِ المُستقيمِ مُدْبِرين، وفي طُرُقِ الغَيِّ والضَّلالِ يترَدَّدون؛ وهذا لأنَّ الله تعالى خذَلَهم، فلمْ يُعطِهم مِن نورِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٥)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابن جُزي: (المعنى: مُبالَغةٌ في وَصفِ الظُّلمةِ، والضَّميرُ في ﴿أَخۡرَجَ﴾ وما بعْدَه للرَّجُلِ الذي وَقَع في الظُّلُماتِ الموصوفةِ. واختُلِفَ في تأويلِ الكلامِ؛ فقيل: المعنى: إذا أخرَج يَدَه لم يُقارِبْ رُؤيتَها، فنفى الرُّؤيةَ ومُقارَبتَها. وقيل: بل رآها بعْدَ عُسرٍ وشِدَّةٍ؛ لأنَّ «كاد» إذا نُفِيَت تقتضي الإيجابَ، وإذا أُوجِبَت تقتضي النَّفيَ. وقال ابنُ عطيةَ: إنَّما ذلك إذا دخل حَرفُ النَّفيِ على الفِعلِ الذي بَعْدَها، فأمَّا إذا دَخَل حَرفُ النَّفيِ على كاد، كقَولِه: «لم يَكَدْ»، فإنَّه يحتَمِلُ النَّفيَ والإيجابَ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨). =

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

أي: ومَنْ لم يَهدِه اللهُ في الدُّنيا لنورِ القُرآنِ ويُوفِّقْه للإيمانِ، فلا هِدايةَ له مِن أيِّ أحَدٍ كائنًا مَن كان(1).

كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيه إثباتُ الحِسابِ، وأنَّ الإنسانَ سوف يُحاسَبُ على عمَلِه؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، فيَنبَغي للعاقِلِ أن يُحاسِبَ نفْسَه قبْلَ أنْ يُحاسَبَ، كما قال أميرُ المؤمِنينَ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي

= مِمَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وهو نفيُ الرُّؤيةِ، وأنَّ معنى ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي: لم يَرَها، أو نَفيُ مُقاربتِها، والمعنى: لم يُقارِبْ رُؤيتَها، وهذا يقتَضي نفيَ الرُّؤيةِ جُملةً؛ لأنَّه إذا كان لا يُقارِبُ رُؤيتَها، فكيف يراها؟ مِمَّن اختار هذا القَولَ في الجُملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والنحاس، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٧).

ومِمَّن اختار القَولَ الثَّاني: أي: أنَّه رآها بَعدَ جَهدٍ وتَعَبٍ: مكِّي، والغزنوي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٦)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٠٤).

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

اللهُ عنه: (حاسِبوا أنفُسَكم قبْلَ أن تُحاسَبوا)(١). فكَوْنُ الإنسانِ يُحاسِبُ نفْسَه لِيُصلِحَ ما عَساهُ فسَدَ، أَوْلى مِن سُكوتِه وإهمالِه وعدَمِ حسابِ نفْسِه؛ لأنَّ الذُّنوبَ تَتراكَمُ عليه ثمَّ يَهلِكُ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه يجبُ على المرءِ أنْ يلجأَ إلى اللهِ دائمًا، فيسألَه أنْ يُنَوِّرَ قلبَه؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ هذا منطوقُ الآيةِ، ومفهومُ الآيةِ: مَن جَعَل اللهُ له نورًا فلا أحدَ يَحْجُبُ عنه نورَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فيه سؤالٌ: قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ يدُلُّ على كونِه شيئًا. وقولُه: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ قد يُفهَمُ منه التَّعارضُ؟

الجواب مِن وجوهٍ ثلاثةٍ:

الأول: أنَّ المرادَ معناه: أنَّه لم يَجِدْه شيئًا نافعًا، كما يُقالُ: (فلانٌ ما عمِل شيئًا)، وإن كان قد اجتَهد.

الثاني: أنَّ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ أي: جاء موضعَ السرابِ، لم يَجِدِ السرابَ شيئًا؛ فاكتفَى بذكرِ السرابِ عن ذكرِ موضعِه.

الثالث: الكنايةُ للسرابِ؛ لأنَّ السرابَ يُرى مِن بعيدٍ بسببِ الكثافةِ كأنَّه ضبابٌ وهباءٌ، وإذا قرُب منه رقَّ وانتثر، وصار كالهواءِ، فالمرادُ: جاء الشيءَ

(١) أخرجه أبو نعيم في ((الحلية)) (١/ ٥٢) والآجري في ((أدب النفوس)) (ص: ٢٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٣٠) و(٢/ ٥٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٣).

الذي تخيَّلَ أنَّه ماءٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ دَلالةٌ على أنَّ السَّرابَ مَعدومٌ، وأنَّ المعدومَ ليس شيئًا، وأنَّ الجبالَ يومَ القيامةِ تصيرُ إلى لا شَيءٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في شأنِها: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[٢] [النبأ: ٢٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ حُجَّةٌ في أنَّ الكُفَّارَ يُحاسَبونَ[٣].

٤- لا رَيْبَ أنَّ الاعتِقاداتِ الفاسِدةَ -مِثلَ اعتِقادِ الكُفَّارِ في ربِّهم- وما يَتبَعُها مِنَ الإراداتِ هي خَيالاتٌ وأَوْهامٌ باطِلةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٧)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٩)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٣٠).

قال ابنُ تيميَّةَ جوابًا عن سُؤالٍ: هل الكُفَّارُ يُحاسَبونَ يومَ القيامةِ أم لا؟: (هذه المسألةُ تنازَعَ فيها المتأخِّرون من أصحابِ أحمدَ وغيرِهم... وفَصْلُ الخِطابِ: أنَّ الحِسابَ يُرادُ به عَرضُ أعمالِهم عليهم وتَوبيخُهم عليها، ويرادُ بالحِسابِ مُوازَنةُ الحَسَناتِ بالسَّيِّئاتِ؛ فإنْ أُريدَ بالحِسابِ المعنى الأوَّلُ فلا رَيبَ أنَّهم يُحاسَبونَ بهذا الاعتِبارِ، وإن أُريدَ المعنى الثاني: فإنْ قَصَد بذلك أنَّ الكُفَّارَ تَبقى لهم حَسَناتٌ يَستحِقُّونَ بها الجنَّةَ، فهذا خطأٌ ظاهِرٌ، وإنْ أُريدَ أنَّهم يَتفاوتونَ في العِقابِ، فعِقابُ مَن كَثُرت سيِّئاتُه أعظَمُ من عقابِ مَن قَلَّتْ سيِّئاتُه، ومَن كان له حَسَناتٌ خُفِّفَ عنه العذابُ، كما أنَّ أبا طالبٍ أخَفُّ عذابًا مِن أبي لهَبٍ، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، والنَّارُ دَرَكاتٌ؛ فإذا كان بَعضُ الكُفَّارِ عَذابُه أشَدُّ عذابًا مِن بَعضٍ -لكَثرةِ سَيِّئاتِه، وقِلَّةِ حَسَناتِه- كان الحِسابُ لبَيانِ مراتِبِ العذابِ، لا لأجْلِ دُخولِهم الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٠٥).

كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩-٤٠]، هذا بعْدَ قَولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ إلى قَولِه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[1] [الأنعام: ١٢٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الله تعالى متصَرِّفٌ بالإعطاءِ والمَنعِ، على حَسَبِ إرادتِه وحِكمتِه، وما سبَقَ مِن نِظامِ تَدبيرِه[2].

بلاغة الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ... ﴾ عطْفُ حالِ أعمالِ الكافرينَ عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ، على عادةِ القُرآنِ في إردافِ البِشارةِ بالنِّذارةِ. والجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا، وجُعِلَ المُسنَدُ إليه ما يدُلُّ على ذواتِ الكافرينَ، ثمَّ بُنِيَ عليه مُسنَدٌ إليه آخَرُ وهو ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ولم يُجعَلِ المُسنَدُ إليه أعمالَ الَّذين كَفروا مِن أوَّلِ وهْلةٍ؛ لِمَا في الافتتاحِ

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

بذِكْرِ (الَّذين كفروا) مِن التَّشويقِ إلى مَعرفةِ ما سيُذكَرُ مِن شُؤونِهم؛ ليَتقرَّرَ في النفْسِ كَمالُ التَّقرُّرِ، وليَظهَرَ أنَّ للَّذينَ كَفروا حظًّا في التَّمثيلِ، بحيث لا يكونُ المُشبَّهُ أعمالَهم خاصَّةً، وفي الإتيانِ بالموصولِ وصِلَتِه إشارةٌ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو أنَّه مِن جَزاءِ كُفْرِهم باللهِ. على أنَّه قد يكونُ عنوانُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قد غلَبَ على المُشركين مِن أهلِ مكَّةَ؛ فيكونُ افتِتاحُ الكلامِ بهذا الوصفِ إشارةً إلى أنَّه إبطالٌ لشيءٍ اعتقدَهُ الَّذين كفروا؛ فتَشبيهُ الكافرينَ وأعمالِهم تَشبيهٌ تَمثيليٌّ؛ شُبِّهَت حالةُ كَدِّهم في الأعمالِ وحِرْصِهم على الاستكثارِ منها، مع ظَنِّهم أنَّها تُقرِّبُهم إلى رِضا اللهِ، ثمَّ تبيَّنَ أنَّها لا تُجْدِيهم، بلْ يَلْقَون العذابَ في وقتِ ظنِّهم الفوزَ: شبَّهَ ذلك بحالةِ ظمآنٍ يَرى السَّرابَ، فيَحسَبُه ماءً، فيَسْعى إليه، فإذا بلَغَ المسافةَ الَّتي خالَ -أي: ظَنَّ- أنَّها مَوقعُ الماءِ لم يجِدْ ماءً، ووجَدَ هُنالك غَريمًا يأسِرُه ويُحاسِبُه على ما سلَفَ مِن أعمالِه السَّيِّئةِ. والحالةُ المُشبَّهةُ مُركَّبةٌ مِن مَحسوسٍ ومَعقولٍ، والحالةُ المُشبَّهُ بها حالةٌ مَحسوسةٌ، أي: داخلةٌ تحتَ إدراكِ الحواسِّ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً...﴾ شبَّهَ أعمالَهم في اضْمِحلالِها وفُقدانِ ثَمرتِها بسَرابٍ في مكانٍ مُنخفضٍ ظنَّه العطشانُ ماءً، فقصَدَه وأتعَبَ نفْسَه في الوُصولِ إليه، حتَّى إذا جاء مَوضِعَه الَّذي تخيَّلَه فيه، لم يجِدْه شيئًا، أي: فقَدَهُ؛ لأنَّه مع الدُّنوِّ لا يَرى شيئًا. كذلك الكافِرُ يظُنُّ أنَّ عمَلَه في الدُّنيا نافِعُه، حتَّى إذا أفْضى إلى الآخرةِ لم يَنفَعْه عمَلُه، بل صار وَبالًا عليه. ويَحتمِلُ أنْ يعودَ الضَّميرُ في ﴿جَآءَهُۥ﴾ على السَّرابِ، ثمَّ في الكلامِ مَتروكٌ كثيرٌ يدُلُّ عليه الظَّاهرُ، تقديرُه: وكذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠، ٢٥١).

الكافرُ يومَ القيامةِ يظُنُّ عملَهُ نافعًا، حتَّى إذا جاءهُ لم يجِدْه شيئًا. ويَحتمِلُ الضَّميرُ أنْ يعودَ على العمَلِ الَّذي يدُلُّ عليه قولُه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ويكونُ تَمامُ المثَلِ في قولِه: ﴿مَآءً﴾، ويَسْتغني الكلامُ عن مَتروكٍ على هذا التَّأويلِ، لكنْ يكونُ في المثَلِ إيجازٌ واقتِضابٌ؛ لوُضوحِ المعنى المُرادِ به[1].

- قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ فيه تَخصيصُ الحُسبانِ بالظَّمآنِ، مع شُمولِه لكلِّ مَن يراهُ كائنًا مَن كان مِن العطشانِ والرَّيَّانِ؛ لتكميلِ التَّشبيهِ بتَحقيقِ شَرِكةِ طرفَيهِ في وَجهِ الشَّبهِ الَّذي هو المُطلعُ المُطمِعُ، والمُقطِعُ المُوئِسُ[2].

وأيضًا يُفيدُ قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ وجْهَ الشَّبهِ، ويتضمَّنُ أحدَ أركانِ التَّمثيلِ؛ وهو العطشانُ، وهو مُشابهُ الكافرِ صاحبِ العمَلِ؛ ضُرِبَ ذلك مثلًا لقُربِ زمَنِ إفضاءِ الكافرِ إلى عمَلِه وقتَ مَوتِه حينَ يَرى مَقعدَه، أو في وقتِ الحشْرِ. وقولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ مِن تَمامِ التَّمثيلِ، أي: لم يجِدِ الماءَ، ووجَدَ في مَظِنَّةِ الماءِ الَّذي ينتفِعُ به، وجَدَ مَن إنْ أخَذَ بناصيتِه لم يُفلِتْه[3].

- وأيضًا قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ فيه تَشبيهٌ مُرسَلٌ[4]؛ فقد أخرَجَ ما لا تقَعُ عليه الحاسَّةُ إلى ما تقَعُ عليه الحاسَّةُ، ولو قِيلَ: (يَحسَبُه الرَّائي ماءً) لكان بَليغًا، وأبلَغُ منه لفظُ القُرآنِ؛ لأنَّ الظَّمآنَ أشدُّ حِرصًا عليه، وأكثرُ تعلُّقَ قلْبٍ به. وتَشبيهُ أعمالِ الكفَّارِ بالسَّرابِ مِن أحسَنِ التَّشبيهِ وأبلَغِه؛ فكيف وقد تضمَّنَ مع ذلك حُسنَ النَّظمِ، وعُذوبةَ الألفاظِ، وصِحَّةَ الدَّلالةِ، وصِدْقَ التَّمثيلِ[5]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٨).

- وفي قولِه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ تَشبيهٌ تَمثيليٌّ، أي: وجَدَ عِقابَه وزَبانيةَ عذابِه -على قولٍ في التفسيرِ- ووجْهُ التَّشبيهِ: أنَّ الَّذي يأْتي به الكافرُ من أعمالِ البِرِّ، ويعتقِدُ أنَّ له ثوابًا عندَ اللهِ تعالى وليس كذلك، فإذا وافَى عَرَصاتِ القيامةِ لم يجِدِ الثَّوابَ الَّذي كان يظُنُّه، بلْ وجَدَ العِقابَ العظيمَ، والعذابَ الأليمَ؛ فعظُمَت حَسرتُه، وتَناهى غمُّه؛ فشُبِّهَ حالُه بحالِ الظَّمآنِ الَّذي اشتدَّتْ حاجتُه إلى الماءِ، فإذا شاهَدَ السَّرابَ في البَرِّ تعلَّقَ قلْبُه، فإذا جاءهُ لم يجِدْه شيئًا، فكذلك حالُ الكافرِ يَحسَبُ أنَّ عمَلَه نافِعُه، فإذا احتاج إلى عمَلِه لم يجِدْه أغْنى عنه شيئًا(١).

- قولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فالجُملةُ عطْفٌ على مُقدَّرٍ، وليست معطوفةً على ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، بلْ على ما يُفهَمُ منه بطريقِ التَّمثيلِ، مِن عدَمِ وُجدانِ الكفرةِ مِن أعمالِهم المذكورةِ عَيْنًا ولا أثرًا، كأنَّه قيل: حتَّى إذا جاء الكفرةُ يومَ القيامةِ أعمالَهم الَّتي كانوا في الدُّنيا يَحسَبونها نافعةً لهم في الآخرةِ، لم يجِدُوها شيئًا، ووَجَدوا حُكْمَ اللهِ وقضاءَه -على قولٍ في التفسيرِ- لهم بالمِرصادِ(٢).

- قولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ بيانٌ لبقيَّةِ أحوالِهم العارضةِ لهم بعدَ ذلك بطريقِ التَّكملةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ قُصارى أمْرِهم هو الخَيبةُ والقُنوطُ فقطْ كما هو شأْنُ الظَّمآنِ(٣).

- وإفرادُ الضَّميرينِ (فوجَدَ - فوفَّاه) الرَّاجعَينِ إلى الَّذين كَفروا؛ إمَّا لإرادةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

الجنْسِ كالضَّمانِ الواقعِ في التَّمثيلِ، وإمَّا للحمْلِ على كلِّ واحدٍ منهم، وكذا إفرادُ ما يَرجِعُ إلى أعمالِهم[١].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ تذييلٌ؛ فالمُرادُ أنَّه لا يُماطِلُ الحِسابَ ولا يُؤخِّرُه عندَ حُلولِ مُقْتضيه؛ فهو عامٌّ في حسابِ الخيرِ والشَّرِّ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هذا هو التَّشبيهُ الثَّاني لأعمالِهم؛ فالأوَّلُ فيما يَؤولُ إليه أعمالُهم في الآخرةِ -على قولٍ-، وهذا الثَّاني فيما هُم عليه في حالِ الدُّنيا -على قولٍ-. وبدَأَ بالتَّشبيهِ الأوَّلِ؛ لأنَّه آكَدُ في الإخبارِ؛ لِمَا فيه مِن ذِكْرِ ما يَؤولُ إليه أمْرُهم مِن العقابِ الدَّائمِ، والعذابِ السَّرْمَديِّ. ثمَّ أتبَعَهُ بهذا التَّمثيلِ الَّذي نبَّهَهم على ما هي أعمالُهم عليه؛ لعلَّهم يرجِعون إلى الإيمانِ، ويُفكِّرون في نُورِ اللهِ الَّذي جاء به الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]. وقد شبَّهَ أعمالَهم أوَّلًا في فَواتِ نفْعِها وحُضورِ ضرَرِها بسَرابٍ لم يجِدْه مَن خدَعَه مِن بعيدٍ شيئًا، ولم يَكْفِه خَيبةً وكَمَدًا أنْ لم يجِدْ شيئًا كغيرِه مِن السَّرابِ، حتَّى وجَدَ عندَه الزَّبانيةَ -على قولٍ في التفسيرِ- تَعتِلُه إلى النَّارِ، ولا يقتُلُ ظمأَهُ بالماءِ. وشبَّهها ثانيًا في ظُلْمتِها وسَوادِها لكونِها باطلةً، وفي خُلوِّها عن نورِ الحقِّ بظُلُماتٍ مُتراكمةٍ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ[٤].

- قولُه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢، ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤).

ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ قِيل: تَقديرُ ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾: أو كَذِي ظُلماتٍ، ودلَّ على هذا المُضافِ قولُه: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾؛ فالكِنايةُ تعودُ إلى المُضافِ المحذوفِ؛ فالتَّشبيهُ وقَعَ للكافرِ لا للأعمالِ -وهو خلافُ الظَّاهرِ-، ويكونُ التَّقديرُ: أو هُم كذي ظُلماتٍ؛ فيكونُ التَّشبيهُ الأوَّلُ لأعمالِهم، والثَّاني لهم في حالِ ضَلالِهم. وقيل: الآيةُ الأُولى في ذِكْرِ أعمالِ الكفَّارِ، والثَّانيةُ في ذِكْرِ كُفْرِهم، ونسَقَ الكُفرَ على أعمالِهم؛ لأنَّ الكُفرَ أيضًا مِن أعمالِهم، وقد قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] مِن الكُفرِ إلى الإيمانِ، فيكونُ التَّمثيلُ قد وقَعَ لأعمالِهم بكُفرِ الكافرِ، وأعمالُهم منها كُفْرُهم؛ فيكونُ قد شبَّهَ أعمالَهم بالظُّلماتِ[1].

- وأيضًا هذا التَّمثيلُ صالحٌ لاعتِبارِ التَّفريقِ في تَشبيهِ أجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهةِ بأجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها؛ فالضَّلالاتُ تُشبِهُ الظُّلماتِ، والأعمالُ الَّتي اقتحَمَها الكافرُ لقصْدِ التَّقرُّبِ بها تُشْبِهُ البحْرَ، وما يُخالِطُ أعمالَه الحَسنةَ مِن الأعمالِ الباطلةِ كالبَحيرةِ والسَّائبةِ، يُشبِهُ الموجَ في تَخليطِه العمَلَ الحَسنَ وتخلُّلِه فيه، وهو الموجُ الأوَّلُ. وما يَرِدُ على ذلك مِن أعمالِ الكُفرِ كالذَّبحِ للأصنامِ، يُشبِهُ الموجَ الغامِرَ الآتيَ على جميعِ ذلك بالتَّخلُّلِ والإفسادِ، وهو الموجُ الثَّاني، وما يحُفُّ اعتقادَهُ مِن الحَيرةِ في تَمييزِ الحسَنِ مِن العبَثِ ومِن القبيحِ، يُشبِهُ السَّحابَ الَّذي يَغْشى ما بقِيَ في السَّماءِ مِن بَصيصِ أنوارِ النُّجومِ، وتَطلُّبُه الانتفاعَ مِن عمَلِه يُشبِهُ إخراجَ الماخِرِ[2] يدَهُ لإصلاحِ أمْرِ سَفينتِه أو تناوُلِ ما يحتاجُه، فلا يَرى يدَهُ، بلْهَ الشَّيءَ الَّذي يُريدُ تناوُلَه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣).

(٢) الماخِرِ: أي: مُجْرِي السَّفينةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

- وقولُه: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ عطفٌ على ﴿كَسَرَابِۭ﴾، وكلمةُ (أو) للتَّنويعِ إثْرَ ما مُثِّلتْ أعمالُهم الَّتي كانُوا يعتمِدونَ عليها أقوى اعتمادٍ، ويفتخِرون بها في كلِّ وادٍ ونادٍ، بما ذُكِرَ مِن حالِ السَّرابِ مع زِيادةِ حِسابٍ وعِقابٍ: مُثِّلتْ أعمالُهم القَبيحةُ الَّتي ليس فيها شائبةُ خَيريَّةٍ يَغتَرُّ بها المُغترُّون بظُلُماتٍ(١). وقيل: (أَو) للتَّخييرِ؛ فإنَّ أعمالَهم لكونِها لاغيةً لا مَنفعةَ لها كالسَّرابِ، ولكونِها خاليةً عن نُورِ الحقِّ كالظُّلماتِ المُتراكمةِ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ. أو للتَّنويعِ؛ فإنَّ أعمالَهم إنْ كانت حَسنةً فكالسَّرابِ، وإنْ كانت قَبيحةً فكالظُّلماتِ. أو للتَّقسيمِ باعتبارِ وقْتينِ؛ فإنَّها كالظُّلماتِ في الدُّنيا، وكالسَّرابِ في الآخرةِ(٢).

- (أو) إذا جاءت في عطْفِ التَّشبيهاتِ تدُلُّ على تَخييرِ السَّامعِ أنْ يُشَبِّهَ بما قبْلَها وبما بعْدَها مع اتِّحادِ وجْهِ الشَّبهِ. فالمعنى تَمثيلُ الَّذين كَفروا في أعمالِهم الَّتي يَظنُّون أنَّهم يتقرَّبون بها إلى اللهِ، بحالِ ظُلماتِ ليلٍ غَشِيَت ماخِرًا في بحرٍ شديدِ المَوجِ، قدِ اقتحَمَ ذلك البحرَ ليصِلَ إلى غايةٍ مطلوبةٍ؛ فحالُهم في أعمالِهم تُشبِهُ حالَ سابحٍ في ظُلماتِ ليلٍ في بَحرٍ عميقٍ، يَغشاهُ مُوجٌ يركَبُ بعضُه بعضًا لشدَّةِ تَعاقُبِه، وإنَّما يكونُ ذلك عندَ اشتدادِ الرِّياحِ، حتَّى لا يكادُ يَرى يدَهُ الَّتي هي أقرَبُ شيءٍ إليه، وأوضَحُه في رُؤيتِه؛ فكيف يَرْجو النَّجاةَ؟! وإنْ كان الكلامُ جاريًا على التَّخييرِ في التَّشبيهِ مع اختلافِ وَجْهِ الشَّبهِ، كان المعنى تَمثيلَ حالِ الَّذين كَفَروا في أعمالِهم الَّتي يعْمَلونها وهم غيرُ مُؤمنينَ، بحالِ مَن ركِبَ البحرَ يَرْجو بُلوغَ غايةٍ، فإذا هو في ظُلماتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣).

لا يَهْتدي معها طريقًا؛ فوجْهُ الشَّبهِ هو ما حَفَّ بأعمالِهم مِن ضَلالِ الكُفرِ الحائلِ دونَ حُصولِ مُبْتغاهم. ويُرجِّحُ هذا الوجهَ تَذييلُ التَّمثيلِ بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. وهذا التَّمثيلُ مِن قَبيلِ تَشبيهِ حالةٍ مَعقولةٍ بحالةٍ مَحسوسةٍ، كما يُقال: شاهدتُ سوادَ الكُفرِ في وجْهِ فُلانٍ(١).

- والجمْعُ في قولِه: ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ مُستعمَلٌ في لازمِ الكثرةِ، وهو الشِّدَّةُ؛ فالجمْعُ كِنايةٌ؛ لأنَّ شِدَّةَ الظُّلمةِ يحصُلُ مِن تظاهُرِ عِدَّةِ ظُلماتٍ(٢).

- قولُه: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى غايةِ تَراكُمِ الأمواجِ وتَضاعيفِها حتَّى كأنَّها بلغَتِ السَّحابَ(٣).

- قولُه: ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، أي: مُتكاثِفةٌ مُتراكِمةٌ، وهذا بَيانٌ لكَمالِ شدَّةِ الظُّلماتِ(٤).

- قولُه: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾، أي: مَنِ ابتُلِيَ بها، وإضمارُه مِن غيرِ ذِكْرِه؛ لدَلالةِ المَعْنى عليه دَلالةً واضحةً(٥).

- قولُه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مُبالغةٌ في (لم يَرَها)، أي: لم يَقرُبْ أنْ يراها، فضْلًا عن أنْ يَراها(٦)، على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ؛ جِيءَ به لتَقريرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١، ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٩، ٦٢٠).

ما أفادهُ التَّمثيلُ مِن كونِ أعمالِ الكَفَرةِ كما فُصِّلَ، وتحقيقِ أنَّ ذلك لعدَمِ هِدايتِه تعالى إيَّاهم لنُورِه. وإيرادُ الموصولِ؛ للإشارةِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى عِلَّةِ الحُكْمِ، وأنَّهم ممَّن لم يَشَأِ اللهُ تعالى هِدايتَهم[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

الآيات (٤١-٤٦)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَافَّاتٍ﴾: أي: باسِطاتٍ أجنِحتَهُنَّ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ[١].

﴿يُزْجِي﴾: أي: يَسوقُ، والتَّزجيةُ: دَفعُ الشَّيءِ لِينساقَ، وأصلُ (زجي): يدُلُّ على تَسييرِ الشَّيءِ[٢].

﴿يُؤَلِّفُ﴾: أي: يَجمَعُ، وأصلُ (ألف): يدُلُّ على انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((تفسير =

﴿رُكَامًا﴾: الرُّكَامُ: ما يُجمَعُ ويُضَمُّ بعضُه إلى بعضٍ، وأصلُه يدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ[(١)].

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: أي: المطَرَ، وأصلُ (ودق): يدُلُّ على إتيانٍ[(٢)].

﴿بَرَدٍ﴾: البَرَدُ: المطرُ الجامِدُ، ويُقالُ له: حَبُّ الغَمامِ، وأصلُ (برد) هنا: خِلافُ الحَرِّ[(٣)].

﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾: أي: ضوءُ برقِه، والسَّنَا: الضَّوءُ السَّاطِعُ، وأصلُ (سنا): يدلُّ على رِفعةِ الضَّوءِ، وأصلُ (برق): يدُلُّ على لَمعانِ الشَّيءِ[(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾

(مِنْ) الأُولى لابتِداءِ الغايةِ اتِّفاقًا، وأمَّا (مِن) الثانيةُ ففيها ثلاثةُ أوجهٍ؛ أحدها:

= القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٢).

قال الراغب: (والبَرَدُ: ما يبردُ مِن المطرِ في الهواءِ فيصلبُ). ((المفردات)) (ص: ١١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٤٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

أنَّها لابتِداءِ الغايةِ أيضًا، فـ (جبال) بدلُ اشتِمالٍ مِن (السَّماء) بإعادةِ الجارِّ، والتقديرُ: وينَزِّلُ من جبالِ السَّماءِ، أي: مِن جبالٍ فيها. الثاني: أنَّها للتبعيضِ، وهي ومجرورُها في موضِعِ نصبِ مَفعولُ (يُنَزِّلُ)، كأنَّه قال: وينَزِّلُ بعضَ جبالٍ. الثالثُ: أنَّها زائدةٌ على قَولِ الأخفَشِ، أي: ينزِّلُ مِن السَّماء جِبالًا. وأمَّا (مِن) الثالثةُ ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ ففيها أربعةُ أوجهٍ: الثَّلاثةُ المتقَدِّمةُ، والرَّابعُ: أنَّها لبيانِ الجِنسِ، والتقدير: وينَزِّلُ مِن السَّماءِ بعضَ جبالٍ التي هي البَرَدُ، فالمنَزَّلُ بَرَدٌ؛ لأنَّ بعضَ البَرَدِ بَرَدٌ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ألمْ ترَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له وينَزِّهُه كُلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن المَخلوقاتِ، والطَّيرُ باسِطاتٍ أجنِحَتَها في السَّماءِ حالَ الطَّيرانِ تُسَبِّحُ رَبَّها؟ كُلُّ مَخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه لله، وهو سُبحانَه عليمٌ بأفعالهم، لا يخفَى عليه شيءٌ منها، ولله وحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، فهو المالِكُ والمتصَرِّفُ في الكونِ، وإليه مَرجِعُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ مظاهرِ قدرتِه: ألم ترَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَسوقُ بقُدرتِه السَّحابَ إلى حيثُ يشاءُ، ثمَّ يجمَعُه بعدَ تفرُّقِه، ثمَّ يجعَلُه مُتراكِمًا بعضُه فوقَ بَعضٍ، فترى المطَرَ يخرُجُ مِن بينِ السَّحابِ الكثيفِ؟

ويُنَزِّلُ اللهُ مِن السَّماء بَرَدًا مِن قِطَعِ سَحابٍ عَظيمةٍ كأمثالِ الجِبالِ، فيُصيبُ بذلك البَرَدِ مَن شاء مِن العبادِ، ويَدفَعُه عمَّن يشاءُ، يَكادُ ضَوءُ البَرقِ في السَّحابِ

---

(١) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥١٣)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٨/ ٢٧٤).

يَخطَفُ أبصارَ النَّاظِرينَ؛ مِن شِدَّةِ إضاءتِه، وقُوَّةِ لَمعانِه، يُقلِّبُ اللهُ تعالى اللَّيلَ والنَّهارَ، بمَجيءِ أحَدِهما بعدَ الآخَرِ، واختلافِهما طُولًا وقِصَرًا، وحرًّا وبردًا، ونورًا وظلمةً، وبما يقعُ فيهما مِن وقائعَ وأحداثٍ إلى غير ذلك، إنَّ في ذلك لَدلالةً واضِحةً، وعِظةً بليغةً لأصحابِ العُقولِ.

واللهُ تعالى خلقَ كُلَّ ما يَدِبُّ على الأرضِ مِن ماءٍ؛ فمِن هذه الدوابِّ مَن يزحَفُ على بَطنِه، كالحيَّةِ والزَّواحِفِ؛ ومنهم مَن يمشي على رِجلينِ، كالإنسانِ والطَّيرِ؛ ومنهم مَن يمشي على أربَعٍ، كالبهائِمِ ونَحوِها، يخلُقُ اللهُ ما يشاءُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثم يقولُ تعالى: لقد أنزَلْنا آياتِ القُرآنِ علاماتٍ واضِحاتٍ مُوضِحاتٍ للحَقِّ، واللهُ يُرشِدُ ويوَفِّقُ مَن يشاءُ إلى طريقِ الإسلامِ الواضِحِ المُستقيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَثَلَ المؤمِنِ والكافِرِ، وأنَّ الإيمانَ والضَّلالَ أمْرُهما راجِعٌ إليه؛ أعقَبَ بذِكرِ الدَّلائِلِ على قُدرتِه وتوحيدِه[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ألم تَرَ[2] أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له وينزِّهُه عن النَّقائِصِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: ألم تَعلَمْ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، وابن جُزَي، والشوكانيُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

وكُلُّ مَن في الأرضِ؛ مِن الملائكةِ والنَّاسِ والجِنِّ، والحيواناتِ والنَّباتاتِ والجَماداتِ[1]؟

= سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤). ويُنظر: أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٢٨).

قال ابنُ عثيمين: (هل هذه الرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ أو عِلميَّةٌ؟ ... الأَولى: أن تكونَ عِلميَّةً، يعني: ألمْ تَعلَمْ، سواءٌ كان عِلمُك عن طريقِ المُشاهَدةِ بالبَصَرِ، أو عن طريقِ السَّمعِ بالأُذُنِ، أو عن طريقِ الاستِنتاجِ بالعَقلِ والتَّفكيرِ، هذه الثَّلاثةُ هي طُرُقُ العِلمِ، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

وقال الشوكاني: (والخطابُ لكلِّ مَنْ له أهليَّةُ النَّظرِ، أو للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسَلَّم، وقد عَلِمه مِنْ جهةِ الاستِدلالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧).

ممَّن اختار أنَّ المُخاطَبَ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠).

وممَّن اختار العُمومَ: القرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ﴾ يعني: قد رأيتَ، لكِنْ هل الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه؟ الظَّاهِرُ: العُمومُ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيُّها المخاطَبُ، لا أيُّها النبيُّ؛ لأنَّ ذلك أشمَلُ وأعَمُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

قال ابنُ جُزَي: (والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّعظيمُ، وهو مِنَ العُقلاءِ بالنُّطقِ، وأمَّا تَسبيحُ الطَّيرِ وغَيرِها مِمَّا لا يَعقِلُ، فقال الجُمهورُ: إنَّه حقيقيٌّ، ولا يَبعُدُ أن يُلهِمَها اللهُ التَّسبيحَ كما يُلهِمُها الأُمورَ الدَّقيقةَ التي لا يَهتدي إليها العُقَلاءُ. وقيل: تَسبيحُه: ظُهورُ الحِكمةِ فيه). ((تفسير ابن جزي)) =

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾.

= (ص: ١٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨).

وممَّن حَمَل التَّسبيحَ على حقيقتِه: الرسعنيُّ، وأبو حيان -لكِنْ خَصَّه بالمُطيعِ مِنَ الثَّقَلينِ-، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٧٥) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤) (٤/ ٤٧).

وممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: دَلالةُ هذه الأشياءِ على كَونِه تعالى مُنَزَّهًا عن النَّقائصِ، موصوفًا بنُعوتِ الجَلالِ، وأنَّ هذا التَّسبيحَ بلِسانِ الحال: الرازيُّ، والنيسابوري، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٧٩).

وممَّن جمع بين المعنَيَينِ السَّابِقَينِ: البيضاويُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٥).

قال ابن عثيمين: (وهذا التَّسبيحُ يَشمَلُ التَّسبيحَ بالقَولِ وبالحالِ؛ بالقَولِ، مِثلُ: سُبحانَ الله، وبالحالِ: أنَّك إذا تأمَّلْتَ خَلْقَه وما جُبِلوا عليه عَلِمْتَ بذلك أنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ وعن النَّقائِصِ، يُسَمَّى هذا التسبيحَ بالحالِ.

إذا قُلْنا: إنَّ التَّسبيحَ بالمقالِ، فمِن المعلومِ أنَّ الكافِرَ لا يُسَبِّحُ اللهَ بمقالِه، يعني: لا يَقولُ: سُبحانَ اللهِ؛ لأنَّه يَصِفُ اللهَ تعالى بالعَيبِ، ويَجعَلُ مع اللهِ شَريكًا، لكِنَّه مُسَبِّحٌ لله بحالِه؛ فإنَّ حالَه وما جُبِلَ عليه، وانصِرافَه عن الحَقِّ مع وُضوحِه، وما أشبَهَ ذلك: كُلُّ ذلك ممَّا يدُلُّ على تنزيهِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وعلى حِكمتِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٥).

وقيل: المرادُ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٨).

وقيل: معنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي: يَذكُرُه. قاله مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣).

وممَّن جمع بيْن المعنَيَينِ السَّابِقَينِ -أي: أنَّ معنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾: يُصَلِّي له، ويَذكُرُه-: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧).

أي: والطَّيرُ مُصطَفَّاتِ الأجنحةِ في الهواءِ، تُسَبِّحُ لله أيضًا في حالِ طَيَرانِها[1].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾.

أي: كلُّ مخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه لله[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥١، ٥٥٢).

قال الماوردي: (﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾... فيه قولانِ:

أحدُهما: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم قد علِم صلاتَه وتسبيحَه.

الثاني: أنَّ الله قد علِم صلاتَه وتسبيحَه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٢).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: كلٌّ مِنَ المصلِّينَ والمُسَبِّحِينَ قد عَلِم هو نفْسُه كيفيَّةَ صَلاتِه وتسبيحِه، على وَفقِ ما أرشدَه الله إليه: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٧).

قال الشنقيطي: (كلامُ الأُصوليِّينَ في أنَّ اللَّفظَ إنِ احتَمَل التَّوكيدَ والتَّأسيسَ حُمِلَ على التَّأسيسِ... وإذا عَلِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ الأظهَرَ على مُقتضى ما ذكَرْنا عن الأُصوليِّينَ: أن يكونَ ضَميرُ الفاعِلِ المحذوفُ في قَولِه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ راجِعًا إلى قَولِه: ﴿كُلٌّ﴾، أي: كُلٌّ مِنَ المُصَلِّينَ قد عَلِمَ صَلاةَ نفْسِه، وكُلٌّ مِنَ المُسَبِّحينَ قد عَلِمَ تَسبيحَ نفْسِه، وعلى هذا القَولِ فقَولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تأسيسٌ لا تأكيدٌ. أمَّا على القَولِ بأنَّ الضَّميرَ راجِعٌ إلى اللهِ، أي: قد عَلِمَ اللهُ صَلاتَه، يكونُ قَولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ كالتَّكرارِ مع ذلك؛ فيكونُ مِن قَبيلِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥١).

وقال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّ قَولَه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾، أي: كُلٌّ مِن هؤلاء المُسَبِّحينَ ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ هو نفْسُه ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، لكِنْ بأيِّ شَيءٍ عَلِمَ؟ أمَّا بالنِّسبةِ للبَشَرِ وكذلك الجِنُّ فقد عَلِموا =

= عن طريقِ الرُّسُلِ، فالرُّسُلُ أرسلَهم اللهُ ليُعَلِّموا النَّاسَ كيف يُصَلُّونَ وكيف يُسَبِّحونَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ، وأمَّا البهائِمُ والحيواناتُ الأُخرى فإنَّها عَلِمَت صَلاتَها وتَسبيحَها بما ألهَمَها اللهُ عزَّ وجَلَّ، ولكُلٍّ منها صلاةٌ وتَسبيحٌ خاصٌّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٧).

وقال الشوكاني: (فائدةُ الإخبارِ بأنَّ كُلَّ واحدٍ قد عَلِمَ ذلك: أنَّ صدورَ هذا التَّسبيحِ هو عن عِلمٍ عَلَّمَها اللهُ ذلك، وألهَمَها إليه، لا أنَّ صُدورَه منها على طريقةِ الاتِّفاقِ بلا رَوِيَّةٍ، وفي ذلك زيادةُ دَلالةٍ على بديعِ صُنعِ الله سبحانَه، وعظيمِ شأنِه؛ كونُه جعَلَها مسبِّحةً له، عالِمةً بما يصدُرُ منها، غيرَ جاهلةٍ له). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨).

وقيل: المعنى: قد عَلِمَ اللهُ صلاةَ كُلِّ مصَلٍّ منهم وتسبيحَه، وأنَّ الضميرَ في ﴿عَلِمَ﴾ للهِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزجَّاج، والرسعني، وابنُ القيم، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٦).

ممَّن حمل الصَّلاةَ والتَّسبيحَ على حَقيقتِهما: ابنُ القيم، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

قال الشوكاني: (قيلَ: والصَّلاةُ هنا بمعنَى التَّسبيحِ، وكُرِّر للتَّأكيدِ، والصَّلاةُ قد تُسَمَّى تسبيحًا. وقيلَ: المرادُ بالصَّلاةِ هنا الدُّعاءُ، أي: كلُّ واحدٍ قد عَلِم دُعاءَه وتسبيحَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصَّلاةِ هنا: الدعاءُ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨).

قال الرسعني: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: الصلاةُ لبني آدمَ، والتَّسبيحُ لِما سِواهم). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٧). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢).

وقال مقاتل بن سليمان: (﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾ مِنَ الملائكةِ والمُؤمِنينَ مِن الجِنِّ والإنسِ. ثمَّ قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يعني: ويَذكُرُه كُلُّ مخلوقٍ بلُغتِه، غيرَ كُفَّارِ الإنسِ والجِنِّ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣).

وقيل: إنَّ هذا في الطَّيرِ، وإنَّ ضَرْبَ أجنِحَتِها صَلاةٌ، وإنَّ أصواتَها تَسبيحٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٢).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بما يفعَلُ كُلُّ مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، وهو مُجازيهم على ذلك(١).

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عمَّا في الكونَينِ بما يستلزِمُ المُلكَ على أنهَى وجوهِ التَّمامِ المُستلزِمِ للقُدرةِ على البَعثِ؛ أخبَرَ عنهما بالتَّصريحِ به(٢).

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عبوديَّةَ المخلوقاتِ، وافتقارَهم إليه مِن جِهةِ العبادةِ والتوحيدِ؛ بيَّنَ افتِقارَهم مِن جِهةِ المُلكِ والتَّربيةِ والتَّدبيرِ، فقال(٣):

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ ومُلكُهما وتدبيرُهما، فلا تنبغي الرَّهبةُ والرَّغبةُ والعبادةُ إلَّا له وحْدَه(٤).

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وحْدَه مَرجِعُ عِبادِه، فيَبعَثُهم بعدَ مَوتِهم، ويُجازيهم على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

أعمالِهم؛ فلْيُحسِنوا عبادتَه، ويجتَهِدوا في طاعتِه[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾.

أي: ألم ترَ[2] أنَّ اللهَ يَسوقُ بقُدرتِه قِطَعَ السَّحابِ المتفرِّقةَ، إلى حيثُ يريدُ[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

وقال ابن عثيمين: (ويحتَمِلُ أنَّ قَولَه: ﴿الْمَصِيرُ﴾ ليس المرادُ مَصيرَ النَّاسِ في الآخرةِ فقط، بل مصيرُ الأمورِ كُلِّها، يعني: المرجِعُ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، كلُّ شَيءٍ صائِرٌ إلى الله؛ فهو سبحانَه وتعالى يدبِّرُ ويَفعَلُ ما شاء). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٢).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ هنا بَصَريَّةٌ: ابنُ عطيَّة، وابن عادل، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٤١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ عِلميَّةٌ: مقاتلُ بن سليمان، والرازيُّ (وعَبَّرَ عن ذلك بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعَينِ عَقلِك)، والقرطبيُّ (وعَبَّرَ عن ذلك بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعَينَي قَلبِك) ، والرسعني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٥، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٣).

قال ابنُ عثيمين: (فالرُّؤيةُ في قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى العِلمِ، وتفسيرُنا لها بالعِلمِ أعَمُّ مِن تفسيرِها بالرُّؤيةِ البَصَريَّةِ؛ لأجْلِ أن يَشمَلَ رُؤيةَ الإنسانِ ببَصَرِه -أي: عن طريقِ المُشاهَدةِ؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العِلمِ-، ورُؤيةَ الإنسانِ بسَمْعِه بما يُخبَرُ به -لأنَّها تؤدِّي أيضًا إلى العِلمِ، ورؤيةَ الإنسانِ بقراءتِه عن هذا الأمرِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى العِلمِ،... فتَفسيرُها بالعِلمِ أَولى؛ لأنَّه أشمَلُ وأعَمُّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾.

أي: ثمَّ يجمَعُ اللهُ بينَ قِطَعِ السَّحابِ المتفرِّقةِ(١).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾.

أي: ثمَّ يجعَلُ اللهُ قِطَعَ السَّحابِ المجموعةَ مُتراكِمةً؛ بَعضُها على بعضٍ، فتكونُ قويَّةً متَّصِلةً وكثيفةً(٢).

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

أي: فتنظُرُ إلى المطَرِ يَخرُجُ مِن فُتُوقِ السَّحابِ نُقَطًا متفرِّقةً(٣).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١).

قال ابن عاشور: (أكثرُ المفَسِّرينَ على أنَّ الوَدْقَ هو المطَرُ، وهو الذي اقتصَرَت عليه دواوينُ اللُّغةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١).

وممَّن نسَبَ هذا القولَ للجمهورِ: الماوَرْديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢١).

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ البَرَدَ مِن جِهةِ السَّماءِ إلى الأرضِ، مِن قِطَعِ سَحابٍ عظيمةٍ كالجِبالِ[1].

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾.

أي: فيُصيبُ اللهُ بالبَرَدِ مَن يَشاءُ مِن عبادِه؛ عقوبةً لهم، فيَضُرُّهم في أنفُسِهم وأموالِهم، ويُتلِفُ ثمارَهم وزُروعَهم، ويَصرِفُ البَرَدَ عَمَّن يشاءُ مِن عبادِه؛ رَحمةً بهم، فلا يُصيبُهم ضَرَرُه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢).

قال الرازي: (في هذه الآيةِ قولان؛ أحدُهما: أنَّ في السَّماءِ جِبالًا مِن بَرَدٍ خلَقَها الله تعالى كذلك، ثمَّ يُنزِّلُ منها ما شاء. وهذا القَولُ عليه أكثرُ المفَسِّرينَ، قال مجاهدٌ والكلبيُّ: جبالٌ مِن بَرَدٍ في السَّماءِ. والقولُ الثاني: أنَّ السَّماءَ هو الغَيمُ المرتفِعُ على رؤوسِ النَّاسِ؛ سُمِّيَ بذلك لسُمُوِّه وارتفاعِه، وأنَّه تعالى أنزلَ مِن هذا الغيمِ -الذي هو سماءٌ- البَرَدَ، وأراد بقولِه: ﴿مِن جِبَالٖ﴾ السَّحابَ العِظامَ؛ لأنَّها إذا عَظُمت أشبَهَت الجبالَ، كما يقالُ: فلانٌ يملِكُ جِبالًا مِن مالٍ، ووُصِفَت بذلك توسُّعًا. وذهبوا إلى أنَّ البَرَدَ ماءٌ جامِدٌ خلَقَه الله تعالى في السَّحابِ، ثمَّ أنزله إلى الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٥).

وممَّن ذهَب إلى القولِ الأوَّلِ وأنَّ هذه الجبالَ مِن بَرَدٍ: يحيى بنُ سلام، والزجَّاج، والواحدي، وأبو حيان، والعليمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤) ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٧).

وممَّن ذهَب إلى القولِ الثاني في الجملةِ: البِقَاعيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢).

وقال محمد رشيد رضا: (لا مانِعَ مِنْ جَعْلِ السَّماءِ فيها عَيْنَ السَّحابِ، ولعلَّ الأظهَرَ أنْ يُرادَ بها جهةُ العلوِّ الَّتي يكونُ فيها السَّحابُ؛ كقولِه: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]). ((تفسير المنار)) (٨/ ٤١٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن =

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

أي: يُقارِبُ ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ أن يُعمِيَ عُيونَ النَّاظِرينَ إليه؛ مِن شِدَّةِ ضَوئِه ولَمعانِه[1].

كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

= كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

قال ابن كثير: (يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما ينزِلُ مِن السَّماءِ مِن نوعَيِ البَرَدِ والمطرِ؛ فيكونَ قولُه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ رحمةً لهم، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي: يُؤَخِّرُ عنهم الغَيْثَ.

ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالبَرَدِ؛ نِقْمَةً على مَن يشاءُ؛ لِمَا فيه مِنْ نَثْرِ ثِمارِهم، وإتلافِ زُروعِهم وأشجارِهم. ويَصْرِفُه عَمَّنْ يشاءُ؛ أي: رحمةً بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

ممَّن اختار أنَّ إصابةَ البَرَدِ هنا نِقمةٌ وضرَرٌ، وصَرْفَه رحمةٌ ونِعمةٌ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١).

قال ابن عثيمين: (يحتَمِلُ أن تكونَ مِن بابِ الامتنانِ؛ فإنَّ البَرَدَ قد يكونُ خَيرًا، وقد يَحصُلُ به رِيُّ الأرضِ ونباتُ الأشجارِ وغَيرُ ذلك؛ فيكونَ هذا من بابِ سياقِ الامتنانِ: يُصيبُ بهذا البَرَدِ مَن يشاءُ فيَنتَفِعُ به، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيَفوتُه الانتِفاعُ. ولا مانِعَ مِن أن يُستعمَلَ الصَّرفُ في صَرفِ الشَّيءِ النَّافِعِ، وإنْ كان الأكثرُ أن يكونَ في صَرفِ الأشياءِ الضَّارَّةِ، لكِنْ قد يُستعمَلُ أيضًا في صَرفِ الأشياءِ التي تنفَعُ، وهذا من بلاغةِ القُرآنِ: أن تكونَ هذه الجُملةُ صالحةً للوَجهَينِ: وَجهِ العُقوبةِ، ووَجهِ الرَّحمةِ؛ فالإصابةُ بالبَرَدِ أحيانًا تكونُ عُقوبةً تَهلِكُ بها الزُّروعُ وتموت بها المواشي، وأحيانًا بالعَكسِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: يُعقِّبُ اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ؛ فيأتي بأحَدِهما بعْدَ الآخَرِ، ويتصَرَّفُ فيهما بالزِّيادةِ والنُّقصانِ، ويغيِّرُ حالَهما بالحَرِّ والبَردِ، والظُّلمةِ والنُّورِ إلى غيرِ ذلك، ويُديلُ الأيامَ بينَ عبادِه، ويَرفعُ أقوامًا ويضعُ آخرينَ إلى غيرِ ذلك(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بتقلُّبِ اللَّيلِ والنَّهارِ: اختِلافُهما؛ فيأتي باللَّيلِ ويَذهبُ بالنهارِ، ثمَّ يأتي بالنهارِ ويَذهبُ باللَّيلِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والخازنُ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦١٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أخْذُ كلِّ واحِدٍ منهما مِن صاحِبِه: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُعاقِبُ بيْن اللَّيلِ والنهارِ، ويُخالِفُ بيْنهما بالطُّولِ والقِصَرِ: الزمخشريُّ، والنسفي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٨).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ مِن التقليبِ الحِسِّيِّ: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين:

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ ما هو أعَمُّ مِن التَّقليبِ الحِسِّيِّ، والتقليبُ الحِسِّيُّ أنَّ اللهَ يُقَلِّبُ الأرضَ: بَدلًا مِن أنْ كانت ضياءً ونهارًا إلى لَيلٍ، ثمَّ إلى نهارٍ، وهكذا... والتَّقليبُ المعنويُّ: ما يحصُلُ في هذه الأيامِ مِن الحوادِثِ والتغيُّراتِ، والعِزِّ والنَّصرِ، والإذلالِ والخِذلانِ، كما قال =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[1] لَعِظةً لأصحابِ العُقولِ النَّافذةِ، الذين يعتَبِرونَ بالنَّظَرِ إليه، فيَستَدِلُّونَ بذلك على وُجودِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه وعظَمتِه وتوحيدِه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ

= الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠١).

وقال ابن تيميَّةَ: (تقليبُه اللَّيلَ والنَّهارَ: تحويلُ أحوالِ العالَمِ بإنزالِ المطَرِ الذي هو سبَبُ خلقِ النَّباتِ والحيوانِ والمَعدِنِ، وذلك سبَبُ تحويلِ النَّاسِ مِن حالٍ إلى حالٍ، المتضَمِّنِ رَفْعَ قومٍ وخَفْضَ آخَرينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٩٢).

وقال السعدي: (﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ مِن حرٍّ إلى بردٍ، ومِن بردٍ إلى حرٍّ، مِن لَيلٍ إلى نهارٍ، ومِن نهارٍ إلى لَيلٍ، ويُديلُ الأيامَ بينَ عبادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(١) ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكرتُ مِن هذه الأشياءِ، مما تقدَّم ذِكرُه: الثعلبيُّ، والرازي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّ في إنشاءِ اللهِ السَّحابَ، وإنزالِه منه الوَدْقَ، ومِن السَّماءِ البَرَدَ، وفي تقليبِه اللَّيلَ والنَّهارَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: إنَّ في ذلكَ التَّقليبِ: السمرقنديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (والإشارَةُ الواقعةُ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَضَمَّنه فعلُ ﴿يُقَلِّبُ﴾ مِن المصدرِ. أي: إنَّ في التَّقليبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

ٱلَّتِى تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِى عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِى عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِى عَلَىٰٓ أَرۡبَعٍۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استدلَّ أوَّلًا بأحوالِ السماءِ والأرضِ، وثانيًا بالآثارِ العُلويةِ؛ استدلَّ ثالثًا بأحوالِ الحيواناتِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أوَّلًا أحوالَ الخافِقَينِ[(٢)] دليلاً على وَحدانيَّتِه، وفصَّلَ منها الآثارَ العُلويَّةَ، فذكَرَ ما يَسقي الأرضَ؛ ذكَر أحوالَ ما يتكوَّنُ به مِن الحيواناتِ دَليلًا ظاهِرًا على الإعادةِ، وبُرهانًا قاهِرًا على المُنكِرينَ لها، فقال تعالى[(٣)]:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾.

أي: واللهُ خلَقَ كلَّ كائنٍ حَيٍّ يمشي على الأرضِ، مِن ماءٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦).

(٢) الخافِقَينِ: أي: المَشرِق والمَغرِب، أو أُفُقَيهما. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

قال ابنُ الجوزي: (وفي الماءِ قولان؛ أحَدُهما: أنَّ الماءَ أصلُ كُلِّ دابَّةٍ. والثَّاني: أنَّه النُّطفةُ، والمرادُ به: جميعُ الحيوانِ المشاهَدِ في الدُّنيا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١).

والقَولُ الأوَّلُ هو ظاهِرُ قَولِ السمعانيِّ، وابنِ كثيرٍ، واختاره ابنُ رجب، والسعديُّ، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((لطائف المعارف)) =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾.

أي: فمِنَ الحَيواناتِ المَخلوقةِ مِنْ ماءٍ مَنْ يَمشي زَحفًا على بَطنِه؛ كالحيَّةِ(١).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾.

أي: ومِنهم مَن يمشي قائِمًا على رِجلَينِ؛ كالإنسانِ والطَّيرِ(٢).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾.

= لابن رجب (ص: ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٤).

والقَولُ الثَّاني -أنَّ المرادَ بالماءِ النُّطفةُ- عزاه الشوكانيُّ للجمهور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١).

قال ابنُ رجب: (وقَولُ مَن قال: إنَّ المرادَ بالماءِ النُّطفةُ التي يُخلَقُ منها الحيواناتُ- بَعيدٌ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٣).

وقال ابنُ عثيمين: (كَلِمةُ ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ أعَمُّ مِن كَلِمةِ نُطفةٍ، والواجِبُ إبقاءُ الآيةِ على عُمومِها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٤).

وقال الشوكاني: (وقيل: في الآيةِ تَنزيلُ الغالِبِ مَنزلةَ الكُلِّ، على القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّ المرادَ بالماءِ: النُّطفةُ-؛ لأنَّ في الحيواناتِ مَن لا يتولَّدُ عن نُطفةٍ، ويخرُجُ من هذا العُمومِ الملائكةُ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ، والجانُّ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن نارٍ). ((فتح القدير)) للشوكاني (٤/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

أي: ومنهم مَن يمشي على أربَعِ قوائِمَ؛ كالبهائِمِ(١).

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يُحدِثُ اللهُ بقُدرتِه في كُلِّ وَقتٍ ما يشاءُ مِن المَخلوقاتِ المتنَوِّعةِ، ويجعَلُها على ما يَشاءُ مِن الصِّفاتِ المُختَلِفةِ(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قادِرٌ، ومِن ذلك قدرتُه على خلْقِ ما يشاءُ، ودخولُ كلِّ مخلوقاتِه تحتَ قدرتِه، فهو سبحانه لا يُعجِزُه شَيءٌ(٣).

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا اتَّضحَ بما ذُكِرَ مِن الدَّلائِلِ ما لله تعالى مِن صِفاتِ الكَمالِ، والتنَزُّهِ عن كُلِّ شائِبةِ نَقصٍ، وقامت أدِلَّةُ الوحدانيَّةِ على ساقٍ، واتَّسَقت براهينُ الألوهيَّةِ أيَّ اتِّساقٍ؛ قال تعالى مُترجِمًا لتلك الأدِلَّةِ(٤):

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: لقد أنزَلْنا آياتِ القُرآنِ عَلاماتٍ واضِحاتٍ مُوضِحاتٍ للحَقِّ ولِما يحتاجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٤).

النَّاسُ إلى بيانِه مِن مَعارِفَ وعُلومٍ، وآدابٍ وأحكامٍ(١).

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: واللهُ يُرشِدُ ويُوفِّقُ مَن يشاءُ مِن عبادِه مِمَّن هو أهلٌ للهِدايةِ، إلى طريقِ الإسلامِ المُستَقيمِ الواضِحِ، المُوصِلِ إلى رِضاه وجَنَّتِه(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تنبيهٌ على أنَّه سُبحانَه وتعالى مالِكٌ للأوَّلِ والآخِرِ، فـ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتداءٌ، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ انتهاءٌ؛ ففيه -واللهُ أعلمُ- إشارةٌ إلى أنَّه إذا كان المُلكُ للهِ والمرجِعُ إليه، فإنَّه لا يَحِلُّ لنا أنْ نتصَرَّفَ إلَّا حسَبَ ما شُرِعَ لنا ما دُمْنا مِلكًا للهِ عزَّ وجلَّ، ومصيرُنا إلى اللهِ، وما دُمْنا نَعلمُ أنَّ مصيرَنا إليه فلا بُدَّ أنْ نستعدَّ لهذا المصيرِ؛ لأنَّه سوف يُحاسِبُنا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ يعُمُّ كُلَّ ما نصَبَ الله تعالى من آيةٍ وصَنعةٍ للعِبرةِ، وكُلَّ ما نصَّ في كتابِه مِن آيةِ تنبيهٍ وتذكيرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩١).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالآياتِ هنا آياتُ القرآنِ، كما يقتضيه فِعلُ ﴿أَنزَلۡنَآ﴾؛ ولذلك لم تُعطَفْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

قال ابنُ عثيمين: (يعني: على الرَّغمِ مِن كَونِ الآياتِ ﴿مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ واضِحةً مُبيِّنةً، على الرَّغمِ مِن ذلك، فليس كلُّ أحدٍ يَهتدي بها، وإنَّما الله تعالى ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩١).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فالبصيرُ ينظُرُ إلى هذه المخلوقاتِ نظَرَ اعتِبارٍ وتفكُّرٍ وتدَبُّرٍ لِما أُريدَ بها ومنها، والمُعرِضُ الجاهِلُ نَظَرُه إليها نظَرُ غَفلةٍ، بمنزلةِ نظَرِ البَهائمِ[1]!

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأمَّلْ كيف نبَّه سُبحانَه باختلافِ الحيواناتِ في المشيِ مع اشتراكِها في المادَّةِ على الاختِلافِ فيما وراءَ ذلك من أعضائِها وأشكالِها، وقُواها وأفعالِها، وأغذيتِها ومساكِنِها؛ فنبَّه على الاشتراكِ والاختِلافِ، فنُشيرُ إلى يسيرٍ منه: فالطَّيرُ كُلُّها تشتَرِكُ في الريشِ والجَناحِ، وتتفاوتُ فيما وراءَ ذلك أعظَمَ تفاوُتٍ، واشتراكُ ذواتِ الحوافِرِ في الحافِرِ، كالفَرَسِ والحِمارِ والبَغلِ، وتفاوُتُها في ما وراءَ ذلك، واشتراكُ ذواتِ الأظلافِ في الظِّلفِ، وتفاوتُها في غيرِ ذلك، واشتراكُ ذواتِ القُرونِ فيها، وتفاوتُها في الخَلقِ والمنافِعِ والأشكالِ، واشتراكُ حَيواناتِ الماء في كونِها سابحةً تأوي فيها وتتكوَّنُ فيها، وتفاوتُها أعظَمُ تفاوُتٍ عَجَز البشرُ إلى الآنَ عن حَصْرِه، واشتراكُ الوحوشِ في البُعدِ عن النَّاسِ، والنِّفارِ عنهم وعن مساكنِهم، وتفاوتُها في صفاتِها وأشكالِها وطبائِعِها وأفعالها أعظَمُ تفاوُتٍ يَعجِزُ البشَرُ عن حصرِه، واشتراكُ الماشي منها على بطنِه في ذلك، وتفاوتُ نَوعِه، واشتراكُ الماشي على رِجلَين في ذلك، وتفاوُتُ نوعِه أعظَمُ تفاوتٍ؛ وكلٌّ من هذه الأنواعِ له عِلمٌ وإدراكٌ وتحيُّلٌ على جَلبِ مصالِحِه ودَفعِ مَضارِّه، يعجِزُ عن كثيرٍ منها نوعُ الإنسانِ، فمِن أعظَمِ الحِكَمِ الدَّلالةُ الظاهرةُ على مَعرفةِ الخالِقِ الواحِدِ المُستولي بقوَّتِه وقُدرتِه وحِكمتِه على ذلك كُلِّه، بحيث جاءت

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

كُلُّها مطيعةٌ مُنقادةٌ مُنساقةٌ إلى ما خلَقَها له على وَفقِ مَشيئتِه وحكمتِه، وذلك أدَلُّ شيءٍ على قوَّتِه القاهرةِ، وحِكمتِه البالِغةِ، وعِلمِه الشَّامِلِ، فيُعلَمُ إحاطةُ قُدرةٍ واحدةٍ، وعلمٍ واحدٍ، وحِكمةٍ واحدةٍ -أعني: بالنوع- مِن قادرٍ واحدٍ، عالِمٍ واحدٍ، حَكيمٍ واحدٍ، بجميعِ هذه الأنواعِ وأضعافِها مِمَّا لا تعلَمُه العُقولُ البشريَّةُ، كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] [النحل: ٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يعتَمِدَ على نفْسِه في الهدايةِ، بل يسألُ اللهَ دائمًا أنْ يهديَه ثم يُثبِّتَه ما دامَ أنَّ اللهَ هو الذي يهدي[2]! فالله تعالى عَمَّم البيانَ التَّامَّ لجميعِ الخَلقِ، فقال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، وخَصَّص بالهدايةِ مَن يشاءُ، فهذا فَضلُه وإحسانُه، وما فَضلُ الكريمِ بمَمنونٍ -أي: بمقطوعٍ-، وذاك عَدلُه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ الله تعالى عَلِمَ في الجماداتِ وسائِرِ الحيواناتِ سِوى العُقلاءِ عِلمًا لا يَقِفُ عليه غيرُه، فلها صلاةٌ وتَسبيحٌ وخَشيةٌ، كما قال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحج: ١٨] الآيةَ؛ فيَجِبُ على المرءِ الإيمانُ به، ويَكِلُ عِلمَه إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى[4].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ١٣٢).

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ إنَّ إعطاءَ الله سبحانه للأجرامِ الثَّقيلةِ ما تتمكَّنُ مِن الوُقوفِ في الجَوِّ والحركةِ كيف تشاءُ مِن الأجنحةِ والأذنابِ الخَفيفةِ، وإرشادَها إلى كيفيَّةِ استعمالِهما بالقبْضِ والبسْطِ: حُجَّةٌ نيِّرةٌ واضحةُ المَكنونِ، وآيةٌ بيِّنةٌ لقومٍ يعقِلون، دالَّةٌ على كَمالِ قُدرةِ الصَّانعِ المجيدِ، وغايةِ حِكمةِ المُبدئِ المُعيدِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ إنَّما دخلَتْ (بينَ) على مفردٍ، وهي إنما تَدخُلُ على المثَّنى فما فوقَه؛ لأنَّه إمَّا أن يُرادَ بالسَّحابِ الجِنسُ، فعاد الضَّميرُ عليه على حُكمِه، وإمَّا أن يُرادَ حَذفُ مُضافٍ، أي: بيْن قِطَعِه؛ فإنَّ كلَّ قِطعةٍ سَحابةٌ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّ الإصابةَ إذا أُطْلِقَت في كلامِهم دلَّتْ على أنَّها حُلولُ مَكروهٍ، ومِن ذلك سُمِّيَتِ المُصيبةُ: الحادثةَ المكروهةَ، فجعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّه يُفسِدُ الزَّرعَ والثَّمرةَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ نصٌّ صريحٌ أنَّ ذلك ليس مِن تَفرقةِ الرِّيحِ كما يزعُمُ أهلُ الطبيعةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى ذَكَرَ بعدَ ذلك أنَّه هو الذي يُصرِّفُه ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾، وقد نصَّ تعالى أنه هو المُصَرِّفُ له في آيةٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠]، وهذا مِن لُطْفِ اللهِ وحِكمتِه؛ فإنَّه لو لم يجعَلْ للمطَرِ فُتوقًا وفُروجًا يَنزِلُ منها مُفرَّقًا، فأنزلَه دَفعةً واحدةً إلى الأرضِ لأهلكَ الناسَ والدَّوابَّ، ولأفسدَ الأرضَ وخرَّبَها، وهذا يرُدُّ على عُلَماءِ الطبيعةِ الذين لا يَعتَبِرونَ لهذا الكونِ مُدَبِّرًا[1]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في السَّماءِ جِبالًا مِن بَرَدٍ -على أحدِ القولَينِ-، وهو تعالى يُنَبِّه خلْقَه على ما فيه نفْعُهم؛ لِيطمَعوا فيه، وعلى ما فيه هَلاكُهم؛ لِيخافوا منه، فنَبَّهَ على ما يَطمَعونَ فيه بالمطَرِ، ونَبَّهَ على ما يخافونَ منه بالبَرَدِ، وهو شَبيهٌ بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[2] [الرعد: ١٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ فيه تَنبيهُ العُقولِ إلى التَّدبُّرِ في هذه التَّغيُّراتِ؛ إذ كان شُعورُ النَّاسِ بحُدوثِ البرْقِ أوضَحَ وأكثَرَ مِن شُعورِهم بتكوُّنِ السَّحابِ وتَراكُمِه، ونُزولِ المطَرِ والبرَدِ؛ إذ قد يَغفُلُ النَّاسُ عن ذلك لكثرةِ حُدوثِه وتَعوُّدِهم به، بخلافِ اشتدادِ البرْقِ؛ فإنَّه لا يَخْلو أحدٌ مِن أنْ يكونَ قد عرَضَ له مرَّاتٍ، فإنَّ أصحابَ الأبصارِ الَّتي حرَّكَها خَفْقُ البرْقِ يتذكَّرون تلك الحالةَ العجيبةَ الدَّالَّةَ على القُدرةِ؛ ولهذه النُّكتةِ خُصِّصَت هذه الحالةُ مِن أحوالِ البرْقِ بالذِّكْرِ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ العِبرةُ مِن الاعتبارِ، وهو مأخوذٌ مِن «العِبْرِ» وهو شاطِئُ النَّهرِ، ومَن قَطَعَ النَّهرَ فقد عَبَرَه، فكأنَّ المُعتَبِرينَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على قُدرتِه عَبَروا مِن شاطِئِ السِّنَةِ والغَفلةِ والجهلِ إلى شاطِئِ

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

النُّورِ والانتباهِ والاتِّعاظِ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أنَّ عُمْيَ الأبصارِ لا يَستدِلُّونَ بهذه الآياتِ على كَمالِ قُدرتِه، ولا يَنتَفِعونَ منها بشَيءٍ[2].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الماءَ مادَّةُ جَميعِ الحيواناتِ، وعلى خَلقِ جَميعِ ما يدِبُّ وما فيه حياةٌ مِن ماءٍ؛ فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المُطلَقُ[3].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ لمَ قال الله ذلك مع أنَّ كثيرًا مِن الحيواناتِ غَيرُ مخلوقةٍ مِن الماءِ، أمَّا الملائكةُ فهُم أعظَمُ المخلوقاتِ الحيةِ عَدَدًا، وهم مخلوقونَ مِن النورِ، وأمَّا الجِنُّ فهم مخلوقون مِن النَّارِ[4]، وخَلَق

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٦).

قال الرازي: («ع ب ر» ... تُفيدُ العُبورَ والانتقالَ، ... ومنه العِبارةُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يُمكِنُه أنْ يَتكَلَّمَ بها إلَّا إذا انتقَل مِن حرفٍ إلى حرفٍ آخَرَ، وأيضًا كأنَّه بسببِ تلك العِبارةِ يَنتقِلُ المعنَى مِن ذِهْنِ نفْسِه إلى ذِهنِ السَّامِعِ. ومنه العَبْرَةُ؛ لأنَّ تلك الدَّمعةَ تَنتقِلُ مِن داخلِ العيْنِ إلى الخارجِ. ومنه العِبرُ؛ لأنَّ الإنسانَ يَنتقِلُ فيها مِن الشَّاهدِ إلى الغائبِ. ومنه المِعْبَرُ؛ لأنَّ الإنسانَ يَنتقِلُ بواسِطَتِه مِن أحدِ طرفَيِ البحرِ إلى الثَّاني. ومنه التَّعبيرُ؛ لأنَّه يَنتقِلُ مِمَّا يَراهُ في النَّومِ إلى المعاني الغائبةِ). ((تفسير الرازي)) (١/ ٣٢).

وقال ابن القيِّم: (الاتِّعاظُ يُسمَّى اعتِبارًا وعِبرةً؛ لعبورِ المتَّعِظِ مِن النَّظيرِ إلى نظيرِه). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٣).

(٤) قال ابن رجب: (القرآنُ دَلَّ على خَلقِ جَميعِ ما يدِبُّ وما فيه حياةٌ مِن ماءٍ، فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المُطلَقُ، ولا يُنافي هذا قَولُه تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، وقَولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «خُلِقت الملائكةُ مِن نورٍ» [مسلم (٢٩٩٦) من حديثِ عائشةَ]؛ فإنَّ حديثَ أبي هُريرةَ «كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ» [أحمد (٧٩٣٢)، وابن حبان (٢٥٥٩)، والحاكم (٧٢٧٨). ويُنظر: ((إرواء الغليل)) للألباني (١/ ١٩٠)] دلَّ على =

اللهُ آدمَ مِن الترابِ؛ لِقَولِه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال عن خلقِ عيسى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وأيضًا كثيرٌ من الحيواناتِ متولِّدٌ لا عن النُّطفةِ؟

الجواب من وجوه:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صِلةُ ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، وليس هو مِن صِلةِ ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى: أنَّ كُلَّ دابَّةٍ متولِّدةٍ مِن الماء فهي مخلوقةٌ لله تعالى.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ أصلَ جَميعِ المخلوقاتِ الماءُ، ولَمَّا كان المقصودُ مِن هذه الآيةِ بيانَ أصلِ الخِلقةِ، وكان الأصلُ الأوَّلُ هو الماءَ؛ لا جَرَمَ ذَكَره على هذا الوجهِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ مِن (الدابَّة) التي تدِبُّ على وجهِ الأرضِ، ومَسكنُهم هناك، فيَخرُجُ عنه الملائكةُ والجِنُّ، ولَمَّا كان الغالِبُ جِدًّا من هذه الحيواناتِ كَونَهم مخلوقينَ مِن الماء؛ إمَّا لأنَّها متولِّدةٌ مِن النُّطفةِ، وإمَّا لأنَّها لا تعيشُ إلَّا بالماء- لا جَرَمَ أطلَق لَفظَ الكُلِّ؛ تنزيلًا للغالِبِ مَنزلةَ الكُلِّ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ سؤالٌ: وهو: أنَّ بعضَ الحيواناتِ تمشي على أكثرَ مِن أربعٍ، فلِمَ لم تُذكَرْ؟

والجوابُ مِن أوجهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ الواوَ حُذِفَتْ مع معطوفِها، أي: ومنهم مَن يمشي على أكثرَ

= أنَّ أصلَ النورِ والنَّارِ الماءُ، كما أنَّ أصلَ الترابِ الذي خُلِقَ منه آدمُ الماءُ، فإنَّ آدَمَ خُلِقَ مِن طينٍ، والطينُ تُرابٌ مُختَلِطٌ بماءٍ، أو الترابُ خُلِقَ من الماءِ... ولا يُستنكَرُ خَلقُ النَّارِ مِن الماءِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ جمَع بقُدرتِه بينَ الماءِ والنَّارِ في الشَّجَرِ الأخضَرِ، وجعَل ذلك مِن أدلَّةِ القُدرةِ على البَعثِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦).

مِن أربعٍ، وحَذْفُ الواوِ مع معطوفِها أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ.

الوجهُ الثاني: أنَّ ما يمشي على أكثرَ مِن أربعٍ قليلٌ، فلم يَتعرَّضْ له؛ لِقِلَّتِه.

الوجهُ الثالثُ: أنَّ المشيَ الرَّئيسَ على أربعٍ وإن كَثُرت الأرجُلُ.

الوجهُ الرابعُ: أنَّ الآيةَ ذكرتْ أمثلةً شَهيرةً، ولم تَحصُرْ(١)، فليسَ فيها ما يَقْتضي حَصرَ المشيِ في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ المقصودَ الاعتبارُ بالغالبِ المُشاهَدِ(٢).

الوجه الخامس: أنَّه لم يزِدْ على الأربعِ؛ لأنَّ القوائمَ وإن زادَتْ فاعتمادُ الحيوانِ على جهاتِه الأربعةِ، فكأنَّها تمشي على أربعةٍ(٣).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى ما تعلَّقَت به إرادةُ خَلقِه، أنشأه واختَرَعه، وفي ذلك تنبيهٌ على كثرةِ الحَيوانِ، وأنَّها كما اختَلَفت بكيفيَّةِ المشي، اختلَفَت بأمورٍ أُخَرَ(٤).

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ الشَّرعَ كلَّه -الذي هو دينُ الإسلامِ- مُستقيمٌ، ليس فيه اعوِجاجٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٨).

وقال ابن عثيمين: (مِن الحيواناتِ أو مِن الدوابِّ ما يمشي على أكثَرَ مِن أربَعٍ، فمنها ما له سِتُّ أرجُلٍ أو أكثرُ من ذلك، إنَّما هذا التقسيمُ ليس للحَصرِ، ولكِنَّه للقَصرِ، أي: مِن بابِ الاقتصارِ على بعضِ الأنواعِ فقط، ويدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٦) بتصرف يسير.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ كِنايةً عن التَّعجُّبِ مِن حالِ فريقِ المُشرِكين الَّذين هم مِن أصحابِ العُقولِ، ومع ذلك قد حُرِموا الهُدى لَمَّا لم يَجعَلْه اللهُ فيهم، وقد جعَلَ الهُدى في العَجْماواتِ؛ إذ جبَلَها على إدراكِ أثَرِ نِعمةِ الوُجودِ والرِّزقِ. وقيل: الرُّؤيةُ هنا بَصريَّةٌ؛ وعلى هذا الاعتبارِ كان الاستفهامُ الإنكاريُّ مَكينَ الوقْعِ. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ جاريةً مَجْرى الأمثالِ في كلامِ البُلغاءِ؛ وعليه فلا الْتِفاتَ فيها إلى معنى الرُّؤيةِ. وقيل: الرُّؤيةُ هنا قلبيَّةٌ، وأغنَى المصدرُ عن المفعولَينِ[١]. وقيل: هو استِئنافٌ خُوطِبَ بِه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على أحدِ الأقوالِ-؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى أفاضَ عليه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعلَى مَراتبِ النُّورِ وأجْلاها، وبيَّنَ له مِن أسرارِ المُلْكِ والملكوتِ أدقَّها وأخفاها، والهمزةُ للتَّقريرِ، أي: قد علِمْتَ عِلْمًا يَقينيًّا شَبيهًا بالمُشاهَدةِ في القوَّةِ والرَّصانةِ بالوحيِ الصَّريحِ، والاستدلالِ الصَّحيحِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نبَّهَ على كَمالِ قُوَّةِ دَلالةِ المخلوقاتِ عليه سُبحانه وغايةِ وُضوحِها؛ حيثُ عبَّرَ عنها بما يخُصُّ العُقلاءَ مِن التَّسبيحِ الَّذي هو أقْوى مَراتبِ التَّنزيهِ وأظهَرُها؛ تَنزيلًا لِلِسانِ الحالِ مَنزلةَ لِسانِ المَقالِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، وأكَّدَ ذلك بإيثارِ كَلمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

(مَن) على (ما)؛ كأنَّ كلَّ شيءٍ ممَّا عَزَّ وهانَ، وكلَّ فَرْدٍ مِن أفرادِ الأعراضِ والأعيانِ: عاقلٌ ناطقٌ، ومُخبِرٌ صادقٌ بعُلوِّ شأنِه تعالى وعِزَّةِ سُلطانِه. وتَخصيصُ التَّنزيهِ (التَّسبيحِ) بالذِّكْرِ مع دَلالةِ ما فيهما على اتِّصافِه تعالى بنُعوتِ الكَمالِ أيضًا؛ لِما أنَّ مَساقَ الكلامِ لتَقبيحِ حالِ الكفَرةِ في إخلالِهم بالتَّنزيهِ، بجَعْلِهم الجَماداتِ شُركاءَ له في الأُلوهيَّةِ، ونِسبَتِهم إيَّاه إلى اتِّخاذِ الولَدِ، تعالى عن ذلكَ عُلُوًّا كبيرًا[١]. وقيل: وجهُ تخصيصِ التسبيحِ هاهنا بالعقلاءِ أنَّ خِلْقةَ العقلاءِ أشدُّ دَلالةً على وجودِ الصانعِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ العجائبَ والغرائبَ في خَلقِهم أكثرُ، وهي العقلُ والنطقُ والفَهمُ[٢]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ فيه تَخصيصُ الطَّيرِ بالذِّكْرِ مع اندراجِها في جُملةِ ما في الأرضِ؛ لعدَمِ استِقرارِ قَرارِها، واستِقلالِها بصُنْعٍ بارعٍ، وإنشاءٍ رائعٍ؛ قُصِدَ بَيانُ تَسبيحِها مِن تلك الجِهَةِ؛ لوُضوحِ إنبائِها عن كَمالِ قُدرةِ صانعِها، ولُطْفِ تَدبيرِ مُبدعِها؛ ولذلك قيَّدها بقولِه: ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾؛ فإنَّ إعطاءَ الأجرامِ الثقيلةِ ما به تقوَى على الوقوفِ في الجوِّ باسطةً أجنحتَها، بما فيها مِن القبضِ والبسطِ- حُجَّةٌ قاطعةٌ على كمالِ قدرةِ الصانعِ تعالى، ولُطفِ تدبيرِه[٣]. وقيل: تَخصيصُ الطَّيرِ بالذِّكْرِ مِن بيْنِ المخلوقاتِ؛ للمُقابَلةِ بيْنَ مخلوقاتِ الأرضِ والسَّماءِ بذِكْرِ مَخلوقاتٍ في الجوِّ بين السَّماءِ والأرضِ؛ ولذلك قُيِّدَت بـ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ استِئنافٌ، وهو مِن تَمامِ العِبرةِ؛ إذ أودَعَ اللهُ في جميعِ أولئك ما به مُلازَمتُهم لِمَا فُطِروا عليه مِن تَعظيمِ اللهِ وتَنزيهِه[١].

وتَقديمُ الصلاةِ على التَّسبيحِ في الذِّكْرِ؛ لقِدَمِها عليه في الرُّتبةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيه وَعيدٌ وتَخويفٌ[٣]. وهو اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَحقيقٌ لِمَا دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ مِن إعطائِه الهُدى للعَجْماواتِ في شُؤونِه، وحِرْمانِه إيَّاهُ فريقًا مِن العُقلاءِ؛ فلو كان ذلك جاريًا على حسَبِ الاستحقاقِ لكان هؤلاء أهْدى مِن الطَّيرِ في شأْنِهم[٥].

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ بَيانٌ لاختِصاصِ المُلكِ به تعالى في المعادِ، إثْرَ بَيانِ اختصاصِه به تعالى في المبدَأِ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ[٦]، وفيه أيضًا تذكيرٌ وتَخويفٌ[٧].

- وتَقديمُ المعمولينِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦).

التَّصرُّفَ في العوالِمِ للهِ لا لغَيرِه[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ فيه حُسنُ تخلُّصٍ؛ حيث أعقَبَ الدَّلالةَ على إعطاءِ الهُدى في قوانينِ الإلهامِ في العَجْماواتِ بالدَّلالةِ على خلْقِ الخصائصِ في الجَمادِ، بحيث تَسِيرُ على السَّيرِ الَّذي قدَّرَهُ اللهُ لها سَيرًا لا يتغيَّرُ؛ فهي بذلك أهْدى مِن فريقِ الكافرينَ الَّذين لهم عُقولٌ وحواسُّ لا يَهْتدون بها إلى مَعرفةِ اللهِ تعالى، والنَّظرِ في أدِلَّتِها، وفي ذلك دَلالةٌ على عِظَمِ القُدرةِ، وسَعةِ العلْمِ، ووَحدانيَّةِ التَّصرُّفِ. وهذا استدلالٌ بنظامِ بعضِ حوادثِ الجوِّ حتَّى آلَ إلى قولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وقد حصَلَ مِن هذا حُسنُ التَّخلُّصِ للانتِقالِ إلى الاستِدلالِ على عِظَمِ القُدرةِ، وسُمُوِّ الحِكمةِ، وسَعةِ العلْمِ الإلهيِّ[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ في تَعقيبِ الجَعلِ المذكورِ برُؤيتِه خارجًا لا بخُروجِه مِنَ المُبالَغةِ في سُرعةِ الخُروجِ، ومِنَ الاعتناءِ بتَقريرِ الرُّؤيةِ ما لا يَخْفى[3].

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ مَفعولُ (يُنَزِّلُ). وقيل: المفعولُ ﴿مِن جِبَالٍ﴾، وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ. وقيل: مفعولُ (يُنَزِّلُ) مَحذوفٌ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾، والتَّقديرُ: يُنزِّلُ برَدًا، ووُقوعُ (مِن) زائدةً؛ لقصْدِ مُشاكَلةِ قولِه: ﴿مِن جِبَالٍ﴾. وقيل: هو على حذْفِ حَرفِ التَّشبيهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤).

والسَّماءُ: السَّحابُ، أي: مِن السَّماءِ الَّتي هي جِبالٌ، أي: كجبالٍ(١).

– وذكر البَرَد؛ لأنَّهم كانوا يَعرِفونه، فخُوطِبوا بما يعرِفون، وترَكَ ذِكرَ الثلجِ، وهو أكثرُ نزولًا مِن البَرَدِ؛ لأنَّهم كانوا لا يعرِفونَه في بلادِهم(٢).

– قولُه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ، وإضافةُ البرْقِ إليه قبْلَ الإخبارِ بوُجودِه فيه؛ للإيذانِ بظُهورِ أمْرِه، واستِغنائِه عن التَّصريحِ به(٣).

– قولُه: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: يخطَفُها مِن فَرطِ الإضاءةِ، وسرعةِ وُرودِها. وفي إطلاقِ الأبصارِ مَزيدُ تَهويلٍ لأمْرِه، وبَيانٌ لشِدَّةِ تأْثيرِه فيها، كأنَّه يكادُ يذهَبُ بها ولو عندَ الإغماضِ، وهذا مِن أقوى الدَّلائلِ على كَمالِ القُدرةِ، مِن حيثُ إنَّه تَوليدٌ للضِّدِّ مِن الضِّدِّ(٤).

– وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ قولَه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ هو كقولِه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، سِوى أنَّ هذه الآيةَ زِيدَ فيها لفْظُ ﴿سَنَا﴾؛ لأنَّ هذه الآيةَ واردةٌ في مَقامِ الاعتبارِ بتَكوينِ السَّحابِ، وإنْزالِ الغَيثِ؛ فكان المَقامُ مُقْتضيًا للتَّنويهِ بهذا البرْقِ وشِدَّةِ ضِيائِه؛ حتَّى يكونَ الاعتبارُ بأمْرينِ: بتكوينِ البرْقِ في السَّحابِ، وبقُوَّةِ ضِيائِه حتَّى يَكاد يَذهَبُ بالأبصارِ. وآيةُ (البقرةِ) واردةٌ في مَقامِ التَّهديدِ والتَّشويهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٥٠٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

لحالِهم حين كانوا مُظهِرينَ الإسلامَ ومُنطَوِينَ على الكُفرِ والجُحودِ؛ فكانتْ حالُهم كحالةِ الغَيثِ المُشتمِلِ على صَواعِقَ ورعْدٍ وبرْقٍ؛ فظاهِرُه مَنفعةٌ، وفي باطِنِه قوارعُ ومَصائبُ. ومِن أجْلِ اختلافِ المَقامينِ وُضِعَ التَّعبيرُ هنا بـ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، وهنالِك بقولِه: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾؛ لأنَّ في الخَطْفِ مِن معنى النِّكايةِ بهم والتَّسلُّطِ عليهم ما ليس في (يَذهَبُ)؛ إذ هو مُجرَّدُ الاستِلابِ. وأمَّا التَّعبيرُ هنا بالأبصارِ مُعرَّفًا باللَّامِ؛ فلأنَّ المقصودَ أنَّ البرْقَ مُقارِبٌ أنْ يُزيلَ طائفةً مِن جِنسِ الأبصارِ؛ فالحُكْمُ على حالةِ البرْقِ الشَّديدِ مِن حيثُ هي، بخلافِ آيةِ (البقرةِ)؛ فإنَّها في مَقامِ التَّوبيخِ لهم بأنَّ ما شأْنُه أنْ يَنتفِعَ النَّاسُ به قد أشرَفَ على الضُّرِّ بهم؛ فلذلك ذُكِرَ لفْظُ (أبصار) مُضافًا إلى ضَميرِهم. مع ما في هذا التَّخالُفِ مِن تفْنينِ الكلامِ الواحدِ على أفانينَ مُختلفةٍ؛ حتَّى لا يكونَ الكلامُ مُعادًا، وإنْ كان المَعنى مُتَّحِدًا. ولا تجِدُ حقَّ الإيجازِ فائتًا؛ فإنَّ هذينِ الكلامينِ في حدٍّ التَّساوي في الحُروفِ والنُّطقِ. وهكذا نَرى بلاغةَ القُرآنِ وإعجازَهُ وحلاوةَ نظْمِه[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الكلامُ استِئنافٌ، وجِيءَ به مُستأنَفًا غيرَ مَعطوفٍ على آياتِ الاعتِبارِ المذكورةِ قبْلَه؛ لأنَّه أُرِيدَ الانتِقالُ مِن الاستِدلالِ بما قدْ يَخْفى على بعضِ الأبصارِ إلى الاستِدلالِ بما يُشاهِدُه كلُّ ذي بَصَرٍ كلَّ يومٍ وكلَّ شهْرٍ، فهو لا يَكادُ يَخْفى على ذي بصَرٍ، وهذا تدرُّجٌ في مَوقعِ هذه الجُملةِ عقِبَ جُملةِ: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾؛ ولذلك فالمقصودُ مِن الكلامِ هو جُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، ولكنْ بُنِيَ نظْمُ الكلامِ على تَقديمِ الجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ لِمَا تقْتضيهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٣).

مِن إفادةِ التَّجدُّدِ، بخلافِ أنْ يُقالَ: إنَّ في تَقليبِ اللَّيلِ والنَّهارِ لَعِبرةً[١].

- قولُه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ تَقليبُ اللَّيلِ والنَّهارِ تَغييرُ الأُفقِ مِن حالةِ اللَّيلِ إلى حالةِ الضِّياءِ، ومِن حالةِ النَّهارِ إلى حالةِ الظَّلامِ، فالمُقلَّبُ هو الجوُّ بما يَختلِفُ عليه مِن الأعراضِ، ولكنْ لمَّا كانت حالةُ ظُلمةِ الجوِّ تُسمَّى ليلًا، وحالةُ نُورِه تُسمَّى نهارًا؛ عُبِّرَ عن الجوِّ في حالتَيهِ بهما، وعُدِّيَ التَّقليبُ إليهما بهذا الاعتِبارِ، وممَّا يدخُلُ في معنى التَّقليبِ تَغييرُ هَيئةِ اللَّيلِ والنَّهارِ بالطُّولِ والقِصَرِ؛ ولرَعْيِ تَكرُّرِ التَّقلُّبِ بمَعنيَيهِ عُبِّرَ بالمُضارعِ المُقْتضي للتَّكرُّرِ والتَّجدُّدِ ﴿يُقَلِّبُ﴾[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ وهو إمَّا لمُجرَّدِ الاهتِمامِ بالخبَرِ، وإمَّا لتَنزيلِ المُشركينَ في تَرْكِهم الاعتبارَ بذلك مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ في ذلك عِبرةً[٣].

- والإشارةُ الواقعةُ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَضمَّنَه فِعلُ ﴿يُقَلِّبُ﴾ مِن المصدرِ، أي: إنَّ في التَّقليبِ، ويُرجِّحُ هذا القصدَ ذِكرُ العِبرةِ بلفْظِ المُفرَدِ المُنكَّرِ. وقيل: الإشارةُ بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى جميعِ ما ذُكِرَ آنفًا، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ [النور: ٤٣]؛ فيَكونُ الإفرادُ في قولِه: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ ناظرًا إلى أنَّ مجموعَ ذلك يُفيدُ جِنسَ العِبرةِ الجامعةِ لليقينِ بأنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في الكونِ. ولم تَرِدِ العِبرةُ في القُرآنِ مُعرَّفةً بلامِ الجِنسِ، ولا مَذكورةً بلفْظِ الجمْعِ[٤]. والتعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يفيدُ البُعدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

مع قُربِ المُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزلَتِه[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ خُصَّ أولُو الأبصارِ بالاتِّعاظِ؛ لأنَّ البصرَ والبصيرةَ إذا استُعْمِلا وَصَلا إلى إدراكِ الحقِّ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٖۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿خَلَقَ ...﴾؛ لأنَّه لمَّا كان الاعتِبارُ بتَساوي أجناسِ الحيوانِ في أصلِ التَّكوينِ مِن ماءِ التَّناسُلِ، مع الاختلافِ في أوَّلِ أحوالِ تلك الأجناسِ في آثارِ الخِلْقةِ -وهو حالُ المشْيِ- إنَّما هو باستمرارِ ذلك النِّظامِ بدونِ تخلُّفٍ، وكان ذلك مُحقَّقًا؛ كان إفراغُ هذا المعنى بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ مُفيدًا لأمْرينِ: التَّحقُّقِ بالتَّقديمِ على الخبَرِ الفِعليِّ، والتَّجدُّدِ بكونِ الخبَرِ فِعليًّا[3].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ دونَ الإضمارِ (وهو)؛ للتَّنويهِ بهذا الخَلْقِ العجيبِ[4].

- وأيضًا اخْتِيرَ فِعلُ المُضِيِّ ﴿خَلَقَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَقريرِ التَّقوِّي بأنَّ هذا شأْنٌ مُتقرِّرٌ منذ القِدَمِ، مع عدَمِ فَواتِ الدَّلالةِ على التَّكريرِ؛ حيث عقَّبَ الكلامَ بقولِه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وخصَّ الدَّابَّةَ بالذِّكْرِ، مع أنَّ غيرَها مِثْلُها، كما شَمِلَهُ قولُه في سُورةِ الأنبياءِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ لأنَّ القُدرةَ فيها أظهَرُ وأعجَبُ منها في غيرِها(١).

- قولُه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ فيه تَنكيرُ (ماء)، وهو إمَّا للإفرادِ نوعًا؛ فإنَّه تعالى خلَقَ كلَّ نوعٍ مِن أنواعِ الدَّوابِّ مِن ماءٍ مُختَصٍّ بذلك النَّوعِ؛ فخلَقَ نوعَ الإنسانِ مِن ماءٍ مُختصٍّ به، وخلَقَ الفرَسَ مِن ماءٍ مُختصٍّ به. وإمَّا للإفرادِ شَخْصًا؛ فإنَّه تعالى خلَقَ كلَّ دابَّةٍ مِن ماءٍ مَخصوصٍ بها، وهو النُّطفةُ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، ثمَّ اختلَفَتْ هذه النُّطفةُ بحسَبِ اختلافِ الدَّوابِّ؛ فيكونُ تَنزيلًا للغالِبِ مَنزلةَ الكلِّ؛ إذ مِن الحيواناتِ ما يَتولَّدُ لا عن النُّطفةِ(٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ جاء الماءُ في قولِه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ نكِرةً، وجاء في سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] مَعرِفةً؛ ووَجْهُه: أنَّ تَنكيرَ ﴿مَّآءٍ﴾ لإرادةِ النَّوعيَّةِ؛ تَنبيهًا على اختِلافِ صِفاتِ الماءِ لكلِّ نوعٍ مِن الدَّوابِّ؛ إذ المقصودُ تَنبيهُ النَّاسِ إلى اختلافِ النُّطَفِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-؛ للزِّيادةِ في الاعتبارِ. وهذا بخِلافِ قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ إذ قُصِدَ هناك إلى أنَّ أجناسَ الحيوانِ كلَّها مَخلوقةٌ مِن جِنسِ الماءِ، وهو جِنسٌ واحدٌ اختلَفَت أنواعُه؛ فتعريفُ الجِنسِ هناك إشارةٌ إلى ما يَعرِفُه النَّاسُ إجمالًا ويَعهَدونه؛ مِن أنَّ الحيوانَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

كلَّه مخلوقٌ مِن نُطَفِ أُصولِه. وهذا مناطُ الفرْقِ بيْن التَّنكيرِ كما هنا، وبيْن تَعريفِ الجِنسِ كما في آيةِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ فالآيةُ الأُولى لإخراجِ المُختلِفِ مِن المُتَّفِقِ، والثَّانيةُ لإخراجِ المُتَّفِقِ مِن المُختلِفِ[١].

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ فيه تَسميةُ حَركتِها مشْيًا مع كَونِها زحْفًا على البطنِ؛ اتساعًا؛ لقيامِه مقامَ المشيِ[٢]. وقيل: لأنَّ كلَّ سائرٍ يقالُ له: ماشٍ، وقد مشَى، سواءٌ كانت له قوائمُ أو لم تكنْ له، بل وإن لم يكنْ مِن الحيوانِ[٣]. وقيل: للمُشاكَلةِ مع بقيَّةِ الأنواعِ. وقيل غيرُ ذلك[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ تَغليبٌ للعاقلِ على غيرِه؛ لأنَّه لمَّا اختلَطَ غيرُ العاقلِ بالعاقلِ في الفصْلِ بـ (مَن) و﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾، كان التَّعبيرُ بـ (مَن) أوْلى؛ لِتُوافِقَ اللَّفظَ. والقاعدةُ: إذا اجتَمع مَن يعقلُ وغيرُه غُلِّب مَن يعقلُ، فلمَّا وقَع التفصيلُ وقَع تفصيلًا للعقلاءِ فقط، ويحتمِلُ أنْ تكونَ (مَن) نكِرةً مَوصوفةً بالجُملةِ بعدَها، والتَّقديرُ: فمنهم نوعٌ يَمْشي على بطْنِه، ونوعٌ يَمْشي على رِجلينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

ونوعٌ يَمْشي على أربعٍ[(١)]. وقيل: لمَّا كان في سياقِ التعظيمِ، وكان قد آتى كلَّ نفْسٍ مِن الإدراكِ ما تعرِفُ به منافعَها ومضارَّها؛ عبَّر عن الكلِّ بأداةِ مَن يَعقِلُ، وإن كانوا متفاوتينَ في التمييزِ[(٢)].

- قولُه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ زِيادةٌ في العِبرةِ، أي: يتجدَّدُ خلْقُ اللهِ ما يشاءُ أنْ يَخلُقَه ممَّا علِمْتُم وما لم تَعلَموا؛ فهي جُملةٌ مُستأنَفةٌ[(٣)].

- وأيضًا قولُه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوضعِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ الخَلْقِ المذكورِ، والإيذانِ بأنَّه مِن أحكامِ الأُلوهيَّةِ[(٤)].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَعليلٌ وتَذييلٌ، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ أيضًا في مقامِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ الخلْقِ المذكورِ، والإيذانِ بأنَّه مِن أحكامِ الأُلوهيَّةِ؛ وليكونَ كلامًا مُستقِلًّا بذاتِه؛ لأنَّ شأْنَ التَّذييلِ أنْ يكونَ كالمَثَلِ[(٥)].

- وقدَّم ما يمشي على غيرِ آلةٍ؛ لكونِ الآيةِ سيقَتْ لبيانِ القدرةِ وتعجُّبِ السامعِ، وما يمشي بغيرِ آلةٍ أعجبُ ممَّا يمشي بآلةٍ، فلذلك كان تقديمُه ملائمًا لمقصودِ الآيةِ الشريفةِ، ثمَّ ثنَّى بالأفضلِ فأتَى بما يمشي على رجلينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

وهو الآدميُّ والطيرُ؛ لتمامِ خلقِ الإنسانِ، وكمالِ صورتِه، ولما في الطيرِ مِن عجبِ الطيرانِ الدالِّ على الخفَّةِ، معَ ما فيه مِن الكثافةِ الأرضيةِ، وثلَّث بما يمشي على أربعٍ؛ لأنَّه أحسنُ الحيوانِ البهيميِّ وأقواه، فتضمَّنتْ هذه الكلماتُ -التي هي بعضُ آيةٍ-، عدةً مِن المحاسنِ، منها: صحةُ التقسيمِ معَ مراعاةِ الترتيبِ، وائتلافُ اللفظِ معَ المعنى، وحُسنِ النَّسقِ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تَذييلٌ للدَّلائلِ والعِبَرِ السَّالفةِ، وهو نتيجةُ الاستِدلالِ؛ ولذلك خُتِمَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إنْ لم يَهتَدِ بتلك الآياتِ أهلُ الضَّلالةِ؛ فذلك لأنَّ اللهَ لم يَهْدِهم؛ لأنَّه يَهْدي مَن يشاءُ[2].

- ولم تُعطَفْ هذه الجُملةُ على ما قبْلَها، بعكْسِ قولِه السَّابقِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]؛ لأنَّ المُرادَ بالآياتِ هنا آياتُ القُرآنِ كما يَقْتضيه فِعْلُ ﴿أَنزَلْنَآ﴾. ولمَّا كان المقصودُ مِن هذا إقامةَ الحُجَّةِ دونَ الامتنانِ، لم يُقيَّدْ إنزالُ الآياتِ بأنَّه إلى المُسلمينَ كما قُيِّدَ في قولِه تعالى قبْلَه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[3] [النور: ٣٤].

- وتَكريرُ قولِه: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مِن بابِ التَّرجيعِ والشُّروعِ في مَشرعٍ آخَرَ مِن ذِكْرِ المُنافقينَ وأحوالِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((خزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٣٧١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٢).

الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُذْعِنِينَ﴾: أي: مُنقادينَ مُطيعينَ، وأصلُ (ذعن): يدُلُّ على الانقيادِ[١].

﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾: أي: شَكُّوا، وأصلُ الرَّيبِ: الشكُّ مع الخَوفِ، ومع تُهمةِ المشكوكِ فيه[٢].

﴿يَحِيفَ﴾: أي: يَظلِمَ ويَجورَ، وأصلُ (حيف): يدُلُّ على المَيلِ في الحُكمِ، والجُنوحِ إلى أحَدِ الجانِبينِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا بعضَ أحوالِ المنافقينَ: ويقولُ المُنافِقون بألسِنتِهم كَذِبًا: آمَنَّا باللهِ وبالرَّسولِ، وأطَعْنا أمْرَهما. ثمَّ تُعْرِضُ جماعةٌ منهم مِن بعدِ ما صدَرَ منهم مِن دعوى الإيمانِ والطَّاعةِ، وما أولئك بالمؤمِنينَ. وإذا دُعوا في

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

مُنازعاتِهم إلى حُكمِ اللهِ ورَسولِه، أعرَضَ فريقٌ منهم عن حُكمِ اللهِ وحُكمِ رَسولِه، وإن يكُنِ الحَقُّ في جانبِهم يأتوا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طائعينَ مُنقادينَ لحُكمِه. فهلْ إعراضُهم عن حُكمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لنفاقٍ في قلوبِهم، أمْ شَكُّوا في نبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أم يخافونَ أن يَظلِمَهم رسولُ اللهِ في الحُكمِ؟! كلَّا، ليس الأمرُ كذلك، بل هؤلاء هُمُ الظَّالِمون لأنفُسِهم بعَدَمِ التَّسليمِ بحُكمِ الشَّرعِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن ذُكِرَت دلائِلُ انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وذُكِرَ الكُفَّارُ الصُّرَحاءُ الذين لم يَهتَدوا بها في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩]، تهيَّأ المقامُ لِذِكرِ صِنفٍ آخَرَ مِن الكافرينَ الذين لم يَهتَدوا بآياتِ الله، وأظهَروا أنَّهم اهتَدوا بها[1].

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾.

أي: ويَقولُ المُنافِقونَ بألسِنتِهم كَذِبًا مِن غيرِ يقينٍ ولا إخلاصٍ: آمَنَّا باللهِ وبرَسولِه محمَّدٍ، وأطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رَسولَه[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤).

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١].

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

أي: ثُمَّ يُعرِضُ طائِفةٌ مِن المُنافِقين عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه مِن بَعدِ قَولِهم: آمَنَّا وأطَعْنا[1]!

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وليس أولئك القائِلونَ بأفواهِهم: آمَنَّا باللهِ وبالرسولِ وأطَعْنا[2] بالمُؤمِنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

قال ابن تيميَّة: (التَّولِّي ليس هو التَّكذيبَ، بل هو التولِّي عن الطَّاعةِ؛ فإنَّ النَّاسَ عليهم أن يُصَدِّقوا الرَّسولَ فيما أخبرَ، ويُطيعوه فيما أمَرَ، وضِدُّ التَّصديقِ التَّكذيبُ، وضِدُّ الطَّاعةِ التوَلِّي). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٤٢).

وقال الشنقيطي: (على قَولٍ بأنَّها نزلت في المنافِقينَ، وَجهُ كَونِ فَريقٍ منهم يتولَّونَ مع أنَّهم على مِلَّةٍ واحدةٍ، وكُلُّهم يوافِقُ على التَّولِّي: هو أنَّ بَعضَهم قد تقَعُ بيْنه وبيْن خَصمِه مُنازَعةٌ، فيَطلُبُ الخَصمُ منه التحاكُمَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيتولَّى، والباقون لا تقَعُ منهم خُصومةٌ مع أحدٍ، فلا يَظهَرُ تولِّيه مِثلَ الفَريقِ الأوَّلِ، ولو وقَعَت بيْنه وبيْن أحدٍ مُنازَعةٌ وطُلِب منه التحاكُمُ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَتَوَلَّى أيضًا كما تولَّى الفريقُ الأوَّلُ.

وقال بعضُ العُلَماءِ: الآيةُ نزلت في عُمومِ المُؤمِنينَ، سواءٌ منهم مَن كان مُؤمِنًا ظاهِرًا وباطِنًا، وهم المؤمِنونَ الصَّادِقونَ، أو كان مُؤمِنًا في الظَّاهِرِ دونَ الباطِنِ، وهم المنافِقونَ، ثمَّ أخرَجَ منهم المنافِقينَ، ووَجهُ ذلك أنَّهم ادَّعَوُا الإيمانَ كما ادَّعاه المؤمِنونَ الصَّادِقونَ، ثمَّ توَلَّوا عنه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٧٠).

(٢) قال البيضاوي: (﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى القائلين بأَسْرِهم، فيكونُ إعلامًا مِن الله تعالى بأنَّ جميعَهم وإن آمَنوا بلسانِهم لم تؤمِنْ قُلوبُهم، أو إلى الفَريقِ منهم، وسُلِب الإيمانُ =

المُخلِصينَ الثَّابِتينَ(١).

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا فضح المُنافِقين بما أخفَوه مِن تولِّيهم، قبَّح عليهم ما أظهَروه، فقال تعالى(٢):

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

= عنهم لتولِّيهم، والتَّعريفُ فيه للدَّلالةِ على أنَّهم ليسوا بالمؤمِنينَ الذين عَرَفتَهم، وهم المُخلِصونَ في الإيمانِ، والثَّابتونَ عليه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم القائلون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾: ابنُ جرير، ومكي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

قال الشوكاني: (﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ما أولئك القائلونَ هذه المقالةَ بالمؤمنينَ على الحقيقةِ، فيشملُ الحُكمُ بنفيِ الإيمانِ جميعَ القائلينَ، ويندرجُ تحتَهم مَن تولَّى اندراجًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

وقيل: المرادُ بهم: الفريقُ الذي تولَّى منهم؛ المُعرِضونَ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ تيمية، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨، ٢٦٩).

قال الشوكاني: (والكلامُ مُشتمِلٌ على حُكمَينِ: الحُكمُ الأوَّلُ على بعضِهم بالتوَلِّي، والحُكمُ الثاني على جميعِهم بعدَمِ الإيمانِ. وقيل: أراد بمَن توَلَّى: مَن توَلَّى عن قَبولِ حُكمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: أراد بذلك رُؤساءَ المنافِقين. وقيل: أراد بتولِّي هذا الفريقِ رُجوعَهم إلى الباقين). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٦).

أي: وإذا دُعِيَ هؤلاء المُنافِقونَ إلى كتابِ اللهِ وإلى رَسولِه؛ لِيَحكُمَ بينهم الرَّسولُ بحُكمِ اللهِ فيما يَختَلِفونَ فيه، إذا طائِفةٌ مِن المُنافِقينَ يُعرِضونَ عن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورَسولِه[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[النساء: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥].

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: وإنْ يكُنِ الحَقُّ للمُنافِقينَ على مَن يُخاصِمونَه، يَقبَلوا التَّحاكُمَ إلى اللهِ ورَسولِه، ويأتوا إلى الرَّسولِ طائِعينَ مُنقادينَ لحُكمِه؛ لِمُوافقتِه لأهوائِهم[2]!

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

أي: أفي قُلوبِ هؤلاء المُنافِقينَ -المُعرِضينَ عن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورَسولِه- مَرَضٌ مُلازِمٌ لهم، أخرَجَ القلبَ عن صِحَّتِه، فصاروا كالمريضِ الذي يُعرِضُ عمَّا يَنفَعُه، ويُقبِلُ على ما يضُرُّه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١). =

﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾.

أي: أمْ حدَثَ لهم شَكٌّ واضطرابٌ وتردُّدٌ وقلقٌ[1]؟

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

= قيل: المرادُ بالمَرَضِ هنا: الشكُّ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ هنا: الكُفرُ والشِّركُ. ومِمَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلفِ: الحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٧).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ: النفاقُ. ومِمَّن اختاره: الرازيُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٧).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ: عِلَّةٌ تُخرِجُ القَلبَ عن صِحَّتِه، وتمنَعُ مِن قَبولِ الحَقِّ. ومِمَّن اختار هذا القَولَ في الجملة: السمعانيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

وقال البقاعي: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نَوعُ فَسادٍ مِن أصلِ الفِطرةِ يَحمِلُهم على الضَّلالِ. ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٧).

وقال ابن عثيمين: (الذي يَظهَرُ لي -واللهُ أعلَمُ- أنَّ المرادَ به الشَّهوةُ في الإرادةِ السَّيِّئةِ؛ بدَليلِ التَّقسيمِ، سواءٌ كان كُفرًا أو نِفاقًا أو غيرَ ذلك، المُهِمُّ أنَّ المرَضَ هو الإرادةُ السَّيِّئةُ التي تَصرِفُهم عن قَبولِ الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١).

قال الماوَرْدي: (﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ أي: شكُّوا. ويَحتَمِلُ وَجهَينِ؛ أحَدُهما: في عَدلِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. الثَّاني: في نبُوَّتِه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٧).

أي: أمْ يخافون أن يَجورَ اللهُ ورَسولُه عليهم في الحُكمِ(١)؟!

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: بل هؤلاء هُمُ الظَّالِمون لأنفُسِهم بعَدَمِ الرِّضا والتَّسليمِ بحُكمِ الشَّرعِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ليس ذلك لأجْلِ أنَّه حُكمٌ شَرعيٌّ، وإنَّما ذلك لأجْلِ مُوافَقةِ أهوائِهم، فليسوا ممدوحينَ في هذه الحالِ ولو أتَوا إليه مُذعِنينَ؛ لأنَّ العبدَ حقيقةً مَن يَتَّبِعُ الحَقَّ فيما يُحِبُّ ويَكرَهُ، وفيما يَسُرُّه ويَحزُنُه، وأمَّا الذي يَتَّبِعُ الشَّرعَ عندَ موافقةِ هواه، ويَنبِذُه عندَ مخالفتِه، ويُقَدِّمُ الهوى على الشَّرعِ؛ فليس بعَبدٍ على الحقيقةِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ حظَّ المُنافقينَ مِن الإيمانِ مُجرَّدُ القَولِ دونَ الاعتقادِ(٤).

٢- القُرآنُ يُبَيِّنُ أنَّ إيمانَ القَلبِ يَستَلزِمُ العمَلَ الظَّاهِرَ بحَسَبِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، فنفَى الإيمانَ عَمَّن تولَّى عن طاعةِ الرَّسولِ، وأخبَرَ أنَّ المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى الله ورَسولِه ليَحكُمَ بيْنهم، سَمِعوا وأطاعوا؛ فبيَّن أنَّ هذا مِن لوازِمِ الإيمانِ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ واضحٌ على أنَّ الإنسانَ إذا قال: إنَّه مؤمِنٌ، وهو مُتَوَلٍّ ومُعرِضٌ؛ فهو كاذبٌ في دَعْواه، وهو إمَّا أن يكونَ ليس مؤمنًا أصلًا، وإمَّا أن يكونَ مؤمنًا لكن ناقص الإيمانِ، فإذا كان التولِّي توَلِّيًا مُطلقًا انتفَى أصلُ الإيمانِ، وإذا كان التولِّي تولِّيًا غيرَ مُطلَقٍ، بل في بعضِ الأمورِ، فإنَّها تختلِفُ؛ فبَعضُ الأمورِ إذا ترَكَها الإنسانُ وأعرَضَ عنها قد يكونُ كافِرًا، وقد يكونُ مُؤمِنًا ناقِصَ الإيمان(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ الله تعالى حكى عنهم كلِّهم أنَّهم يقولون آمنَّا، ثمَّ حكى عن فَريقٍ منهم التولِّيَ، فكيف يصِحُّ أن يقولَ في جميعِهم: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾، مع أنَّ الذي تولَّى منهم هو البَعضُ؟

الجوابُ: أنَّ قَولَه: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ راجعٌ إلى الذين تولَّوا، لا إلى الجُملةِ الأولى -على قولٍ-، وأيضًا فلو رجعَ إلى الأوَّلِ يَصِحُّ، ويكونُ معنى قَولِه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: يَرجِعُ هذا الفريقُ إلى الباقينَ منهم، فيُظهِرُ بَعضُهم لبعضٍ الرُّجوعَ عمَّا أظهَروه(٣).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فيه دَليلٌ على وجوبِ الانقيادِ لحُكمِ اللهِ ورَسولِه في كُلِّ حالٍ، وأنَّ مَن لم ينقَدْ له دَلَّ على مرَضٍ في قَلبِه، ورَيبٍ في إيمانِه؛ وأنَّه يَحرُمُ إساءةُ الظَّنِّ بأحكامِ الشَّريعةِ، وأن يُظَنَّ بها خِلافُ العَدلِ والحِكمةِ(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فيه وجوبُ الحُضورِ على مَن دُعِيَ لحُكمِ الشَّرعِ، وتَحريمُ الامتِناعِ(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ إنَّما جُعِلَ الدُّعاءُ إلى اللهِ ورسولِه كِلَيْهِما، مع أنَّهم دُعوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ حُكمَ الرَّسولِ حُكمُ اللهِ؛ لأنَّه لا يَحكُمُ إلَّا عن وَحيٍ؛ ولهذا الاعتبارِ أُفرِدَ الضَّميرُ في قَولِه: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ العائدُ إلى أقرَبِ مَذكورٍ، ولم يقُلْ: (لِيحكُمَا)(٣)، أو: لأنَّ المعنيَّ به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما بدأ بذِكرِ اللهِ؛ إعظامًا لله، واستفتاحَ كَلامٍ(٤)، ولبيانِ أنَّه المشرِّعُ للأحكامِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو المباشِرُ للحُكمِ في الحقيقةِ(٥).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أنه يجبُ على المؤمنِ إذا دعاه أحدٌ إلى حاكمٍ مِن حُكَّامِ المسلمينَ يحكمُ بالشَّرعِ أنْ يُجيبَه ويأتيَ إليه؛ وأنَّه يَلْزَمُه الانقيادُ لحُكْمِه؛ وأن يقولَ: «سمعنا وأطعنا»؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٧٢).

لأنَّ اللهَ تعالى ذَمَّ مَن أعْرَضَ وتولَّى، ومَدَحَ مَن أطاعَ وأجابَ، وشرْطُ وجوبِ الإجابةِ والانقيادِ أنْ يكونَ القاضي عالمًا عادلًا؛ لأنه وارثُ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فالتولِّي عنه حرامٌ، أمَّا إذا كان القاضي متَّبِعًا لهواهُ، جائرًا في حكْمِه، يأخُذُ الرِّشوةَ؛ فلا إثْمَ على مَنِ امتنعَ عن التحاكمِ إليه(١).

٩- مَرَضُ القُلوبِ نَوعانِ: مَرَضُ شُبهةٍ وشَكٍّ، ومَرَضُ شَهوةٍ وغَيٍّ، وكِلاهما في القُرآنِ؛ قال تعالى في مَرَضِ الشُّبهةِ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى في حَقِّ مَن دُعِيَ إلى تحكيمِ القُرآنِ والسُّنَّةِ فأبى وأعرَضَ: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠]، فهذا مَرَضُ الشُّبُهاتِ والشُّكوكِ. وأمَّا مَرَضُ الشَّهَواتِ، فقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ فهذا مَرَضُ شَهوةِ الزِّنا. واللهُ أعلَمُ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ ﴾ على القولِ بأنَّها نزَلَتْ في أحدِ المنافقينَ؛ فيكونُ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ الجمْعِ ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للقائلِ طائفةً يُساعِدونه ويُشايِعونه في تلك المقالةِ، كما يُقال: بنُو فلانٍ قَتلُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥).

فُلانًا، والقاتلُ واحدٌ منهم[١]. وقيل: ضَميرُ الجمْعِ عائدٌ إلى معْروفينَ عند السَّامعينَ، وهم المُنافِقون؛ لأنَّ ما ذُكِرَ بعدَه هو مِن أحوالِهم، وعَودُ الضَّميرِ إلى شَيءٍ غيرِ مذكورٍ كثيرٌ في القُرآنِ، على أنَّهم قد تقدَّمَ ما يُشِيرُ إليهم بطريقِ التَّعريضِ في قولِه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[٢] [النور: ٣٧].

- في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عبرَّ بالمُضارعِ؛ لإفادةِ تجدُّدِ ذلك منهم، واستِمرارِهم عليه؛ لِمَا فيه مِن تَكرُّرِ الكذِبِ ونَحوِه مِن خِصالِ النِّفاقِ[٣].

- ومَفعولُ (أَطَعْنَا) مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه ما قبْلَه، أي: أطَعْنا اللهَ والرَّسولَ؛ ففيه إيجازٌ بالحذْفِ[٤].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عُبِّر باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يُفيدُ البُعدَ؛ للإيذانِ بكونِه أمرًا مُعتَدًّا به، واجِبَ المُراعاةِ[٥].

- قولُه: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في التَّعريفِ في قولِه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم ليسوا بالمُؤمنينَ الَّذين عرَفْتَ، وهم الثَّابِتون المُستقيمون على الإيمانِ، الموصوفونَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾[٦] [الحجرات: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

- وعُبِّر باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي يفيدُ البُعدَ؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الكُفرِ والفسادِ[1]. وإذا كان قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى القائلينَ ﴿ءَامَنَّا﴾، يكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرُّتبةِ؛ إيذانًا بارتفاعِ دَرجةِ كُفْرِ الفريقِ المُتولِّي منهم، وانحطاطِ درجةِ أولئك. وإذا كان إشارةً إلى الفريقِ المُتولِّي منهم، يكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعادِ، ويُؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: كيف يَدخُلون في زُمرةِ المُؤمنينَ الَّذين يقولون: آمنَّا باللهِ وبالرَّسولِ وأطَعْنا، ثمَّ يُعرِضون، ويتَجاوزون عن الفريقِ المُؤمنينَ، ويَرغَبُون عن تلك المَقالةِ، وهذا بعيدٌ عن العاقلِ المُميِّزِ[2]؟!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ شَرْحٌ للتَّولِّي المذكورِ في الآيةِ السَّابقةِ، ومُبالَغةٌ فيه[3].

- قولُه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى مُعادِ ضَميرِ (يَقُولُونَ)، وإسنادُ فِعْلِ ﴿دُعُوٓاْ﴾ إلى جميعِهم، وإنْ كان المُعرِضون فَريقًا منهم لا جميعَهم؛ للإشارةِ إلى أنَّهم سواءٌ في التَّهيُّؤِ إلى الإعراضِ، ولكنَّهم لا يُظهِرونه إلَّا عندما تَحُلُّ بهم النَّوازلُ؛ فالمُعرِضون هم الَّذين حلَّت بهم الخُصوماتُ[4].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ وقَعَ حرْفُ (إذا) المُفاجأةِ في جوابِ (إذا) الشَّرطيَّةِ؛ لإفادةِ مُبادرتِهم بالإعراضِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٩).

دونَ تريُّثٍ؛ لأَنَّهم قد أيْقَنوا مِن قبلُ بعَدالةِ الرَّسولِ، وأيْقَنوا بأنَّ الباطِلَ في جانبِهم، فلم يَتردَّدوا في الإعراضِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقسيمِ الأمْرِ في صُدودِهم عن حُكومتِه إذا كان الحقُّ عليهم بيْن أنْ يكونوا مرضَى القلوبِ مُنافقينَ، أو مُرتابينَ في أمْرِ نبوَّتِه، أو خائفين الحَيفَ في قضائِه. والاستِفهاماتُ الثلاثةُ مُستعمَلةٌ في التَّنبيهِ على أخلاقِهم، ولفْتِ الأذهانِ إلى ما انْطَوَوا عليه، والدَّاعي إلى ذلك أنَّها أحوالٌ خَفِيَّةٌ؛ لأنَّهم كانوا يُظهِرون خِلافَها. وأتْبَعَ بعضَ الاستِفهاماتِ بعضًا بحَرفِ (أَمْ) المُنقطعةِ الَّتي هي هنا للإضرابِ الانتِقاليِّ، والانتقالُ هنا تدرُّجٌ في عَدِّ أخلاقِهم؛ فالمعنى: أنَّه إنْ سأَلَ سائلٌ عن اتِّصافِهم بخُلقٍ مِن هذه المذكوراتِ، علِمَ المسؤولُ أنَّهم مُتَّصِفون به؛ فكان الاستِفهامُ المُكرَّرُ ثلاثَ مرَّاتٍ مُستعمَلًا في التَّنبيهِ[٢].

- وقيل: إنَّ (أَمْ) هنا مُنقطِعةٌ، والتَّقديرُ: بلِ ارْتابوا، بلْ أيخافُونَ؟ وهو استِفهامُ تَوقيفٍ وتوبيخٍ؛ ليُقِرُّوا بأحدِ هذه الوُجوهِ الَّتي عليهم في الإقرارِ بها ما عليهم[٣].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ إنكارٌ واستِقباحٌ لِإعراضِهم المذكورِ، وفيه بَيانٌ لمَنشأِ إعراضِهم وصُدودِهم بعدَ استِقصاءِ عِدَّةٍ مِن القَبائحِ المُحقَّقةِ فيهم، والمُتوقَّعةِ منهم، وتَرديدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٦/ ٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٢).

المَنشئيَّةِ بيْنها؛ فمدارُ الاستِفهامِ ليس نفْسَ ما جاء بعدَ الهمزةِ و(أم) مِن الأمورِ الثَّلاثةِ -وهي وجودُ المرضِ في قُلوبِهم، وارتيابُهم، وخوفُهم مِن أنْ يَحيفَ اللهُ عليهم ورسولُه-، بلْ مدارُ الاستِفهامِ مَنشئيَّةُ هذه الأمورِ للإعراضِ؛ كأنَّه قيل: أذلِكَ -أي: إعراضُهم المذكورُ- لأنَّهم مَرْضى القُلوبِ؛ لكُفْرِهم ونِفاقِهم، ﴿أَمِ﴾ لأنَّهم ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾ في أمْرِ نُبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع ظُهورِ حقِّيَّتِها، ﴿أَمْ﴾ لأنَّهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ ثمَّ أُضرِبَ عن الكلِّ، وأُبطِلَتْ مَنشئيَّتُه، وحُكِمَ بأنَّ المَنشأَ للإعراضِ شَيءٌ آخرُ مِن شَنائعِهم، وهو كونُهم ظالِمينَ[١]. أو أبطَلَ خوفَهم حَيْفَه بقولِه: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: لا يَخافون أنْ يَحيفَ عليهم؛ لمعرفتِهم بحالِه، وإنَّما هم ظالمونَ يُريدونَ أنْ يَظلِموا مَن له الحقُّ عليهم، ويَتِمَّ لهم جُحودُه، وذلك شَيءٌ لا يَستطيعونَه في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فمِن ثَمَّةَ يأبَوْنَ المُحاكمةَ إليه[٢].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ لطيفةٌ؛ حيث أُتِيَ في جانبِ هذا الاستفهامِ ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ المرضِ في قُلوبِهم، وتأصُّلِه فيها بحيثُ لم يدخُلِ الإيمانُ في قُلوبِهم. وأُتِيَ في جانبِ هذا الاستِفهامِ ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ بالجُملةِ الفِعليَّةِ المُفيدةِ للحُدوثِ والتَّجدُّدِ، أي: حدَثَ لهم ارتيابٌ بعدَ أنِ اعتَقَدوا الإيمانَ اعتقادًا مُزلزَلًا. وجِيءَ في جانبِ هذا الاستفهامِ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ بالفِعلينِ المُضارعينِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه خَوفٌ في الحالِ مِن الحَيفِ في المُستقبلِ، يَقْتضيهِ دُخولُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩).

﴿أَن﴾ -وهي حرفُ الاستقبالِ- على فِعلِ ﴿يَحِيفَ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ كِنايةٌ عن كَونِهم يَعتقِدون أنَّه غيرُ مُنزَّلٍ مِن اللهِ، وأنْ يكونَ حُكمُ الرَّسولِ بغيرِ ما أمَرَ اللهُ؛ فهم يَطعنونَ في الحُكْمِ وفي الحاكمِ، وما ذلك إلَّا لأنَّهم لا يُؤمِنون بأنَّ شريعةَ الإسلامِ مُنزَّلةٌ مِن اللهِ، ولا يُؤمِنون بأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُرسَلٌ مِن عندِ اللهِ؛ فالكلامُ كِنايةٌ عن إنكارِهم أنْ تكونَ الشَّريعةُ إلَهيَّةً، وأنْ يكونَ الآتي بها صادِقًا فيما أتى به[2].

- قولُه: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قيل: (بل) للإضرابِ الانتقاليِّ مِنَ الاستِفهامِ التَّنبيهيِّ إلى خبَرٍ آخَرَ، ولم يُؤتَ في هذا الإضرابِ بـ (أَمْ)؛ لأنَّ (أَمْ) لا بُدَّ معها مِن معنى الاستفهامِ، وليس المُرادُ عطْفَ كونِهم ظالمينَ على الاستفهامِ المُستعمَلِ في التَّنبيهِ، بلِ المُرادُ به إفادةُ اتِّصافِهم بالظُّلمِ دونَ غيرِهم؛ لأنَّه قدِ اتَّضحَ حالُهم، فلا داعِيَ لإيرادِه بصِيغةِ استِفهامِ التَّنبيهِ. وليست (بل) هنا للإبطالِ؛ لأنَّه لا يَستقيمُ إبطالُ جميعِ الأقسامِ المُتقدِّمةِ؛ فإنَّ منها مرَضَ قُلوبِهم وهو ثابتٌ، ولا دليلَ على قصْدِ إبطالِ القِسمِ الأخيرِ خاصَّةً، ولا على إبطالِ القِسمينِ الآخَرينِ[3].

- وجُملةُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ بعدَ أنْ طنَّتْ بأُذنِه تلك الاستفهاماتُ الثَّلاثةُ، ثمَّ أُعقِبَت بحرفِ الإضرابِ (بل)، يترقَّبُ ماذا سيُرسِي عليه تحقيقَ حالِهم؛ فكان قولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ﵟٱلظَّٰلِمُونَﵞ بيانًا لِمَا يَترقبُه السَّامعُ[1].

- والقَصرُ الحاصلُ مِن تَعريفِ الجُزأينِ، ومِن ضَميرِ الفصلِ ﵟهُمُﵞ في قولِه: ﵟأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَﵞ: حَصْرٌ مُؤكِّدٌ، أي: هم الظَّالِمون، لا شَرْعُ اللهِ، ولا حُكمُ رَسولِه. وزاد اسمَ الإشارةِ تأْكيدًا للخبَرِ؛ فحصَلَ فيه أربعةُ مُؤكِّداتٍ: اثنانِ مِن صِيغَةِ الحصرِ؛ إذ ليس الحصْرُ والتَّخصيصُ إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ، والثَّالثُ: ضَميرُ الفصْلِ، والرَّابعُ: اسمُ الإشارةِ ﵟأُوْلَٰٓئِكَﵞ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٣).

الآيات (٥١-٥٤)

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: أقوى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ ومُنتهَى الطَّاقةِ، ثمَّ أُطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونِهايةِ قُوَّتِه؛ لِما بينَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ(١).

﴿حُمِّلَ﴾: أي: كُلِّفَ وأُمِرَ به، وأصلُ (حمل): يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ(٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ مُضارِعٌ مجزومٌ عَطفًا على ما قَبْلَه بحَذفِ حَرفِ العِلَّةِ؛ لأنَّه مُعتَلُّ الآخِرِ، والأصلُ (ويتَّقِهِ)، ثمَّ سُكِّنَت القافُ؛ تَخفيفًا لكَثرةِ الحَرَكاتِ على لُغةٍ للعَرَبِ في كُلِّ مُعتَلٍّ حُذِفَ آخِرُه، فيَقولونَ: لم أرْ زَيدًا، يُسقِطونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٧).

الحَرفَ للجَزمِ، ثمَّ يُسَكِّنونَ ما قَبْلَه. وقيلَ غيرُ ذلك[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾

﴿جَهْدَ﴾: منصوبٌ، وفي نَصبِه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ الأوَّل: أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ، وناصبُه (أقسَموا) مِن مَعناه لا مِن لَفظِه، والمعنى: أَقسَموا إقْسامَ اجتِهادٍ في اليَمينِ.

الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ من ضَميرِ (أقسَموا) على تأويلِ المَصْدَرِ باسْمِ الفاعِلِ، أي: جاهِدِينَ، والتَّقديرُ: وأقْسَموا باللهِ جاهِدينَ أنفُسَهم في أَيمانِهم، أي: بالغِينَ بها أقْصى الطَّاقةِ.

الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على المَفعولِ المُطلَقِ الواقِعِ بَدَلًا مِن فِعْلِه، والفِعلُ المُقَدَّرُ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ (أقسَموا)، والتَّقديرُ: أقسَموا يَجْهَدونَ أيمانَهم جَهْدًا[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما يَنبغي أنْ يكونَ عليه المؤمنونَ، فيقولُ: إنَّما المؤمِنونَ حقًّا الذين إذا دُعوا إلى التَّحاكُمِ في خُصوماتِهم إلى اللهِ ورَسولِه، أن يقولوا: سَمعًا وطاعةً، وأولئك هم الفائِزون بسَعادةِ الدَّارَينِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جزاءَ مَن أطاع الله ورسولَه، فيقولُ: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه، ويَخَفِ اللهَ تعالى، ويتَّقِ سَخَطَه وعذابَه، فيمتَثِلْ أوامِرَه، ويجتَنِبْ نواهيَه؛ فهؤلاء هم الفائِزونَ بِرِضوانِه تعالى.

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٠٥) (٨/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨ / ٢٧٧).

ثم يعودُ الحديثُ مرَّةً أخرى عن المنافقينَ، فيقولُ الله تعالى: وأقسَمَ المنافِقونَ باللهِ تعالى أغلَظَ الأيمانِ وآكَدَها: لَئِنْ أمَرْتَهم -أيُّها النبيُّ- بالخُروجِ إلى الجِهادِ لِيَخرُجُنَّ معك. قُلْ لهم: لا تَحلِفوا؛ فإنَّ أيمانَكم كاذِبةٌ، فطاعتُكم معروفةٌ؛ فهي باللِّسانِ دونَ القَلبِ، وبالقَولِ دونَ العَمَلِ، إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعمَلونَه، لا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

ثم يأمُرُ نبيَّه بإرشادِهم إلى الطاعةِ الصادقةِ، فيقولُ تعالى: قُلْ -يا أيُّها النبيُّ- لهم: أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ، فإنْ أعرَضوا فإنَّ على الرَّسولِ ما كُلِّفَ به مِن تَبليغِ الرِّسالةِ، وعليكم ما كُلِّفْتُم به مِنَ السَّمعِ والطَّاعةِ والامتِثالِ، وإن تُطيعوه تَرشُدوا إلى الحَقِّ، وليس على الرَّسولِ إلَّا التبليغُ الواضِحُ في نفْسِه، الموضِّحُ رسالةَ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى قَولَ المُنافِقين وما قالوه وما فعَلوه؛ أتبَعَه بذِكرِ ما كان يجِبُ أن يفعَلوه، وما يجِبُ أن يَسلُكَه المؤمِنون[1]، وهذا على عادتِه تعالى في إتْباعِ ذِكرِ المُحِقِّ المُبطِلَ، والتَّنبيهِ على ما يَنبغي بعْدَ إنكارِه لِما لا ينبغي[2].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى حالةَ المُعرِضينَ عن الحُكمِ الشَّرعيِّ؛ ذكَرَ حالةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢).

المؤمِنينَ الممدوحين، فقال(١):

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

أي: إنَّما يَنبغي على المؤمِنينَ الصَّادقينَ المُخلِصينَ إذا طُلِب منهم عندَ اختلافِهم التَّحاكُمُ إلى اللهِ ورَسولِه- أن يقولوا برَغبةٍ ومُبادرةٍ، وإقبالٍ دونَ مَطلٍ وتَسويفٍ وتَردُّدٍ: سَمِعْنا الدَّعوةَ، وأجَبْنا إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، ورَضِينا بحُكمِهما لنا أو علينا(٢).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك المُؤمِنونَ المُتحاكِمونَ إلى اللهِ ورَسولِه، هم المُدرِكونَ لِما يَطلبونَ، وفي الجنَّةِ هم خالِدون(٣).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٥٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَضلَ الطَّاعةِ في الحُكمِ خُصوصًا؛ ذكَرَ فَضلَها عُمومًا في جميعِ الأحوالِ، فقال(٤):

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).
قال ابن جرير: (لم يُعْنَ بـ ﴿كَانَ﴾ في هذا الموضِعِ الخبرُ عن أمرٍ قد مضَى فتقضَّى، ولكنَّه تأنيبٌ مِن اللهِ الذين أُنزِلت هذه الآيةُ بسَبَبِهم، وتأديبٌ منه آخَرينَ غيرَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فيما يأمُرانِه ويَنهيانِه، ويَخَفِ اللهَ العظيمَ خَوفًا مُقترِنًا بعِلمٍ وتَعظيمٍ، ويتَّقِ سَخَطَه وعذابَه، فيَمتَثِلْ أوامِرَه، ويَترُكْ نواهيَه- فأولئك هم الظَّافِرونَ بكُلِّ خَيرٍ، النَّاجونَ مِن كُلِّ شَرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله سُبحانَه ما رَتَّب على الطَّاعةِ الظَّاهِرةِ التي هي دَليلُ الانقيادِ الباطِنِ؛ ذكَرَ حال المنافِقينَ فيه، فقال[٢]:

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.

أي: وحلَفَ باللهِ أولئك المُنافِقونَ أغلَظَ أيمانِهم وأشَدَّها، مُبالِغينَ في تأكيدِها: لَئِنْ أمَرْتَهم -أيُّها النبيُّ- بالخروجِ إلى الجهادِ لَيَخْرُجُنَّ معك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير =

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾.

أي: قُلْ -يا أيُّها النبيُّ- لأولئك المُنافِقين: لا تَحلِفوا؛ فقد عرَفْتُ أنَّ طاعتَكم مجرَّدُ قَولٍ بلا فِعلٍ، وطاعةٌ نِفاقيَّةٌ لم تكُنْ عن اعتِقادٍ، ومعروفٌ عنكم الكَذِبُ دونَ الإخلاصِ، وقد عرَفتُ كَذِبَكم في دعواكم طاعتي إن أمَرْتُكم بالخُروجِ للجِهادِ(١).

= الشوكاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادرُ السَّابقةُ.

قال الثعلبي: (﴿لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: هذه طاعةٌ بالقَولِ واللِّسانِ دونَ الاعتِقادِ، فهي مَعروفةٌ منكم بالكَذِبِ؛ أنَّكم تكذِبونَ فيها، وهذا معنى قَولِ مجاهِدٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٤).

قال السمعاني: (وقَولُه: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحدُها: ليكُنْ مِنكم طاعةٌ مَعروفةٌ. والآخَرُ: طاعةٌ معروفةٌ أمثَلُ مِن يمينٍ بالقَولِ لا يُوافِقُها الاعتِقادُ. والثَّالِثُ: هذه طاعةٌ مَعروفةٌ منكم أن تَحلِفوا كاذِبينَ، وأن تَقولوا ما لا تَفعَلونَ، ومعناه: هذا أمرٌ مَعروفٌ منكم). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٣).

وقال ابن عثيمين: (الظاهِرُ أنَّ ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأٌ، والخبَرُ محذوفٌ، تقديرُه: (عليكم)، أي: عليكم طاعةٌ معروفةٌ، أو ﴿طَاعَةٌ﴾ خبَرٌ، والمبتدأُ محذوفٌ، أي: طاعتُكم معروفةٌ، فمعنى ذلك أنَّ الإنسانَ عليه أن يُطيعَ طاعةً معروفةً. والطَّاعةُ المعروفةُ مِن المؤمنينَ تكونُ بدونِ حَلِفٍ؛ لأنَّ الذي يحلِفُ على أن يفعلَ، كأنَّه لا يريدُ أن يفعَلَ؛ يفعَلُ لكنَّه يُلزِمُ نَفسَه، فالطَّاعةُ المعروفةُ: الانقيادُ بدونِ قَسَمٍ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤٣، ٣٤٤).

وقال البقاعي: (قَولُه: ﴿طَاعَةٌ﴾ أي: هذه الحقيقةُ ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: منكم ومِن غيرِكم، ... والمعنى: أنَّ الطاعةَ وإنِ اجتهَد العبدُ في إخفائِها لا بدَّ أن تظهَرَ مخايلُها على شمائِلِه، وكذا =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خبيرٌ بجَميعِ ما تَعمَلونَ مِن طاعةٍ أو مَعصيةٍ، ويعلَمُ ما في بواطِنِكم، وهو مُجازيكم بكُلِّ ذلك؛ فإنَّه إنْ خَفِيَ على النَّاسِ حَقيقةُ حالِكم؛ لنِفاقِكم وكَذِبِكم، فإنَّه لا يخفى على اللهِ العالِمِ بالسَّرائِرِ، المطَّلِعِ على بواطِنِ الأمورِ(١).

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بكَّت اللهُ تعالى المُنافِقين بأنَّه مُطَّلِعٌ على سَرائِرِهم؛ تلطَّفَ بهم فأمَرَهم بطاعةِ اللهِ والرَّسولِ، وهو أمرٌ عامٌّ للمُنافِقين وغَيرِهم(٢).

وأيضًا لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على خِداعِ المُنافِقين، وأشار إلى عدَمِ الاغترارِ بأيمانِهم، وإلى قَبولِ شَهادةِ التوسُّمِ فيهم؛ أمَرَ بتَرغيبِهم وترهيبِهم، مُشيرًا إلى الإعراضِ عن عُقوبَتِهم، فقال(٣):

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: قُلْ -أيُّها النبيُّ- لهؤلاء المُنافِقين: أطيعوا اللهَ باتِّباعِ كِتابِه، وأطيعوا

= المعصيةُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

قال البقاعي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الذي له الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وإنِ اجتهدتُم في إخفائِه، فهو ينصبُ عليه دلائلَ يعرفُه بها عبادُه، فالحلفُ غيرُ مُغْنٍ عن الحالفِ، والتسليمُ غيرُ ضارٍّ للمسلمِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠١، ٣٠٢).

الرَّسولَ باتِّباعِ سُنَّتِه طاعةً ظاهِرةً وباطِنةً بصِدقٍ وإخلاصٍ[١].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾.

أي: فإنْ تُعرِضوا -أيُّها المُنافِقونَ- عمَّا جاءكم به الرَّسولُ، فإنَّما عليه مسؤوليَّةُ تبليغِكم الرِّسالةَ، وأداءُ الأمانةِ، وعليكم مسؤوليةُ طاعتِه، واتِّباعُ شَريعتِه[٢].

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

أي: وإنْ تُطيعوا الرَّسولَ في أمرِه ونَهيِه، تَرشُدوا إلى الخَيرِ، وتُصيبوا الحَقَّ في جميعِ أمورِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وعن العِرباضِ بنِ ساريةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصُّبحَ ذاتَ يومٍ، ثمَّ أقبَلَ علينا، فوعَظَنا مَوعِظةً بَليغةً، ذَرَفَت[٤] منها العُيونُ، ووَجِلَت[٥] منها القُلوبُ، فقال قائِلٌ: يا رسولَ اللهِ، كأنَّ هذه مَوعِظةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠).

قال السعدي: (وإنْ ﴿تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ مِن الرِّسالةِ، وقد أدَّاها. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ مِن الطاعةِ، وقد بانت حالُكم وظهَرت، فبان ضلالُكم وغَيُّكم، واستحقاقُكم العذابَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٢).

(٤) ذَرَفَت: أي: دَمَعَت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٥١).

(٥) وَجِلَت: أي: خافَت، والوَجَلُ: خَوفٌ مع الحَذَرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٥١).

مُوَدِّعٍ! فماذا تعهَدُ إلينا؟ فقال: أُوصيكم بتَقوى اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعةِ وإن كان عبدًا حَبَشيًّا؛ فإنَّه مَن يَعِشْ منكم بعدي فسَيَرى اختِلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهديِّينَ، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ[١]، وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحدَثةٍ بِدعةٌ، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ))[٢].

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

أي: ولا يَجِبُ على الرَّسولِ إلَّا التَّبليغُ الظَّاهِرُ الواضِحُ في نفْسِه، الموضِّحُ لكم رسالةَ اللهِ، بحيثُ لا يبقَى لدى أحَدٍ شَكٌّ ولا شُبهةٌ، وقد أدَّى ذلك، وقام بوظيفتِه، وبَقِيَ عليكم ما حُمِّلْتُم، وليس هو مَن كَلَّفكم، وليس عليه هدايتُكم ولا حِسابُكم، فطاعتُه يعودُ نَفعُها إليكم، ومَعصيتُه يعودُ وبالُها عليكم[٣].

---

(١) عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ: أي: تمسَّكوا بها كما يتمَسَّكُ العاضُّ بجَميعِ أضراسِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٥).
صحَّحه الترمذيُّ (٢٦٧٦)، والحاكم (١/ ١٧٦)، ووافقه الذهبي، وصحَّحه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (٢/ ١١٦٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).
قال الشوكاني: (اللامُ: إمَّا للعهد، فيُرادُ بالرَّسولِ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وإمَّا للجِنسِ، فيُرادُ كُلُّ رَسولٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).
وقال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلْمُبِينُ﴾ تَصِحُّ بمعنى البَيِّنِ، وتَصِحُّ بمعنى المُبَيِّنِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).
ممَّن اختار أنَّها بمعنى البَيِّنِ الواضِحِ الظَّاهِرِ: مكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٥٤)، =

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هذه الآيةُ -على إيجازِها- حاويةٌ لكُلِّ ما ينبغي للمُؤمِنينَ أن يفعَلوه[(١)].

٢- قال أبو عثمانَ سعيدُ بنُ إسماعيلَ: (مَن أمَّرَ السنَّةَ على نفْسِه قَولًا وفِعلًا، نطقَ بالحِكمةِ، ومَن أمَّرَ الهوى على نفْسِه قَولًا وفِعلًا، نطَقَ بالبدعةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾)[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنَّ المبلِّغِينَ لشريعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يجبُ عليهم أن يُبيِّنوها للنَّاسِ على أتمِّ الوُجوهِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يَحرُمُ الإفتاءُ والحُكْمُ في دينِ اللهِ بما يخالِفُ النصوصَ؛ ويَسقطُ الاجتهادُ

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وممَّن اختار أنَّها بمعنى الموضِّحِ المُظهِرِ: البيضاويُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).

وممَّن جمع بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠).

والتقليدُ عندَ ظهورِ النصِّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(١) [الحجرات: ١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حصَرَ الفلاحَ فيهم؛ لأنَّ الفلاحَ: الفَوزُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ مِن المكروهِ، ولا يُفلِحُ إلَّا مَن حكَّمَ اللهَ ورَسولَه، وأطاع اللهَ ورَسولَه(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ ميَّزَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بيْن حَقِّه وحَقِّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ؛ فالطاعةُ لله والرَّسولِ، والخَشيةُ للهِ وحْدَه، والتَّقوى للهِ وحْدَه، لا يُخْشَى مخلوقٌ، ولا يُتَّقَى مخلوقٌ؛ لا مَلَكٌ ولا نبيٌّ ولا غيرُهما(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فجمَعَ اللهُ في هذه الآيةِ أسبابَ الفوزِ؛ فالفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ جَزائيَّةٌ، مُؤذِنةٌ بأنَّ ما بعْدَها مُسبَّبةٌ عمَّا قبْلَها ممَّا تضمَّنَه الشَّرطُ مِن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه؛ فخَشيةُ اللهِ على ما مَضى، إنْ فرَطَ منه تَقصيرٌ فيَتداركُه، وتَقْوى اللهِ فيما يُستقبَلُ مِن ترْكِ ما يجِبُ عليه أنْ يذَرَهُ، والإتيانِ بما يجِبُ عليه إتيانُه، فعَمَّ الأوقاتَ بأسْرِها، والأفعالَ بأجمَعِها، مِن فِعلِ ما يَنْبغي، وترْكِ ما لا يَنْبغي؛ ولذلك قِيل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أي: الكامِلونَ في الفوزِ بمَباغِيهم ومَطالبِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٨)، =

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ إشارةٌ إلى النَّهيِ عن النَّذرِ[١]، فهذا القَسَمُ نذرٌ؛ لأنَّ القَسَمَ إذا تضمَّن إلزامًا مِن الإنسانِ لله صار جامعًا بينَ القَسَمِ والنَّذرِ، فنهَى الله عن ذلك بقولِه: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وجوبُ تقييدِ الطاعةِ بالمعروفِ، يعني أنْ تكونَ طاعةً بالمعروفِ، والمرادُ بالمعروفِ هنا المعروفُ مِن الشرعِ، وليست المعروفة بيْن الناسِ؛ لأنَّ الناسَ قد يَعرفون شيئًا يظنُّونه طاعةً وليس بطاعةٍ[٣]! وذلك على أحدِ الأقوالِ في معنى الآيةِ.

٧- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ إعادةُ العاملِ (أطيعُوا) تدُلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم طاعةٌ مُستقِلَّةٌ؛ وأنَّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم فكما جاء به عنِ اللهِ؛ ولهذا قال العلماءُ: (إنَّ ما وَجَبَ في سُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كالذي وَجَبَ في القُرآنِ مِن أمرٍ ونهيٍ)، وهذا واضِحٌ؛ لأنَّه جعَلَ طاعةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طاعةً مُستقِلَّةً؛ حيث قال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[٤].

٨- إردافُ التَّرهيبِ الذي تضَمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ بالتَّرغيبِ في الطَّاعةِ الذي تضَمَّنَه قَولُه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ فيه استِقصاءٌ في الدَّعوةِ إلى الرُّشدِ[٥].

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما جاءت به السُّنَّةُ فهو حُكمٌ مُستَقِلٌّ يجبُ أن يُطاعَ ويُتَّبَعَ، كما جاء في القرآنِ؛ ولهذا قال: ﴿تَهۡتَدُواْ﴾، فالهِدايةُ مطلوبةٌ؛ فإذا أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأمرٍ، فلا يجوزُ لنا أن نقولَ: هل لهذا أصلٌ في القُرآنِ أو لا؟ إن كان له أصلٌ قَبِلْناه، وإن لم يكُنْ له أصلٌ لم نَقبَلْه! لأنَّ هذا حرامٌ، وهو كُفرٌ بالقُرآنِ نفْسِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾؛ فدَلَّ هذا على أنَّ كُلَّ ما جاء به فهو حَقٌّ وهِدايةٌ، ليس فيه باطِلٌ وضَلالٌ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن الَّذين يُعرِضون عندَما يُدْعَون إلى الحُكومةِ بأنَّهم ليسوا بالمُؤمِنينَ في حينِ أنَّهم يُظهِرونَ الإيمانَ، يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن الفاصلِ الَّذي يُميِّزُ بينَ المُؤمِنِ الحقِّ وبيْنَ الَّذي يُرائي بإيمانِه في حين يُدْعَى إلى الحُكومةِ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيَقْتضي أنْ يُبيَّنَ للسَّائلِ الفرْقُ بين الحالينِ؛ لئلَّا يلْتبِسَ عنده الإيمانُ المُزوَّرُ بالإيمانِ الصَّادقِ، فقد كان المُنافِقون يُموِّهون بأنَّ إعراضَ مَن أعرَضَ منهم عن التَّحاكُمِ عندَ رسولِ اللهِ ليس لِتَزلْزُلٍ في إيمانِه بصِدْقِ الرَّسولِ، ولكنَّه إعراضٌ لمُراعاةِ أعراضٍ مِن العلائقِ الدُّنيويَّةِ؛ فبيَّنَ اللهُ بُطلانَ ذلك بأنَّ المُؤمِنَ لا يَرتابُ في عدْلِ الرَّسولِ، وعدَمِ مُصانعَتِه. وقد أفاد هذا الاستِئنافُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٠).

أيضًا الثَّناءَ على المُؤمنينَ الأحِقَّاءِ بضِدِّ ما كان ذمًّا للمُنافقينَ[١].

- وجِيءَ بصِيغَةِ الحصرِ ﴿إِنَّمَا﴾؛ لدفْعِ أنْ يكونَ مُخالِفُ هذه الحالةِ في شَيءٍ مِن الإيمانِ، وإنْ قال بلسانِه: إنَّه مُؤمِنٌ، فهذا القصرُ إضافيٌّ[٢]، أي: هذا قولُ المُؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم. وليس قصْرًا حَقيقيًّا؛ لأنَّ أقوالَ المُؤمنينَ حين يُدْعَون إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِيَحكُمَ بيْنهم غيرُ مُنحصرةٍ في قولِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ولا في مُرادِفِه؛ فلعلَّ منهم مَن يَزِيدُ على ذلك؛ فليس المُرادُ بقولِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ خُصوصَ هذين اللَّفظينِ، بلِ المُرادُ لفْظُهما أو مُرادِفُهما؛ للتَّسامُحِ في مفعولِ فِعلِ القولِ ألَّا يُحْكى بلَفظِه. وإنَّما خُصَّ هذانِ اللَّفظانِ بالذِّكْرِ هنا؛ مِن أجْلِ أنَّهما كَلمةٌ مَشهورةٌ تُقال في مثْلِ هذه الحالةِ، وهي ممَّا جَرى مَجْرى المثَلِ، كما يُقال أيضًا: (سمْعٌ وطاعةٌ)، و(سمْعًا وطاعةً). والقصرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) هنا قصْرُ إفرادٍ لأحدِ نوعَيِ القولِ؛ فالمقصودُ منه الثَّناءُ على المُؤمنينَ برُسوخِ إيمانِهم، وثَباتِ طاعتِهم في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ. وفيه تَعريضٌ بالمنافقينَ؛ إذ يقولونَ كَلمةَ الطَّاعةِ ثمَّ يَنقُضونها بضِدِّها مِن كلماتِ الإعراضِ والارتيابِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ جِيءَ في وَصْفِ المُؤمنينَ بالفلاحِ بمِثْلِ التَّركيبِ الَّذي وُصِفَ به المُنافِقون بالظُّلمِ، بصِيغةِ القصرِ المُؤكَّدِ؛ ليكونَ الثَّناءُ على المُؤمنينَ ضِدًّا لِمَذمَّةِ المُنافِقين تامًّا[٤].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ رُتبتِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٥).

وبُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ استئنافٌ؛ جِيءَ به لتَقريرِ مَضمونِ ما قبْلَه مِن حُسنِ حالِ المُؤمنينَ، وتَرغيبِ مَن عَداهم في الانتظامِ في سِلْكِهم[(٢)].

وقِيل: الواوُ في ﴿وَمَن يُطِعِ...﴾ اعتراضيَّةٌ، أو عاطفةٌ على جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، والتَّقديرُ: وهُمُ الفائِزون؛ فجاء نظْمُ الكلامِ على هذا الإطنابِ؛ ليَحصُلَ تَعميمُ الحُكْمِ والمحكومِ عليه. ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ تَذييلٍ؛ لأنَّها تعُمُّ ما ذُكِرَ قبْلَها مِن قولِ المُؤمنينَ: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [النور: ٥١]، وتَشملُ غيرَه مِن الطَّاعاتِ بالقولِ أو بالفِعْلِ[(٣)].

- وصِيغةُ الحصرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾؛ للتَّعريضِ بالَّذين أعْرَضوا إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه، وهي على وزْنِ صِيغةِ القصْرِ الَّتي تقدَّمَتْها[(٤)]. وقيل: هي تَعريضٌ بالمُؤمنينَ الَّذين إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليَحكُمَ بيْنهم أن يَقولوا: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾، وبالمُنافقين الَّذين يَقولونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخرِ الآياتِ؛ بأنَّ الأوَّلينَ هم الفائِزونَ بمَباغِيهم، والآخَرينَ هم الدَّامِرونَ الخاسِرونَ؛ فالآيةُ مِن الجوامعِ[(٥)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٨).

مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ﴾ ضَميرُ (أَقْسَمُوا) عائدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ [النور: ٤٧]، والتَّعبيرُ بفِعْلِ المُضِيِّ هنا؛ لأنَّ ذلك شَيءٌ وقَعَ وانْقَضى[1].

- وجُملةُ: ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ﴾ بَيانٌ لجُملةِ: (أَقْسَمُوا)، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿لَيَخۡرُجُنَّ﴾، والتَّقديرُ: لئنْ أمَرْتَهم بالخُروجِ لَيخرُجُنَّ[2].

- أيضًا في قولِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ﴾ على القولِ بأنَّهم ذَكَروا خُروجينِ؛ فيكونُ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ حيث حُذِفَ مُتعلَّقُ الخُروجِ؛ لِيَشمَلَ ما يُطلَقُ عليه لفْظُ الخُروجِ[3].

- وفي قولِه: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّه أبلَغُ في تَبكيتِهم[4].

- وقولُه: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هذا كَلامٌ مُوَجَّهٌ؛ لأنَّ نَهْيَهم عن أنْ يُقْسِموا بعْدَ أنْ صدَرَ القَسَمُ يَحتمِلُ أنْ يكونَ نهْيًا عن إعادتِه؛ لأنَّهم كانوا بصدَدِ إعادتِه، بمعنى: لا حاجةَ بكم إلى تأكيدِ القسَمِ، أي: فإنَّ التَّأكيدَ بمَنزلةِ المُؤكَّدِ في كَونِه كذِبًا. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٤).

النَّهيُ مُستعمَلًا في معنى عدَمِ المُطالَبةِ بالقسَمِ، أي: ما كان لكم أنْ تُقسِموا؛ إذ لا حاجةَ إلى القسَمِ؛ لعدَمِ الشَّكِّ في أمْرِكم. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ النَّهيُ مُستعمَلًا في التَّسويةِ، مِثْلُ ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الطور: ١٦]. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ النَّهيُ مُستعمَلًا في حقيقتِه، والمُقسَمُ عليه مَحذوفٌ، أي: لا تُقسِموا على الخُروجِ مِن ديارِكم وأموالِكم؛ فإنَّ اللهَ لا يُكلِّفُكم بذلك. ومَقامُ مُواجهةِ نِفاقِهم يَقْتضي أنْ تكونَ هذه الاحتمالاتُ مَقصودةً(١).

- وقولُه: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ كَلامٌ أُرْسِلَ مَثَلًا، وتحْتَه مَعانٍ جمَّةٌ تَختلِفُ باختلافِ الاحتمالاتِ المُتقدِّمةِ في قولِه: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْ﴾؛ فعلى احتمالِ أنْ يكونَ النَّهيُ عن القسَمِ مُستعمَلًا في النَّهيِ عن تَكريرِه، يكونُ المعنى مِن قَبيلِ التَّهكُّمِ، أي: لا حُرمةَ للقسَمِ، فلا تُعيدُوه؛ فطاعَتُكم مَعروفةٌ، أي: مَعروفٌ وَهَنُها وانتفاؤُها. وعلى احتمالِ استِعمالِ النَّهيِ في عدَمِ المُطالَبةِ باليمينِ، يكونُ المعنى: لماذا تُقْسِمون؟ أفَأَنا أَشُكُّ في حالِكم؟! فإنَّ طاعتكم مَعروفةٌ عندي، أي: أعرِفُ عدَمَ وُقوعِها، والكلامُ تهكُّمٌ أيضًا. وعلى احتمالِ استعمالِ النَّهيِ في التَّسويةِ؛ فالمعنى: قسَمُكم ونفْيُه سواءٌ؛ لأنَّ أيمانَكم فاجرةٌ، وطاعتكم مَعروفةٌ. وإنْ كان النَّهيُ مُستعمَلًا في حقيقتِه؛ فالمعنى: لا تُقْسِموا هذا القسَمَ، أي: على الخُروجِ مِن ديارِكم وأموالِكم؛ لأنَّ اللهَ لا يُكلِّفُكم الطَّاعةَ إلَّا في معروفٍ(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ تَعليلٌ للنَّهيِ، أي: لا تُقسِمُوا على ما تدَّعُون مِن الطَّاعةِ؛ لأنَّ طاعتكم طاعةٌ نِفاقيَّةٌ واقعةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨، ٢٧٩).

باللِّسانِ فقَطْ مِن غيرِ مُواطأةٍ مِن القلبِ، وإنَّما عبَّر عنها بـ﴿مَّعۡرُوفَةٌ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كونَها كذلك مَشهورٌ مَعروفٌ لكلِّ أحدٍ(١).

- وتَنكيرُ ﴿طَاعَةٞ﴾؛ لأنَّ المقصودَ به نوعُ الطَّاعةِ، وليست طاعةً مُعيَّنةً، فهو مِن بابِ: تمْرةٌ خيرٌ مِن جَرادةٍ(٢).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ وتَعليلٌ لِما قبْلَها(٣)؛ فالجُملةُ تَعليلٌ للحُكمِ بأنَّ طاعتَهم طاعةٌ نِفاقيَّةٌ، مُشعِرٌ بأنَّ مَدارَ شُهرةِ أمْرِها فيما بيْن المُؤمنين إخبارُه تعالى بذلك، ووَعيدٌ لهم بأنَّه تعالى مُجازيهم بجميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ الَّتي منْها نِفاقُهم(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيه تَكرارُ الأمرِ بالقولِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ به، والإشعارِ باختلافِهما؛ مِن حيثُ إنَّ المَقولَ في الأوَّلِ نهْيٌ بطريقِ الرَّدِّ والتَّقريعِ، وفي الثَّاني أمْرٌ بطَريقِ التَّكليفِ والتَّشريعِ. وإطلاقُ الطَّاعةِ المأمورِ بها عن وصْفِ الصِّحَّةِ والإخلاصِ ونحوِهما بعْدَ وصْفِ طاعتِهم بما ذُكِرَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّها ليست مِن الطَّاعةِ في شَيءٍ أصْلًا(٥).

- قولُه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ...﴾ أمْرٌ بتَبليغِ ما خاطَبَهم اللهُ به على الحكايةِ؛ مُبالَغةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٠).

في تَبكيتِهم[١].

- قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ خِطابٌ للمأمورينَ بالطَّاعةِ مِن جِهَتِه تعالى، واردٌ لتأكيدِ الأمْرِ بها، والمُبالَغةِ في إيجابِ الامتثالِ به، والحمْلِ عليه بالتَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ لِمَا أنَّ تَغييرَ الكلامِ المَسوقِ لمَعنًى مِن المعاني، وصَرْفَه عن سَنَنِه المَسلوكِ يُنبِئُ عن اهتمامٍ جديدٍ بشأْنِه مِن المُتكلِّمِ، ويَستجلِبُ مَزيدَ رغْبةٍ فيه مِن السَّامعِ، لا سيَّما إذا كان ذلك بتَغييرِ الخِطابِ بالواسطةِ إلى الخِطابِ بالذَّاتِ؛ فإنَّ في خِطابِه تعالى إيَّاهم بالذَّاتِ بعْدَ أمْرِه تعالى إيَّاهم بواسطَتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَصدِّيَه لبَيانِ حُكْمِ الامتثالِ بالأمْرِ والتولِّي عنه إجمْالًا وتَفصيلًا؛ مِن إفادةِ ما ذُكِرَ مِن التَّأكيدِ والمُبالَغةِ ما لا غايةَ وراءَه. والفاءُ لترتيبِ ما بعْدَها على تَبليغِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للمأمورِ به إليهم، وعدَمُ التَّصريحِ به؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِ مُسارَعتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تبْليغِ ما أُمِرَ به، وعدَمِ الحاجةِ إلى الذِّكْرِ[٢].

- ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تَفريعًا على فِعْلِ ﴿أَطِيعُواْ﴾؛ فيكونَ فِعلُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ مِن جُملةِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه لهم، ويكونَ فِعلًا مضارِعًا بتاءِ الخِطابِ، وحُذِفَت تاءُ الخِطابِ للتَّخفيفِ، وهو حذْفٌ كثيرٌ في الاستعمالِ، والكلامُ تَبْليغٌ عن اللهِ تعالى إليهم؛ فيكونَ ضَميرَا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ عائدَينِ إلى الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَفريعًا على فِعْلِ ﴿قُلْ﴾، أي: فإذا قلْتَ ذلك، فتولَّوا ولم يُطِيعوا...

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩، ١٩٠).

إلخ؛ فيكونَ فِعلُ ﴿تَوَلَّوْا﴾ ماضِيًا بتاءٍ واحدةٍ، مُواجَهًا به النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فإنْ تولَّوا ولم يُطِيعوا، فإنَّما عليك ما حُمِّلْتَ مِن التَّبليغِ، وعليهم ما حُمِّلوا مِن تَبِعَةِ التَّكليفِ؛ فيكونَ في ضمائرِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ الْتِفاتٌ. وأصْلُ الكلامِ: فإنَّما عليك ما حُمِّلْتَ، وعليهم ما حُمِّلوا. والالتفاتُ مُحسِّنٌ لا يَحتاجُ إلى نُكتةٍ. وبهذَينِ الوجهينِ تكونُ الآيةُ مُفيدةً معنيينِ: معنًى مِن تعلُّقِ خِطابِ اللهِ تعالى بهم، وهو تَعريضٌ بتَهديدٍ ووَعيدٍ، ومعنًى مِن موعظةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم، ومُوادعةٍ لهم. وهذا كلُّه تَبكيتٌ لهم؛ لِيَعْلَموا أنَّهم لا يضُرُّون بتولِّيهم إلَّا أنفُسَهم(١)؛ ففي قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا ...﴾ صَرْفُ الكلامِ عن الغَيبةِ في (أَقْسَمُوا) إلى الخِطابِ على طريقةِ الالتفاتِ، وهو أبلَغُ في تَبكيتِهم(٢).

- قولُه: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، أي: ما أُمِرْتُم بهِ مِنَ الطَّاعةِ، ولعلَّ التَّعبيرَ عنه بالتَّحميلِ؛ للإشعارِ بثِقَلِه، وكَونِه مُؤنةً باقيةً في عُهْدتِهم بعْدُ. وقولُه تعالى: ﴿مَا حُمِّلَ﴾ مَحمولٌ على المُشاكَلةِ(٣).

- وتأخيرُ قولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ عن بَيانِ حُكْمِ التَّولِّي في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ لِمَا في تَقديمِ التَّرهيبِ مِن تأْكيدِ التَّرغيبِ وتَقريبِه ممَّا هو مِن بابِه مِن الوعْدِ الكريمِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مِن أنَّ غائلةَ التَّولِّي وفائدةَ الإطاعةِ مَقصورتانِ عليهم[1]. وقيل: جُملةُ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ بَيانٌ لإبهامِ قولِه: ﴿مَا حُمِّلَ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

الآيات (٥٥-٥٧)

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: أي: ليجعَلَنَّهم خُلَفاءَ، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الغَيرِ، يُقالُ: خلَفَ فلانٌ فلانًا: إذا قام بالأمرِ عنه؛ إمَّا معه وإمَّا بَعْدَه، وأصلُه: يدُلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه[١].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾: أي: لَيُثَبِّتَنَّ، وليوطِّنَنَّ، والتَّمكينُ هنا: التَّثبيتُ والتَّقريرُ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى وعْدَه الذي لا يتخلَّفُ لعبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: وعَدَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بميراثِ الأرضِ وخِلافتِها، كما استخلفَ المؤمِنينَ مِن قَبْلِهم، وأن يجعَلَ دينَهم الذي ارتَضاه لهم -وهو الإسلامُ- دينًا مَكينًا عزيزًا، فيَظهَرَ على غيرِه مِن الأديانِ، وأن يغَيِّرَ حالَهم مِن الخَوفِ إلى الأمنِ، يوحِّدونَ الله ويُخلِصونَ له العبادةَ، ولا يَعبُدونَ إلهًا غيرَه سُبحانَه. ومَن كفَرَ بعْدَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

الاستِخلافِ والأمنِ والتَّمكينِ، فأولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ -سُبحانه وتعالى- بعدَ ذلك أهَمَّ أركانِ عبادتِه، فقال: وأقيموا الصَّلاةَ، وأدُّوا الزَّكاةَ على الوَجهِ التَّامِّ، وأطيعوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ رجاءَ رَحمةِ اللهِ.

ثم يقولُ تعالى مثبِّتًا للمؤمنينَ، ومهوِّنًا مِن شأنِ أعدائِهم: ولا تظُنَّنَّ -أيُّها النبيُّ- الذين كفَروا مُعجِزينَ لله في الأرضِ، بل هو قادِرٌ عليهم، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إلى نارِ جهنَّمَ، وقبُحَ هذا المرجِعُ والمآلُ الذي يصيرونَ إليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (٥٥) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ الانتِقالِ إلى هذا الكَلامِ التعَرُّضُ إلى أحوالِ المُنافِقينَ الذين أبقاهم على النِّفاقِ تردُّدُهم في عاقبةِ أمرِ المُسلِمينَ، وخَشيتُهم ألَّا يَستَقِرَّ بالمُسلِمينَ المُقامُ بالمدينةِ حتى يَغزُوَهم المُشرِكونَ، أو يُخرِجَهم المنافِقونَ حين يَجِدونَ الفُرصةَ لذلك، مع ما لهذا الكَلامِ مِن المناسَبةِ مع قَولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، فيكونُ المعنى: وإنْ تُطيعوه تَهتَدوا وتُنصَروا وتَأمَنوا[١].

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا مِن هذه الأمَّةِ وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ وَعدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

جازِمًا مؤكِّدًا أنَّه سيُورِثُهم الأرضَ، فيَجعَلُهم خُلَفاءَ فيها، مُسيطرينَ عليها، متصرِّفينَ في أمورِها، والقيامِ بتَدبيرِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٣).

و(مِن) في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ قيل: للتَّبعيضِ، أو للتَّبيينِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٨٨).

قال النسفي: (﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ولِمَن معه، ﴿مِنكُمْ﴾ للبَيانِ، وقيل: المرادُ به المهاجِرونَ، و«مِن» للتَّبعيضِ). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكرُه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللَّهِ ورسولِه ﴿مِنكُمْ﴾ أيُّها النَّاسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦).

وقال الشوكاني: (وهو وَعدٌ يَعُمُّ جميعَ الأُمَّةِ. وقيل: هو خاصٌّ بالصَّحابةِ، ولا وَجْهَ لذلك؛ فإنَّ الإيمانَ وعَمَلَ الصَّالحاتِ لا يختَصُّ بهم، بل يُمكِنُ وُقوعُ ذلك مِن كُلِّ واحدٍ مِن هذه الأمَّةِ، ومَن عَمِلَ بكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه فقد أطاع اللهَ ورَسولَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: لَيُورِثَنَّهم اللهُ أرضَ المشركين مِن العرَبِ والعَجَمِ، فيجعَلُهم ملوكَها وساسَتَها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريدُ في البلادِ التي تجاوِرُهم، والأصقاعِ التي قضى بامتدادِهم إليها. واستخلافُهم هو أن يُملِّكَهم البلادَ ويجعَلَهم أهلَها، كما جرى في الشَّامِ وفي العراقِ وخُراسانَ والمغربِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٢).

وقال ابن عثيمين: (كَلِمةُ ﴿الْأَرْضِ﴾ المرادُ بها الجِنسُ، ليست أرضًا واحِدةً مُعَيَّنةً، بل أرضٌ عامَّةٌ، أي: الأرضُ كُلُّها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٤).

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زوى[١] لي الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطيتُ الكَنزَينِ: الأحمَرَ والأبيضَ، وإنِّي سألتُ رَبِّي لأمَّتي ألَّا يُهلِكَها بسَنَةٍ عامَّةٍ، وألَّا يُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، فيَستبيحَ بَيضَتَهم[٢]، وإنَّ رَبِّي قال: يا مُحمَّدُ، إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيتُك لأمَّتِك ألَّا أُهلِكَهم بسَنَةٍ عامَّةٍ[٣]، وألاَّ أُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم يَستبيحُ بَيضَتَهم، ولوِ اجتَمَع عليهم مَن بأقطارِها، حتى يكونَ بَعضُهم يُهلِكُ بَعضًا، ويَسبِي بعضُهم بعضًا))[٤].

﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: كما ملَّك اللهُ الأرضَ لآخَرينَ مِن قَبْلِ هذه الأُمَّةِ[٥].

---

(١) زَوَى: أي: جَمَعَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٢) بَيضَتَهم: أي: جَماعتَهم، ومَوضِعَ سُلطانِهم، ومُستَقَرَّ دَعوتِهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٧٢).

(٣) بسَنةٍ عامَّةٍ: أي: بقَحْطٍ يَعُمُّهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٤).

(٤) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

مِمَّن اختار أنَّ المرادَ: بنو إسرائيل: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وأبو حيان، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٤٢)، ((الوجيز)) =

كما قال تعالى حاكيًا قولَ موسى لِقَومِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وقال عزَّ وجلَّ عن فِرعَونَ وقَومِه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩].

وقال الله عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ولَيُثبِّتَنَّ اللهُ للمُؤمِنينَ دينَ الإسلامِ الذي اختارَه لهم، فيَظهَرُ على غيرِه

= للواحدي (ص: ٧٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الأُممُ المؤمنةُ برُسلِها؛ بنو إسرائيلَ وغيرُهم، وداودُ وسُلَيمانَ وغيرُهما مِنَ الأنبياءِ والمؤمنينَ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، والسمرقندي، والرازي، والخازن، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (١/ ٤٥٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٣).

وقال الشوكاني: (وظاهِرُ قَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كُلُّ مَنِ استَخلَفَهُ اللهُ في أرضِه، فلا يُخَصُّ ذلك ببَني إسرائيلَ ولا أُمَّةٍ مِن الأمَمِ دُونَ غيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).
وقال ابن عاشور: (يعني: الأمَمَ التي حكَمَت معظَمَ العالَمِ وأخافت جميعَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

مِن الأديانِ، وينتَشِرُ ويتمَكَّنُ أتباعُه مِن إقامةِ شَرائِعِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وعن تَميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ[2] إلاَّ أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ. وكان تميمٌ الدَّاريُّ يقول: قد عرَفتُ ذلك في أهلِ بيتي؛ لقد أصابَ مَن أسلَمَ منهم الخيرُ والشَّرَفُ والعِزُّ، ولقد أصابَ مَن كان منهم كافِرًا الذُّلُّ والصَّغارُ والجِزيةُ))[3].

وعن المِقدادِ بنِ الأسوَدِ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

(٢) بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمْعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبِلِ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللفظ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).

صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ الشيخين. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصحيح). وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ، وله شاهِدٌ على شَرطِ مُسلمٍ أيضًا).

عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَبقى على ظَهرِ الأرضِ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدخلَه اللهُ كَلِمةَ الإسلامِ، بعِزِّ عزيزٍ أو ذُلِّ ذليلٍ؛ إمَّا يُعِزُّهم اللهُ فيَجعَلُهم مِن أهلِها، أو يُذِلُّهم فيَدينون لها))(١).

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾.

أي: وليُغَيِّرَنَّ اللهُ حالَ المؤمِنينَ مِن الخَوفِ مِن أعدائِهم إلى الأمنِ التَّامِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وعن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَونا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو متوَسِّدٌ بُردةً(٣) له في ظِلِّ الكعبةِ، فقُلْنا: ألا تَستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان مَن قَبْلَكم يُؤخَذُ الرَّجُلُ فيُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُجعَلُ نِصفَينِ، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحمِه وعَظمِه، فما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرموتَ لا يخافُ إلَّا اللهَ، والذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستعجِلون))(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨١٤)، وابن حبان (٦٧٠١)، والطبراني (٢٠/ ٢٥٥) (٦٠١).

صحَّحه الحاكمُ على شرط الشيخينِ في ((المستدرك)) (٤/ ٤٧٦)، وحَسَّنه ابن عساكر في ((معجم الشيوخ)) (٢/ ٨٠٦)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصحيحِ). وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٣) مُتَوَسِّدٌ بُردةً: أي: كِساءً مُخطَّطًا، والمعنى، جاعِلٌ البُردةَ وِسادةً له؛ مِن توسَّدَ الشَّيءَ: إذا جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

(٤) رواه البخاري (٦٩٤٣).

وعن عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بينا أنا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ أتاه رجُلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثمَّ أتاه آخَرُ فشكا إليه قطْعَ السَّبيلِ، فقال: يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ[١]؟ قلتُ: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها، قال: فإنْ طالت بك حياةٌ لتَرَينَّ الظَّعينةَ[٢] ترتحِلُ مِن الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحدًا إلاَّ اللهَ -قُلتُ فيما بيْني وبيْن نفْسي: فأينَ دُعَّارُ[٣] طَيِّئٍ الذين قد سَعَّروا[٤] البلادَ؟!- ولئن طالت بك حياةٌ لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كِسرى، قلتُ: كسرى بنِ هُرمزَ؟! قال: كِسرى بنِ هُرْمُزَ، ولئن طالت بك حياةٌ لتَرَينَّ الرجُلَ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّه مِن ذَهبٍ أو فِضَّةٍ يَطلُبُ مَن يَقبَلُه منه فلا يجِدُ أحدًا يقبَلُه منه... قال عَدِيٌّ: فرأيتُ الظَّعينةَ ترتحِلُ مِن الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلَّا اللهَ، وكنتُ فيمَنِ افتتَحَ كُنوزَ كِسرى بنِ هُرْمُزَ، ولئن طالت بكم حياةٌ لتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّه))[٥].

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

أي: يَعبُدُني المؤمِنونَ بإخلاصٍ آمِنينَ، ويَخضَعونَ ويتذَلَّلونَ لي بالطَّاعةِ، لا يُشرِكونَ بي شيئًا في عِبادتي[٦].

---

(١) الحِيرةُ: مَدينةٌ كانت على ثلاثةِ أميالٍ مِنَ الكُوفةِ على مَوضِعٍ يُقالُ له: النَّجَفُ، كانت مَسكَنَ مُلوكِ العَرَبِ في الجاهِليَّةِ. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت الحموي (٢/ ٣٢٨)، ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٥٠).

(٢) الظعينةَ: أي: المرأةَ في الهَودَجِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٥٧).

(٣) دُعَّار: أي: قُطَّاعُ الطَّريقِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١١٩).

(٤) سَعَّروا: أي: أوقَدوا نارَ الفِتنةِ، ومَلؤوا الأرضَ شَرًّا وفسادًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦١٣).

(٥) رواه البخاري (٣٥٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٧)، ((تفسير =

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بشِّرْ هذه الأمَّةَ بالسَّناءِ[1] والنَّصرِ والتَّمكينِ، فمَن عَمِلَ منهم عمَلَ الآخرةِ للدُّنيا، لم يكُنْ له في الآخرةِ نصيبٌ))[2].

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: ومَن كفَرَ بعدَ نعمةِ الاستِخلافِ والأمنِ وتمكينِ الدِّينِ[3]، فأولئك هم

= السمعاني)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦).

قال الزجَّاج: (قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ يجوزُ أن يكونَ مُستأنفًا، ويجوزُ أن يكونَ في موضِعِ الحال، على معنى: وعَدَ اللهُ المؤمنينَ في حالِ عبادتِهم وإخلاصِهم لله عزَّ وجَلَّ لَيَفعلَنَّ بهم. ويجوزُ أن يكونَ استئنافًا على طريقِ الثناءِ عليهم وتثبيتًا، كأنَّه قال: يعبُدُني المؤمنون لا يُشرِكون بي شيئًا). ((معاني القرآن)) (٤/ ٥١).

وقال السمرقندي: (﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ يعني: لكي يعبدوني لا يُشرِكونَ بي شيئًا). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١).

وقال ابن عثيمين عن قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾: (لا شكَّ أنَّه تعليلٌ... لكنَّه مُتضَمِّنٌ للثَّناءِ؛ لأنَّ مَن عبَد الله استحقَّ الثناءَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٥).

قال الشوكاني: (جملةُ ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ في محلِّ نَصبٍ على الحالِ مِن فاعِلِ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، أي: يَعبُدونَني غيرَ مُشرِكينَ بي في العبادةِ شَيئًا مِنَ الأشياءِ. وقيل معناه: لا يُراؤونَ بعبادتي أحدًا. وقيل معناه: لا يخافونَ غَيري. وقيل معناه: لا يُحِبُّونَ غيري). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦).

(١) بالسَّناءِ: أي: بارتِفاعِ المَنزلةِ والقَدْرِ عندَ الله تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٢٣) واللفظ له، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٧٨٦٢).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجاله رجال الصحيح). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

(٣) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالكُفرِ هنا: كُفرُ النِّعمةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير الرازي)) =

الخارِجون عن طاعةِ رَبِّهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦].

= (٢٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: أبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٣٠).

وقيل: المرادُ به: الكُفرُ الأكبَرُ. وممَّن اختاره: الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٨٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: حُذَيفةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: أقام على كُفرِه وثبتَ واستمَرَّ عليه: يحيى بنُ سلام، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: وأوَّلُ مَن كفَر بهذه النِّعَم وجحَد حَقَّها: الذين قتَلوا عثمانَ رَضِيَ الله عنه، فلمَّا قتلوه غيَّر اللهُ ما بهم، وأدخَل عليهم الخَوفَ الذي رفَعَه عنهم حتى صاروا يقتَتِلون بعد أن كانوا إخوانًا متحابِّينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٢٧).

قال البيضاوي: (﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومَن ارتدَّ، أو كفَر هذه النعمةَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعدَ الوعدِ أو حصولِ الخلافةِ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملونَ في فسقِهم، حيثُ ارتدُّوا بعْدَ وضوحِ مثلِ هذه الآياتِ، أو كفَروا تلك النعمةَ العظيمةَ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣).

وقال السعدي: (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ...؛ لأنَّ الذي يتركُ الإيمانَ في حالِ عزِّه وقَهرِه، وعَدَمِ وُجودِ الأسبابِ المانعةِ منه: يدُلُّ على فَسادِ نيَّتِه، وخُبثِ طَوِيَّتِه؛ لأنَّه لا داعيَ له لتركِ الدِّينِ إلَّا ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وأقيموا -أيُّها المُؤمِنونَ- الصَّلاةَ بحُدودِها، وآتُوا الزَّكاةَ مُستَحِقِّيها[1].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: وأطيعوا رَسولَ رَبِّكم فيما يأمُرُكم به ويَنهاكم عنه؛ لِتَنالوا رحمةَ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).
(لَعَلَّ) في قَولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إمَّا حرفُ تعليلٍ أو تَرَجٍّ؛ فعلى أنَّها حرفُ تعليلٍ فإقامةُ الصَّلاةِ وما عُطِف عليه سببٌ لرحمةِ اللَّهِ؛ لأنَّ العللَ أسبابٌ شرعيَّةٌ، وعلى أنَّ (لعلَّ) للتَّرجِّي، فالمعنى: أقيموا الصَّلاةَ، وآتُوا الزَّكاةَ على رجائِكم أنَّ اللهَ يرحَمُكم بذلك؛ لأنَّ اللهَ ما أطمَعهم بتلك الرَّحمةِ عندَ عملِهم بمُوجبِها إلَّا ليرحَمَهم؛ لِما هو معلومٌ مِن فضلِه وكرمِه. وكونُ لعلَّ هنا للتَّرجِّي، إنَّما هو بِحَسَبِ عِلمِ المخلوقِينَ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكُفَّارُ مِن الكَثرةِ والقُوَّةِ بمكانٍ، كان الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكينِ، جوابًا لسؤالِ مَن كأنَّه قال: وهل ذلك ممكِنٌ، فقال[1]:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بياءِ الغَيبةِ، وفاعِلُ الحِسبانِ هو النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكونُ التَّقديرُ: لا يَحسَبَنَّ محمَّدٌ الذين كفَروا مُعجِزينَ. ويحتَمِلُ أن يكونَ فاعِلُ الحِسبانِ: الذين كفَروا، ويكونَ المفعولُ الأوَّلُ مَحذوفًا، تقديرُه: لا يحسَبَنَّ الذين كفَروا أنفُسَهم مُعجِزينَ[2]. أو: لا يَحسبنَّ الذين كفروا أحدًا يُعجِزُ الله في الأرضِ حتَّى يطمَعوا هم في مثلِ ذلك[3].

٢- قِراءةُ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ، أي: لا تحسَبَنَّ -يا محمَّدُ- الكافرينَ مُعجِزينَ[4].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٨).

(٢) قرأ بها حمزةُ، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢).

(٤) قرأ بها الباقون على اختِلافٍ بينَهم في فَتحِ السِّينِ وكَسْرِها. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٥١).

قال أبو حيان: (وقرأ الجُمهورُ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بتاءِ الخطابِ، والتقديرُ: لا تحسبنَّ -أيُّها المخاطَبُ-، ولا يندرجُ فيه الرَّسولُ. وقالوا: هو خِطابٌ للرَّسولِ. وليس بجَيِّدٍ؛ لأنَّ مِثلَ هذا الحِسْبانِ لا يُتصوَّرُ وُقوعُه فيه عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

أي: لا تظُنَّ الكافرينَ -أيُّها النبيُّ- فائتينَ في الأرضِ فلا يُدرَكونَ، ومِن الهلاكِ يُفلِتُون، فإذا أراد اللهُ هلاكَهم فهو قادرٌ عليهم، وهم مأخوذونَ لا محالةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [هود: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَسكَنُهم في الآخرةِ النَّارُ[2].

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: ولبِئسَ المآلُ الذي يَرجِعونَ إليه النَّارُ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ سَبَبٌ لتمكينِ الدِّينِ في الأرضِ، وأنَّ المُخالفةَ سَبَبٌ لِنَزعِ الدِّينِ مِن الأرضِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ فيُفهَمُ منه أنَّهم لو فَسَقُوا ولم يُؤمِنوا ولم يعمَلوا صالحًا، ما مُكِّنَ لهم الدِّينُ الذي هو لهم، والذي ارتضاه اللهُ تعالى لهم، ويتفرَّعُ على هذا: التحذيرُ البالغُ مِن المخالفةِ والفُسوقِ، وأنَّ ذلك سببٌ لنَزْعِ الدِّينِ منهم، وهذا هو المُطَّرِدُ في سُنَنِ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ فإنَّ النِّعَمَ إذا لم تُشْكَرْ زالت، وأكبرُ نعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها على عبادِه هي نِعمةُ الدِّينِ، فإذا لم تُشْكَرْ فإنَّها تَزولُ كغَيرِها مِن النِّعَمِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ وعَدَهم اللهُ هذه الأمورَ وقتَ نزولِ الآيةِ، وهي لم تُشاهَدْ: وهي الاستِخلافُ في الأرضِ، والتَّمكينُ فيها، والتَّمكينُ مِن إقامةِ الدِّينِ الإسلاميِّ، والأمنُ التَّامُّ، بحيثُ يَعبُدونَ اللهَ، ولا يُشرِكونَ به شيئًا، ولا يخافون أحدًا إلَّا اللهَ، فقام صدرُ هذه الأُمَّةِ مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ بما يفوقون على غيرِهم، فمكَّنَهم من البلادِ والعبادِ، وفُتِحَت مشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها، وحصل الأمنُ التَّامُّ والتَّمكينُ التامُّ، فهذا مِن آياتِ اللهِ العَجيبةِ الباهرةِ، ولا يزالُ الأمرُ إلى قيامِ السَّاعةِ: مهما قاموا بالإيمانِ والعَمَلِ الصالحِ، فلا بدَّ أن يوجَدَ ما وعَدهم اللهُ، وإنَّما يُسلِّطُ عليهم الكُفَّارَ والمنافقين، ويُديلُهم في بعضِ الأحيانِ؛ بسَبَبِ إخلالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٦).

المسلمين بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ[1]، فهذا الوَعدُ مُناسِبٌ لكُلِّ مَنِ اتَّصفَ بهذا الوَصفِ، فمَن كان أكملَ إيمانًا وعَمِلَ صالحًا، كان استِخلافُه المذكورُ أتَمَّ، فإنْ كان فيه نقصٌ وخَلَلٌ، كان في تمكينِه خَلَلٌ ونَقصٌ[2]؛ وذلك أنَّ هذا جزاءُ هذا العَمَلِ، فمَن قام بذلك العمَلِ استحقَّ ذلك الجزاءَ، لكِنْ ما بقِيَ قَرنٌ مِثلُ القَرنِ الأوَّلِ؛ فلا جَرَم ما بقيَ قَرنٌ يتمكَّنُ تمكُّنَ القَرنِ الأوَّلِ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فإقامةُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ وطاعةُ الرَّسولِ سببٌ لرحمةِ اللهِ[4]، فمَن أراد الرَّحمةَ فهذا طريقُها، ومَن رجاها مِن دونِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ وطاعةِ الرَّسولِ، فهو مُتَمَنٍّ كاذِبٌ، وقد مَنَّتْه نفْسُه الأمانيَّ الكاذِبةَ[5].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه متكَلِّمٌ؛ لأنَّ الوَعدَ نوعٌ مِن أنواعِ الكلامِ، والموصوفُ بالنَّوعِ مَوصوفٌ بالجِنسِ، ولأنَّه سُبحانَه مَلِكٌ مُطاعٌ، والمَلِكُ المطاعُ لا بُدَّ أن يكونَ بحيثُ يُمكِنُه وَعْدُ أوليائِه، ووعيدُ أعدائِه؛ فثبَت أنَّه سُبحانَه مُتكَلِّمٌ[6].

٢- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) والقاعدةُ: أنَّ الحُكمَ المعلَّقَ على وصْفٍ يَزيدُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه. يُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٣)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ فقد وعَدَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بالاستِخلافِ، كما وعَدَهم في تلك الآيةِ مَغفرةً وأجرًا عظيمًا، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ الذين استخلَفَهم كما استخلَفَ الذين مِن قَبْلِهم، ومكَّن لهم دينَ الإسلامِ، وبَدَّلهم مِن بعدِ خَوفِهم أمنًا- لهم منه المغفرةُ والأجرُ العظيمُ.

وهذا يُستدَلُّ به مِن وَجهينِ: يُستدَلُّ به على أنَّ المُستَخلَفينَ مؤمِنون عَمِلوا الصَّالحاتِ؛ لأنَّ الوعدَ لهم لا لِغَيرِهم، ويُستدَلُّ به على أنَّ هؤلاء مَغفورٌ لهم، ولهم مغفرةٌ وأجرٌ عَظيمٌ؛ لأنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فتناولَتْهم هذه الآيةُ في سورةِ (النور)، كما تناولَتْهم آيةُ (الفتحِ): ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومِن المعلومِ أنَّ هذه النُّعوتَ مُنطَبِقةٌ على الصَّحابةِ على زمَنِ أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ؛ فإنَّه إذ ذاك حصَلَ الاستِخلافُ، وتمكُّنُ الدِّينِ، والأمنُ بعدَ الخَوفِ، لَمَّا قَهَروا فارِسَ والرُّومَ، وفتَحوا الشَّامَ والعِراقَ ومِصرَ وخُراسانَ وإفريقيَّةَ.

وحينَئذٍ فقد دَلَّ القرآنُ على إيمانِ أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ، ومَن كان معهم في زمَنِ الاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ؛ والذين كانوا في زمَنِ الاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ وأدركوا زمَنَ الفِتنةِ -كعليٍّ، وطَلحةَ، والزُّبَيرِ، وأبي موسى الأشعريِّ، ومُعاويةَ، وعَمرِو بنِ العاصِ- دخلوا في الآيةِ؛ لأنَّهم استُخلِفوا ومُكِّنوا وأمِنُوا.

وأمَّا مَن حَدَث في زمَنِ الفتنةِ -كالرَّافضةِ الذين حَدَثوا في الإسلامِ في زَمَن الفِتنةِ والافتراقِ، وكالخوارجِ المارِقين- فهؤلاء لم يتناوَلْهم النَّصُّ، فلم يَدخُلوا فيمَن وُصِفَ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ المذكورَينِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّهم أوَّلًا: ليسوا مِن الصَّحابةِ المُخاطَبينَ بهذا. وثانيًا: لم يحصُلْ لهم مِن الاستِخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ بعْدَ الخَوفِ ما حصلَ للصَّحابةِ، بل لا يَزالون خائِفينَ مُقلقَلينَ غيرَ ممكَّنينَ(١).

٣- التَّمكينُ في الأرضِ لا يكونُ إلَّا بعدَ تحقيقِ عبادةِ اللهِ وحْدَه، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، فإذا قام العبدُ بعبادةِ اللهِ مُخلِصًا له في أقوالِه وأفعالِه، لا يريدُ بها إلَّا وجهَ اللهِ والدَّارَ الآخرةَ، ولا يريدُ بها جاهًا ولا ثناءً مِن النَّاسِ، ولا مالًا ولا شيئًا مِن الدُّنيا، واستمَرَّ على هذه العبادةِ المُخلَصةِ في السَّراءِ والضَّرَّاءِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ- مكَّنَ اللهُ له في الأرضِ، وإذَنْ فالتَّمكينُ في الأرضِ يَستلزِمُ وَصفًا سابقًا عليه، وهو عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وبعْدَ التَّمكينِ والإخلاصِ يكونُ الوصفُ الثاني، وهو: إقامةُ الصَّلاةِ(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للاستِغراقِ، أي: عَمِلوا جميعَ الصَّالحاتِ، وهي الأعمالُ التي وصَفَها الشَّرعُ بأنَّها صلاحٌ، وتَركُوا الأعمالَ التي وصَفَها الشَّرعُ بأنَّها فَسادٌ؛

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٣١).

لأنَّ إبطالَ الفَسادِ صَلاحٌ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الأرضَ للهِ يورِثُها مَن يشاءُ مِن عبادِه، وهو الذي يَستخلِفُ فيها النَّاسَ بَدَلَ غَيرِهم، وليس للنَّاسِ في هذه الأرضِ مُلكٌ؛ المُلكُ في الأرضِ للهِ يؤتيه مَن يَشاءُ[٢].

٦- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تَعليقُ فِعْلِ الاستخلافِ بمجموعِ الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ -وإنْ كان تَدبيرُ شُؤونِ الأُمَّةِ مَنوطًا بوُلاةِ الأمورِ لا بمجموعِ الأُمَّةِ- مِن حيث إنَّ لمَجموعِ الأُمَّةِ انتِفاعًا بذلك، وإعانةً عليه، كلٌّ بحسَبِ مَقامِه في المُجتمَعِ[٣].

٧- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ فمتى اهتمَّ وُلاةُ الأمورِ وعُمومُ الأمَّةِ باتِّباعِ ما وضَّحَ لهم الشرعُ، تحقَّق وعدُ اللهِ إيَّاهم بهذا الوعدِ الجليلِ، وهذه التَّكاليفُ التي جعلَها اللهُ قِوامًا لصَلاحِ أمورِ الأمَّةِ، ووعَدَ عليها بإعطاءِ الخِلافةِ والتَّمكينِ والأمنِ؛ صارت بترتيبِ تلك المَوعِدةِ عليها أسبابًا لها، فلو أنَّ قومًا غيرَ مسلمين عَمِلوا في سيرتِهم وشؤونِ رعيَّتِهم بمِثلِ ما أمرَ الله به المُسلمينَ مِن الصَّالحاتِ، بحيثُ لم يُعْوِزْهم إلَّا الإيمانُ باللهِ ورَسولِه؛ لاجتَنَوا مِن سيرتِهم صوَرًا تُشبِهُ الحقائِقَ التي يَجتَنيها المسلمونَ؛ لأنَّ تلك الأعمالَ صارت أسبابًا وسُنَنًا تترتَّبُ عليها آثارُها التي جعَلَها الله سُنَنًا وقوانينَ عُمرانيَّةً، سِوى أنَّهم لِسوءِ معامَلتِهم ربَّهم، بجُحودِه، أو بالإشراكِ به، أو بعدَمِ تصديقِ رسولِه؛ يكونون بمَنأًى عن كفالتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٥).

وتأييدِه إيَّاهم، ودَفعِ العوادي عنهم، بل يَكِلُهم إلى أعمالِهم وجهودِهم على حَسَبِ المعتادِ. ألَا ترى أنَّ القادةَ الأوروبيِّينَ بعْدَ أن اقتبَسوا مِن الإسلامِ قوانينَه ونظامَه بما مارسُوه من شؤونِ المُسلِمينَ في خلالِ الحُروبِ الصَّليبيَّةِ، ثمَّ بما اكتَسَبوه مِن ممارسةِ كُتُبِ التاريخِ الإسلاميِّ والفقهِ الإسلاميِّ والسيرةِ النبويَّةِ؛ قد نَظَّموا ممالِكَهم على قواعِدِ العَدلِ والإحسانِ والمواساةِ، وكراهةِ البغيِ والعُدوانِ، فعَظُمَت دُوَلُهم، واستقامت أمورُهم[1]؟

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه يعلَمُ الأشياءَ قبلَ وقوعِها، ووجهُ الاستدلالِ به: أنَّه سُبحانَه أخبَرَ عن وقوعِ شَيءٍ في المُستقبَلِ إخبارًا على التَّفصيلِ، وقد وقع المُخبَرُ مُطابِقًا للخبرِ، ومِثلُ هذا الخبَرِ لا يَصِحُّ إلَّا مع العلمِ[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ يدُلُّ على صِحَّةِ نبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه أخبَرَ عن الغَيبِ في هذه الآيةِ، وقد وُجِدَ هذا المُخبَرُ مُوافِقًا للخَبرِ، ومِثلُ هذا الخبَرِ مُعجِزٌ، والمُعجِزُ دَليلُ الصِّدقِ؛ فدَلَّ على صِدقِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤١٣).

يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى قد مكَّن مَن قَبْلَنا واستخلفَهم في الأرضِ، كما قال موسى لقَومِه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] [القصص: ٥، ٦].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ ممَّا نستفيدُه مِن الآيةِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ هو عبادةُ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، وعليه يكونُ تحقيقُ التَّوحيدِ مِن أسبابِ هذا الوَعدِ الذي وَعَد اللهُ به[2].

١٢- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إنَّ الأمورَ الهامَّةَ ينبغي تأكيدُها بأنواعِ المؤكِّداتِ؛ فإنَّ هذا الوعدَ مِن الأمورِ الهامَّةِ؛ لِمَا يترتبُ عليه مِن المصالحِ والمنافعِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا أكَّده اللهُ تعالى بالقَسَمِ واللامِ والنونِ، كما في قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والمرادُ بهذا التَّشبيهِ تأكيدُ هذا الوَعدِ بذِكْرِ شواهِدِه؛ فيَكونُ ذلك أيضًا تأكيدًا معنويًّا على تأكيدٍ لَفظيٍّ، فهو سُبحانَه يَذكُرُ ما يُقوِّي القلبَ ويُثبِّتُه[3].

١٣- كمالُ الدِّينِ الإسلاميِّ؛ حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، فهو الدِّينُ الذي ارتضاه لعِبادِه، وهو أكمَلُ الأديانِ؛ ولذلك خُتِمَت به الرِّسالاتُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المَوصوفينَ بهذه الصِّلةِ هم الَّذين يَنشُرون هذا الدِّينَ في الأُمَمِ؛ لأنَّه دِينُهم؛ فيكونُ تمكُّنُه في النَّاسِ بواسطَتِهم(١).

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وليس هذا الوَعدُ بمقتَضٍ ألَّا تحدُثَ حوادِثُ خَوفٍ في الأمَّةِ في بعضِ الأقطارِ، كالخَوفِ الذي اعترى أهلَ المدينةِ مِن ثَورةِ أهلِ مِصرَ الذين قادهم الضَّالُّ مالِكُ الأشتَرُ النَّخَعيُّ(٢)، ومِثلِ الخَوفِ الذي حدَثَ في المدينةِ يومَ الحَرَّةِ(٣)، وغيرِ ذلك من الحوادِثِ، وإنَّما كانت تلك مُسَبَّباتٍ عن أسبابٍ بشريَّةٍ، وإلى الله إيابُهم، وعلى الله حِسابُهم(٤)!

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فائِدتُه بعْدَ الخَوفِ أبلَغُ مِن ظُهورِ أمْنٍ على أمْنٍ؛ لأنَّه لا تُعرَفُ قيمةُ الأشياءِ إلَّا بضِدِّها، فإذا قُدِّرَ أنَّ هذا الإنسانَ في خَوفٍ ثم أُبدِلَ بعدَ الخَوفِ أمنًا، ظهَر لهذا الأمنِ مِن الأثَرِ في نفْسِه ما هو أبلَغُ مِمَّا لو كان أمنًا على أمنٍ(٥).

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ الصَّلاةَ أفضَلُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٢) الأشتَرُ: مالكُ بنُ الحارثِ النَّخَعيُّ: كان شريفًا كبيرَ القدرِ في النخَعِ، شهِدَ اليرموك، وقُلِعَتْ عينُه يومَئذٍ، وكان ممَّن ألَّب على عُثمانَ، وقاتَلَه وحضَر حصرَه في المدينةِ. وشَهِدَ يومَ الجَمَلِ، وأيامَ صِفِّينَ مع عليٍّ، وكان خطيبًا بليغًا فارسًا. يُنظر: ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢/ ٣٣٦)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٤/ ٣٤)، ((الأعلام)) للزِّرِكْلي (٥/ ٢٥٩).

(٣) يوم الحَرَّةِ: أي: وَقعة الحَرَّةِ التي كانت بالمدينةِ أيَّامَ يزيدَ بنِ مُعاويةَ على يَدَي مُسلِمِ بنِ عُقبةَ لمَّا بايع أهلُ المدينةِ لعبدِ الله بنِ الزُّبيرِ، وخلَعوا بيعةَ يزيدَ، وخلَعوا واليَه في المدينةِ، وحاصروا بني أُمَيَّةَ في دارِ مَرْوانَ. يُنظر: ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٣/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٠).

الزكاةِ؛ وذلك لتقديمِها عليها في كلِّ موضعٍ، اللهمَّ إلَّا أنْ يكونَ هناك سببٌ خاصٌّ لتقديمِ الإنفاقِ، فقد يُقَدَّمُ الإنفاقُ على الصَّلاةِ، لكنْ عندَما تُذكَرُ الصَّلاةُ والزَّكاةُ معًا فإنَّها تُقدَّمُ(١).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الذي ثَبَتَ في السنَّةِ كالذي ثَبَتَ في القُرآنِ، وهذا شامِلٌ لِما قاله النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ابتِداءً، ولِما قاله تفسيرًا للقُرآنِ، فيكونُ فيه دليلٌ على وجوبِ العمَلِ بالسنَّةِ كما يجبُ العمَلُ بالقُرآنِ(٢).

١٩- قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، حيثُ جَعَلَ هذه الأشياءَ الثلاثةَ -إقامَ الصلاةِ، وإيتاءَ الزكاة، وطاعةَ الرَّسولِ- سببًا للرَّحمةِ، وهذا باعتبارِ أنَّ (لعلَّ) تعليليَّةٌ(٣).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أنَّ أهلَ النارِ -مِن الكُفَّارِ- مخلَّدونَ فيها، ولو لم يُخَلَّدوا لكان مأواهم ما بعْدَ النارِ؛ لأنَّ المأوى معناه المرجعُ الأخيرُ، وهذا دَليلٌ على أنَّ النارَ دائمةٌ لهم، وأنَّهم مخَلَّدون فيها، وقد ثبَت في القُرآنِ الكريم تأبيدُ أهلِ النَّارِ في ثلاثِ آياتٍ مِن القُرآنِ؛ هي: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فهذه ثلاثُ آياتٍ صَريحةٌ تنُصُّ على تأبيدِ خُلودِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٥).

بلاغة الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا في قولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ مِن الوعْدِ الكريمِ، ومُعرِبٌ عنه بطريقِ التَّصريحِ، ومُبيِّنٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ فيه مِن فُنونِ السَّعاداتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ الَّتي هي مِن آثارِ الاهتِداءِ، ومُتضمِّنٌ لِمَا هو المُرادُ بالطَّاعةِ الَّتي نِيطَ بها الاهتِداءُ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ وُسِّطَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنكُمْ﴾ بين المعطوفينِ؛ لإظهارِ أصالةِ الإيمانِ وعَراقتِه في استِتباعِ الآثارِ والأحكامِ، وللإيذانِ بكَونِه أوَّلَ ما يُطلَبُ منهم، وأهمَّ ما يجِبُ عليهم. بيْنَما أُخِّرَ عنهما في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ وذلك لأنَّ (مِن) هناك -في سورةِ (الفتحِ)- بَيانيَّةٌ، والضَّميرُ للَّذين معه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خُلَّصِ المُؤمنين، ولا ريبَ في أنَّهم جامِعونَ بيْن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ، مُثابِرونَ عليهما؛ فلا بُدَّ مِن وُرودِ بَيانِهم بعْدَ ذِكْرِ نُعوتِهم الجليلةِ بكَمالِها، و(من) هنا تَبعيضيَّةٌ[2]، على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقيل: فائدةُ تَوسيطِ ﴿مِنكُمْ﴾ بيْن ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا، وتأخيره عنهما في سُورةِ (الفتْحِ): أنَّ التَّأخيرَ دَلَّ على أنَّ وعْدَ اللهِ تعالى بالمغفرةِ والأجْرِ العظيمِ مُسبَّبانِ عن إيمانِهم المُقارَنِ بالأعمالِ الصَّالحاتِ معًا؛ لأنَّ الاتِّصافَ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ في الظَّاهرِ مُناسِبٌ لأنْ يَكونَ عِلَّةً للمغفرةِ والأجْرِ العظيمِ، وتوسيطَه دلَّ على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ في الاعتبارِ، وأنَّ الأعمالَ كالتَّابعةِ له؛ فتأثيرُ العمَلِ الصَّالحِ في الاستخلافِ دونَ تأْثيرِه في إثباتِ المغفرةِ والأجْرِ العظيمِ، ونحوُه في الاعتبارِ قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أُخِّرَ إسماعيلُ عن المفعولِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كان الأصلَ في العمَلِ، وإسماعيلُ عليه السَّلامُ كالتَّابعِ له، ولو قدَّمَه لم يكُنْ كذلك[1].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عامٌّ، و(مِن) للتَّبعيضِ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ إلى آخِرِ قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وسَطٌ بيْن المعطوفِ -وهو قولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾- والمعطوفِ عليه -وهو قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾- كالاعتِراضِ؛ لأنَّ أصلَ الكلامِ: قُلْ: أطِيعوا اللهَ وأطِيعوا الرَّسولَ، ولا تخَفْ مَعرَّتَهم؛ فيَنْبغي أنْ يَجرِيَ الكُلُّ على سَنَنٍ واحِدٍ، وأنْ يُقالَ: أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ، فإنْ تُعرِضوا عن طاعتِهما فقد عرَّضْتُم نُفوسَكم لِسخَطِ اللهِ تعالى، وإنْ أطَعْتُموهما تَهْتدوا. ثمَّ بيَّن ما لِلمُهتدينَ منهم بقولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِه، أي: أحرَزْتُم نَصيبَكم في الدُّنيا والعُقبى؛ ولهذه الفائدةِ أُخِّرَ المعطوفُ عن المعطوفِ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٢، ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٢).

- قولُه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ جُملةُ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ...﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿وَعَدَ﴾؛ لأنَّها عينُ المَوعودِ به. ولمَّا كانت جُملةَ قسَمٍ وهو مِن قَبيلِ القولِ، كانت إحداهما بَيانًا للأُخرى[1]. وإنَّما صِيغَ الكلامُ في هذا النَّظمِ ولم يُقتصَرْ على قولِه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ دونَ تَقْييدٍ بقولِه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ لـ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الاستِخلافَ يَحصُلُ في مُعظَمِ الأرضِ، وذلك يَقبَلُ الامتدادَ والانقباضَ[2].

- وقد كان المُسلِمون واثقينَ بالأمْنِ، ولكنَّ اللهَ قدَّمَ على وعْدِهم بالأمْنِ أنْ وعَدَهم بالاستِخلافِ في الأرضِ، وتَمكينِ الدِّينِ والشَّريعةِ فيهم؛ تَنبيهًا لهم بأنَّ سُنَّةَ اللهِ أنَّه لا تأمَنُ أُمَّةٌ بأسَ غَيرِها حتَّى تكونَ قويَّةً مَكينةً مُهيمِنةً على أصقاعِها؛ ففي الوعْدِ بالاستِخلافِ والتَّمكينِ وتبْديلِ الخوفِ أمْنًا: إيماءٌ إلى التَّهيُّؤِ لتَحصيلِ أسبابِه، مع ضمانِ التَّوفيقِ لهم والنَّجاحِ إنْ هم أخَذوا في ذلك، وأنَّ مِلاكَ ذلك هو طاعةُ اللهِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وإذا حلَّ الاهتِداءُ في النُّفوسِ نشأَتِ الصَّالحاتُ، فأقبلَتْ مُسبَّباتُها تَنهالُ على الأُمَّةِ، فالأسبابُ هي الإيمانُ وعمَلُ الصَّالحاتِ[3]. وقيل: تأْخيرُ التمكينِ عن الاستِخلافِ مع كونِه أجَلَّ الرَّغائبِ الموعودةِ وأعظَمَها؛ لِما أنَّ النُّفوسَ إلى الحُظوظِ العاجلةِ أميَلُ؛ فتَصديرُ المواعيدِ بها في الاستِمالةِ أدخَلُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ، أي: وأُقسِمُ لَيَسْتخلِفنَّهم، أو أجْرى وعْدَ اللهِ -لتَحقُّقِه- مُجرى القسَمِ، فجُوِبَ بما يُجاوَبُ به القسَمُ. وعلى تَقديرِ حذْفِ القسَمِ يكونُ معمولُ ﴿وَعَدَ﴾ مَحذوفًا، تقديرُه: استِخلافَكم وتَمْكينَ دِينِكم. ودلَّ عليه جوابُ القسَمِ[1].

- السِّينُ والتَّاءُ في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ للتَّأكيدِ، وأصْلُه: (لَيُخلِفنَّهم)[2].

- قولُه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾، أي: لَيَجعلَنَّ دِينَهم ثابتًا مُقرَّرًا، بحيثُ يَستمِرُّون على العمَلِ بأحكامِه، ويَرجِعون إليه في كلِّ ما يأتُون وما يَذَرُون. والتَّعبيرُ عن ذلك بالتَّمكينِ الَّذي هو جَعْلُ الشَّيءِ مكانًا لآخَرَ؛ للدَّلالةِ على كَمالِ ثَباتِ الدِّينِ، ورَصانةِ أحكامِه، وسَلامتِه مِن التَّغييرِ والتَّبديلِ؛ لابتِنائِه على تَشبيهِه بالأرضِ في الثَّباتِ والقرارِ، مع ما فيه مِن مُراعاةِ المُناسَبةِ بيْنَه وبيْنَ الاستخلافِ في الأرضِ[3].

- وتَقديمُ صِلَةِ التَّمكينِ ﴿لَهُمْ﴾ على مَفعولِه الصَّريحِ ﴿دِينَهُمُ﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كَونِ الموعودِ مِن مَنافعِهم؛ تَشويقًا لهم إليه، وتَرغيبًا لهم في قَبولِه عندَ وُرودِه؛ ولأنَّ في تَوسيطِها بيْنه وبيْن وَصْفِه -وهو قولُه: ﴿الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾- وفي تأخيرِها عنه: مِن الإخلالِ بجَزالةِ النَّظمِ الكريمِ ما لا يَخْفَى[4].

وقيل: قُدِّمَ ﴿لَهُمْ﴾ على المفعولِ ﴿دِينَهُمُ﴾؛ للإيماءِ إلى العِنايةِ بهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

- قولُه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ في إضافةِ الدِّينِ إليهم -وهو دِينُ الإسلامِ- ثمَّ وَصْفِه بارتضائِه لهم: تأليفٌ لقُلوبِهم، ومَزيدُ ترغيبٍ فيه، وفضْلُ تَثبيتٍ عليه[1]. وأيضًا إضافةُ الدِّينِ إلى ضَميرِهم؛ لتَشريفِهم به؛ لأنَّه دِينُ اللهِ، كما دلَّ عليه قولُه عقِبَه: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الَّذي اختارَهُ ليَكونَ دِينَهم؛ فيَقْتضي ذلك أنَّه اختارَهم أيضًا ليَكونوا أتْباعَ هذا الدِّينِ[2]. وقيل: أضافه إليهم؛ إشارةً إلى رسوخِ أقدامِهم فيه، وأنَّه أبَديٌّ لا يُنسخُ[3].

- وإنَّما قال: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ ولم يقُلْ: (وليُؤَمِّنَنَّهم) كما قال في سابقَيه؛ لأنَّهم ما كانوا يَطمَحون يومَئذٍ إلَّا إلى الأمْنِ؛ فكانوا في حالةٍ هي ضدُّ الأمْنِ، ولو أُعْطوا الأمنَ دونَ أنْ يكونوا في حالةِ خوفٍ، لكانَ الأمْنُ مِنَّةً واحدةً[4].

- وإضافةُ الخوفِ إلى ضَميرِهم؛ للإشارةِ إلى أنَّه خوفٌ مَعروفٌ مُقرَّرٌ[5].

- وتَنكيرُ ﴿أَمْنًا﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ كَونِه مُبْدَلًا مِن ﴿بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ المعروفِ بالشِّدَّةِ[6].

- قولُه: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ عبَّرَ بالمُضارعِ ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾؛ لإفادةِ استِمرارِهم على ذلك تَعريضًا بالمُنافقين؛ إذ كانوا يُؤمِنون ثمَّ يَنقلِبون[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٨).

- وجُملةُ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، مُفيدةٌ لتَقييدِ الوعْدِ بالثَّباتِ على التَّوحيد، أو استِئنافٌ ببَيانِ المُقْتضي للاستِخلافِ وما انتظَمَ معه في سِلْكِ الوعْدِ[١]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ حالٌ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ المُتقدِّمةِ، أي: هذا الوعدُ جَرَى في حالِ عِبادتِهم إيَّايَ، وفي هذه الحالِ إيذانٌ بأنَّ ذلك الوعْدَ جَزاءٌ لهم، أي: وعَدْتُهم هذا الوعْدَ الشَّاملَ لهم، والباقيَ في خَلَفِهم؛ لأنَّهم يعبُدونَني عِبادةً خالصةً عن الإشراكِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ حالٌ مِن ضَميرِ الرَّفعِ في ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾؛ تَقييدًا للعِبادةِ بهذه الحالةِ؛ لأنَّ المُشركين قد يَعبُدون اللهَ ولكنَّهم يُشرِكون معه غيرَه[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ تَحذيرٌ بعْدَ البِشارةِ، على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ البِشارةِ بالنِّذارةِ والعكْسُ؛ دَفْعًا للاتِّكالِ[٤].

- وصِيغةُ الحصْرِ المأخوذةُ مِن تَعريفِ المُسنَدِ بلامِ الجِنْسِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ مُستعمَلةٌ مُبالَغةً؛ للدَّلالةِ على أنَّه الفِسْقُ الكاملُ، ووصْفُ الفاسقين لهم رَشيقُ الموقِعِ؛ لأنَّ مادَّةَ الفِسْقِ تدُلُّ على الخُروجِ مِن المكانِ مِن مَنفَذٍ ضيِّقٍ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٨، ٢٨٩).

- قولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ(١). وقيل: إنَّه عَطفٌ على مُقدَّرٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ، ويَستدعيهِ النِّظامُ؛ فكأنَّه قيل: فآمِنوا واعْمَلوا صالِحًا، وأقيمُوا. أو فلا تكْفُروا وأقيمُوا(٢). وقيل: إنَّه عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]؛ لِمَا فيها مِن معنى الأمْرِ بترْكِ الشِّركِ، فكأنَّه قِيل: اعْبُدوني ولا تُشرِكوا، وأقِيموا الصَّلاةَ. والخِطابُ موَجَّهٌ للَّذين آمَنوا خاصَّةً بعدَ أنْ كان مُوجَّهًا لأُمَّةِ الدَّعوةِ؛ فالطَّاعةُ المأمورُ بها هنا غيرُ الطَّاعةِ الَّتي في قولِه: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ [النور: ٥٤] إلخ؛ لأنَّ تلك دَعوةٌ للمُعرِضينَ، وهذه ازديادٌ للمُؤمنينَ(٣). وقيل: يجوزُ أن يكونَ مَعطوفًا على ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ﴾(٤)، فإنَّ الفاصِلَ وَعدٌ على المأمورِ به؛ فيكونَ تكريرُ الأمرِ بطاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لتأكيدِ وُجوبِها، وليس ببَعيدٍ أن يَقَع بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه فاصِلٌ وإن طالَ؛ لأنَّ حَقَّ المعطوفِ أن يكونَ غَيرَ المعطوفِ عليه؛ لأنَّ طُولَ الفَصلِ يُحَقِّقُ المغايَرةَ المطلوبةَ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ فالواجِبُ أن يكونَ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه المغايَرةُ، وعندَ القُربِ لا يتحَقَّقُ ذلك؛ فإنَّ المُجاوَرةَ مَظِنَّةُ الاتِّصالِ، بخِلافِ المضافِ والمضافِ إليه؛ فإنَّ شِدَّةَ اتِّصالِهما مانعةٌ مِن دُخولِ فَصلٍ بينهما(٥). وللفَصلِ والتَّأخيرِ فوائِدُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩).

(٤) لكن قال أبو السعود: (وعطفُه على ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ﴾ ممَّا لا يليقُ بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

منها: الإشعارُ بأنَّ الجُملةَ المُتخَلِّلةَ -وهي ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ- ممَّا هو يُهتَمُّ بشَأنِه، وأنَّها مُتَّصِلةٌ بما يَتعلَّقُ بالمعطوفِ عليه، وهو ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾. ومنها: أنَّ في تأخيرِ المعطوفِ عن قَولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ إعلامًا بنوعِ اتِّصالٍ به، وهو: إنْ أطعتُم وآمنتُم فقد أحرَزتُم نَصيبَكم في الدُّنيا والعُقبى. ومنها: التَّوكيدُ؛ لأنَّه لو لم يؤخَّرْ لم يُحتَجْ إلى إناطةِ «أطيعوا الرَّسولَ» به؛ فإنَّه على مِنوالِ قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]. ومنها: الإيذانُ بشَرَفِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، ومَحلِّهما عندَ الله، وأنَّهما أُمَّا العِباداتِ، وأبعَدُهما مَرتبةً عن سائرِ العباداتِ والطَّاعاتِ؛ لأنَّ العَطفَ مِن بابِ عَطفِ جِبريلَ على الملائِكةِ -أي: الخاصِّ على العامِّ-، ومِن ثَمَّ رَتَّب الأوَّلَ بقَولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، وعلى الثَّاني بقَولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١).

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أمَرَهم اللهُ سُبحانَه وتعالى بالذَّاتِ بما أمَرَهُم به بواسطةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن طاعَتِه الَّتي هي طاعَتُه تعالى في الحقيقةِ؛ تأكيدًا للأمْرِ السَّابقِ، وتَقريرًا لمَضمونِه(٢).

- وقد جمَعَتْ هذه الآيةُ جميعَ الأعمالِ الصَّالحاتِ؛ فأهَمُّها بالتَّصريحِ، وسائرُها بعُمومِ حَذْفِ المُتعلَّقِ بقولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: في كلِّ ما يأمُرُكم ويَنْهاكم(٣).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتَحقيقِ ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]؛ فقد كان المُشرِكون يومَئذٍ لم يَزالوا في قُوَّةٍ وكَثرةٍ، وكان المُسلِمون لم يَزالوا يخافونَ بأْسَهم، فرُبَّما كان الوعْدُ بالأمْنِ مِن بأْسِهم مُتلقًّى بالتَّعجُّبِ والاستِبطاءِ الشَّبيهِ بالتَّردُّدِ؛ فجاء قولُه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تطْمينًا وتسليةً. والنَّهيُ في قولِه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ قُصِدَ منه التَّنبيهُ على تَحقيقِ الخبَرِ[1].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إمَّا لكلِّ أحدٍ ممَّن يَصلُحُ له كائنًا مَن كانَ، وإمَّا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على مِنهاجِ قولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ونظائرِه؛ للإيذانِ بأنَّ الحِسبانَ المذكورَ مِن القُبحِ والمَحذوريَّةِ بحيثُ يُنْهَى عنه مَن يَمتنِعُ صُدورُه عنه؛ فكيف بمَن يُمكِنُ ذلك منه[2]؟!

- قولُه: ﴿مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قولُه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظرْفٌ لـ﴿مُعْجِزِينَ﴾؛ لإفادةِ شُمولِ عدَمِ الإعجازِ بجميعِ أجزائِها، أي: لا تَحسبَنَّهم مُعجزينَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ عن إدراكِهم وإهلاكِهم في قُطْرٍ مِن أقطارِ الأرضِ بما رحُبَتْ، وإنْ هرَبُوا منها كلَّ مَهرَبٍ[3].

- وقولُه: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جوابُ قسَمٍ مُقدَّرٍ، والمخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: وباللهِ لبِئْسَ المصيرُ هي، أي: النَّارُ، والجُملةُ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه. وفي إيرادِ النَّارِ بعُنوانِ كَونِها مأوًى ومَصيرًا لهم، إثْرَ نفْيِ فَوتِهم بالهرَبِ في الأرضِ كلَّ مَهرَبٍ مِن الجَزالةِ: ما لا غايةَ وراءَهُ، فلِلَّهِ دَرُّ شأْنِ التَّنزيلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢، ١٩٣).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ
(٥٩) وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٦٠) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾: أي: الأطفالُ غيرُ البالغينَ، والحُلُمُ: الاحتِلامُ، وعبَّر عن البلوغِ بالاحتلامِ؛ لأنَّه أقوَى دلائلِه، وأصلُ (حلم): رُؤيةُ الشَّيءِ في المنامِ، وقيل: سُمِّي زمانُ البُلوغِ الحُلُمَ؛ لكونِ صاحبِه جديرًا بالحِلْمِ، وأصلُ (حلم) على ذلك: تَركُ العَجَلةِ(١).

﴿عَوۡرَٰتٖ﴾: العورةُ: كلُّ ما يُسْتَحْيا منه إذا ظهَر. قيل: أصلُ العورةِ: الخَلَلُ، ومنه: الأعور: المختلُّ العَيْنِ، فسُمِّيت هذه عوراتٌ؛ لاختلالِ تَستُّرِ الناسِ، وقلَّةِ تحفُّظِهم فيها. والعورَةُ: سوأةُ الإنسانِ، وأصلُها مِن العارِ؛ وذلك لِما يَلحَقُ في ظهورِها من العارِ، أي: المذَمَّةِ. وقيل: أصلُ (عور) هنا: يدُلُّ على مرضٍ في إحدى عينَي الإنسانِ وكلِّ ذي عينينِ، ومعناه الخلُوُّ مِن النَّظرِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه ويُشتَقُّ منه، ومنه العورَةُ، كأنَّها شيءٌ يَنْبغي مُراقَبتُه؛ لخُلُوِّه(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٩)، =

﴿جُنَاحٌ﴾: أي: إثمٌ؛ وأصلُ (جنح): مالَ وتَعدَّى، وسُمِّي الإثمُ بذلك؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحقِّ[1].

﴿طَوَّٰفُونَ﴾: أي: ساعونَ في خِدمتِكم، والطَّوْفُ: المشيُ حوْلَ الشَّيءِ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ[2].

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: أي: العجائزُ اللَّواتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والوَلَدِ والأزواجِ؛ مِن الكِبَرِ، جمعُ قاعِدٍ، وأمَّا القاعدَةُ فهي الجالسةُ[3].

﴿مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾: أي: مُظهِراتٍ مُحاسِنَهنَّ، وأصلُ (برج): يدُلُّ على البُروزِ والظُّهورِ[4].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا بعضَ الأحكامِ والآدابِ التي شرَعها لعبادِه: يا أيُّها الذين آمَنوا، مُروا العَبيدَ والإماءَ الذين تَملِكونَهم، والأطفالَ الأحرارَ الذين لم يَبلُغوا

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

مَبلَغَ الرِّجالِ؛ أن يَستأذِنوا عندَ الدُّخولِ عليكم في أوقاتٍ ثلاثةٍ: قَبْلَ صلاةِ الفَجرِ، ووقتَ الظُّهرِ حينَ خَلْعِ الثِّيابِ للقَيلولةِ، ومِن بعدِ صَلاةِ العِشاءِ؛ فهذه الأوقاتُ تكونُ العوراتُ فيها باديةً، فعَلِّموهم ألَّا يَدخُلوا عليكم إلَّا بعْدَ الاستِئذانِ، أمَّا فيما سِوى هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ فلا حرَجَ إذا دخَلوا بغيرِ استِئذانٍ؛ فهم خدَمُكم وأطفالُكم، يَطوفونَ عليكم لِقَضاءِ حوائِجِكم، وأنتم تتردَّدونَ عليهم؛ لاستِخدامِهم وغيرِ ذلك. مِثلَ ذلك البيانِ والتَّوضيحِ في أحكامِ الاستِئذانِ يُبيِّنُ اللهُ لكم آياتِه وأحكامَه وشرائِعَ دينِه، واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عبادَه، حكيمٌ فيما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ.

وإذا بلَغ الأطفالُ منكم مَبلغَ الرِّجالِ، فعليهم أن يَستأذِنوا في كلِّ الأوقاتِ كما استأذَنَ الرِّجالُ البالِغونَ، وكما بيَّنَ اللهُ آدابَ الاستئذانِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى لكم آياتِه، واللهُ عليمٌ بخَلقِه، حكيمٌ في تشريعِه.

والنِّساءُ العجائِزُ اللَّاتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والوَلَدِ وطلبِ الزَّواجِ؛ لكِبَرِ سِنِّهنَّ- فلا إثمَ عليهنَّ في أن يضَعْنَ بعضَ ثيابِهنَّ الظَّاهرةِ، كالخِمارِ، غيرَ مُظهِراتٍ للزِّينةِ. ولُبْسُهنَّ هذه الثيابَ مُبالَغةً في التستُّرِ والتعفُّفِ أحسَنُ لهُنَّ، وأزكى عندَ الله وأطهَرُ، واللهُ سَميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأعمالِكم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أوَّلًا حُكمَ البالِغينَ الأحرارِ في الاستِئذانِ في قَولِه: ﴿لَا

تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ...﴾ [النور: ٢٧]، بَيَّن تعالى هنا حُكمَ الأحرارِ غيرِ البالِغينَ، وحُكمَ العَبيدِ، فقال[1]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمنوا، مُرُوا مماليكَكم مِن الذُّكورِ والإناثِ، والكِبارِ والصِّغارِ؛ أن يَستأذِنوكم إذا أرادوا الدُّخولَ عليكم[2].

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾.

أي: ومُرُوا -أيُّها المُؤمِنونَ- صِبيانَكم الأحرارَ غيرَ البالغينَ أن يستأذِنوا إذا

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال ابن كثير: (هذه الآياتُ الكريمةُ اشتملت على استئذانِ الأقارب بعضِهم على بعضٍ، وما تقدَّم في أوَّلِ السورةِ فهو استئذانُ الأجانبِ بَعضِهم على بعضٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

وممَّن قال بأنَّ الآيةَ عامَّةٌ في الأرِقَّاءِ الكِبارِ والصِّغارِ: يحيى بنُ سلام، وابن جرير، واستظهره الرازي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الصِّغارُ منهم: الماتريديُّ، والقاضي أبو يعلى -كما نسبه إليه ابن الجوزي-، وعبد القاهر الجُرْجاني. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٩٠)، ((درج الدرر)) لعبد القاهر الجرجاني (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٥).

قال ابن القيم: (قالت طائفة: كان الأمرُ بالاستئذانِ في ذلك الوقتِ للحاجةِ ثمَّ زالت، والحُكمُ إذا ثبت بعلَّةٍ زال بزوالِها... وقالت طائفة: الآيةُ محكَمةٌ عامَّةٌ لا مُعارِضَ لها ولا دافِعَ، والعمَلُ بها واجب، وإنْ تركَه أكثرُ الناس. والصَّحيحُ: أنَّه إن كان هناك ما يقومُ مقامَ الاستئذانِ؛ مِن فَتحِ بابٍ فَتحُه دليلٌ على الدُّخولِ، أو رَفعِ سِترٍ، أو تردُّدِ الداخِلِ والخارِجِ ونحوِه- أغنى ذلك عن الاستئذانِ، وإن لم يكُنْ ما يقوم مقامَه فلا بدَّ منه، والحُكمُ معَلَّلٌ بعلَّةٍ قد أشارت إليها الآيةُ، فإذا وُجِدت وُجِد الحكمُ، وإذا انتفتِ انتفى. والله أعلم). ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٩٦، ٣٩٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٣).

أرادوا الدُّخولَ عليكم في ثلاثةِ أوقاتٍ مِن ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ(١).

﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾.

أي: لِيَستأذِنوا إذا أرادوا الدُّخولَ عليكم في ثلاثةِ أوقاتٍ: قَبْلَ صَلاةِ الفَجرِ، ووقتَ القَيلولةِ نِصفَ النَّهارِ، وبعْدَ صَلاةِ العِشاءِ(٢).

﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾.

أي: هذه ثلاثةُ أوقاتٍ يَحصُلُ فيها ظُهورٌ للعَوْراتِ؛ فلا يدخُلْ عليكم مماليكُكم وأطفالُكم إلَّا بإذنِكم(٣).

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾.

أي: ليس عليكم ولا على مماليكِكم وأطفالِكم إثمٌ في تَركِ الاستِئذانِ للدُّخولِ عليكم في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال السمعاني: (ليس هؤلاء هُمُ الذين لم يَظهَروا على عوراتِ النِّساءِ؛ فإنَّ الذين لم يظهَروا على عوراتِ النِّساءِ لا حِشمةَ لأحدٍ منهم؛ لأنَّا بَيَّنَّا أنَّهم الذين لا يُمَيِّزون، ولكِنَّ هؤلاء هم الذين مَيَّزوا، وعَرَفوا أمرَ النِّساءِ، ولكن لم يَبلُغوا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢ - ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (وتعيينُ الاستئذانِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّها أوقاتُ خَلوةِ الرِّجالِ والنساءِ، وأوقاتُ التعَرِّي مِن الثيابِ، وهي أوقاتُ نَومٍ، وكانوا غالبًا ينامون مجرَّدينَ من الثيابِ؛ اجتِزاءً بالغِطاءِ، وقد سمَّاها الله تعالى عَوراتٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٢).

﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: بعضُكم يَطوفُ على بعضٍ؛ فمَماليكُكم وأطفالُكم يدخُلونَ ويَخرُجونَ عليكم في منازِلِكم لقضاءِ أشغالِكم وحوائِجِكم، وأنتم تتردَّدونَ عليهم لاستخدامِهم وغيرِ ذلك(١).

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- أحكامَ الاستئذانِ بيانًا تامًّا واضِحًا، كذلك يبيِّنُ اللهُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وشرائِعِ الإسلامِ(٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عبادَه، حكيمٌ فيما يُدبِّرُه لهم، وفيما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ؛ فهو يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللائِقِ به، ومِن ذلك تلك الأحكامُ التي بيَّنَها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

قال ابنُ جرير: (ويعني بالطَّوَّافينَ: أنَّهم يدخلون ويخرُجون على مواليهم وأقرِبائِهم في منازِلِهم غُدوةً وعَشِيَّةً بغيرِ إذنٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧).

وقال القرطبي: (فمعنى ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ أي: يَطوفون عليكم، وتَطوفون عليهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦).

وقال الشنقيطي: (يَطوفون للخِدمةِ، والسَّادةُ والآباء يطوفون عليهم للاستخدامِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٦).

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حُكمَ الصِّبيانِ والأرقَّاءِ الذين هم أطوَعُ للأمرِ، وأقبَلُ لكُلِّ خَيرٍ؛ أتبَعَه حُكمَ البالغينَ مِن الأحرارِ، فقال[1]:

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: وإذا صار أطفالُكم بالغينَ، فلْيستأذِنوا في الدُّخولِ عليكم في كُلِّ وَقتٍ بلا استِثناءٍ، كما استأذن الكِبارُ الأحرارُ[2].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- حُكمَ الأطفالِ في الاستِئذانِ إذا بلَغوا الحُلُمَ، كذلك يوضِّحُ اللهُ ويفَصِّلُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وأحكامِ الإسلامِ[3].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عِبادَه، حكيمٌ في تدبيرِهم بما شرَعَه لهم مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

قال الرسعني: (﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الرجالَ الكبارَ الأحرارَ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الوجودِ أو في بلوغِ الحُلمِ، أو الذين ذُكِروا مِن قَبلِهم في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا ...﴾). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

الأحكامِ[(١)].

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى بعضَ الآدابِ الاجتماعيَّةِ، ومِنها أمْرُ النِّساءِ بالتستُّرِ وعَدَمِ إبداءِ الزِّينةِ لغَيرِ مَحارِمِهنَّ، وكان ذلك شامِلًا للشَّابَّاتِ وغَيرِهنَّ مِنَ العَجائِزِ- استَثنى هنا العَجائِزَ الكَبيراتِ في السِّنِّ، وبَيَّنَ ما يجوزُ لهُنَّ، وما هو الأفضَلُ في حَقِّهنَّ، فقال تعالى[(٢)]:

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾.

أي: والنِّساءُ العجائزُ اللَّاتي لا يَحِضْنَ ولا يَلِدْنَ، ولا يَطمَعْنَ في الزَّواجِ لكبرِ سنِّهنَّ، لا إثمَ عليهنَّ أن يترُكْنَ لُبسَ الثِّيابِ الظَّاهرةِ، كالجِلبابِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣، ٨٤).

قال الواحدي: (المفسِّرون كلُّهم قالوا في «القَواعِد»: هنَّ اللاتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والولَدِ؛ مِنَ الكِبَرِ). ((البسيط)) (١٦/ ٣٦٤).

وقال السمرقندي: (القاعدُ: المرأةُ التي قعَدت عن الزَّوجِ وعن الحيضِ والولَدِ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣).

وقال البقاعي: (﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لعدَمِ رغبَتِهنَّ فيه، أو لوصولهنَّ إلى حدٍّ لا يُرغَبُ فيهنَّ معه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٤). =

= وقال ابن عاشور: (هذه الآيةُ مُخَصِّصةٌ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١]... وعلَّةُ هذه الرخصةِ هي أنَّ الغالِبَ أن تنتفيَ أو تقِلَّ رغبةُ الرجالِ في أمثالِ هذه القواعِدِ؛ لكِبَرِ السِّنِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦، ٢٩٧). ويُنظر: ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٣).

وقال الشنقيطي: (حَمَل بعضُ العُلَماءِ معنى القاعِدِ منها على التي قعدَتْ عن الولَدِ، ولكنَّ هذا غيرُ سديدٍ؛ فإنَّا نرى كثيرًا مِن النِّساءِ يقعُدْنَ عن الولَدِ في سنٍّ مبكِّرةٍ مع أنهنَّ جميلاتٌ وفيهنَّ مُستمتَعٌ، ولا عِبرةَ بكونِ بَعضِ العجائزِ قد يبدو منهنَّ مَيلٌ إلى الرجالِ وهي في غايةٍ مِن الكِبَرِ الذي لا يلتَفِتُ معه إليها أحَدٌ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٩٧).

قال الماوردي: (﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: جِلبابُها، وهو الرِّداءُ الذي فَوقَ خِمارِها، فتَضَعُه عنها إذا ستَرَها باقي ثيابِها. قاله ابنُ مَسعودٍ، وابنُ جُبَيرٍ. الثَّاني: خِمارُها ورِداؤُها. قاله جابِرُ بنُ زيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢١).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ، وهو أنَّ المرادَ: الثِّيابُ الظَّاهِرةُ فوقَ الثِّيابِ السَّاتِرةِ، كالجِلبابِ الذي فوقَ الخِمار: مقاتِلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والواحديُّ -ونسبه لعامَّةِ المفسِّرينَ-، والبغويُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٤٨).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمرَ في روايةٍ عنه، وجابرُ بنُ زيدٍ، ومُجاهِدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو الشَّعْثاءِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والحسنُ، وقَتادةُ، والزُّهريُّ، والأوزاعيُّ، وسُلَيمانُ بنُ يَسارٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣).

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾.

أي: لا إثمَ على العجائزِ أن يَضَعْنَ ثيابَهنَّ حالَ كَونِهنَّ غيرَ مُظهِراتٍ للزِّينةِ التي يجِبُ على المرأةِ إخفاؤُها[(١)].

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

أي: وتَركُ وَضْعِهنَّ لثيابِهنَّ -وإن كان جائِزًا- خيرٌ وأفضَلُ لهنَّ مِن خَلعِها[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لجَميعِ الأصواتِ، عليمٌ بجميعِ الأعمالِ والمقاصِدِ والنيَّاتِ؛ فلْيَحذَرْنَ مِن كُلِّ قولٍ وفِعلٍ وقَصدٍ فاسِدٍ، ولْيَعلَمْنَ أنَّ اللهَ يجازي على ذلك[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ توجيهُ الخطابِ للمُؤمِنينَ -والحُكمُ لِغَيرِهم- فيه دَلالةٌ على أنَّهم مَسؤولون عنهم، ومَسؤولون عن تنفيذِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غيرَ مُظهِراتٍ ولا متعرِّضاتٍ بالزينةِ لِيُنظَرَ إليهنَّ؛ فإنَّ ذلك من أقبَحِ الأشياءِ وأبعَدِه عن الحَقِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩).

وقال البقاعي: (﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ أي متعمِّداتٍ -بوضعِ ما أبيحَ لهنَّ وضْعُه- إظهارَ وجوهِهنَّ معَ الزينةِ، أو غيرَ متظاهراتٍ بالزينةِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٤).

وقال السعدي: (الاستعفافُ: طَلَبُ العِفَّةِ، بفِعلِ الأسبابِ المُقتَضيةِ لذلك؛ مِن تزوُّجٍ، وتَرْكٍ لِما يُخشى منه الفتنةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٧).

هذا الحُكمِ في أولادِهم الصِّغارِ ومماليكِهم، وأنَّ هذا الصَّغيرَ والمملوكَ إذا خالَفَ فإنَّ إثمَه على مَن لم يقُمْ بواجِبِ التَّربيةِ والتَّأديبِ[١]. فالسيِّدُ ووليُّ الصَّغيرِ مُخاطَبانِ بتعليمِ عَبيدِهم ومَن تحتَ ولايتِهم مِن الأولادِ، العِلمَ والآدابَ الشَّرعيَّةَ؛ لأنَّ اللهَ وجَّه الخِطابَ إليهم بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾، ولا يمكِنُ ذلك إلَّا بالتَّعليمِ والتأديبِ، ولِقَولِه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ مَن لم يبلُغْ، وقد عَقَل، يُؤمَرُ بفِعلِ الشَّرائِعِ، ويُنهى عن ارتكابِ القبائِحِ؛ فإنَّ اللهَ أمَرَهم بالاستِئذانِ في هذه الأوقاتِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ سَتْرَ العَورةِ عن الأطفالِ -الذين قد بلَغوا مَبلَغَ مَعرفتِها- فرضٌ في كلِّ وقتٍ؛ إذْ لا يأمُرُ اللهُ تعالى بالاستئذانِ مِن أجْلِ ذلك إلَّا وقد فَرَضَ سَترَها في كلِّ وقتٍ عنهم وعن مِلْكِ اليمينِ[٤]، فالله تعالى أمَر باستئذانِ الصِّغارِ والمماليكِ حينَ الاستيقاظِ مِن النَّومِ، وحينَ إرادةِ النَّومِ، وحينَ القائلةِ؛ فإنَّ في هذه الأوقاتِ تبدو العوراتُ، كما قال تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾. وفي ذلك ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٨٨).

يدُلُّ على أنَّ المملوكَ المميِّزَ، والمميِّزَ مِن الصِّبيانِ- ليس له أن ينظُرَ إلى عورةِ الرَّجُلِ[1]. وإذا وَجبَ الاستئذانُ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ خوفًا مِن أن يُفاجِئَهم أحدٌ على عَورةٍ، فمَن تَعمَّدَ أنْ يرى العورةَ فهو أَولى إذَنْ؛ فيُستفادُ منه تحريمُ النَّظَرِ إلى العَورةِ، سواءٌ كان النَّاظرُ صغيرًا أو كبيرًا، وأمَّا تهاوُنُ بعضِ النَّاسِ في نَظَرِ الصَّغيرِ المميِّزِ إلى العورةِ، فهذا خطأٌ، وبَعضُ النَّاسِ إذا كان الصغيرُ له سِتُّ سنواتٍ أو سبْعُ سنواتٍ لا يبالي أنْ يَنظُرَ إلى عورتِه! وذلك لا يجوزُ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يَرتَسِمَ في ذِهنِه هذا المنظرُ؛ ثمَّ ربَّما يَذكُرُه في يومٍ مِن الأيامِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه أنَّه ينبغي للواعِظِ والمعَلِّمِ ونَحوِهما ممَّن يتكَلَّمُ في مسائِلِ العِلمِ الشَّرعيِّ- أن يَقرِنَ بالحُكمِ بَيانَ مَأخَذِه ووَجهِه، ولا يُلقيَه مجرَّدًا عن الدَّليلِ والتَّعليلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن الحُكمَ المذكورَ، علَّله بقَولِه: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وصْفُ الأحكامِ بالآياتِ؛ ففيه إرشادٌ للخَلْقِ إلى تأمُّلِ هذه الأحكامِ؛ لِيستَدِلُّوا بها على مُشَرِّعِها[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٨).

صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ ففي ثلاثةِ هذه الأحوالِ يكونُ المماليكُ والأولادُ الصِّغارُ كغيرِهم، لا يُمَكَّنونَ مِن الدُّخولِ إلَّا بإذنٍ، وأمَّا ما عدا هذه الأحوالَ الثَّلاثةَ، فقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾[1]، فالآيةُ فيها جوازُ الدُّخولِ للمذكورينَ بدونِ استئذانٍ في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ﴾ دَلالةٌ على المَنعِ مِن فِعْلِ ما يؤدِّي إلى الحَرامِ؛ فاللهُ تعالى أمَرَ مماليكَ المؤمنينَ ومَن لم يَبلُغْ منهم الحُلُمَ أنْ يستأذِنوا عليهم في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ؛ لئلَّا يكونَ دُخولُهم هَجْمًا بغيرِ استئذانٍ فيها ذريعةً إلى اطِّلاعِهم على عَوْراتِهم وقتَ إلقاءِ ثيابِهم عندَ القائلةِ والنَّومِ واليَقَظةِ، ولم يأمُرْهم بالاستِئذانِ في غَيرِها -وإنْ أمكنَ في ترْكِه هذه المَفسَدةُ- لنُدورِها، وقِلَّةِ الإفضاءِ إليها؛ فجُعِلَتْ كالمقَدِّمةِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ فيه ثبوتُ مِلكِ اليمينِ للآدميِّينَ، ولكنْ -كما هو مَعروفٌ- أنَّ الإسلامَ حمَى حقوقَ هؤلاء المَماليكِ، ورَغَّبَ في تحريرِهم وعِتقِهم، وجَعلَ للعتقِ أسبابًا متعَدِّدةً[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ فيه جوازُ وَضعِ الثَّوبِ عندَ النَّومِ، ويلتَحِفُ الإنسانُ بلِحافِه[5].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ ﴾ لا يُفهَمُ منه أنَّ ما قبْلَه مِن اللَّيلِ كان مُباحَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة النور)) (ص: ٣٩٢).
(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة النور)) (ص: ٣٩١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدُّخولِ بلا استِئذانٍ؛ لأنَّ هذا خَرَجَ مخْرَجَ الغالِبِ، وهو أنَّ النَّاسَ في العادةِ يبدأُ انتِشارُهم قَبلَ صلاةِ الفَجرِ بعدَ الأذانِ؛ ولا يَكثُرُ قبلَ ذلك مِن اللَّيلِ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه جوازُ كَشفِ العَورةِ لحاجةٍ؛ كالحاجةِ عندَ النَّومِ، وعند البَولِ والغائِطِ، ونحوِ ذلك(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه الأمرُ بحِفظِ العَوراتِ، والاحتياطِ لذلك مِن كُلِّ وَجهٍ، وأنَّ المحَلَّ والمكانَ الذي هو مَظِنَّةٌ لرؤيةِ عَورةِ الإنسانِ فيه؛ أنَّه منهيٌّ عن الاغتِسالِ فيه والاستِنجاءِ ونحوِ ذلك(٣).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ فيه أنَّ المُسلِمينَ كانوا مُعتادينَ للقَيلولةِ وسَطَ النَّهارِ، كما اعتادوا نومَ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللهَ خاطبَهم ببيانِ حالِهم الموجودةِ(٤).

٩- قال الله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ الواجِبَ اعتِبارُ العِلَلِ في الأحكامِ إذا أمكَنَ؛ لأنَّه تعالى نبَّه على العِلَّةِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ مِن وَجهينِ:

أحدُهما: بقَولِه تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والثَّاني: بالتَّنبيهِ على الفَرقِ بينَ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ وبينَ ما عداها؛ بأنَّه ليس ذاك إلَّا لعلَّةِ التكَشُّفِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ، وأنَّه لا يُؤمَنُ وُقوعُ التكشُّفِ فيها، وليس كذلك ما عدا هذه الأوقاتَ[1]. فالآيةُ فيها دَليلٌ على تَعليلِ الأحكامِ[2]، بمعنى أنَّ أحكامَ اللهِ سبحانه وتعالى كلَّها مبنيَّةٌ على الحِكمِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دَليلٌ على أنَّه لا حَرَجَ على المرأةِ أن يَنظُرَ إليها الذَّكَرُ البالغُ مِن مِلْكِ يمينِها -وذلك على أنَّ مِلكَ اليمينِ هنا شاملٌ للكبيرِ والصَّغيرِ-، ولا عليه إذا نَظَرَ -لِغَيرِ ريبةٍ- إذْ كان في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ مُباحٌ له أنْ يدخُلَ بغير إذْنٍ، ومَن دخَلَ بغير إذنٍ أبصَرَ الحُرَمَ، وقد أزال اللهُ عن الجَميعِ الحَرَجَ، وهذا خاصٌّ في المماليكِ، وأمَّا الأحرارُ فيُفرَضُ عليهم غَضُّ البصَرِ عن النِّساءِ، إلَّا ما تُجُوِّزَ لهم عنه مِن نظرةِ الفَجأةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمرَ بِغَضِّ البصَرِ مُطلقًا بلا شَرطٍ في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، وقَولِه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾[4].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ هذا الحُكمَ يختَصُّ بالصِّغارِ دونَ البالغينَ، وقد نَصَّ تعالى على ذلك مِن بعْدُ، فقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والمرادُ: مَن تجدَّدَ منه البُلوغُ يجِبُ أن يكونَ بمَنزلةِ مَن تقَدَّم بلوغُه في وجوبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٨٩).

الاستئذانِ، فهذا معنى قَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقد يجوزُ أن يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ مَن خدَمَ في حالِ الصِّغَرِ فإذا بلغ يجوزُ له ألَّا يستأذِنَ، ويفارِقُ حالُه حالَ مَن لم يَخدُمْ ولم يُملَكْ؛ فبيَّن تعالى أنَّه كما حظَرَ على البالِغين الدُّخولَ إلَّا بالاستئذانِ، فكذلك على هؤلاء إذا بَلَغوا، وإن تقَدَّمتْ لهم خِدمةٌ، أو ثبَتَ فيهم مِلكٌ لهنَّ[1].

١٢- في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إشكالٌ؛ وهو: أنَّ مفهومَ الآيةِ الكريمةِ أنَّ على الأطفالِ جُناحًا فيهنَّ، وقد عُلِمَ أنَّه قد رُفِعَ القلمُ عنهم!

والجوابُ: أنَّ الجُناحَ على الأولياءِ والمماليكِ لا الصِّغارِ؛ فعُموماتُ الأدلَّةِ على أنَّ الصَّغيرَ غَيرُ مُكَلَّفٍ، وأنَّه لا إثمَ عليه[2].

وقيل: ليس المرادُ بالجناحِ هنا الإثمَ، وإنما المرادُ: الحرَجُ والمشقَّةُ في الاستئذانِ؛ وهذا لا يَلزمُ منه الإثمُ[3].

١٣- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دلالةٌ على أنَّ الطَّوَّافينَ يُرَخَّصُ فيهم ما لا يُرَخَّصُ في غيرِ الطَّوَّافينَ عليكم والطَّوَّافاتِ، والطَّوَّافُ مَن يدخلُ بغير إذْنٍ -كما تدخُلُ الهِرَّةُ؛ وكما يدخُلُ الصبيُّ والمملوكُ-، وإذا كان هذا في الصبيِّ المُمَيِّزِ؛ فغيرُ المُميِّزِ أولى[4].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ طهارةُ بَدَنِ الطفلِ -وإنْ غَلَبَ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٥).
(٣) يُنظر: ((المنتقى من فرائد الفوائد)) لابن عثيمين (ص: ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٠).

الظنِّ أنه نَجِسٌ-، نأخُذُه مِن قولِه صَلَّى الله عليه وسَلَّم في الهِرةِ: ((إنَّها ليست بِنَجَسٍ))(١)، وعَلَّلَ ذلك بأنها مِن الطَّوَّافينَ؛ وهؤلاء مِن الطَّوَّافينَ، فرُبَّما يُؤخَذُ مِن هذا طهارةُ بَدَنِ الطفلِ؛ وأنه طاهرٌ ما لم يَتيقَّنِ النجاسةَ(٢)، وأنَّ ريقَه طاهرٌ، ولو كان بعْدَ نجاسةٍ، كالقيءِ(٣).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فيه جوازُ استخدامِ الإنسانِ مَن تحتَ يَدِه مِن الأطفالِ على وجهٍ مُعتادٍ لا يَشُقُّ على الطِّفلِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾(٤).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ رفْعُ الحَرَجِ والمشَقَّةِ عنِ النَّاسِ. وجهُ ذلك يُؤخَذُ مِن رفْعِ الحَرَجِ في عدَمِ الاستئذانِ في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثِة؛ لأنَّهم طَوَّافونَ عليهم متَرَدِّدونَ، والاستِئذانُ فيه مشَقَّةٌ(٥)، والمشَقَّةَ تجلِبُ التَّيسيرَ(٦).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أنَّه لا يستطيعُ

(١) أخرجه أبو داود (٧٥)، وأحمد (٢٢٨٥٠) واللفظ لهما، والترمذي (٩٢)، والنسائي (٦٨)، وابن ماجه (٣٦٧) باختلافٍ يسيرٍ. من حديث أبي قَتادةَ الأنصاريِّ رضي الله عنه.
قال البخاريُّ -كما في ((السنن الكبرى)) للبيهقي (١/ ٢٤٥): (جوَّد مالكٌ هذا الحديثَ، وروايتُه أصَحُّ مِن روايةِ غيرِه). وقال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وقال العُقَيليُّ في ((الضعفاء الكبير)) (٢/ ١٤٢): (إسنادُه ثابتٌ صحيحٌ). وحسَّنَ إسنادَه الدارقطنيُّ في ((تعليقة على العلل)) (١٢٩)، وصحَّحه ابنُ عبدالبرِّ في ((التمهيد)) (١/ ٣١٨)، والنوويُّ في ((المجموع)) (١/ ١١٧)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٦)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (١/ ٥٥١)، وابن حجر في ((المطالب العالية)) (١/ ٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٣).

أحدٌ أن يأتيَ بمثلِ تَشريعِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونظامِه. تُؤخَذُ مِن كَونِه جَعلَ ذلك مِن الآياتِ، وآياتُ اللهِ معناها أنَّها لا تصلُحُ لغَيرِه تعالى؛ إذْ لو صلحتْ لغيرِه لم تكنْ آيةً له؛ فهذا يدُلُّ على أنَّ شَرعَ اللهِ لا يُمكِنُ أن يأتيَ أحَدٌ بمِثلِه، وإلَّا ما صَحَّ أن يكونَ آيةً[(١)]!

١٨- قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فيه مِنَّةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى على العِبادِ ببَيانِ الآياتِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ؛ حتى لا يبقَى للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ هذا البيانِ[(٢)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الاحتلامَ في الذُّكْرَانِ هو حَدُّ البُلوغِ، ووقتُ وجوبِ الفَرائضِ عليهم[(٣)].

٢٠- وقَعَ قولُه: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ في مَوقعِ التَّصريحِ بمفهومِ الصِّفةِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ الأطفالَ إذا بَلَغوا الحُلُمَ تغيَّرَ حُكْمُهم في الاستئذانِ إلى حُكمِ استئذانِ الرِّجالِ[(٤)].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الاستئذانَ في جَميعِ الأوقاتِ واجِبٌ -في الأوقاتِ الثَّلاثةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

قال البغوي: (﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾... ليس المرادُ منهم الأطفالَ الذين لم يَظهروا على عوراتِ النِّساءِ، بل الذين عرَفوا أمرَ النِّساءِ، ولكن لم يَبْلغوا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٨).

وغيرِها- على سائرِ النَّاسِ سِوى الأطفالِ ومِلْكِ اليَمينِ الذين أُبيحَ لهم إلَّا في الثَّلاثةِ الأوقاتِ[١]؛ فالأولادُ البالغونَ لا يدخُلونَ على والدِيهم إلَّا باستئذانٍ، كالأجانِبِ[٢].

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ فيه إباحةُ تَركِ التحفُّظِ في التسَتُّرِ للنِّساءِ القواعِدِ، وفيه أنَّ استِعفافَهنَّ وتحفُّظَهنَّ بالسِّترِ كالشَّوابِّ، خَيرٌ وأفضَلُ[٣].

٢٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف أباح تعالى للقَواعِدِ مِن النِّساءِ -وهنَّ العجائِزُ- التجَرُّدَ مِن الثيابِ بحَضرةِ الرِّجالِ؟

الجوابُ: المرادُ بالثِّيابِ: الزَّائِدةُ على ما يَستُرُهنَّ[٤].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أنَّ الحُكمَ يدورُ مع عِلَّتِه وجودًا وعَدَمًا؛ لأنَّ اللهَ إنما أباح وضْعَ الثِّيابِ لهؤلاء القواعِدِ؛ لأنَّ الفِتنةَ بعيدةٌ فيهنَّ؛ فيؤخَذُ منه أنَّ المدارَ كلَّه على خَوفِ الفتنةِ في مِثلِ هذه الأمورِ؛ فالحُكمُ يدورُ مع عِلَّتِه وُجودًا وعَدَمًا[٥]، فالعَجوزُ التي لا تطمَعُ في النِّكاحِ رُخِّصَ لها أن تضَعَ ثيابَها، فلا تُلقيَ عليها جِلبابَها ولا تحتَجِبَ، وإن كانت مُستثناةً مِن الحرائِرِ؛ لزَوالِ المفسدةِ الموجودةِ في غيرِها، كما استثنى

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠١).

التابعينَ غيرَ أُولي الإِرْبةِ مِن الرِّجالِ في إظهارِ الزِّينةِ لهم؛ لِعَدمِ الشَّهوةِ التي تتولَّدُ منها الفِتنةُ[١]. قال بعضُهم: (لمَّا كان القواعدُ لا مذهبَ للرجالِ فيهنَّ، أُرخِصَ مِن عناءِ التستُّرِ، وخُفِّف عنهنَّ قلَّةُ التحفُّظِ؛ إذ علةُ وجوبِه منعدمةٌ)[٢].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ أنَّه يُقاسُ على القواعِدِ مَن لا تُشتَهى؛ لغايةٍ في قُبْحِها، كالعَجائزِ؛ لأنَّها لا ترجو النِّكاحَ، ولا يَطمعُ أحدٌ فيها؛ ولهذا ألحَقَ العُلَماءُ هذا الصِّنفَ مِن النِّساءِ بالقَواعدِ[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ أنَّ التبَرُّجَ بالزِّينةِ حرامٌ على العَجائزِ، فهذا الشرطُ إذا تخلَّفَ صار عليهنَّ جُناحٌ في ذلك، وهذا يدُلُّ على التَّحريمِ، فإذا كان التبَرُّجُ حرامًا على العَجائزِ، فيتفَرَّعُ على هذه الفائدةِ تحريمُ التبرُّجِ على الشَّابَّاتِ ومَن هي مَحَلُّ الفِتنةِ، وهذا قياسُ أولويَّةٍ؛ لأنَّه مَعلومٌ إذا حُرِّمَ على القواعِدِ اللَّاتي لا يَرجونَ نِكاحًا، فغَيرُهنَّ ممَّن يرجون النِّكاحَ وتتعَلَّقُ بهن الفِتنةُ أبلَغُ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ أنَّ الأفضلَ البُعدُ عن الرِّيبةِ ومَحَلِّ الفِتنةِ، وإن بَعُدَت[٥].

٢٨- قولُه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ لمَّا ذكَرَ الجائزَ عقَّبَه بالمُستحَبِّ؛ بَعثًا منه على اختيارِ أفضلِ الأعمالِ وأحسَنِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥١).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأخذَ بالرُّخَصِ، وإنْ كان مُباحًا، فالأخذُ بالعزائمِ أفضَلُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ استِئنافٌ انتقاليٌّ إلى غرَضٍ مِن أحكامِ المُخالَطةِ والمُعاشَرةِ، وهو عَودٌ إلى الغرَضِ الَّذي ابتُدِئَتْ به السُّورةُ وقُطِعَ عندَ قولِه: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢] [النور: ٣٤].

- قولُه: ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، أي: ثلاثةَ أوقاتٍ في اليومِ واللَّيلةِ، والتَّعبيرُ عنها بالمرَّاتِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَدارَ وُجوبِ الاستئذانِ مُقارَنةُ تلك الأوقاتِ لمُرورِ المُستأذِنينَ بالمُخاطَبينَ، لا أنفُسُها[٣].

- وحَرفُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ مَزيدٌ للتَّأكيدِ[٤].

- قولُه: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ الظَّهيرةُ: هي شِدَّةُ الحرِّ عندَ انتصافِ النَّهارِ، وهي بَيانٌ للحِينِ؛ والتَّصريحُ بمَدارِ الأمْرِ -أي: وضْعِ الثِّيابِ في هذا الحينِ- دُونَ الأوَّلِ والآخِرِ؛ لأنَّ التَّجرُّدَ عن الثِّيابِ فيه لأجْلِ القَيلولةِ؛

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٣).

لقلَّةِ زَمانِها -كما يُنبِئُ عنها إيرادُ (الحينِ) مُضافًا إلى فِعْلٍ حادثٍ مُتقَضٍّ، ووُقوعُها في النَّهارِ الَّذي هو مَئِنَّةٌ لكَثرةِ الوُرودِ والصُّدورِ، ومَظِنَّةٌ لظُهورِ الأحوالِ وبُروزِ الأمورِ- ليسَ مِن التَّحقُّقِ والاطِّرادِ بمَنزلةِ ما في الوقتينِ المَذكورينِ؛ فإنَّ تَحقُّقَ التَّجرُّدِ واطِّرادَه فيهما أمْرٌ مَعروفٌ لا يُحتاجُ إلى التَّصريحِ به(١).

- قَولُه: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ أثبَتَ (مِن) في الموضِعَينِ الأوَّلِ والثَّالثِ؛ دَلالةً على قُربِ الزَّمَنِ مِن الوَقتِ المذكورِ لِضَبطِه، وأسقَطَها في الأوسَطِ دَلالةً على استغراقِه؛ لأنَّه غَيرُ مُنضَبِطٍ(٢).

- قولُه: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ عِلَّةِ وُجوبِ الاستئذانِ، والعَورةُ في الأصلِ هو الخلَلُ -غلَبَ في الخلَلِ الواقعِ فيما يَهُمُّ حِفْظُه، ويُعْتنى بسَتْرِه- أُطْلِقتْ على الأوقاتِ المُشتملةِ عليها؛ مُبالَغةً كأنَّها نفْسُ العورةِ(٣). أو سمَّى كلَّ واحدةٍ مِن هذه الأحوالِ عورةً؛ لأنَّ النَّاسَ يَختَلُّ تَستُّرُهم وتَحفُّظُهم فيها(٤).

- قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ؛ مَسوقةٌ لتَقريرِ ما قبْلَها بالطَّردِ والعكْسِ(٥). ونفْيُ الجُناحِ عن المُخاطَبينَ في قولِه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ بعْدَ أنْ كان الكلامُ على استئذانِ المماليكِ والَّذين لم يَبلُغوا الحُلُمَ: إشارةٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

لَحْنِ خِطابٍ[1] حاصِلٍ مِن قولِه: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾؛ فإنَّ الأمْرَ باستِئذانِ هؤلاء عليهم يَقْتضي أمْرَ أهْلِ البيتِ بالاستئذانِ على الَّذين ملَكَتْ أيمانُهم إذا دعاهم داعٍ إلى الدُّخولِ عليهم في تلك الأوقاتِ، كما يُرشِدُ السَّامعَ إليه قولُه: ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾. وإنَّما لم يُصرَّحْ بأمْرِ المُخاطَبينَ بأنْ يَستأذِنوا على الَّذين ملَكَتْ أيمانُهم؛ لنُدورِ دُخولِ السَّادةِ على عَبيدِهم أو على غِلْمانِهم؛ إذِ الشَّأنُ أنَّهم إذا دعَتْهم حاجةٌ إليهم أنْ يُنادُوهم، فأمَّا إذا دعَتِ الحاجةُ إلى الدُّخولِ عليهم فالحُكْمُ فيهم سواءٌ[2].

- قولُه: ﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أي: بعْدَ كلِّ واحدةٍ مِن تلك العوراتِ الثَّلاثِ، وهي الأوقاتُ المُتخلِّلةُ بيْن كلِّ اثنتينِ منْهنَّ، وإيرادُها بعُنوانِ البَعديَّةِ -مع أنَّ كلَّ وقتٍ مِن تلكَ الأوقاتِ قبْلَ عَورةٍ من العَوراتِ، كما أنَّها بعْدَ أُخرى منْهنَّ-؛ لتَوفيةِ حقِّ التَّكليفِ والتَّرخيصِ الَّذي هو عبارةٌ عن رَفْعِه؛ إذِ الرُّخصةُ إنَّما تُتَصَوَّرُ في فِعلٍ يقَعُ بعْدَ زمانِ وُقوعِ الفِعلِ المُكلَّفِ[3].

- قولُه: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ استِئنافٌ ببَيانِ العُذرِ المُرخِّصِ في تَرْكِ الاستئذانِ، وهو المُخالَطةُ، وكثرةُ المُداخَلةِ[4]. وفي الكلامِ اكتِفاءٌ؛ تَقديرُه: وأنتم طوَّافون

(١) لحنُ الخطاب: هو أن يكونَ المسكوتُ عنه موافقًا للمنطوقِ في الحُكم، ويُسمَّى أيضًا: فحوى الخطاب. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المخالَفةِ. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ. يُنظر: ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥).

عليهم؛ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾، وقولُه عقِبَه: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(١).

- وجُملةُ: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مُستأنَفةٌ، ويتعلَّقُ قولُه: ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بخبَرٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: طوَّافٌ على بعضٍ؛ وحُذِفَ الخبرُ وبقِيَ المُتعلِّقُ به -وهو كَونٌ خاصٌّ-؛ لدَلالةِ ﴿طَوَّافُونَ﴾ عليه، والتَّقديرُ: بعضُكم طوَّافٌ على بعضٍ(٢).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَصدرِ الفِعلِ الَّذي بعْدَه، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ لتَفخيمِ شأنِ المُشارِ إليه، والإيذانِ ببُعدِ مَنزلَتِه، وكونِه مِن الوُضوحِ بمَنزلةِ المُشارِ إليه حِسًّا(٣).

- وقولُه: ﴿لَكُمُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾، وتَقديمُه على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿الْآيَاتِ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تأكيدٌ لنَظيرِه المُتقدِّمِ في الآيةِ السَّابقةِ، وهو تأكيدٌ بالتَّكريرِ؛ لمزيدِ الاهتمامِ والامتِنانِ، ومُبالَغةً في الأمرِ بالاستئذانِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ ختَمَ هذه الآيةَ بقولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ بالإضافةِ إليه، وختَمَ ما قبْلَها وما بعْدَها بقولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ [النور: ٥٨- ٦١] بالتَّعريفِ بـ (أل)؛ ووجْهُه: أنَّه لَمَّا تقارَبَ اللَّفظُ الواحدُ، عدَلَ عن تَكرارِه بلفْظٍ واحدٍ فيما تقارَبَ، على عادةِ العرَبِ في استثقالِها تَكرُّرَ اللَّفظِ الواحدِ بعَينِه في بيتٍ واحدٍ مِن الشِّعرِ أو ما تقارَبَ مِن الكلامِ، ما لم يَحمِلْ على ذلك حامِلٌ مِن المعنى؛ فجِيءَ بالآياتِ في الأُولى مُعرَّفًا بالألفِ واللَّامِ للعهْدِ فيما تقدَّمَ مِن المُعتبَراتِ الواضحةِ الدَّلالةِ، وفي الآيةِ الثَّانيةِ مُضافًا إلى الضَّميرِ المُتَّصلِ؛ لتَحصُلَ نِسبةُ الآياتِ لِمَن هي له تعالى، وكانت الثَّانيةُ هي المُضافَةَ؛ لأنَّها مع ما تُعطيهِ مِن النِّسبةِ مُبيِّنةٌ للأُولى بَيانًا تأْكيديًّا؛ إذ مِن المعلومِ أنَّها آياتُه سُبحانه، فجاء ذلك على ما يجِبُ. ومِن الواردِ على هذا الرَّعْيِ -واللهُ أعلَمُ- قولُه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثمَّ قال تعالى بعدَ آيٍ: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فهذا مِثْلُ الواردِ في سُورةِ (البقرةِ)[1]. وقيل: إنَّما أُضيفَتِ الآياتُ هنا لضَميرِ الجَلالةِ؛ تَفنُّنًا، ولتَقويةِ تأْكيدِ معنَى كَمالِ التَّبْيينِ الحاصلِ مِن قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾. وتأْكيدِ معنَى الوصفينِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، أي: هي آياتٌ مِن لَدُنْ مَن هذه صِفاتُه، ومَن تلك صِفاتُ بَيانِه[2]. وقيل: إضافةُ الآياتِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لتَشريفِها[3]. وقيل: أضاف الآياتِ إليه سُبحانَه تعظيمًا لها؛ إشارةً إلى أنَّها مُقَدِّمةٌ للآياتِ الإلهيَّاتِ؛ لأنَّ مَن لم يتفرَّغْ مِن مُكَدِّرات الأفكارِ، لم يَطِرْ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥).

ذلك المطارَ، وحثًّا على تدبُّرِ ما تقَدَّم منها؛ لاستحضارِ ما دعت إليه مِن الحِكَمِ، وفَصَّلت به من المواعِظِ، وتنبيهًا على ما فيها من العُلومِ النافعةِ دينًا ودُنيا[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾ للمُبالَغةِ؛ فالاستعفافُ: التَّعفُّفُ، مثْلُ استجابَ[2].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مَسوقةٌ مَساقَ التَّذييلِ؛ للتَّحذيرِ مِن التَّوسُّعِ في الرُّخصةِ أو جَعْلِها ذَريعةً لِمَا لا يُحمَدُ شرْعًا؛ فوَصْفُ (السَّميعِ) تذكيرٌ بأنَّه يسمَعُ ما تُحدِّثُهنَّ به أنفُسُهنَّ مِن المقاصِدِ، ووَصْفُ (العليمِ) تذْكيرٌ بأنَّه يعلَمُ أحوالَ وضْعِهنَّ الثِّيابَ وتبرُّجِهنَّ ونَحْوِها؛ ففي ذِكْرِ هاتينِ الصِّفتينِ توعُّدٌ وتحذيرٌ، وفيه مِن التَّرهيبِ ما لا يَخْفى[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩).

الآية (٦١)

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَشْتَاتًا﴾: أي: مُتَفَرِّقينَ، وأصلُه يدُلُّ على تفَرُّقٍ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: ليس على أصحابِ الأعذارِ -كالأعمى، والأعرَجِ، والمَريضِ- حَرَجٌ في الأكلِ مِن البُيوتِ المذكورةِ؛ لِضَعفِهم وعَجزِهم، وليس عليكم كذلك حرَجٌ في أن تأكُلوا مِن بُيوتِكم وبُيوتِ أولادِكم وعَبيدِكم، أو مِن بُيوتِ آبائِكم أو أمَّهاتِكم، أو إخوانِكم أو أخَواتِكم، أو أعمامِكم أو عمَّاتِكم، أو أخوالِكم أو خالاتِكم، أو البُيوتِ التي وُكِّلتُم بحِفظِها وتَملِكونَ مَفاتيحَها في غيابِ أهلِها، أو مِن بُيوتِ الأصدقاءِ؛ ولا حرَجَ عليكم أن تأكُلوا مجتَمِعينَ أو متفرِّقينَ، فإذا دخَلتُم بُيوتَكم أو بُيوتَ غَيرِكم، فلْيُسلِّمْ بعضُكم على بَعضٍ بتحيَّةِ الإسلامِ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣).

تحيَّةً مُباركةً طَيِّبةً شَرَعها اللهُ لعبادِه المؤمنين. مِثلَ هذا التَّبيينِ يبيِّنُ الله لكم آياتِه؛ لِتَعقِلوها، وتَعمَلوا بها.

تفسيرُ الآيةِ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أتمَّ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما ذكَرَ مِن حُرُماتِ البُيوتِ المُستلزِمةِ لصيانةِ الأبضاعِ على وجهٍ يلزَمُ منه إحرازُ الأموالِ؛ أتبَعَه ما يُباحُ مِن ذلك للأكلِ -الذي هو مِن أجَلِّ مقاصِدِ الأموالِ- اجتِماعًا وانفِرادًا، فقال في جوابِ مَن كأنَّه سأل: هل هذا التَّحجيرُ في البُيوتِ سارٍ في الأقارِبِ وغَيرِهم في جميعِ الأحوالِ[1]:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

أي: ليس على الأعمى ولا على الأعرجِ ولا على المريضِ إثمٌ في الأكلِ مِن البُيوتِ المذكورةِ في هذه الآيةِ، التي أباح اللهُ لهم الأكلَ فيها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٤/ ١٩٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١).

قال ابنُ جُزي: (اختُلِف في المعنى الذي رَفَع اللهُ فيه الحَرَجَ عن الأعمى والأعرَجِ والمريضِ في هذه الآيةِ:

فقيلَ: هو في الغَزْوِ، أي: لا حَرَجَ عليهم في تأخيرِهم عنه، وقَولُه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مقطوعٌ مِن الذي قَبْلَه على هذا القَولِ، كأنَّه قال: ليس على هؤلاءِ الثَّلاثةِ حَرَجٌ في تَرْكِ الغَزْوِ، ولا عليكم حَرَجٌ في الأكلِ.

وقيل: الآيةُ كُلُّها في معنى الأكلِ، واختَلَف الذَّاهِبونَ إلى ذلك؛ فقيل: إنَّ أهلَ هذه الأعذارِ كانوا يتجَنَّبونَ الأكلَ مع النَّاسِ؛ لئَلَّا يتقَذَّرَهم النَّاسُ، فنزلت الآيةُ مُبيحةً لهم الأكلَ مع النَّاسِ. وقيل: إنَّ النَّاسَ كانوا إذا نَهَضوا إلى الغَزوِ خَلَّفوا أهلَ هذه الأعذارِ في بُيوتِهم، وكانوا يتجَنَّبون أكلَ مالِ الغائِبِ، فنزلت الآيةُ في ذلك. وقيل: إنَّ النَّاسَ كانوا يتجَنَّبون الأكلَ معهم تقَذُّرًا، فنزلت الآيةُ، وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ رَفعَ الحَرَجِ عن أهلِ الأعذارِ لا عن غَيرِهم. وقيل: إنَّ رَفْعَ الحَرَجِ عن هؤلاءِ الثَّلاثةِ في كلِّ ما تمنَعُهم عنه أعذارُهم مِنَ الجِهادِ وغَيرِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٥). ويُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٩).

وقال البيضاوي: (وقيل: نَفيٌ للحَرَجِ عنهم في القُعودِ عن الجِهادِ، وهو لا يُلائِمُ ما قَبْلَه ولا ما بَعْدَه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ في مُؤاكَلةِ أصحابِ الأعذارِ المذكورينَ لِغَيرِهم مِنَ الأصِحَّاءِ: جلال الدين المحلي، والبقاعي، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥).

وقيل: المرادُ أنَّ الحَرَجَ عنهم مرفوعٌ في كُلِّ ما يَضطَرُّهم إليه العُذرُ، وتَقتَضي نيَّتُهم الإتيانَ فيه بالأكمَلِ، ويَقتَضي العُذرُ أن يَقَع منهم الأنقَصُ؛ فالحَرَجُ مَرفوعٌ عنهم في هذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، وابن العربي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٨). =

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾.

أي: وليس عليكم -أيُّها المُسلِمونَ- إثمٌ في الأكلِ مِن بُيوتِكم وبُيوتِ أولادِكم وعَبيدِكم، أو في تناوُلِكم الطَّعامَ بمُفرَدِكم دونَ بقيَّةِ أهلِ بَيتِكم(١).

= قال ابنُ العربي: (إنَّ اللهَ رَفَع الحَرَجَ عن الأعمى فيما يتعلَّقُ بالتَّكليفِ الذي يُشترَطُ فيه البَصَرُ، وعن الأعرَجِ فيما يُشتَرَطُ في التَّكليفِ به المَشيُ، وما يَتعذَّرُ مِن الأفعالِ مع وُجودِ الحَرَجِ، وعن المريضِ فيما يتعَلَّقُ بالتَّكليفِ الذي يؤثِّرُ المرَضُ في إسقاطِه؛ كالصَّومِ، وشُروطِ الصَّلاةِ، وأركانِها، والجِهادِ، ونَحوِ ذلك). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

قال الشوكاني: (الحاصِلُ أنَّ رَفعَ الحَرَجِ عن الأعمى والأعرَجِ والمَريضِ: إن كان باعتِبارِ مُؤاكَلةِ الأصِحَّاءِ، أو دُخولِ بُيوتِهم؛ فيَكونُ ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مُتَّصِلًا بما قَبْلَه، وإن كان رَفعُ الحَرَجِ عن أولئك باعتِبارِ التَّكاليفِ التي يُشترَطُ فيها وُجودُ البصَرِ، وعَدَمُ العَرَجِ، وعَدَمُ المرَضِ؛ فقولُه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ غَيرُ مُتَّصِلٍ بما قَبْلَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢).

وقال ابن العربي: (وأمَّا مالُ العبدِ فيدخُلُ في قولِه: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾؛ لأنَّ العبدَ ومالَه مِلكٌ للسَّيِّدِ... كما بيَّنَّا أنَّ بيتَ الابنِ يدخُلُ فيه؛ فبيتُ العبدِ أولى وأحرى بإجماعٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٤).

وقال ابنُ كثير: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ إنَّما ذكَرَ هذا وهو معلومٌ؛ ليعطِفَ عليه غيرَه في اللَّفظِ، وليستأديَه ما بعْدَه في الحُكمِ. وتضمَّنَ هذا بُيوتَ الأبناءِ؛ لأنَّه لم يَنُصَّ عليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

وقال السعدي: (﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: حَرَجٌ ﴿أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بُيوتِ أولادِكم، ... وليس المرادُ مِن قَولِه: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ بيتَ الإنسانِ نفْسِه؛ فإنَّ هذا مِن بابِ تَحصيلِ الحاصِلِ، الذي يُنَزَّهُ عنه كلامُ اللهِ تعالى، ولأنَّه نَفى الحَرَجَ عمَّا يُظَنُّ أو يُتوهَّمُ فيه الإثمُ مِن هؤلاءِ المذكورينَ، وأمَّا بَيتُ الإنسانِ نفْسِه فليس فيه أدنى توَهُّمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بأكلِ الإنسانِ مِن بيتِه الأكلُ غيرُ المُعتادِ، أي: أن يأكُلَ أكلًا لا يُشارِكُه فيه بقيَّةُ أهلِه، كأنْ يأكُلَ الرجُلُ وزَوجُه غائبةٌ، أو أن تأكُلَ هي وزوجُها غائبٌ؛ فهذه أثَرَةٌ =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولَدَه مِن كَسْبِه[1]))[2].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ لي مالًا وولدًا، وإنَّ أبي يريدُ أن يجتاحَ[3] مالي، فقال: أنت ومالُك لأبيك))[4].

= مُرَخَّصٌ فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

وقال ابنُ عثيمين: (لا مانِعَ مِن أن يُرادَ بها بَيتُه الحَقيقيُّ وبَيتُ وَلَدِه. فإن قال قائِلٌ: أيُّ فائدةٍ في نَفيِ الحَرَجِ عن أكْلِه مِن بَيتِه؟!

قُلْنا: لأجْلِ ما ذُكِرَ في آخِرِ الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]، يعني: ليس عليك جُناحٌ أن تأكُلَ مِن بَيتِك، سواءٌ أكَلْتَ أنت وأهلُكَ، أو أكلتُم مُتفرِّقينَ، وإن كان الأفضَلُ الاجتِماعَ على الأكْلِ...، لكِنْ مع ذلك لا جُناحَ، يعني: ليس على الإنسانِ جُناحٌ أنَّه يأكُلُ فيتغذَّى وَحْدَه وعيالُه وَحْدَهم، أو يتغذَّى وَحْدَه وزوجتُه وَحْدَها، أو ما أشبَهَ ذلك، ولا بأسَ أيضًا أن يأكُلوا جميعًا، لا بأسَ بهذا وبهذا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٩).

(١) وإنَّ وَلَدَه مِن كَسْبِه: الكَسْبُ: الطَّلَبُ والسَّعيُ في طَلَبِ الرِّزقِ والمَعيشةِ، وإنَّما جُعِلَ الوَلَدُ كَسْبًا؛ لأنَّ الوالِدَ طَلَبَه وسعَى في تحصيلِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٧١).

(٢) أخرجه من طرقٍ أبو داود (٣٥٢٨)، النسائي (٤٤٥٢)، وابن ماجه (٢١٣٧)، وأحمد (٢٥٨٤٥) واللفظ له.

أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤٢٦٠)، وصحَّحه ابن حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٢)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (٨/ ٣٠٨)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٩): (له طُرُقٌ متعددةٌ، بعضُها على شرط الصحيحين). وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٣٧).

(٣) أن يَجتاحَ مالي: أي: يَستأصِلَه ويأتيَ عليه أخْذًا وإنفاقًا؛ مِنَ الجائِحةِ: وهي الآفةُ التي تُهلِكُ الثِّمارَ والأموالَ وتَستأصِلُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١١).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٦٧٢٨) واللفظ لهما، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٦١٥٠).

صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٦)، وابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ١٠٢)، =

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾.

أي: وليس عليكم -أيُّها المُسلِمونَ- إثمٌ في أكلِكم مِن بُيوتِ آبائِكم أو بُيوتِ أمَّهاتِكم، أو بُيوتِ إخوانِكم أو بُيوتِ أخواتِكم، أو بُيوتِ أعمامِكم أو بُيوتِ عَمَّاتِكم، أو بُيوتِ أخوالِكم أو بُيوتِ خالاتِكم[1].

= وابنُ القيم في ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٥٨٤)، وصحَّح إسنادَه ابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٧/ ٦٦٥)، والبوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

قال ابنُ عاشور: (المقصودُ بالأكلِ هنا: الأكلُ بدونِ دَعوةٍ، وذلك إذا كان الطَّعامُ مُحضَرًا دونَ المُختَزَن). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

وقال البِقاعي: (﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ مِن الأبَوَينِ، أو الأبِ أو الأمِّ، بالنَّسَبِ أو الرَّضاعِ؛ فإنَّهم من أولى من رضِيَ بذلك بعد الوالِدَينِ؛ لأنَّهم أشقَّاؤكم، وهم أولياءُ بُيوتِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٦).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ يَشملُ الأبَ الأدنى والأعلى؛ فإنَّ الجَدَّ أَبٌ... قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يَشملُ الأمَّ الدُّنيا التي وَلَدت الإنسانَ، والأُمَّ العُليا التي هي الجَدَّةُ... قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ الأشِقَّاءِ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ لكِنْ بشَرطِ ألَّا تكونَ ذاتَ زَوجٍ؛ فإنْ كانت ذاتَ زَوجٍ والمالُ له لم يكُنْ بَيتًا لأُختي، بل لِزَوجِها، لكِنْ إذا كانت الأُختُ لها بَيتٌ فإنَّه لا بأسَ أن يأكُلَ الإنسانُ من هذا البَيتِ. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ يُقالُ في عَمَّاتِكم مِثلُ ما قيل في أَخَواتِكم، يعني: ما لم تكُنِ العَمَّةُ ذاتَ زَوجٍ، فلا يأكُلُ الإنسانُ مِن بَيتِ زَوجِها؛ لأنَّه له، وليس لها. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ بالنِّسبةِ للأعمامِ والأخوالِ والخالاتِ يَشمَلُ الأدنى مِن هؤلاء والأعلى؛ فالأدنى أخو أبيك بالنِّسبةِ للعَمِّ، والأعلى أخو جَدِّك وإنْ علا، وبالنِّسبةِ للخالِ الأدنى أخو أمِّك، والأعلى أخو جَدَّتِك وإنْ عَلا؛ فإنَّه خالٌ). ((تفسير =

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

أي: وليس عليكم إثمٌ في أكلِكم مِن البُيوتِ التي مفاتيحُها بأيديكم، فوُكِّلتُم بحِفظِها، وأُذِنَ لكم بالتصَرُّفِ فيها[1].

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

أي: وليس عليكم إثمٌ في أكلِكم مِن بُيوتِ أصدقائِكم[2].

= ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٠، ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٢٥٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

قال ابن جُزي: (﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني: الوكَلاءَ والأُجراءَ والعبيدَ الذين يُمسِكونَ مفاتِحَ مخازنِ أموالِ ساداتِهم، فأباح لهم الأكلَ منها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢).

وقال ابن عاشور: (يأكُلُ كُلٌّ منهم ممَّا تحتَ يَدِه بدونِ إذنٍ، ولا يَتجاوَزُ شِبَعَ بطنِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢، ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

قال ابنُ جرير: (إذا أذِنوا لكم في ذلك، عندَ مغيبِهم ومَشهَدِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٣).

وقال ابنُ كثير: (فلا جُناحَ عليكم في الأكلِ منها، إذا عَلِمتُم أنَّ ذلك لا يشُقُّ عليهم، ولا يَكرَهونَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦).

وقال السعدي: (وهذا الحَرَجُ المَنفيُّ عن الأكلِ مِن هذه البُيوتِ، كُلُّ ذلك إذا كان بدونِ إذنٍ، والحِكمةُ فيه معلومةٌ مِنَ السِّياقِ؛ فإنَّ هؤلاء المُسَمَّينَ قد جرت العادةُ والعُرفُ بالمُسامَحةِ في الأكلِ منها؛ لأجْلِ القَرابةِ القَريبةِ، أو التصَرُّفِ التَّامِّ، أو الصَّداقةِ، فلو قُدِّرَ في أحدٍ مِن هؤلاء عَدَمُ المسامَحةِ، والشُّحُّ في الأكلِ المذكورِ: لم يَجُزِ الأكلُ، ولم يرتَفِعِ الحَرَجُ؛ نظَرًا للحِكمةِ والمَعنى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

أي: ليس عليكم إثمٌ في الأكلِ في تلك البُيوتِ المذكورةِ سواءٌ كنتُم مُجتَمِعينَ على الطَّعامِ أم متفرِّقينَ يأكُلُ كلٌّ منكم بمُفرَدِه(١).

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: فإذا دَخلتُم -أيُّها المُسلِمونَ- بُيوتَكم أو بُيوتَ غَيرِكم(٢)، فلْيُسلِّمْ بعضُكم على بَعضٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

قال ابن عطية: (وكان بَعضُ العَرَبِ إذا كان له ضَيفٌ، لا يأكُلُ إلَّا أن يأكُلَ مع ضيفِه، فنزَلت هذه الآيةُ مُبيِّنةً سُنَّةَ الأكلِ، ومُذهِبةً كُلَّ ما خالفَها مِن سُنَّةِ العَرَبِ، ومُبيحةً مِن أكلِ المنفرِدِ ما كان عند العَرَبِ مُحرَّمًا؛ نَحَتْ به نحوَ كَرَمِ الخُلُقِ، فأفرَطَت في إلزامِه، وإنَّ إحضارَ الأكيلِ لحَسَنٌ، ولكِنْ بألَّا يَحرُمَ الانفِرادُ). ((تفسير ابن عطية)) ((٤/ ١٩٦)).

(٢) مِن المفسِّرين مَن أدخلَ في عمومِ ذلك المساجِدَ. ومنهم: ابنُ جرير، وابن العربي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٣).

قال ابن العربي: (أي: ليسَلِّمْ بعضُكم على بعضٍ، وأطلق القولَ؛ لأنَّه قد بيَّن الحُكمَ في بُيوتِ الغيرِ؛ ليَدخُلَ تحت هذا العمومِ كُلُّ بيتٍ كان للغيرِ أو لنفْسِه... فإذا دخَل بيتًا لغَيرِه استأذَن كما تقدَّم، وإن دخَل بيتًا لنفْسِه... إذا كان فيه أهلُه وعيالُه وخَدَمُه، فلْيَقُلْ: السلامُ عليكم؛ فإنَّهم أهلٌ للتحيَّةِ منه... والذي أختارُه إذا كان البيتُ فارغًا أنَّه لا يلزَمُ السَّلامُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٧).

قال السعدي: (﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكرةٌ في سِياقِ الشَّرطِ؛ يشملُ بيتَ الإنسانِ وبيتَ غَيرِه، سواءٌ كان في البيتِ ساكنٌ أم لا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

وقال ابنُ حجرٍ: (ويدخُلُ في عُمومِ إفشاءِ السَّلامِ: السَّلامُ على النفْسِ لِمنْ دخَل مكانًا ليس =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رجُلًا سأل رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الإسلامِ خَيرٌ؟ قال: ((تُطعِمُ الطَّعامَ، وتَقرأُ السَّلامَ على مَن عَرَفتَ ومَن لم تَعرِفْ))(١).

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾.

أي: لِيُحَيِّ بَعضُكم بَعضًا -أيُّها المُسلِمونَ- بالسَّلامِ تحيةً شرَعَها اللهُ لكم كثيرةَ الخيراتِ والبَرَكاتِ، عظيمةَ الثَّوابِ والحَسَناتِ، جميلةً في ألفاظِها، حَسَنةً في معانيها، تجلِبُ المحبَّةَ والمَودَّةَ، وتَطِيبُ بها نفْسُ سامِعيها(٢).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خلَقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ آدمَ على صورتِه، طولُه ستُّونَ ذِراعًا، فلمَّا خلَقَه قال: اذهَبْ فسلِّمْ على أولئِك النَّفرِ -وَهم نفَرٌ منَ الملائِكةِ جلوسٌ- فاستَمِعْ ما يُجيبونَك؛ فإنَّها تحيَّتُك، وتحيَّةُ ذرِّيَّتِك. قال: فذَهبَ فقال: السَّلامُ عليكم. فقالوا: السَّلامُ عليكَ

= فيه أحَدٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآيةَ. وأخرَج البخاريُّ في الأدَبِ المُفرِدِ، وابنُ أبي شيبةَ بسَنَدٍ حَسَنٍ، عن ابنِ عُمَرَ: «فيُستحَبُّ إذا لم يكُنْ أحَدٌ في البيتِ أن يقولَ: السَّلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصَّالحينَ»، وأخرج الطبريُّ عن ابنِ عباسٍ، ومِن طريقِ كُلٍّ مِن عَلْقَمةَ وعَطاءٍ ومُجاهِدٍ، نحوَه. ((فتح الباري)) (١١/ ٢٠).

(١) رواه البخاري (٢٨)، ومسلم (٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (هي مِن جوامِعِ الكَلِمِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن التحيَّةِ تأنيسُ الدَّاخِلِ بتأمينِه إن كان لا يَعرِفُه، وباللُّطفِ له إن كان معروفًا. ولفظُ «السَّلام» يجمَعُ المعنيينِ؛ لأنَّه مشتَقٌّ مِن السَّلامةِ، فهو دُعاءٌ بالسَّلامةِ، وتأمينٌ بالسَّلامِ؛ لأنَّه إذا دعا له بالسَّلامةِ فهو مسالِمٌ له، فكان الخَبَرُ كنايةً عن التأمينِ، وإذا تحقَّق الأمْرانِ حصَل خيرٌ كثيرٌ؛ لأنَّ السَّلامةَ لا تُجامِعُ شيئًا مِن الشَّرِّ في ذاتِ السَّالمِ، والأمانَ لا يُجامِعُ شَيئًا مِن الشَّرِّ يأتي مِن قِبَلِ المعتدي، فكانت دُعاءً تُرجَى إجابتُه، وعهدًا بالأمنِ يَجِبُ الوفاءُ به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٤).

ورحمةُ اللَّهِ. قال: فزادوهُ: ورحمةُ اللَّهِ...)) الحديثَ[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَدخُلونَ الجنَّةَ حتَّى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُم علَى شَيءٍ إذا فعلتُموه تحابَبتُم؟ أفشُوا السَّلامَ بيْنَكُم))[٢].

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

مناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما في السُّورةِ الكريمةِ مِنَ الأحكامِ المُحكَمةِ، والشَّرائعِ المُتقَنةِ المُبرَمةِ، نَبَّه تعالى على أنَّه يُبَيِّنُ لعبادِه الآياتِ بيانًا شافيًا؛ ليَتَدبَّروها ويتعَقَّلوها[٣].

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ- الأحكامَ[٤] بهذا الوُضوحِ والتَّمامِ، كذلك يبَيِّنُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وشرائعِ الإسلامِ، بيانًا تامًّا واضِحًا شافيًا؛

(١) رواه مسلم (٢٨٤١).

(٢) رواه مسلم (٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨).

(٤) قال ابن جرير: (وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: هكذا يفصِّلُ الله لكم معالِمَ دينِكم فيُبيِّنُها لكم، كما فصَّل لكم في هذه الآيةِ ما أحلَّ لكم فيها، وعرَّفكم سبيلَ الدخولِ على مَن تدخلونَ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤).

وقال ابن عطية: (والكافُ مِن قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كافُ تشبيهٍ، وذلك إشارةٌ إلى هذه السُّننِ، أي: كهذا الذي وصَف يَطَّرِدُ تبيينُ الآياتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٧).

وقال الشوكاني: (والإشارةُ بقولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ إلى مصدرِ الفعلِ الَّذي بعْدَه، كما في سائرِ المواضعِ في الكتابِ العزيزِ، أي: مِثْلُ ذلك التَّبيينِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على ما شَرَعه لكم مِن الأحكامِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠).

لِتَفهموها وتتدبَّروها، وتَعمَلوا بها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ تفريعٌ على الإذنِ لهم في الأكلِ مِن هذه البُيوتِ، بأن ذكَّرَهم بأدَبِ الدُّخولِ المتقدِّمِ في قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]؛ لئلَّا يجعَلوا القَرابةَ والصَّداقةَ والمُخالَطةَ مُبيحةً لإسقاطِ الآدابِ؛ فإنَّ واجِبَ المرءِ أن يلازِمَ الآدابَ مع القريبِ والبعيدِ، ولا يغُرَّنَّه قَولُ النَّاسِ: إذا استوى الحُبُّ سقَطَ الأدَبُ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإنَّ مَعرفةَ أحكامِ اللهِ تعالى الشَّرعيَّةِ على وَجهِها تَزيدُ في العَقلِ، وينمو به اللُّبُّ؛ لِكَونِ معانيها أجَلَّ المعاني، وآدابُها أجَلَّ الآدابِ، ولأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكلَّما استعمَلَ عقلَه للعَقلِ عن رَبِّه، وللتفَكُّرِ في آياتِه التي دعاه إليها؛ زادَه مِن ذلك[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ فيه دليلٌ على قاعدةٍ عامَّةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

كُلِّيَّةٍ، وهي: أنَّ (العُرفَ والعادةَ مُخَصِّصٌ للألفاظِ، كتَخصيصِ اللَّفظِ للَّفظِ)؛ فإنَّ الأصلَ: أنَّ الإنسانَ مَمنوعٌ مِن تناوُلِ طَعامِ غَيرِه، مع أنَّ اللهَ أباح الأكلَ مِن بُيوتِ هؤلاء؛ لِلعُرفِ والعادةِ، فكُلُّ مسألةٍ تتوقَّفُ على الإذنِ مِن مالِكِ الشَّيءِ، إذا عُلِمَ إذنُه بالقَولِ أو العُرفِ، جاز الإقدامُ عليه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ بيانُ رحمةِ اللهِ سبحانه وتعالى، وسهولةِ هذه الشريعةِ في نَفيِ الحَرَجِ عمَّن يَستحِقُّه؛ ويَلحَقُ بذلك سائِرُ العاهاتِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ الأحكامُ تدورُ مع عِلَلِها، فإذا وُجِدَتِ العِلَّةُ في الحُكمِ ثَبَتَ، وإذا انتفتِ انتفَى الحُكمُ؛ لأنَّ نفيَ الحَرَجِ عن هؤلاء إنَّما كان لهذه العِلَّةِ التي فيهم، فإذا بَرِئ المريضُ واستقامُ، ومشى الأعرجُ، ورَدَّ اللهُ البصرَ على الأعمى؛ انتفَى هذا الحُكمُ في حقِّهم، وثَبَتَ في حقِّهم ما يثبُتُ في حقِّ السَّالِمينَ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ...﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ جوازُ الأكلِ مِن بُيوتِ هؤلاء المذكورينَ -ما لم يُعلَمْ عدَمُ رضاهم- سواءٌ بإذنٍ أو بغيرِ إذنٍ[4]؛ إذْ لو كان بإذْنٍ ما كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشنقيطي: (ظاهِرُ القرآنِ أنَّ ذلك جائِزٌ مِن غيرِ إذْنٍ، وبعضُهم يقَيِّدُه بالإذنِ، وهذه المسألةُ ذاتُ طرفَينِ وواسطةٍ:

الطرَفُ الأول: أن يُعلَمَ أنَّهم راضون بالأكلِ، وهذا لا كلامَ في جوازه. =

لاختِصاصِ هؤلاء معنًى؛ لأنَّ الإذنَ يُبيحُ مِن جميعِ الأمكِنةِ، لكن بِشَرطِ ألَّا يُفْسِدَ ولا يَحْمِلَ[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ المتصَرِّفَ في بيتِ الإنسانِ -كزَوجتِه، وأُختِه، ونَحوِهما- يجوزُ له الأكلُ عادةً، وإطعامُ السَّائِلِ المُعتاد[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ لم يذكُرْ بُيوتَ الأولادِ؛ اكتِفاءً بذِكرِ ﴿بُيُوتِكُمْ﴾؛ لأنَّ ولَدَ الرَّجُلِ بَعضُه، وحُكمُه حُكمُ نفْسِه، وبَيتُه بَيتُه[3]، فبُيوتُ الأبناءِ داخلةٌ في بُيوتهم أنفسِهم؛ فاكتفَى بذِكْرِها دونَها، وإلَّا فبُيوتُهم أقربُ مِن بُيوتِ مَن ذُكِر في الآيةِ[4].

= الطَّرَفُ الثاني: أن يُعلَمَ عَدَمُ الرِّضا، وهذا لا يجوزُ معه الأكلُ بدون إذنٍ، والآيةُ خرجت مخرجَ الغالبِ؛ فإنَّ الغالِبَ في الأقارِبِ والأصدقاءِ الرِّضا والسَّماحُ.

والواسطة: أن يُجهَلَ حالُ القريبِ أو الصديقِ مِن جِهةِ الرضا وعَدَمِه، والأظهرُ الجوازُ؛ لإطلاقِ الآيةِ، ولأنَّ العادةَ جرت بالتسامُحِ في مثل ذلك). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٨٨).

قال ابن العربي: (وأما بيتُ الابنِ... كبَيتِ المرءِ نفْسِه... فيما كان غيرُ مُحرزٍ؛ فلا يَتبسَّط الأبُ على الابنِ في هَتكِ حِرزٍ وأخذِ مالٍ؛ وإنَّما يأكُلُه مُسترسلًا فيما لم يقَعْ فيه حيازةٌ، ولكنْ بالمعروفِ، دُونَ فسادٍ ولا استِغنامٍ، وأمَّا بيتُ الأبِ للابنِ فمِثلُه، ولكنَّ تبسُّطَ الابنِ أقَلُّ مِن =

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ فيه أنَّ مالَ ابنِ الإنسانِ مالٌ له. وجْهُ الدلالةِ مِن الآيةِ: أنَّه لم يَذْكُرِ الأولادَ؛ فدلَّ على أنَّ المرادَ بالبُيوتِ بُيوتُكم وبُيوتُ أولادِكم، ولقولِه صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولَدَه مِن كَسْبِه))[1]، وقولِه[2]: ((أنت ومالُك لأبيكَ))[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾ احتَجَّ أبو حنيفةَ رحمه اللهُ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن سرَقَ مِن ذي رَحِمٍ مَحرَمٍ، أنَّه لا يُقطَعُ؛ لإباحةِ الله تعالى بهذه الآيةِ الأكلَ مِن بُيوتِهم، ودُخولَها بغَيرِ إذنِهم؛ فلا يكونُ مالُه مُحرَزًا منهم[4].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾ قد يَستَدِلُّ به من يُوجِبُ نفَقةَ الأقاربِ بَعضِهم على بَعضٍ، كما هو مذهبُ الإمامِ أبي حنيفةَ والإمامِ أحمَدَ بنِ حَنبلٍ،

= تبسُّطِ الأبِ، كما كان تبسُّطُ الزَّوجِ أقَلَّ مِن تبسُّطِ الزَّوجةِ. ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٤).

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٨٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٣). ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجَصَّاص (٦/ ٢٦٦)، ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٥/ ٣٨١).

في المشهورِ عنهما[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ عدَلَ الصَّديقَ هنا بالقَريبِ؛ تنبيهًا على شريفِ رُتبةِ الصَّداقةِ، ولَطيفِ سِرِّها، وخَفِيِّ أمرِها[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ للصَّداقةِ حقًّا، وهو كذلك، والسببُ: الصِّلةُ التي بيْنَك وبيْنَه[٣]، قال جَعفرُ بنُ محمَّدٍ: (مِن عِظَمِ حُرمةِ الصَّديقِ أن جعَلَه كالنفْسِ والأبِ ومَن معَه)[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فيه رخصةٌ مِنَ اللَّهِ تعالَى في أنْ يأكلَ الرجُلُ وحْدَه، ومعَ الجماعةِ، وإنْ كان الأكلُ معَ الجماعةِ أفضَلَ وأبرَكَ[٥].

١٣- قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فيه إباحةُ اجتِماعِ الجَماعةِ على الأكلِ، وإن تفاوَتوا فيه[٦].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ وصَفَها بالبَرَكةِ والطِّيبِ؛ لأنَّها دَعوةُ مُؤمِنٍ لِمُؤمنٍ، يُرجَى بها مِن اللهِ زيادةُ الخَيرِ، وطِيبُ الرِّزقِ[٧]، ولِما فيها مِن نيَّةِ المُسالَمةِ، وحُسنِ اللِّقاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

ويُنظر في مذهب الحنفية: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (٣/ ٦٤)، وفي مذهب الحنابلة: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٨).

والمُخالطةِ، وذلك يُوفِّرُ خَيرَ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ(١).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ جعَلَهم سُبحانَه مِن «أنفُسِهم»؛ لأنَّ المؤمنَ للمُؤمِنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا، فهو كقَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨]، فالمعنى إذَنْ: سَلِّموا على مَن فيها؛ لأنَّكم وإيَّاهم نفْسٌ واحِدةٌ(٢)، فالمسلمون كأنَّهم شخصٌ واحدٌ، مِن تَوادُدِهم، وتراحمِهم، وتعاطفِهم(٣). وقيل: عبَّر بـ﴿أَنفُسِكُمْ﴾؛ ترغيبًا في السلامِ، والإحسانِ في الإكرامِ، ولتصلحَ العبارةُ لِما إذا لم يكنْ فيها أحدٌ، فيقالُ حينَئذٍ: (السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحينَ)(٤)، وذلك على أحدِ القولينِ. وقيل: قولُه: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: على أهْلِ البُيوتِ، وفي التَّعبيرِ عنهم بالأنفُسِ تَنبيهٌ على السِّرِّ الَّذي اقْتَضى إباحةَ الأكْلِ مِن هذه البُيوتِ المعدودةِ، وأنَّ ذلك إنَّما كان لأنَّها بالنِّسبةِ إلى الدَّاخلِ كبَيْتِ نفْسِه؛ لاتِّحادِ القرابةِ، فلْيَطِبْ نفْسًا بالبساطِ فيها(٥).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فضيلةُ السَّلامِ؛ فقد وَصَفَه اللهُ تعالى بثلاثةِ أوصافٍ: أنَّها تحيةٌ مِن عنده، وأنَّها مُباركةٌ، وطيِّبةٌ، وذلك مِن الآياتِ التي بيَّنَها الله تعالى للعبادِ وأوضحَها لهم؛ لِما في ذلك مِن جَلبِ المودَّةِ والمحبَّةِ والخيرِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية ابن المنير على تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٠).

بلاغةُ الآيةِ:

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ... ﴾ فائدةُ الإخبارِ برَفعِ الجُناحِ عمَّن أكَلَ مِن بَيتِه: التَّوطِئةُ؛ لِيَبْنيَ عليه ما يَعطِفُه على جُملتِه مِن البُيوتِ الَّتي قُصِدَ إباحةُ الأكلِ منها؛ فإنَّه إذا عُلِمَ أنَّ الإنسانَ لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن بَيتِه، فكذلك لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن هذه البُيوتِ؛ لِيُشيرَ إلى أنَّ أموالَ هذه القرابةِ كَمالِ الإنسانِ؛ فيكونُ سُبحانه قد أدمَجَ في ذلك الحضَّ على صِلَةِ الأرحامِ، ومُعامَلَتِهم مُعامَلةَ الإنسانِ نفْسَه[1].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أُعِيدَ حرفُ (لا) مع المعطوفِ على المَنْفيِّ قبْلَه؛ تأكيدًا لمعنى النَّفيِ، وهو استعمالٌ كثيرٌ[2].

- قولُه: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ فيه تَخصيصُ هؤلاء بالذِّكرِ؛ لاعتيادِهم التَّبسُّطَ فيما بيْنهم[١]، وقدَّمَ الأبَ؛ لأنَّه أجَلُّ، وهو حاكِمُ بَيتِه دائمًا، والمالُ له[٢].

- قولُه: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الصَّديقِ بالإفرادِ، كما في قولِه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]؛ حيث أفرَدَ الصَّديقَ دونَ الشَّافعينَ؛ قِيلَ: وسِرُّ ذلك: التَّنبيهُ على قِلَّةِ الأصدقاءِ. ويَحتمِلُ في الآيتينِ -واللهُ أعلَمُ- أنْ يكونَ المُرادُ به الجمْعَ؛ فالصَّديقُ يقَعُ على الواحدِ وعلى الجمْعِ؛ ككلمةِ (العدوِّ)، كما في قولِه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]، فالمعنى: (أو بيوتِ أصدقائِكم)، فالمرادُ به هنا جمعٌ؛ ليُناسبَ ما ذُكِر قبلَه مِن الجموعِ في قولِه: ﴿ءَابَآئِكُمْ﴾ و﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وغيرِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ لِبَيانِ حُكْمٍ آخَرَ مِن جنسِ ما بُيِّنَ قبْلَه[٤].

- وأُعِيدت جُملةُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ تأكيدًا للأُولى في قولِه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ إذ الجُناحُ والحرَجُ كالمُترادفَينِ. وحَسُنَ هذا التَّأكيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

بعْدَما بيَّنَ الحالَ وصاحِبَها، وهو واوُ الجَماعةِ في قولِه: ﴿أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، ولأجْلِ كونِها تأكيدًا فُصِلَت بلا عطْفٍ[١].

- وقولُه: ﴿أَشْتَاتًا﴾ على القولِ بأنَّه في الأصْلِ مَصدرٌ؛ فيكونُ وصَفَ به مُبالَغةً[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تكريرُه ثلاثًا؛ لِمَزيدِ التَّأكيدِ، وتَفخيمِ الأحكامِ المُختتَمةِ به. وفي تَعليلِ هذا التَّبيينِ بهذه الغايةِ القُصوى -﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾- بعْدَ تَذييلِ الأوَّلَينِ بـ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨ و٥٩] بما يُوجِبُهما مِن الجَزالةِ: ما لا يَخْفى[٣].

- وقدِ اشتمَلَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ أيضًا على أنواعٍ مِن فُنونِ البلاغةِ والبديعِ؛ منها: صِحَّةُ التَّقسيمِ؛ وذلك لاستيعابِ الكلامِ جميعَ أقسامِ الأقاربِ القريبةِ، بحيث لم يُغادِرْ منها شيئًا. ومنها: التَّهذيبُ؛ وذلك في انتقالِ الكلامِ على مُقْتضى البلاغةِ في هذا المكانِ؛ فإنَّ مُقْتضى البلاغةِ تَقديمُ الأقربِ فالأقرَبِ كما جاء فيها. ومنها: حُسْنُ النَّسقِ؛ وذلك في اختيارِه (أو) لِعطْفِ الجُمَلِ، وهي تدُلُّ على الإباحةِ. ومنها: المُناسَبةُ؛ وذلك بمُناسَبةِ الألفاظِ بعْضِها ببَعضٍ في الزِّنَةِ، وهي واضحةٌ في الألفاظِ (آبائِكم- إخوانِكم- أعمامِكم- أخوالِكم). ومنها: المثَلُ؛ وذلك في قولِه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، حيث خرَجَ مَخرَجَ المثَلِ السَّائرِ الَّذي يصِحُّ أنْ يُتمثَّلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٥).

به في كلِّ واقعةٍ تُشبِهُ واقعتَه. ومنها: التَّذييلُ؛ فإنَّ الكلامَ الَّذي خرَجَ مَخرَجَ المثَلِ جاء تَذييلًا لمعنى الكلامِ المُتقدِّمِ؛ لِقَصْدِ تَوكيدِه وتَقريرِه[١].

- وقولُه: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ قولُه: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافها اللهُ إليه؛ لأنَّه هو الذي شَرَعها وأمَرَ بها، يعني: هذه التحيَّةُ مِن عندِ الله، أو لأنَّه غايتُها، أي: الذي تَنتهي إليه هذه التحيَّةُ لِيُثيبَ عليها ويُجيبَها؛ لأنَّك تقول: السَّلامُ علينا، أو السَّلامُ عليكم؛ فهي تُطلَبُ منه، فهو غايتُها، أو هو مُشَرِّعُها[٢].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥٤- ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٧).

الآيات (٦٢-٦٤)

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ
حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(٦٢) لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ (٦٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: أي: يَخرُجونَ مِن الجَماعةِ واحِدًا وَاحِدًا خُفْيَةً، والتَّسلُّلُ هو الخروجُ على خُفْيَةٍ، وأصلُه يدُلُّ على مَدِّ الشَّيءِ فِي رِفقٍ وخَفاءٍ[١].

﴿لِوَاذًا﴾: أي: مُستَتِرًا بعضُهم ببَعضٍ، وأصلُ (لوذ): يدُلُّ على إطافةِ الإنسانِ بالشَّيءِ مُستعيذًا به ومُتَستِّرًا[٢].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي كُفرٌ وضلالةٌ، والفتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٩٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه تعالى: ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المصدرُ ﴿دُعَآءَ﴾ مُضافًا لِمَفعولِه، أي: دعاءَكم الرَّسولَ، بمعنى: لا تنادُوه باسمِه ولا بكُنيتِه، بل نادُوه وخاطِبوه بالتوقيرِ: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مُضافًا للفاعِلِ، أي: لا تَجعَلوا دعاءَه إيَّاكم كدُعاءِ بعضِكم لبعضٍ؛ فتَتباطَؤُوا عنه كما يتباطَأُ بعضُكم عن بعضٍ إذا دعاه لأمرٍ، بل يجبُ عليكم المبادرةُ لأمرِه صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل غيرُ ذلك.

- قَولُه تعالى: ﴿لِوَاذًا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّه مَنصوبٌ على المصدَرِ مِن معنى الفِعلِ الأوَّلِ، أي: يَتَسَلَّلون منكم تَسَلُّلًا، أو يُلاوِذون لِواذًا. والثَّاني: أنَّه مَصدرٌ في موضعِ الحالِ، أي: مُلاوِذين[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما يَنبغي أن يكونَ عليه المؤمنونَ مع نبيِّهم صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: إنَّما المُؤمِنونَ حَقًّا هم الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وإذا كانوا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرٍ مُهِمٍّ جمَعَهم له، لم ينصَرِفْ أحَدٌ منهم حتى يستأذِنَه. إنَّ الذين يَستأذِنونَك -أيُّها النبيُّ- هم المؤمِنونَ حَقًّا، فإذا استأذَنَك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٣٠)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٤٦-٤٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤١٥)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٨/ ٢٩٩).

هؤلاء المؤمِنونَ لِبَعضِ حاجتِهم، فَأْذَنْ لِمَن شِئتَ إن كان فيه حِكمةٌ ومَصلحةٌ، واطلُبْ لهم العَفوَ والمغفرةَ مِن الله؛ إنَّ اللهَ عظيمُ المغفرةِ، واسِعُ الرَّحمةِ.

ثمَّ يُوجِّهُهم إلى أدبٍ آخَرَ فيه مِن التوقيرِ والتعظيمِ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: لا تَجعَلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- دُعاءَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاكم كدُعاءِ بعضِكم لبَعضٍ؛ فتَتباطَؤُوا عنه كما يتباطأُ بعضُكم عن بعضٍ إذا دعاه لأمرٍ، بل يجِبُ عليكم المبادرةُ لأمرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ولا تُنادوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسمِه مُجَرَّدًا كما يُنادي بَعضُكم بَعضًا باسمِه، ولكِنْ عَظِّموه ووَقِّروه، وقولوا: يا نبيَّ اللهِ، يا رَسولَ اللهِ.

ثمَّ يحذِّرُ الله تعالى المنافقينَ مِن سوءِ عاقبةِ أفعالِهم، فيقولُ: قد عَلِمَ اللهُ المنافِقينَ الذين يَخرُجونَ مِن الجماعةِ في خُفيةٍ مُستَتِرينَ، فليَحْذَرِ الذين يُعرِضونَ عن أمرِ رَسولِ اللهِ أن تَنزِلَ بهم فتنةٌ في الدُّنيا، أو يُصيبَهم عذابٌ شَديدٌ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السورةَ بقولِه: لله وحْدَه مُلكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ، قد عَلِمَ سُبحانَه كُلَّ شُؤونِكم، ويومَ يُرجَعُ العِبادُ إليه سُبحانَه، فيُخبِرُهم بما فعَلوا في الدُّنيا، ويُجازي كُلًّا بعمَلِه، واللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، لا يَخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا جرى الكلامُ السَّابِقُ في شأنِ الاستِئذانِ للدُّخولِ، عقَّب ذلك بحُكمِ

الاستئذانِ للخُروجِ ومُفارقةِ المجامِعِ، فاعتُنِي من ذلك بالواجِبِ منه، وهو استِئذانُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُفارَقةِ مَجلِسِه، أو مُفارَقةِ جَمعٍ جُمِعَ عن إذْنِه لأمرٍ مُهِمٍّ؛ كالشُّورى، والقِتالِ، والاجتِماعِ للوعظِ، ونحوِ ذلك(١).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: إنَّما المُؤمِنونَ حَقَّ الإيمانِ، الكامِلونَ في إيمانِهم: هم الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه ظاهِرًا وباطِنًا، إيمانًا صحيحًا صادِقًا، يتضَمَّنُ القَبولَ والإذعانَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٤).

قال القرطبي: («إنَّما» في هذه الآيةِ للحَصرِ، المعنى: لا يَتِمُّ ولا يَكمُلُ إيمانُ مَن آمَنَ باللهِ ورَسولِه إلَّا بأن يكونَ مِنَ الرَّسولِ سامِعًا غَيرَ مُعْنِتٍ؛ في أن يكونَ الرَّسولُ يُريدُ إكمالَ أمرٍ، فيُريدُ هو إفسادَه بزَوالِه في وقتِ الجَمْعِ، ونحوِ ذلك، وبَيَّنَ تعالى في أوَّلِ السُّورةِ أنَّه أنزل آياتٍ بَيِّناتٍ، وإنَّما النُّزولُ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فختَم السُّورةَ بتأكيدِ الأمرِ في مُتابعتِه عليه السَّلامُ؛ لِيُعلَمَ أنَّ أوامِرَه كأوامِرِ القُرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (المقصودُ: إظهارُ علامةِ المؤمِنينَ، وتَمييزُهم عن عَلامةِ المُنافِقينَ؛ فليس سِياقُ الآيةِ لبَيانِ حقيقةِ الإيمانِ؛ لأنَّ للإيمانِ حَقيقةً مَعلومةً ليس استِئذانُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند إرادةِ الذَّهابِ من أركانِها؛ فعُلِمَ أنْ ليس المقصودُ مِن هذا الحَصرِ سَلبَ الإيمانِ عن الذي يَنصَرِفُ دونَ إذنٍ مِن المؤمِنينَ الأحِقَّاءِ، لو وَقَع منه ذلك عن غيرِ قَصدِ الخَذْلِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو أذاهُ؛ إذ لا يَعْدو ذلك -لو فعَله أحَدُ المؤمِنينَ- عن أن يكونَ تَقصيرًا في الأدَبِ يَستَحِقُّ التَّأديبَ والتَّنبيهَ على تجنُّبِ ذلك؛ لأنَّه خَصلةٌ مِنَ النِّفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).

﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾.

أي: وإذا كانوا مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمرٍ مُهِمٍّ يجمَعُهم؛ كالجِهادِ، أو التَّشاوُرِ في أمرٍ ما- لم يُفارِقوا الرَّسولَ وينصَرِفوا لحاجتِهم حتى يَطلُبوا منه الإذنَ[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: إنَّ الذين يَطلُبونَ منك -أيُّها النبيُّ- أن تأذَنَ لهم بالانصرافِ لِعُذرٍ: أولئك الذين يُؤمِنون باللهِ ورَسولِه حقًّا، وليسوا بمُنافِقين[(٢)].

﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: فإذا طلَبَ المؤمِنونَ منك -أيُّها النبيُّ- أن تأذنَ لهم بالانصِرافِ لحاجتِهم إلى قَضاءِ بَعضِ أمورِهم؛ فأْذَنْ لِمَن تشاءُ منهم، وامنَعْ مَن تشاءُ إن كانت المصلحةُ تَقضي بعدَمِ ذَهابِه[(٣)].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

أي: وادْعُ اللهَ -أيُّها النبيُّ- أن يغفِرَ لهؤلاء المُستأذِنينَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ كثيرُ المَغفِرةِ والرَّحمةِ، يَغفِرُ لعبادِه ذُنوبَهم ويَرحَمُهم، ومِن رَحمتِه أنْ جوَّز للمَعذورينَ الاستِئذانَ(١).

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الاجتِماعُ للرَّسولِ في الأُمورِ يقعُ بعْدَ دَعوتِه النَّاسَ للاجتماعِ، وقد أمَرهم اللهُ ألَّا يَنصَرِفوا عن مجامِعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا لعُذرٍ بعْدَ

= (ص: ٥٧٦).

قال البيضاوي: (﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذنِ؛ فإنَّ الاستئذانَ ولو لعُذرٍ قُصورٌ؛ لأنَّه تقديمٌ لأمرِ الدُّنيا على أمرِ الدِّينِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

وقال السعدي: (ومع هذا إذا استأذن وأُذِنَ له، بشَرطَيْهِ؛ أمرَ اللهُ رسولَه أن يستغفِرَ له؛ لِما عسى أن يكون مقصِّرًا في الاستئذانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا الاستِغفارُ لهم لِتَطيبَ قُلوبُهم إذا انصَرَفوا عن هذا الجَمعِ، وفاتَهم أجرُه، فاستغفَرَ لهم الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ قُلوبَهم تطيبُ بالانصرافِ، ولا يبقى في قلوبِهم حَرَجٌ وقَلَقٌ. هذا من جهةٍ.

ومِن جهةٍ أخرى: يَستغفِرُ لهم؛ لأنَّه قد يكونُ في استِئذانِهم هذا أمرٌ لا يُعذَرونَ فيه؛ هم ظَنُّوه عُذرًا فاستأذنوا مِن أجْلِه، وهو ليس بعُذرٍ عندَ الله، ويكونُ استغفارُك لهم ماحيًا لِما عسى أن يكونَ مِن التقصيرِ والتَّفريطِ في ذلك، واستغفارُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنْ يقولَ: انصَرِفوا، غفَرَ اللهُ لكم، أو: اللهُمَّ اغفِرْ لهم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٧، ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

إذنِه؛ أنبَأَهم بهذه الآيةِ وُجوبَ استِجابةِ دَعوةِ الرَّسولِ إذا دعاهم[١]، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ هذه السُّورةَ العظيمةَ وما فيها مِن الآدابِ السَّاميةِ، خَتَمَها بأدبٍ اجتماعيٍّ لائقٍ برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو احترامُه في الخِطابِ[٢].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَت الآيةُ السَّابقةُ وُجوبَ الاستِئذانِ عندَ إرادةِ الانصِرافِ مِن مَجلِسِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بَيَّنَت هذه الآيةُ وُجوبَ تَلبيةِ دَعوتِه إذا دعا -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وفَضَحت حالةَ الذين يَتسَلَّلونَ غيرَ مُستأذِنينَ، وحَذَّرَت مِن فِعْلِهم، وأوعَدَت الوَعيدَ الشَّديدَ للمُخالِفينَ أمثالِهم[٣].

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾.

أي: لا تَعتَقِدوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ دَعوةَ الرَّسولِ لكم للاجتِماعِ غَيرُ واجِبةٍ، كما يدعو بعضُكم بعضًا؛ ولا تنادُوا الرَّسولَ بقِلَّةِ احترامٍ وتوقيرٍ، كمناداتِه باسمِه مُجَرَّدًا، أو برَفعِ الصَّوتِ مِثلَما ينادي بعضُكم بعضًا؛ فإجابةُ الرَّسولِ لازِمةٌ، والتأدُّبُ معه واجِبٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨، ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٦ - ٥٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣ - ٤٣٥).

مِمَّن اختار أنَّ معنى الآيةِ: لا تَدْعوه باسمِه، كما يدعو بعضُكم بعضًا، بل قولوا: يا رسولَ الله، يا نبيَّ الله. فعلى هذا: المصدرُ مضافٌ إلى المفعولِ، أي: دعاءَكم الرَّسولَ. ممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

= سليمان)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٦).

قال الواحدي: (وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين، واختيارُ الفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ). ((البسيط)) (١٦/ ٣٨٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٥٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والحسن في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٤).

وممَّن اختار أنَّ معنَى الآيةِ: لا تجعلوا دُعاءَه -صلَّى الله عليه وسلَّم- لكم بمنزلةِ دُعاءِ بَعضِكم بَعضًا؛ إن شاء أجاب، وإن شاء تَرَك، بل إذا دعاكم لم يكُنْ لكم بُدٌّ مِن إجابتِه، ولم يَسَعْكم التخَلُّفُ عنها البتَّةَ. فعلى هذا: المصدرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ، أي: دُعاؤه إيَّاكم. ممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).

وممَّن جمَع بينَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (يجوزُ أن نجعَلَها شامِلةً للمعنَيينِ؛ لأنَّنا أسلَفْنا قاعدةً في هذا، وهي: أنَّ الآيةَ إذا كانت تحتَمِلُ المعنيينِ بدونِ تناقُضٍ، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا... فعليه نقولُ: إنَّ هذا مِن بابِ الأدَبِ في مخاطبةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأدَبِ في إجابتِه؛ ففي مُخاطبتِه لا نجعَلُ مُخاطبتَه ودُعاءَنا إيَّاه كدُعاء غيرِه، وفي إجابتِه لا نجعَلُ دُعاءَه وطَلَبَه لأمرٍ مِن الأمورِ كطَلَبِ غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣).

وقال ابنُ عبَّاسٍ في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال: (دَعوةُ الرَّسولِ عليكم مُوجِبةٌ؛ فاحذَروها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٨).

وقال ابنُ كثير: (والقَولُ الثَّاني في ذلك أنَّ المعنى في: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تعتَقِدوا أنَّ دُعاءَه على غيرِه كدُعاءِ غَيرِه؛ فإنَّ دُعاءَه مُستجابٌ؛ فاحذَروا أن يَدعوَ عليكم فتَهلِكوا. حكاه ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، والحَسَنِ البَصريِّ، وعطيَّةَ العَوْفيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وأبو القاسم نجم الدين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٩)، ((إيجاز البيان)) لنجم الدين (٢/ ٦٠٧). =

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ المُنافِقينَ الذين ينصَرِفونَ خُفيةً عن اجتِماعِ المُسلِمينَ، فيَخرُجونَ بلا استِئذانٍ، مُستَتِرينَ؛ مخافةَ أن يراهم أحدٌ، وسيُجازيهم اللهُ على ذلك(١).

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾.

أي: فلْيحذَرِ الذين يُعرِضونَ عن أمرِ الرَّسولِ أن تُصيبَهم فِتنةٌ في الدُّنيا(٢).

= وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والشعبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٣١).

قال الشنقيطي: (هذا الوَجهُ الأخيرُ يأباه ظاهِرُ القُرآنِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ يدُلُّ على خِلافِه، ولو أراد دُعاءَ بَعضِهم على بَعضٍ، لقال: لا تجعَلوا دُعاءَ الرَّسولِ عليكم كدُعاءِ بَعضِكم على بَعضٍ؛ فدُعاءُ بَعضِهم بعضًا، ودُعاءُ بَعضِهم على بَعضٍ: مُتغايِرانِ، كما لا يخفى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥٨).

وممَّن استبعد هذا الوَجهَ الأخيرَ أيضًا: ابنُ عطية، وابنُ الفرس، وابن جُزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١،٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨ - ٥٦٠)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨). =

= قال الشنقيطي: (الضَّميرُ في قَولِه: ﴿عَنْ أَمْرِهِۦ﴾ راجعٌ إلى الرَّسولِ، أو إلى اللهِ، والمعنى واحِدٌ؛ لأنَّ الأمرَ مِنَ اللهِ، والرَّسولُ مُبلِّغٌ عنه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥٨).

وقال ابن عطية: (قوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ﴾ معناه: يقعُ خلافُهم بعْدَ أمرِه، وهذا كما تقولُ: كان المطرُ عن ريحٍ، و«عن» هي لِما عدا الشَّيءَ، والفِتنةُ في هذا الموضِعِ: الإخبارُ بالرَّزايا في الدُّنيا، وبالعذابِ الأليمِ في الآخرةِ، ولا بدَّ للمُنافقينَ مِن أحدِ هذَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال الإمامُ أحمد رحمه الله تعالى: أيُّ فتنةٍ هي؟ إنما هي الكُفرُ، وكذلك ألبس اللهُ سبحانه الذِّلَّةَ والصَّغارَ لِمن خالفَ أمْرَه). ((مجموع الفتاوى)) (١٩/ ١٠٤).

قال الماوَرْدي: (﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فيها ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحَدُها: كُفرٌ. قاله السُّدِّيُّ. الثاني: عُقوبةٌ. قاله ابنُ كامل. الثَّالِثُ: بَلِيَّةٌ تُظهِرُ ما في قُلوبِهم مِنَ النِّفاقِ. حكاه ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفِتنةِ هنا الكُفرُ والشِّركُ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٨).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: السُّدِّيُّ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ بنِ أَسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢٩).

قال ابنُ كثير: (﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: في قُلوبِهم؛ مِن كُفرٍ، أو نِفاقٍ، أو بدعةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ، وأنَّ المرادَ بالفِتنةِ: العُقوبةُ: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٧).

وقال الشنقيطي: (الفِتنةُ تُطلَقُ على الاختِبارِ، وليست مُرادةً هنا، وتُطلَقُ على نتيجةِ الاختبارِ إذا كانت سيِّئةً، والمرادُ بها هنا العِقابُ؛ كالزَّلازِلِ، والوُلاةِ الجائرينَ، أو الإضلالِ، وهو أن يَختِمَ اللهُ على قُلوبِهم، وهذا أقرَبُ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفِتنةِ هنا: البَلِيَّةُ والمِحْنةُ في الدُّنيا: ابنُ أبي زمنين، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والبيضاوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي =

كما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((جُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ على من خالفَ أمري))(١).

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

= (ص: ٧٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤١٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِنَ السلَفِ: عطاءٌ، وجعفر بن محمد، والحسن، ومجاهد، والكلبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٠).

قال أبو حيان: (والفِتنةُ: القَتلُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ أيضًا. أو بلاءٌ، قاله مجاهِدٌ. أو كُفرٌ، قاله السُّدِّيُّ ومقاتل. أو إسباغُ النِّعَمِ استِدراجًا، قاله الجرَّاحُ. أو قَسوةُ القَلبِ عن مَعرفةِ المعروفِ والمُنكَرِ، قاله الجُنَيد. أو طَبعٌ على القُلوبِ، قاله بعضُهم. وهذه الأقوالُ خرَجَت مَخرجَ التَّمثيلِ لا الحَصرِ، وهي في الدُّنيا). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦).

(١) أخرجه البخاري مُعَلَّقًا بصيغةِ التَّضعيفِ قبْلَ حديث (٢٩١٤)، وأخرجه أحمدُ موصولاً (٥١١٤).

صحَّح إسنادَه الذهبيُّ في ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ٥٠٩)، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٧٠): (فيه عبدُ الرحمنِ بنُ ثابتِ بنِ ثَوْبانَ، وبقيَّةُ رجالِه ثِقاتٌ)، وذكر ابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٣/ ٤٤٥) أنَّ فيه عبدَ الرحمنِ بنَ ثابتٍ: مختلَفٌ في الاحتجاجِ به، وله شاهِدٌ بإسناد حسنٍ، لكنَّه مُرسَل. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٧/ ١٢٢)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١/ ٢٠٠)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ ((صحيح الجامع)) (٢٨٣١).

أي: أو[1] يُصيبَهم عذابٌ مُوجِعٌ؛ لِمُخالفتِهم أمرَ الرَّسولِ[2].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ جاءت بعدَ قَولِه تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ كالدَّليلِ على أنَّ ما هدَّد اللهُ به مِن الفِتنةِ أو العذابِ الأليمِ: أمرٌ لا يُعجِزُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ مانعةُ اجتماعٍ، أو مانِعةُ خُلُوٍّ؟ يعني: هل المعنى: إمَّا هذا أو هذا ولا يجتمعانِ، فتكون مانعةَ اجتماعٍ، مثل: تزوَّجْ هندًا أو أختَها؟ هذه مانعةُ اجتماعٍ؛ لأنَّهما لا يمكِنُ أن يجتَمِعا، فهل نقولُ: إنَّ ﴿ أَوْ ﴾ هذه مانعةُ اجتماعٍ، أو مانعةُ خُلوٍّ؛ بمعنى: أنَّه لا يخلو من أحدِهما، وربما يجتَمِعان؟

الجوابُ: مانِعةُ خُلوٍّ؛ بمعنى: أنَّه لا يخلو مِن أحدِ هذَينِ الأمْرَينِ المتوقَّعينِ، أو منهما جميعًا، لا سيما إذا قُلْنا بأنَّ الفتنةَ: الشِّركُ؛ فإنَّ العذابَ الأليمَ ملازمٌ لها). ((تفسير ابن عثيمين – سورة النور)) (ص: ٤٣٨، ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

قيل: المرادُ بالعذابِ هنا: عذابُ الدنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: في الدُّنيا؛ بقَتلٍ، أو حَدٍّ، أو حبسٍ، أو نحو ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وقيل: المرادُ به: عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطية، والبِقاعي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بمعنى: مُؤلِم، ولم يقيِّدْه اللهُ تعالى بالآخرةِ؛ فقد يكونُ في الدنيا، وقد يكونُ في الآخرةِ، وقد يكونُ فيهما جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين – سورة النور)) (ص: ٤٣٩).

تعالى له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، ومَن كان له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ فإنَّه لا يَعجِزُ عن تنفيذِ ما هدَّد به وإيقاعِه[١].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ألا إنَّ للهِ مُلكَ جَميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، وكلُّهم خَلْقُه وعبيدُه وتحتَ تدبيرِه؛ فلا تنبغي لكم مَعصيتُه[٢].

﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ ما أنتم عليه -أيُّها النَّاسُ- في سِرِّكم وعَلانيتِكم؛ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وطاعةٍ ومَعصيةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾.

أي: ويَومَ[٤] يُرجَعُ النَّاسُ إلى اللهِ فيُخبِرُهم بجَميعِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٠، ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٩).

(٤) كلمةُ ﴿ وَيَوْمَ ﴾ معطوفةٌ على ﴿ مَآ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فيكونُ المعنى: ويعلمُ يومَ يُرجَعونَ إليه. وممَّن قال بهذا: أبو حيان، والشوكاني، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن =

خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازيهم عليه(١).

كما قال تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بجَميعِ الأعمالِ والأحوالِ والنيَّاتِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

= عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

قال الشنقيطي: (الصَّحيحُ أنَّ كَلِمةَ «يومَ» معطوفةٌ على ﴿مَآ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فهو مفعولٌ به، لا مَفعولٌ فيه، أي: هو عالمٌ بحالِكم اليَومَ، وما ستُلاقونَ في يومِ الجزاءِ الذي تُرجَعونَ فيه إليه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٩).

وقال الشهاب الخفاجي: (ويجوزُ تعَلُّقُه بمحذوفٍ يُعطَفُ على ما قبلَه، أي: وسيُنَبِّئُهم يومَ يُرجَعونَ إليه، كما في الكشَّافِ). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦١).

وقال ابن عثيمين: (الله تعالى يَعلمُ متى يرجعون؛ سواءٌ كان رجوعًا عامًّا كيومِ القيامةِ، أم خاصًّا كموتِ الإنسانِ؛ هذا أيضًا مرجعُه إلى الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

قال ابن عثيمين: (فائدةُ الإنباءِ هو الإقرارُ، يعني: يقرِّرُهم حتى يكونَ جزاؤُهم على وجهِ العدلِ الذي أقرُّوا به هم، فلا يقولونَ: إنَّا ظُلِمنا، بل الله يقولُ: عَمِلتُم كذا وعمِلتُم كذا وعمِلتُم كذا، حتى يُقَرَّروا بذلك، ثم بعْدَ هذا الإقرارِ يترتَّبُ الجزاءُ فضلًا أو عدلًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ وكذلك ينبغي أن يكونَ الناسُ مع أئمتِهم ومقدَّميهم في الدينِ والعلمِ، يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلةٍ من النوازلِ، ولا يتفرَّقونَ عنهم، والأمرُ في الإذنِ مفوَّضٌ إلى الإمامِ: إن شاء أذِنَ، وإن شاء لم يأذَنْ، على حسَبِ ما اقتضاه رأيُه[1]، ففي الآيةِ بَيانُ حِفظِ الأدَبِ، بأنَّ الإمامَ إذا جمعَ النَّاسَ لتدبيرِ أمرٍ مِن أمورِ المُسلِمين فينبغي ألَّا يَرجِعوا إلَّا بإذنِه، وكذلك إذا خرجوا إلى الغَزوِ، لا ينبغي لأحدٍ أن يرجِعَ إلَّا بإذنِه، أو يخالِفَ أمرَ السَّرِيَّةِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ مِن نظامِ الجَماعاتِ في مصالحِ الأمَّةِ؛ لأنَّ مِن السُّنةِ أن يكونَ لكُلِّ اجتِماعٍ إمامٌ ورئيسٌ يديرُ أمرَ ذلك الاجتِماعِ، وقد أشارت مشروعيَّةُ الإمامةِ إلى ذلك النِّظامِ، ومِن السُّنةِ ألَّا يجتَمِعَ جماعةٌ إلَّا أمَّروا عليهم أميرًا؛ فالذي يترأَّسُ الجَمعَ هو قائِمٌ مقامَ وليِّ أمرِ المُسلِمين، فهو في مقامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا ينصَرِفُ أحدٌ عن اجتماعِه إلَّا بعد أن يستأذِنَه؛ لأنَّه لو جُعِلَ أمرُ الانسلالِ لِشَهوةِ الحاضِرِ، لكان ذريعةً لانفِضاضِ الاجتِماعاتِ دونَ حُصولِ الفائدةِ التي جُمِعت لأجلِها، وكذلك الأدبُ أيضًا في التخَلُّفِ عن الاجتِماعِ عند الدَّعوةِ إليه؛ كاجتِماعِ المجالِسِ النيابيَّةِ والقضائيَّةِ والدينيَّةِ، أو التخَلُّفِ عن ميقاتِ الاجتماعِ المتَّفَقِ عليه إلَّا لعُذرٍ واستِئذانٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أنَّ الأوْلَى عدَمُ الاستئذانِ حتى وإنْ كان للإنسانِ شأنٌ؛ لأنَّ الأمرَ بالاستغفارِ دليلٌ على أنَّ هناك شيئًا مِن التفريطِ الذي أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَستغفرَ لهم عليه، وهذا صحيحٌ بلا شكٍّ؛ وأنَّ الأَولى البقاءُ مع الجماعةِ؛ وأنَّ الاستئذانَ للانصرافِ أمرٌ قد يكون فيه ذَمٌّ؛ ولهذا أَمَرَ اللهُ نبيَّه أنْ يَستغفرَ لهم؛ فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾[1]، فالانصِرافُ خِلافُ ما ينبغي؛ لأنَّه لِترجيحِ حاجتِه على الإعانةِ على حاجةِ الأمَّةِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ إذا كان هذا في خِطابِه -على قولٍ في التفسيرِ-، فهكذا في مَغيبِه؛ فلا ينبغي أن يُجعَلَ ما يُدعَى به له صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جِنسِ ما يدعو به بعضُنا لبعضٍ، بل يُدعَى له بأشرَفِ الدُّعاءِ، وهو الصَّلاةُ عليه، ومعلومٌ أنَّ الرَّحمةَ يُدعَى بها لكُلِّ مُسلمٍ[3].

٥- تحذيرُ المتسَلِّلينَ في الأمورِ الجامعةِ بدونِ عذرٍ واستِئذانٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗا﴾، وهذه الجملةُ وهي قولُه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ﴾ لا شَكَّ أنَّها تحذيرٌ لهؤلاء الذين يَتَسَلَّلون، وأنَّهم سوف يُجازَونَ على هذا العَمَلِ المُحَرَّمِ[4].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه وجوبُ امتِثالِ أمرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّحذيرُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).
(٣) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٩).

مخالفتِه[1]، وأنَّ الذي يخالِفُ عنه مُهَدَّدٌ بهذه العُقوبةِ: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

٧- قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مخالفةُ بعضِ أوامرِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خطأً مِن غيرِ عمدٍ، مع الاجتهادِ على متابعتِه، هذا يقعُ كثيرًا مِن أعيانِ الأمَّةِ مِن علمائِها وصلحائِها، ولا إثمَ فيه، بل صاحبُه إذا اجتهَد فله أجرٌ على اجتهادِه، وخطؤُه موضوعٌ عنه، أمَّا المبتدعُ فإنَّ عقوبتَه تغلَّظتْ على عقوبةِ العاصي؛ لأنَّ المبتدعَ مُفترٍ على اللهِ، مخالفٌ لأمرِ رسولِه؛ لأجْلِ هواه[3].

٨- سُئِلَ مالِكٌ عن رجُلٍ أحرَمَ قَبلَ الميقاتِ؟ فقال: أخافُ عليه من الفِتنةِ! قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾. فقال السَّائِلُ: وأيُّ فِتنةٍ في ذلك، وإنما هي زيادةُ أميالٍ في طاعةِ اللهِ تعالى؟! قال: وأيُّ فِتنةٍ أعظَمُ مِن أن تظُنَّ أنَّك خُصِصْتَ بفِعلٍ لم يَفعَلْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟! أو كما قال[4].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه عُمومُ علمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وفائدةُ ذِكرِ عُمومِ العِلمِ: التَّحذيرُ مِن المُخالفةِ؛ لأنَّ مَن عَلِم بك مُمتثِلًا أو مُخالفًا، فسوف يُجازيك على ذلك، فإنْ كان الأمرُ هكذا، ففي كلِّ آيةٍ فيها إثباتُ العِلمِ تحذيرٌ مِن مخالفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لئلَّا يَقَعَ الإنسانُ فيما يُسخِطُ اللهَ سُبحانَه

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((الحكم الجديرة بالإذاعة)) لابن رجب (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧٥)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٤/ ٥٤).

وتعالى عليه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ فيه وُجوبُ استِئذانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبْلَ الانصرافِ عنه، في كُلِّ أمرٍ يَجتَمِعون عليه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أنَّه إذا جُعِلَ مِن لوازمِ الإيمانِ أنَّهم لا يَذهَبونَ مَذهَبًا -إذا كانوا معه- إلَّا باستِئذانِه؛ فأَولى أنْ يكونَ مِن لوازمِه ألَّا يَذهَبوا إلى قَولٍ ولا مَذهَبٍ عِلميٍّ إلَّا بعد استئذانِه، وإذنُه يُعرَفُ بدَلالةِ ما جاء به على أنَّه أَذِنَ فيه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ فيما يَزعُمونَ أنَّ الأعمالَ ليست مِن الإيمانِ؛ فقد جَعَل اللهُ تعالى استِئذانَ الرَّسولِ مِن الإيمانِ؛ إذْ جَعَله في صفةِ الإيمانِ، ولم يَشهَدْ لهم به إلَّا معه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا مِن عَظيمِ التَّنبيهِ على عَليِّ أمرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وشَريفِ قَدرِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٠٢).

وذلك أنَّه سُبحانَه كما أمَرَهم بالاستِئذانِ عندَ الدُّخولِ عليه وعلى غيرِه، أفرَدَه بأمرِهم باستِئذانِه عندَ الانصرافِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجعَلَ رُتبةَ ذلك تاليةً لرُتبةِ الإيمانِ باللهِ والرَّسولِ، وجعَلَهما كالتَّسبيبِ له(١).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه فوَّض إلى رَسولِه بَعضَ أمرِ الدِّينِ؛ ليَجتَهِدَ فيه برأيِه(٢).

٦- قَولُه تعالى: ﴿لِّمَن شِئْتَ﴾ فيه تفويضُ الأمرِ إلى مَن له وِلايةٌ، ولكِنَّ هذا التَّفويضَ تفويضٌ للمَصلحةِ لا لمجرَّدِ التَّشَهِّي والإرادةِ؛ فإذا رأى أنَّ في الإذنِ لهم مَصلحةً، أذِنَ لهم، وإذا رأى أنَّ المصلحةَ في عَدَمِ الإذنِ فلا يجوزُ أن يَأذَنَ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ فيه أنَّ الاستئذانَ بدونِ عُذرٍ لا يُقبَلُ، وإذا استأذَنوا لمجَرَّدِ أن يَتركوا العملَ، فإنَّه لا يُؤذَنُ لهم(٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أنَّ وليَّ الأمرِ يجبُ عليه التَّيسيرُ على مَن تحتَ يدِه(٥).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمن شاء، وقولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] يُوهِمُ خِلافَ ذلك؟

الجوابُ ظاهِرٌ، وهو أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمن شاء مِن أصحابِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذين كانوا معه على أمرٍ جامعٍ؛ كصلاةِ جُمعةٍ، أو عيدٍ، أو جماعةٍ، أو اجتِماعٍ في مشورةٍ، ونحوِ ذلك، كما بيَّنه تعالى بقَولِه: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، وأمَّا الإذنُ في خُصوصِ التخلُّفِ عن الجِهادِ، فهو الذي بيَّن اللهُ لِرَسولِه أنَّ الأَولى فيه ألَّا يُبادِرَ بالإذنِ، حتى يتبيَّنَ له الصَّادِقَ في عُذرِه مِن الكاذِبِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]؛ فلا مُنافاةَ بينَ الآياتِ. والعِلمُ عندَ الله تعالى(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بعبادِه المؤمِنين؛ حيث أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَستغفِرَ لهم؛ لِيطمَئِنُّوا على هذا الانصِرافِ(٢).

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ فيه انتفاعُ الإنسانِ بدُعاءِ غَيرِه(٣).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فيه تحريمُ ندائِه صلَّى الله عليه وسلَّم باسمِه، بل يُقالُ: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. والظَّاهِرُ استِمرارُ ذلك بعد وفاتِه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الآنَ(٤)، لكن لا على سبيلِ الاستغاثةِ والدُّعاءِ.

١٣- إنْ تَرَكَ المُسلِمُ -عالِمًا كان أو غيرَ عالمٍ- ما عَلِم مِن أمرِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِقَولِ غَيرِه- كان مُستحِقًّا للعذابِ؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٦).

﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الأمرَ المجرَّدَ عن القرائنِ يقتضي الوجوبَ؛ لأنَّه جلَّ وعلا توعَّد المخالفينَ عن أمرِه بالفتنةِ أو العذابِ الأليمِ، وحذَّرهم مِن مخالفةِ الأمرِ، وكلُّ ذلك يقتضي أنَّ الأمرَ للوجوبِ، ما لم يصرِفْ عنه صارفٌ؛ لأنَّ غيرَ الواجبِ لا يستوجبُ تركُه الوعيدَ الشديدَ والتحذيرَ(٢).

١٥- قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ ختَمَ السُّورةَ بتأكيدِ الأمرِ في مُتابعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيُعلَمَ أنَّ أوامِرَه كأوامِرِ القُرآنِ(٣).

١٦- مَنِ استقرأ أحوالَ الفِتَنِ التي تجري بينَ المُسلِمينَ، تبيَّنَ له أنَّه ما دخَلَ فيها أحدٌ فحَمِدَ عاقبةَ دُخولِه؛ لِما يحصُلُ له مِن الضَّرَرِ في دينِه ودُنياه؛ ولهذا كانت مِن بابِ المنهيِّ عنه، والإمساكُ عنها مِن المأمورِ به الذي قال الله فيه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

١٧- لَمَّا افتتح اللهُ تعالى السورةَ بقَولِه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١]، وذكَرَ أنواعًا مِن الأوامِرِ والحدودِ مِمَّا أنزلَه على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ اختتَمَها بما يجِبُ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمَّتِه؛ مِن التَّتابُعِ والتَّشايُعِ على ما فيه مَصلحةُ الإسلامِ، ومِن طلَبِ استِئذانِه إنْ عَرَض لأحدٍ منهم عارِضٌ، ومِن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبِقاعي (١٣/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤١٠).

توقيرِه في دُعائِهم إيَّاه[١].

١٨- قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ في هذه الآيةِ وما في معناها أحسَنُ وعدٍ للمُطيعين، وأشَدُّ وعيدٍ للعُصاةِ المُجرِمينَ[٢].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، المرادُ بالمضارعِ هنا وجودُ الوصفِ مِن غيرِ نظرٍ إلى زمانٍ، ولو عبَّر بالماضي لتُوُهِّم الاختصاصُ به[٣].

٢٠- قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةُ الاطِّلاعِ على أحوالِهم؛ لأنَّهم كانوا يَستُرون نِفاقَهم[٤].

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أراد عَزَّ وجَلَّ أنْ يُرِيَهم عِظَمَ الجِنايةِ في ذَهابِ الذَّاهِبِ عن مَجلِسِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّمَ بغيرِ إذْنِه إذا كانوا معه على أمْرٍ جامعٍ، فجعَلَ ترْكَ ذَهابِهم حتَّى يَستأذِنوهُ ثالثَ الإيمانِ باللهِ والإيمانِ برسولِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٧).

والقاعدة: أن (قد) إذا دخلت على المضارعِ المُسْنَدِ لله تعالى فهي للتحقيقِ دائمًا. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٢).

وجعَلَهما كالتَّقديمِ والتَّوطئةِ له والبِساطِ لذِكْرِه، وذلك مع تَصديرِ الجُملةِ بـ (إنَّما)، وإيقاعِ المُؤمِنين مُبتدأً مُخبَرًا عنه بمَوصولٍ أحاطت صِلَتُه بذِكْرِ الإيمانين، ثمَّ عقَّبَه بما يَزيدُه تَوكيدًا وتَشديدًا؛ حيث أعادَه على أُسلوبٍ آخَرَ، وهو قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وضمَّنَه شيئًا آخرَ، وهو: أنَّه جعَلَ الاستئذانَ كالمِصْداقِ لِصحَّةِ الإيمانينِ، وعرَّضَ بحالِ المُنافِقين وتَسلُّلِهم لِواذًا[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ استئنافٌ جِيءَ به في أواخرِ الأحكامِ السَّابقةِ؛ تَقريرًا لها، وتأكيدًا لوُجوبِ مُراعاتِها، وتَكميلًا لها ببَيانِ بعضٍ آخرَ مِن جِنْسِها، وإنَّما ذكَرَ الإيمانَ باللهِ ورسولِه في حيِّزِ الصِّلةِ للموصولِ الواقعِ خبرًا للمُبتدأِ مع تَضمُّنِه له قطعًا؛ تَقريرًا لِمَا قبْلَه، وتَمهيدًا لِمَا بعْدَه، وإيذانًا بأنَّه حقيقٌ بأنْ يُجعَلَ قَرينًا للإيمانِ بهما مُنتظِمًا في سِلْكِه[٢].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٣] قصْرَ إفرادٍ، أي: لا غيرَ أصحابِ هذه الصِّفةِ مِن الَّذين أظْهَروا الإيمانَ، ولا يَستأذِنون الرَّسولَ عندَ إرادةِ الانصرافِ[٤].

- قولُه: ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وصَفَ الأمْرَ بأنَّه جامِعٌ؛ للمُبالَغةِ[٥].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾، أي: النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الذَّهابِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٣، ٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).
(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

لا على أنَّ نفْسَ الاستئذانِ غايةٌ لعدَمِ الذَّهابِ، بلِ الغايةُ هي الإذْنُ المَنوطُ برأيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاقتصارُ على ذِكْرِه؛ لأنَّه الَّذي يتِمُّ مِن قِبَلِهم، وهو المُعتبَرُ في كَمالِ الإيمانِ، لا الإذْنُ ولا الذَّهابُ المُترتِّبُ عليه، واعتبارُه في ذلك؛ لأنَّه كالمِصْداقِ لِصِحَّتِه، والمُميِّزِ للمُخلِصِ فيه عن المُنافِقِ؛ فإنَّ دَيدنَه التَّسلُّلُ للفِرارِ، ولتَعظيمِ ما في الذَّهابِ بغيرِ إذْنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الجِنايةِ؛ ولذلك أعادَهُ مُؤكَّدًا على أُسلوبٍ أبلَغَ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ أنَّ المُستأذِنَ مُؤمِنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ الذَّاهبَ بغيرِ إذْنٍ ليس كذلك[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ...﴾ إلى آخرِها، تأكيدٌ لقولِه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ...﴾؛ لأنَّ مَضمونَ معنى هذه الجُملةِ هو مضمونُ معنَى جُملةِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ...﴾، وقد تُفنِّنَ في نظْمِ الجُملةِ الثَّانيةِ بتغييرِ أُسلوبِ الجُملةِ الأُولى؛ فجُعِلَ مَضمونُ المُسنَدِ في الأُولى مُسنَدًا إليه في الثَّانيةِ، والمُسنَدُ إليه في الأُولى مُسنَدًا في الثَّانيةِ، ومآلُ الأسلوبينِ واحدٌ؛ لأنَّ المآلَ الإخبارُ بأنَّ هذا هو ذاك، على حدِّ: وشِعْري شِعْري؛ تَنويهًا بشأْنِ الاستئذانِ، وليُبْنَى عليها تفريعُ ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾؛ لِيُعْلِمَ المُؤمنين الأعذارَ المُوجِبةَ للاستئذانِ[2]؛ فلمَّا أراد أنْ يُكرِّرَ هذا المعنى تَوكيدًا وتَقريرًا، أعاد المعنى وقلَبَه؛ حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ فأفادَ الأوَّلُ حصْرَ المُؤمنين في المُستأذِنين، والثَّاني عكْسَه؛ تَعريضًا بحالِ المُنافِقين وتَسلُّلِهم لِواذًا، وما اكْتَفى بذلك، بل أوقَعَ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ خبرًا، وعقَّبَه ذِكْرَ الإيمانينِ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ أولئك مَحقوقونَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧).

بأنْ يُسَمَّوا مُؤمِنين؛ لِمَا اكْتَسبوا مِن صِفَةِ الاستئذانِ، واجْتَنبوا مِن التَّسلُّلِ الَّذي هو مِن صِفَةِ المُنافِقين[1].

- وقولُه: ﴿يَسْتَئْذِنُونَكَ﴾ فيه: الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ تَشريفًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الخِطابِ[2].

- وفي التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن تَفخيمِ شأنِ المُستأذِنينَ ما لا يَخْفى[3]؛ فإنَّ (أولاء) اسمُ إشارةٍ يدلُّ على تعظيمِ المشارِ إليه؛ ولهذا جاء بصيغةِ البعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى علوِّ مرتبتِهم[4].

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَئْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ فيه مُبالَغةٌ وتَضييقُ الأمْرِ، حيث لم يقُلْ: لشأْنِهم[5].

- قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ ذِكْرُ الاستغفارِ للمُستأذِنينَ دليلٌ على أنَّ الأحسَنَ والأفضَلَ ألَّا يُحدِّثوا أنفُسَهم بالذَّهابِ ولا يَستأذِنوا فيه؛ ففي تَعقيبِ ذلك بالاستغفارِ تَتميمٌ لمعنَى الكراهةِ منه صلواتُ اللهِ عليه في إذْنِه[6].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليلٌ للمغفرةِ الموعودةِ في ضِمْنِ الأمْرِ بالاستغفارِ لهم[7].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨).

يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى خِطابِ المُسلِمين؛ لإبرازِ مَزيدِ الاعتناءِ بشأْنِه، وحثًّا على تلَقِّي الجُملةِ بنَشاطِ فَهْمٍ؛ فالخِطابُ للمُؤمنين الَّذين تحدَّثَ عنهم بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ ... ﴾[1] [النور: ٦٢].

- وقولُه: ﴿ بَيۡنَكُمۡ ﴾ أفاد التَّعريضَ بالمُنافِقين الَّذين تمالَؤُوا بيْنهم على التَّخلُّفِ عن رسولِ اللهِ إذا دعاهم كلَّما وَجَدوا لذلك سبيلًا[2].

- قولُه: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ﴾ استئنافُ تَهديدٍ للَّذين كانوا سبَبَ نُزولِ آيةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ... ﴾ الآيةَ، أي: أولئك المُؤمِنون، وضِدُّهم المُعرَّضُ بهم ليسوا بمُؤمِنين. و﴿ قَدۡ ﴾ لتَحقيقِ الخبَرِ؛ لأنَّهم يظُنُّون أنَّهم إذا تَسلَّلوا مُتَستِّرينَ لم يَطَّلِعْ عليهم النَّبيُّ، فأعلَمَهم اللهُ أنَّه عَلِمَهم، أي: أنَّه أعلَمَ رسولَه بذلك[3].

- والفاءُ في قولِه: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ... ﴾ لتَرتيبِ الحذَرِ أو الأمْرِ به على ما قبْلَها مِن عِلْمِه تعالى بأحوالِهم؛ فإنَّه ممَّا يُوجِبُ الحذَرَ الْبَتَّةَ[4]. والفِعلُ المُضارِعُ ﴿ يُخَالِفُونَ ﴾ يُفِيدُ معنَى الدَّأْبِ والعادةِ، وقد أُقِيمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المُظهَرُ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لفْظِه السَّابقِ وهو قولُه: ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾؛ عِلَّةٌ لاستحقاقِهم فِتنةَ الدَّارينِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ...﴾ عُدِّيَ الفِعْلُ (خالَفَ) بـ (عَنْ) مع أنَّه يتعدَّى بنفْسِه؛ قيل: لأنَّه ضمَّنَ (خَالَفَ) معنى (أعرَضَ) أو (عدَلَ)، فعدَّاهُ تَعديتَه، أو (عن) مُتعلِّق بمَحذوفٍ تَقديرُه: أو ويَعدِلون عن أمْرِه. وقيل: ﴿يُخَالِفُونَ﴾ مُتضمِّنٌ معنَى (يصُدُّون)، أي: الَّذين يصُدُّون عن أمْرِه دونَ المُؤمِنين؛ فحُذِفَ المَفعولُ لأنَّ الغرَضَ تَقبيحُ أمْرِ المُخالِفِ، وتعظيمُ أمْرِ المُخالَفِ عنه، فذكَرَ الأهمَّ، وترَكَ ما لا اهتمامَ به. وقيل: هي زائدةٌ[٢]. وقيل: حُذِفَ مَفعولُه هنا؛ لظُهورِ أنَّ المُرادَ: الَّذين يُخالِفون اللهَ، وتَعديةُ فِعْلِ المُخالَفةِ بحرفِ (عن)؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى الصُّدودِ، ولو تُرِكَت تَعديتُه بحرفِ جرٍّ، لَأفادَ أصْلَ المُخالَفةِ في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ[٣]. وقيل: عدَّى ﴿يُخَالِفُونَ﴾ بـ (عن)؛ لِمَا في المُخالَفةِ مِن معنى التَّباعُدِ والحَيدِ، كأنَّه قال: الَّذينَ يَحِيدون عن أمْرِه بالمُخالَفةِ، وهو أبلَغُ مِن إذا قِيل: يُخالِفون أمْرَه[٤].

- قولُه: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه إعادةُ فِعْلِ الإصابةِ صَريحًا؛ للاعتناءِ بالتَّهديدِ والتَّحذيرِ[٥].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨، ١٩٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ تَذييلٌ لِمَا تقدَّمَ في هذه السُّورةِ كلِّها. وافتتاحُه بحَرفِ التَّنبيهِ ﴿ أَلَآ ﴾ إيذانٌ بانتهاءِ الكلامِ، وتَنبيهٌ للنَّاسِ لِيَعُوا ما يَرِدُ بعدَ حَرفِ التَّنبيهِ(١).

- وقولُه: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ فيه تَهديدٌ ووَعيدٌ. وأُدْخِلَ (قد)؛ لِيُؤكِّدَ عِلْمَه بما هم عليه مِن المُخالَفةِ عن الدِّينِ والنِّفاقِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ تَعليقُ عِلْمِه تعالى بيَومِ رُجوعِهم لا برُجوعِهم؛ لزيادةِ تَحقيقِ عِلْمِه تعالى بذلك، وغايةُ تَقريرِه؛ لِمَا أنَّ العِلْمَ بوقتِ وُقوعِ الشَّيءِ مُستلزِمٌ للعِلْمِ بوُقوعِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، وفيه إشعارٌ بأنَّ عِلْمَه تعالى لنفْسِ رُجوعِهم مِن الظُّهورِ بحيث لا يَحتاجُ إلى البَيانِ قطْعًا(٣).

- والخِطابُ والغَيبةُ في قولِه: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يجوزُ أنْ يكونَا جميعًا للمُنافِقين على طريقِ الالْتفاتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ عامًّا، و﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ للمُنافِقين؛ فيكونَ تَسليةً ووَعْدًا بالنِّسبةِ إلى المُؤمنين، وتَهديدًا بالنِّسبةِ إلى المُنافِقين، وتَخويفًا في الدُّنيا، ووَعيدًا في العُقْبى خاصًّا في حقِّ المُنافِقين؛ لأنَّ قولَه: ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ يأْبى أنْ يُنزَّلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٩).

على المُؤمِنين؛ ولذلك غُيِّرَ التَّغليبُ في الخِطابِ بـ ﴿أَنتُمْ﴾ إلى الغَيبةِ في ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويجوزُ أيضًا كونُ كلٍّ منهما عامًّا[١].

- وقيل على اعتبارِ العمومِ في الخطابِ والغَيبةِ: أعرَض عنهم تهويلًا للأمرِ. وعلى القول بأنَّه خاصٌّ بالمتولِّينَ المعرضينَ يكونُ ذلك إشارةً إلى أنَّهم يُناقَشون الحسابَ، ويكونُ سرُّ الالتفاتِ: التنبيهَ على الإعراضِ عن المكذِّبِ بالقيامةِ، والإقبالِ على المصَدِّقِ؛ صَونًا لنفيسِ الكلامِ، عن الجفاةِ الأغبياءِ اللئامِ[٢]، بالإضافةِ إلى أنَّ هذا الالتفاتَ فيه تنبيهٌ للمخاطَبِ، بخلافِ ما إذا كان الأُسلوبُ على نسقٍ واحدٍ[٣].

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ كِنايةٌ عن الجَزاءِ؛ لأنَّ إعلامَهم بأعمالِهم لو لم يكُنْ كِنايةً عن الجزاءِ لَمَا كانت له جَدْوى[٤].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ لجُملةِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لأنَّه أعَمُّ منه[٥].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ التاسعَ عَشَرَ

ويليه المجلدُ العشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الفرقانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦، ٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفهرس

الفهرس

سورةُ النُّورِ ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:........................ ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨
موضوعاتُ السُّورةِ:........................ ٩
الآيات (١-٣) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ:........................ ١٠
المَعنى الإجماليُّ: ١١
تَفسيرُ الآياتِ:........................ ١١
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:........................ ٢٦
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣
الآيتان (٤-٥)........................ ٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ:........................ ٤٣
المَعنى الإجماليُّ: ٤٣
تَفسيرُ الآيتينِ: ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:........................ ٥٠
بلاغةُ الآيتينِ: ٥٤
الآيات (٦-١٠)........................ ٥٨

غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٨
المَعنى الإجماليُّ: ٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ٧٤
الآيات (١١-١٨) ٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٠
المَعنى الإجماليُّ: ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٠٤
بلاغةُ الآياتِ: ١١٣
الآيات (١٩-٢٢) ١٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٤
المَعنى الإجماليُّ: ١٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ١٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٧
الآيات (٢٣-٢٦) ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٥٢

المَعنى الإجماليُّ: ١٥٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٧٠
الآيات (٢٧-٢٩) ١٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٧٧
المَعنى الإجماليُّ: ١٧٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٥
بلاغةُ الآياتِ: ١٩١
الآيتان (٣٠-٣١) ١٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٤
المعنى الإجماليُّ: ١٩٥
تَفسيرُ الآيتينِ: ١٩٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢١٧
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٢٩
الآيتان (٣٢-٣٣) ٢٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٤
المعنى الإجماليُّ: ٢٣٥

تَفسيرُ الآيتينِ: ٢٣٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٤٨
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٥٩
الآيتان (٣٤-٣٥) ٢٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٦٥
المعنى الإجماليُّ: ٢٦٦
تَفسيرُ الآيتين: ٢٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٨٣
بلاغةُ الآيتينِ: ٢٨٥
الآيات (٣٦-٣٨) ٣٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٢
المعنى الإجماليُّ: ٣٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ: ٣٢٠
الآيتان (٣٩-٤٠) ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٦
تَفسيرُ الآيتينِ: ٣٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:........................ ٣٣٧
بلاغةُ الآيتينِ: ٣٣٩
الآيات (٤١-٤٦)........................ ٣٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ:........................ ٣٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ:........................ ٣٤٩
المَعنى الإجماليُّ: ٣٥٠
تَفسيرُ الآياتِ:........................ ٣٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:........................ ٣٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:........................ ٣٦٨
بلاغة الآيات:........................ ٣٧٤
الآيات (٤٧-٥٠)........................ ٣٨٦
غَريبُ الكَلِماتِ:........................ ٣٨٦
المَعنى الإجماليُّ: ٣٨٦
تَفسيرُ الآياتِ:........................ ٣٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:........................ ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ:........................ ٣٩٥
الآيات (٥١-٥٤)........................ ٤٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ:........................ ٤٠٢
مُشكِلُ الإعرابِ:........................ ٤٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ٤٠٣
تَفسيرُ الآياتِ:........................ ٤٠٤

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤١١
بلاغةُ الآياتِ: ٤١٤
الآيات (٥٥-٥٧) ٤٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٢٣
المَعنى الإجماليُّ: ٤٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٢٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ٤٤٥
الآيات (٥٨-٦٠) ٤٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٥٥
المَعنى الإجماليُّ: ٤٥٦
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧٥
الآية (٦١) ٤٨١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٤٨١
المَعنى الإجماليُّ: ٤٨١
تفسيرُ الآيةِ: ٤٨٢
الفَوائِدُ التَّرَبَويَّةُ: ٤٩١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٩١
بلاغةُ الآيةِ: ٤٩٧
الآيات (٦٢-٦٤) ٥٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٠١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ٥٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٥١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥١٨
بلاغةُ الآياتِ: ٥٢٢
الفهرس ٥٣٣

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الفُرقانِ

سورةُ الفُرقانِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفرقان)(١).

فعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سَمِعتُ هِشامَ بنَ حَكيمٍ يقرأُ سورةَ الفُرقانِ في حياةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستمعتُ لقِراءتِه، فإذا هو يقرأُ على حُروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكِدتُ أُساوِرُه(٢) في الصَّلاةِ، فتصبَّرتُ حتى سَلَّمَ، فلبَّبتُه(٣) بردائِه، فقلتُ: مَن أقرأَك هذه السُّورةَ التي سمِعتُك تقرأُ؟ قال: أقرأَنيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقلتُ: كذَبْتَ؛ فإنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أقرأَنيها على غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقلتُ: إني سمِعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفُرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئْنيها! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهشامٍ: اقرأْ، فقرأَ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذلك أُنزِلَت. ثمَّ قال: اقرأْ يا عُمَرُ، فقرأتُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذلك أُنزِلَت، إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُفٍ(٤)، ....

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الفُرقانِ؛ لأنَّ في فاتحتِها ذِكرَ الفُرقانِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.
يُنظر: ((بصائر ذوي التميز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٣).

(٢) أساوِرُه: أي: أُواثِبُه وأقاتِلُه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٢٠).

(٣) فلَبَّبْتُه: أي: جَمَعتُ ثيابَه عند نَحْرِه ثمَّ جَرَرْتُه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ٢٩٦).

(٤) سَبعةِ أحرُفٍ: اختُلِف في المرادِ بالأحرفِ السبعةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، مِن أقربِها: أنَّ المرادَ سبعةُ أوجُهٍ مِن الاختلافِ لا يخرُجُ عنها، أو: سبْعُ لُغاتٍ مِن لُغاتِ العَرَبِ، أو: سبعةُ أوجهٍ مِن المعاني المتَّفقةِ بألفاظٍ مختلفةٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٦٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٦)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٦٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٥٢).

فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه))(١).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

في سورةِ (الفرقان) سجدةُ تلاوةٍ، في قولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾(٢) [الفرقان: ٦٠].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الفُرقانِ مكِّيَّةٌ(٣)، وحُكيَ الإجماعُ على ذلك(٤).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَقاصِدِ التي تَضمَّنَتْها سورةُ الفُرقانِ:

١- التَّنويهُ بالقُرآنِ، وإثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المنَزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ دلائِلِ صِدقِه، والتَّنويهُ بالذين اتَّبَعوه(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٢) واللفظ له، ومسلم (٨١٨).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ حزم، وابنُ قُدامة، وابنُ حجر. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((الكافي)) لابن قدامة (١/ ٢٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١).

(٣) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ منها نزَلت بالمدينةِ؛ وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ ...﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى قَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقيل: مَدَنيَّةٌ. وقيل: مَدَنيَّةٌ، وفيها آياتٌ مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٤).

(٤) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبِقَاعي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣١٦).

وعزا القرطبيُّ القولَ بأنَّها مكيَّةٌ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أُقيمَت هذه السُّورةُ على ثلاثِ دَعائِمَ:

الأُولى: إثباتُ أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المُنزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، =

٢- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه، والتَّسْريةُ عنه[١].

مَوضوعاتُ السُّورة:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الفُرقانِ:

١- تمجيدُ اللهِ تعالى والثَّناءُ عليه، ووَصفُه بصِفاتِ الإلهيَّةِ والوَحدانيَّةِ فيها، واتِّخاذُ المُشرِكينَ مع ذلك آلهةً مِن دُونِه تعالى مخلوقةً مَوصوفةً بالعَجزِ.

٢- حِكايةُ بَعضِ أقوالِ المُشرِكينَ وشُبُهاتِهم حولَ القُرآنِ وحولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع الرَّدِّ عليهم، ودَحْضِ شُبُهاتِهم.

٣- المُقارنةُ بيْنَ مَصيرِ المُشرِكينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم، وبينَ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمؤمِنينَ.

٤- ذِكرُ جانِبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم.

٥- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِنَ المُشرِكينَ مِن تَطاوُلٍ عليه، وتَكذيبٍ له.

= ودلائِلِ صِدقِه، ورِفعةِ شأنِه عن أن تكونَ له حُظوظُ الدُّنيا، وأنَّه على طريقةِ غَيرِه مِنَ الرُّسُلِ، ومِن ذلك تَلقِّي قَومِه دَعوتَه بالتَّكذيبِ.

الدِّعامةُ الثَّانيةُ: إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ، والإنذارُ بالجزاءِ في الآخرةِ، والتَّبشيرُ بالثَّوابِ فيها للصَّالِحينَ، وإنذارُ المُشرِكينَ بسُوءِ حَظِّهم يومَئذٍ، وتكونُ لهم النَّدامةُ على تكذيبِهم الرَّسولَ، وعلى إشراكِهم واتِّباعِ أئمَّةِ كُفرِهم.

الدِّعامةُ الثَّالِثةُ: الاستِدلالُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفرُّدِه بالخَلْقِ، وتَنزيهُه عن أن يكونَ له وَلَدٌ أو شَريكٌ، وإبطالُ إلهيَّةِ الأصنامِ، وإبطالُ ما زَعَموه مِن بُنُوَّةِ الملائِكةِ لله تعالى.

وافتُتِحَت في آياتِ كُلِّ دِعامةٍ مِن هذه الثَّلاثِ بجُملةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ إلخ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ١٦٧).

٦- الحديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

٧- عَرضُ صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ، وأخلاقِهم، وعبادتِهم لرَبِّهم، ودُعائِهم له، وتضَرُّعِهم إليه.

الآيات (١-٣)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ① الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ② وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ③﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ[(١)].

﴿الْفُرْقَانَ﴾: أي: كلامَ اللهِ تعالى؛ لِفَرقِه بينَ الحقِّ والباطِلِ، وأصلُه: يدُلُّ على الفَصلِ بيْن شيئَينِ[(٢)].

﴿نَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا مخوِّفًا، وأصلُه: يدُلُّ على التَّخويفِ[(٣)].

﴿فَقَدَّرَهُ﴾: أي: سَوَّاه وهَيَّأه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٢).

﴿نُشُورًا﴾: أي: حياةً بعْدَ المَوتِ. وأصْلُه: يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفتتِحًا السورةَ بالثناءِ على نفْسِه: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ بين الحَقِّ والباطِلِ آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ؛ ليكونَ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، وهو الذي له وحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه ولدًا، ولم يكُنْ له شَريكٌ في سُلطانِه، وأوجَدَ كلَّ شيءٍ، وجعَلَه مُحكَمًا بحِكمتِه وتقديرِه، وهيَّأه لِما يصلُحُ له.

ثمَّ يُبيِّنُ انحرافَ المشركينَ، فيقول: واتَّخذ المشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ المزعومةُ مَخلوقةٌ لا تستطيعُ أن تدفَعَ عن نَفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لِنَفسِها نَفعًا، ولا تستطيعُ أن تُميتَ أحدًا، ولا أن تُحيِيَه، ولا أن تبعَثَه بعدَ مَوتِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

أي: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبتت بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ ببيانِه بيْن الحَقِّ والباطِلِ، آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

أي: لِيَكونَ محمَّدٌ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، يحَذِّرُهم عذابَ اللهِ إن لم يُخلِصوا له العبادةَ(١).

= (١٣/ ١، ٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤).

قال ابنُ كثير: (﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ نزَّل: فَعَّل، مِن التكرُّرِ والتكثُّرِ، كما قال: ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأنَّ الكتُبَ المتقدِّمةَ كانت تنزِلُ جُملةً واحدةً، والقرآنُ نزَل منجَّمًا مفرَّقًا مفصَّلًا آياتٍ بعدَ آياتٍ، وأحكامًا بعدَ أحكامٍ، وسُوَرًا بعدَ سُوَرٍ، وهذا أشدُّ وأبلغُ، وأشدُّ اعتناءً بمن أُنزِل عليه، كما قال في أثناءِ هذه السُّورةِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢).

وقال البِقاعي: (نزَل مفرَّقًا بحسَبِ المصالحِ؛ فسُمِّيَ لذلك فُرقانًا، ولأنَّه الفارقُ بيْن ملتبِسٍ؛ فلا يدَعُ خفاءً إلَّا بيَّنه، ولا حقًّا إلا أثبته، ولا باطلًا إلَّا نفاه ومحَقَه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٣٠).

وقال ابن عثيمين: (هذا مِن جملةِ البَرَكةِ التي هي مِن صفةِ الله سبحانه وتعالى: أنَّه نزَّل الفرقانَ على عبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

مِمَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾ عائدٌ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزيٍّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٦). =

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))(١).

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّم ذِكرُ مُنَزِّلِ الفُرقانِ سُبحانه، وذِكرُ الفُرقانِ والمنَزَّلِ عليه على طريقِ الإجمالِ؛ أتبَعَ ذلك تفصيلَه على الترتيبِ، فبدأ بوَصفِ المنَزِّلِ سُبحانه بما هو أدَلُّ دَليلٍ على إرادةِ التَّعميمِ في الرِّسالةِ لكُلِّ مَن يريدُ، فقال(٢):

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وهو اللهُ الذي له وحْدَه سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، يصَرِّفُ شُؤونَهما ويدبِّرُهما وجميعَ ما فيهما(٣).

= ونسَبَ ابنُ الجوزيِّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١١).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٦٠).

وممَّن قال: إنَّ الضميرَ يعودُ على القرآنِ، أي: لِيَكونَ القرآنُ نذيرًا: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٨).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ إنسيٍّ وجِنِّيٍّ عاصَرَه أو جاء بعْدَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(١) رواه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠، ٢٠١)، =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾.

أي: ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه وَلَدًا؛ لا عيسى، ولا عُزَيرًا، ولا الملائكةَ، ولا غيرَهم مِن خَلقِه[١].

كما قال تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص: ٣].

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾.

أي: ولم يكُنْ لله شريكٌ في مُلكِه وسُلطانِه كما يزعُمُ المُشرِكون[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾.

أي: وأوجَد اللهُ كلَّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ الكبيرةِ والصَّغيرةِ، فأتقَنَه وهيَّأه لِما يَصلُحُ له، وجعَلَه مُحْكَمًا، لا تفاوُتَ فيه ولا خَللَ، على ما أراد سُبحانَه بحِكمتِه[٣].

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨، ٣١٩). =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن كَمالَه وعظَمتَه وكَثرةَ إحسانِه، وكان ذلك مُقتَضيًا لأن يكونَ وحْدَه المحبوبَ المألوهَ المعظَّمَ، المُفرَدَ بالإخلاصِ وحْدَه لا شريكَ له؛ ناسَبَ أن يذكُرَ بُطلانَ عبادةِ ما سِواه، فقال[1]:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أي: واتَّخذ المُشرِكون من دونِ اللهِ معبوداتٍ مِن الأصنامِ وغَيرِها لا تَستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ مخلوقةٌ، بل منها ما هو مَصنوعٌ ومنحوتٌ بأيدي المُشرِكين[2]!

= قال ابن عطية: (تقديرُ الأشياءِ: هو حَدُّها بالأمكنةِ والأزمانِ والمقاديرِ، والمصلحةِ والإتقانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الفرقان)) (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ أن تدفَعَ عن نفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لنَفسِها نفعًا[1].

= قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ: يخلُقُهم اللهُ بالاختراعِ والإيجادِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ: يخلُقُهم البَشَرُ بالنَّحتِ والنِّجارةِ، وهذا التأويلُ أشَدُّ إبداءً لخَساسةِ الأصنامِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

ممَّن اختار المعنى الثانيَ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن أبي زمنين، والزمخشري، والبيضاوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٦).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السَّابِقَينِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

قال البقاعي: (﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بما يُشاهَدُ فيهم مِنَ التغَيُّرِ والطَّواعِيَةِ لِمَشيئتِه سُبحانَه، ومِن ذلك أنَّ عَبَدَتَهم افتَعَلوهم بالنَّحتِ والتَّصويرِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: المصادِرُ السابِقةُ.

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾... ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾: لو أرادوا أن يَضُرُّوا أنفُسَهم ما ضَرُّوها، ولو أرادوا أن يدفَعوا عنها ضَرَرًا ما دفَعوا عنها؛... قولُه: ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ يعني: لا يَملِكونَ أن يجُرُّوا لأنفُسِهم نَفعًا، ولا يملِكون أيضًا أن يدفَعوه عن أنفُسِهم... وإبقاءُ الآيةِ على العُمومِ أَولى، يعني: لا يَستطيعونَ شَيئًا لأنفُسِهم، وإذا كانوا لا يَستَطيعونَ ذلك لأنفُسِهم، فمِن بابِ أَولَى لا يَستطيعونَه لعابِدِيهم!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨، ٢٩).

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ إماتةَ حَيٍّ، ولا إحياءَ مَيِّتٍ، ولا بَعْثَه بعدَ مَوتِه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أنَّ هذا الربَّ المُنْعِمَ المتفضِّلَ القُدُّوسَ: هو الذي أَنزلَ هذا الفرقانَ، فإذا أردتَ أن تَرقَى في درجاتِ الكمالِ، وتظفرَ بأنواعِ الإنعامِ، وتُزَكِّيَ نفْسَك الزَّكاءَ التامَّ؛ فعليك بهُدى هذا الفرقانِ، فهو بساطُ القُدُسِ، ومِعراجُ الكمالِ، ومائدةُ الإكرامِ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لَمَّا سمَّى الله كتابَه الفُرقانَ، عَلِمْنا أنَّه به يُفرَقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ، وأهْلِ هذا وذاك. فهو الحَكَمُ العَدلُ، والقَولُ الفَصلُ بيْن كلِّ متنازعينِ يدَّعي كلٌّ منهما أنَّه على الحَقِّ فيما هو عليه مِن عَقدٍ أو قَولٍ أو عمَلٍ، فما تقابَلَ حقٌّ وباطلٌ، وما تعالجت حُجَّةٌ وشُبهةٌ إلَّا وفي هذا الكتابِ الحكيمِ ما يَفرُقُ ما بيْنهما. وإنما يتفاوتُ النَّاسُ في إدراكِ ذلك منه على حسَبِ ما عندَهم مِن قوةِ عِلمٍ، وصِدقِ بصيرةٍ، وحُسنِ إخلاصٍ، فعلينا -إذَنْ- أن يكون أوَّلُ فزَعِنا في الفَرقِ والفَصلِ إليه، وأن يكون أوَّلُ جُهدِنا في استجلاءِ ذلك مِن نصوصِه ومَراميه، مستعينينَ بالسُّنَّةِ القوليَّةِ والعمليَّةِ على استخراجِ لَآليه، فإذا حكَمَ قَبِلْنا وسَلَّمْنا، وكنَّا مع ما حكَمَ له، وفارَقْنا ما حكَم عليه؛ فالله سمَّاه الفرقانَ لِنَعلَمَ أنَّه فارِقٌ بنفسِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٤).

ولِنَعملَ بالفَرقِ به، ولا يَكمُلُ إيمانُنا بأنَّه الفرقانُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ نستفيدُ مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ التربويَّةِ: أن تتأكَّدَ وتزدادَ محبَّتُنا لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث كان عبدًا لله، قائمًا بإبلاغِ الرِّسالةِ، وإنذارِ الخَلقِ[2].

٤- نَستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أراد أنْ تتبينَ له الأمورُ، فلْيَرجِعْ إلى القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ سمَّاه فُرقانًا[3]، فكما أنَّه فُرقانٌ بذاتِه يَفرُقُ، فإنَّ مَن كان مِن أهلِه ولازَمَه وعَمِلَ به، أُوتيَ هذه الصِّفةَ، وصار له تَفريقٌ بين الحَقِّ والباطِلِ؛ لِقَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[4] [الأنفال: ٢٩].

٥- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لَمَّا جَعَلَ تعالى غايةَ تنزيلِ الفُرقانِ أنْ يكونَ عبْدُه نذيرًا، اقتضى ذلك أنَّ نِذارتَه تكونُ بالقُرآنِ؛ لتَقومَ الحُجَّةُ، وتتِمَّ الحِكمةُ، وتحصُلَ الفائدةُ، وتشمَلَ النعمةُ، وقد صُرِّحَ بهذا في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فعلينا -إذَنْ- أن نَعلَمَ أنَّ القرآنَ هو كتابُ النِّذارةِ والهدايةِ، فنستخرجَ أصولَها وفُنونَها مِن آياتِه، وهذا حظُّ العِلمِ؛ وأن يكونَ اهتداؤنا في أنفُسِنا وهديُنا لغيرِنا به، وهذا حظُّ العمَلِ، وهما رُكنا الإيمانِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٥).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ فِعلٌ مختَصٌّ بالله تعالى لم يُستعمَلْ في غَيرِه(١)، فلا يقالُ لغيرِ الله: (تَبارَكَ)(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لمَّا قال تعالى أولًا: ﴿تَبَارَكَ﴾ ومعناه كثرةُ الخيرِ والبَرَكةِ، ثمَّ ذكَرَ عَقِبَه أمرَ القرآنِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ القُرآنَ مَنشأُ الخيراتِ، وأعمُّ البَرَكاتِ(٣). وأيضًا فإسنادُه ﴿تَبَارَكَ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، يدُلُّ على أنَّ إنزالَه الفُرقانَ على عبدِه مِن أعظَمِ البَرَكاتِ والخَيراتِ والنِّعَمِ التي أنعَمَ بها على خَلقِه(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ تكلَّمَ الله سُبحانَه وتعالى في هذه السُّورةِ في التَّوحيدِ والنبوَّةِ وأحوالِ القيامةِ، ثم خَتَمها بذكرِ صفاتِ العبادِ المُخلِصينَ الموقِنينَ، ولمَّا كان إثباتُ التوحيدِ يجبُ أنْ يكونَ مُقدَّمًا على الكُلِّ؛ لا جَرَم افتتحَ اللهُ هذه السُّورةَ بذلك(٥).

٤- اللهُ سُبحانَه قد أقام الحُجَّةَ على خَلقِه بكتابِه ورُسُلِه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكلُّ مَن بلَغَه هذا القرآنُ فقد أُنذِرَ به، وقامت عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٨).

حُجَّةُ اللهِ به[١].

٥- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فافتتَح هذه السُّورةَ بأنَّه تعالَى مُنَزَّهٌ في صفاتِه عن النَّقائصِ، كثيرُ الخيرِ، ومِن خَيرِه أنَّه نَزَّلَ الفُرقانَ على رسولِه مُنْذِرًا لهم؛ فكانَ في ذلك إطماعٌ في خَيرِه، وتحذيرٌ مِن عِقابِه[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ كالتَّنبيهِ على أنَّه لا التفاتَ إلى المنافعِ العاجلةِ؛ وذلك لأنَّه سُبحانَه لَمَّا وَصَفَ نفْسَه بأنه الذي يُعطي الخيراتِ الكثيرةَ لم يَذْكُرْ إلَّا منافعَ الدِّينِ، ولم يَذْكُرِ البتَّةَ شيئًا مِن منافعِ الدُّنيا[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، في إيثارِ اسمِ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ بالذِّكرِ هنا إيماءٌ إلى أنَّ ما سيُذْكَرُ مِن الدَّلائلِ على الوحدانيَّةِ وإنزالِ القرآنِ دلائلُ قيِّمَةٌ تُفرِّقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ[٤].

٨- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ إذا أضاف إنزالَ شيءٍ إليه، ولم يكُنْ عينًا قائمًا بذاتِه ولا صفةً في عينٍ قائمةٍ بذاتِها؛ لزِم أن يكونَ صفةً مِن صفاتِ الله، فتعيَّن أن يكونَ كلامًا لله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٢، ١٨).

٩- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، قَولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هذه صِفةُ مَدحٍ وثَناءٍ؛ لأنَّ اللهَ أضاف نَبيَّه إلى عُبوديَّتِه[1]. وقد وَصَف اللهُ تعالى أكرَمَ خَلْقِه عليه، وأعلاهم عِندَه مَنزِلةً بالعُبوديَّةِ في أشرَفِ مَقاماتِه؛ فذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ إنزالِ الكِتابِ عليه، فقال تبارك تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ التحَدِّي بأن يأتُوا بمِثْلِه في قَولِه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ الدَّعوةِ إليه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ الإسراءِ، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[2] [الإسراء: ١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إشارةٌ إلى كثرةِ المستحقِّينَ للنِّذارةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾؛ لأنَّ «اللامَ» في قَولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾ للتَّعليلِ، فإذا كانت للتعليلِ دلَّ هذا على أنَّها تفيدُ الحِكمةَ؛ إذِ العلَّةُ هي الباعثةُ على الشَّيءِ، أو هي غايةُ الشَّيءِ؛ لأنَّ العلةَ إمَّا غائيَّةٌ أو باعثةٌ، وكلٌّ منها يدُلُّ على الحِكمةِ[4].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ، ووجهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

الدَّلالةِ: أنَّ النُّزولَ يكونُ مِن عُلُوٍّ؛ وإذا كان اللهُ نَزَّلَ الفُرقانَ، فإنَّ هذا يدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ تبارك وتعالى[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أنَّ القُرآنَ كلَّه واضِحٌ صَريحٌ ليس فيه إشكالٌ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يكونَ فُرقانًا إلَّا على هذا الوجهِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] فالمرادُ بالتَّشابُهِ فيه ليس اشتباهَ المَعنى، بل هو الموافَقةُ والمُشاكَلةُ في الكَمالِ والحُسنِ[٢].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ يدُلُّ على عمومِ رسالتِه صلَّى الله عليه وسلَّم للأسودِ والأحمرِ، والجنِّ والإنسِ؛ لدخولِ الجميعِ في قولِه تعالى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣]، فهو يتناوَلُ جميعَ المكلَّفِينَ مِن الجِنِّ والإنْسِ[٤].

ويَبطُلُ بهذا قولُ مَن قال: إنَّه كان رسولًا إلى بعضِ الناسِ دونَ بعضٍ[٥]، فمَن قال: إنَّه رسولٌ إلى العَرَبِ فقط، فإنَّه كافرٌ به[٦].

١٥- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، دلَّتِ الآيةُ على أنَّه رَسولٌ للخَلْقِ إلى يَومِ القيامةِ؛ فوَجَبَ أنْ يكونَ خاتَمَ الأنبياءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣).

(٤) أمَّا الملائِكةُ فقد حكى الرازيُّ الإجماعَ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ رَسولًا إلى الملائكةِ، وقد قدَح في هذا الإجماعِ البِقَاعيُّ في ((نظم الدرر)) (٧/ ٧٠) و(١٣/ ٣٣٢). ويُنظر تفصيلُ المسألةِ، والخلافُ فيها في رسالةِ: ((تزيين الأرائكِ في إرسالِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الملائكِ)) للسيوطيِّ.

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

والرُّسُلِ(١).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فضْلُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حيثُ كُلِّفَ الرِّسالةَ إلى جميعِ الخَلقِ؛ لأنَّ هذا دَليلٌ على فضْلِه، وأنَّه أهلٌ لهذه المهمَّةِ العظيمةِ؛ فلو أَرسلتَ إنسانًا لِيُصلحَ بيْن شخصينِ فهذا دليلٌ على فضْلِه، لكنْ لو أرسلتَ إنسانًا لِيُصلِحَ بيْن طائفتينِ أو أُمَّتَينِ فهذه زيادةُ فضلٍ؛ ولذلك لا يُرسَلُ لهذه المهمَّةِ الأخيرةِ إلَّا مَن هو جديرٌ بها، فكَوْنُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُرسِلَ لجميعِ الخَلقِ دَليلٌ على فَضلِه؛ حيث حُمِّل الرِّسالةَ إلى جَميعِ الخَلقِ(٢).

١٧- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فذكَرَ الله سُبحانه وتعالى إنزالَ الفُرقانِ، وهو تشريعٌ وتَنظيمٌ، ثمَّ أعقَبَه بقَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يجِبُ العمَلُ بما جاء في هذا الفرقانِ؛ لأنَّه جاء مِن مالكِ السَّمواتِ والأرضِ، والمالِكُ له حَقُّ التصَرُّفِ في مملوكِه، بأنْ يُشَرِّعَ له ما شاء، ويُنَظِّمَ له ما شاء، وهذه هي الفائدةُ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بعْدَ قَولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، فأتى بالتَّشريعِ أوَّلًا، أو بدُستورِ التَّشريعِ كما يقولون، ثمَّ أتى بعْدَ ذلك بعُمومِ المُلكِ؛ لأنَّه عزَّ وجَلَّ إذا كان هو المالِكَ العامَّ للسَّمواتِ والأرضِ، لَزِمَ أن يكونَ ما شَرَعه حتمًا على المملوكينَ(٣).

١٨- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠).

﴿شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أثنى جلَّ وعلا على نفْسِه في هذه الآيةِ الكريمةِ بخَمسةِ أُمورٍ، هي أدِلَّةٌ قاطِعةٌ على عَظَمتِه واستحقاقِه وحْدَه لإخلاصِ العبادةِ له:

الأوَّلُ منها: أنَّه هو الذي له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ.

والثاني: أنَّه لم يتَّخِذْ ولَدًا- سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا.

والثالثُ: أنَّه لا شريكَ له في مُلكِه.

والرابعُ: أنَّه هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ.

والخامسُ: أنَّه قَدَّر كُلَّ شَيءٍ خَلَقه تقديرًا[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الاشتراكَ في المِلكِ ينافي حقيقةَ المِلكِ التامَّةَ التي لا يَليقُ به غيرُها[٢].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيه ردٌّ على مُشْركي قُريشٍ، وعلى النَّصارى واليهودِ النَّاسبينَ للهِ الولَدَ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانَه خالقٌ لأعمالِ العِبادِ، وهذا مِن وجهين:

الأول: أنَّ قولَه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يتناوَلُ جميعَ الأشياءِ؛ فيتناولُ أفعالَ العبادِ.

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠).

والثاني: أنَّه تعالى بعْدَ أنْ نفَى الشريكَ ذَكَر ذلك، والتقديرُ أنَّه سُبحانَه لَمَّا نفَى الشريكَ كأنَّ قائلًا قال: هاهنا أقوامٌ يَعترفون بنَفيِ الشُّركاءِ والأندادِ، ومع ذلك يقولون: إنَّهم يَخلقون أفعالَ أنفسِهم؛ فذَكَرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ لتكونَ مُعينةً في الرَّدِّ عليهم(١).

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ إنْ كان الخلْقُ بمعنى التَّقديرِ، فكيف جاء ﴿فَقَدَّرَهُ﴾؛ إذ يَصيرُ المعنى: وقدَّرَ كلَّ شَيءٍ يُقدِّرُه تقديرًا، وكيف جمَعَ بيْنهما؟

الجوابُ: أنَّ الخلْقَ مِن اللهِ هو الإيجادُ؛ فصَحَّ الجمْعُ بيْنه وبيْن التَّقديرِ، والمعنى أنَّه أحدَثَ كلَّ شَيءٍ إحداثًا مُراعًى فيه التَّقديرُ والتَّسويةُ، فقدَّرَه وهيَّأَهُ لِمَا يَصلُحُ له. أو سمَّى إحداثَ اللهِ خلْقًا؛ لأنَّه لا يُحدِثُ شيئًا -لحِكْمتِه- إلَّا على وَجْهِ التَّقديرِ مِن غيرِ تفاوُتٍ، فإذا قِيل: خلَقَ اللهُ كذا، فهو بمَنزلةِ قولِك: أحدَثَ وأوجَدَ، مِن غيرِ نظَرٍ إلى وَجهِ الاشتقاقِ، فكأنَّه قِيل: وأوجَدَ كلَّ شيءٍ، فقدَّرَهُ في إيجادِه لم يُوجِدْه مُتفاوِتًا. وقيل: فجعَلَ له غايةً ومُنتهًى، ومعناهُ: فقدَّرَه للبقاءِ إلى أمدٍ معلومٍ، ولو سُلِّمَ أنَّه التَّقديرُ، فساغ الجمْعُ بيْنهما لاختلافِهما لفظًا(٢).

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ فِعلَ العَبدِ مَخلوقٌ لله تعالى؛ لأنَّه تعالى عابَ هؤلاء الكفَّارَ مِن حيثُ عَبَدوا ما لا يَخلُقُ شَيئًا، وذلك يدُلُّ على أنَّ مَن خَلَقَ يَستحقُّ أن يُعبَدَ، فلو كان العبدُ خالِقًا لكان مَعبودًا إلهًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠، ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٤٧).

٢٤- قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لَمَّا اعتقَد المُشرِكون فيها أنَّها تضُرُّ وتنفَعُ، عبَّر عنها كما يعبَّرُ عمَّا يعقِلُ(١).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسوقَ للخَصمِ ما يُقِرُّ به لُزومًا؛ حتى تقومَ الحُجَّةُ عليه، فهؤلاء الذين جَعَلوها آلهةً لا يمكِنُ أنْ يَدَّعوا أنَّها تخلُقُ، ولا يمكِنُ أنْ يَدَّعوا أنَّها غيرُ مخلوقةٍ(٢).

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ حُجَّةٌ على مَن يَرُدُّ مَشيئةَ العبادِ إلى أنفُسِهم؛ إذْ لو كانتِ المشيئةُ إليهم لكانوا مالِكينَ لضَرِّهم ونَفْعِهم، وقد نفاهما اللهُ تعالى عنهم، كما نفَى عنهم الموتَ والحياةَ والنُّشورَ(٣).

٢٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ هذه الآيَةُ تدُلُّ على البَعثِ؛ لأنَّه تعالى ذَكَرَ النُّشورَ، ومعناه أنَّ المعبودَ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على إيصالِ الثَّوابِ إلى المُطيعينَ، والعقابَ إلى العُصاةِ، فمَن لا يكونُ كذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (إنَّ العَبدَ له مَشيئةٌ، وهي تابعةٌ لِمَشيئةِ اللهِ، كما ذكَرَ اللهُ ذلك في عِدَّةِ مَواضِعَ مِن كتابِه: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦]، ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٧٤).

وقال أيضًا: (له مَشيئةٌ لكُلِّ ما يَفعَلُه باختيارِه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وكُلُّ ذلك إنَّما يكونُ بمَشيئةِ اللهِ وقُدرتِه؛ فلا بُدَّ مِن الإيمانِ بهذا وهذا). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٢٤٠).

وَجَبَ أَلَّا يَصلُحَ للإلهيَّةِ[١].

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ زيَّف الله تعالى فيه مذهَبَ عَبَدةِ الأوثانِ، وبيَّنَ نُقصانَها مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّها ليستْ خالقةً للأشياءِ؛ والإلهُ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على الخلْقِ والإيجادِ.

وثانيها: أنَّها مخلوقةٌ؛ والمخلوقُ محتاجٌ؛ والإلهُ يجبُ أنْ يكونَ غنيًّا.

وثالثُها: أنَّها لا تَملِكُ لأنفُسِها ضرًّا ولا نفعًا؛ ومَن كان كذلك فهو لا يملكُ لغيرِه أيضًا نفعًا؛ ومَن كان كذلك فلا فائدةَ في عبادتِه.

ورابعُها: أنَّها لا تملكُ موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، أي: لا تَقدِرُ على الإحياءِ والإماتةِ في زمانِ التكليفِ، وثانيًا في زمانِ المجازاةِ، ومَن كان كذلك كيف يسمَّى إلهًا؟! وكيف يَحْسُنُ عبادتُه مع أنَّ حقَّ مَن يحقُّ له العبادةُ أنْ يُنْعِمَ بهذه النِّعَمِ المخصوصةِ[٢]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ افتتاحٌ بديعٌ؛ لِنُدرةِ أمثالِه في كَلامِ بُلغاءِ العرَبِ؛ لأنَّ غالبَ فواتِحِهم أنْ تكونَ بالأسماءِ مُجرَّدةً أو مُقترِنةً بحرفٍ غيرِ مُنفصِلٍ، أو بأفعالِ المُضارَعةِ ونحوِها، أو بحروفِ التَّأكيدِ أو الاستفهامِ أو التَّنبيهِ، مثْلُ (إنَّ) و(قد) والهمزةِ و(هَلْ). وبهذه النُّدرةِ يكونُ في طالعِ هذه السُّورةِ بَراعةُ المَطلَعِ؛ لأنَّ النُّدرةَ مِن العِزَّةِ، والعِزَّةُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤٣١).

مَحاسنِ الألفاظِ، وضِدُّها الابتذالُ(١).

- وقولُه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ﴾ على القولِ بأنَّه إخبارٌ عن عَظَمةِ اللهِ، وتوفُّرِ كَمالاتِه؛ فيكونُ المقصودُ به التَّعليمَ والإيقاظَ، ويجوزُ مع ذلك أنْ يكونَ كِنايةً عن إنشاءِ ثَناءٍ على اللهِ تعالى؛ أنشَأَ اللهُ به ثَناءً على نفْسِه كقولِه: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، على طريقةِ الكلامِ العربيِّ في إنشاءِ التَّعجُّبِ مِن صِفاتِ المُتكلِّمِ في مَقامِ الفخرِ والعظَمةِ، أو إظهارِ غرائبَ صدَرَتْ(٢).

- كلمةُ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ لا تُستعمَلُ إلَّا للهِ بلَفظِ الماضي، وقد ذُكِرَت في هذه السُّورةِ في ثلاثةِ مواضِعَ؛ تَعظيمًا للهِ تعالى، وخُصَّتْ مَواضُعها بذِكْرِها؛ لِعِظَمِ ما بعْدَها:

الأوَّلُ: ذِكْرُ الفُرقانِ، وهو القُرآنُ، المُشتمِلُ على معاني جميعِ كُتبِ اللهِ.

والثَّاني: ذِكْرُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُخاطَبةُ اللهِ له فيه.

والثَّالثُ: ذِكْرُ البُروجِ، والشَّمسِ والقمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، ولولاها -بعْدَ اللهِ- لَمَا وُجِدَ في الأرضِ حيوانٌ ولا نَباتٌ(٣).

- قَولُه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ فيه إبرازُ تَنزيلِ الفُرقانِ في مَعْرِضِ الصِّلةِ الَّتي حَقُّها أنْ تكونَ مَعلومةَ الثُّبوتِ للمَوصولِ عندَ السَّامعِ مع إنكارِ الكَفَرةِ له؛ لإجرائِه مُجْرى المَعلومِ المُسلَّمِ؛ تَنبيهًا على كَمالِ قُوَّةِ دَلائلِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٢، ٤٠٣).

وكونِه بحيثُ لا يَكادُ يَجْهلُه أحدٌ[١]. والموصولُ ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ يُومِئُ إلى عِلَّةِ ما قبْلَه؛ فهو كِنايةٌ عن تَعظيمِ شأْنِ الفُرقانِ وبَرَكتِه على النَّاسِ مِن ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، فتلك مِنَّةٌ عظيمةٌ تُوجِبُ الثَّناءَ على اللهِ. وهو أيضًا كِنايةٌ عن تَعظيمِ شأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

- وقولُه: ﴿الْفُرْقَانَ﴾، أي: المُفرَّقَ -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-، وجاء في أثناءِ السُّورةِ بعْدَ آياتٍ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: أنزَلْناهُ مُفرَّقًا، كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ فيكونُ وصْفُه بالفُرقانِ في أوَّلِ السُّورةِ -واللهُ أعلَمُ- كالمُقدِّمةِ والتَّوطئةِ لِمَا يأْتي بعْدُ[٣].

- ووَصْفُ النَّبيِّ بـ ﴿عَبْدِهِ﴾ تَقريبٌ له، وتَمهيدٌ لإبطالِ طلَبِهم منه في قولِه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] الآيةَ[٤]. وإيرادُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضًا بذلك العُنوانِ؛ لتَشريفِه، والإيذانِ بكَونِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أقصى مَراتبِ العُبوديَّةِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ إلَّا عبْدًا للمُرسِلِ؛ ردًّا على النَّصارى[٥].

- قَولُه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على عامِلِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

لمُراعاةِ الفواصلِ(١).

- وفي قولِه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث اقتصَرَ في وصْفِ الرَّسولِ هنا على النَّذيرِ دونَ البشيرِ، كما في قولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]؛ لأنَّ المقامَ هنا لتَهديدِ المُشركينَ؛ إذ كذَّبوا بالقُرآنِ وبالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فكان مُقْتضيًا لذِكْرِ النِّذارةِ دونَ البِشارةِ، وفي ذلك اكتِفاءٌ؛ لأنَّ البِشارةَ تَخطُرُ ببالِ السَّامعِ عندَ ذِكْرِ النِّذارةِ. وسيَجِيءُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ في هذه السُّورةِ [الآية: ٥٦](٢)؛ ففي اختصاصِ النَّذيرِ دونَ البشيرِ سُلوكُ طريقِ بَراعةِ الاستهلالِ، والإيذانُ بأنَّ هذه السُّورةَ مُشتمِلةٌ على ذِكْرِ المُعانِدينَ المُتَّخِذينَ للهِ ولدًا وشريكًا، الطَّاعنينَ في كُتبِه ورُسلِه واليومِ الآخِرِ(٣). وقيل: اقتصرَ على النِّذارةِ؛ للإشارةِ إلى البِشارةِ بلفظِ ﴿تَبَارَكَ﴾(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ على القولِ بأنَّ مَحلَّه الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا قبْلَها(٥). وعلى أنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدَلٌ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]؛ فإعادةُ اسمِ الموصولِ لاختلافِ الغرَضِ مِن الصِّلتينِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

الصِّلةَ الأُولى في غرَضِ الامتِنانِ بتَنزيلِ القُرآنِ للهُدى، والصِّلةَ الثَّانيةَ في غرَضِ اتِّصافِ اللهِ تعالى بالوَحدانيَّةِ(٦).

- وقولُه: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ توطئةٌ وتَمهيدٌ لقولِه: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾، وأردَفَه بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ كَوْنَه بَديعَ السَّمواتِ والأرضِ، ومُفطِرَهما، ومالِكَهما، مُنافٍ لاتِّخاذِ الولَدِ والشَّريكِ(٧).

- وقد أُجْرِيَت على اسمِ اللهِ تعالى هذه الصِّفاتُ الأربعُ -﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾- بطريقِ تَعريفِ الموصوليَّةِ؛ لأنَّ بعضَ الصِّلاتِ مَعروفٌ عندَ المُخاطَبينَ اتِّصافُ اللهِ به، وهما الصِّفتانِ الأُولى والرَّابعةُ؛ وإذ قد كانَتَا مَعلومتينِ كانت الصِّلتانِ الأُخْرَيانِ المذْكورتانِ معهما في حُكْمِ المعروفِ؛ لأنَّهما أُجْرِيَتا على مَن عُرِفَ بالصِّلتينِ الأُولى والرَّابعةِ؛ فإنَّ المُشركين ما كانوا يَمتَرُون في أنَّ اللهَ هو مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ، ولا في أنَّ اللهَ هو خالِقُ كلِّ شيءٍ، كما في قولِه: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ الآياتِ [٨٦، ٨٧] مِن سُورةِ (المؤمنون)، ولكنَّهم يُثبِتون للهِ ولدًا وشريكًا في المُلْكِ. ومِن بَديعِ النَّظمِ أنْ جُعِلَ الوَصفانِ المُختلَفُ فيهما معهم مُتوسِّطَينِ بيْنَ الوصفينِ اللَّذينِ لا مِريةَ فيهما؛ حتَّى يكونَ الوَصفانِ المُسلَّمينِ كالدَّليلِ أوَّلًا، والنَّتيجةِ آخِرًا؛ فإنَّ الَّذي له مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ لا يَليقُ به أنْ يَتَّخِذَ ولدًا، ولا أنْ يَتَّخِذَ

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٧) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٨).

شَريكًا؛ لأنَّ مُلْكَه العظيمَ يَقْتضي غِناهُ المُطْلَقَ، فيَقْتضي أنْ يكونَ اتِّخاذُه ولدًا وشريكًا عبثًا؛ إذ لا غايةَ له، وإذا كانت أفعالُ العُقلاءِ تُصانُ عن العبَثِ؛ فكيف بأفعالِ أحكَمِ الحُكماءِ تعالى وتقدَّسَ[١]؟!

- ونظَمَ قولَه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ في سِلْكِ الصِّلةِ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَضمونَه مِن الوُضوحِ والظُّهورِ بحيثُ لا يَكادُ يَجْهَله جاهِلٌ، لا سيَّما بعدَ تَقريرِ ما قبْلَه[٢].

- قَولُه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وردٌّ على مَن جعَل لله شريكًا[٣]. وتَوسيطُ نفْيِ اتِّخاذِ الولدِ بيْنَهما؛ للتَّنبيهِ على استقلالِه وأصالَتِه، والاحترازِ عن تَوهُّمِ كونِه تَتِمَّةً للأوَّلِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الجُملةُ جاريةٌ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قبْلَها مِن الجُمَلِ المُنتظِمةِ مِثْلِها في سِلْكِ الصِّلةِ؛ فإنَّ خَلْقَه تعالى لجَميعِ الأشياءِ على ذلك النَّمطِ البديعِ -كما يَقْتضي استقلالَه تعالى باتِّصافِه بصِفاتِ الأُلوهيَّةِ- يَقْتضي انتظامَ كلِّ ما سِواهُ كائنًا ما كان تحت مَلكوتِه القاهِرِ، بحيثُ لا يَشِذُّ عنها شَيءٌ مِن ذلك قطْعًا، وما كان كذلك كيف يُتوَهَّمُ كونُه ولدًا له سُبحانه أو شَريكًا في مُلْكِه[٥]؟!

- وفرَّعَ على (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) قولَه: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ لأنَّه دليلٌ على إتْقانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الخلْقِ إتقانًا يدُلُّ على أنَّ الخالقَ مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ[(١)].

- وقولُه: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ فيه تأكيدُ الفِعْلِ ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿تَقۡدِيرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه تقديرٌ كاملٌ في نَوعِ التَّقاديرِ[(٢)].

- وما جاء مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا بَراعةُ استهلالٍ بأغراضِها، وهو يَتنزَّلُ مَنزِلةَ خُطبةِ الكِتابِ أو الرِّسالةِ[(٣)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾

- قَولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ استطرادٌ لانتهازِ الفُرصةِ لوَصفِ ضَلالِ أهْلِ الشِّركِ، وسَفالةِ تَفكيرِهم؛ فهو عطفٌ على جُملةِ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفرقان: ٢] وما تلاها ممَّا هو استِدلالٌ على انفرادِه تعالى بالإلهيَّةِ، وأُرْدِفَت بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الفرقان: ٢] الشَّاملِ لِكَونِ ما اتَّخذوه مِن الآلهةِ مَخلوقاتٍ؛ فكان ما تقدَّمَ مُهيِّئًا للتَّعجيبِ مِن اتِّخاذِ المُشرِكين آلهةً دونَ ذلك الإلهِ المَنعوتِ بصِفاتِ الكَمالِ والجلالِ؛ فالخبَرُ غيرُ مَقصودٍ به الإفادةُ، بلْ هو للتَّعجُّبِ مِن حالِهم: كيف قابَلوا نِعمةَ إنزالِ الفُرقانِ بالجَحدِ والطُّغيانِ، وكيف أشْرَكوا بالَّذي تلك صِفاتُه آلهةً أُخرى، صِفاتُهم على الضِّدِّ مِن صِفاتِ مَن أشْرَكوهم به؟! وإلَّا فإنَّ اتِّخاذَ المُشرِكين آلهةً أمرٌ معلومٌ لهم وللمُؤمِنينَ؛ فلا يُقصَدُ إفادتُهم لحُكْمِ الخبرِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ فيه إضمارٌ في مَوضعِ الإظهارِ، والإضمارُ مِن غَيرِ جَرَيانِ ذِكْرِهم؛ للثِّقةِ بدَلالةِ ما قبْلَه مِن نفْيِ الشَّريكِ عليهم(١).

- وذكَرَ في هذه الآيةِ مِن أقوالِهم المُقابِلةِ للجُمَلِ الموصوفِ بها اللهُ تعالى؛ اهتمامًا بإبطالِ كُفْرِهم المُتعلِّقِ بصِفاتِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك أصْلُ الكُفرِ ومادَّتُه(٢)؛ فجُملةُ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٢]. وجُملةُ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ ولَدَ الخالقِ يجِبُ أنْ يكونَ مُتولِّدًا منه، فلا يكونُ مَخلوقًا. وجُملةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ الشَّرِكةَ في المُلْكِ تَقْتضي الشَّرِكةَ في التَّصرُّفِ. وجُملةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ أعظَمَ مَظاهِرِ تَقديرِ الخلْقِ هو مَظهَرُ الحياةِ والموتِ، وذلك مِن المُشاهَداتِ. وأمَّا قولُه: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ فهو تَكميلٌ لِقَرْعِ المُشركينَ نُفاةِ البَعثِ؛ لأنَّ نفْيَ أنْ يكونَ الآلهةُ يَمْلِكون نُشورًا يَقْتضي إثباتَ حَقيقةِ النُّشورِ في نفْسِ الأمْرِ؛ إذ الأكثَرُ في كلامِ العرَبِ أنَّ نَفْيَ الشَّيءِ يَقْتضي تحقُّقَ ماهيَّتِه(٣).

- قَولُه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فيه وَصْفُ الآلهةِ بانتفاءِ إنشائِهم شيئًا مِن الأشياءِ؛ إشارةً إلى انتفاءِ القُدرةِ بالكُلِّيَّةِ، ثمَّ بأنَّهم مَخلوقونَ للهِ ذاتًا، أو مَصْنوعون بالنَّحتِ والتَّصويرِ على شكْلٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

مَخصوصٍ، وهذا أبلَغُ في الخَساسةِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قاله هنا بالضَّميرِ: ﴿مِن دُونِهِ﴾، وقالَه في سُورةِ (مُريمَ) و(يس) بلفظِ ﴿اللَّهِ﴾؛ فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤]؛ مُوافقةً لِمَا قبْلَه في المواضعِ الثَّلاثةِ؛ فآيةُ (الفُرقانِ) تَقَدَّمَ قبْلَها اسمُه سُبحانَه مَكْنِيًّا عنه جلَّ وعلا في قولِه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ فورَدَ اسمُه سُبحانه مَكْنِيًّا عنه ثمانِيَ مرَّاتٍ: أوَّلُها الموصولُ، وهو الَّذي مِن قولِه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾، وفاعلُ ﴿نَزَّلَ﴾ المُضْمَرُ، والضَّميرُ في ﴿عَبْدِهِ﴾، والموصولُ الثَّاني، والضَّميرُ المجرورُ باللَّامِ، والضَّميرُ الفاعلُ في ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، والضَّميرُ في ﴿لَّهُ﴾ المجرورُ، والضَّميرُ الفاعلُ في ﴿وَخَلَقَ﴾؛ فلمَّا تكرَّرَ اسمُه مَكْنِيًّا عنه ثمانِيَ مرَّاتٍ جَرى بعْدَ ذلك في قولِه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ مُضْمَرًا على حُكْمِ ما تقدَّمَ، فما في هذه السُّورةِ وافَق ما قبْلَه، أمَّا في السُّورتينِ فلو جاءَ (مِن دونِه) لخالَف ما قبلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه في السُّورتينِ بلفظِ الجَمعِ؛ تعظيمًا، فصرَّح؛ فجاء كلٌّ مِن الآيتينِ على ما يجِبُ ويُناسِبُ(٢).

- والتَّنصيصُ على قولِه: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾؛ لبَيانِ عجْزِهم عمَّا هو أهْوَنُ مِن هذه الأمورِ مِن دفْعِ الضَّرِّ وجلْبِ النَّفعِ؛ للتَّصريحِ بعَجْزِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٢).

عن كلٍّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ على التَّفصيلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الإلهَ يجِبُ أنْ يكونَ قادرًا على جميعِ ذلك. وفيه إيذانٌ بغايةِ جَهْلِهم وسَخافةِ عُقولِهم، كأنَّهم غيرُ عارفينَ بانتفاءِ ما نُفِيَ عن آلهتِهم مِن الأمورِ المذكورةِ، مُفْتَقِرون إلى التَّصريحِ بذلك(١).

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ في سِياقِ النَّفيِ للعُمومِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فقدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ هنا، وعكَسَ ذلك في سُورةِ (الرَّعدِ): ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦]. ووَجْهُ ذلك: أن ما في سُورةِ (الفُرقانِ) بُنِيَ على ما قبْلَه، وهو ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وقولُه: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ نفْيٌ، وقولُه: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إثباتٌ؛ فقدَّمَ النَّفيَ على الإثباتِ، وكان الضَّرُّ نفْيًا، والنَّفعُ إثباتًا؛ إذِ النَّفعُ إثباتُ المصالحِ وإيجادُها؛ والضَّرُّ نفْيُها، فكما قَدَّمَ فيما قبْلَه ما نَفى على ما أثبَتَ، حمَلَ المعطوفَ عليه لِيكونَ مُشاكِلًا له. وأمَّا في سُورةِ (الرَّعدِ) فإنَّه قدَّمَ فيها الأفضلَ على الأنقَصِ؛ لأنَّ اجتلابَ النَّفعِ أشرَفُ مِن استدفاعِ الضَّرِّ، وهو رُتْبةٌ فوقَه؛ فمَن فاته ذلك طلَبَ دفْعَ الضَّرِّ، فهو على وَجْهِه في التَّرتيبِ(٣). وقيل: قدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ؛ لمُناسَبةِ ما بعْدَه مِن تَقديمِ الموتِ على الحياةِ(٤). وقيل: تَقديمُ ذِكْرِ الضَّرِّ؛ لأنَّ دَفْعَه -مع كونِه أهَمَّ في نفْسِه- أوَّلُ مَراتبِ النَّفعِ وأقدمُها(٥). وقيل: قولُه هنا: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ جَرَى مَجرى المثَلِ لقَصْدِ الإحاطةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٥٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

بالأحوالِ؛ فكأنَّه قيل: لا يَمْلِكون التَّصرُّفَ بحالٍ مِن الأحوالِ. وهذا نظيرُ أنْ يُقالَ: شَرْقًا وغرْبًا، وليلًا ونَهارًا. وبذلك يَندفِعُ ما يُشكِلُ في باديْ الرَّأيِ مِن وجْهِ نفْيِ قُدرتِهم على إضرارِ أنفُسِهم بأنَّه لا تَتعلَّقُ إرادةُ أحدٍ بضَرِّ نفْسِه، وبذلك أيضًا لا يُتطلَّبُ وجْهٌ لتَقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ؛ لأنَّ المقامَ يَقْتضي التَّسويةَ في تَقديمِ أحَدِ الأمْرينِ؛ فالمُتكلِّمُ مُخيَّرٌ في ذلك، والمُخالَفةُ بيْن الآياتِ في تَقديمِ أحَدِ الأمرينِ مُجرَّدُ تَفنُّنٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٠).

الآيات (٤-٦)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿إِفۡكٌ﴾: أي: كَذِبٌ، وقيل: هو أسوأُ الكذبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطلِ، وأصلُه: يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه[1].

﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلَقَه، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، ويُقالُ: افترَى فلانٌ على فلانٍ: إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُه: ما عظُم مِن الكَذِبِ[2].

﴿وَزُورٗا﴾: الزُّورُ: الباطِلُ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وقد غَلَب على الكَذِبِ، وقيل للكَذِبِ: زورٌ؛ لكونِه مائِلًا عن طريقةِ الحَقِّ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ[3].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، =

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: أي: اختَلَقها واستَنسخَها، وأصلُ (كتب): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿تُمۡلَىٰ﴾: أي: تُلقَى وتُقرأُ، مِن قَولِهم: أمليتُ عليك الكِتابَ وأملَلْتُ، وهو إلقاءُ الكلامِ لِمن يكتُبُ ألفاظَه أو يَرويها أو يحفَظُها[2].

﴿بُكۡرَةٗ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[3].

﴿وَأَصِيلٗا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وما بيْن العَصرِ إلى اللَّيلِ[4].

المعنى الإجماليّ:

يَذكرُ الله تعالى بعضَ الشُّبهاتِ التي أثارها المشركونَ حوْلَ القرآنِ، فيقولُ: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلقَه محمَّدٌ مِن عِندِه، وأعانه على اختِلاقِه قَومٌ مِن غيرِ قَومِه! فقد أتى هؤلاء الكُفَّارُ الكاذِبون بظُلمٍ وكَذِبٍ.

ثمَّ يَذكرُ تعالى شُبْهةً أُخرَى مِن شُبُهاتِهم الفاسدةِ، وهي أنَّهم قالوا: ما هذا القُرآنُ إلَّا أكاذيبُ الأوَّلينَ استنسَخها منهم محمَّدٌ، فهي تُقرأُ عليه أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه!

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالردِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَلَ القُرآنَ هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، إنَّه غفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما يعودُ إلى التَّوحيدِ؛ انتقَلَ إلى ما يعودُ إلى الرِّسالةِ؛ وذلك لأنَّ الشَّهادةَ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ(١).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه محمَّدٌ، وليس هو مِن عندِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤].

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾.

أي: وأعان محمَّدًا على اختِلاقِ هذا القُرآنِ أُناسٌ ذَوو قُدرةٍ وكفايةٍ مِن غَيرِ قَومِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

أي: فقد أتى الكُفَّارُ بظُلمٍ وكَذِبٍ ومَيْلٍ عن الحَقِّ، حينَ وصَفوا القُرآنَ بغيرِ صِفتِه، ورَمَوُا النبيَّ بالكَذِبِ على اللهِ(١).

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⓹﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ: هذا القُرآنُ عِبارةٌ عن أكاذيبِ الأُمَمِ الأوَّلينَ وقَصَصِهم المسطَّرةِ في كُتُبِهم، استنسَخها منهم محمَّدٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٥-٤٠).

قال ابن كثير: (وهذا الكلامُ -لسخافتِه وكَذِبِه وبَهْتِه منهم- كلُّ أحدٍ يعلَمُ بُطلانَه؛ فإنَّه قد عُلِم بالتواتُرِ وبالضَّرورةِ أنَّ محمدًا رسولَ الله لم يكُنْ يعاني شيئًا مِن الكتابةِ، لا في أوَّلِ عُمُرِه ولا في آخِرِه، وقد نشأ بيْن أظهُرِهم مِن أوَّلِ مَولِدِه إلى أنْ بعَثَه اللهُ نحوًا مِن أربعين سنةً، وهم يَعرِفون مَدخَلَه ومَخرَجَه، وصِدقَه وبِرَّه وأمانتَه، ونزاهتَه مِن الكَذِبِ والفُجورِ وسائرِ الأخلاقِ الرذيلةِ، حتى إنَّهم لم يكونوا يسمُّونَه في صِغَرِه إلى أنْ بُعِث إلَّا الأمينَ؛ لِما يَعلمون مِن صِدقِه وبِرِّه. فلمَّا أكرَمَه الله بما أكرَمَه به نصَبوا له العداوةَ، ورَمَوه بهذه الأقوالِ التي يعلَمُ كُلُّ عاقلٍ براءتَه منها، وحاروا ماذا يَقذِفونَه به؛ فتارةً مِن إفكِهم يقولون: ساحِرٌ، وتارةً يقولون: شاعرٌ، وتارةً يقولون: مجنونٌ، وتارة يقولون: كذَّابٌ!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

قال السمين الحلبي: (﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: الافتِعالُ هنا يجوز أنْ يكونَ بمعنى أَمَر بكِتابتِها، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

أي: فهذه الأساطيرُ التي اكتَتَبها محمَّدٌ تُقرأُ عليه في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه؛ ليَحفَظَها(١).

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَلَ القُرآنَ المشتَمِلَ على الأسرارِ -كالإخبارِ بالأمورِ الماضيةِ والمُستَقبَلةِ- هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، ولا يخفَى عليه شَيءٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

= كافتَصَد واحتَجَم، إذا أَمَر بذلك. ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى كَتَبَها، وهو مِنْ جملةِ افترائِهم عليه؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان أمِّيًّا لا يقرأُ ولا يَكتُبُ، ويكونَ كقولِهم: اسْتَكَبَّه واصْطَبَّه، أي: سَكَبَه وصَبَّه. والافتِعالُ مُشْعِرٌ بالتكَلُّفِ. ويجوز أنْ يكونَ مِنْ كَتَبَ بمعنى جَمَعَ، مِن الكَتْبِ: وهو الجَمْعُ، لا مِنَ الكتابةِ بالقلَمِ). ((الدر المصون)) (٨/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

قال ابنُ جزي: (ويعني بالسِّرِّ: ما أَسَرَّه الكُفَّارُ مِن أقوالِهم، أو يكونُ ذلك على وَجهِ التنَصُّلِ والبراءةِ مِمَّا نَسَبه الكُفَّارُ إليه مِنَ الافتراءِ، أي: أنَّ اللهَ يَعلَمُ سِرِّي، فهو العالِمُ بأنِّي ما افترَيتُ عليه، بل هو أنزَلَه علَيَّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٨).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧].

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ العالِمَ بكُلِّ شَيءٍ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وكانت العادةُ جاريةً بأنَّ مَن عَلِم استِخفافَ غَيرِه به وكان قادِرًا عليه، عاجَلَه بالأخذِ- أُجيبَ مَن كأنَّه قال: فما له لا يُهلِكُ المكذِّبين له؟ بقَولِه -مرَغِّبًا لهم في التوبةِ، مشيرًا إلى قُدرتِه بالسَّترِ والإنعامِ، ومبيِّنًا لفائدةِ إنزالِه إليهم هذا الذِّكرَ مِن الرُّجوعِ عمَّا تمادت عليه أزمانُهم مِن الكُفرِ وأنواعِ المعاصي-[١]:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لم يَزَلْ يستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها ويرحَمُهم، ومِن رحمتِه بهم أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، ويَقبَلُ منهم التَّوبةَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّه لم يَزَلْ يصفَحُ عن خَلقِه ويرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بعَفوِه، يقول: فلأنَّ ذلك مِن عادتِه في خَلقِه يمهِلُكم أيُّها القائلونَ ما قلْتُم مِن الإفكِ، والفاعلونَ ما فعلْتُم مِن الكُفرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١).

وقال ابنُ كثير: (دعاءٌ لهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّ حِلمَه عَظيمٌ، وأنَّ مَن تاب إليه تاب عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

وقال البِقاعي: (﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ﴾ أزلًا وأبدًا ﴿ غَفُورًا ﴾ أي: بليغَ السَّترِ لِما يريدُ مِن ذنوبِ عبادِه؛ بألَّا يعاتِبَهم عليها، ولا يؤاخِذَهم بها. ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بهم في الإنعامِ عليهم بعْدَ خَلقِهم؛ برزقِهم، وتركيبِ العُقولِ فيهم، ونصْبِ الأدلَّةِ لهم، وإرسالِ الرسلِ، وإنزالِ الكُتُبِ فيهم، ولإمهالِهم في تكذيبِهم، أي: فليس لإمهالِهم ووعْظِهم بما نزَّله إليهم سببٌ إلَّا رحمتُه وغفرانُه وعِلمُه بأنَّ كتابَه صَلاحٌ لأحوالِهم في الدارينِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٢).

كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أنزلَه مَن أحاط عِلْمُه بما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ مِنَ الغَيبِ والشَّهادةِ، والجَهرِ والسِّرِّ، وذِكْرُ عِلمِه تعالى العامِّ يُنَبِّهُهم ويَحُضُّهم على تدَبُّرِ القُرآنِ، وأنَّهم لو تدَبَّروا لرَأَوا فيه مِن عِلْمِه وأحكامِه ما يدُلُّ دَلالةً قاطِعةً على أنَّه لا يكونُ إلَّا مِن عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ(١).

٢- مع إنكارِهم للتَّوحيدِ والرِّسالةِ؛ مِن لُطفِ اللهِ بهم أنَّه لم يَدَعْهم وظُلْمَهم، بل دعاهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ إليه، ووَعَدَهم بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ إنْ هم تابوا ورَجَعوا، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ أي: وَصْفُه المَغفِرةُ لأهلِ الجَرائِمِ والذُّنوبِ إذا فَعَلوا أسبابَ المَغفِرةِ، وهي الرُّجوعُ عن مَعاصيه، والتَّوبةُ منها. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم؛ حيثُ لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ وقد فَعَلوا مُقتَضاها، وحيثُ قَبِلَ تَوبتَهم بعْدَ المعاصي، وحيثُ مَحا ما سَلَف مِن سَيِّئاتِهم، وحيثُ قَبِلَ حَسَناتِهم، وحيثُ أعاد الرَّاجِعَ إليه بعْدَ شُرودِه، والمُقبِلَ عليه بَعدَ إعراضِه- إلى حالةِ المُطيعينَ المُنِيبينَ إليه(٢)، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذه الذُّنوبَ مع بُلوغِها الغايةَ في العِظَمِ مَغفورةٌ إن تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصِلةٌ إليهم بَعْدَها؛ فلا ييأَسوا منها بما فَرَط منهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٥٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا القَولُ منهم فيه عِدَّةُ عَظائمَ:

منها: رَميُهم الرَّسولَ -الذي هو أبَرُّ النَّاسِ وأصدَقُهم- بالكَذِبِ، والجُرأةُ العَظيمةُ.

ومنها: إخبارُهم عن هذا القُرآنِ -الذي هو أصدَقُ الكَلامِ وأعظَمُه وأجَلُّه- بأنَّه كَذِبٌ وافتِراءٌ.

ومنها: أنَّ في ضِمنِ ذلك أنَّهم قادِرون أن يأتوا بمِثلِه، وأن يضاهيَ المخلوقُ النَّاقِصُ مِن كُلِّ وجهٍ الخالِقَ الكامِلَ مِن كُلِّ وجهٍ، بصفةٍ مِن صِفاتِه، وهي الكلامُ.

ومنها: أنَّ الرَّسولَ قد عُلِمت حالتُه، وهم أشَدُّ النَّاسِ عِلمًا بها؛ أنَّه لا يكتُبُ ولا يجتَمِعُ بمَن يكتُبُ له، وقد زعموا ذلك(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنَّ فيه مِن الأسرارِ التي لا يعلَمُها إلَّا اللهُ ما يدُلُّ على أنَّ اللهَ أنزله، فذِكرُه ذلك يُستدَلُّ به تارةً على أنَّه حَقٌّ مُنزَّلٌ مِن اللهِ؛ لِكَونِه تضمَّنَ مِن الأخبارِ عن أسرارِ السَّمَواتِ والأرضِ والدُّنيا والأوَّلينَ والآخِرينَ، وسِرِّ الغيبِ، ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ. فمِن هنا نستَدِلُّ بعِلمِنا بصِدقِ أخبارِه أنَّه مِن الله، وإذا ثبَت أنَّه أنزَله بعِلمِه تعالى استدلَلْنا بذلك على أنَّ خبَرَه حَقٌّ، وإذا كان خبرًا بعِلمِ اللهِ فما فيه مِن الخبَرِ يُستدَلُّ به عن الأنبياءِ وأُممِهم، وتارةً عن يومِ القيامةِ وما فيها، والخبَرُ الذي يُستدَلُّ به لا بدَّ أن نعلمَ صِحَّتَه مِن غيرِ جِهتِه، وذلك كإخبارِه بالمستقبَلاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

فوقعت كما أخبَرَ، وكإخباره بالأُمَمِ الماضية بما يوافِقُ ما عندَ أهلِ الكتابِ مِن غيرِ تعلُّمٍ منهم، وإخبارِه بأمورٍ هي سِرٌّ عندَ أصحابِها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣] إلى قوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]؛ فقولُه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِدلالٌ بأخبارِه(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيه ردٌّ على ما زعَمه المشركونَ مِن اجتماعِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمَن يكتبُ له، ووجهُ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم أنَّ الذي أنزَله هو المحيطُ عِلمُه بكُلِّ شَيءٍ، فيَستحيلُ ويمتَنِعُ أن يقولَ مخلوقٌ ويتقَوَّلَ عليه هذا القرآنَ، ويقولَ: هو مِن عندِ الله. وما هو مِن عندِه، ويستَحِلَّ دِماءَ مَن خالفَه وأموالَهم، ويزعُمَ أنَّ الله قال له ذلك. واللهُ يعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، ومع ذلك فهو يؤيِّدُه وينصُرُه على أعدائِه، ويمكِّنُه من رِقابِهم وبلادِهم، فلا يمكِنُ أحدًا أن ينكِرَ هذا القُرآنَ إلَّا بعْدَ إنكارِ عِلمِ اللهِ، وهذا لا تقولُ به طائِفةٌ مِن بني آدمَ سِوى الفلاسفةِ الدهريَّةِ. وأيضًا فإنَّ ذِكرَ عِلمِه تعالى العامِّ ينَبِّهُهم ويحضُّهم على تدبُّرِ القرآنِ، وأنَّهم لو تدَبَّروا لرأوا فيه مِن عِلمِه وأحكامِه ما يدُلُّ دَلالةً قاطِعةً على أنَّه لا يكونُ إلَّا مِن عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا شُروعٌ في حِكايةِ أباطيلِهم المُتعلِّقةِ بالمُنزَّلِ والمُنزَّلِ عليه معًا، وإبطالِها(٣).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

- قَولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ﴾ فيه إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيثُ لم يقُلْ: (وقالوا)؛ لإفادةِ أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ هو عِلَّةُ قولِهم هذا، أي: ما جرَّأَهم على هذا البُهتانِ إلَّا إشراكُهم وتَصلُّبُهم فيه، وليس ذلك لشُبهةٍ تَبعَثُهم على هذه المقالةِ؛ لانتفاءِ شُبهةِ ذلك، بخِلافِ ما حُكِيَ آنفًا مِن كُفْرِهم باللهِ، فإنَّهم تلقَّوهُ مِن آبائِهم؛ فالوصفُ الَّذي أُجْرِيَ عليهم هنا مُناسِبٌ لِمَقالتِهم؛ لأنَّها أصْلُ كُفرِهم، وهذه الجُملةُ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]؛ فهي المقصودُ مِن افتِتاحِ الكلامِ كما آذنَتْ بذلك فاتِحةُ السُّورةِ. وإنَّما أُخِّرَت هذه الجُملةُ الَّتي تُقابِلُ الجُملةَ الأُولى، مع أنَّ مُقْتَضَى ظاهرِ المُقابَلةِ أنْ تُذكَرَ هذه الجُملةُ قبْلَ جُملةِ: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ [الفرقان: ٣]؛ اهتمامًا بإبطالِ الكُفرِ المُتعلِّقِ بصِفاتِ اللهِ(١).

- والقصْرُ المُشتمِلُ عليه كلامُهم المُستفادُ مِن (إنْ) النَّافيةِ و(إلَّا) قصْرُ قلْبٍ(٢)؛ زعَموا به رَدَّ دَعوى أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، وإسنادُ هذا القولِ إلى جميعِ الكُفَّارِ؛ لأنَّه واقعٌ بيْن ظَهرانَيْهم، وكلُّهم يَتناقَلونَه، وهذه طريقةٌ مألوفةٌ في نِسْبةِ أمْرٍ إلى القَبيلةِ، كما يُقالُ: بنو أسَدٍ قَتَلوا حُجْرًا(٣). وقيل: الموصولُ إمَّا عبارةٌ عن غُلاتِهم في الكُفرِ والطُّغيانِ، والجمْعُ لمُشايَعةِ الباقينَ له في ذلك. وإمَّا عن كُلِّهم، ووَضْعُ الموصولِ مَوضِعَ ضَميرِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

(٢) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقول: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

وحُجْرٌ هو الكِنديُّ، والدُ امرئِ القيسِ. يُنظر: ((أمثال العرب)) للمفضل الضبي (ص: ١٢٧).

لِذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والإيذانِ بأنَّ ما تَفوَّهوا به كُفْرٌ عظيمٌ(١).

- والقَصرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ مُتسلِّطٌ على كِلْتا الجُملتينِ، أي: لا يَخْلو هذا القُرآنُ -على زَعْمِهم- مِن مجموعِ الأمْرينِ؛ هما: أنْ يكونَ افْتَرى بعْضَه مِن نفْسِه، وأعانَه قومٌ على بَعضِه(٢).

- قَولُه: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ فرَّعَ على حِكايةِ قولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ظُهورَ أنَّهم ارْتَكبوا بقولِهم ظُلْمًا وزُورًا؛ لأنَّهم حين قالوا ذلك ظهَرَ أنَّ قولَهم زُورٌ وظُلْمٌ؛ لأنَّه اختِلاقٌ واعتداءٌ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ لكنْ لا على أنَّهما أمْرانِ مُتغايرانِ حقيقةً، يقَعُ أحدُهما عَقِيبَ الآخَرِ أو يَحصُلُ بسبَبِه، بلْ على أنَّ الثَّانيَ هو عينُ الأوَّلِ حقيقةً، وإنَّما التَّرتيبُ بحسَبِ التَّغايُرِ الاعتباريِّ، و(قد) لتَحقيقِ ذلك المعنى؛ فإنَّ ما جاؤوه مِن الظُّلمِ والزُّورِ هو عينُ ما حُكِيَ عنهم؛ لكنَّه لمَّا كان مُغايِرًا له في المفهومِ، وأظهَرَ منه بُطلانًا، رُتِّبَ عليه بالفاءِ تَرتيبَ اللَّازمِ على الملزومِ؛ تَهويلًا لأمْرِه(٣).

- وتَنكيرُ ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ للتَّفخيمِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: تُمْلى عليه طرفَيِ النَّهارِ، وهذا مُستعمَلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠٢).

كِنايةٌ عن كثرةِ المُمارَسةِ لِتَلقِّي الأساطيرِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا جَوابٌ عن قولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وقولِهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على الأُسلوبِ الحَكيمِ[٢]، أي: قُلْ يا محمَّدُ: ليس هذا مِن افتِرائي، ولا هو مُمْلًى علَيَّ، بلْ مُنزَّلٌ مِن عندِ مَن يَعلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأرضِ، وما في بواطِنِكم مِن الدَّهاءِ والمَكْرِ؛ لأنَّكم تَعلَمون عِلْمًا يَقينًا أنَّ هذا ليس مِن قَبيلِ الافتراءِ، ولا هو مِن الأساطيرِ؛ لأنَّه أعجَزَكم عن آخِرِكم بفَصاحَتِه، وأنَّه تضمَّنَ أخبارًا عن المُغيَّباتِ، وأسرارًا لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ، لكنَّ غرَضَكم الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ، ومُجرَّدُ العِنادِ؛ ويُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وإقحامُه بيْن كَلامِهم، فسُبحانَه ما أرحَمَه وما أَجَلَّه؛ حيث أمهَلَكم ولم يُعاجِلْكم بالاستئصالِ لهذه العظيمةِ! فإذَنْ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ معنى التَّعجُّبِ[٣]، وقد ردَّ عليهم بوَصْفِه تعالى بالعِلْمِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ لم يكُنْ لِيَصدُرَ إلَّا مِن علَّامٍ بكلِّ المعلوماتِ؛ لِمَا احْتَوى عليه مِن إعجازِ التَّركيبِ الَّذي لا يُمكِنُ صُدورُه مِن أحدٍ ولوِ استعانَ بالعالَمِ كلِّهم، ولاِشتمالِه على مصالِحِ العالَمِ وعلى أنواعِ العُلومِ. واكْتَفى بعِلْمِ السِّرِّ؛ لأنَّ ما سِواهُ أولى أنْ يَتعلَّقَ عِلْمُه به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافُ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وَصْفُه تعالى بإحاطةِ عِلْمِه بجَميعِ المعلوماتِ الجَليَّةِ والخَفيَّةِ؛ للإيذانِ بانطواءِ ما أنزَلَهُ على أسرارٍ مَطْويَّةٍ عن عُقولِ البشَرِ، مع ما فيه مِن التَّعريضِ بمُجازاتِهم بجِناياتِهم المَحْكيَّةِ الَّتي هي مِن جُملةِ مَعلوماتِه[١].

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ عبَّرَ عن مُنزِلِ القُرآنِ بطَريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ الصِّلةُ مِن استشهادِ الرَّسولِ اللهَ على ما في سِرِّهِ؛ لأنَّ اللهَ يعلَمُ كلَّ سِرٍّ في كلِّ مكانٍ؛ فجُملةُ الصِّلةِ مُستعمَلةٌ في لازمِ الفائدةِ، وهو كونُ المُتكلِّمِ -أي: الرَّسولِ- عالِمًا بذلك. وفي ذلك كِنايةٌ عن مُراقبَتِه اللهَ فيما يُبَلِّغُه عنه. وفي ذلك إيقاظٌ لهم بأنْ يَتدبَّروا في هذا الَّذي زعَمُوه إفْكًا أو أساطيرَ الأوَّلينَ؛ لِيَظهَرَ لهم اشتمالُه على الحقائقِ النَّاصعةِ الَّتي لا يُحِيطُ بها إلَّا اللهُ الَّذي يَعلَمُ السِّرَّ، فيُوقِنوا أنَّ القُرآنَ لا يكونُ إلَّا مِن إنزالِه، ولِيَعلموا بَراءةَ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الاستعانةِ بمَن زَعَمُوهم يُعينونَه[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تَرغيبٌ لهم في الإقلاعِ عن هذه المُكابَرةِ، وفي اتِّباعِ دِينِ الحقِّ؛ لِيَغفِرَ اللهُ لهم ويَرحَمَهم، وذلك تَعريضٌ بأنَّهم إنْ لم يُقلِعوا ويَتوبوا حَقَّ عليهم الغضَبُ والنِّقمةُ. أو غفورًا رحيمًا في كونِه أمهَلَكم ولم يُعاجِلْكم على ما اسْتَوجَبْتُموه مِن العِقابِ بسبَبِ مُكابرَتِكم؛ فهو تَعليلُ ما هو المُشاهَدُ مِن تأْخيرِ العُقوبةِ. أو لمَّا تقدَّمَ ما يدُلُّ على العِقابِ أعقَبَهُ بما يدُلُّ على القُدرةِ عليه؛ لأنَّ المُتَّصِفَ بالغُفرانِ والرَّحمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

قادرٌ على أنْ يُعاقِبَ[١]؛ فدلَّ قولُه: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ على القُدرةِ التَّامَّةِ الكاملةِ بالكِنايةِ. وفي إيثارِ هاتينِ الصِّفتينِ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تَعييرٌ لهم، ونعْيٌ على فِعْلِهم؛ يعني: إنَّكم فيما أنتم فيه بحيث يَتصدَّى لِعَذابِكم مَن صِفَتُه الغُفرانُ والرَّحمةُ. وقيل: ذكَرَ المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأجْلِ أنْ يَعرِفوا أنَّ هذه الذُّنوبَ العظيمةَ المُتجاوِزةَ عن الحدِّ مَفقودةٌ إنْ تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصلةٌ إليهم بعْدَها، وألَّا ييْأَسوا مِن رَحمتِه بما فرَطَ منهم مع إصرارِهم عليه مِن المُعاداةِ والمُخاصَمةِ الشَّديدةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٧٦).

الآيات (٧-١٠)

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورًا ١٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَنزٌ﴾: أي: مالٌ عظيمٌ، وهو في الأصلِ: المالُ المَدْفونُ تحتَ الأرضِ، والكَنْزُ: جعْلُ المالِ بعضِه على بعضٍ، وحِفظُه، وأصلُ (كنز): يدُلُّ على تجَمُّعٍ في الشَّيءِ[1].

﴿جَنَّةٞ﴾: أي: بُستانٌ، وكُلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ يستُرُ بأشجارِه الأرضَ يقالُ له: جنَّةٌ. وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ[2].

﴿ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾: أي: الأشباهَ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكرُ الله تعالى شبهةً ثالثةً مِن شُبَهِ المشركينَ، فيقولُ تعالى: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص ٦٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٢).

ما لمحمَّدٍ يأكُلُ الطَّعامَ ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ -معَ أنَّه رَسولٌ-؟! هلَّا أنزَلَ اللهُ إليه مَلَكًا مِن السَّماءِ يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُنذِرُ معه النَّاسَ إن كان صادِقًا، أو يُلقَى إليه كَنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه، ويُكفى به طلَبَ الرِّزقِ، أو يكونُ له بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه! وقال هؤلاء المُشرِكون: ما تتَّبِعون إلَّا رجلًا به سِحرٌ، وليس هو برَسولٍ.

ثمَّ يقولُ تعالى مهوِّنًا مِن شأنِهم، ومسلِّيًا لرسولِه: انظرْ -يا محمَّدُ- كيف جعَل هؤلاء المُشرِكون لك الأوصافَ الكاذِبةَ الباطِلةَ، فضَلُّوا بذلك عن الصَّوابِ، فلا يَستطيعون إلى ذلك طَريقًا!

تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ بركاتُه؛ فهو الذي إن شاء جعَلَ لك -يا محمَّدُ- خيرًا ممَّا يقولُ المُشرِكون؛ بساتينَ تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ، ويجعَلْ لك بُيوتًا عظيمةً في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا فَرَغ سُبحانَه مِن ذِكرِ ما طَعَنوا به على القُرآنِ؛ ذَكَر ما طَعَنوا به على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال تعالى[1]:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما لمحمَّدٍ -الذي يزعُمُ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ- يأكُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٣).

الطَّعامَ كما نأكُلُ، ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ والتجارةِ كما نمشي[١]؟!

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

أي: هلَّا أنزَلَ اللهُ إلى محمَّدٍ مَلَكًا مِن الملائكةِ، يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُعينُه على إنذارِ النَّاسِ وتبليغِ رسالتِه، إن كان صادِقًا في دعواه أنَّه رَسولٌ مِن عندِ اللهِ[٢]!

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

أي: أو يُلقَى إلى محمَّدٍ كَنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه فيُغنيه عن طَلَبِ المعاشِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال تعالى حكايةً لِقَولِ فِرعَونَ عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧).

قال العليمي: (وكُتِبت اللامُ في المصحفِ مفرَدةً مِن قولِه: ﴿مَالِ هَٰذَا﴾، واتِّباعُه سُنَّةٌ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٩، ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٠).

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿نَأْكُلُ﴾ بالنونِ، أي: أو تكونُ له جَنَّةٌ يُطعِمُنا منها، فنتيقَّنُ أنَّ ثَمَرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ(١).

٢- قراءةُ ﴿يَأْكُلُ﴾ بالياءِ، أي: يختَصُّ الرَّسولُ بالأكلِ مِن الجنَّةِ، فيَبينُ فَضلُه على غيرِه في مأكَلِه(٢).

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

أي: أو يكونُ لمحمَّدٍ بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه، فيستغني بذلك عن طَلبِ الرِّزقِ(٣).

---

(١) قرأ بها حمزة، والكسائي، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٨).
قال البقاعي: (وعلى قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ بالنونِ يكونُ المعنى: أنَّا إذا أمكنَّا منها، كان ذلك أجلَبَ لنا إلى اتِّباعِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٥).
وقال ابنُ عاشورٍ: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ: (نأكُلُ منها) بنونِ الجماعةِ. والمعنى: ليتيقَّنوا أنَّ ثمرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٣/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٠).
قال الزمخشري: (يَعْنُونَ أنَّه كان يجِبُ أن يكونَ مَلَكًا مستغنيًا عن الأكلِ والتعَيُّشِ، ثمَّ نزَلوا عن اقتراحِهم أن يكونَ مَلَكًا إلى اقتراحِ أن يكونَ إنسانًا معه ملَكٌ؛ حتى يَتساندَا في الإنذارِ والتَّخويفِ، ثمَّ نزَلوا أيضًا فقالوا: وإن لم يكُنْ مَرْفودًا بملَكٍ فلْيَكُنْ مَرفودًا بكَنزٍ يُلقى إليه من السَّماءِ يَستظهِرُ به، ولا يحتاجُ إلى تحصيلِ المعاشِ، ثمَّ نزلوا فاقتنعوا بأن يكونَ رجُلًا له =

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩١].

﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

أي: وقال المُشرِكون: ما تتَّبِعون(١) إلَّا رجُلًا مِن البَشَرِ به سِحرٌ، وليس رسولًا مِن عندِ اللهِ كما يزعُمُ، فهو رجلٌ مَخدوعٌ مَغلوبٌ على أمرِه، ومختَلُّ العَقلِ بالسِّحرِ(٢).

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ ﴾.

أي: انظُرْ -يا محمَّدُ- إلى هؤلاء المُشرِكين كيف يجعَلونَ لك هذه الأوصافَ، ويقولون فيك هذه الأقوالَ الباطلةَ المُتناقِضةَ، فأخطَؤوا بذلك الحَقَّ والصوابَ، فلا يَستطيعون إليه طَريقًا(٣)!

= بستانٌ يأكُلُ منه ويرتَزِقُ كما الدَّهاقينِ والمياسيرِ، أو يأكلون هُم مِن ذلك البُستانِ فينتَفِعون به في دنياهم ومعاشِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥).

(١) قيل: الخطابُ هنا للمؤمنينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥).

قال ابنُ جرير: (وقال المشركون للمؤمنينَ بالله ورسولِه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أيُّها القومُ، باتِّباعِكم محمَّدًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤).

وقيل: الخطابُ لِقَومِهم المشركين، فقال ذلك بعضُهم لبعضٍ. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: مكِّيٌّ، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير =

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ابتُدِئت السورةُ بتعظيمِ اللهِ وثَنائِه على أنْ أنزَل الفُرقانَ على رسولِه، وأعقَبَ ذلك بما تلقَّى به المشركون هذه المزيَّةَ مِن الجُحودِ والإنكارِ النَّاشئِ عن تمسُّكِهم بما اتَّخَذوه مِن آلهةٍ مِن صِفاتِهم ما يُنافي الإلهيَّةَ، ثمَّ طعنوا في القُرآنِ والذي جاء به بما هو كُفرانٌ للنِّعمةِ ومَن جاء بها، فلَمَّا أُريدَ الإعراضُ عن باطلِهم، والإقبالُ على خِطابِ الرَّسولِ بتَثبيتِه وتثبيتِ المؤمنين؛ أُعِيدَ اللَّفظُ الذي ابتُدِئتْ به السورةُ على طريقةِ وصْلِ الكَلامِ، بقَولِه تعالى[1]:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾.

أي: تعاظَمَ الله وكَمَلَت أوصافه وكثُرتْ خيراته ودامتْ وثبتتْ بَرَكاتُه؛ فهو الَّذي إن شاء جعَلَ لك -يا محمَّدُ- خيرًا مِمَّا اقترَحه المشركونَ؛ بساتينَ عديدةً في الدُّنيا[2]

= ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٣، ٥٤).

قال البِقاعي: (﴿فَضَلُّواْ﴾ أي: عن جميعِ طرُقِ العَدلِ، وسائرِ أنحاءِ البيانِ بسبَبِ ذلك، فلم يجِدوا قولًا يستقِرُّون عليه، وأبعدوا جِدًّا ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ في الحالِ ولا في المآلِ؛ بسببِ هذا الضَّلالِ ﴿سَبِيلٗا﴾ أي: سُلوكَ سَبيلٍ مِن السُّبُلِ الموصِلةِ إلى ما يستحِقُّ أن يُقصَدَ، بل هم في مجاهِلَ مُوحِشةٍ، وفيافيَ مُهلِكةٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٧).

وقال الشنقيطي: (وقَولُه تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ فيه أقوالٌ كثيرةٌ مُتقاربةٌ، وأظهَرُها أنَّ معنى ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾، أي: طريقًا إلى الحَقِّ والصَّوابِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠).

(٢) وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ وُقوعُ ذلك في الدُّنيا: الواحديُّ، وابنُ كثير، والبقاعي، والعليمي، =

تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ[١].

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءة ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بالرفعِ على الاستِئنافِ، وفيه معنى الحَتمِ، أي: وسيجعَلُ اللهُ لك -يا محمَّدُ- قُصورًا في الجنَّةِ[٢].

٢- قراءة ﴿وَيَجْعَل﴾ بالجَزمِ؛ عَطفًا على موضِعِ ﴿جَعَلَ﴾ أي: إن يَشَأِ اللهُ يجعَلْ لك -يا محمَّدُ- جَناتٍ، ويجعَلْ لك قُصورًا في الدُّنيا[٣].

= والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٨).

ونَسَبه ابنُ عاشورٍ للجمهورِ، ثمَّ قال: (وعلى هذا التأويلِ تكونُ «إن» الشَّرطيةُ واقعةً موقعَ «لو»، أي: إنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءه لفعَلَه، ولكِنَّ الحكمةَ اقتضت عدَمَ البَسطِ للرَّسولِ في هذه الدُّنيا، ولكنَّ المشركين لا يدركون المطالِبَ العاليةَ. وقال ابنُ عطيةَ: يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالجنَّاتِ والقصورِ ليست التي في الدُّنيا، أي: هي جناتُ الخُلدِ وقصورُ الجنَّةِ؛ فيكونَ وعدًا مِن الله لرسولِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠، ٣٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠١).

ومِمَّن اختار أنَّها في الآخرةِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٥ - ٤٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

قال السمعانيُّ: (بساتينَ تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨).

وقال البقاعي: (﴿جَنَّٰتٍ﴾ فضلًا عن جَنَّةٍ واحدةٍ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تكونُ أرضُها عُيونًا نابعةً، أيُّ موضعٍ أُريدَ منه إجراءُ نهرٍ جرى، فهي لا تزال رَيًّا تُغْني صاحِبَها عن كلِّ حاجةٍ، ولا تُحوجُه في استِثمارِها إلى سقيٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وابنُ عامرٍ، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٩)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣). =

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

أي: وإن شاء اللهُ جعَلَ لك -يا محمَّدُ- بيوتًا مُشَيَّدةً عَظيمةً واسِعةً في الدُّنيا[1].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ إباحةُ دخولِ الأسواقِ للعُلماءِ وأهلِ الدِّينِ والصَّلاحِ، خلافًا لِمَن كرِهَها لهم[2].

٢- قال تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، ومُرادُهم فاسِدٌ مِن وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّه ليس يُوجِبُ اختِصاصُه بالمَنزِلةِ نَقْلَه عن مَوضِعِ الخِلْقةِ؛ لأمرَينِ: أحَدُهما: أنَّ كُلَّ جِنسٍ قد يَتفاضَلُ أهلُه في المَنزِلةِ، ولا يَقتَضي تمييزَهم في الخِلْقةِ، كذلك حالُ مَن فُضِّلَ في الرِّسالةِ. الثَّاني: أنَّه لو نُقِلَ عن مَوضوعِ الخِلْقةِ بتَمييزِه بالرِّسالةِ لصار مِن غَيرِ جِنسِهم، ولَمَا كان رسولًا منهم، وذلك مِمَّا تَنفِرُ منه النُّفوسُ.

وأمَّا الوَجهُ الثَّاني: فهو أنَّ الرِّسالةَ لا تَقتَضي مَنْعَه مِنَ المَشْيِ في الأسواقِ؛ لأمرَينِ:

أحَدُهما: أنَّ هذا مِن أفعالِ الجَبابِرةِ، وقد صان اللهُ رَسولَه عن التجَبُّرِ.

الثَّاني: لحاجتِه لدُعاءِ أهلِ الأسواقِ إلى نبُوَّتِه، ومُشاهدةِ ما هم عليه مِن مُنكَرٍ

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

يَمنَعُ منه، ومَعروفٍ يُقِرُّ عليه[1].

٣- قال تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ قَولَهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ العَجَبُ لجَهلِهم حين أرادوا أن يُلقَى إليه كَنزٌ، أو تكونَ له جَنَّةٌ، ولو فَهِموا عَلِموا أنَّ كُلَّ الكُنوزِ له، وجَميعَ الدُّنيا مِلكُه! أَوَليس قد قَهَر أربابَ الكُنوزِ، وحَكَم في جميعِ المُلوكِ؟! وكان مِن تمامِ مُعجزتِه أنَّ الأموالَ لم تُفتَحْ عليه في زَمَنِه؛ لئَلَّا يَقولَ قائِلٌ: قد جَرَت العادةُ بأنَّ إقامةَ الدُّوَلِ وقَهْرَ الأعداءِ بكَثرةِ الأموالِ! فتَمَّت المُعجِزةُ بالغَلَبةِ والقَهرِ مِن غَيرِ مالٍ، ولا كَثرةِ أعوانٍ، ثمَّ فُتِحَت الدُّنيا على أصحابِه، ففرَّقوا ما جَمَعه الملوكُ بالشَّرَهِ، فأخرَجوه فيما خُلِقَ له، ولم يُمسِكوه إمساكَ الكافِرينَ؛ لِيُعَلِّموا النَّاسَ بإخراجِ ذلك المالِ: أنَّ لنا دارًا سِوى هذه، ومَقَرًّا غَيرَ هذا[2]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ إذا أوردَ الشُّبُهاتِ على نفْسِه أو على مَن أتَى بالحقِّ؛ فإنه يكونُ سببًا لضَلالِه، إذا لم يَقبَلِ الإنسانُ الحقَّ، ويدَعْ ما يَرِدُ على خاطرِه مِن الشُّبُهاتِ حوْلَ ذلك الحقِّ؛ فإنه يكونُ سببًا لضَلالِه؛ ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا۟﴾، الفاءُ عاطفةٌ، وتُفيدُ السَّببيَّةَ[3].

٥- قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ نَفيُ الاستِطاعةِ المذكورةِ هنا كقَولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٣٣).

(٢) الفائِدةُ لابنِ هُبَيرةَ، نقَلَها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٤).

١٠١](١)، وهذه الاستطاعةُ نَفْيُها إنَّما هو بحَسَبِ مَشيئةِ اللهِ مِن مُعاقَبةِ الإنسانِ على ذنْبٍ مِن ذُنوبِه، وقد دَلَّتْ آياتٌ كثيرةٌ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُسَبِّبُ للإنسانِ الضَّلالةَ بِسَبَبِ ارتكابِ الذُّنوبِ، كما يُسَبِّبُ له الهُدى بسَبَبِ الطَّاعاتِ؛ فالعَبدُ إذا سارَعَ إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ، وإلى ما يُسْخِطُ اللهَ؛ عاقَبَه اللهُ بأنْ زادَه ضَلالًا فَوقَ ضَلالِه، وظَلامًا على ظَلامِه، وجاءه الطَّبعُ والخَتمُ على قَلْبِه، والغِشاوةُ على عَينِه؛ بسَبَبِ كُفرِه وبَغْيِه وتمَرُّدِه على اللهِ، ومِن هنالك يُعلَمُ أنَّ اللهَ يَجعَلُ الحَسَناتِ وطاعةَ اللهِ سَبَبًا لهُدى عَبْدِه، كما أنَّ السَّيِّئاتِ والمُبادرةَ إلى ما لا يُرضيه تكونُ سَبَبًا للرَّينِ على القُلوبِ والطَّبعِ عليها، كما قال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال في الهُدى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وأمثالِ ذلك مِنَ الآياتِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢) و (٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الاستِطاعةُ نوعانِ: مُتقَدِّمةٌ صالِحةٌ للضِّدَّينِ، ومُقارِنةٌ لا تكونُ إلَّا مع الفِعلِ؛ فتلك هي المُصَحِّحةُ للفِعلِ المجَوِّزةُ له، وهذه هي المُوجِبةُ للفِعلِ المحَقِّقةُ له، قال الله تعالى في الأُولى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولو كانت هذه الاستِطاعةُ لا تكونُ إلَّا مع الفِعلِ لَما وَجَب الحَجُّ إلَّا على مَن حَجَّ، ولَمَا عَصى أحَدٌ بتَركِ الحَجِّ، ولا كان الحَجُّ واجِبًا على أحدٍ قبْلَ الإحرامِ به، بل قبْلَ فَراغِه! وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فأمَرَ بالتَّقوى بمِقدارِ الاستِطاعةِ، ولو أراد الاستِطاعةَ المُقارِنةَ لَمَا وَجَب على أحدٍ مِن التَّقوى إلَّا ما فَعَل فقط؛ إذ هو الذي قارنَتْه تلك الاستِطاعةُ... ونظائِرُ هذا مُتعَدِّدةٌ؛ فإنَّ كُلَّ أمرٍ عُلِّقَ في الكتابِ والسُّنَّةِ وُجوبُه بالاستطاعةِ، وعَدَمُه بعَدَمِها- لم يُرَدْ به المقارَنةُ، وإلَّا لَمَا كان اللهُ قد أوجَبَ الواجباتِ إلَّا على مَن فعَلَها، وقد أسقَطَها عمَّن لم يفعَلْها، فلا يأثَمُ أحدٌ بتَركِ الواجِبِ المذكورِ. وأمَّا «الاستِطاعةُ المُقارِنةُ المُوجِبةُ» فمِثلُ قَولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقَولِه: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، فهذه الاستِطاعةُ هي المُقارِنةُ المُوجِبةُ؛ إذ =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ هذا انتِقالٌ مِن حِكايةِ مَطاعِنِهم في القُرآنِ، وبَيانِ إبطالِها، إلى حِكايةِ مَطاعِنِهم في الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والضَّميرُ في ﴿وَقَالُوا۟﴾ عائدٌ إلى الَّذين كَفَروا؛ فمدلولُ الصِّفةِ مُراعًى كما تقدَّمَ[١].

- قَولُه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ...﴾ (ما) استِفهاميَّةٌ بمعنى إنكارِ الوُقوعِ ونفْيِه، وهذا الاستِفهامُ استِفهامٌ تعَجُّبيٌّ مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو بُطلانُ كَونِه رَسولًا؛ بِناءً على أنَّ التَّعجُّبَ مِن الدَّعوى يَقْتضي استحالتَها أو بُطلانَها. وتركيبُ ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ ونحوِه يُفيدُ الاستِفهامَ عن أمْرٍ ثابتٍ له؛ فمَثارُ الاستِفهامِ في هذِه الآيةِ هو ثُبوتُ حالِ أكْلِ الطَّعامِ والمشْيِ في الأسواقِ للَّذي يَدَّعي الرِّسالةَ مِن اللهِ. وفي قولِهم: (هذا) تَصغيرٌ لشأْنِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وتَسميتُهم له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولًا بطريقِ الاستهزاءِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو أجْرَوا عليه وصْفَ الرِّسالةِ؛ مُجاراةً منهم لقولِه، وهم لا يُؤمِنون به[٢]، ولكنَّهم بنَوا عليه؛ ليتأتَّى لهم التَّعجُّبُ، والمُرادُ منه الإحالةُ والإبطالُ[٣].

= الأُخرى لا بدَّ منها في التَّكليفِ؛ فالأُولى: هي الشَّرعيَّةُ التي هي مَناطُ الأمرِ والنَّهيِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وعليها يَتكلَّمُ الفُقَهاءُ، وهي الغالِبةُ في عُرفِ النَّاسِ. والثَّانيةُ: هي الكونيَّةُ التي هي مَناطُ القَضاءِ والقَدَرِ، وبها يتحَقَّقُ وُجودُ الفِعلِ؛ فالأُولى للكَلِماتِ الأَمْريَّاتِ الشَّرعيَّاتِ، والثَّانيةُ للكَلِماتِ الخَلْقيَّاتِ الكَونيَّاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

(٢) والقاعِدةُ: أنَّه قد يَرِدُ الخِطابُ بالشَّيءِ في القُرآنِ على اعتِقادِ المُخاطَبِ دُونَ ما في نفْسِ الأمرِ، وهو يَقَعُ في القُرآنِ على أنواعٍ مُتعَدِّدةٍ؛ منها: نوعٌ يَخرُجُ على اعتقادِ المُخاطَبِ سواءٌ وافَقَ الواقِعَ أم لا، إلَّا أنَّ المتكلِّمَ لا يَعتَقِدُه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير أبي =

- قَولُه: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كَنَوْا بأكْلِ الطَّعامِ والمشْيِ في الأسواقِ عن مُماثَلةِ أحوالِه لأحوالِ النَّاسِ؛ تذَرُّعًا منهم إلى إبطالِ كَونِه رسولًا؛ لِزَعْمِهم أنَّ الرَّسولَ عن اللهِ تكونُ أحوالُه غيرَ مُماثِلةٍ لأحوالِ النَّاسِ، وخَصُّوا أكْلَ الطَّعامِ والمشْيَ في الأسواقِ؛ لأنَّهما مِن الأحوالِ المُشاهَدةِ المُتكرِّرةِ[١]. وفي قولِه: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كِنايةٌ عن الحدَثِ؛ لأنَّه مُلازِمٌ أكْلَ الطَّعامِ. وفي ﴿وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كِنايةٌ عن طلَبِ المعاشِ[٢].

- و(لولا) في قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ حَرفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ[٣].

- وفي قولِهم: ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ خصُّوا مِن أحوالِ الرَّسولِ حالَ النِّذارةِ؛ لأنَّها هي الَّتي أنبتَتْ حِقْدَهم عليه[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

- عبَّر بالإلقاءِ -وهو الرميُ- عن الإعطاءِ مِن عندِ اللهِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ فيه وَضْعُ الظَّاهِرِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ لِيُسجِّلَ عليهم بالظُّلمِ، وتجاوُزِ الحدِّ فيما

= حيان)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٢٨).

قالوهُ؛ لكونِه إضلالًا خارجًا عن حدِّ الضَّلالِ، مع ما فيه مِن نِسبتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المَسْحُوريَّةِ[١]؛ فـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هم المُشرِكون، فغيَّرَ عُنوانَهم الأوَّلَ إلى عنوانِ الظُّلمِ وهمْ همْ؛ تَنبيهًا على أنَّ في هذا القولِ اعتداءً على الرَّسولِ، بنَبْزِه بما هو بريءٌ منه، وهم يَعلمون أنَّه ليس كذلك؛ فظُلْمُهم له أشدُّ ظُلْمٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢]. وأفاد الإظهارُ في مقامِ الإضمارِ هنا أيضًا: أنَّ هذا القَولَ ظُلْمٌ مِن أيِّ إنسانٍ وقَع؛ لأنَّه للتعليل، فهذا القولُ يعتبَرُ مِن الظلْمِ؛ فيكونُ الأمرُ شامِلًا، يعني: أنَّ كُلَّ مَن قال فهو ظالِمٌ. وأفاد أيضًا تنبيهَ المخاطَبِ؛ لأنَّ اختلافَ الكَلامِ أو اختِلافَ النَّسَقِ في الكلامِ يوجِبُ الانتباهَ[٣].

- وأسنَد القَولَ إلى جميعِ الظَّالِمين؛ لأنَّهم تلقَّفوه ولَهِجوا به[٤].

- وذكَرَ ﴿رَجُلًا﴾ في قولِهم: ﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ لتَمهيدِ استِحالةِ كونِه رسولًا؛ لأنَّه رجُلٌ مِن النَّاسِ[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ مُؤكِّدًا لمعنى مَضمونِ الكلامِ، ومَسْلاةً لقلْبِه صلواتُ اللهِ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كالجوابِ عن قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلى آخِرِه، على سبيلِ التَّعريضِ التَّوبيخيِّ، ويكونَ قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ إضْرابًا عن قولِه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1].

- قَولُه: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فُرِّعَ على هذا التَّعجُّبِ ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ﴾ إخبارٌ عنهم بأنَّهم ضَلُّوا في تَلْفيقِ المطاعِنِ في رِسالةِ الرَّسولِ، فسَلَكوا طَرائقَ لا تصِلُ بهم إلى دَليلٍ مُقنِعٍ على مُرادِهم، وهو هنا تعجُّبٌ مِن خطَلِهم، وإعراضٌ عن مُجاوبَتِهم[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ استِئنافٌ واقِعٌ مَوقِعَ الجَوابِ عن قولِهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ ...﴾ [الفرقان: ٨]، أي: إنْ شاءَ جعَلَ لك أفضَلَ مِن الَّذي اقترحوهُ، أي: إنْ شاء عَجَّلَه لك في الدُّنيا؛ فالإشارةُ إلى المذكورِ مِن قولِهم[3]. وعدَمُ التَّعرُّضِ لجَوابِ الاقتراحَينِ الأوَّلَينِ -﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾-؛ للتَّنبيهِ على خُروجِهما عن دائرةِ العقْلِ، واستغنائِهما عن الجوابِ؛ لظُهورِ بُطلانِهما ومُنافاتِهما للحِكمةِ التَّشريعيَّةِ[4].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

الآيات (١١-١٦)

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ
سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)
لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ
الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ
عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا مُتَّقِدةً، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه(١).

﴿تَغَيُّظًا﴾: أي: غَضَبًا شَديدًا، والغَيظُ: أشدُّ الغَضَبِ، وهو الحرارةُ التي يجِدُها الإنسانُ مِن فورانِ دَمِ قَلبِه(٢).

﴿وَزَفِيرًا﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدُلُّ على صَوتٍ(٣).

﴿مُقَرَّنِينَ﴾: أي: مُوثَقينَ في السَّلاسِلِ والأغلالِ، قد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ، أو قُرِنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رِقابِهم، يقالُ: قَرَنتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا شدَدْتَه به

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٠).

ووصَلْتَه، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ثُبُورًا﴾: أي: هَلاكًا، وأصلُ (ثبر) هنا: الهلاكُ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ المشركينَ مِن البعثِ، وما أعدَّه لهم مِن جزاءٍ، فيقولُ: قد كذَّب هؤلاء المُشرِكون بالبَعثِ يومَ القيامةِ، وقد هيَّأنا لهم نارًا شديدًا حَرُّها، إذا رأتْهم مِن مكانٍ بعيدٍ سَمِعوا صوتَ لهيبِها وصوتَ زَفيرِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وإذا طُرِحوا في مكانٍ ضَيِّقٍ مِن النَّارِ وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ، دَعَوا على أنفُسِهم بالهلاكِ لِيَستريحوا من العَذابِ. فيقولُ خَزَنةُ النَّارِ لهم: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا، بل اطلُبوا هلاكًا كثيرًا؛ فلن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَ يُبيِّنَ لهم ما أعدَّ الله سبحانَه للمتَّقينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: أذلك العذابُ خَيرٌ أم جَنَّةُ الخُلدِ التي وَعَد اللهُ بها المتَّقينَ، قد كانت ثوابًا لهم، ومَصيرًا يَصيرونَ إليها يومَ القيامةِ؟! ولهؤلاء المتَّقين ما يشاؤونَ في الجنَّةِ، لابثينَ فيها أبدًا، وكان هذا الوَعدُ وَعدًا واجِبًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥١٨) و(١٦/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت تلك الأقوالُ التي قالوها معلومةَ الفسادِ؛ أخبَرَ تعالى أنَّها لم تصدُرْ منهم لطَلَبِ الحقِّ، ولا لاتِّباعِ البُرهانِ، وإنَّما صَدَرتْ منهم تَعَنُّتًا وظُلمًا وتكذيبًا بالحَقِّ، فقالوا ما بقُلوبِهم مِن ذلك؛ ولهذا قال[1]:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾

أي: لا تظُنَّ أنَّهم كذَّبوا بما جئتَ به مِن الحَقِّ -يا محمَّدُ- لأنَّهم يعتَقِدونَ فيك كَذِبًا وافتراءً للقُرآنِ، أو نُقصانًا؛ لأكلِك الطَّعامَ ومَشيِك في الأسواقِ، وإنَّما سبَبُ كُفرِهم وتكذيبِهم واقتراحِهم ما اقترَحوه هو عَدَمُ إيمانِهم بالبَعثِ يومَ القيامةِ[2].

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾

أي: وهيَّأنا وأرصَدْنا لِمن أنكَرَ البَعثَ يومَ القيامةِ مِن هؤلاء المُشرِكين وغَيرِهم نارًا مُوقَدةً شَديدةَ الحرارةِ، نعَذِّبُهم فيها في الآخرةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣، ١٦].

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢).

أي: إذا رأتْ تلك النَّارُ أهلَها الكُفَّارَ يومَ القيامةِ مِن مكانٍ بَعيدٍ، سَمِعوا صَوتَ غَلَيانِها وتلهُّبِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وسَمِعوا لها صوتَ زَفيرٍ؛ مِن غَضَبِها وحَنَقِها عليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [الملك: ٧، ٨].

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه مُلاقاتَها لهم؛ وَصَفَ إلقاءَهم فيها، فقال تعالى(٢):

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾

أي: وإذا طُرِح الكُفَّارُ في مكانٍ ضَيِّقٍ في النَّارِ، وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ(٣)- رفعوا أصواتَهم بطَلَبِ الهلاكِ؛ ندَمًا على تَركِهم الإيمانَ، وانصرافِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٤).

قال ابنُ جرير: (فإن قال قائلٌ: وكيف قيل: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ [الفرقان: ١٢]، والتغيُّظُ لا يُسمَعُ؟ قيل: معنى ذلك: سمِعوا لها صوتَ التغيُّظِ؛ مِن التلهُّبِ والتوقُّدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وقال الشنقيطيُّ: (وللعُلماءِ أقوالٌ في معنى الزَّفيرِ والشَّهيقِ، وأقربُها: أنَّهما يمثِّلُهما معًا صوتُ الحِمارِ في نهيقِه؛ فأوَّلُه زَفيرٌ، وآخِرُه الذي يردِّدُه في صَدرِه شَهيقٌ. والأظهَرُ أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ أي: سَمِعوا غلَيانَها مِن شِدَّةِ غَيظِها، ولَمَّا كان سببُ الغَلَيانِ التغيُّظَ، أطلَقَه عليه، وذلك أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٤).

(٣) قيل: المرادُ قُرِنَت أيديهم إلى أعناقِهم في الأغلالِ. ومِمَّن قال ذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

عن طاعةِ الرَّحمنِ، وتمنِّيًا للمَوتِ لِيَستريحوا مِن العذابِ[١].

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [إبراهيم: ٤٩].

﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

أي: يقولُ خَزَنةُ النَّارِ للكُفَّارِ: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا في النَّارِ، بل اطلُبوا كثيرًا مِن ذلك، فعَذابُكم مستَمِرٌّ ومتجَدِّدٌ، ولن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

= (١٧/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٦٦).

وقيل: مُقَرَّنًا بعضُهم إلى بَعضٍ في الأصفادِ والسلاسلِ، كحالِ الأسرى والمساجينِ: أن يُقرَنَ عددٌ منهم في وِثاقٍ واحدٍ، أو يُقرنوا مع الشياطين. وممَّن قال بذلك في الجملة: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، وابن عطية، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧).

ومِمَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السابقَينِ: مكِّيٌّ، والسمعاني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٧، ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ الله تعالى حالَ العِقابِ المعَدِّ للمُكَذِّبين بالسَّاعةِ؛ أتبَعَه بما يؤكِّدُ الحَسرةَ والنَّدامةَ(١).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه جزاءَ الظَّالمين؛ ناسَبَ أن يَذكرَ جزاءَ المتَّقين، فقال تعالى(٢):

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للكُفَّارِ: أذلك العذابُ المستَمِرُّ في النَّارِ خَيرٌ، أم جنَّةُ الخُلدِ الدَّائمُ نعيمُها، التي وعَد اللهُ بها الذين يتَّقونَ سَخَطَه وعذابَه؛ بامتِثالِ ما يأمُرُهم، واجتِنابِ ما يَنهاهم(٣)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠، ٦١].

﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾.

أي: كانت الجنَّةُ ثَوابًا للمتَّقينَ على تَقواهم وأعمالِهم الصَّالحةِ، ومَرجِعًا يَصيرون إليها في الآخرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾.

أي: للمتَّقينَ في الجنَّةِ ما يَشاؤون ممَّا تَشتهيه أنفُسُهم، لابثينَ فيها أبدًا بلا زَوالٍ عنها، ولا انقِطاعٍ لنَعيمِها(١).

﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾.

أي: كان دُخولُ المتَّقينَ الجنَّةَ وَعدًا واجِبًا لا بدَّ أن يقَعَ في الآخرةِ؛ جزاءً لهم على طاعتِهم ربَّهم، وسؤالِهم ذلك في الدُّنيا(٢).

كما قال تعالى حاكيًا عنهم قَولَهم: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٤، ١٩٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- احتُجَّ بقَولِه تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ على أنَّ النارَ -التي هي دارُ العِقابِ- مَخلوقةٌ؛ لأنَّ ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ إخبارٌ عن فِعلٍ وقَعَ في الماضي؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢).

قال ابنُ القيم: (﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ يَسألُه إيَّاه عبادُه المؤمنون، ويَسألُه إيَّاه ملائكتُه لهم؛ فالجنَّةُ تَسألُ رَبَّها أهلَها، وأهلُها يسألونَه إيَّاها، والملائكةُ تسألُها لهم، والرسُلُ يسألونَه إيَّاها لهم ولأتْباعِهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٠).

فدلَّتِ الآيةُ على أنَّ دارَ العِقابِ مَخلوقةٌ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ التَّحقيقُ أنَّ النَّارَ تُبصِرُ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ، كما صَرَّح اللهُ بذلك في قَولِه هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، ورؤيتُها إيَّاهم مِن مكانٍ بَعيدٍ تدُلُّ على حِدَّةِ بَصَرِها، كما لا يخفى، كما أنَّ النَّارَ تتكَلَّمُ، كما صرَّح اللهُ به في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، والأحاديثُ الدَّالَّةُ على ذلك كثيرةٌ؛ كحَديثِ مُحاجَّةِ النَّارِ مع الجنَّةِ(٢)، وكحديثِ اشتكائِها إلى رَبِّها، فأذِنَ لها في نفَسَينِ(٣)، ونحوِ ذلك، ويكفي في ذلك أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا صَرَّحَ في هذه الآيةِ أنَّها تَراهم، وأنَّ لها تغيُّظًا على الكُفَّارِ، وأنَّها تقولُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]. واعلَمْ أنَّ ما يزعُمُه كَثيرٌ مِن المفَسِّرينَ، وغيرُهم مِن المنتسبينَ للعِلمِ مِن أنَّ النَّارَ لا تُبصِرُ ولا تتكَلَّمُ ولا تغتاظُ، وأنَّ ذلك كُلَّه مِن قَبيلِ المجازِ، أو أنَّ الذي يفعَلُ ذلك خزَنتُها: كُلُّه باطِلٌ، ولا مُعَوَّلَ عليه؛ لمخالفتِه نُصوصَ الوَحيِ الصَّحيحةَ بلا مُستَنِدٍ، والحَقُّ هو ما ذكَرْنا(٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ جُعِلَ إزجاؤُهم إلى النَّارِ مِن مكانٍ بعيدٍ زِيادةً في النِّكاية بهم؛ لأنَّ بُعدَ المكانِ يَقتضي زِيادةَ المَشقَّةِ إلى الوُصولِ، ويَقتضي طُولَ الرُّعبِ ممَّا سمِعوا(٥).

٤- قال تعالى: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وكذلك في (الأنعام) في قولِه تعالى: ﴿يَجْعَلْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٣).

صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال في (هود) ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ [هود: ١٢]، فما وجهُ التعبيرِ في سورة (هود) بقولِه: (ضائق) على وزنِ (فاعلٍ)، وفي (الفرقان) و(الأنعام) بقولِه: ﴿ضَيِّقًا﴾ على وزنِ (فَيْعِل)، مع أنَّه في المواضعِ الثلاثةِ هو الوصفُ مِن ضاق يَضيقُ، فهو ضيِّقٌ؟

والجوابُ عن هذا: أنَّ قولَه تعالى في سورةِ (هود): ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ [هود: ١٢] أُريدَ به أنَّه يحدثُ له ضِيقُ الصدرِ، ويتجدَّدُ له بسببِ عنادِهم وتعنتِهم في قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾[هود: ١٢]، ولَمَّا كان كذلك، قيل فيه: (ضائق) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنَّه قُصِد بها الحدوثُ والتجدُّدُ. أمَّا قولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ في (الفرقان) و(الأنعام) فلمْ يُرَدْ به حدوثٌ؛ ولذلك بقيَ على أصلِه، فقد تقرَّر في فنِّ الصرفِ أنَّ جميعَ أوزانِ الصفةِ المشبَّهةِ باسمِ الفاعلِ إنْ قُصِد بها الحدوثُ والتجدُّدُ جاءت على وزنِ (فاعل) مطلَقًا، وإن لم يُقصَدْ به الحدوثُ والتجدُّدُ بقيَ على أصلِه[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾ سؤالٌ؛ وهو أنَّ الجنةَ ستصيرُ للمتقين جزاءً ومصيرًا؛ لكنها بعْدُ ما صارتْ كذلك، فلِمَ قال تعالى: ﴿ كَانَتْ ﴾؟!

أجيبَ مِن أوجُهٍ:

الأول: أنَّها أحيانًا تدُلُّ على مجرَّدِ الحدثِ، لا على الزمنِ؛ لأنَّ الفعلَ كما هو معروفٌ يدُلُّ على زمنٍ ومعنًى، فـ (كان) دائمًا تأتي للدَّلالةِ على مجرَّدِ المعنى فقط، يعني التي وُعِد المتقون وهي لهم جزاءٌ ومصيرٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٣).

الثاني: أنَّ ما وعدَه اللهُ تعالى فهو في تحقُّقِه كالواقعِ، كأنَّه قد كان.

الثالثُ: أنَّه كان مكتوبًا في اللوحِ المحفوظِ قبْلَ أنْ يَخْلُقَهم اللهُ تعالى بأزمنةٍ متطاولةٍ أنَّ الجنةَ جزاؤُهم ومصيرُهم[1].

٦- قال تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ أهلَ الجنةِ يجِدونَ كلَّ ما يَشاؤُونه مِن أنواعِ النعيمِ[2]، وهي كالتَّنبيهِ على أنَّ حصولَ المراداتِ بأسْرِها لا يكونُ إلَّا في الجنَّةِ، فأمَّا في غَيرِها فلا يحصُلُ ذلك، بل لا بُدَّ في الدُّنيا مِن أن تكونَ راحاتُها مَشوبةً بالجِراحاتِ[3].

٧- قَولُه تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الجنةَ جُعِلَتْ لهم بحُكمِ الوَعدِ والتفَضُّلِ، لا بحُكمِ الاستِحقاقِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾

- قَولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ إضرابٌ عن تَوبيخِهم بحِكايةِ جِناياتِهم السَّابقةِ، وانتِقالٌ منه إلى تَوبيخِهم بحِكايةِ جِناياتِهم الأُخرى؛ للتَّخلُّصِ إلى بَيانِ ما لهم في الآخرةِ بسَبَبِها مِن فُنونِ العذابِ[5]. وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ إضرابَ انتقالٍ مِن ذِكْرِ ضَلالِهم في صِفَةِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ذِكْرِ ضَلالِهم في إنكارِ البَعثِ، على تأويلِ أنَّ قولَه: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] بمعنى: أنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءَه لَفعلَه. ويجوزُ أنْ يكونَ إضرابَ إبطالٍ لِمَا تَضمَّنَه قولُه: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾، على تأويلِ أنَّه وعْدٌ بإيتائِه ذلك في الآخرةِ(١).

- قَولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فيه قَصْرُ تَكذيبِهم على السَّاعةِ؛ لأنَّهم كذَّبوا بالبعثِ، فَهُم بما وراءَهُ أحْرى تَكذيبًا(٢).

- وجُملةُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ مُعترِضةٌ بالوَعيدِ لهم، وهو -لعُمومِه- يَشمَلُ المُشركين المُتحدَّثَ عنهم؛ فهو تَذييلٌ. ومِن غرَضِه مُقابَلةُ ما أعدَّ اللهُ للمُؤمِنينَ في العاقبةِ بما أعدَّهُ للمُشرِكين(٣).

- قَولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وضْعُ (السَّاعة) مَوضِعَ ضَميرِها حيثُ لم يقُلْ: (لِمَن كذَّبَ بها)؛ للمُبالَغةِ في التَّشنيعِ(٤). وهذا الاعتدادُ وإن كان ليس بسبَبِ تكذيبِهم بها خاصَّةً، بل يُشارِكُه في السببيَّةِ له ارتكابُهم الأباطيلَ في أمرِ التَّوحيدِ وأمرِ النبُوَّةِ؛ إلَّا أنَّه لَمَّا كانت السَّاعةُ نَفسُها هي العِلَّةَ القَريبةَ لدخولِهم السعيرَ؛ أُشيرَ بما ذُكِرَ إلى سببيَّةِ التَّكذيبِ بها لدُخولِها، ولم يتعَرَّضْ للإشارةِ إلى سببيَّةِ شَيءٍ آخَرَ. وقيل: إنَّ مَن كذَّب بالساعةِ صار كالاسم لأولئك المشرِكين، والمكذِّبين برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمكذِّبين بالسَّاعةِ، أي: الجامعين للأوصافِ الثلاثةِ؛ لأنَّ التكذيبَ بها أخَصُّ صِفاتِهم القبيحةِ، وأكثَرُ دَورانًا على ألسنتِهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣١، ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤٣٠).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم ...﴾ فيه نِسبةُ الرُّؤيةِ إليها لا إليهم؛ للإيذانِ بأنَّ التَّغيُّظَ والزَّفيرَ منها لِهَيجانِ غضَبِها عليهم عندَ رُؤيتِها إيَّاهم(١).

- وفي التَّعبيرِ بـ (مِن) في قولِه: ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: إشعارٌ بأنَّ بُعدَ ما بيْنَها وبيْنَهم مِن المسافةِ -حينَ رأتْهم- خارجٌ عن حُدودِ البُعدِ المُعتادِ في المسافاتِ المعهودةِ، وفيه مَزيدُ تَهويلٍ لأمْرِها(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ هذا وَصْفٌ لوُصولِهم إلى جَهنَّمَ مِن مَكانٍ بعيدٍ، ووَضْعِهم فيها؛ صِيغَ نظْمُه في صُورةِ تَوصيفِ ضَجيجِ أهْلِ النَّارِ مِن قولِه: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، وأدْمَجَ في خلالِ ذلك وصْفَ داخلِ جَهنَّمَ، ووَصْفَ وَضْعِ المُشركين فيها بقولِه: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وقولِه: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ تفنُّنًا في أُسلوبِ الكلامِ(٣).

- قَولُه: ﴿أُلْقُوا﴾ الإلقاءُ: الرَّمْيُ، وهو كِنايةٌ عن الإهانةِ(٤).

- قَولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ صِفَةٌ لـ ﴿مَكَانًا﴾ مُفِيدةٌ لزِيادةِ شِدَّةٍ؛ فإنَّ الكَرْبَ مع الضِّيقِ، كما أنَّ الرَّوحَ مع السَّعةِ، وهو السِّرُّ في وصْفِ الجنَّةِ بأنَّ عرْضَها السَّمواتُ والأرضُ(٥)؛ فقولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ على القراءةِ بتَشديدِ الياءِ، والقِراءةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

بسُكونِها ﴿ضَيِّقًا﴾[1]؛ كلاهما للمُبالَغةِ في الوصْفِ، مثْلُ مَيْتٍ ومَيِّتٍ؛ لأنَّ (الضَّيِّقَ) بالتَّشديدِ صِيغَةُ تمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ، و(الضِّيقَ) بالسُّكونِ وصْفٌ بالمصدرِ[2].

- قَولُه: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ المُقرَّنُ: المقرونُ؛ صِيغَتْ له مادَّةُ التَّفعيلِ للإشارةِ إلى شِدَّةِ القرْنِ[3].

- قَولُه: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ النِّداءُ كِنايةٌ عن التَّمنِّي، أي: تمنَّوُا الهلاكَ؛ للاستراحةِ مِن فظيعِ العذابِ[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ على تَقديرِ (قولٍ) مَحذوفٍ؛ فهو منصوبٌ على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿دَعَوْا﴾، أي: دَعَوهُ مقُولًا لهم ذلك حقيقةً بأنْ يُخاطِبَهم الملائكةُ به؛ لِتَنبيههم على خُلودِ عَذابِهم، وأنَّهم لا يُجابونَ إلى ما يَدْعُونه، ولا يَنالون ما يَتمنَّوْنَه مِن الهلاكِ المُنجِّي. أو يكونُ تَمثيلًا وتَصويرًا لحالِهم بحالِ مَن يُقالُ له ذلك مِن غيرِ أنْ يكونَ هناك قولٌ ولا خِطابٌ، أي: دَعَوهُ حالَ كونِهم أحقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك. وإمَّا مُستأنَفٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذَا يكونُ عندَ دُعائِهم المذكورِ؟ فقيل: يُقالُ لهم ذلك؛ إقناطًا ممَّا علَّقوا به أطماعَهم مِن الهلاكِ، وتَنبيهًا على أنَّ عذابَهم المُلْجِئَ لهم إلى استدعاءِ الهلاكِ بالمَّرةِ

---

(١) قرأها ابنُ كثيرٍ بإسكانِ الياءِ مخفَّفةً، والباقونَ بكسرِها مشددةً. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أبَدِيٌّ لا خَلاصَ لهم منْه(١).

- قَولُه: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ فيه تَقييدُ النَّهيِ والأمْرِ بـ(اليوم)؛ لمَزيدِ التَّهويلِ والتَّفظيعِ، والتَّنبيهِ على أنَّه ليس كسائرِ الأيَّامِ المعهودةِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وُصِفَ الثُّبورُ بالكثيرِ؛ إمَّا لكثرةِ نِدائِه بالتَّكريرِ، وهو كِنايةٌ عن عدَمِ حُصولِ الثُّبورِ؛ لأنَّ انتهاءَ النِّداءِ يكونُ بحُضورِ المُنادَى، أو هو يأْسٌ يَقْتضي تكريرَ التَّمنِّي أو التَّحسُّرِ(٣).

٥- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ هذا الاستِفهامُ على سَبيلِ التَّوقيفِ والتَّوبيخِ(٤). وقيل: الاستفهامُ والتَّفضيلُ والتَّرديدُ للتَّقريعِ، مع التَّهكُّمِ والتَّحسيرِ على ما فاتَهم(٥)؛ فإنَّه لمَّا ذكَرَ حالَ العِقابِ المُعَدِّ لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعةِ؛ أتْبَعه بما يُؤكِّدُ حَسرتَه ونَدامتَه؛ تَقريعًا وتهكُّمًا(٦).

- وقيل: يَجوزُ أنْ يُقصَدَ بقولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: قُلْ لهم، أي: للمُشرِكين الَّذين يَسمَعون الوعيدَ والتَّهديدَ السَّابقَ؛ فالجُمَلُ مُتَّصلةُ السِّياقِ، والاستِفهامُ حينَئذٍ للتَّهكُّمِ؛ إذ لا شُبهةَ في كونِ الجنَّةِ الموصوفةِ خيرًا. ويجوزُ أنْ يُقصَدَ: قُلْ للمُؤمنينَ؛ فالجُملةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٢٧٢).

مُعترِضةٌ بيْنَ آياتِ الوَعيدِ؛ لمُناسَبةِ إبداءِ البَونِ بيْنَ حالِ المُشرِكين وحالِ المُؤمِنين، والاستِفهامُ حينَئذٍ مُستعمَلٌ في التَّلميحِ والتَّلطُّفِ. والتَّفضيلُ على المَحملِ الأوَّلِ في مَوقعِ الآيةِ مُستعمَلٌ للتَّهكُّمِ بالمُشرِكينَ، وعلى المَحملِ الثَّاني مُستعمَلٌ للتَّمليحِ في خِطابِ المُؤمِنين، وإظهارِ المِنَّةِ عليهم. ووَصْفُ الموعودينَ بأنَّهم مُتَّقونَ على المَحمَلِ الأوَّلِ جارٍ على مُقْتضى الظَّاهِرِ، وعلى المَحملِ الثَّاني جارٍ على خلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُؤتَى بضميرِ الخِطابِ؛ فوَجْهُ العُدولِ إلى الإظهارِ ما يُفيدُه ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مِن العُمومِ للمُخاطَبينَ ومَن يَجِيءُ بعْدَهم[1].

- وقولُه: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن السَّعيرِ باعتبارِ اتِّصافِها بما فُصِّلَ مِن الأحوالِ الهائلةِ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بكونِها في الغايةِ القاصيةِ مِن الهَولِ والفَظاعةِ[2]. وقيل: المُشارُ إليه في قولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ...﴾ العِقابُ والمكانُ الضَّيِّقُ، وتَسميتُه بالخيرِ للتَّهكُّمِ والسُّخريةِ؛ لِيَزيدَ في غَيظِهم، أو أنَّ ثوابَ العدُوِّ وتَنعُّمَه سبَبٌ لتَغيُّظِ العدُوِّ وتَحسُّرِه[3].

- وإضافةُ الـ ﴿جَنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ للمدْحِ، أو للدَّلالةِ على خُلودِها، أو التَّمييزِ عن جنَّاتِ الدُّنيا[4].

- قَولُه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾، قد عُلِمَ مِن قولِه: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ كَوْنُ الجنَّةِ جزاءَهم ومَصيرَهم، وإنَّما كرَّرها؛ لأنَّها كالتَّذييلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

لها؛ إرادةً لمَزيدِ مَدحِ المكانِ لتَبجُّحِ ساكنِيه، كما أنَّ قولَه: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١] تَذييلٌ لقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ ...﴾ [الكهف: ٣١]، وأنَّ قولَه: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] تَذييلٌ لقولِه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾[الكهف: ٢٩]. ودَلالتُه على المدْحِ مِن جِهةِ تَنكيرِه، أي: جزاءً مُوفَّرًا لا يدخُلُ تحتَ الوصْفِ، وإردافُه بقولِه: ﴿وَمَصِيرًا﴾، أي: مَصيرًا لا يُقادَرُ قَدْرُه؛ فالجزاءُ هنا كالثَّوابِ في تلك الآيةِ، والمصيرُ كالمُرتفَقِ، واجتماعُهما كالتَّتميمِ لِمَا يتِمُّ به ما يُطلَبُ مِن المكانِ مِن التَّرفُّهِ والتَّنعُّمِ؛ فقدَّمَ هنا قولَه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ﴾ الآيةَ، على قولِه: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ...﴾ الآيةَ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ النَّعيمَ لا يتِمُّ إلَّا بطِيبِ المكانِ وسَعتِه، ومُوافقتِه للمُرادِ والشَّهوةِ، وإلَّا تَنغَّصَ؛ فلذلك ذكَرَ المصيرَ مع الجزاءِ، وأنَّ العِقابَ يتضاعَفُ بضِيقِ الموضعِ وظُلْمتِه، وجمْعِه لأسبابِ الاجتواءِ[١]؛ ولذلك ذكَرَ ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا﴾، وذكَرَ ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾

- قَولُه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ مَسوقٌ مَساقَ المُبالَغةِ في تَحقيقِ الوعْدِ والكرَمِ؛ إذ لا مَعنى للوُجوبِ على اللهِ تعالى سِوى أنَّه تَفضَّلَ وتعهَّدَ به[٣].

---

(١) الاجتِواءُ: كَراهةُ المَكانِ وعدَمُ مُوافَقتِه. يُنظر: ((العين)) للخليل (١/ ١٢٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٧/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ في التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ مِن تَشريفِه، والإشعارِ بأنَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الفائزُ آثِرَ ذي أثيرٍ[١] بمَغانمِ الوعْدِ الكريمِ: ما لا يَخْفى[٢].

(١) آثِرَ ذي أَثيرٍ، أي: أوَّلَ كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

الآيات (١٧-١٩)

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُورًا﴾: أي: هَلْكى، مِن: بارَ يَبورُ: إذا هلَك وبطَل، وأصلُ (بور) هنا: يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ، وما يُشْبِهُه مِن تَعَطُّلِه وخُلُوِّه[١].

﴿صَرْفًا﴾: أي: دَفعًا وحِيلةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى حالَ المشركينَ وآلهتِهم الباطلةِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: اذكُرْ -أيُّها الرسولُ- يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين وما عَبَدوه مِن دونِ اللهِ، فيقولُ اللهُ لهذه الآلهةِ المزعومةِ: أأنتم أضلَلْتُم عبادي هؤلاء، أمْ هم الذين ضَلُّوا عن الهُدى؟ فتقولُ: سبحانَك، ما يحِقُّ لنا أن نعبُدَ غَيرَك ولا أن نُشرِكَ بك أحدًا في عبادتِك، ولكِنَّك -يا ربَّنا- متَّعْتَ هؤلاءِ المُشرِكين وآباءَهم بالنِّعَمِ، حتى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

تَرَكوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه ما أمَرْتَهم به مِن توحيدِك وعبادتِك وحْدَك، وكانوا قومًا مُهلَكينَ.

فيقولُ اللهُ تعالى لهؤلاء الكافرين مُبكِّتًا ومُقرِّعًا لهم: قد كذَّبَكم مَنْ عبَدْتُموهم وردُّوا قولَكم الباطِلَ، فقد وجَب عليكم العذابُ، فلا تملِكون له ردًّا ولا دَفعًا، ولا نَصرًا مِن جهةِ أنفُسِكم، أو مِن جِهةِ غَيرِكم. ومَن يكفُرْ باللهِ تعالى منكم نعذِّبْه عذابًا كبيرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا توَعَّدَهم بالسَّعيرِ وما يُلاقون مِن هَولِها؛ بَيَّنَ لهم حالَ ما قبْلَ ذلك، وهو حالُهم في الحَشرِ مع أصنامِهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ لهم حالَهم في السَّاعةِ معه سُبحانَه؛ أتبَعَه ذِكرَ حالِهم مع معبوداتِهم مِن دُونِه، فقال[(٢)]:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: واذكُرْ -أيُّها الرَّسولُ[(٣)]- يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين ومَعبوداتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٩).

(٣) قال محمد رشيد رضا: (جمهورُ المفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يوم» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه، «واذكُرْ»، وهو خطابٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يكونُ كَذا وكَذا؛ لأنَّ هذا معهودٌ ومعروفٌ عندَهم). ((تفسير المنار)) (٨/ ٥٥).

التي عَبَدوها مِن دونِ اللهِ[1].

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾.

أي: فيقولُ اللهُ للمَعبوداتِ التي كان يعبُدُها المُشرِكون: أأنتم أضلَلْتُم عبادي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣، ٣٤).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأصنامُ. ومِمَّن اختاره: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الملائِكةُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١١).

وقيل: المرادُ: الملائكةُ والإنسُ والجِنُّ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٠).

وقال الرازيُّ: (وأمَّا الأكثَرونَ فزَعَموا أنَّ المرادَ هو الملائِكةُ، وعيسى، وعُزَيرٌ -عليهم السَّلامُ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٢).

وممَّن اختار العُمومَ، وأنَّ المرادَ كُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ عطيَّة: (وقولُه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريدُ به كُلَّ شَيءٍ عُبِدَ مِن دون الله، فغَلَّب العبارةَ عمَّا لا يعقِلُ مِن الأوثانِ؛ لأنَّها كانت الأغلَبَ وقتَ المخاطَبةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ عندي شُمولُ المعبودينَ المذكورينَ للأصنامِ معَ الملائكةِ وعيسى وعُزَيرٍ؛ لأنَّ ذلك تدُلُّ عليه قرينتانِ قرآنيتانِ؛ الأولَى: أنَّه عبَّرَ عن المعبودينَ المذكورينَ بـ «ما» التي هي لغيرِ العاقِلِ في قولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ فلفظةُ «ما» تدُلُّ على شُمولِ غيرِ العقلاءِ، وأنَّه غلَّب غيرَ العاقِلِ؛ لكثرتِه.

القرينة الثانية: هي دَلالةُ آياتٍ مِن كتابِ اللهِ على أنَّ المعبودينَ غافلونَ عن عبادةِ مَن عبَدَهم، أي: لا يعلَمون بها؛ لكَونِهم غيرَ عُقلاءَ... وإطلاقُ اللَّفظِ المختَصِّ بالعُقلاءِ عليهم؛ نظرًا إلى أنَّ المشركينَ نَزَّلوهم منزلةَ العُقلاءِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٣، ٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٠).

هؤلاء عن طَريقِ الهُدى، ودعَوْتُموهم إلى عبادتِكم مِن دوني حتى فَعَلوا ذلك، أَمْ هم الذين ضَلُّوا عن طَريقِ الحَقِّ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ دَعوةٍ وتَضليلٍ منكم[١]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ...﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ: ﴿نُتَّخَذَ﴾ بضمِّ النُّونِ، وفتحِ الخاءِ، على البناءِ للمفعولِ؛ أيْ: ما كان يَنْبغي لنا أنْ يَتَّخِذَنا المشركونَ أولياءَ مِن دونِكَ[٢].

٢- قراءةُ: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ بِفتحِ النُّونِ، وكسرِ الخاءِ، والمعنى أنَّ هؤلاءِ المعبودينَ هم الَّذينَ تَبَرَّءوا أنْ يكونَ كانَ لهم وَلِيٌّ غيرُ اللهِ تعالَى ذِكْرُه[٣].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: قال المعبودون مِن دونِ اللهِ: ننزِّهُك -يا اللهُ- عن مُشارَكتِك في الألوهيَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٧).

فما يليقُ ولا يحِقُّ لنا أن نَعبُدَ غَيرَك، ونواليَ سِواك، ولا نطلُبَ مِن النَّاسِ أن يكونوا عابدينَ لنا؛ فنحن ما دعَوْناهم إلى ذلك، بل هم فَعَلوه مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ أمْرِنا ولا رِضانا، ونحن بُرآءُ منهم ومِن عبادتِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾.

أي: ولكِنْ متَّعْتَ -يا ربَّنا- هؤلاء المُشرِكين وآباءَهم في الدُّنيا بالنِّعَمِ، فانشَغَلوا بالشَّهواتِ حتى تَرَكوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه الأمرُ بتوحيدِك وعبادتِك وحْدَك لا شَريكَ لك(٢).

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

أي: وكان المُشرِكون قومًا هَلْكى، قد غلَب عليهم الخِذلانُ والشَّقاءُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦، ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).
قال ابن جرير: (وإنَّما أُريدَ بالبورِ في هذا الموضِعِ أنَّ أعمالَ هؤلاء الكُفَّارِ كانت باطلةً؛ لأنَّها لم تكُنْ لله). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٩).
وقال البقاعي: (﴿وَكَانُوا۟﴾ في عِلمِك بما قضيتَ عليهم في الأزَلِ ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هَلْكى). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٦٣).

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾.

أي: فقد كذَّبَكم -أيُّها المُشرِكون- مَن عبَدْتُموهم مِن دُونِ اللهِ، وأنكروا قَولَكم أنَّهم أمَروكم بعبادتِهم، ورَضُوا فِعْلَكم، وأنَّهم شُفَعاءُ لكم عندَ ربِّكم، وكذَّبوكم في زَعمِكم أنَّهم آلهةٌ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿ تَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالتاءِ على الخِطابِ للمُشرِكين، أي: فما تَستطيعونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠).

قال ابن عطية: (الآيةُ خِطابٌ مِن الله تعالى بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).

وقال ابن عاشور: (الباءُ في قَولِه: ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ يجوزُ أن تكونَ بمعنى «في» ...، أي: كذَّبوكم تكذيبًا واقِعًا فيما تقولون، ويجوزُ أن تكونَ للسَّببيَّةِ، أي: كذَّبوكم بسَبَبِ ما تقولون). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

-يا عَبَدةَ الأوثانِ- صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم، ولا نَصرًا منه لأنفُسِكم[١].

٢- قراءةُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالياءِ على الإخبارِ عن المعبودينَ مِن دونِ الله، أي: فما يستطيعُ الآلهةُ صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم -أيُّها المشركون- ولا نَصرًا لكم[٢].

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾

أي: فما تَستطيعون -أيُّها المُشرِكونَ- صَرْفَ عذابِ اللهِ عنكم بفِداءٍ أو غيرِه، ولا تستطيعونَ نَصرَ أنفُسِكم؛ لِعَجزِكم[٣].

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾

أي: ومَن يَظلِمْ نفْسَه منكم[٤] ....

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٥)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٠)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٥)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٠)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).
قال الواحدي: (وتفسيرُ الصَّرفِ هاهنا: صرفُ العذابِ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ ومقاتلٍ، وأكثرِ المفسِّرينَ، وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (١٦/ ٤٤٠).

(٤) قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ﴾، قيل: هو خطابٌ للكفَّارِ، وقيل: للمؤمنينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).
ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ للمؤمنينَ: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٢).
وممَّن اختار أنَّ الخطابَ لعمومِ المكلَّفينَ: البيضاويُّ، والنسفي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢). =

بالشِّركِ، نُعَذِّبْه في النَّارِ عذابًا كبيرًا[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنَّه لا تجوزُ الوَلايةُ والعَداوةُ إلَّا بإذنِ اللهِ؛ فكلُّ وَلايةٍ مَبنيَّةٍ على مَيلِ النَّفْسِ ونَصيبِ الطَّبعِ، فذاك على خِلافِ الشَّرعِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ

= قال الشوكاني: (﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذا وعيدٌ لكلِّ ظالمٍ، ويدخُلُ تحتَه الذي فيهم السياقُ دخولًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٩).

وقال السعدي: (وأمَّا المعانِدُ منهم الذي عرَف الحقَّ وصدَفَ عنه، فقال في حقِّه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بتركِ الحقِّ ظُلمًا وعنادًا ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُبلَغُ أمرُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

قال ابن عطية: (الظُّلمُ هنا: الشِّركُ. قاله الحَسَنُ وابنُ جُرَيجٍ. وقد يحتمِلُ أن يعُمَّ غيرَه مِن المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان التَّقديرُ: فمَن يَعدِلْ منكم لسَماعِ هذا الوَعظِ بوَضعِ العِبادةِ في موضِعِها، نُثِبْه ثوابًا جليلًا؛ عطف عليه ما المقامُ له، فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بوَضعِها في غيرِ مَوضِعِها، وباعتِقادِه في الرسُلِ ما لا يَنبغي مِن أنَّه لا يَنبغي لهم أن يكونوا مِثلَ النَّاسِ في أكلٍ ولا طلَبِ مَعيشةٍ ونحوِ ذلك؛ ﴿نُذِقْهُ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ، بما لنا مِن العَظَمةِ ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٤).

أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾. إن قيل: إن كانت الأصنامُ التي تُعبَدُ تُحشَرُ، فكيف تَنطِقُ وهي جمادٌ؟

فالجواب: يُنطِقُها الله تعالى يومَ القيامةِ كما يُنطِقُ الأيديَ والأرجُلَ[1]، فإسنادُ القَولِ إلى ما يُعبَدون مِن دونِ اللهِ يَقتضي أنَّ اللهَ يجعَلُ في الأصنامِ نُطقًا يَسمَعُه عبَدَتُها، أمَّا غيرُ الأصنامِ مِمَّن عُبِد مِن العُقَلاءِ، فالقَولُ فيهم ظاهِرٌ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ قَولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعظيمٌ لله تعالى في مَقامِ الاعترافِ بأنَّهم ينزِّهون اللهَ عن أن يَدَّعُوا لأنفُسِهم مشاركتَه في الإلهيَّةِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الإشارةُ إليهم؛ لتَمييزِهم مِن بيْنِ بقيَّةِ العِبادِ، وهذا أصلٌ في أداءِ الشَّهادةِ على عَينِ المشهودِ عليه لدى القاضي[4].

٤- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ «لا ينبغي» في كَلامِ اللهِ تعالى، ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِلَّذي هو في غايةِ الامتِناعِ شَرعًا؛ كقَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس: ٦٩]، وقَولِه تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ ﴾[١] [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ نُصِبَ على أنَّه مَفعولٌ لِمُضمرٍ مُقدَّمٍ مَعطوفٍ على قولِه تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ إلخ [الفرقان: ١٥]، إنْ كان المُرادُ: قُلْ للمُشرِكين. أو على قولِه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١]، على جوازِ أنَّ المُرادَ: قُلْ للمُؤمِنينَ. والتَّقديرُ: واذكُرْ لهم بعْدَ التَّقريعِ والتَّحسيرِ يومَ يَحشُرُهم اللهُ عَزَّ وجلَّ. أو على أنَّه ظرْفٌ لمُضمَرٍ مُؤخَّرٍ؛ قد حُذِفَ للتَّنبيهِ على كَمالِ هَولِه وفَظاعةِ ما فيه، والإيذانِ بقُصورِ العِبارةِ عن بَيانِه[٢].

- وتَعليقُ التَّذكيرِ باليومِ مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ الهائلةِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ لِأنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوَقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها؛ فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[٣].

- واستعمالُ (مَا) في قولِه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾؛ إمَّا لأنَّ وضْعَه أعَمُّ، ولذلك يُطلَقُ لكلِّ شبَحٍ يُرى ولا يُعرَفُ، أو لأنَّه أُرِيدَ به الوصْفُ، كأنَّه قِيلَ: ومَعبودَهم. أو لتَغليبِ الأصنامِ؛ تَحقيرًا وتَنبيهًا على أنَّهم مِثْلُها في السُّقوطِ عن رُتبةِ المَعبوديَّةِ. أو اعتبارًا لغَلبةِ عُبَّادِها. أو

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٦، ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

يَخُصُّ الملائكةَ وعُزَيرًا والمسيحَ؛ بقَرينةِ السُّؤالِ والجوابِ. أو الأصنامُ يُنطِقُها اللهُ، أو تَتكلَّمُ بلسانِ الحالِ. وقولُه: ﴿فَيَقُولُ﴾، أي: للمَعبودينَ، وهو على طَريقةِ تَلوينِ الخِطابِ[١]. وقِيل: أنْ يكونَ عامًّا لهم جميعًا يأْباهُ جوابُ المَعبودينَ، وهو قولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾؛ لأنَّهم ملائِكةٌ مَعصومونَ وأنبياءُ مَعصومونَ؛ فلا يدخُلُ فيه الأصنامُ، لكنْ عُدِلَ إلى (ما) إجراءً للمَعبودينَ مُجْرى غيرِ ذَوِي العُقولِ؛ تَحقيرًا لشأنِهم؛ لغايةِ قُصورِهم عن معنَى الرُّبوبيَّةِ، وتَنبيهًا على المُجانَسةِ المُنافيةِ للأُلوهيَّةِ[٢].

- قَولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ استِفهامُ تَقريعٍ وتَبْكيتٍ للعَبَدةِ. وحَذْفُ صِلَةِ (ضَلَّ) مُبالَغةٌ؛ فسُؤالُه تعالى وهو عالِمٌ بالمسؤولِ عنه؛ لِيُجيبوا بما أجابوا به، حتَّى يُبكِّتَ عَبَدتَهم بتكذيبِهم إيَّاهم، فيُبْهَتوا ويَنْقطِعوا، وتَزِيدَ حَسرتُهم، ويكونَ ذلك نوعًا ممَّا يَلحَقُهم مِن غضَبِ اللهِ وعَذابِه، ويَغتبِطَ المُؤمِنون ويَفْرَحوا بحالِهم ونَجاتِهم مِن فَضيحةِ أولئك، وليكونَ حِكايةُ ذلك في القُرآنِ لُطْفًا للمُكلَّفينَ. وجاء الاستفهامُ مُقدَّمًا فيه الاسمُ على الفِعلِ، ولم يقُلْ: أضلَلْتُم عِبادي هؤلاء أمْ ضلُّوا السَّبيلَ؛ بحذْفِ (أنتُم) و(هم)؛ لأنَّ السُّؤالَ ليس عن الفِعلِ ووُجودِه؛ لأنَّه لولا وُجودُه لَمَا توجَّهَ هذا العِتابُ، وإنَّما هو عن مُتولِّيه، فلا بُدَّ مِن ذِكْرِه، وإيلائِه حَرْفَ الاستفهامِ حتَّى يُعلَمَ أنَّه المسؤولُ عنه[٣]. وقيل: هو استِفهامٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

تقْريريٌّ للاستِنطاقِ والاستِشهادِ. والمعنى: أأَنتُمْ أضْلَلْتُموهم أمْ ضَلُّوا مِن تِلقاءِ أنفُسِهم دونَ تَضليلٍ منكم؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ دلَّ عليه المذكورُ[١].

- وأخبَرَ بِفعلِ: ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾ عن ضَميرِ المُخاطَبينَ المُنفصِلِ، وبفِعلِ ﴿ضَلُّواْ﴾ عن ضَميرِ الغائبينَ المُنفصِلِ؛ لِيُفيدَ تَقديمُ المُسنَدِ إليهما على الخَبرينِ الفِعْلِيَّينِ تَقْويةَ الحُكْمِ المُقرَّرِ به؛ لإشعارِهم بأنَّهم لا مَناصَ لهم مِن الإقرارِ بأحَدِ الأمْرَينِ، وأنَّ أحدَهم مُحقَّقُ الوُقوعِ لا مَحالةَ؛ فالمقصودُ بالتَّقويةِ هو مُعادِلُ هَمزةِ الاستِفهامِ، وهو ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾[٢]. وإعادةُ فِعْلِ ﴿ضَلُّواْ﴾ في قولِه: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ لِيَجْرِيَ على ضَميرِهم مُسنَدٌ فِعليٌّ، فيُفِيدَ التَّقويةَ في نِسبةِ الضَّلالِ إليهم[٣].

- ووصْفُ العِبادِ هنا بقولِه: ﴿عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تَسجيلٌ على المُشرِكين بالعُبوديَّةِ، وتعريضٌ بكُفرانِهم حقَّها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشأَ مِن حكايةِ السُّؤالِ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذَا قالوا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا...[٥].

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إمَّا على إرادةِ مُطلَقِ التَّعجُّبِ ممَّا قِيل لهم مِن قولِه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى﴾، أو نَطَقوا بكلمةِ التَّسبيحِ كِنايةً عن البَراءةِ عن أنفُسِهم ذلك القولَ، أو أرادوا مَوضوعَها اللُّغويَّ مِن التَّنزيهِ والتَّقديسِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

قدَّسوا ساحةَ جَلالِ اللهِ عمَّا لا يَلِيقُ بحَضرتِه مِن النِّدِّ والضِّدِّ[١].

- ولَمَّا كان السُّؤالُ على التَّعريضِ التَّوبيخيِّ -والمقصودُ تَبْكيتُهم، وإلْزامُ الحُجَّةِ عليهم، وتَفضيحُهم على رُؤوسِ الأشهادِ- أجابوا أوَّلًا بما يدُلُّ على تبرُّئِهم مِن نِسبةِ الإضلالِ إلى أنفُسِهم بأقْصى ما يُمكِنُ مِن المُبالَغةِ؛ خِذْلانًا لهم، وكان مِن حقِّ الظَّاهِرِ: إنَّا ما أضلَلْناهم، فأطْنَبوا بقولِهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إلى آخِرِه؛ تَعجُّبًا، أي: كيف يَصِحُّ منَّا أنْ نصِفَك بما لا يَلِيقُ بجَلالِك، ونحن عالِمون بالتَّقديسِ، وكيف يَستقيمُ لنا أنْ نَحمِلَ غيرَنا أنْ يَتولَّونا دونَك، ونحن العابِدون؟! وثانيًا: بما يدُلُّ على أنَّ الكفرةَ هم ضلُّوا السَّبيلَ، لكنْ بتَقديرِ اللهِ وإضلالِه، فأطْنَبوا في تَعبيرِهم بقولِه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ إلى آخِرِه[٢].

- قَولُه: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ﴾ كِنايةٌ عنِ انتِفاءِ طلَبِهم هذا الاتِّخاذَ انتفاءً شديدًا. والخبَرُ مُستعمَلٌ في لازمِ فائدتِه، أي: نَعلَمُ أنَّه لا يَنْبغي لنا؛ فكيف نُحاوِلُه[٣]؟!

- وتَنكيرُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مِن حيثُ إنَّهم أولياءُ مَخْصوصون، وهم الجِنُّ والأصنامُ. على القولِ بأنَّ القائلين الملائكةُ والأنبياءُ؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ الباقي الجِنَّ والأصنامَ؛ لأنَّ المعبودينَ مُنحصِرون في هؤلاء. ويجوزُ أنْ يكونَ المعبودونَ عامًّا، والتَّقديرُ: ما يَنبغِي لنا أن نُحسَبَ مِن بعضِ ما يقَعُ عليه اسمُ الولايةِ، فضْلًا مِن الكلِّ؛ فإنَّ الوليَّ قد يكونُ مَعبودًا ومالِكًا ومَخدومًا. أو التَّقديرُ: نتَّخِذَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٩).

مَعبودينَ مِن أولياءَ، أي: مِن جِهةِ أولياءَ؛ فحَذْفُ مَفعولِ الاتِّخاذِ مَعهودٌ[١].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأكيدِ عُمومِ النَّفيِ، أي: استِغراقِه؛ لأنَّه نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ. وقيل: للتَّبعيضِ، أي: لا نتَّخِذَ بعضَ أولياءَ[٢].

- والاستدراكُ الَّذي أفادَهُ (لكنْ) في قولِه: ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ ناشئٌ عن التَّبرِّي مِن أنْ يكونوا هم المُضِلِّينَ لهم، بتَعقيبِه ببَيانِ سَببِ ضلالِهم؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ تَبرئةَ أنفُسِهم مِن إضلالِهم يرفَعُ تَبِعةَ الضَّلالِ عن الضَّالِّينَ. والمقصودُ بالاستِدراكِ ما بعْدَ (حتَّى)، وهو: ﴿نَسُوا الذِّكْرَ﴾، وأمَّا ما قبْلَها؛ فقد أُدمِجَ بيْن حَرفِ الاستِدراكِ ومَدخولِه ما يُسجِّلُ عليهم فَظاعةَ ضَلالِهم؛ بأنَّهم قابَلوا رَحمةَ اللهِ ونعمتَه عليهم وعلى آبائِهم بالكُفرانِ؛ فالخبَرُ عن اللهِ بأنَّه متَّعَ الضَّالِّين وآباءَهم مُستعمَلٌ في الثَّناءِ على اللهِ بسَعةِ الرَّحمةِ، وفي الإنكارِ على المُشرِكين مُقابَلةَ النِّعمةِ بالكُفرانِ؛ غضَبًا عليهم. وجعَلَ نِسيانَهم الذِّكْرَ غايةً للتَّمتيعِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ ذلك التَّمتيعَ أفْضى إلى الكُفرانِ؛ لِخُبثِ نُفوسِهم، قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٣] [الواقعة: ٨٢].

- قَولُه: ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ التَّعرُّضُ إلى تَمتيعِ آبائِهم هنا، معَ أنَّ نِسيانَ الذِّكْرِ إنَّما حصَلَ مِن المُشرِكين الَّذين بلَغَتْهم الدَّعوةُ المُحمديَّةُ ونسُوا الذِّكْرَ: هو زِيادةُ تَعظيمِ نِعمةِ التَّمتيعِ عليهم بأنَّها نِعمةٌ مُتأثِّلةٌ تَليدةٌ، مع الإشارةِ إلى أنَّ كُفرانَ النِّعمةِ قد انجَرَّ لهم مِن آبائِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠).

الَّذين سَنُّوا لهم عِبادةَ الأصنامِ؛ ففيه تَعريضٌ بشَناعةِ الإشراكِ، ولو قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وجُملةُ: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[٢].

- وعلى القول بأنَّ ﴿بُورًا﴾ مَصدرٌ؛ فيكون وُصِفَوا به مُبالَغةً؛ ولذلك يَسْتوي فيه الواحدُ والجمْعُ[٣].

- واجتِلابُ فِعْلِ (كان)، وبِناءُ ﴿بُورًا﴾ على ﴿قَوْمًا﴾ دونَ أن يُقالَ: (حتَّى نسُوا الذِّكْرَ وبارُوا)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ البَوارِ منهم بما تَقْتضيهِ (كان) مِن تَمكُّنِ معنى الخبَرِ، وما يَقْتضيهِ ﴿قَوْمًا﴾ مِن كَونِ البَوارِ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذه الآيةُ كالخاتمةِ لِمَا يَجري عليهم مِن الأحوالِ والنَّكالِ مِن لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[٥] [الفرقان: ١٢].

- وقولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ في الكَلامِ حذْفُ فِعلِ القولِ يدُلُّ عليه المَقامُ، والتَّقديرُ: إنْ قُلْتم: هؤلاء آلِهَتُنا، فقد كذَّبوكم، على تَقديرِ قولٍ مُرتَّبٍ علَى الجوابِ، أي: فقال اللهُ تعالى عِندَ ذلك: فقد كذَّبوكم. وفي حذْفِ فِعلِ القولِ في هذه الآيةِ استحضارٌ لصُورةِ المَقامِ كأنَّه مُشاهَدٌ غيرُ مَحكِيٍّ، وكأنَّ السَّامعَ آخِرَ الآيةِ قد سمِعَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٢).

لهذه المُحاوَرةِ مُباشَرةً دونَ حِكايةٍ، فقرَعَ سمْعَه شَهادةُ الأصنامِ عليهم، ثمَّ قرَعَ سمْعَه توجُّهُ خِطابِ التَّكذيبِ إلى المشهودِ عليهم، وهو تفنُّنٌ بَديعٌ في الحِكايةِ يَعتمِدُ على تَخييلِ المَحكيِّ واقِعًا؛ فجُملةُ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم ...﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، وهو الْتِفاتٌ إلى العَبَدةِ بالاحتِجاجِ والإلزامِ، وإقبالٌ على خِطابِ الحاضِرينَ، وهو ضَربٌ مِن الالتِفاتِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾[1] [يوسف: ٢٩].

- وهذه المفاجأةُ بالاحتِجاجِ والإلزامِ التي في قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حَسَنةٌ رائعةٌ، وخاصَّةً إذا انضمَّ إليها الالتِفاتُ؛ فالمفاجأةُ مِن تَعقُّبِ القِصَّةِ بالفاءِ التي تَستدعي ما يَترتَّبُ عليه، كأنَّ السامعَ لم يَنتظِرْ ما بعْدَ الفاءِ بتقديمِ ما يَترتَّبُ عليه ففُوجِئَ به، وهذا أسلوبٌ رائعٌ حسَنٌ، والالتفاتُ مِن قولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾، كأنَّه قيل: أنتُم المخصوصونَ -أيُّها المكذِّبونَ- بأنْ يَفعَلَ بكم ما تَستحِقُّونَه مِن الفَضيحةِ والنَّكالِ، ولا يُمهِلَكم فيه. والفاءُ في ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ فَصيحةٌ، أي: إفصاحٌ عن حُجَّةٍ بعْدَ تَهيئةِ ما يَقْتضيها، وهو إفصاحٌ رائعٌ، وزادَهُ الالْتِفاتُ في قولِه: ﴿كَذَّبُوكُم﴾[2].

- قَولُه: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ فُرِّعَ على الإعلانِ بتَكذيبِهم إيَّاهم تأْييسُهم مِن الانتِفاعِ بهم في ذلك الموقِفِ؛ إذ بَيَّنَ لهم أنَّهم لا يَستطيعون صَرْفَ ضُرٍّ عنهم، ولا إلْحاقَ ضُرٍّ بمَن يَغلِبُهم. ووَجْهُ التَّفريعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١).

ما دَلَّ عليه قولُهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الفرقان: ١٨]، الَّذي يَقْتضي أنَّهم في مَوقفِ العُبوديَّةِ والخُضوعِ؛ ففيه ضَربُ تَهكُّمٍ بهم[١].

- وعلى القَولِ بأنَّ الخِطابَ للمَعبودِينَ؛ فالتاءُ في ﴿تَسۡتَطِيعُونَ﴾ التِفاتٌ[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ تَذييلٌ للكَلامِ يَشمَلُ عُمومُه جميعَ النَّاسِ، ويكونُ خِطابُ ﴿مِّنكُمۡ﴾ لجَميعِ المُكلَّفينَ، ويُفيدُ ذلك أنَّ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم مُعَذَّبون عذابًا كبيرًا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

الآيات (٢٠-٢٤)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ
فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾
۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا
مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَتَوْ﴾: أي: تكبَّروا وتجبَّروا، والعاتي: هو المبالِغُ في رُكوبِ المعاصي المتمَرِّدُ، والعُتُوُّ: تجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلمِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ(١).

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي: حَرامًا محرَّمًا، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على مَنعٍ(٢).

﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾: أي: ضائِعًا باطِلًا، والهباءُ المنثورُ: ما يدخُلُ البيتَ مِن الكُوَّةِ (النافذة) مِثلَ الغُبارِ إذا طلَعَت فيها الشَّمسُ. وأصلُ الهباءِ: يدُلُّ على غَبرةٍ ورِقَّةٍ، وأصلُ (نثر): يَدُلُّ على إلقاءِ شيءٍ مُتفَرِّقٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٩)، (٦/ ٣١).

﴿مَقِيلًا﴾: أي: مَنزِلًا وقرارًا وقتَ القائلةِ، والقَيلولةُ عند العَرَبِ: الاستراحةُ نِصفَ النَّهارِ إذا اشتَدَّ الحَرُّ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

قَولُه: ﴿يَوْمَ﴾ العامِلُ فيه النَّصبَ محذوفٌ تقديرُه (يُمنَعون) أي: يُمنَعون البِشارةَ يومَ يَرَون الملائكةَ، ولا يجوزُ أن يعمَلَ فيه نفْسُ البُشرى؛ لوجهينِ:

أحدُهما: أنَّها مصدرٌ، والمصدرُ لا يعمَلُ فيما قبْلَه.

والثاني: أنَّها منفيَّةٌ بـ (لا)، وما بعْدَها لا يعمَلُ فيما قبْلَها.

وقيل: إنَّ (يومَ) منصوبٌ بـ (اذكُرْ) محذوفًا؛ فيكونُ مفعولًا به، والتقديرُ: اذكُرْ يومَ يَرَونَ الملائكةَ. وجملةُ ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ في محلِّ نَصبٍ، مَقولُ قَولٍ مُضمَرٍ، أي: يومَ يَرَونَ الملائكةَ يقولونَ: لا بُشرى، وجملةُ (يقولون) المقَدَّرةُ في محلِّ نصبٍ حالٌ مِن ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾.

قَولُه: ﴿حِجْرًا﴾ منصوبٌ على المَصدريَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ وُجوبًا، وهي مِنْ (حَجَره): إذا مَنَعَه؛ لأنَّ المستعيذَ طالِبٌ مِن اللهِ أن يمنعَ المكروهَ لا يَلحَقُه، وكأنَّ المعنى: أسألُ اللهَ أن يمنَعَه مَنعًا، ويَحجُرَه حَجرًا، و﴿مَّحْجُورًا﴾ صِفةٌ مُؤكِّدةٌ للمَعنى[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٤)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٦٠٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٧٠-٤٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- أحدًا مِن المُرسَلينَ إلَّا مِن البشَرِ الذين يأكُلونَ الطَّعامَ، ويَمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك. وابتَلَيْنا بعضَكم ببَعضٍ -أيُّها النَّاسُ- فهلْ تَصبِرون على هذا البَلاءِ؟ وكان ربُّك -يا محمَّدُ- بَصيرًا بمن يَصبِرُ مِن عِبادِه ومَن لا يصبِرُ، ويعلَمُ أحوالَهم وأعمالَهم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه.

وقال الكفَّارُ الذين يُنكِرون البعثَ ولا يُقِرُّون بلقاءِ الله ولا يخافونَه: هلَّا أنزَل اللهُ الملائِكةَ علينا؛ ليُخبِرونا بصِدقِك، أو نرى اللهَ جَهرةً بأعيُنِنا فنؤمِنَ لك! لقد أضمر هؤلاء الكُفَّارُ في أنفُسِهم كِبْرًا عن الحَقِّ، وتجاوَزوا الحَدَّ في الظُّلمِ والطُّغيانِ والاستِكبارِ. يومَ يرى هؤلاء الكُفَّارُ ملائِكةَ العذابِ فلا بُشرى لهم يَومَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ، ويقولُ الملائِكةُ لهم: حَرامٌ محَرَّمٌ عليكم أن تكونَ لكم اليومَ بُشرى.

وقصَدْنا إلى ما عَمِلَه هؤلاء الكُفَّارُ في الدُّنيا مِن وُجوهِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ، فجعَلْناه ضائِعًا باطِلًا لا وَزنَ له، كالهباءِ الذي تفرَّق وتبَدَّد؛ لحقارتِه، أمَّا أهلُ الجنَّةِ فهم خَيرٌ مكانًا ومَنزِلًا في الجنةِ، وهم أحسَنُ موضعَ قائلةٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدمَ الطعنُ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأكلِ الطَّعامِ، والمشيِ

في الأسواقِ؛ أخبَرَ تعالى أنَّها عادةٌ مُستمِرَّةٌ في كلِّ رِسالةٍ[١].

وأيضًا لَمَّا فرَغَ مِن تهديدِهم ووعيدِهم؛ شرَع في تسليةِ رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما ناله مِن قَولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] مِن الحُزنِ وضِيقِ الصَّدرِ[٢].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

أي: وما أرسَلْنا قبْلَك -يا محمَّدُ- أحدًا مِن المرسَلينَ إلَّا والحالُ أنَّهم بَشَرٌ يأكلون الطَّعامَ ويَمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك؛ لكَونِك تأكُلُ الطَّعامَ وتَمشي في الأسواقِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

أفاد ما تَقَدَّمَ مِن الآيةِ أنَّ الرُّسُلَ يأكُلونَ الطَّعامَ فيحتاجونَ للغِذاءِ وتحصيلِه، وأنَّهم يَمشونَ في الأسواقِ للسَّعيِ والتكسُّبِ؛ وأفاد آخِرُ الآيةِ الحِكمةَ الرَّبَّانيَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

في ذلك، وهي أنْ يكونَ بذلك فتنةٌ واختبارٌ للعِبادِ، وتلك سُنَّةُ اللهِ تعالى في خلْقِه؛ فقد جَعَل بعضَهم لبعضٍ فتنةً(١).

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

أي: وامتحَنَّا -أيُّها النَّاسُ- بعضَكم ببَعضٍ؛ لِيَظهَرَ ما نعلَمُه منكم في عالَمِ الغَيبِ مِن الطَّاعةِ والمعصيةِ في عالَمِ الشَّهادةِ، فهلْ تَصبِرونَ على البَلاءِ أو لا تَصبِرونَ(٢)؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٦٢، ٦٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

قال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، فهو سبحانه جعَل أولياءَه فتنةً لأعدائِه، وأعداءَه فِتنةً لأوليائِه، والملوكَ فِتنةً للرعيَّةِ، والرعيَّةَ فتنةً لهم، والرِّجالَ فِتنةً للنِّساءِ، وهنَّ فِتنة لهم، والأغنياءَ فِتنةً للفقراءِ، والفُقراءَ فِتنةً لهم، وابتلى كلَّ أحدٍ بضِدِّ جَعَلَه مُتقابِلًا؛ فما استقرَّت أقدامُ الأبَوَينِ على الأرضِ إلَّا وضِدُّهما مقابِلهما، واستمَرَّ الأمرُ في الذُّرِّيَّةِ كذلك إلى أن يطويَ اللهُ الدُّنيا ومَن عليها، وكم له سبحانَه في مِثلِ هذا الابتِلاءِ والامتحانِ مِن حِكمةٍ بالغةٍ، ونِعمةٍ سابِغةٍ، وحُكمٍ نافذٍ، وأمرٍ ونهيٍ، وتصريفٍ دالٍّ على ربوبيَّتِه وإلهيَّتِه، ومُلكِه وحَمدِه!). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٤٤). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

ومِمَّن اختار هذا المعنى بعمومِه في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن رجب، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨)، ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

قال ابن عاشور: (وحالُ الفتنةِ في كِلا البعضينِ مختلِفٌ؛ فبعضُها فِتنةٌ في العقيدةِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأمنِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأبدانِ، وشمِلَ أحدُ البعضينِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ معه، والبعضُ الآخَرُ المشركينَ، فكان حالُ الرَّسولِ فتنةً للمُشركين؛ إذْ زعَموا أنَّ حالَه مُنافٍ للرسالةِ فلم يؤمنوا به، وكان حالُ المؤمنينَ في ضَعفِهم فتنةً للمُشركين؛ إذ ترفَّعوا عن الإيمانِ الذي يُسَوِّيهم بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٤).

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال فيما يرويه عن اللهِ: ((قال: إنَّما بعثْتُك لأبتلِيَك وأبتليَ بك))(١).

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

موقعُ هذه الجملةِ بعْدَ الجملةِ الأُولى لبيانِ أنَّ فِتنةَ اللهِ لهم هي عن عِلمٍ وبَصَرٍ بصَوابِ ذلك وحكمتِه، وأنه مُطَّلِعٌ على حقيقةِ ما يكونُ منهم عندَ الاختيارِ لِيجازيَهم عليه، وفي هذا وعدٌ ووعيدٌ للمُمتحَنينَ(٢).

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان ربُّك -يا محمَّدُ- بَصيرًا بمن يَصبِرُ مِن عبادِه ومَن لا يصبِرُ على ما امتُحِنَ به، ويعلَمُ أحوالَكم وأعمالَكم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه، ويختَصُّه بتفضيلِه(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠، ٥٨١).

مِمَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمَن يصبِرُ وبمَن يجزَعُ: ابنُ جرير، ومكي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٠). =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

أي: وقال الكفَّارُ الذين لا يَطمَعونَ في لقائِنا، فلا يرجونَ ثوابَنا ولا يخافونَ عِقابَنا؛ لإنكارِهم البَعثَ: هلَّا أنزَل اللهُ علينا الملائِكةَ، أو نرى اللهَ بأعيُنِنا فنُؤمِنَ(١)؟!

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦).

وقيل: المعنى: إنَّ اللهَ بصيرٌ بمن يَستحِقُّ أن يُوحى إليه ومَن يستحِقُّ أن يهديَه اللهُ لِما أرسَلَهم به، ومَن لا يستَحِقُّ ذلك. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠).

وقال الثعلبيُّ: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمَن يَصبرُ ويَجزعُ، وبمن يؤمنُ وبمن لا يؤمنُ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٨).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بكلِّ امرئٍ، وبمن يصبرُ أو يجزعُ، ومَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ، وبمن أدَّى ما عليه مِن الحقِّ ومَن لا يؤدِّي). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩).

وقال السعدي: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يعلَمُ أحوالَكم، ويصطَفي مَن يعلَمُه يصلُحُ لرسالتِه ويختَصُّه بتفضيلِه، ويعلَمُ أعمالَكم فيُجازيكم عليها: إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠، ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧).

قيل: المعنى: هلَّا أنزل اللهُ علينا ملائكةً، فتُخبِرَنا أنَّ محمَّدًا محِقٌّ فيما يقولُ، وأنَّ ما جاءنا به صِدقٌ، أو نرى ربَّنا فيُخبِرَنا بذلك! وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والخازن، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لقد تكبَّرَ الكُفَّارُ الذين تجرَّؤوا على اقتراحِ نُزولِ الملائكةِ عليهم، أو رُؤيةِ اللهِ في الدُّنيا، وتعظَّموا في أنفُسِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦].

= القرطبي)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦).

وقيل: معنى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: بالرسالةِ كما أتت الأنبياءَ والرسُلَ، كما أخبَرَ عنهم تعالَى في الآيةِ الأخرى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٢).

وقيل: المعنى: هلَّا أُنزِل علينا الملائكةُ فكانوا رُسُلًا إلينا! وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨).

وقال السعدي: ((﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي: هلَّا نُزِّلَت الملائكةُ تَشهَدُ لك بالرِّسالةِ وتؤيِّدُك عليها، أو تُنزِلُ رُسُلًا مُستقِلِّينَ، أو نرى رَبَّنا فيُكَلِّمَنا ويقولَ: هذا رَسولي فاتَّبِعوه؟!)). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧).

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

أي: وتجاوَزَ أولئك الكُفَّارُ الحَدَّ في الكِبْرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، باقتراحِهم ذلك(١).

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ جَوابٌ لقَولِهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾، فبَيَّنَ تعالى أنَّ الذي سألوه سيُوجَدُ، ولكِنَّهم يَلقونَ منه ما يَكرَهونَ(٢).

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: يومَ يرى الكُفَّارُ مَلائكةَ الموتِ حينَ تَنزِلُ لقَبضِ أرواحِهم، ويَرَون ملائِكةَ العذابِ في البَرزخِ ويومَ القيامةِ؛ فلا تُبَشِّرُ الملائكةُ المُجرِمين يومَ يَرَونَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١، ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧، ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِن السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوجوهِ، معهم المُسُوحُ(١)، فيَجلِسون منه مَدَّ البصَرِ(٢)، ثمَّ يجيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ، فتَفرَّقُ في جَسَدِه، فينتزِعُها كما يُنتزَعُ السَّفُّودُ(٣) مِن الصُّوفِ المبلولِ، فيأخُذُها، فإذا أخَذها لم يَدَعوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجعَلوها في تلك المُسُوحِ، ويخرُجُ منها كأنتَنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَت على وجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يمُرُّون بها على ملأٍ مِن الملائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فُلانُ بنُ فلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كتابَه في سِجِّينٍ(٤) في الأرضِ السُّفلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

(١) المُسُوحُ، جَمعُ المِسْحِ، وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

(٢) مَد البصَر: عبارةٌ عمَّا ينتهي إليه بصَرُ الإنسانِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٤٩٦).

(٣) السَّفُّودُ: أي: الحديدةُ التي يُشوى بها اللَّحمُ. يُنظر: ((شرح المشكاة للطيبي)) (٤/ ١٣٨١).

(٤) سِجِّين: قِيلَ: هو موضِعٌ فيه كتابُ الفُجَّارِ مِن قعرِ النَّارِ. وقيل: هو كتابٌ جامِعٌ لأعمالِ الشياطينِ والكَفَرةِ. وقيل: هو مكانٌ في أسفلِ الأرضِ السَّابعةِ، وهو محلُّ إبليسَ وجنودِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٨٠)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٩).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]، فتُعادُ رُوحُه في جسَدِه، ويأتيه مَلَكانِ فيُجلِسانِه، فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما دِينُك؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما هذا الرجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ أن كذَبَ، فافرِشُوا له مِن النَّارِ، وافتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيأتيه مِن حَرِّها، وسَمومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختَلِفَ فيه أضلاعُه، ويأتيه رجُلٌ قَبيحُ الوجهِ، قَبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أبشِرْ بالذي يَسوؤُك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ. فيقولُ: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشَّرِّ. فيقولُ: أنا عمَلُك الخبيثُ. فيقولُ: ربِّ، لا تُقِمِ السَّاعةَ))(١).

﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

أي: ويقولُ الملائِكةُ للكُفَّارِ: حَرامٌ محَرَّمٌ عليكم الفَلاحُ اليومَ(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربة.

صحَّح إسنادَه ابنُ جريرٍ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وحسَّن الحديثَ المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ القائلينَ بذلك هم الملائكةُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، ونسَبه إلى الجمهورِ. يُنظر: المصدران السابقان.

وممَّن ذهب إلى ذلك أيضًا: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: أبو سعيدٍ الخُدْريُّ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) =

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.

أي: وعَمَدْنا يومَ القيامةِ إلى ما عَمِل هؤلاء المُجرِمونَ في الدُّنيا مِن العباداتِ وأعمالِ البِرِّ والخَيرِ، فأحبَطْناها وأبْطَلْناها، حتَّى صارَتْ كالهباءِ[1] المتفرِّقِ المتبدِّدِ، فلا ينتفِعُ منها صاحِبُها بشَيءٍ أصلًا[2].

= (٨/ ٢٦٧٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٤٥).

ومِمَّن اختار أنَّ القائلينَ بذلك هم المجرمون الكفَّارُ: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ، ومجاهدٌ في رواية عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٧).

قال ابنُ جُزي: (إن كان الضميرُ للمجرمينَ فالمعنى أنَّهم يقولونَ: حجرًا، بمعنى عوذًا؛ لأنَّ العربَ كانت تتعوَّذُ بهذه الكلمةِ ممَّا تَكرهُ، وانتِصابُه بفعلٍ متروكٍ إظهارُه، نحو: معاذَ الله). ((التسهيل لعلوم التنزيل)) (ص: ١٢٦٦).

وقال الشنقيطي: (الكفَّار الَّذينَ اقْتَرَحوا إنزالَ الملائكةِ إذا رَأَوُا الملائكةَ تَوَقَّعوا العذابَ مِن قِبَلِهم، فيقولونَ حينئذٍ للملائكةِ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي: حرامًا مُحَرَّمًا عليكم أنْ تَمَسُّونا بسوءٍ؛ أي: لأنَّنا لم نرتكِبْ ذنبًا نَستوجِبُ به العذابَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٩).

وقال الواحدي: (قولُه: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حرامًا مُحَرَّمًا. قاله ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرينَ. وأصلُ الحَجرِ في اللغة: المنعُ). ((البسيط)) (١٦/ ٤٥٤).

(١) قال ابنُ جرير: (والهَباءُ: هو الذي يُرى كهيئةِ الغُبارِ إذا دخل ضَوءُ الشَّمسِ مِن كَوَّةٍ، يحسَبُه الناظِرُ غُبارًا، وليس بشَيءٍ، تَقبِضُ عليه الأيدي ولا تَمَسُّه، ولا يُرى ذلك في الظِّلِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣١).

وقال البقاعي: (باطلًا لا نفعَ فيه، وهو معنى ﴿هَبَآءً﴾، وهو ما يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ الدَّاخِلِ مِن الكُوَّةِ ممَّا يُشبِهُ الغُبارَ، فهو أشبَهُ شَيءٍ بالعدَمِ؛ لأنَّه لا نفعَ له أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى حالَ الكُفَّارِ في الخَسارِ الكُلِّيِّ والخَيبةِ التامَّةِ؛ شرَحَ وصْفَ أهلِ الجنَّةِ؛ تنبيهًا على أنَّ الحظَّ كلَّ الحَظِّ في طاعةِ اللهِ تعالى(١).

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) ﴾.

أي: أهلُ الجنَّةِ بسَبَبِ ما عَمِلوه من الأعمالِ المتقَبَّلةِ أفضَلُ(٢) منزِلًا في الجنَّةِ، وأحسَنُ مَوضِعَ قائِلَةٍ(٣).

= (٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨).

قال ابن القيم: (﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ وهي الأعمالُ التي كانت لغَيرِ الله، وعلى غيرِ أمْرِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥١٤).

وقال ابن عاشور: (كانوا في الجاهليَّةِ يَعُدُّون الأعمالَ الصالحةَ مَجلبةً لخَيرِ الدُّنيا؛ لأنَّها تُرضي الله تعالى فيُجازيهم بنِعَمٍ في الدنيا؛ إذ كانوا لا يؤمِنون بالبَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥١).

(٢) قال ابن جُزي: ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ جاء هنا التفضيلُ بيْنَ الجنةِ والنارِ؛ لأنَّ هذا مستقَرٌّ وهذا مستقَرٌّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨١).

وقال السعدي: (هذا من بابِ استِعمالِ أفعَلِ التفضيلِ فيما ليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ؛ لأنَّه لا خيرَ في مَقيلِ أهلِ النَّارِ ومُستقَرِّهم، كقَولِه: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١). ويُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قرَنَ سُبحانَه الفِتنةَ بالصَّبرِ هاهنا، وفي قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل: ١١٠]، فليس لِمَن قد فُتِنَ بفتنةٍ دواءٌ مِثلُ الصَّبرِ، فإنْ صبَرَ كانتِ الفتنةُ مُمحِّصةً له ومُخَلِّصةً مِن الذُّنوبِ، كما يُخَلِّصُ الكِيرُ خَبَثَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، فالفتنةُ كِيرُ القلوبِ، ومحَكُّ الإيمانِ، وبها يتبيَّنُ الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، فالفِتنةُ قَسَّمت النَّاسَ إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ ومُنافقٍ، وطيِّبٍ وخَبيثٍ، فمَن صبَرَ عليها كانت رحمةً في حَقِّه، ونجا بصبرِه مِن فِتنةٍ أعظَمَ منها، ومَن لم يصبِرْ عليها وقعَ في فتنةٍ أشَدَّ منها(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بكُلِّ شَيءٍ؛ فهو عالِمٌ بالإنسانِ قبْلَ الامتِحانِ، لم يُفِدْه ذلك عِلمًا لم يكُنْ، وهو سُبحانَه يضَعُ الأمورَ في حاقِّ مواضِعِها وإن رُئِيَ غيرُ ذلك، فينبغي على كلِّ أحدٍ التَّسليمُ له في جَميعِ الأمورِ؛ فإنَّه يَجُرُّ إلى خَيرٍ كبيرٍ، والتدبُّرُ لأقوالِه وأفعالِه بحُسْنِ الانقيادِ والتلقِّي؛ فإنَّه يُوصِلُ إلى علمٍ غزيرٍ، وما أراد بابتلائِك بهم

= الخازن)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٢).

قال البقاعي: (﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مكانًا يمكنُ فيه الاستراحةُ في مثلِ وقت القَيلولةِ للاستروحِ بأزواجِهم، والتمتع بما يكونُ في الخَلواتِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٧٢).

وقال ابن عاشور: (والمَقيلُ: المكانُ الذي يُؤوَى إليه في القَيلولةِ، والاستراحةُ في ذلك الوقتِ مِن عادةِ المترَفينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

وقال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ المشهورَ في كلامِ العرب أنَّ المَقيلَ: القيلولةُ أو مكانُها، وهي الاستراحةُ نصفَ النهارِ زمنَ الحرِّ مثلًا، وإن لم يكن معها نومٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

وابتلائِهم بك في هذا الأذى الكبيرِ إلَّا إعلاءَ شأنِك، وإسفالَ أمرِهم، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[1] [ص: ٨٨].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرَّسولُ فِتنةٌ للمُرسَلِ إليهم، واختبارٌ للمُطيعينَ مِن العاصين، والرسُلُ فتَنَّاهم بدَعوةِ الخَلقِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقيرِ، والفقيرُ فِتنةٌ للغنيِّ، وهكذا سائرُ أصنافِ الخَلقِ في هذه الدَّارِ دارِ الفِتَنِ والابتلاءِ والاختبارِ، والقصدُ مِن تلك الفِتنةِ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتُكم اللَّازمةُ الرَّاتبةُ، فيُثيبكم مولاكم، أمْ لا تَصبِرون فتَستَحِقُّون المعاقَبةَ[2]؟ فكُلُّ مَنِ اتَّصل بك، مِن أهلك وبَنيك، وأبيك وأمِّك، وأصحابِك وعشيرتِك، وقَومِك وكُلِّ مَن ترتبِطُ به برباطٍ مِن أبناءِ جنسِك: هو فِتنةٌ وامتِحانٌ لك: هل تقومُ بواجبِك نحوَه مِن جلْبِ خَيرٍ له، أو دفعِ شَرٍّ عنه، أو جلْبِ خيرٍ منه لِغَيرِه، أو دفعِ شَرِّه عن غيرِه، وهل تكُفُّ يدَك عن شَيْئِه، وتكُفُّ بصَرَك عمَّا مُتِّع به، وتسألُ اللهَ مِمَّا عندَه مِن فَضلِه؟ وإنَّما تقوم بواجِبِك نحوَه ممَّا تقدَّم، وتكُفُّ يدَك وعينَك عنه، وتسألُ اللهَ ممَّا عندَه راضيًا بما قَسَم لك، معتقدًا الخيرَ كُلَّ الخير في قَسمِه؛ إذا تدرَّعتَ بالصَّبرِ على إتيانِه وإن كان عليك ثقيلًا، والكفِّ عمَّا يُطلَبُ منك الانكفافُ عنه وإن كان منك قريبًا، وفي طبعِك لذيذًا. وإنَّما يكونُ لك هذا الصبرُ إذا كنتَ دائمَ اليقينِ بعِلمِ الله بك، واطِّلاعِه عليك، وأنَّه كان بك بصيرًا. هذه الحقائِقُ كُلُّها هَدَتْنا هذه الآيةُ الكريمةُ إليها؛ هدَتْنا إلى أنَّا امتُحِنَّا ببعضِنا، وأنَّ الذي يُخلِّصُنا في هذا الامتحانِ، ويخرِجُنا سالمينَ هو الصَّبرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٨).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ عَلِمْنا مِن هذه الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى يَمتحِنُ عبادَه ويَختبِرُهم لِيُظهِرَ حقائقَهم؛ فعلينا أن نبنِيَ أمورَنا على الامتحانِ والاختبارِ، فلا نُقَرِّرَ علمًا ولا نُصدِرَ حُكمًا إلَّا بعْدَ ذلك، وخُصوصًا في معرفةِ النَّاسِ والحُكْمِ عليهم، فالظَّواهرُ كثيرًا ما تُخالِفُ البواطنَ، والتصنُّعُ والتكلُّفُ قلَّما يَسلَمُ منهما أحَدٌ، ولا يَعصِمُ مِن الخطأِ مع هذه المغالطاتِ كلِّها إلَّا الامتحانُ والاختبارُ، فاعتَصِمْ بهما(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ فيه دَليلٌ على القضاءِ والقدَرِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ سؤالٌ: اللهُ تعالى عالِمٌ بما يَكونُ مِن عبادِه بعْدَ امتحانِهم قبْلَ أن يَمتحِنَهم، فما حِكمةُ الامتحانِ؟

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى إنما يُحَاسِبُ عبادَه على ما عَمِلوه وكَسَبوه واكتسَبوه بما عندهم مِن التمكُّنِ مِن الفِعلِ والتَّرْكِ، وما عندَهم مِن الاختيارِ، لا على عِلْمِه منهم قبْلَ أن يَعملوه؛ فلهذا يُمتحَنون؛ لتظهرَ حقائقُهم، ويَقَعَ جزاؤُهم على ما كسبتْ أيديهم باختيارِهم، ولا حُجَّةَ لهم في تَقَدُّمِ عِلمِه تعالى بما يكونُ منهم؛ لأنَّ تَقدُّمَ العِلمِ لم يكن مُلجِئًا لهم على أعمالِهم، ففي هذا الامتحانِ قيامُ حُجَّةِ اللهِ على العامِلِينَ أمامَ أنفُسِهم وأمامَ الناسِ، كما فيه إظهارٌ لحقيقتِهم لأنفُسِهم ولغيرِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ كما يُفتَنُ الفَردُ بالفردِ، كذلك تُفتَنُ الأمَّةُ بالأمَّةِ: مِن ذلك أنَّنا -معشرَ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ- قد فُتِنَّا بغَيرِنا مِن أمَمِ الغربِ، وفُتِنوا هم أيضًا بنا؛ فنحن نَدينُ بالإسلامِ، وهو دينُ السعادةِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ولكِنْ حيثما كنَّا -إلَّا قليلًا- لسْنا سعداءَ لا في مظاهِرِ تديُّنِنا، ولا في أحوالِ دُنيانا!

ففي الأُولى: نأتي بما يبرَأُ منه الإسلامُ، ونصَرِّحُ بأنَّه مِن صميمِه!

وفي الثَّانيةِ: ترانا في حالةٍ مِن الجهلِ والفَقرِ والذُّلِّ والاستعبادِ يَرثي لها الجمادُ.

فلمَّا يَرانا الغربيُّون على هذه الحالةِ يَنفِرونَ مِن الإسلامِ، ويَسخرونَ منه، إلَّا مَن نظَرَ منهم بعَينِ العِلمِ والإنصافِ؛ فإنَّه يعرِفُ أنَّ ما نحن عليه هو ضِدُّ الإسلام، فكنَّا فِتنةً عظيمةً عليهم، وحجابًا كثيفًا لهم عن الإسلامِ. فكنَّا -ويا لَلأسفِ- فتنةً للقَومِ الظالمين.

وهم مِن ناحيتِهم نراهم في عزٍّ وسيادةٍ وتقدُّمٍ عِلميٍّ وعمرانيٍّ، فننظرُ إلى تلك الناحيةِ منهم، فنندفِعُ في تقليدِهم في كلِّ شيءٍ حتى معائِبِهم ومفاسِدِهم، ونَزْدَري كلَّ شيءٍ عندَنا حتى أعزَّ عزيزٍ، إلَّا مَن نظَر بعينِ العِلمِ، فعرَف أنَّ كلَّ ما عندَهم مِن خيرٍ هو عندَنا في دينِنا وتاريخِنا، وأنَّ ذلك هو الذي تقَدَّموا وسادوا به، وأنَّ ما عِندَهم مِن شَرٍّ هو شَرٌّ على حقيقتِه، وأنَّ ضرَرَه فيهم هو ضَرَرُه، وأنَّه لا يجوز أن يُتابَعوا عليه؛ فكانوا فتنةً لنا حتى ينظُرَ مَن ينظُرُ بعَينِ الحَقِّ للحقائقِ ممَّن تبهَرُه الظواهِرُ فتَسلُبُه إدراكَه فيَغْدو لا يفرِّقُ بيْن اللُّبِّ والقشورِ(١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يخافون، وإنَّما جاز «يرجو» في موضِعِ «يخاف»؛ لأنَّ الرَّاجيَ الشَّيءَ قَلِقٌ فيما يرجوه؛ فمرَّةً يَشتدُّ طمَعُه فيصيرُ كالآمِنِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٧).

ومرَّةً يضْعُفُ فيصيرُ كالخائفِ(١).

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ دلَّ ظاهِرُ الآيةِ على جوازِ الرؤيةِ(٢)، وقد أجمَع أهلُ اللسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِب إلى الحيِّ السليمِ مِن العمَى والمانعِ اقتضَى المعايَنةَ والرؤيةَ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ النبوَّةَ لا تكونُ بالاكتِساب، وإنَّما هي إعدادٌ مِن اللهِ تعالى؛ قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(٤) [الأنعام: ١٢٤].

٧- يُفهَمُ مِن قولِه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ الآيةَ: أنَّ أصحابَ النارِ ليسوا كذلك، وأنَّ حسابَهم غيرُ يسيرٍ، وهذا المفهومُ دلَّت عليه آياتٌ أُخَرُ؛ كقولِه تعالى قريبًا مِن هذه الآيةِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، فقولُه: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّه على المؤمنينَ غيرُ عسيرٍ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾(٥) [القمر: ٨].

٨- قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ استَنبَط بعضُ العُلماءِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ حِسابَ أهلِ الجنَّةِ يسيرٌ، وأنَّه

---

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤١).

ينتهي في نِصفِ نَهارٍ، ووجْهُ ذلك أنَّ قَولَه: ﴿مَقِيلًا﴾، أي: مكانَ قَيلولةٍ، وهي الاستراحةُ في نِصفِ النَّهارِ، قالوا: وهذا الذي فُهِمَ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ جاء بيانُه في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[1] [الانشقاق: ٧-٩]. وقيل: إنَّ الله تعالى يحاسِبُ الخلائقَ كلَّها في نصفِ يومٍ؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، والقيلولةُ إنما تكونُ في نصفِ النهارِ، ويلزمُ مِن هذا أنَّ الله يحاسِبُ الخلائقَ كلَّهم في نصفِ يومٍ حتى إنَّ كلَّ واحدٍ منهم يَقيلُ في منزلِه ومستقَرِّه[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سؤالٌ، وهو أنَّ الآيةَ دلَّتْ على أنَّ مُستقَرَّهم غيرُ مَقيلِهم، فكيف ذلك؟

والجوابُ مِن وجوهٍ:

منها: أنَّ المستقَرَّ مكانُ الاستِقرارِ، والمقيلَ زمانُ القَيلولةِ، فهذا إشارةٌ إلى أنَّهم مِن المكانِ في أحسَنِ مكانٍ، ومِن الزَّمانِ في أطيَبِ زَمانٍ.

ومنها: أنَّ بعْدَ الفراغِ مِن المحاسَبةِ والذَّهابِ إلى الجنَّةِ يكونُ الوقتُ وقتَ القَيلولةِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سُؤالٌ: كيف يصحُّ القَيلولةُ في الجنَّةِ والنَّارِ، وأهلُ الجنَّةِ في الآخرةِ لا ينامون، وأهلُ النَّارِ أبدًا في عَذابٍ يَعرِفونَه، وأهلُ الجنَّةِ في نعيمٍ يَعرِفونَه؟!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

والجوابُ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وليس في الجنَّةِ بُكرةٌ وعَشِيٌّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، ولأنَّه إذا لم يكُنْ هناك شَمسٌ لم يكُن هناك نِصفُ النَّهارِ، ولا وقتُ القَيلولةِ، بلِ المرادُ منه بيانُ أنَّ ذلك الموضِعَ أطيبُ المواضِعِ وأحسَنُها، كما أنَّ مَوضِعَ القيلولةِ يكونُ أطيبَ المواضِعِ. واللهُ أعلمُ(١). وقيل: المقيلُ: موضعُ الاستراحةِ؛ نام أو لم ينَمْ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ ردٌّ على قولِهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، بعْدَ أنْ ردَّ عليهم قولَهم: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨] بقولِه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ...﴾ [الفرقان: ١٠]؛ ولكنْ لَمَّا كان قولُهم: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ حالةً لم تُعطَ للرُّسلِ في الحَياةِ الدُّنيا، كان ردُّ قولِهم فيها بأنَّ اللهَ أعطاهُ خَيرًا مِن ذلك في الآخرةِ(٣).

- جُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ في مَوضعِ الحالِ، والتَّوكيدُ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

لتَحقيقِ وُقوعِ الحالِ؛ تَنزيلًا للمُشرِكين في تَناسِيهم أحوالَ الرُّسلِ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنْ يكونَ الرُّسلُ السَّابقون يأكُلون الطَّعامَ، ويَمْشون في الأسواقِ[١].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ هذا تَصبيرٌ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما قالوهُ واستَبْدعوهُ؛ مِن أكْلِه الطَّعامَ، ومَشْيِه في الأسواقِ، بعْدَما احتجَّ عليهم بسائرِ الرُّسلِ. وقيل: هو تَسليةٌ له عمَّا عيَّروه به مِن الفَقرِ حينَ قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[٢].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ تَذييلٌ؛ فضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿بَعْضَكُمْ﴾ يعُمُّ جميعَ النَّاسِ؛ بقرينةِ السِّياقِ[٣].

- قَولُه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ عِلَّةٌ للجَعْلِ، والمعنى: وجَعَلْنا بعضَكم لِبعضٍ فِتنةً؛ لنَعلَمَ أيُّكم يَصبِرُ. ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. أو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في الحثِّ والأمْرِ على الصَّبرِ على ما افْتُتِنُوا به[٤].

- قَولُه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ الاقتِصارُ على ذِكْرِه مِن غيرِ تعرُّضٍ لمُعادِلٍ له -كأنْ يقولَ: (أتصبِرونَ أمْ لا تصبِرون)-؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ اللَّائقَ بحالِ المفتونينَ والمُتوقَّعَ صُدورُه عنهم هو الصَّبرُ لا غيرُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

- قَولُه: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه مَزيدُ تَشريفٍ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالالْتفاتِ إلى اسمِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

ومَوقِعُ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ مَوقِعُ الحثِّ على الصَّبرِ المأمورِ به، أي: هو عليمٌ بالصَّابرينَ، وإيذانٌ بأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ جَزاءَ الرَّسولِ على ما يُلاقِيه مِن قَومِه، وأنَّه ناصِرُه عليهم. وفي الإسنادِ إلى وصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ النَّبيِ إلْماعٌ إلى هذا الوعْدِ؛ فإنَّ الرَّبَّ لا يُضِيعُ أولياءَهُ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ حِكايةُ مَقالةٍ أُخرى مِن مَقالاتِ تَكذيبِهمُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد عَنْوَنَ عليهم في هذه المقالةِ بـ ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، وعَنْوَنَ عليهم في المقالاتِ السَّابقةِ بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الفرقان: ٤] وبـ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [الفرقان: ٨]؛ لأنَّ بيْنَ هذا الوصفِ وبيْن مقالَتِهمُ انتِقاضًا؛ فهُم قد كذَّبوا بلِقاءِ الآخِرةِ بما فيه مِن رُؤْيةِ اللهِ والملائكةِ، وطلَبوا رُؤْيةَ اللهِ في الدُّنيا، ونُزولَ الملائكةِ عليهم في الدُّنيا، وأرادُوا تَلَقِّي الدِّينِ مِنَ الملائكةِ أو مِنَ اللهِ مباشرةً؛ فكان في حكايةِ قَولِهم، وذِكْرِ وصْفِهم: تَعجيبٌ مِن تَناقُضِ مَدارِكِهم! وأيضًا فإنَّ أهلَ الشِّركِ أنكروا البعثَ، وتوهَّموا أنَّ شُبهتَهُم في إنكارِه أقوَى حجَّةً لهم في تكذيبِ الرُّسلِ؛ فمِن أجْلِ ذلك أيضًا جَعَل قولَهم ذلك طريقًا لتعريفِهم بالمَوصولِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾(٣) [يونس: ١٥].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ شُروعٌ في حِكايةِ بعضٍ آخَرَ مِن أقاويلِهمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥).

الباطلةِ وبيانِ بُطلانِها، بعْدَ إبطالِ أباطيلِهمُ السَّابقةِ. والجملةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، ووُضِع الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضعَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ على أنَّ ما يُحكَى عنهم مِنَ الشَّناعةِ بحيثُ لا يَصدُرُ عمَّن يَعتقدُ المصيرَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

- والقومُ المعانِدون السابِقون في قولِه: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هم الذين وصَفَهم اللهُ هنا بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وقد أُقيمَ المُظهَرُ مُقامَ المُضمَرِ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا سَلَّى رسولَه صلواتُ اللهِ عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ...﴾ [الفرقان: ٢٠] عاد إلى تقبيحِ نوعٍ آخَرَ مِن أفعالِهم، وهو إنكارُهم لقاءَ اللهِ، وأنَّ لله تعالى دارَ جَزاءٍ(٢).

- و(لولا) في قولِه: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حرْفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ والاستِحالةِ(٣).

- قَولُه: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ استِئنافٌ يَتنزَّلُ منزلةَ جوابٍ عن قَولِهم. والتَّأكيدُ بلامِ القَسَمِ لإفادةِ معنَى التَّعجيبِ؛ لأنَّ القسَمَ يُستعمَلُ في التَّعجُّبِ(٤). والاستِكبارُ: مُبالَغةٌ في التَّكبُّرِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ للمُبالَغةِ(٥).

- وأيضًا هذه الجُملةُ في حُسنِ استِئنافِها غايةٌ، وفي فَحْوى هذا الفعلِ دليلٌ على التَّعجُّبِ مِن غَيرِ لفظِ التَّعجُّبِ؛ ألا ترى أنَّ المعنى: ما أشَدَّ استِكبارَهم!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥،٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥).

وما أكبرَ عُتُوَّهم[١]! فقولُه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جملةٌ قَسَميَّةٌ، يَستدعي أنْ يُتلقَّى بها مَن يُبالِغُ في الإنكارِ، كأنَّه لَمَّا قالوا: لولا أُنزِل علينا الملائِكةُ أو نَرى ربَّنا، حُمِل السَّامعُ على أن يقولَ: ما أشدَّ استِكبارَهم! وما أكبرَ عُتُوَّهم! لأنَّها اشتَمَلَتْ على أمرٍ يَقتضي التَّعجُّبَ منهم، فلا يَتمالَكُ أنْ يَترُكَ ذلك القَولَ، فوُضِع مَوضِعَه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ لأنَّه أثبَتُ وأبلَغُ مِن ذلك[٢].

- قَولُه: ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وصَفَ العُتُوَّ بالكبيرِ؛ مبالَغةً في إفراطِه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

- قَولُه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ ما يَلْقَونه عِندَ مُشاهَدتِهم لِما اقترحُوه مِن نُزولِ الملائكةِ عليهم السَّلامُ، بعْدَ استِعظامِه، وبيانِ كَونِه في غايةِ ما يكونُ مِنَ الشَّناعةِ. وإنَّما قيلَ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ دُونَ أنْ يُقالَ: (يومَ يَنزِلُ الملائكةُ)؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ رُؤيتَهم لهم ليسَتْ على طريقِ الإجابةِ إلى ما اقتَرحُوه، بل على وجهٍ آخَرَ غيرِ معهودٍ[٤].

- وفي هذا الاستِئنافِ تَلميحٌ وتَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ ابتِداءَه مُطمِعٌ بالاستِجابةِ، وآخِرَه مؤْيِسٌ بالوعيدِ[٥].

- والعُدولُ إلى نَفْيِ الجِنسِ في قولِه: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ للمُبالَغةِ في نَفْيِ البُشرى. وحيثُ كان نَفْيُها كِنايةً عن إثباتِ ضِدِّها -كما أنَّ نفيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦، ٧).

المحبَّةِ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] كنايةٌ عن البُغض والمَقْتِ- دَلَّ على ثبوتِ النَّذْرِ -أي: الخوف- لهم على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه(١).

- و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ والتَّهويلِ، مع ما فيه مِنَ الإيذانِ بأنَّ تقديمَ الظَّرفِ للاهتِمامِ لا لقَصْرِ نَفْيِ البُشرَى على ذلك الوقتِ فقط؛ فإنَّ ذلك مُخِلٌّ بتَفظيعِ حالِهم(٢). وقيل: قُدِّم الظَّرفُ للاهتِمامِ به؛ لإثارةِ الطَّمعِ، وللتَّشويقِ إلى تَعيينِ إبَّانِه، حتَّى إذا وَرَدَ ما فيه خَيبةُ طَمَعِهم كان له وقْعُ الكآبةِ على نفوسِهم حينما يَسمَعونه(٣).

- وقوله: ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إمَّا عامٌّ يَتناوَلُ حُكْمُه حُكْمَهم، ولا يَلزَمُ مِن نَفْيِ البُشرى لعامَّةِ المُجرمينَ حينئذٍ نَفْيُ البُشرى بالعَفْوِ والشَّفاعةِ في وقتٍ آخَرَ، وإمَّا خاصٌّ وُضِعَ مَوضِعَ ضميرِهم؛ تسجيلًا على جُرْمِهم، وإشعارًا بما هو المانعُ للبُشرى، والموجِبُ لِما يُقابِلُها(٤).

- وفي قولِه: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ جاءتِ الصِّفةُ ﴿مَّحْجُورًا﴾؛ لتأكيدِ معنَى الحَجرِ، كما يُقالُ: ذَيْلٌ ذائِلٌ -والذَّيلُ: الهَوانُ-، ومَوتٌ مائِتٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١، ١٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾

- في قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ شَبَّه عمَلَهم بالهَباءِ في قِلَّتِه وحَقارتِه عِندَه، وأنَّه لا يُنتفَعُ به مع كَونِه مَوجودًا، ثمَّ بالمَنثورِ منه؛ لأنَّك تراه مُنتظِمًا مع الضَّوءِ فإذا حرَّكَتْه الرِّيحُ رأيْتَه قد تَناثَرَ وذَهَب كُلَّ مَذهَبٍ؛ فلمْ يَكتَفِ أنْ شَبَّهَ عملَهم بالهَباءِ حتَّى جعَلَه مُتناثِرًا، ومِثْلُ هذا الإردافِ يُسمَّى في البَديعِ: بالتَّتْميمِ(١) والإيغالِ(٢)؛ فقولُه: ﴿مَّنثُورًا﴾ وصْفٌ كاشِفٌ؛ لأنَّ الهَباءَ لا يَكونُ إلَّا مَنثورًا، فذِكْرُ هذا الوَصفِ للإشارةِ إلى ما في الهَباءِ مِنَ الحَقارةِ ومِنَ التَّفرُّقِ(٣).

---

(١) التَّتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصود؛ لرَفْعِ اللبسِ عنه، وتقريبِه للفَهم، أو لزيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(٢) الإيغال: هو استِكمالُ الكلامِ قبْلَ الإتيانِ بمقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا على معنى ذلك الكلامِ، وهو ضَربانِ: ١- إيغالُ تخييرٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقَولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قبْلَها وما بعْدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُل؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكْمَ الله أحسَنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ. ٢- إيغالُ احتياطٍ: وهو استِكمالُ معنَى الكلامِ قبْلَ قَطْعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيدُ معنًى زائدًا تتمَّةً للمبالَغةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، فالكلامُ يحتاجُ إلى فاصلةٍ تماثِلُ مقاطعَ ما قبْلَها وما بعْدَها، فأتى بها مفيدةً معنًى زائدًا على معنى الكلامِ، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، فإنْ قيل: ما معنى مُدبرينَ وقد أغنى عنها ذِكرُ التولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التولِّي قد يكون بجانبٍ دونَ جانبٍ، كما يكونُ الإعراضُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((حاشية =

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ جِيءَ به لمُقابَلةِ حالِ المشركينَ في الآخرةِ بضِدِّها مِن حالِ أصحابِ الجنَّةِ(١).

- قَولُه: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سَمَّى مكانَ دَعَتِهم واستِرواحِهم إلى الحُورِ مَقِيلًا -مع أنَّه لا نَومَ في الجنَّةِ- على طَريقِ التَّشبيهِ؛ إذِ المكانُ المُتخيَّرُ للقَيلولةِ يكونُ أَطيَبَ المواضعِ. وفي وصْفِه بزِيادةِ الحُسنِ مع حُصولِ الخَيريةِ بعَطفِه على المُستَقَرِّ رمْزٌ إلى أنَّه مُزَيَّنٌ بفُنونِ الزِّيَنِ والزَّخارفِ(٢). وقيل: وصَفَه بالحُسنِ؛ إرادةً لحُسنِ ساكنِيه على طريقِ الكِنايةِ(٣).

- واسمُ التَّفضيلِ (خَيْرٌ) في قولِه: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ قيل: إنَّه ليس على بابِه مِن استِعمالِه دَلالةً على الأفضليَّةِ؛ لئلَّا يَلزَمَ مِن ذلك خَيرٌ في مُستَقَرِّ أهلِ النَّارِ. وقيل: يُمكِنُ إبقاؤُه على بابِه، ويكونُ التَّفضيلُ وقَعَ بيْن المُستَقَرَّينِ والمَقِيلَينِ باعتِبارِ الزَّمانِ الواقعِ ذلك فيه(٤). وقيل: التَّفضيلُ المُعتبَرُ فيهما إمَّا لإرادةِ الزِّيادةِ على الإطلاقِ، وإمَّا بالإضافةِ إلى ما للكَفرةِ المُتنعِّمينَ في الدُّنيا، أو إلى ما لهم في الآخرةِ بطريقِ التَّهكُّمِ بهم(٥). وقيل: التفاضُلُ

= الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٨٦، ٦٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٩)، ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

الذي ذُكِرَ بيْن المنزلتينِ إنَّما يَرجعُ إلى المَوضعِ، والموضعُ مِن حيثُ إنَّه مَوضعٌ لا شرَّ فيه. وقيل: هذا التفاضُلُ واقعٌ على هذا التقديرِ، أي: لو كان لهم مستقَرٌّ فيه خَيرٌ لكان مستقَرُّ أهلِ الجنةِ خيرًا منه[١]. وقيل: هذا يَحْسُنُ في مَعرِضِ التَّقريعِ، كما إذا أعطى السيدُ عبدَه مالًا فتَمَرَّدَ وأبى واستكبَرَ؛ فيَضْرِبُه ضربًا وجيعًا، ويقولُ على سبيلِ التوبيخ: هذا أطيَبُ أمْ ذاك[٢]؟!

- وفي قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ كِنايةٌ في قولِه: ﴿مُّسْتَقَرًّا﴾ و﴿مَقِيلًا﴾؛ فالمُستقَرُّ اسمُ مكانٍ مِنَ الاستِقرارِ، وهو المجلسُ الدَّائمُ لأهلِ الجنَّةِ يَستقِرُّونَ فيه ويَقْضُون مُعظَمَ أوقاتِهم مُتقابِلينَ يَتحادَثونَ ويَتسامَرون، وكَنَى به عن أحاديثِ العَشايا والبُكَرِ الَّتي يَتبادَلُونها، وهي أحاديثُ كانتْ في الدُّنيا تَدورُ بيْن المُترَفينَ وأصحابِ النَّعيمِ واليَسارِ، وكَنَى بالمَقِيلِ -وهو وقتُ استراحةِ نِصفِ النَّهارِ- عن قَضائِهم وقتَ الاستِجمامِ والاستِراحةِ مع أزواجِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٧، ٨).

الآيات (٢٥-٢٩)

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ
وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ
مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ
إِذْ جَآءَنِىۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: أي: السَّحابِ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه يَغُمُّ السَّماءَ، أي: يَستُرُها ويُغطِّيها، وكُلُّ شَيءٍ غطَّيتَه فقدْ غَمَمتَه، وأصلُ (غمم): يدُلُّ على تغطيةٍ وإطباقٍ[1].

﴿خَلِيلًا﴾: الخَليلُ: الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، أي: الصَّداقةِ والمودَّةِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تتخلَّلُ النَّفْسَ، أي: تتوسَّطُها[2].

﴿خَذُولًا﴾: أي: كثيرَ الخِذلانِ، والخِذلانُ: تَركُ المَعونةِ، وأصلُ (خذل): يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ والقُعودِ عنه[3].

المعنى الإجماليُّ:

يصِفُ الله تعالى بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -أيُّها الرسولُ- حين تتشقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ رَقيقٍ أبيضَ يومَ القيامةِ، وتُنزَّلُ الملائِكةُ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا. في ذلك اليَومِ يكونُ السُّلطانُ الثَّابِتُ الحَقُّ لله وحْدَه دونَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩، ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

غيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ، وكان ذلك اليَومُ يَومًا شَديدًا على الكافرينَ.

ثُمَّ يذكُرُ تعالى ما يكونُ عليه الكافرونَ يومَ القيامةِ مِن حسرةٍ وندامةٍ، فيقولُ: واذكُرْ حين يَعَضُّ الظَّالمُ المحادُّ للهِ ورَسولِه على يَدَيه؛ تحسُّرًا وأسَفًا، يقولُ: يا ليتني سلَكْتُ طَريقَ الحَقِّ الذي جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واتبَعْتُه فيما جاء به مِن عندِ رَبِّه.

وأنَّه يقولُ في هذا اليومِ: يا هَلاكي! ليتَني لم أتَّخِذْ مَن أضَلَّني وأغواني في الدُّنيا صديقًا لي وحبيبًا، لقد صرَفَني هذا الصَّديقُ المشؤومُ عن القُرآنِ والهُدى بعد أن بلَغَني. ثمَّ قال الله تعالى: وكان الشَّيطانُ كثيرَ الخِذلانِ للإنسانِ الذي يتَّبِعُه، تارِكًا لإعانتِه ونصرِه وَقتَ استِنصارِه به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذا الكلامُ مَبنيٌّ على ما استَدعَوه مِن إنزالِ الملائكةِ؛ فبَيَّنَ سُبحانَه أنَّه يحصُلُ ذلك في يومٍ له صِفاتٌ ذكَرَها في هذه الآياتِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان للكَفَرةِ في هذه الدَّارِ مِن العِزِّ والقوَّةِ والضَّخامةِ ما يتعجَّبونَ معه مِن مَصيرِ حالِهم إلى ما ذُكِرَ؛ بَيَّنَ أنَّ الأمرَ في ذلك اليومِ على غَيرِ ما نَعهَدُه، فقال عاطِفًا على ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾(٢) [الفرقان: ٢٢]:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٢).

أي: واذكُرْ أيُّها الرسولُ[(١)] يومَ القيامةِ حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ أبيَضَ رَقيقٍ[(٢)].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

أي: وتُنَزَّلُ الملائِكةُ يومَ القيامةِ مِن السَّمواتِ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ذلك اليومُ سببًا لانكِشافِ الأمورِ، ومَعرفةِ أنَّه لا مُلْكَ لِسواه سُبحانَه؛ لأنَّه لا يَقضي فيه غَيرُه، قال[(٤)]:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

---

(١) قال محمد رشيد رضا: (وجمهورُ الُمفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يوم» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لِفعلٍ محذوفٍ تقديرُه «واذكُرْ»، وهو خطابٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يَكونُ كَذا وكَذا). ((تفسير المنار)) (٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٤).

وقال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن هَولِ يومِ القيامةِ، وما يكونُ فيه مِن الأمورِ العظيمةِ؛ فمنها انشِقاقُ السَّماءِ وتفطُّرُها، وانفراجُها بالغَمامِ، وهو ظُلَلُ النورِ العظيمِ الذي يُبهِرُ الأبصارَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٣).

أي: السُّلطانُ -يَومَ القيامةِ- المؤكَّدُ الثَّابِتُ الذي لا يَزولُ: للرَّحمنِ وَحْدَه دُونَ غَيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ(١).

كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ، أين ملوكُ الأرضِ؟))(٢).

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

أي: وكان يومُ القيامةِ يومًا صَعبًا شَديدًا على الكافرينَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان حاصِلُ حالِ الكافرينَ أنَّهم جانَبوا أشرفَ الخلْقِ، الهاديَ لهم إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٧٣٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

قال القرطبي: (﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: لِما يَنالُهم مِن الأهوالِ، ويَلحَقُهم مِن الخِزيِ والهوانِ، وهو على المؤمِنينَ أخَفُّ مِن صَلاةٍ مكتوبةٍ...، وهذه الآيةُ دالَّةٌ عليه؛ لأنَّه إذا كان على الكافرين عَسيرًا، فهو على المؤمنين يَسيرٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: شديدًا صَعبًا؛ لأنَّه يومُ عَدلٍ، وقَضاءِ فَصلٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٧).

كلِّ خَيرٍ، وصاحَبوا غيرَه ممَّن يقودُهم إلى كُلِّ شرٍّ؛ بَيَّنَ عُسْرَ ذلك اليومِ -الذي إنَّما أوجبَ جُرأتَهم تكذيبُهم به- بتناهِي نَدَمِهم على فِعلِهم هذا، فقال(١):

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ القيامةِ حينَ يَعَضُّ الظَّالِمُ المخالِفُ لطَريقِ الرَّسولِ على يَدَيه؛ نَدَمًا وحَسرةً وأسَفًا(٢).

﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾.

أي: يَقولُ هذا الظَّالِمُ: يا ليتني اتَّبَعتُ في الدُّنيا طريقَ رَسولِ اللهِ، فآمنتُ به ولم أخالِفْه؛ لأنجوَ مِن عذابِ اللهِ، وأصِلَ إلى جنَّاتِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا * وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: ٦٦، ٦٧].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

قال الشوكاني: (الظَّاهِرُ أنَّ العَضَّ هنا حقيقةٌ، ولا مانِعَ من ذلك، ولا مُوجبَ لتأويلِه. وقيل: هو كنايةٌ عن الغَيظِ والحَسرةِ، والمرادُ بالظالم: كلُّ ظالم يَرِدُ ذلك المكانَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٤).

وقال الشنقيطي: (مِن المشهورِ عندَ علماءِ التفسيرِ أنَّ الظَّالمَ الذي نزَلَت فيه هذه الآيةُ: هو عُقبةُ ابنُ أبي مُعَيطٍ، وأنَّ فلانًا الذي أضلَّه عن الذِّكرِ: أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ أو أخوه أُبَيُّ بنُ خلَفٍ... وعلى كلِّ حالٍ فالعِبرةُ بعُمومِ الألفاظِ، لا بخصوصِ الأسبابِ؛ فكُلُّ ظالمٍ أطاع خليلَه في الكُفرِ حتى مات على ذلك يجري له مِثلُ ما جرى لابنِ أبي مُعَيطٍ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

أي: يقولُ الظَّالِمُ: يا هلاكي! ليتَني لم أجعَلْ مَن أغواني في الدُّنيا صديقًا وحبيبًا لي[١].

عن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّما مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ والجَليسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسكِ ونافِخِ الكِيرِ[٢]؛ فحامِلُ المسكِ: إمَّا أن يُحْذيَكَ[٣]، وإمَّا أنْ تَبتاعَ منه، وإمَّا أن تجِدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونافِخُ الكِيرِ: إمَّا أن يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أن تجِدَ ريحًا خَبيثةً))[٤].

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾.

أي: لقد صَرَفني مَن اتَّخَذْتُه في الدُّنيا خليلًا عن القُرآنِ بعد بُلوغِه إليَّ، وصَدَّني عنه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٥).

(٢) الكِير: هو شيءٌ يَنفُخُ فيه الحدَّادُ؛ لتشتَعِلَ النَّارُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٣٢٤).

(٣) يُحذيَك؛ أي: يُعطيَك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٧٨)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٢٣١).

(٤) رواه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥، ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٧).

قال السعدي: (﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ حيثُ زيَّن له ما هو عليه مِن الضَّلالِ بخُدَعِه وتسويلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وقال ابن عاشور: (أي: نهاني عن التدبُّرِ فيه والاستماعِ له بعْدَ أن قاربْتُ فَهْمَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦).

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

أي: قال الله: وإنَّ مِن عادةِ الشَّيطانِ وصِفَتِه المجبولِ عليها: أن يَخذُلَ الإنسانَ الذي يتَّبِعُه، ويترُكَ إعانَتَه ونَصْرَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٢-١٠٤).

قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن قولِ الظَّالمِ، ويحتمِلُ أن يكونَ ابتداءَ إخبارٍ مِن الله تعالى على جهةِ الدَّلالةِ على وجهِ ضلالتِهم، والتحذيرِ مِن الشيطانِ الذي بلَّغهم ذلك المبلغَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩).

وقال القرطبي: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ قيل: هذا مِن قَولِ الله لا مِن قَولِ الظالم. وتمامُ الكلام على هذا عندَ قولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦).

وممَّن قال بذلك: ابنُ أبي زمنين، والواحديُّ، وابن الجوزي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. واستظهره الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦).

قال السعدي: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يزيِّنُ له الباطِلَ، ويقَبِّحُ له الحَقَّ، ويَعِدُه الأمانيَّ، ثم يتخلَّى عنه، ويتبرَّأُ منه، كما قال لجميعِ أتْباعِه حين قُضيَ الأمرُ، وفَرَغ اللهُ مِن حسابِ الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وقال ابن عثيمين: (فالظَّاهِرُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الجنسُ، يعني: المؤمِنَ أو الكافِرَ، وإنَّما قُلْنا: إنَّ ذلك هو الظَّاهِرُ؛ لأنَّه كما يُغْوي الكافرين بالكُفرِ، كذلك يُغوي المؤمنينَ بالفِسقِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٢).

وقال سُبحانَه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ [الحشر: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فيه التَّحذيرُ مِن هذا اليومِ، وأنَّه يَنبغي الاستِعدادُ له، فيومُ القيامةِ لا يمكنُ أن يَفِرَّ الناسُ منه ومِن أهوالِه وأحكامِه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ تخويفٌ وتحذيرٌ مِن تَسَلُّطِ الملوكِ؛ فإنَّهم يجبُ أنْ يَذكُروا هذا اليومَ الذي تَزولُ فيه مِلكيَّتُهم، ولا يبقَى إلَّا مُلكُ اللهِ سُبحانَه وتعالى(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أنَّه كما علينا أن نَتَّبِعَ سبيلَ الرَّسولِ -عليه وآلِه الصلاةُ والسَّلامُ- الَّتي جاء بها مِن عندِ اللهِ تعالى، وهي الإسلامُ؛ كذلك علينا أن نَتَّبِعَ سبيلَه في القيامِ بشرائعِ الإسلامِ عِلمًا وعملًا؛ في أبوابِ العباداتِ، وأحكامِ المعامَلاتِ، وفي تطبيقِ أصولِ الإسلامِ وفروعِه على الحياةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، وهذه هي سُنَّتُه التي كان عليها، وكان عليها أصحابُه، وأهلُ القرنِ الثَّاني مِن التابعينَ، وأهلُ القرنِ الثالثِ مِن أتباعِ التابعينَ؛ تلك القرونُ المشهودُ لها بالخيريَّةِ على غيرِها بلسانِ المعصومِ، كما أنَّ مَن عدَلَ عنِ الإسلامِ ولم يَسلُكْ سبيلَه وَقَعَ في ضلالِ الكُفرِ؛ كذلك مَن عدَلَ عنِ السُّنَّةِ ولم يَسلُكْ سبيلَها وَقَعَ في ضلالِ الابتِداعِ، وكما أنَّ مَن لم يَتخِذْ مع الرَّسولِ سبيلَ الإسلامِ يَندَمُ أشدَّ الندمِ، ويَتَحَسَّرُ أعظَمَ الحَسرةِ على ما كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩١).

مِن تَفريطِه؛ كذلك مَن لم يَتَّخِذْ مع الرَّسولِ سبيلَ السُّنَّةِ؛ إذْ كلٌّ منهما قد ظَلَمَ نفْسَه، وفَرَّطَ في سبيلِ نجاتِه؛ فالآيةُ وإنْ كانت في الكافرِ والمشرِكِ، فهي تتناوَلُ بطريقِ الاعتِبارِ لكلِّ الأهواءِ والبدعِ، وبهذا كانتِ الآيةُ متناوِلةً بوَعْظِها وترهيبِها جميعَ الخلْقِ ممَّن لم يَدخُلْ في الإسلامِ، أو دخَلَ فيه ولم يلزَمْ سُنَّةَ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم(١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن قُرَناءِ السوءِ؛ لقولِه: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى ﴾(٢). وأنَّه يجِبُ على المرءِ أن يختارَ لنفسِه الأصحابَ: أهلَ العِلمِ والدِّينِ(٣). فلْينظُرِ العبدُ لنفْسِه وَقتَ الإمكانِ، ولْيَتدارَكِ المُمكنَ قبْلَ ألَّا يُمكنَ، ولْيُوالِ مَن وَلايتُه فيها سَعادتُه، ولْيُعادِ مَن تنفَعُه عداوتُه وتضُرُّه صداقتُه(٤)، ولْيَختَرْ مَنْ يُخالِلُ؛ فلا يخالَّ إلَّا مَن حَسُنَتْ سريرتُه، واستقامتْ سيرتُه، وغَلَب الصوابُ على أقوالِه وأعمالِه؛ ليكونَ دليلَه إلى الخَيرِ، وسائقَه إليه(٥).

٥- قال الله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ عندَما تتخَلَّلُ محبَّةُ شَخصٍ مِن الناسِ قلْبَك، وتُمزَجُ برُوحِك، ويَستولي بسُلطانِ موَدَّتِه عليك؛ تصيرُ أقوالُه وأفعالُه كُلُّها عندَك مَرْضيَّةً، وعيوبُه ونقائصُه عنك محجوبةً، فتُمْسي طَوعَ بَنانِه، ورَهْنَ إشارتِه، يوجِّهُك حيث شاء، ويَصرِفُك عمَّا أراد. وهذه حالةٌ مِن أخطرِ الأحوالِ عليك؛ لأنَّك فيها قد سُلِبت تمييزَك، وخَسِرتَ إرادتَك، وصِرتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧١).

آلةً في يدِ غيرِك؛ فقد ترى الخيرَ وتُدْعى إليه فيَصرِفُك عنه، وقد ترى الشرَّ وتَحذَرَ منه فيُوقِعُك فيه!

وهَبْ هذا الخليلَ كان مخلِصًا لك، وحَدِبًا عليك؛ فإنَّه غيرُ معصومٍ مِن الخطأِ والضَّلالِ، أمَّا إذا كان شرِّيرًا مفسِدًا فهنالِكَ الهلاكُ المحقَّقُ، والوَبالُ الشَّديدُ، وقد ذكَرَ لنا اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما كان مِن سوءِ مثالِ الظالمِ بسببِ انقيادِه لخليلِه، واتِّباعِه له مِن غيرِ رويَّةٍ وصِدقِ تمييزٍ؛ تحذيرٌ مِن سلطانِ الخُلَّةِ الذي يُهمَلُ معه شأنُ الإرادةِ والتمييزِ، وتعليمٌ أنَّ علينا أنْ نحافظَ على إرادتِنا وتمييزِنا ونظرِنا لأنْفُسِنا مع الصَّديقِ والعدوِّ، ومع الخليلِ وغيرِ الخليلِ، بل نحافظُ عليها مع الخليلِ أكثرَ؛ لأنَّه مظِنَّةُ الخَوفِ بما له مِن المكانةِ في القلبِ، والسُّلطانِ على النَّفْسِ[(١)].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ فكلُّ مَن خرَجَ عن اتِّباعِ الرَّسولِ فهو ظالمٌ بحَسَبِ ذلك، والمُبتدِعُ ظالمٌ بقَدْرِ ما خالف مِن سُنَّتِه[(٢)].

٧- التقليدُ المُحَرَّمُ بالنصِّ والإجماعِ: هو أنْ يُعارِضَ قولَ اللهِ ورسولِه بما يُخالِفُ ذلك، كائنًا مَن كان المخالِفُ لذلك؛ قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا * وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[(٣)].

٨- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٢).

سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ لا ريبَ أنَّ هذا يتناوَلُ الكافِرَ الذي لم يؤمِنْ بالرَّسولِ؛ فإنَّ «الظلمَ المُطلَقَ» يتناوَلُ ذلك ويتناوَلُ ما دونَه بحسَبِه. فمَن خالَّ مخلوقًا في خِلافِ أمرِ اللهِ ورسولِه، كان له مِن هذا الوعيدِ نَصيبٌ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(١) [الزخرف: ٦٧].

٩- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ فكلُّ مَنِ اتَّخَذَ غيرَ الرَّسولِ، يَتركُ لأقوالِه وآرائِه ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه قائلٌ هذه المقالةَ لا محالةَ؛ فهذا حالُ الخَليلينِ المتخالَّينِ على خِلافِ طاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومآلُ تلك الخُلَّةِ إلى العَداوةِ واللَّعنةِ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقد ذُكِرَ حالُ هؤلاء الأتْباعِ وحالُ مَن تَبِعوهم في غيرِ مَوضِعٍ مِن كتابِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. تمنَّى القَومُ طاعةَ اللهِ ورَسولِه حين لا ينفَعُهم ذلك، واعتَذَروا بأنَّهم أطاعوا كُبراءَهم ورُؤساءَهم، واعترَفوا بأنَّهم لا عُذرَ لهم في ذلك، وأنَّهم أطاعوا السَّاداتِ والكُبَراءَ، وعَصَوُا الرَّسولَ، وآلت تلك الطَّاعةُ والموالاةُ إلى قَولِهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وفي بَعضِ هذا عِبرةٌ للعاقِلِ ومَوعِظةٌ شافيةٌ(٢).

١٠- التَّحذيرُ مِن الظُّلْمِ الذي يُصَدُّ به الإنسانُ عن دينِ اللهِ، أو التَّحذيرُ مِن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٥).

الظُّلمِ الذي يُوقِعُ الإنسانَ في مُخالَفةِ الرُّسُلِ؛ لقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾؛ لأنَّ الغرضَ مِن ذلك التَّحذيرِ ليس مجرَّدَ القِصَّةِ، بلِ الغرضُ أن يَحذَرَ الإنسانُ مِن هذا الأمرِ الذي يكونُ مآلُ صاحبِه إلى هذا الحالِ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ شأنَ الخُلَّةِ الثِّقةُ بالخَليلِ، وحملُ مَشورتِه على النُّصحِ؛ فلا ينبغي أن يَضَعَ المرءُ خُلَّتَه إلَّا حيثُ يُوقِنُ بالسَّلامةِ مِن إشاراتِ السُّوءِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾(٢) [آل عمران: ١١٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ دَليلٌ على مجيءِ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ -مع أنَّه ليس في الآيةِ ذِكرُ المجيءِ-؛ وذلك لأنَّ تشَقُّقَ السَّماءِ بالغَمامِ وتنزيلَ الملائكةِ إنَّما يكونانِ عندَ مجيءِ اللهِ للقَضاءِ بيْن عبادِه، فيكونُ مِن بابِ الاستِدلالِ بأحَدِ الأمْرَينِ على الآخَرِ؛ لِمَا بيْنَهما مِن التلازُمِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فيه أنَّ الملائكةَ في السَّماءِ(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ لم يقُلْ: «للهِ»؛ إشارةً إلى كثرةِ رحمةِ اللهِ في ذلك اليومِ(٥).

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ فلا يبقى لأحدٍ مِن المخلوقين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).

مُلكٌ ولا صورةُ مُلكٍ، كما كانوا في الدُّنيا، بل قد تساوت الملوكُ ورعاياهم، والأحرارُ والعبيدُ، والأشرافُ وغَيرُهم. وممَّا يرتاحُ له القَلبُ، وتطمئِنُّ به النَّفسُ، ويَنشرِحُ له الصدرُ: أنْ أضاف المُلْكَ في يومِ القيامةِ لاسمِه «الرَّحمنِ» الذي وَسِعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وعَمَّتْ كلَّ حيٍّ، وملأتِ الكائناتِ، وعمَرتْ بها الدُّنيا والآخرةُ، وتمَّ بها كلُّ ناقِصٍ، وزال بها كلُّ نَقصٍ، وغلبتِ الأسماءُ الدالَّةُ عليه الأسماءَ الدالَّةَ على الغَضَبِ، وسبقتْ رحمتُه غضَبَه وغلَبَتْه، فلها السَّبْقُ والغَلَبةُ، وخَلَقَ هذا الآدميَّ الضعيفَ وشَرَّفَه وكَرَّمَه؛ لِيُتِمَّ عليه نِعمَتَه، وليتغمَّدَه برَحمتِه، وقد حضروا في موقِفِ الذُّلِّ والخُضوعِ والاستِكانةِ بيْنَ يدَيه ينتَظِرونَ ما يَحكُمُ فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحَمُ بهم مِن أنفُسِهم ووالِدِيهم، فما ظَنُّك بما يُعامِلُهم به؟! ولا يَهلِكُ على اللهِ إلَّا هالِكٌ، ولا يَخرُجُ مِن رحمتِه إلَّا مَن غلَبَتْ عليه الشَّقاوةُ، وحَقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ دليلٌ على أنَّه على المؤمنين يَسيرٌ، وهي بِشارةٌ لهم؛ إذ مُحالٌ أن يَخُصَّ الكفَّارَ بصِفةِ عقوبةٍ لهم إلَّا والمؤمِنونَ بضِدِّ تلكَ الصِّفةِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ دَليلٌ على اختِلافِ النَّاسِ في ذلك الموقِفِ؛ وأنَّ يُسْرَ ذلك اليومِ وعُسرَه بحسَبِ حالِ الإنسانِ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أشَدَّ إيمانًا وأشدَّ تقوى للهِ عزَّ وجلَّ، كان ذلك اليومُ أيسَرَ له، وكلَّما كان الإنسانُ أعتى وأكفَرَ كان أشَدَّ وأعظَمَ، والقاعدةُ: أنَّه إذا عُلِّق الحُكمُ على وصفٍ، كان أثَرُ ذلك الحُكمِ بحسَبِ ذلك الوَصفِ، يعني: أنَّ تأثيرَ الوَصفِ في الحُكمِ بحَسَبِ الوصفِ، فإذا كان العُسرُ معلَّقًا بالكُفرِ، فكلَّما كان

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٧).

الكفرُ أشَدَّ كان العُسرُ أشَدَّ، وإذا عُلِّق اليُسرُ بالإيمانِ، صار كلَّما كان الإيمانُ أقوى كان اليُسرُ أقوى(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ أنَّ عمومَ الظَّالِمين في يوم القيامةِ يُؤمِنونَ بالحقِّ؛ لِقَولِه: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾، فأقَرَّ بأنَّ الذِّكرَ قد جاءه، وأقَرَّ بأنَّ ما جاءه ذِكرٌ يَتذكَّرُ به المرءُ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ [الفرقان: ٢٢]، والمقصودُ: تأييسُهم مِنَ الانتِفاعِ بأعمالِهم وبآلهتِهم، وتأكيدُ وعيدِهم. وأدمَج في ذلك وَصْفَ بَعضِ شُؤونِ ذلك اليَومِ، وأنَّه يَومُ تَنزيلِ الملائكةِ بمَرْأى مِنَ النَّاسِ(٣).

- قَولُه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ فيه إعادةُ لَفظِ (يوم) على طريقةِ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ وإنْ كان ذلك يَومًا واحدًا؛ لِبُعْدِ ما بيْن المُعادِ ومكانِ الضَّميرِ(٤).

- قَولُه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ لَمَّا كان انشِقاقُ السَّماءِ بسَببِ طُلوعِ الغَمامِ منها، جعَلَ الغَمامَ كأنَّه الَّذي تَشقَّقَ به السَّماءُ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ [المزمل: ١٨]. وقيل: الباءُ باءُ الحالِ، أي: مُتغيِّمةً(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

- قَولُه: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فيه تأكيدُ الفِعلِ (نُزِّلَ) بالمفعولِ المطْلَقِ ﴿تَنزِيلًا﴾؛ لإفادةِ أنَّه نزولٌ بالذَّاتِ[1]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الملائكةَ يَنزِلونَ شَيئًا فشَيئًا، لا يَنزِلون جُملةً[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ هو صَدْرُ الجُملةِ المعطوفةِ؛ فيَتعلَّقُ به ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾، وإنَّما قُدِّم عليه للاهتِمامِ به؛ لإثارةِ الطَّمعِ، وللتَّشويقِ إلى تَعيينِ إبَّانِه حتَّى إذا وردَ ما فيه خَيبةُ طَمَعِهم كان له وقْعُ الكآبةِ على نفوسِهم حينما يَسمَعونه. وتَكريرُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتَّأكيدِ والتَّهويلِ[3].

- وفائدةُ التَّقييدِ بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في قولِه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: أنَّ ثبوتَ المُلكِ المذكورِ له تعالى خاصَّةً يومَئِذٍ، وأمَّا فيما عَداهُ مِن أيَّامِ الدُّنيا فيكونُ لِغَيرِه أيضًا تصرُّفٌ صُوريٌّ في الجُملةِ[4]، ففي ذلك اليوم لا مالكَ سِواهُ -لا في الصورةِ ولا في المعنى- فتخضَعُ له الملوكُ، وتَعْنُو له الوجوهُ، وتَذِلُّ له الجبابرةُ، بخلافِ سائرِ الأيَّامِ[5]. وإيرادُه تعالى بعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ اتِّصافَه تعالى بغايةِ الرَّحمةِ لا يُهوِّنُ الخَطْبَ على الكَفَرةِ؛ لعَدمِ استِحقاقِهم للرَّحمةِ[6].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ اعتِراضٌ تَذْيِيليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لمراعاةِ الفَواصلِ(١). وقيل: تقديمُ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للحَصْرِ والقَصرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: دُونَ المؤمنينَ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عَضُّ اليدَينِ والأناملِ كِنايةٌ عنِ الغَيظِ والحَسرةِ؛ لأنَّها مِن رَوادِفِها، فيَذكُرُ الرَّادفةَ ويدُلُّ بها على المَردوفِ، فيَرتفِعُ الكلامُ به في طَبقةِ الفَصاحةِ، ويَجِدُ السَّامعُ عِندَه في نفْسِه مِنَ الرَّوعةِ والاستِحسانِ ما لا يَجِدُه عِندَ لفظِ المُكنَى عنه؛ فشأنُ مَن وقَع في غَيظٍ وحَسرةٍ ونَدامةٍ أنْ يَعَضَّ يَديهِ، ويأكُلَ بَنانَه كأنَّه لَمَّا لم يجِدْ شيئًا يُطفِئُ فيه غيظَه، رَجَع على نفْسِه بذلك؛ فلذا يُكنَى به عنها؛ مِن إطلاقِ اللازمِ وإرادةِ الملزومِ، وذلك لا يَمنَعُ مِن وجودِ العَضِّ منه حقيقةً، بل وقوعُ ذلك هو الشأنُ الغالبُ(٣).

- والعَضُّ: الشَّدُّ بالأسنانِ على الشَّيءِ؛ لِيُؤْلِمَه أو لِيُمْسِكَه، وحقُّه التَّعديةُ بنفْسِه -فيُقال: عَضَّ يَديهِ-، إلَّا أنَّه كثُرَتْ تَعديتُه بـ (على)؛ لإفادةِ التَّمكُّنِ مِنَ المَعضوضِ إذا قصَدوا عضًّا شديدًا، كما في هذه الآيةِ(٤).

- واللَّامُ في ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يَجوزُ أن تكونَ للعهدِ، ويَجوزُ أن تكونَ للجِنسِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣، ٢١٤).

- قَولُه: ﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿يَـٰلَيْتَنِى﴾ نداءٌ للكلامِ الدَّالِّ على التَّمنِّي، وهذا النِّداءُ يَزيدُ المُتمنَّى استِبعادًا[١]؛ نادَى ويْلَته -أي: هلَكَته- لِتَحضُرَ في ذلك الوقتِ؛ لأنَّه وقْتُها، وليس نِداؤُها رَغبةً في حُضورِها؛ فالهلاكُ لا يُرغَبُ فيه، وإنَّما نادى الهلاكَ لِيَحضُرَ؛ لِمَا حصَلَ له مِن اليأْسِ والقنوطِ مِن أسبابِ النَّجاةِ، فلمْ يَبْقَ له إلَّا الهلاكُ[٢].

- وجملةُ ﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ حاليَّةٌ؛ فهو يعَضُّ حالةَ كونِه قائلًا: يا لَيْتني، فبيَّنَتْ هذه الجُملةُ ما يقولُ، كما بيَّنَت الَّتي قبْلَها ما يَعمَلُ، فصَوَّرتاهُ في حالِه الشَّنيعِ الفظيعِ[٣].

- وإنَّما عَدَلَ عنِ الإتيانِ بفِعلِ الاتِّباعِ ونَحوِه بأنْ يُقالَ: (يا لَيْتَني اتَّبعْتُ الرَّسولَ)، إلى هذا التَّركيبِ ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ الذي فيه إطْنابٌ؛ لأنَّ في هذا التَّركيبِ تَمثيلَ هَيئةِ الاقتِداءِ بهَيئةِ مُسايرةِ الدَّليلِ تمثيلًا مُحتويًا على تَشبيهِ دَعوةِ الرَّسولِ بالسَّبيلِ، ومُتضمِّنًا تَشبيهَ ما يَحصُلُ عن سُلوكِ ذلك السَّبيلِ مِنَ النَّجاةِ ببُلوغِ السَّائرِ إلى المَوضعِ المقصودِ؛ فكان حُصولُ هذه المعاني صائرًا بالإطنابِ إلى إيجازٍ، وأمَّا لفْظُ المتابعةِ فقد شاع إطلاقُه على الاقتِداءِ، فهو غيرُ مُشعِرٍ بهذا التَّمثيلِ[٤].

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿سَبِيلًا﴾ للإفرادِ، أي: سبيلًا واحدًا لا تعدُّدَ فيه، بخِلافِ ما كان عليه الظَّالمُ مِن سُبُلِ أهوائِه المُتعدِّدةِ المُتشعِّبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

٤ - قَولُه تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ تَحسُّرٌ بطريقِ نِداءِ الوَيلِ، والألِفُ عِوَضٌ عن ياءِ المتكلِّم، وهو تَعويضٌ مشهورٌ في نِداءِ المضافِ إلى ياءِ المُتكلِّم[١]. وهذا التَّمنِّي منه وإنْ كان مَسوقًا لإبرازِ النَّدمِ والحَسرةِ، لكنَّه مُتضمِّنٌ لنَوعِ تَعلُّلٍ واعتِذارٍ بإسنادِ جِنايتِه إلى الغَيرِ[٢].

- وكلمةُ (فُلان) كِنايةٌ عن الأعلامِ؛ فإنْ أُريدَ بـ ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ عُقْبةُ -أي: ابنُ أبي مُعَيطٍ-؛ فمعنى قولِه: ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾: لَيْتَني لمْ أتَّخِذْ أُبَيًّا -أي: ابنَ خَلَفٍ- خَليلًا؛ فكَنَى عنِ اسمِه. وإنْ أُريدَ به الجِنسُ، فكلُّ مَنِ اتَّخَذ مِنَ المُضلِّينَ خليلًا كان لخَليلِه اسمٌ عَلَمٌ لا مَحالةَ، فجَعَله كِنايةً عنه؛ فعلى هذا الجملةُ مُعترِضةٌ مُذيِّلةٌ، وعلى التَّعيينِ يَجوزُ أن يكونَ حالًا[٣]. وقيل: (فُلانٌ) كِنايةٌ عنِ الشَّيطانِ[٤]. والدَّاعي إلى الكِنايةِ بـ (فُلانٍ) إمَّا قصْدُ إخفاءِ اسمِه خِيفةً عليه، أو خِيفةً مِن أهْلِهم، أو للجَهلِ به، أو لعدَمِ الفائدةِ لذِكْرِه، أو لقصْدِ نَوعِ مَن له اسمٌ عَلَمٌ. وهذانِ الأخيرانِ هُمَا اللَّذانِ يَجْريانِ في هذه الآيةِ إنْ حُمِلَتْ على إرادةِ خُصوصِ عُقْبةَ وأُبَيٍّ، أو حُمِلَتْ على إرادةِ كلِّ مُشرِكٍ له خَليلٌ صَدَّه عنِ اتِّباعِ الإسلامِ. وإنَّما تَمنَّى ألَّا يكونَ اتَّخذَه خليلًا دُونَ تَمنِّي أن يكونَ عَصاهُ فيما سَوَّلَ له؛ قصْدًا للاشمِئْزازِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١، ١٠٢).

خُلَّتِه مِن أصْلِها، إذْ كان الإضلالُ مِن أحوالِها[١].

- وقيل: كَنَى (بفلانٍ)؛ لأنَّ لكلِّ ظالمٍ خليلًا له اسْمُه الخاصُّ؛ فلا يُمكِنُ التَّصريحُ بأسماءِ الجميعِ، فما بقِيَ إلَّا الكِنايةُ عنها بفُلانٍ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ تعليلٌ لتمنِّيه ألَّا يكونَ اتَّخذ فُلانًا خَليلًا بأنَّه قد صَدَر عن خُلَّتِه أعظَمُ خُسرانٍ لخليلِه؛ إذْ أَضَلَّه عنِ الحقِّ بعْدَ أن كاد يَتمكَّنُ منه[٣]، وتَصديرُه باللَّامِ القسَميَّةِ؛ للمُبالَغةِ في بيانِ خَطئِه، وإظهارِ ندَمِه وحَسْرتِه[٤].

- وجملةُ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ بيانٌ لسببِ تَمنِّيه السابِقِ[٥].

- وقولُه: ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرْفٌ للزَّمنِ الماضي، أي: بعْدَ وقْتٍ جاءَني فيه الذِّكرُ، والإتيانُ بالظَّرفِ هنا دُونَ أن يُقالَ: (بعدَ ما جاءَني)، أو (بعدَ أنْ جاءَني)؛ للإشارةِ إلى شدَّةِ التَّمكُّنِ مِنَ الذِّكرِ؛ لأنَّه قد استَقرَّ في زمنٍ وتحقَّقَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥]، أي: تَمكَّنَ هَدْيُه منهم[٦].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ اعتِراضٌ مقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه؛ إمَّا مِن جهتِه تعالى، أو مِن تمامِ كلامِ الظَّالمِ، على أنَّه سَمَّى خليلَه شيطانًا بعْدَ وصْفِه بالإضلالِ الَّذي هو أخَصُّ الأوصافِ الشَّيطانيَّةِ؛ لأنَّه أضَلَّه كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦).

يُضِلُّ الشَّيطانُ، ثمَّ خَذَله ولمْ يَنفَعْه في العاقبةِ، أو على أنَّه أرادَ بالشَّيطانِ إبليسَ؛ لأنَّه الَّذي حمَلَه على مُخالَّةِ المُضلِّينَ، ومُخالَفةِ الرَّسولِ الهادي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بوَسوَستِه وإغوائِه، ثمَّ خذَلَه. أو أرادَ الجِنسَ، وكلَّ مَن تَشَيْطَنَ مِنَ الجنِّ والإنسِ. لكنْ وصْفُه بالخِذلانِ يُشعِرُ بأنَّه كان يَعِدُه في الدُّنيا ويُمَنِّيه بأنْ يَنفَعَه في الآخِرةِ، وهو أَوْفَقُ بحالِ إبليسَ(١).

- وقيل: هو تَذْييلٌ مِن كلامِ اللهِ تعالى لا مِن كلامِ الظَّالمِ؛ تَنبيهًا للنَّاسِ على أنَّ كلَّ هذا الإضلالِ مِن عمَلِ الشَّيطانِ، فهو الَّذي يُسَوِّلُ لخَليلِ الظَّالمِ إضلالَ خَليلِه؛ لأنَّ الشَّيطانَ خَذولُ الإنسانِ، أي: مَجْبولٌ على شدَّةِ خَذْلِه... والخَذْلُ: ترْكُ نصْرِ المُستنجِدِ مع القدرةِ على نصْرِه، فإذا أعانَ على الهزيمةِ فهو أشدُّ الخَذْلِ، وهو المقصودُ مِن صيغةِ المُبالَغةِ في وصْفِ الشَّيطانِ بخَذْلِ الإنسانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَكيدُ الإنسانَ فيُورِّطُه في الضُّرِّ، فهو خَذولٌ(٢).

- وقيل: (أل) في (الشَّيْطَان) و(الإِنْسَانِ) للجِنسِ؛ فيَدخُلُ في جِنسِ الشَّيطانِ خليلُ الظَّالمِ الَّذي صدَّه عن الذِّكرِ، وقرينُ خَليلِه مِن الجنِّ الَّذي سوَّل له ذلك وأعانَه، وقرينُه هو الَّذي زيَّنَه له ودعاهُ إليه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦، ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

الآيات (٣٠-٣٤)

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ
نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ
ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا
جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ
شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهْجُورًا﴾: أي: مَتروكًا، والهَجرُ والهِجْرانُ: مُفارقةُ الإنسانِ غَيرَه، وأصلُ (هجر) هنا: يدُلُّ على قَطيعةٍ وقَطْعٍ(١).

﴿جُمْلَةً﴾: أي: دَفعةً، مجتمِعًا، في وقتٍ واحدٍ، لا كما أُنزِل نُجومًا مُتَفرِّقةً، ويُقالُ لكلِّ جماعةٍ غيرِ منفصلةٍ: جُمْلَةٌ، وأصلُ (جمل) هنا: تجمُّعٌ(٢).

﴿تَفْسِيرًا﴾: أي: بَيانًا، وأصلُ (فسر): يدُلُّ على بيانِ شَيءٍ وإيضاحِه(٣).

﴿يُحْشَرُونَ﴾: أي: يُجمعونَ، والحشرُ: الجمعُ معَ سَوقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ، ويُطلَقُ أيضًا على البعثِ والانبعاثِ، أو الجمعِ بكثرةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقال الرَّسولُ لرَبِّه جَلَّ وعلا، مُشتَكيًا في الدُّنيا: يا رَبِّ، إنَّ الكُفَّارَ مِن قَومي تركوا هذا القُرآنَ وأعرَضوا عنه فلا يُؤمِنون به، ولا يَعمَلون بأحكامِه.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ نبيٍّ مِن الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم؛ فاصبِرْ كما صَبَروا، وكفى برَبِّك -يا محمَّدُ- هاديًا وناصِرًا لك على أعدائِك.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أيضًا بعضَ شبهاتِ المشركين، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ: هلَّا نزَّل اللهُ عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ دَفعةً واحِدةً لا مُفَرَّقًا؟ ويرُدُّ عليهم سبحانَه فيقولُ: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفَرَّقًا؛ لنقَوِّيَ به قَلبَك، وتزدادَ ثَباتًا ويَقينًا، وجعَلْنا بَعضَه يَنزِلُ في إثْرِ بَعضٍ على تُؤَدةٍ وتمَهُّلٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا.

ولا يأتيك هؤلاء المُشرِكون بمَثَلٍ مِن الأمثالِ التي مِن جُملتِها اقتِراحاتُهم القبيحةُ، يُريدونَ به القَدْحَ في نبوَّتِك، إلَّا جِئْناك في مُقابَلتِه بالجوابِ الحَقِّ الثابتِ الذي يُبطِلُ شُبهَتَهم بأحسَنَ ممَّا جاؤوا به كَشفًا وبَيانًا.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى سوءَ مصيرِهم، فيقولُ: الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ مَسحوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ أولئك شَرٌّ مَنزِلًا ومَكانًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أكثَرَ الكُفَّارُ مِن الاعتراضاتِ الفاسِدةِ ووجوهِ التعَنُّتِ؛ ضاق صدرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وشكاهم إلى اللهِ تعالى[1].

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: وقال الرَّسولُ مُشتكيًا في الدُّنيا[2] إلى ربِّه: يا رَبِّ، إنَّ كُفَّارَ قَومي تَركوا القُرآنَ العظيمَ وهجَروه؛ لا يَسمَعونه ولا يتدبَّرونَه، ولا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلون بأحكامِه[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٢) ممَّن اختار أنَّه يقولُ ذلك في الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّةَ ونسَبَه للجمهور، والرازيُّ ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والنسفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)،))تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

وممَّن اختار أنَّ هذا القولَ يقولُه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآخرة: ابنُ جريرٍ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، والبغويُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢)، ((الوجيز)) (ص: ٧٧٨) للواحدي، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بهَجرِ القُرآنِ: أنَّهم يَتركونَه، ويُعرِضونَ عنه؛ لا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلونَ بما فيه: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، =

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شكا عليه الصلاةُ والسلامُ قومَه؛ سلَّاه اللهُ تعالى وعزَّاه، وأمرَه بالصَّبرِ

= ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٠).

قال ابنُ كثير: (﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ يقولُ تعالى مُخبِرًا عن رَسولِه ونَبيِّه محمَّدٍ -صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه دائِمًا إلى يوم الدِّينِ- أنَّه قال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾، وذلك أنَّ المُشركينَ كانوا لا يُصغُونَ للقُرآنِ ولا يَسمَعونَه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القُرآنُ أكثَروا اللَّغَطَ والكلامَ في غَيرِه؛ حتى لا يَسمَعوه، فهذا مِن هِجرانِه، وتَرْكُ عِلْمِه وحِفظِه أيضًا: مِن هِجرانِه، وتَركُ الإيمانِ به وتَصديقِه: مِن هِجرانِه، وتَرْكُ تَدَبُّرِه وتَفَهُّمِه: مِن هِجرانِه، وتَركُ العَمَلِ به، وامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ زواجِرِه: مِن هِجرانِه، والعُدولُ عنه إلى غَيرِه؛ مِن شِعرٍ، أو قَولٍ، أو غِناءٍ، أو لَهْوٍ، أو كلامٍ، أو طريقةٍ مأخوذةٍ مِن غَيرِه: مِن هِجرانِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨).

ومِمَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى أنَّهم جَعَلوه كالهَذَيانِ، وما لا يُنتفَعُ به مِن القَولِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والزجَّاجُ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦٦).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[الفرقان: ٣٠] فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّهم هَجَروه بإعراضِهم عنه، فصار مَهجورًا. قاله ابنُ زيد. الثَّاني: أنَّهم قالوا فيه هُجْرًا، أي: قَبيحًا. قاله مجاهِدٌ. الثَّالثُ: أنَّهم جَعَلوه هَجْرًا مِنَ الكلامِ، وهو: ما لا نَفْعَ فيه مِنَ العَبَثِ والهَذَيانِ. قاله ابنُ قُتيبةَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٣).

والثَّباتِ، ووعدَه ورجَّاه[1]، وبيَّنَ أنَّ له أُسوةً بسائرِ الرسُلِ؛ فلْيَصبِرْ على ما يَلْقاهُ مِن قَومِه كما صَبَروا[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم يُعارِضونَهم ويُؤذونَهم؛ فاصبِرْ كما صبَر أولئك الرسُلُ مِن قَبْلِك[3].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه جعَل لكُلِّ نبيٍّ عدوًّا مِن المجرمين، وهؤلاء المجرِمون يحاوِلون القضاءَ على الرِّسالةِ أو النبوَّةِ بواحدٍ مِن أمْرَينِ؛ إمَّا بإضلالِ النَّاسِ وصَدِّهم عمَّا جاءت به الرسُلُ، وإمَّا بقِتالِهم وإهلاكِهم، فيَعتَدُون على النَّاسِ بالقِتالِ- فقال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ في مقابلةِ محاولةِ الإضلالِ، ﴿وَنَصِيرًا﴾ في مُقابلةِ محاولةِ القضاءِ على الأنبياءِ وأُمَمِهم[4].

وأيضًا لَمَّا كان هذا مَوطنًا تتعلَّقُ فيه النفوسُ متشوِّقةً إلى الهدايةِ بعْدَ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٤).

الطَّبعِ، والنُّصرةِ بعْدَ ذلك الجَعْلِ؛ كان كأنَّه قيل: لا تَحزَنْ؛ فلَنَجعلَنَّ لك وَلِيًّا ممَّن نَهْديه للإيمانِ، ولَننصرَنَّهم على عدوِّهم كما فعَلْنا بمَن قبْلَك، بل أعظم(١).

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

أي: وكفى برَبِّك -يا محمَّدُ- هاديًا يَهديك إلى الحَقِّ وإلى مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا، وناصِرًا لك على أعدائِك، يدفَعُ عنك كُلَّ مَكروهٍ في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا؛ فلا تُبالِ بمَن عاداك، واصبِرْ وامضِ لتبليغِ رِسالةِ الله إليهم، متوكِّلًا عليه سبحانه(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه شِكايةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن هِجرانِ قَومِه للقُرآنِ، وقرَّرَ عداوتَهم له، ونُصرتَه عليهم؛ أتبَعَ ذلك بما يدُلُّ عليه، فقال عَطفًا على ما مضَى مِن الأشباهِ في الشُّبَهِ(٣):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٨).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا نزَّل اللهُ على محمَّدٍ القُرآنَ دَفعةً واحِدةً، ولم يُنَزِّلْ مُفرَّقًا[١]؟

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

أي: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفَرَّقًا؛ لنقوِّيَ قَلبَك فتَعِيَه وتحفَظَه، وتَزدادَ يقينًا وطُمأنينةً وثَباتًا[٢].

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

أي: أنزَلْناه مفرَّقًا على تُؤَدةٍ وتَمَهُّلٍ، شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ التَّرتيلَ بمعنى الترسُّلِ، والتَّمكُّثِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، على تؤَدَةٍ وتَمهُّلٍ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والنَّخَعيُّ، والحسن، وابن جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا رَدَّ تعالى اعتراضاتِهم، وأبطَلَ شُبُهاتِهم؛ أخبرَ بأنَّه لا يَزالُ القرآنُ كذلك: يَدمغُ باطلَهم بحقِّه فيُزهِقُه، ويَصدَعُ غشاءَ تَمويهِهم بصادقِ بيانِه فيُمَزِّقُه؛ لِطمأنةِ قلْبِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم وتثبيتِه، والوعدِ له بدوامِ النَّصرِ والتأييدِ(١).

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ولا يَذكُرُ مُشرِكو قُرَيشٍ شُبهةً أو اقتِراحًا يُعارِضون به الحَقَّ ويَطعنونَ به فيه، إلَّا أنزَلْنا مِن القُرآنِ ما يُبطِلُ شُبهَتَهم، ويَرُدُّ حُجَّتَهم بأحسَنَ مِمَّا جاؤوا به؛

= ومِمَّن اختار أنَّ الترتيلَ بمعنى التَّبيينِ: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٩).

وممَّن قال بذلك مِن السلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩).

قال العليمي: (﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾: أنزَلْنا بعضَه في إثرِ بعضٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣).

وقال الثعلبي: (والترتيلُ: التبيينُ في ترسُّلٍ وتثبُّتٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢).

وقال ابن عاشور: (والترتيلُ يوصَفُ به الكلامُ إذا كان حسَنَ التأليفِ، بيِّنَ الدَّلالةِ... والترتيلُ يجوزُ أن يكون حالةً لنزولِ القرآنِ، أي: نزلْناه مفرَّقًا منسَّقًا في ألفاظِه ومعانيه، غيرَ متراكمٍ، فهو مفرَّقٌ في الزمانِ، فإذا كمل إنزالُ سورةٍ جاءت آياتُها مرتَّبةً متناسِبةً، كأنَّها أُنزلت جُملةً واحدةً، ومفرَّقٌ في التأليفِ بأنه مفصَّلٌ واضحٌ... ويجوزُ أن يرادَ بـ «رتلناه»: أمَرْنا بترتيلِه، أي: بقراءتِه مرَتَّلًا، أي: بتمهُّلٍ بألَّا يُعجَّلَ في قراءتِه؛ بأن تُبيَّنَ جميعُ الحروفِ والحركاتِ بمهلٍ، وهو المذكورُ في سورةِ «المزمل» في قولِه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٢).

بيانًا ووضوحًا، وفصاحةً وتفصيلًا[١].

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أبطلَ سبحانه شُبَهَهم؛ بَيَّنَ مآلَهم وجزاءَهم[٢]، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

أي: الذين يُجمَعونَ يومَ القيامةِ قَهرًا يُساقونَ مَقلوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ: أولئك شَرٌّ مُستقَرًّا ومُقامًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ طَريقًا عن الحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

قال ابنُ القيم: (التفسيرُ الأحسَنُ: هو الألفاظُ الدالَّةُ على ذلك الحَقِّ، فهي تفسيرُه وبيانُه... فلا بدَّ مِن أن يكونَ التفسيرُ مُطابقًا للمُفَسَّرِ مُفهِمًا له، وكلَّما كان فَهْمُ المعنى منه أوضَحَ وأبيَنَ، كان التفسيرُ أكمَلَ وأحسَنَ؛ ولهذا لا تجِدُ كلامًا أحسَنَ تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا مِن كلامِ الله سُبحانَه). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

وقال ابن عثيمين: (... فالمرادُ بالمثَلِ هنا الصِّفةُ، يعني: لا يأتونَك بصِفةٍ مِن القَولِ يُريدونَ بها إبطالَ دَعوتِك إلَّا جِئْناك بالحقِّ، إذَنْ فهُم يأتون بباطلٍ؛ لأنَّه قابَلَ قَولَهم بالحَقِّ، فهذا دليلٌ أيضًا على أنَّ كُلَّ شُبهةٍ يحتَجُّ بها المكَذِّبون للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي باطِلٌ، ولكِنَّ هذا الباطِلَ باطِلٌ في ذاتِه؛ قد يظهرُ لبعضِ النَّاسِ بُطلانُه، وقد يَخفى على بعضِ النَّاسِ بُطلانُه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه: هؤلاء المُشركون -يا محمَّدُ- القائلون لك: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ومَن كان على مِثلِ الذي هم عليه من الكُفرِ بالله، الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، فيُساقُونَ إلى جهنَّمَ: شَرٌّ مُستقَرًّا في الدُّنيا والآخرةِ مِن أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأضَلُّ منهم في الدُّنيا طريقًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٨).

عن قَتادةَ، قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِه يَومَ القيامةِ؟ قال: أليس الَّذي أَمْشاهُ على رِجلَيهِ في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وجْهِه يَومَ القيامةِ؟)). قال قَتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ فيه تَلويحٌ بأنَّ مِن حقِّ المؤمنِ أنْ يكونَ كثيرَ التَّعاهُدِ للقُرآنِ؛ كَيْ لا يَندرِجَ تحتَ ظاهِرِ النَّظمِ الكريمِ[2].

٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ شكَا نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ربِّه هَجْرَ قومِه -وهم كفَّارُ قريشٍ- لهذا القرآنِ العظيمِ، أي: تَرْكَهم لتصديقِه والعملِ به، وهذه شكوى عظيمةٌ، وفيها أعظَمُ تخويفٍ لمَن هجَر هذا القرآنَ العظيمَ، فلم يعمَلْ بما فيه مِن الحلالِ والحرامِ والآدابِ والمكارمِ، ولم يعتقِدْ ما فيه مِن العقائدِ، ويَعتبِرْ بما فيه مِن الزَّواجرِ والقصصِ والأمثالِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ابتلاءُ اللهِ سُبحانَه وتعالى للمُؤمِنِ؛ فإنَّه إذا كان الإيمانُ قويًّا فإنه يَصمُدُ أمامَ هذه الشُّبُهاتِ، وأمامَ هذه العَداوةِ، وإذا كان ضعيفًا فإنه يتأثَّرُ، فهذا مِن حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ أنَّ اللهَ يُقيِّضُ للإنسانِ ما يكونُ سببًا للحَيلولةِ بيْنه وبيْن دَعوتِه لِيَبلُوَهُ، قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ يعني: اطمأنَّ بحالِه التي هو عليها، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]: وإنْ أصابَته فِتنةٌ وأمرٌ يَشغَلُه انقلبَ على وَجهِه(١).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذه العداوةُ التي ذكَرَها اللهُ تعالى تكونُ أيضًا لأتْباعِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ هؤلاء عادَوُا الرسُلَ لدُعائِهم للحَقِّ، يعني: ما عادَوُا الرُّسُلَ لأشخاصِهم؛ ولهذا كان الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ قبْلَ البَعثةِ عندَ قريشٍ ليس عدوًّا، بل هم يُسمُّونَه الأمينَ، فما دامتِ العداوةُ مِن أجْلِ الدعوةِ إلى الدِّينِ فسوف تكونُ لكلِّ مَن دعا إلى الدِّينِ؛ لأنَّ الذي يَدعو مثلًا إلى شريعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو يدعو إلى ما دعا إليه النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ، فلا بُدَّ أن يكونَ له أعداءٌ، كما كان للأنبياءِ أعداءٌ؛ وعليه فالواجِبُ على مَن دعا إلى الهُدى وأُوذيَ أن يَصبِرَ، وأن يَتأسَّى بما جرى للرسُلِ مِن قبْلِه، والرسُلُ أعظَمُ منزلةً عندَ اللهِ منه، ومع ذلك مَكَّنَ أعداءَهم ممَّا فعَلوه(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ دَليلٌ على أنَّه يَنبَغي لِمَن أراد حِفظَ شَيءٍ أنْ يَحفَظَ منه قَدْرًا قليلًا، أو شَيئًا بعْدَ شَيءٍ؛ لِيَرسَخَ في قلبِه، ويأمَنَ مِن نسيانِه(٣).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، أيْ: نزَّلْناه مُفرَّقًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن دَلائلِ أنَّه مِن عِندِ اللهِ؛ لأنَّ شأنَ كلامِ النَّاسِ إذا فُرِّقَ تأليفُه على أزمنةٍ مُتباعِدةٍ أنْ يَعتَورَه التَّفكُّكُ وعدَمُ تَشابُهِ الجُمَلِ(٤).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ مِن محاسِنِ هذه الشَّريعةِ المطَهَّرةِ أنَّها نزلت بالتَّدريجِ المناسِبِ، ويُفيدُنا ذلك فائدةً عمليَّةً، وهي أن نقرأَ القرآنَ ونتفهَّمَه حتى تكونَ آياتُه على طَرفِ ألسنتِنا، ومعانيه نُصبَ أعيُنِنا؛ لِنُطبِّقَ آياتِه على أحوالِنا، ونُنزِلَها عليها، كما كانت تَنزِلُ على الأحوالِ والوقائعِ، فإذا حَدَثَ مرَضٌ قلبيٌّ أو اجتِماعيٌّ طلَبْنا دواءَه في القرآنِ، وطبَّقناه عليه، وإذا عَرَضَتْ شُبهةٌ أو ورَدَ اعتِراضٌ؛ طلَبْنا فيه الرَّدَّ والإبطالَ، وإذا نزلَتْ نازلةٌ طلَبْنا فيه حُكمَها، وهكذا نذهَبُ في تطبيقِه وتنزيلِه على الشُّؤونِ والأحوالِ إلى أقصى حَدٍّ يمكِنُنا[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ في تَنَزُّلِ آياتِ القرآنِ على حسَبِ الوقائعِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي للمتكَلِّمِ في العِلمِ -مِن مُحَدِّثٍ ومُعَلِّمٍ- كلَّما حَدَثَ مُوجِبٌ أو حَصَلَ مَوسِمٌ، أن يأتيَ بما يناسِبُ ذلك مِن الآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ، وفيها قدوةٌ صالحةٌ لأئمَّةِ الجُمَعِ وخُطبائِها في توخِّيهم بخُطَبِهم الوقائعَ النازِلةَ، وتطبيقِهم خُطَبَهم على مقتضى الحالِ، وذِكرِ المواعِظِ الموافِقةِ لذلك[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ أنَّه ينبغي أن نقتديَ بالقرآنِ فيما نأتي به مِن كلامٍ في مقامِ الحِجاجِ أو مقامِ الإرشادِ، فلْنَتَوخَّ دائمًا الحقَّ الثابتَ بالبرهانِ أو بالعِيانِ، ولْنُفَسِّرْه أحسَنَ التفسيرِ، ولْنَشرَحْه أكمَلَ الشرحِ، ولْنُقَرِّبْه إلى الأذهانِ غايةَ التقريبِ، وهذا يَستدعي صِحَّةَ الإدراكِ، وجَودةَ الفَهمِ، ومتانةَ العلمِ؛ لِتَصَوُّرِ الحقِّ ومعرفتِه، ويَستدعي حُسْنَ البيانِ، وعلومَ اللسانِ لتصويرِ الحقِّ وتجليتِه والدفاعِ عنه، فللاقتداءِ بالقرآنِ في الإتيانِ بالحقِّ وأحسَنِ بيانٍ علينا أن نُحَصِّلَ هذه كلَّها، ونتدرَّبَ فيها، ونَتمرَّنَ عليها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨١).

حتى نَبلُغَ إلى ما قُدِّرَ لنا منها، هذا ما على أهلِ الدعوةِ والإرشادِ وخدمةِ الإسلامِ والقرآنِ.

فأمَّا ما على عمومِ المسلمينَ مِن هذا الاقتداءِ: فهو دوامُ القصدِ إلى الإتيانِ بالحَقِّ، وبَذْلُ الجُهدِ في التعبيرِ بأحسَنِ لفظٍ وأقرَبِه، ومَن أخلَصَ قَصْدَه في شَيءٍ، وجعَلَه مِن دأبِه؛ أُعينَ -بإذنِ الله تعالى- عليه(١).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يُؤخَذُ منه أنَّ كلَّ ذي باطلٍ نَجِدُ بيانَ باطلِه مِن الوحيِ المُنَزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فما مِن شُبهةٍ إلى يومِنا هذا تَرِدُ إلَّا وفي كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما يَدْحَضُها(٢). وإنَّك إذا تتبَّعْتَ آياتِ القرآنِ وجدْتَها قد أتتْ بالعَددِ الوافرِ مِن شُبَهِ الضَّالين واعتراضاتِهم، ونَقَضَتْها بالحقِّ الواضِحِ، والبيانِ الكاشفِ في أوجَزِ لفظٍ وأقْرَبِه وأبلَغِه، وهذا قِسْمٌ عظيمٌ جليلٌ مِن علومِ القرآنِ، يتحتَّمُ على رجالِ الدَّعوةِ والإرشادِ أن يكونَ لهم به فضلُ عنايةٍ، ومَزيدُ درايةٍ وخبرةٍ، ولا نحسَبُ شُبهةً تَرِدُ على الإسلامِ إلَّا وفي القرآنِ العظيمِ رَدُّها بهذا الوعدِ الصادقِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ؛ فعلينا عندَ وُرودِ كلِّ شُبهةٍ مِن كلِّ ذي ضلالةٍ أن نَفزَعَ إلى آيِ القُرآنِ(٣).

١١- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فيما يذكُرُه الله تعالى من هذا الجزاءِ العادلِ تخويفٌ عظيمٌ لنا مِن سوءِ الأعمالِ التي تؤدِّي إلى سوءِ الجزاءِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ في شكوى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مِن هجرةِ القرآنِ دَليلٌ على أنَّ ذلك من أصعبِ الأمورِ وأبغَضِها لديه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ كَراهةُ هَجْرِ المصحَفِ وعدَمِ تعهُّدِه بالقِراءةِ فيه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ حُجَّةٌ على مَن يَعدِلُ عن القُرآنِ في الاحتِجاجِ به، ويَعيبُ على مَن يدعو إليه(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بيَّنَ أنَّ مَن هَجَرَ القرآنَ فهو مِن أعداءِ الرَّسولِ، وأنَّ هذه العَداوةَ أمرٌ لا بُدَّ منه، ولا مَفَرَّ عنه(٤)، فهؤلاء الذين سمَّاهم اللهُ تعالى أعداءً لنبيِّه، ووَصَفَهم بالإجرامِ: هم أولئك الذين هَجَروا القرآنَ وصَدُّوا عنه؛ فهذا تخويفٌ عظيمٌ ووعيدٌ شديدٌ لكلِّ مَن كان هاجرًا للقرآنِ العظيمِ بوجهٍ مِن وجوهِ الهِجرانِ(٥)!

٥- هَجرُ القرآنِ أنواعٌ:

أحدُها: هَجرُ سَماعِه، والإيمانِ به، والإصغاءِ إليه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٩٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٦).

الثاني: هَجرُ العمَلِ به، والوقوفِ عند حَلالِه وحرامِه، وإنْ قرأه وآمنَ به.

الثالثُ: هَجرُ تحكيمِه والتَّحاكُمِ إليه في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه، واعتقادُ أنَّه لا يفيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتَه لفظيَّةٌ لا تُحَصِّلُ العِلمَ.

الرابعُ: هَجرُ تدبُّرِه وتفَهُّمِه، ومَعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه.

الخامسُ: هَجرُ الاستشفاءِ والتَّداوي به في جميعِ أمراضِ القَلبِ وأدوائِها، فيَطلبُ شفاءَ دائِه مِن غيرِه، ويَهجُرُ التداويَ به، وكلٌّ هذا داخِلٌ في قَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾، وإنْ كان بعضُ الهَجرِ أهْوَنَ مِن بعضٍ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ في حكايةِ الله تعالى لهذه الشكوى وعيدٌ كبيرٌ للهاجرينَ بإنزالِ العقابِ بهم؛ إجابةً لشكوى نبيِّه، ولَمَّا كان الهجرُ طبقاتٍ أعلاها عدَمُ الإيمانِ به، فلكلٍّ هاجرٍ حظُّه مِن هذه الشكوى وهذا الوعيدِ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أنَّ الحقَّ يَتبيَّنُ بضِدِّه؛ لأنَّ اللهَ جَعَل عدوًّا مِن المجرمين يُنابِذُ الدَّعوةَ، فمِنَ الحكمةِ في ذلك أنْ تَتبيَّنَ الدعوةُ؛ لأنَّه إذا لم يكنْ لها مُعارِضٌ ما تَبيَّنَتْ، لكنْ إذا كان لها مُعارِضٌ وكلَّما أُتِيَ بشُبهةٍ رُدَّ عليها، صار ذلك أبيَنَ وأوضَحَ(٣)، فمُعارَضةُ الباطلِ للحَقِّ ممَّا تَزيدُه وضوحًا وبيانًا وكمالَ استِدلالٍ، وبها يَتبيَّنَ ما يفعَلُ اللهُ بأهلِ الحقِّ مِن الكرامةِ، وبأهلِ الباطلِ مِن العُقوبةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ كَوْنَ اللهِ يُسلِّي الرَّسولَ بما وقَعَ لغَيرِه، هذا دليلٌ على العنايةِ به. وكونُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يحتاجُ إلى تلك التسليةِ يدُلُّ على أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ، يَنتابُه ما ينتابُ البشَرَ مِن الحُزنِ والأَسَى، فيَحتاجُ إلى التسليةِ، وإذا كان الرسولُ يحتاجُ إلى ذلك فمَن دونَه مِن بابِ أَولى؛ فالنَّظرُ إلى ما أصاب الغيرَ يُهَوِّنُ على النفْسِ ما يُصيبُها، وهو مِن مقتضياتِ الطبيعةِ البشريَّةِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقدَريَّةِ[٢]، وردٌّ على زعمِهم أنَّ خالقَ الشرِّ غيرُه، تعالى شأنُه[٣]! ففي الآية حجَّةٌ على أنَّه تعالى خَلَقَ الخيرَ والشَّرَّ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ يدُلُّ على أنَّ تلك العداوةَ مِن جَعْلِ اللهِ؛ ولا شكَّ أنَّ تلك العداوةَ كفرٌ[٤].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وحمْلٌ له على الاقتِداءِ بمَن قَبْلَه مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلامُ[٥].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه تنبيهٌ للمُشركين؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

ليَعرِضوا أحوالَهم على هذا الحُكمِ التَّاريخيِّ؛ فيَعلَموا أنَّ حالَهم كحالِ مَن كَذَّبوا مِن قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أنَّه قد وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه -بعْدَما أمَرَه بالتأسِّي والصَّبرِ-، بالهدايةِ والنَّصرِ؛ ففي هذا بِشارةٌ للدُّعاةِ مِن أُمَّتِه مِن بعْدِه، السَّائرينَ في الدَّعوةِ بالقرآنِ وإلى القرآنِ على نهْجِه: أن يَهديَهم ويَنصُرَهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] معهم بالفضلِ والنَّصرِ والتأييدِ، وهذا عامٌّ للمجاهِدِينَ المُحسنينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ دليلٌ على أنَّ الأخذَ بالأسبابِ لا يؤثِّرُ في توكُّلِ المتوكِّلِينَ، كما يزعُمُ جهَلةُ المتصوِّفةِ أنَّ طَلَبَ المكاسِبِ مُؤثِّرٌ في التوكُّلِ! ألَا يَعلمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه كان قادِرًا على تثبيتِ القُرآنِ جملةً واحدةً في قلْبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟! ولكنَّه لَمَّا جَعَل سببَه الحِفظَ بصِفةٍ أجراه عليها[(٣)].

١٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ لأنَّ «اللامَ» للتَّعليلِ، والتَّعليلُ معناه الحِكمةُ؛ ففيه رَدٌّ على طائفةٍ مِن طوائفِ البدعِ، يَرَونَ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانه وتعالى غيرُ مُعَلَّلةٍ، وأنَّه عزَّ وجلَّ يخلُقُ الخَلقَ ويُشَرِّعُ الشَّرائعَ لمجرَّدِ المشيئةِ لا لحِكمةٍ! فهذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧، ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٩).

الآياتُ تُفيدُ بيانَ الحِكمةِ مِن إنزالِ القُرآنِ مُفَرَّقًا، وأنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مُعَلَّلةٌ مَقرونةٌ بالحِكمةِ، لكنَّ هذه الحِكمةَ التي تكونُ لأفعالِ اللهِ عزَّ وجلَّ -سواءٌ كانت شرعيَّةً أو غيرَ شرعيَّةٍ- منها ما هو معلومٌ، ومنها ما هو مَجهولٌ لنا، ولكنَّها معلومةٌ عندَ اللهِ تعالى(١).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ دَلالةٌ على اعتِناءِ اللهِ بكِتابِه القُرآنِ وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ جَعَلَ إنزالَ كتابِه جاريًا على أحوالِ الرَّسولِ ومَصالحِه الدِّينيَّةِ(٢). وقولُه: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ كلمةٌ جامعةٌ؛ لأنَّ تَثبيتَ الفؤادِ يَقتَضي كلَّ ما به خَيرٌ للنَّفْسِ(٣).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أنَّه لَمَّا كان البلاءُ والعَناءُ في سبيلِ التبليغِ متكَرِّرًا متجدِّدًا، كان مُحتاجًا إلى تجديدِ تقويةِ قلبِه، وكان ذلك مُقتضيًا لتفريقِ نزولِ الآيِ عليه(٤).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ بيانُ حكمتينِ في إنزالِه مفرَّقًا:

الحكمةُ الأُولى: تثبيتُ قلبِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

الحكمةُ الثانيةُ: تفريقُه مرتَّبًا على الوقائعِ.

وكان في تَينِك الحكمتينِ مَزيَّتانِ عظيمتانِ للقرآنِ العظيمِ على غيرِه مِن كُتُبِ اللهِ تعالى، فكان ما اعتَرَضوا به على أنَّه نقصٌ فيه عنها: هو كمالٌ له عليها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٨- كانتِ الوقائعُ تقعُ، والحوادثُ تَحدُثُ، والشُّبَهُ تَعرِضُ، والاعتراضاتُ تَرِدُ؛ فكانتِ الآياتُ تَنزِلُ بما تتطلَّبُه تلك الوقائعُ مِن بيانٍ، وما تقتضيه تلك الحوادثُ مِن أحكامٍ، وما تَستدعيه تلك الشُّبَهُ مِن رَدٍّ، وتلك الاعتراضاتُ مِن إبطالٍ وغيرِه مِن مقتضياتِ نزولِ الآياتِ المعروفةِ بـ «أسبابِ النزولِ»، وفي بيانِ الواقعةِ عندَ وقوعِها، وذِكْرِ حُكْمِ الحادثةِ عندَ حدوثِها، ورَدِّ الشبهةِ عندَ عُروضِها، وإبطالِ الاعتراضِ عندَ ورودِه: ما فيه مِن تأثيرٍ في النفوسِ، ووَقْعٍ في القلوبِ، ورسوخٍ في العقولِ، وجلاءٍ في البيانِ، وبلاغةٍ في التطبيقِ، واستيلاءٍ على السامعِينَ، وما كان هذا كلُّه لِيأتيَ لولا تفريقُ الآياتِ في التنزيلِ، وترتيلُها وتنضيدُها هذا الترتيلَ العجيبَ، وهذا التنضيدَ الغريبَ؛ الذي بَلَغَ الغايةَ مِن الحُسْنِ والمنفعةِ، حتى إنَّه لَيَصِحُّ أن يُعَدَّ وحْدَه وجهًا مِن وجوهِ الإعجازِ، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ردٌّ على المتكلِّفِينَ مِن الجَهْميَّةِ ونَحوِهم، ممَّن يرى أنَّ كثيرًا مِن نُصوصِ القرآنِ محمولةٌ على غيرِ ظاهرِها، ولها مَعانٍ غيرُ ما يُفهَمُ منها؛ فإذَن -على قولِهم- لا يكونُ القُرآنُ أحسَنَ تفسيرًا مِن غيرِه، وإنما التَّفسيرُ الأحسَنُ -على زَعمِهم- تَفسيرُهم الذي حَرَّفوا له المعانيَ تَحريفًا[2]!

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ فمُخالفو الرسُلِ -ومنهم مُخالِفو ما جاء به الكِتابُ والسُّنَّةُ- لا يأتون بقِياسٍ يَرُدُّون به بعضَ ما جاءتْ به الرسُلُ، فيكونُ قياسًا أقاموا به باطلًا، إلَّا جاء اللهُ -فيما بَعَثَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

به الرسُلَ- بالحَقِّ، وبقياسٍ أحسَنَ تَفسيرًا، وكشفًا وإيضَاحا للحَقِّ(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أنَّ هؤلاء رفعوا وجوهَهم في الدنيا عنِ السجودِ للهِ، فأذلَّ اللهُ تلك الوجوهَ فمَشَوا عليها في المحشَرِ، ورفعوا رؤوسَهم كِبْرًا عن الحقِّ، فنكسَها اللهُ يومَ القيامةِ، ومَشَوا في طريقِ النظرِ والاستدلالِ مَشيًا مقلوبًا، فمشوا في الآخرةِ مَشيًا مقلوبًا؛ فكان ما نالَهم مِن سوءِ تلك الحالِ جزاءً وِفاقًا لِمَا أَتوا مِن قُبحِ الأعمالِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾(٢) [فصلت: ٤٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ عطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، مَسوقٌ لاستِعظامِ ما قالُوه، وبيانِ ما يَحِيقُ بهم في الآخرةِ مِنَ الأهوالِ والخُطوبِ. وإيرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُنوانِ الرِّسالةِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لتَحقيقِ الحقِّ، والرَّدِّ على نُحورِهم؛ حيثُ كان ما حُكِيَ عنهم قدْحًا في رسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

- وفي قولِه: ﴿يَٰرَبِّ﴾ إظهارٌ لعَظيمِ الْتِجائِه، وشِدَّةِ اعتِمادِه، وتَمامِ تَفويضِه لمالكِه، ومُدبِّرِ أمْرِه، ومُوالي الإنعامِ عليه(٤).

- وفي هذه الحِكايةِ ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ تَعظيمٌ للشِّكايةِ، وتَخويفٌ وتَحذيرٌ لقَومِه؛ لأنَّ الأنبياءَ كانوا إذا التَجَؤوا إليه، وشَكَوا إليه

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٢).

قَومَهم، حَلَّ بهمُ العَذابُ ولمْ يُنظَروا[١]، وتَأكيدُه بـ(إنَّ) للاهتِمامِ به؛ ليكونَ التَّشكِّي أقْوى[٢].

- والتَّعبيرُ عن قُرَيشٍ بـ﴿قَوۡمِی﴾؛ لزِيادةِ التَّذَمُّرِ مِن فِعلِهم معه وتَوبيخِهم؛ لأنَّ شأنَ قَومِ الرَّجُلِ أن يوافِقوه، ويُصَدِّقوا به، ويَقبَلوا ما جاء به[٣]. وأيضًا في التَّعبيرِ عنهم بـ(قَومِه) وإضافتِهم إليه، وفي التَّعبيرِ عن القُرآنِ باسمِ الإشارةِ القَريبِ (هَذَا): بَيانٌ لعظيمِ جُرْمِهم بتَرْكِهم للقُرآنِ، وهو قريبٌ منهم في مُتناوَلِهم، وقد أتاهُم به واحدٌ منهم، أقرَبُ النَّاسِ إليهم، فصَدُّوا وأبْعَدوا في الصَّدِّ عمَّن هو إليهم قريبٌ مِن قريبٍ، وهذا أقبَحُ الصَّدِّ وأظلَمُه[٤].

- وفِعلُ الاتِّخاذِ إذا قُيِّد بحالةٍ يُفيدُ شدَّةَ اعتِناءِ المُتَّخِذِ بتلك الحالةِ، بحيث ارتكَب الفِعلَ لأجْلِها، وجعَلَه لها قَصْدًا؛ فقولُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في هَجرِهمُ القُرآنَ مِن أنْ يُقالَ: (إنَّ قَومي هجَروا القُرآنَ)[٥]؛ فأشارَ بصِيغةِ الافتِعالِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ إلى أنَّهم عالَجوا أنفسَهم في تَرْكِه عِلاجًا كثيرًا، وأنَّهم جعَلوا الهَجْرَ مُلازِمًا له، ووصفًا مِن أوصافِه عندَهم، وذلك أعظَمُ مِن أنْ يُقالَ: هجَروه، الَّذي يُفِيدُ وُقوعَ الهِجرانِ منهم، دونَ دَلالةٍ على الثُّبوتِ والمُلازَمةِ؛ لِما يَرَوْنَ مِن حُسنِ نَظْمِه، ويَذُوقون مِن لَذيذِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٠٧، ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

مَعانيه، ورائقِ أساليبِه، ولَطيفِ عَجائبِه، وبَديعِ غَرائبِه[١].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لتَعظيمِه، وأنَّ مِثلَه لا يُتَّخَذُ مَهْجورًا، بل هو جَديرٌ بالإقبالِ عليه، والانتِفاعِ به[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وُصِفَ أعداءُ الأنبياءِ بأنَّهم مِنَ المُجرِمينَ، أي: مِن جملةِ المُجرِمينَ؛ فإنَّ الإجرامَ أعَمُّ مِن عَداوةِ الأنبياءِ، وهو أعظَمُها. وإنَّما أُريدَ هنا تحقيقُ انضِواءِ أعداءِ الأنبياءِ في زُمرةِ المُجرِمينَ؛ لأنَّ ذلك أبلَغُ في الوصفِ مِن أن يقالَ: عَدُوًّا مُجرِمينَ[٣].

- قَولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه وعْدٌ كَريمٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالهِدايةِ إلى مَطالِبِه كافَّةً، والنَّصرِ على أعدائِه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ حِكايةٌ لاقتِراحِهمُ الخاصِّ بالقُرآنِ الكريمِ بعْدَ حِكايةِ اقتِراحِهم في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإيرادُهم بعُنوانِ الكُفرِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لذَمِّهم به، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ[٥]. وهو اعتِراضٌ آخَرُ مِن اعتِراضاتِهم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥).

الباطلةِ، نسَقَه مع ما تقدَّمَ منها؛ لِيُجابَ عنه، ويُبيَّنَ خَطؤُهم فيه[١].

- قَولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ لَمَّا كانوا -لشِدَّةِ ضَعفِهم- لا يَكادون يَسمَحون بتَسميةِ القرآنِ تَنزيلًا، فضْلًا عن أنْ يُسنِدوا إنزالَه إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ بَنَوْا للمَفعولِ في هذه الشُّبهةِ التي أَورَدُوها قولَهم: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾[٢].

- والفِعلُ (نَزَّلَ) يأتي مُرادِفًا لـ(أنزَلَ)، والتَّضعيفُ أخو الهَمزةِ، ويأتي مُفيدًا للتَّكثيرِ، فيُفِيدُ تَكرُّرَ النُّزولِ وتجديدَه، وهو هنا لا يصِحُّ حمْلُه على التَّكثيرِ المُفيدِ للتَّدريجِ؛ لئلَّا يُناقِضَ قولَهم: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ فيكونُ مِن التَّضعيفِ المُرادِفِ للهمزةِ. والمُختارُ أنَّ (نزَّل) المُضاعَفَ يَرِدُ لكثرةِ الفِعلِ ولِقُوَّتِه؛ فجاء لكَثرتِه في آيةِ (آلِ عمرانَ): ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران: ٣]، وجاء لقُوَّتِه في هذه الآيةِ؛ لأنَّ إنزالَ الجُملةِ مرَّةً واحدةً أقوى مِن إنزالِ كلِّ جُزءٍ مِن الأجزاءِ بمُفرَدِه[٣].

- وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ استِئنافٌ واردٌ مِن جِهتِه تعالى لردِّ مقالتِهمُ الباطلةِ، وبيانِ الحِكمةِ في التَّنزيلِ التَّدريجيِّ[٤]. وعدَل فيه عن خِطابِهم إلى خِطابِ الرَّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ إعلامًا له بحِكمةِ تَنزيلِه مُفرَّقًا، وفي ضِمْنِه امتِنانٌ على الرَّسولِ بما فيه تَثبيتُ قلْبِه، والتَّيسيرُ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

- قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ الأصْلُ: أنزلناهُ كذلك...، فأوجَزَ بحذْفِ المُتعلَّقِ؛ لوُجودِ ما يدُلُّ عليه مِن إعراضِهم. وفُصِلَ -أي: لم يُعطَفْ على ما قَبْلَه-؛ لأنَّه جوابٌ عن اعتراضِهم(١).

- ونَكَّر ﴿تَرْتِيلًا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ فالتَّنوينُ فيه تنوينُ تنويعٍ وتعظيمٍ، أي: نوعًا مِن التَّرتيلِ عظيمًا(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ فَذْلَكةٌ(٣) جامِعةٌ تَعُمُّ ما تَقدَّمَ، وما عسَى أنْ يأتُوا به مِنَ الشُّكوكِ والتَّمويهِ بأنَّ كلَّ ذلك مَدْحوضٌ بالحُجَّةِ الواضحةِ، الكاشفةِ لتُرَّهاتِهم؛ فإنَّه لَمَّا استَقصى أكثرَ مَعاذيرِهم وتَعلُّلاتِهم، وردَّ عليها وأبطَلها؛ أتَى بهذِه الآيةِ الجامِعةِ العامَّةِ(٤).

- وفيه مِنَ الدَّلالةِ على المُسارعةِ إلى إبطالِ ما أَتَوْا به، وتَثبيتِ فؤادِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما لا يَخفَى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

(٣) الفَذْلكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفرَغَ مِنه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمة منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُراد بالفذلكةِ: النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٦).

- وتَنكيرُ (مَثَل) في سياقِ النَّفيِ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ...﴾ للتَّعميمِ، أيْ: بكُلِّ مَثَلٍ(١).

- وتَعْديةُ فِعْلِ ﴿يَأْتُونَكَ﴾ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لإفادةِ أنَّ إتيانَهم بالأمثالِ يَقصِدون به أن يُفحِموه. وجاءتْ صِيغةُ المضارعِ في قولِه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾؛ لتَشمَلَ ما عسى أنْ يأتُوا به مِن هذا النَّوعِ(٢).

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَأْتُونَكَ﴾ يُفِيدُ الحُدوثَ وتجدُّدَ الإتيانِ منهم. والتَّعبيرُ بالماضي ﴿جِئْنَاكَ﴾ -معَ أنَّه في معنى المُستقبَلِ- يُفِيدُ تحقُّقَ المجيءِ، وهو المُناسِبُ لمَقامِ الوعدِ والتَّثبيتِ(٣).

- وقولُه: ﴿جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، وفي هذه المقابَلةِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يأتُون به باطلٌ. والتَّعبيرُ في جانبِ ما يؤيِّدُه اللهُ مِنَ الحُجَّةِ بـ﴿جِئْنَاكَ﴾ دُونَ: أَتَيْناك، كما عَبَّر عمَّا يَجيئون به بـ﴿يَأْتُونَكَ﴾: إمَّا لمُجرَّدِ التَّفنُّنِ، وإمَّا لأنَّ فِعلَ الإتيانِ إذا استُعمِلَ كثُرَ فيما يَسوءُ وما يُكرَهُ، كالوعيدِ والهِجاءِ، بخِلافِ فِعلِ المَجيءِ إذا استُعمِلَ؛ فأكثَرُ ما يُستعمَلُ في وُصولِ الخَيرِ والوعدِ والنَّصرِ والشَّيءِ العظيمِ(٤).

- قَولُه: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أيْ: أحَقَّ في الاستِدلالِ؛ فالتَّفضيلُ للمُبالَغةِ؛ إذْ ليس في حُجَّتِهم حُسْنٌ أصلًا. أو يُرادُ بالحُسنِ ما يَبْدو مِن بَهْرَجةِ سَفسَطَتِهم وشُبَهِهم؛ فيَجيءُ الكشفُ عنِ الحقِّ أحسَنَ وقْعًا في نُفوسِ السَّامِعينَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١، ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢، ٢٣).

مُغالَطاتِهم؛ فيكونُ التَّفضيلُ بهذا الوجهِ على حقيقتِه، فهذه نُكتةٌ مِن دَقائقِ الاستِعمالِ، ودَقائقِ التَّنزيلِ(١).

- قَولُه: ﴿تَفْسِيرًا﴾ في قولِه: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وُضِعَ موضعَ: معنًى ومؤدًّى، أي: أحسَنَ معنًى ومؤدًّى مِن سؤالِهم؛ فهو مِن وَضْعِ السَّببِ مَوضعَ المُسبَّبِ؛ لأنَّ التَّكشيفَ سببُ ظُهورِ المعنى وكشْفِه؛ ففيه المبالَغةُ مع الإيجازِ(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ لتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولوعيدِ المُشركينَ وذَمِّهم؛ لأنَّه تعالى لَمَّا قال لرَسولِه صلواتُ اللهِ عليه مُسَلِّيًا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ حرَّك منه صلواتُ اللهِ عليه بأنْ يَسأَلَ: فإذَنْ بماذا أُجيبُهم، وما يكونُ قَوْلي لهم؟ قيل: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾(٣). وفُصِلَتِ هذه الجُملةُ -أي: لم تُعطَفْ على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها بيانٌ لحالِهم في الآخرةِ، وهو غيرُ الموضوعِ المُتقدِّمِ(٤).

- والمرادُ بقولِه: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ القومُ الَّذينَ أَورَدوا هذه الأسئلةَ على سَبيلِ التَّعنُّتِ في قولِه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فالموصولُ ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ واقعٌ موقعَ الضَّميرِ، كأنَّه قيل: هُم يُحشَرون على وُجوهِهم؛ فوُضِع المُظهَرُ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ إشعارًا بتَوهينِهم، وتَحقيرًا لشأنِهم، ولتَحصيلِ فائدةِ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

أصحابَ الضَّميرِ ثَبَتَ لهم مَضْمونُ الصِّلةِ، ولِيُبنَى على الصِّلةِ موقعُ اسمِ الإشارةِ، ومُقتضَى ظاهِرِ النَّظمِ أن يقالَ: (ولا يَأْتونَك بمَثَلٍ إلَّا جِئْناكَ بالحقِّ وأَحسَنَ تفسيرًا، هُمْ شَرٌّ مكانًا وأضَلُّ سبيلًا، ونَحشُرُهم على وُجوهِهم إلى جَهنَّمَ)، كما قال في سورةِ (الإسراء): ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧] عَقِبَ قولِه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأيضًا يُعْلَمُ مِنَ السِّياقِ بطريقِ التَّعريضِ أنَّ الَّذينَ يُحشَرون على وُجوهِهم هُمُ الذين يأْتُون بالأمثالِ تكذيبًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإذْ كان قصْدُهم ممَّا يَأْتون به مِنَ الأمثالِ تَنقيصَ شأنِ النَّبيِّ، ذُكِروا بأنَّهم أهْلُ شَرِّ المكانِ وضَلالِ السَّبيلِ دُونَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قَولُه: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ عَقِبَ ما تَقدَّمَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم -وهم ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ...﴾- حَقِيقُونَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ، وهو أنَّهم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وأَحْرياءُ بالمكانِ الأَشَرِّ والسَّبيلِ الأَضَلِّ؛ بسَببِ ما اتَّصفوا به، ممّا دلَّتْ عليه الصِّلةُ، وهو حَشْرُهم على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، الذي ما أصابَهم إلَّا بما قدَّمتْ أيديهم، ولأجْلِ ما سَبَق مِن أحوالِهمُ الَّتي منها قولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فهم أَحِقَّاءُ بكونِهم شرًّا مكانًا وأضَلَّ سبيلًا؛ بسَببِ ما أدَّاهم إلى ذلك الحَشرِ؛ فاكتُفِيَ بذِكْرِ المُسبَّبِ عن السَّببِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤).

- وصِيغتَا التَّفضيلِ ﴿شَرٌّ﴾، و﴿أَضَلُّ﴾ في قولِه: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مُستعمَلتانِ للمُبالَغةِ في الاتِّصافِ بالشَّرِّ والضَّلالِ. وتَعريفُ جُزْأَيِ الجملةِ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصْرٌ للمبالَغةِ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَنِ انحصَرَ الشَّرُّ والضَّلالُ فيهم. ورُوِيَ: أنَّ الكفَّارَ قالوا للمسْلمينَ: هُم شَرُّ الخلْقِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ؛ فيكونُ القصْرُ قصْرَ قلْبٍ، أيْ: هُم شَرٌّ مكانًا وأضَلُّ سبيلًا لا المسْلمون. وصِيغتَا التَّفضيلِ مَسْلوبتَا المُفاضَلةِ على كِلا الوَجهَينِ[1].

- وأيضًا لم يُذكَرْ مع أفعلِ التَّفضيلِ المُفضَّلُ عليه؛ لِيُفِيدَ أنَّ مكانَهم شرُّ مكانٍ مِن أمكنةِ الشَّرِّ، وسبيلَهم أضلُّ سبيلٍ مِن سُبُلِ الضَّلالِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

الآيات (٣٥-٤٠)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ
إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ
أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا
﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَزِيرًا﴾: أي: عَونًا، مِن الوِزرِ: وهو الحِملُ الثَّقيلُ، كأنَّ الوَزيرَ يحمِلُ عَن السُّلطانِ الثِّقلَ والشُّغلَ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ(١).

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾: أي: أهلَكْناهم بالعذابِ إهلاكًا، والدَّمارُ: الهلاكُ، والتَّدْميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ، وأصلُ (دمر): يَدُلُّ على الدُّخولِ في البيتِ وغَيرِه(٢).

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أي: أعدَدْنا، قيل: هو أفْعَلْنا مِن العَتادِ، وهو ادِّخارُ الشَّيءِ قبْلَ الحاجةِ إليه، كالإعدادِ. وقيل: العَتادُ: المُعَدُّ الثابتُ اللازمُ. وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((الغريبين =

﴿ٱلرَّسِّ﴾: أي: البئرِ العَظيمةِ، أو الأُخدودِ، أو الوادي، وقيل: الرَّسُّ: كلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثباتٍ، وقيل: أصلُه: الأثرُ القليلُ الموجودُ في الشَّيءِ[1].

﴿وَقُرُونَۢا﴾: القرونُ: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحدٍ غيرِ مُقدَّرٍ بمدَّةٍ مُعيَّنةٍ. وقيلَ: مدَّةُ القرنِ مئةُ سنةٍ. وقيل: ثمانونَ. وقيل: ثلاثون. وقيل غيرُ ذلك. والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[2].

﴿تَبَّرۡنَا﴾: أي: أهلَكْنا ودمَّرْنا، وأصلُ (تبر): يدُلُّ على كَسرٍ وإهلاكٍ[3].

﴿نُشُورٗا﴾: أي: مَعادًا وبَعثًا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشعُّبِه[4].

= في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٢٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٤٥).

قال الراغب: (وقيل: أصْلُه: أعددنا، فأُبدِلَ مِن إحدَى الدَّالينِ تاءٌ). ((المفردات)) (ص:٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٣) و(٢١/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أحوالَ الذين كذَّبوا أنبياءَهم، فكانت عاقبتُهم الإهلاكَ والتدميرَ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، وجعَلْنا معه أخاه هارونَ مُعينًا له في أمرِ الرِّسالةِ، فقُلْنا لهما: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه، فكذَّبوهما فأهلَكْناهم بالغَرقِ، وأغرَقْنا كذلك قومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْناهم عِظةً وعِبرةً للنَّاسِ، وأعدَدْنا للظَّالمين عذابًا موجِعًا مُؤلِمًا، وأهلَكْنا كذلك عادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ؛ لكُفرِهم وتكذيبِهم، وأُمَمًا غيرَهم كثيرينَ لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ، وكلًّا مِن هؤلاء المهلَكينَ وضَّحْنا له الأدلَّةَ على وحدانيَّتِنا، وكلًّا منهم أهلَكْنا إهلاكًا كاملًا.

ولقد مرَّ كفَّارُ قُريشٍ على قريةِ قَومِ لوطٍ الذين أمطر اللهُ عليهم حِجارةً مِن السَّماءِ، أفلمْ يَكونوا يرَونَ في أسفارِهم آثارَ إهلاكِنا هذه القريةَ، فيعتَبِروا ويتَّعظوا بما حلَّ بهم بسَبَبِ كُفرِهم وتكذيبِهم؟! بل كانوا يَرونَ عاقِبةَ أهلِ تلك القريةِ التي أهلَكْناها، ولكِنَّهم كانوا لا يُؤمِّلونَ وُقوعَ البَعثِ بعْدَ المَوتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا، ولا يخافونَ عذابًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعْدَ أنْ تكلَّمَ سُبحانَه وتعالى في التَّوحيدِ، ونَفيِ الأندادِ، وإثباتِ النبوَّةِ، والجَوابِ عن شُبُهاتِ المنكِرينَ لها، وفي أحوالِ القيامةِ- شرَعَ في ذِكرِ القَصَصِ على السُّنَّةِ المعلومةِ(١).

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ تكذيبُ قُريشٍ والكفَّارِ لِمَا جاء به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٨).

وسلَّم؛ ذَكرَ تعالى ما فيه تسليةٌ للرَّسولِ، وإرهابٌ للمُكذِّبينَ، وتذكيرٌ لهم أنْ يصيبَهم ما أصاب الأُممَ السَّابقةَ مِن هلاكِ الاستِئصالِ لَمَّا كذَّبوا رسُلَهم، فناسَبَ أنْ ذَكرَ أوَّلًا مَن نزَلَ عليه كتابُه جُملةً واحدةً؛ ومع ذلك كفَروا وكذَّبوا به، فكذلك هؤلاء: لو نَزَلَ عليه القرآنُ دَفعةً لكَذَّبوا وكَفَروا كما كَذَّبَ قَومُ موسى[1].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

أي: ولقد آتينا موسى التَّوراةَ[2].

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾.

أي: وجعَلْنا مع موسى أخاه هارونَ مُعينًا له يُقَوِّيه ويؤيِّدُه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٥ - ٣٦].

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) ﴾.

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

أي: فقُلْنا لموسى وهارونَ: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه القِبطِ الذين كذَّبوا بأدِلَّتِنا وبراهينِنا[١].

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

أي: فكذَّب فِرعَونُ وقَومُه موسى وهارونَ، فأهلَكْناهم بالغَرقِ إهلاكًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ❁ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا هَدَّدَ سُبحانَه المكذِّبينَ بإهلاكِ الأوَّلينَ الذين كانوا أقوَى منهم وأكثَرَ، وقَدَّمَ قصَّةَ موسى عليه السَّلامُ- أتبَعَه أوَّلَ الأُممِ؛ لأنَّهم أوَّلُ، ولِمَا في عذابِهم مِن الهَولِ، ولِمناسبةِ ما بيْنَه وبيْنَ عذابِ القِبطِ، فقال[٣]:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: المرئيَّةِ والمسموعةِ مِن الأنبياءِ الماضينَ قبْلَ إتيانِكما في عِلمِ الشَّهادةِ، والمرئيَّةِ والمسموعةِ منكما بعْدَ إتيانِكما في عِلمِنا). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٥).

أي: وأغرَقْنا قَومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْنا إغراقَهم بالطُّوفانِ عِبرةً للنَّاسِ وعِظةً[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وأعدَدْنا في الآخرةِ للظَّالِمينَ مِن قَومِ نُوحٍ وغَيرِهم عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا؛ جزاءً على ظُلمِهم[٢].

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه آخِرَ الأُمَمِ المهلَكةِ بعامَّةٍ وأوَّلَها، وكان إهلاكُهما بالماءِ- ذكَرَ مَن بيْنَهما ممَّن أُهلِكَ بغيرِ ذلك؛ إظهارًا للقُدرةِ والاختيارِ، وطوَى خبرَهم بغيرِ العذابِ؛ لأنَّه في سياقِ الإنذارِ، فقال[٣]:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٦).

قال القرطبي: (﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: علامةً ظاهرةً على قدرتِنا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

أي: وأهلَكْنا أيضًا عادًا قَومَ هُودٍ، وثمودَ قَومَ صالحٍ، وأصحابَ الرَّسِّ، ودمَّرْناهم لكُفرِهم وتكذيبِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾.

أي: ودمَّرْنا بين تلك الأُمَمِ الكافرةِ -التي سمَّيْناها- أُمَمًا أُخرى كثيرةً لا يعلَمُها إلَّا اللهُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٣).

قال ابنُ جريرٍ في التعريفِ بأصحابِ الرسِّ: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك قولُ مَن قال: هم قومٌ كانوا على بئرٍ؛ وذلك أنَّ الرَّسَّ في كلام العربِ: كُلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك. ولا أعلَمُ قومًا كانت لهم قصَّةٌ بسببِ حُفرةٍ ذكَرَهم اللهُ في كتابِه إلَّا أصحابَ الأُخدودِ،... وإن يكونوا غيرَهم فلا نعرفُ لهم خبرًا إلَّا ما جاء مِن جملةِ الخبرِ عنهم أنَّهم قومٌ رَسُّوا نبيَّهم في حفرةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٣، ٤٥٤).

وقال ابن عاشور: (اتَّفقوا على أنَّ الرَّسَّ بئرٌ عظيمةٌ، أو حَفيرٌ كبيرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

وقال الشنقيطي: (وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ فلم يأتِ في القرآنِ تفصيلُ قِصَّتِهم ولا اسمُ نبيِّهم، وللمفسِّرينَ فيهم أقوالٌ كثيرةٌ ترَكْناها؛ لأنَّها لا دليلَ على شَيءٍ منها). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٤). وتُنظَرُ أقوالُ المفسِّرينَ في أصحابِ الرَّسِّ في: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩). =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قَدَّمَ سُبحانَه أنَّه يأتي في هذا الكتابِ بما هو الحقُّ في جوابِ أمثالِهم؛ بَيَّنَ أنَّه فعَلَ بالجَميعِ نحوًا مِن هذا، فقال تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وتأسيةً وبيانًا لتشريفِه بالعَفوِ عن أمَّتِه(١)، وعدمِ استِئْصالِها بالعذابِ:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾.

أي: وكلُّ الأُمَمِ الكافرةِ التي أهلَكْناها أقَمْنا عليها الحُجَّةَ، ووَضَّحْنا لها الأدِلَّةَ بذِكرِ الأمثالِ؛ لِيَعتبِروا بها ويتَّعِظوا(٢).

= قال ابنُ كثير: (الأظهرُ: أنَّ القرنَ هم الأمَّةُ المتعاصِرون في الزَّمنِ الواحد، فإذا ذهبوا وخلَفَهم جيلٌ آخَرُ، فهم قرنٌ ثانٍ، كما ثبت في الصحيحينِ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «خيرُ [الناسِ] قَرني، ثمَّ الذين يلونَهم، ثمَّ الذين يلونَهم...» الحديثَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢).

وقال الشنقيطي: (والأظهرُ أنَّ القرونَ الكثيرَ: المذكورُ بعْدَ قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وقبْلَ أصحابِ الرَّسِّ، وقد دلَّت آيةٌ من سورة «إبراهيم» على أنَّ بعْدَ عادٍ وثمودَ خَلْقًا كفَروا وكذَّبوا الرسُلَ، وأنَّهم لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ جلَّ وعلا. وتصريحُه بأنَّهم بعد عادٍ وثمودَ يوضِّحُ ما ذكَرْنا). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾.

أي: وكُلُّ الأُمَمِ الكافرةِ الماضيةِ دمَّرْناها تدميرًا كامِلًا، واستأصَلْناها بالعذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٥ - ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان سَوقُ خبرِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّسِّ وما بيْنَهما مِنَ

= (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٤، ٥٥).

قال ابن عاشور: (والمَثَلُ: النَّظيرُ والمُشابِه، أي: بَيَّنَّا لهم الأشباهَ والنظائرَ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لِيَعرِضوا حالَ أنفُسِهم عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

وقال ابن عثيمين: (يعني: بيَّنَّا له الأمثالَ، يعني: الوقائعَ التي أوقعَها الله تعالى بمَن قبْلَهم، كلُّ أمَّةٍ تُنذَرُ بمَن قبْلَها، ويُضرَبُ لها المثَلُ، يقالُ: هذا مَثَلُ المكذِّبين، حصَلَ عليهم كَيْتَ وكَيْتَ، فكُلُّ أمَّةٍ أنذرَها اللهُ تمامَ الإنذارِ، بحيثُ لا يبقَى لها حُجَّةٌ؛ أمَّةُ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وغيرُها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٥).

القرونِ مقصودًا لاعتِبارِ قريشٍ بمصائرِهم؛ نُقِل نَظْمُ الكلامِ هنا إلى إضاعَتِهم الاعتِبارَ بذلك وبما هو أظهَرُ منه لأنظارِهم، وهو آثارُ العذابِ الَّذي نَزَل بقريةِ قومِ لوطٍ[(١)].

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾.

أي: ولقد مرَّ كُفَّارُ قُرَيشٍ على قَريةِ قَومِ لُوطٍ الذين أهلَكَهم اللهُ بالحِجارةِ التي أمطَرَها عليهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: ٧٤ - ٧٦].

﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾.

أي: أفلم يكُنْ كُفَّارُ قُرَيشٍ يَرَونَ في أسفارِهم آثارَ عَذابِ اللهِ على قريةِ قَومِ لوطٍ، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا بما حلَّ بأهلِها مِن العذابِ؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالرَّسولِ، ومُخالفتِهم أوامِرَ اللهِ[(٣)]؟

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢).

أي: ما كذَّب كفَّارُ قُرَيشٍ بمحمَّدٍ لكونِهم لم يَرَوا ما حلَّ بقومِ لوطٍ، وإنَّما كذَّبوا ولم يعتَبِروا؛ لأنَّهم لا يُؤمِّلون وقوعَ البَعثِ بعْدَ الموتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا في الآخرةِ، ولا يخافونَ عذابًا فيها[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، وقَولُه في موضعٍ آخَرَ: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤] لا يُنافي هذا؛ لأنَّهما إذا كانا مأمورَينِ فكُلُّ واحدٍ مأمورٌ، ويجوزُ أن يقالَ: أُمِرَ موسى أوَّلًا، ثمَّ لَمَّا قال: ﴿وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] قال: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾[2] [طه: ٤٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ إذا قيل: لماذا جُعِلَ قومُ نوحٍ مكذِّبينَ للرسُلِ مع أنَّهم كذَّبوا رسولًا واحدًا؟

فالجوابُ مِن أوجهٍ:

منها: أنَّهم استَنَدوا في تكذيبِهم رسولَهم إلى إحالةِ أنْ يُرسِلَ اللهُ بشَرًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]؛ فكان تكذيبُهم مستلزِمًا تكذيبَ عمومِ الرسُلِ.

ومنها: أنَّهم أوَّلُ مَن كَذَّبَ رسولَهم؛ فكانوا قدوةً للمكذِّبين مِن بعْدِهم[3].

ومنها: أنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لباقي الرسلِ؛ لاشتراكِهم في المجيءِ بالتوحيدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

فيكونُ هذا مِن بابِ الجنسِ؛ لأنَّ مَن كذَّب رسولًا فكأنَّما كذَّب جميعَ الرسُلِ؛ لأنَّ أعداءَ الرسلِ لا يُعادونَهم لشخصِهم، وإنَّما يعادونَهم لِما يَدْعونَ إليه، وما جاؤوا به، وهذا جنسٌ؛ فيكونُ تكذيبُهم لرسولٍ تكذيبًا لجميعِ الرسُلِ(١).

ومنها: أنَّ مَن كذَّب رسولًا فقد كذَّب جميعَ الرسُلِ؛ لأنَّهم لا يُفرَّقُ بيْنَهم في الإيمانِ، ولأنَّه ما مِن نبيٍّ إلَّا يُصدِّقُ سائرَ أنبياءِ الله، فمَن كذَّب منهم نبيًّا فقد كذَّب كلَّ مَن صدَّقه مِن النبِّيينَ(٢).

ومنها: أنَّه لطولِ مُكثِه في قومِه صار كأنَّه رسُلٌ كثيرونَ؛ لأنَّه لَبِث فيهم ألْفَ سَنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا، وهذه مدَّةٌ تستوعبُ رسُلًا كثيرينَ، فكأنَّه لطولِ المُكثِ صار متعدِّدًا(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فأخبرَ سُبحانَه أنَّه ضرَبَ الأمثالَ لجميعِ هؤلاء الذين أُرسِلَ إليهم وأهلَكَهم، فلم يعاقِبْهم إلَّا بعْدَ أنْ أقام عليهم الحُجَّةَ(٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في كلمةِ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ إشكالٌ، وهو أنَّه يقتضي أنَّ التكذيبَ سابقٌ للرِّسالةِ، فكيف يكونون مكذِّبين مع أنَّهم لم يأتِ إليهم رَسولٌ؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٧، ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٧، ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٢).

والجواب من أوجُهٍ:

منها: أنَّ الفعلَ الماضيَ هنا بمعنى المستقبَلِ، بمعنى: الذين يكَذِّبون بآياتِنا؛ لأنَّ الآياتِ لم تصِلْ إليهم بَعْدُ؛ فمعنى ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: يُكَذِّبون بها في المستقبَلِ.

ومنها: أن يُقالَ: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بحسَبِ عِلمِ الله عزَّ وجَلَّ، يعني: قدَّرْنا أنَّهم يُكَذِّبون.

ومنها: أنَّهم قد أُرسِلَ إليهم رسولٌ فكذَّبوه، وهذا يؤيِّدُه قَولُ المؤمِنِ مِن آلِ فِرعَونَ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

فإذا قيل: إنَّ يوسُفَ سابِقٌ جدًّا على موسى؟ فيُقالُ: لعلَّ آثارَ رسالتِه قد بَقِيت؛ ولهذا خاطبهم المؤمِنُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾، ولم يُنكِروا؛ ما قالوا: ما جاءَنا، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يعني: إلى الآنَ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ إيذانٌ بطولِ مُدَدِ هذه القُرونِ وكَثرتِها[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٣).

وقيل: قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وصْفٌ للقَوم، وليس هو مِنَ المَقولِ لموسى وهارونَ؛ لأنَّ التَّكذيبَ حينَئذٍ لَمَّا يقَعْ منهم، ولكنَّه وصْفٌ لإفادةِ قُرَّاءِ القُرآنِ أنَّ موسى وهارونَ بلَّغا الرِّسالةَ، وأظهَرَ اللهُ منهما الآياتِ، فكذَّب بها قَومُ فِرعونَ، فاستَحقُّوا التَّدميرَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى... ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ سِيقَتْ لتأكيدِ ما مرَّ مِنَ التَّسليةِ والوعدِ بالهدايةِ والنَّصرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣١] بحِكايةِ ما جرَى بيْنَ مَن ذُكِر مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَ قَومِهم حكايةً إجماليَّةً كافيةً فيما هو المقصودُ، واللَّامُ جوابٌ لقَسَمٍ محذوفٍ، أي: وباللهِ لقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ[١].

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴾ حرْفُ التَّحقيقِ (قَدْ) ولامُ القسَمِ؛ لتأكيدِ الخَبرِ باعتِبارِ ما يَشتمِلُ عليه مِنَ الوعيدِ بتَدميرِهم. ولَمَّا جرَى الوعيدُ والتَّسليةُ بذِكرِ حالِ المكذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ عَطَف على ذلك تَمثيلَهم بالأُممِ المُكذِّبينَ رُسُلَهم؛ لِيَحصُلَ مِن ذلك موعظةُ هؤلاءِ، وزيادةُ تَسليةِ الرَّسولِ، والتَّعريضُ بوَعدِه بالانتِصارِ له[٢].

- والتَّعرُّضُ في مَطلَعِ القصَّةِ لإيتاءِ الكِتابِ مع أنَّه كان بعْدَ مَهلِكِ القَومِ، ولمْ يكنْ له مَدخَلٌ في هَلاكِهم كسائرِ الآياتِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ ببُلوغِ نبيِّ الله موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غايةَ الكمالِ، ونَيْلِه نهايةَ الآمالِ، الَّتي هي إنجاءُ بَني إسرائيلَ مِن فِرعونَ، وإرشادُهم إلى الطَّريقِ الحقِّ بما في التَّوراةِ مِنَ الأحكامِ؛ إذْ به يَحصُلُ تأكيدُ الوَعدِ بالهدايةِ[٣].

- والتَّعرُّضُ هنا إلى تأييدِ موسى بهارونَ تَعريضٌ بالرَّدِّ على المشركينَ؛ إذْ قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]؛ فإنَّ موسى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٨).

لَمَّا اقتضَتِ الحِكمةُ تأييدَه لم يُؤيَّدْ بملَكٍ، ولكنَّه أُيِّدَ برسولٍ مِثْلِه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ في الكَلامِ حذفٌ، أي: فذَهَبَا وأدَّيَا الرِّسالةَ، فكذَّبوهما، وقد حصَل بهذا النَّظمِ إيجازٌ عَجيبٌ اختُصِرَتْ به القِصَّةُ؛ فذُكِر منها حاشِيَتاها: أوَّلُها وآخِرُها، وهما: الإنذارُ، والتَّدميرُ -أي: إلزامُ الحُجَّةِ ببَعثةِ الرسُلِ، واستِحقاقُ الأُممِ التَّدميرَ بتكذيبِهم رُسُلَهم-؛ لأنَّهما المقصودُ بالقِصَّةِ؛ فدَلَّ بذِكرِهما على ما هو الغَرَضُ مِن القِصَّةِ الطَّويلةِ كلِّها، وهو أنَّهم قومٌ كذَّبوا بآياتِ اللهِ؛ فأرادَ إلزامَ الحُجَّةِ عليهم، فبَعَثَ إليهم رَسولَينِ فكذَّبوهما، فأهلَكهم[٢].

- قَولُه: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أُتبع الفِعلُ بالمفعولِ المطْلَقِ؛ لِما في تَنكيرِ المصدرِ مِن تَعظيمِ التَّدميرِ، وهو الإغراقُ في اليَمِّ[٣].

- وبدأ بذِكرِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّه متأخِّرٌ بالنِّسبةِ إلى قَومِ نوحٍ؛ لأنَّ فِرعونَ أقربُ عهدًا، وأشَدُّ عُتُوًّا مِن قَومِ نوحٍ[٤]. وقيل: قَدَّمَ قصَّةَ موسى عليه السَّلامُ لِمناسبةِ الكتابِ في نفْسِه أوَّلًا، وفي تنجيمِه ثانيًا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[٥] [الفرقان: ٣٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٥).

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

- قَولُه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ فيه تقديمُ قَومِ نُوحٍ؛ للاهتمامِ؛ لأنَّ حالَهم هو محَلُّ العِبرةِ؛ فقُدِّم ذِكرُهم، ثمَّ أُكِّد بضَميرِهم؛ فإنَّ (قَوْمَ نُوحٍ) انتصَبَ بِفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾(١).

- قَولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فيه إظهارٌ في موقعِ الإضمارِ -حيثُ قيل: ﴿لِلظَّالِمِينَ ﴾، عِوَضًا عن: أعتَدْنا لهم-؛ للإيذانِ بتَجاوُزِهمُ الحدَّ في الكُفرِ والتَّكذيبِ، ولإفادةِ أنَّ عذابَهم جزاءٌ على ظُلْمِهم بالشِّركِ وتَكذيبِ الرَّسولِ. أو هو عامٌّ يَتناوَلُهم بعُمومِه(٢).

وقد أفاد هذا الإظهارُ أيضًا: إرادةَ الشُّمولِ والعُمومِ؛ ليَشمَلَهم هم وغيرَهم، حتى الظَّالِمون مِن قريشٍ يدخُلون في هذا؛ لأنَّه إذا قال: (وأعتَدْنا لَهم عَذابًا أليمًا) صار العذابُ الأليمُ لهم فقط، لكِنْ لَمَّا قال: ﴿لِلظَّالِمِينَ ﴾ صار لهم ولغيرِهم، وأفاد تسجيلَ هذا الوَصفِ عليهم، وهو الظُّلمُ؛ لأنَّه وصَفَهم بأنَّهم ظالِمون. وأفاد أيضًا إظهارَ الحكمةِ مِن هذه العقوبةِ، وهي أنَّهم كانوا ظالِمين، يعني: أعَدَّ لهم عذابًا أليمًا؛ لأنَّهم ظالِمون. مع ما فيه من تنبيهِ المخاطَبِ؛ لأنَّ تغيُّرَ السياقِ يوجِبُ انتباهَ المخاطَبِ(٣).

فقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ -على أنَّه وُضِع المُضمَرُ موضعَ المُظهَرِ- عطَفَه على (أَغْرَقْنَا)؛ ليَجمَعَ لهم نَكالَ الدَّارينِ، وعلى العمومِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٤٠).

مِن بابِ التَّذييلِ، فيَدْخلوا في العامِّ دُخولًا أَوَّليًّا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾

- قَولُه: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ ﴾ قيل: هو عَطْفٌ على (هُم) في (جَعَلْنَاهُمْ)، أو على ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فقولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في معنَى الوعيدِ، أي: ووعَدْنا الظَّالِمينَ، ثمَّ عَطَف عادًا وثمودَ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ مُبالَغةً؛ لأنَّهم رُؤوسُ الظَّلَمةِ والأَوْحديُّون فيه[٢]. وقيل: انتصَبَتِ الأسماءُ الأربعةُ -﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾- بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿تَبَّرْنَا﴾، وفي تَقديمِها تَشويقٌ إلى معرفةِ ما سيُخبَرُ به عنها[٣].

- ولعلَّ الاكتِفاءَ في شؤونِ تلك القُرونِ بهذا البيانِ الإجماليِّ ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾؛ لِمَا أنَّ كلَّ قَرنٍ منها لم يكنْ في الشُّهرةِ وغَرابةِ القصَّةِ بمَثابةِ الأُممِ المَذكورةِ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾

- انتَصَب ﴿تَتْبِيرًا﴾ على أنَّه مفعولٌ مطْلَقٌ مؤكِّدٌ لعامِلِه؛ لإفادةِ شدَّةِ هذا الإهلاكِ[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

لبيانِ مُشاهدتِهم لآثارِ هلاكِ بعضِ الأُممِ المُتبَّرةِ، وعدَمِ اتِّعاظِهم بها. وتَصديرُها بالقسَمِ ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لمَزيدِ تقريرِ مَضمونِها. وقيل: اقتِرانُ الخَبرِ بلَامِ القسَمِ؛ لإفادةِ معنَى التَّعجيبِ مِن عدَمِ اعتِبارِهم[١].

- والإتيانُ: المَجيءُ. وتَعديتُه في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ...﴾ بـ(على)؛ لتَضمينِه معنَى: (مَرُّوا)؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ التَّذكيرِ بمَجيءِ القريةِ التَّذكيرُ بمَصيرِ أهْلِها؛ فكأنَّ مَجيئَهم إيَّاها مُرورٌ بأهْلِها، فضُمِّنَ المَجيءُ معنَى المرورِ؛ لأنَّه يُشبِهُ المرورَ؛ فإنَّ المرورَ يَتعلَّقُ بالسُّكَّانِ، والمَجيءَ يَتعلَّقُ بالمكانِ[٢].

- ووصَف القَريةَ بـ ﴿الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾؛ لأنَّها اشتُهرَتْ بمَضمونِ الصِّلةِ بيْن العربِ وأهْلِ الكِتابِ[٣].

- وقوله: ﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾ فيه تَسميةُ العذابِ الَّذي نَزَل عليهم مِنَ السَّماءِ مطَرًا على طريقةِ التَّشبيهِ؛ لأنَّ حقيقةَ المطرِ ماءُ السَّماءِ[٤].

- تَفرَّعَ على تَحقيقِ إتيانِهم على القَريةِ مع عدَمِ انتِفاعِهم به قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾، وهو استِفهامٌ صُوريٌّ عنِ انتِفاءِ رُؤيتِهم إيَّاها حينما يَأْتون عليها؛ لأنَّهم لَمَّا لمْ يتَّعِظوا بها كانوا بحالِ مَن يُسألُ عنهم: هل رأَوْها؟ فكان الاستِفهامُ لإيقاظِ العقولِ؛ للبحثِ عن حالِهم. وهو استِفهامٌ إمَّا مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتَّهديدِ، وإمَّا مُستعمَلٌ في الإيقاظِ لمعرفةِ سببِ عدَمِ اتِّعاظِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: الاستِفهامُ معناه التَّعجُّبُ(١). وقيل: هو تَوبيخٌ لهم على تَرْكِهِمُ التَّذكُّرَ عِندَ مُشاهَدةِ ما يُوجِبُه. والهمزةُ لإنكارِ نَفْيِ استِمرارِ رُؤيتِهم لها، وتقريرِ استِمرارِها حسَبَ استِمرارِ ما يُوجِبُها مِن إتيانِهم عليها. والفاءُ لعَطفِ مَدْخولِها على مُقَدَّرٍ يَقتضيه المَقامُ(٢).

- و(بلْ) في قولِه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ إمَّا إضرابٌ عمَّا قَبْلَه مِن عدَمِ رؤيتِهم لآثارِ ما جَرَى على أهلِ القُرى مِنَ العُقوبةِ، وبيانٌ لكَونِ عدَمِ اتِّعاظِهم بسببِ إنكارِهم؛ لكَونِ ذلك عُقوبةً لِمعاصيهم، لا لعدَمِ رؤيتِهم لآثارِها، خَلَا أنَّه اكتَفى عنِ التَّصريحِ بإنكارِهم ذلك بذِكْرِ ما يَستلزِمُه مِن إنكارِهم للجَزاءِ الأُخْرويِّ، الذي هو الغايةُ مِن خلْقِ العالَم. وقد كُنيَ عن ذلك بعدَمِ النُّشورِ، أي: عدَمِ توقُّعِه، كأنَّه قيل: بل كانوا يُنكِرون النُّشورَ المُستتبِعَ للجزاءِ الأُخْرويِّ، ولا يرَوْنَ لنفْسٍ مِنَ النُّفوسِ نُشورًا أصلًا مع تَحقُّقِه حتْمًا، وشُمولِه للنَّاسِ عمومًا، واطِّرادِه وقوعًا؛ فكيف يَعترِفُون بالجزاءِ الدُّنيويِّ في حقِّ طائفةٍ خاصَّةٍ مع عدَمِ الاطِّرادِ والملازَمةِ بيْنَه وبيْنَ المعاصي حتَّى يَتذكَّروا ويَتَّعِظوا بما شاهَدوه مِن آثارِ الهلاكِ، وإنَّما يَحمِلونه على الاتِّفاقِ؟! وإمَّا انتِقالٌ مِنَ التَّوبيخِ بما ذُكِر مِن تَرْكِ التَّذكُّرِ إلى التَّوبيخِ بما هو أعظَمُ منه مِن عدَمِ توقُّعِ النُّشورِ(٣). ويَجوزُ أن يكونَ (بلْ) للإضرابِ الانتِقاليِّ انتِقالًا مِن وصْفِ تَكذيبِهم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعدَمِ اتِّعاظِهم بما حَلَّ بالمكذِّبينَ مِنَ الأُممِ، إلى ذِكرِ تَكذيبِهم بالبَعثِ؛ فيكونَ انتِهاءُ الكلامِ عِندَ قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، وهو الَّذي يَجري

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢١٩، ٢٢٠).

على الوجهِ الأوَّلِ في الاستِفهامِ، وهو الإنكارُ والتَّهديدُ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ وُضِعَ الرَّجاءُ مَوضِعَ التَّوقُّعِ؛ لأنَّه إنَّما يَتوقَّعُ العاقبةَ مَن يؤْمِنُ، فمِن ثَمَّ لم يَنظُروا ولم يَذَّكَّروا، ومَرُّوا بها كما مرَّتْ رِكابُهم[٢].

- وعُبِّر عن إنكارِهمُ البَعثَ بعدَمِ رَجائِه؛ لأنَّ مُنكِرَ البَعثِ لا يَرْجو منه نفعًا، ولا يَخشى منه ضُرًّا، فعُبِّر عن إنكارِ البَعثِ بأحدِ شِقَّيِ الإنكارِ؛ تَعريضًا بأنَّهم ليسوا مِثْلَ المؤْمنِينَ يَرْجون رحمةَ اللهِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠، ٣١).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَوَاهُ﴾: أي: ما تَميلُ إليه نفْسُه، والهَوى: مَيلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويةِ(١).

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانِعًا وحافِظًا، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى عن استِهزاءِ المشركينَ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما كانوا يقولونَه عندَ رؤيتِهم له، فيقولُ تعالى: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قرَيشٍ، يَسخَرون منك، ويَستَهزِئون بك، قائِلينَ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسلَه إلينا رَسولًا؟! لقد أوشَكَ أن يَصرِفَنا عن عبادةِ أصنامِنا لولا أن تمسَّكْنا بها ورَدَدْنا دعوتَه. ثمَّ يقولُ الله تعالى مهدِّدًا لهم: وسوف يعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ حينَ يرَونَ العذابَ مَن أبعَدُ طريقًا عن الحَقِّ، أهُم أمْ أنت؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ثمَّ يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه، ومبَيِّنًا حقيقةَ حالِ هؤلاء المشركينَ: أرأيتَ -يا محمَّدُ- مَن اتَّبَع هواهُ وانقاد له، أفأنت تكونُ عليه حَفيظًا؛ تمنَعُه مِنَ الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! بل أتظُنُّ أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون ما تُرشِدُهم إليه سماعَ تدَبُّرٍ وتعَقُّلٍ، أو يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! كلَّا، إنَّهم ليسوا كذلك؛ فما هؤلاء المُشرِكون في عدَمِ انتفاعِهم بما يقرَعُ قلوبَهم وأسماعَهم إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه مُبالَغةَ المُشرِكين في إنكارِ نبوَّتِه، وفي إيرادِ الشُّبُهاتِ في ذلك؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنَّهم إذا رأَوُا الرسولَ اتَّخَذوه هُزُوًا، فلم يقتَصِروا على ترْكِ الإيمانِ به، بل زادوا عليه بالاستِهزاءِ والاستِحقارِ(١).

وأيضًا فإنَّ ما تقَدَّمتْ حكايتُه مِن صنوفِ أذاهم الرسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت أقوالًا في مَغيبِه، فعَطَفَ عليها في هذه الآيةِ أذًى خاصًّا، وهو الأذَى حينَ يرَونَه(٢).

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾.

أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قُرَيشٍ، لا يتَّخِذونَك إلَّا سُخريةً، فهم دائِبونَ على الاستِهزاءِ والسُّخريةِ بك(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾.

أي: ويقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ احتقارًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا رسولًا مِن بينِ خَلقِه(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقال سُبحانَه حاكيًا قولَهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ [ص: ٨].

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾.

أي: يقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: لقد أوشَكَ هذا الرَّسولُ أن يَصرِفَنا ويَصُدَّنا عن عبادةِ أصنامِنا بحُجَجِه وأدِلَّتِه، لولا أن ثبَّتْنا على عبادةِ آلهتِنا فتمسَّكْنا بها ولم نَقبَلْ دَعْوتَه(٢)!

= (ص: ٥٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

قال السعدي: (وقالوا -على وجه الاحتقارِ والاستصغارِ-: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ أي: غيرُ مناسبٍ ولا لائقٍ أن يبعَثَ الله هذا الرجُلَ! وهذا مِن شِدَّةِ ظُلمِهم وعنادِهم وقَلبِهم الحقائِقَ؛ فإنَّ كلامَهم هذا يُفهِمُ أنَّ الرَّسولَ -حاشاه- في غايةِ الخِسَّةِ والحقارةِ، وأنَّه لو كانت الرِّسالةُ لغيرِه لكان أنسَبَ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ [ص: ٦، ٧].

﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصفُوه بالإضلالِ في قَولِهم: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾؛ بَيَّن تعالى أنَّه سيَظهَرُ لهم مَنِ المُضِلُّ ومَنِ الضَّالُّ عندَ مُشاهَدةِ العذابِ الذي لا مَخلَصَ لهم منه، فقال[1]:

﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

أي: وسوف يعلَمُ الكُفَّارُ حين يرَونَ عذابَ اللهِ النَّازِلَ بهم[2] مَن أخطأَ طريقَ

= كثير)) (٦/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٣٩).

(٢) قيل: المرادُ: عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٠).

وقيل: المرادُ به: ما وقع لهم يومَ بدرٍ. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ أنَّ المرادَ عذابُ السَّيفِ النازِلُ بهم يومَ بدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

وقيل: يرونَ العذابَ في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٢).

وقيل: يرون العذابَ في الآخرةِ وعندَ الموتِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٧٠).

الهُدى: هم أم محمَّدٌ الذي دعاهم إلى توحيدِ اللهِ[(١)]؟!

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾.

أي: أرأيتَ -يا مُحمَّدُ- مَنِ اتَّبعَ هواه، وانقاد إليه وأطاعَه[(٢)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣، ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أَتْباعُ الهوى دَرَجاتٌ: فمنهم المُشرِكون والذين يَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما يَستحسِنون بلا عِلمٍ ولا بُرهانٍ، كما قال: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤٣]، أي: يتَّخِذُ إلَهه الذي يعبُدُه وهو ما يهواه من آلهةٍ، ولم يقُلْ: إنَّ هواه نفْسُ إلهِه، فليس كلُّ مَن يهوى شيئًا يَعبُده؛ فإنَّ الهوى أقسامٌ، بل المرادُ: أنَّه جعَلَ المعبودَ الذي يعبُدُه هو ما يهواه، فكانت عبادتُه تابعةً لهوى نفْسِه في العبادةِ؛ فإنَّه لم يَعبُدْ ما يجِبُ أن يُعبَدَ، ولا عبَدَ العبادةَ التي أُمِرَ بها. وهذه حالُ «أهلِ البدَعِ»؛ فإنَّهم عبَدوا غيرَ الله، وابتَدَعوا عباداتٍ زَعَموا أنَّهم يَعبُدون الله بها!). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٩٢).

وقال البقاعي: (أي: أنَّهم حقَّروا الإلهَ بإنزاله إلى رتبةِ الهوى، فهم لا يَعبُدون إلَّا الهوى، وهو مَيلُ الشهوةِ، ورميُ النفْسِ إلى الشَّيءِ، لا شبهةَ لهم أصلًا في عبادةِ الأصنام يرجِعون عنها إذا جَلَت، فهم لا يَنفكُّون عن عبادتِها ما دام هواهم موجودًا... فالمعنى: أنَّ هذا المذمومَ قصَر نفْسَه على تألُّهِ الهوى، فلا صلاحَ له ولا رشادَ، وقد يتألَّهُ لهوَى غيره. ولو قيل: مَن اتخذَ هواه إلهَه؛ لكان المعنى أنَّه قصَر هواه على الإلهِ، فلا غَيَّ له؛ لأنَّ هواه تابعٌ لأمرِ الإلهِ، وقد يُشاركُه في تألُّهِ الإلهِ غيرُه. قال أبو حيَّان: والمعنى أنَّه لم يتخِذْ إلهًا إلَّا هواه. انتهى.

فلو عُكِس لقيل: لم يتَّخِذ هوًى إلَّا إلهَه، وهو إذا فعل ذلك فقد سلَبَ نفْسَه الهوى فلم يعمَلْ به إلَّا فيما وافَقَ أمرَ إلهِه، ومما يوضِّحُ لك انعكاسَ المعنى بالتقديمِ والتأخيرِ أنَّك لو قلتَ: فلانٌ اتَّخذ عبدَه أباه؛ لكان معناه أنَّه عظَّم العبدَ، ولو قيل: إنه اتَّخذ أباه عبدَه؛ لكان معناه أنَّه أهان =

= الأبَ، وسواءٌ في ذلك إتيانُك به هكذا على وِزانِ ما في القرآنِ أو نكَّرْت أحدَهما، فإنَّك لا تجِدُ ذَوقَك فيه يختلِفُ في أنه إذا قدَّم الحقيرَ شرَّفه، وإذا قدَّم الشريفَ حَقَّره، وكذا لو قلتَ: اتَّخذ إصطبلَه مَسجِدًا، أو صديقه أبًا، أو عكسْتَ، ولو كان التقديمُ بمجرَّدِ العنايةِ مِن غيرِ اختلافٍ في الدَّلالةِ قُدِّم في «الجاثية» الهوى؛ فإنَّ السياقَ والسباقَ له، وحاصِلُ المعنى أنَّه اضمحلَّ وَصفُ الإلهِ، ولم يبقَ إلا الهوى، فلو قُدِّم الهوى لكان المعنى أنَّه زال وغَلَبت عليه صِفةُ الإلهِ، ولم يكُنْ ينظُرُ إلَّا إليه، ولا حُكمَ إلَّا له، كما في الطينِ بالنسبة إلى الخَزفِ سواءٌ، والله أعلم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٢-٣٩٤).

وقال ابن عاشور: (قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ إذا أُجرِيَ على الترتيب كان معناه: جعَلَ إلهَه الشيءَ الذي يهوى عبادتَه، أي: ما يُحبُّ أن يكونَ إلهًا له، أي: لمجرَّدِ الشهوةِ، لا لأنَّ إلهَه مستحِقٌّ للإلهيَّةِ، فالمعنى: مَن اتَّخذ ربًّا له محبوبَه؛ فإن الذين عبدوا الأصنامَ كانت شهوتُهم في أن يعبدوها، وليست لهم حُجَّةٌ على استِحقاقِها العبادةَ. فإطلاقُ إلهه على هذا الوجهِ إطلاقٌ حقيقيٌّ. وهذا يناسِبُ قولَه قبْلَه: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ [الفرقان: ٤٢]...، وإذا أُجريَ على اعتبار تقديمِ المفعولِ الثاني كان المعنى: مَنِ اتَّخذ هواه قدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عملًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشهوتِه؛ فكأنَّ هواه إلهَه ... وهذا المعنى أشمَلُ في الذمِّ؛ لأنَّه يشمَلُ عبادتَهم الأصنامَ، ويشملُ غيرَ ذلك مِن المنكَراتِ والفواحشِ مِن أفعالِهم. ونحا إليه ابنُ عباس، وإلى هذا المعنى ذهب صاحِبُ «الكشاف»، وابنُ عطية. وكِلا المعنيينِ يَنبغي أن يكونَ مَحملًا للآية). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥).

وقال ابن عثيمين: (الصوابُ أنَّ الآية على ظاهرها، وأنَّ الإلهَ هو الهوى، ومعنى ذلك: أنَّه جعل المتبوعَ الهوى، وكونُ الإنسان يتبَعُ غيرَه، سواءٌ هوى نفْسِه أو كونُه يتبَعُ غيرَه، هذا مِن اتخاذِه إلهًا... فإذَنْ نقولُ: الآيةُ على ظاهرِها، يعني: أنَّ الإلهَ هو الهوى نفْسُه، والهوى يقودُه إلى عبادة الشجَرِ والحجَرِ، ويقودُه إلى استحلالِ الزنا، وإلى استحلالِ الرِّبا، وإلى غيرِ ذلك؛ فعليه الأَولى جَعْلُ الآيةِ على ظاهرِها، وألَّا تُصرَفَ إلى المعبودِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٧٦).

وقال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: أنَّهم قَومٌ كان الرجُلُ منهم يَعبُدُ حجَرًا يَستحسِنُه، فإذا رأى أحسَنَ منه عبَدَه وترَكَ الأوَّلَ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أنَّه الحارثُ بنُ قَيسٍ، كان إذا هوى شيئًا عبَدَه. حكاه النقاشُ. =

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

أي: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تكونُ على مَنِ اتَّبع هواه حَفيظًا تمنعُه مِن الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! كلَّا؛ فليست الهدايةُ والضَّلالةُ موكولتَينِ إليك، وإنَّما عليك البلاغُ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: بل(٢) أتظُنُّ -يا مُحمَّدُ- أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون الحَقَّ أو

= الثَّالثُ: أنَّه الذي يتَّبعُ هواه في كلِّ ما دعا إليه. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ. ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩).

(٢) قال الشنقيطي: (﴿أَمْ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ هي المنقَطِعةُ، وأشهَرُ معانيها أنَّها جامعةٌ بين =

يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! فليسوا كذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أي: ما المُشرِكون إلَّا كالبهائِم، بل هم أسوأُ حالًا منهم[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

= معنى «بل» الإضرابيَّة، واستفهام الإنكار معًا، والإضرابُ المدلولُ عليه بها هنا إضرابٌ انتقاليٌّ. والمعنى: بل أتحسَبُ أنَّ أكثَرَهم يسمَعون أو يَعقِلون؟! أي: لا تعتَقِدْ ذلك ولا تظُنَّه؛ فإنَّهم لا يسمعون الحَقَّ ولا يعقِلونَه، أي: لا يُدرِكونه بعُقولِهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٠-١٨٢).

قال القرطبي: (﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ قَبولٍ، أو يفكِّرون فيما تقولُ فيعقِلونه؛ أي: هُم بمنزلةِ مَن لا يعقِلُ ولا يسمعُ. وقيل: المعنى: أنَّهم لمَّا لم يَنتفعوا بما يَسمعون فكأنَّهم لم يَسْمعوا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦).

وقال ابن عاشور: (المرادُ من نفيِ أنَّ ﴿أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ نفيُ أثرِ السماعِ، وهو فَهْمُ الحقِّ؛ لأنَّ ما يُلقيه إليهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَرتابُ فيه إلَّا مَن هو كالذي لم يسمعْه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩).

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ والواجِبُ الذي يلزَمُ العمَلُ به: هو أن تكونَ جَميعُ أفعالِ المكَلَّفِ مُطابِقةً لِما أمَرَه به معبودُه جَلَّ وعلا، فإذا كانت جميعُ أفعالِه تابعةً لِما يَهواه، فقد صرفَ جميعَ ما يستحِقُّه عليه خالِقُه من العبادةِ والطاعةِ إلى هواه[1].

٢- أصلُ الطريقِ هو الإرادةُ والقَصدُ والعملُ، وذلك يَتضمَّنُ الحُبَّ، وكثيرًا ما يَعمَلُ السالكُ بمُقتضى ما يَجِدُه في قَلبِه مِنَ المَحبَّةِ، وما يُدرِكُه بذَوقِه مِن طَعمِ العِبادةِ، وهذا إذا لم يكُنْ موافِقًا لأمرِ الله ورسولِه فصاحِبُه في ضَلالٍ، وهو مِمَّنِ اتَّبع هواه، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص:

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٨).

٥٠]؛ فجَعَل كلَّما خالَفَ الأمرَ فصاحِبُه مُتَّبِعٌ هواه، فما ثَمَّ واسِطةٌ، بل إمَّا الأمرُ وإمَّا الهوى(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جعَلَ الأكثرينَ أضَلَّ سبيلًا مِنَ الأنعامِ؛ لأنَّ البهيمةَ يَهديها سائقُها فتَهْتدي وتَتَّبِعُ الطَّريقَ، فلا تَحيدُ عنها يمينًا ولا شِمالًا، والأكثرونَ يَدْعوهم الرسُلُ ويَهْدونهم السَّبيلَ فلا يَستجيبونَ ولا يَهتدونَ، ولا يُفرِّقون بيْن ما يَضُرُّهم وبيْن ما يَنفَعُهم، والأنعامُ تُفَرِّقُ بيْن ما يَضُرُّها مِن النَّباتِ والطَّريقِ فتَجتنِبُه، وما يَنفَعُها فتُؤْثِرُه، واللهُ تعالى لم يَخلُقْ للأنعامِ قُلوبًا تَعقِلُ بها، ولا أَلْسِنةً تَنطِقُ بها، وأَعطى اللهُ ذلك لهؤلاء، ثمَّ لمْ يَنتفِعوا بما جعل لهم مِن العقولِ والقلوبِ والألْسِنةِ والأسماعِ والأبصارِ؛ فهُم أضَلُّ من البهائم، فإنَّ مَن لا يَهتدي إلى الرُّشْدِ وإلى الطَّريقِ -مع الدَّليلِ إليه- أضَلُّ وأسْوَأُ حالًا مِمَّن لا يَهتدي حيثُ لا دليلَ معه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخبَرَ عن المشركين أنَّهم متى رأَوُا الرسولَ أتَوا بنوعَينِ مِن الأفعالِ:

أحدُهما: أنَّهم يَستهزئون به، وفسَّرَ ذلك الاستهزاءَ بقَولِه: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، وذلك جهلٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ الاستهزاءَ إمَّا أن يقعَ بصورتِه أو بصِفتِه:

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

أمَّا الأولُ فباطِلٌ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان أحسَنَ منهم صورةً وخِلقةً، وبتقديرِ أنَّه لم يكُنْ كذلك لكنَّه عليه السَّلامُ ما كان يدَّعي التمييزَ عنهم بالصورةِ بل بالحُجَّةِ. وأمَّا الثَّاني فباطِلٌ؛ لأنَّه عليه السَّلامُ ادَّعى التميُّزَ عنهم في ظهورِ المعجِزِ عليه دونَهم، وأنَّهم ما قدَروا على القَدحِ في حُجَّتِه ودَلالتِه، ففي الحقيقةِ هم الذين يستحقُّون أن يُهزأَ بهم، ثم إنَّهم لوقاحتِهم قلبوا القضيَّةَ، واستَهزؤوا بالرَّسولِ عليه السلام، وذلك يدُلُّ على أنه ليس للمُبطِلِ في كلِّ الأوقاتِ إلَّا السفاهةُ والوقاحةُ.

وثانيهما: أنَّهم كانوا يقولون فيه: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾، وذلك يدُلُّ على أمورٍ:

الأوَّل: أنَّهم سَمَّوا ذلك إضلالًا، وذلك يدُلُّ على أنَّهم كانوا مُبالِغين في تعظيمِ آلهتِهم، وفي استعظامِ صَنيعِه صلَّى الله عليه وسلَّم في صَرفِهم عنه، وذلك يدُلُّ على أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ هذا هو الحقُّ، وقولُهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يدُلُّ أيضًا على ذلك.

الثَّاني: يدُلُّ هذا القَولُ منهم على جِدِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ واجتهادِه في صَرفِهم عن عبادةِ الأوثانِ، ولولا ذلك لَما قالوا: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ وهكذا كان عليه السَّلامُ؛ فإنَّه في أوَّلِ الأمرِ بالَغَ في إيرادِ الدَّلائِلِ والجوابِ عن الشُّبُهاتِ، وتحمَّلَ ما كانوا يفعلونَه من أنواعِ السَّفاهةِ وسُوءِ الأدَبِ.

الثَّالث: أنَّ هذا يدُلُّ على اعترافِ القَومِ بأنَّهم لم يعتَرِضوا البتَّةَ على دلائِلِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وما عارَضوها إلَّا بمَحضِ الجُحودِ والتقليدِ؛

لأنَّ قولَهم: ﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ إشارةٌ إلى الجُحودِ والتَّقليدِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه وعيدٌ ودَلالةٌ على أنَّهم لا يَفوتُونَه وإنْ طالَتْ مدَّةُ الإمهالِ، ولا بدَّ للوعيدِ أن يَلحَقَهم؛ فلا يَغُرَّنَّهمُ التَّأخيرُ[٢].

٣- عبادةُ اللهِ تعالى إنَّما هي بطاعتِه وطاعةِ رُسُلِه، فإذا أمَرَ اللهُ على ألْسِنةِ رُسُلِه بشَيءٍ، فعدَلَ عنه العبدُ إلى ما يُحبُّه هو؛ كان عابدًا لهواه، لا عابِدًا للهِ؛ قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾[٣]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ مَن قَدَّمَ هوى نفْسِه على هُدى ربِّه، فهو قد اتَّخذَه إلهًا؛ ولهذا يمكِنُنا أن نقولَ: إنَّ جميعَ المعاصي داخِلةٌ في الشِّركِ بهذا المعنى؛ حيث إنَّه قدَّمَها على مَرضاةِ اللهِ تعالى وطاعتِه، فجَعَلَ هذا شريكًا لله عزَّ وجلَّ في تعبُّدِه له، واتِّباعِه إيَّاه[٤]، ولا يعني ذلك أنَّ العاصيَ مشركٌ خرَج مِن المِلَّةِ بمعصيتِه.

٤- الإنسانُ إذا اعتبَرَ وتعَرَّف نفْسَه والنَّاسَ، رأى الواحِدَ يريدُ نفْسَه أن تُطاعَ وتَعلوَ بحسَبِ الإمكانِ، والنفوسُ مَشحونةٌ بحُبِّ العلُوِّ والرئاسةِ بحسَبِ إمكانِها، فتَجِدُه يوالي مَن يوافِقُه على هواه، ويُعادي مَن يخالِفُه في هواه، وإنَّما معبودُه ما يَهواه ويُريدُه؛ قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٧).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه سُبحانَه لَمَّا نفى عنهمُ السَّمعَ والعقلَ، فكيف ذَمَّهم على الإعراضِ عن الدِّينِ؟! وكيف بَعَثَ الرسولَ إليهم؛ فإنَّ مِن شرطِ التَّكليفِ العقلَ؟

الجوابُ: ليس المرادُ أنَّهم لا يَعقِلون، بل إنَّهم لا يَنتَفِعون بذلك العَقلِ، فهو كقَولِ الرجُلِ لغيرِه إذا لم يَفهَمْ: إنَّما أنت أعمى وأصَمُّ[1]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ سؤالٌ؛ لِمَ جُعِلوا أضَلَّ مِن الأنعامِ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

أحدها: أنَّ الأنعامَ تَنقادُ لأربابِها ولِلَّذي يَعْلِفُها ويَتَعَهَّدُها، وتُمَيِّزُ بيْنَ مَن يُحْسِنُ إليها وبيْن مَن يُسيءُ إليها، وتَطلُبُ ما يَنفعُها، وتَجتنبُ ما يضُرُّها، وهؤلاء لا يَنقادون لربِّهم، ولا يُميِّزونَ بيْنَ إحسانِه إليهم، وبيْن إساءةِ الشيطانِ إليهم الذي هو عدوٌّ لهم، ولا يَطلبون الثوابَ الذي هو أعظَمُ المنافعِ، ولا يَحترِزونَ مِن العقابِ الذي هو أعظَمُ المَضارِّ!

ثانيها: أنَّ قلوبَ الأنعامِ كما أنَّها تكونُ خاليةً عن العِلمِ فهي خاليةٌ عن الجهلِ الذي هو اعتِقادُ المعتقَدِ على خلافِ ما هو عليه مع التصميمِ، وأمَّا هؤلاء فقلوبُهم كما خَلَتْ عن العِلمِ فقد اتصفَتْ بالجهلِ؛ فإنَّهم لا يَعلمونَ، ولا يَعلمون أنهم لا يَعلمون، بل هم مُصِرُّون على أنَّهم يَعلمون.

ثالثها: أنَّ عدمَ عِلمِ الأنعامِ لا يَضُرُّ بأحدٍ، أمَّا جهلُ هؤلاء فإنَّه منشأٌ للضررِ العظيمِ؛ لأنَّهم يَصُدُّون الناسَ عن سبيلِ اللهِ، ويبغونها عِوَجًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

رابعها: أنَّ البهائمَ لا تَستحقُّ عقابًا على عدمِ العِلمِ، أمَّا هؤلاء فإنَّهم يَستحقُّون عليه أعظمَ العقابِ.

خامسها: أنَّ البهائمَ تُسبِّحُ اللهَ تعالى، على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨]، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، وإذا كان كذلك؛ فضلالُ الكفارِ أشَدُّ وأعظَمُ مِن ضلالِ هذه الأنعامِ[١].

سادسها: أن البهائمَ لم يَعرفوا، ولم يَكونوا أُعطوا آلةَ المعرفةِ، وأمَّا الكفارُ فلم يَعرفوا وقد أُعطوا آلةَ المعرفةِ؛ فهم أضَلُّ[٢]. والمحرومُ عن طلبِ المراتبِ العاليةِ إذا عَجَزَ عنه لا يكونُ في استحقاقِ الذَّمِّ كالقادر عليه التاركِ له لسوءِ اختيارِه[٣]!

سابعها: أنَّ البهائمَ لم تُفسِدْ ما لها مِن المعارفِ؛ فإنَّ الله تعالى أعطاها قدْرًا مِن المعارفِ فهي تَستعمِلُها، وأمَّا الكفارُ فقد أفسَدوا ما لهم مِن المعارفِ؛ فهم أضَلُّ وأقَلُّ مِن البهائمِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾

- قولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الوصفُ بـ﴿هُزُوًا﴾ للمُبالَغةِ في استِهزائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢).

به، حتَّى كأنَّه نفسُ الهُزُؤِ؛ لأنَّهم مَحَّضُوه لذلك. وإسنادُ ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ إلى ضميرِ الجَمعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ جَماعاتِهم يَستهزِئون به إذا رأَوْه وهُم في مَجالِسِهم ومُنتَدياتِهم. وصِيغةُ الحَصرِ (إنْ... إلَّا)؛ للتَّشنيعِ عليهم بأنَّهمُ انحَصَر اتِّخاذُهم إيَّاه في الاستِهزاءِ به، يُلازِمونه ويَدْأبون عليه، ولا يَخلِطون معه شيئًا مِن تَذكُّرِ أقوالِه ودَعوتِه؛ فالاستِثناءُ مِن عُمومِ الأحوالِ المَنفيَّةِ، أيْ: لا يَتَّخِذونك في حالةٍ إلَّا في حالةِ الاستِهزاءِ(١).

- قولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ مَقُولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يَقولون. والإشارةُ بـ (هذا) للاستِحقارِ منهم، وإبرازِ بَعثِ اللهِ رَسولًا في مَعرِضِ التَّسليمِ بجَعْلِه صِلةً للمَوصولِ الَّذي هو صِفتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع كَونِهم في غايةِ النَّكيرِ لبَعْثِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطريقِ التَّهكُّمِ والاستِهزاءِ والإنكارِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أَسنَدوا مُقاربةَ الإضلالِ إلى الرَّسولِ دُونَ أنفسِهم؛ تَرفُّعًا على أن يَكونوا قارَبوا الضَّلالَ عن آلهتِهم، مع أنَّ مُقارَبَتَه إضلالَهم تَستلزِمُ اقتِرابَهم مِنَ الضَّلالِ(٣).

- وجوابُ (لولا) في قولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣).

عَلَيْهَا ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبلَ (لولا) عليه، وهو ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾؛ وفائدةُ نَسجِ الكلامِ على هذا المِنوالِ دُونَ أن يُؤْتَى بأداةِ الشَّرطِ ابتِداءً مَتْلوَّةً بجوابِها: قَصْدُ العِنايةِ والاهتِمامِ بالخَبرِ ابتِداءً بأنَّه حاصِلٌ، ثمَّ يؤْتَى بالشَّرطِ بعْدَه تَقييدًا لإطلاقِ الخَبرِ بعْدَ إطلاقِه[1].

- قولُه: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ...﴾ هذا جَوابُ قولِهم: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ المُتضمِّنِ أنَّهم على هُدًى في دِينِهم، وكان الجوابُ بقطْعِ مُجادلتِهم، وإحالَتِهم على حينِ رؤْيتِهمُ العذابَ يَنزِلُ بهم، فتَضمَّنَ ذلك وعيدًا بعذابٍ[2]. ولَمَّا كان الجوابُ بالإعراضِ عنِ المُحاجَّةِ عبَّر بأُسلوبِ التَّهكُّمِ، بجعْلِ ما يَنكشِفُ عنه المستقبَلُ هو معرفةَ مَن هو أشدُّ ضلالًا مِنَ الفَريقَينِ، على طريقةِ المُجاراةِ، وإرخاءِ العِنانِ للمُخطِئِ إلى أن يَقِفَ على خطَئِه[3].

٣- قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ استِئنافٌ خوطِبَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَخطُرُ بنفْسِه مِنَ الحُزنِ على تَكرُّرِ إعراضِهم عن دَعْوتِه؛ إذْ كان حَريصًا على هُداهم، والإلحاحِ في دَعْوتِهم، فأَعلَمَه بأنَّ مِثلَهم لا يُرجَى اهتداؤُه؛ لأنَّهم جَعَلوا هواهُم إلهَهُم، فالخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[4].

- وقولُه: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ فيه -على قَولٍ- تقديمُ المفعولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٣٤، ٣٥).

الثَّاني ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على الأوَّلِ ﴿هَوَىٰهُ﴾؛ للعنايةِ به، والأصلُ: اتَّخذ الهوَى إلهًا[1]. وفيه -إلى جانبِ هذه النُّكتةِ- نُكتةٌ ثانيةٌ، وهي إفادةُ الحَصرِ؛ فإنَّ الكلامَ قبْلَ دُخولِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مُبتدأٌ وخَبرٌ، المبتدأُ (هَوَاهُ) والخبرُ (إِلَهُهُ)، وتَقديمُ الخبرِ -كما علِمْتَ- يُفيدُ الحَصرَ، فكأنَّه قال: أرأيتَ مَن لمْ يتَّخِذْ مَعبودَه إلَّا هَواهُ؛ فهو أبلَغُ في ذمِّه وتَوبيخِه[2].

- قولُه أيضًا: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أيْ: مَنِ اتَّخذ هَواه قُدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عمَلًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشَهوتِه، فكأنَّ هَواهُ إلهُه. وعلى هذا يكونُ معنَى إلهِه شبيهًا بإلهِه في إطاعتِه على طريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ، وهذا المعنى أَشمَلُ في الذَّمِّ؛ لأنَّه يَشملُ عبادتَهمُ الأصنامَ، ويَشملُ غيرَ ذلك مِنَ المُنكَراتِ والفَواحشِ مِن أفعالِهم[3].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قيل: الاستِفهامُ للتَّقريرِ، والتَّعجيبِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن شَناعةِ حالِهم بعْدَ حِكايةِ قَبائِحِهم مِنَ الأقوالِ والأفعالِ، وبيانِ ما لهم مِنَ المَصيرِ والمآلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ذلك مِنَ الغَرابةِ بحيث يَجِبُ أن يُرى ويُتعجَّبَ منه[4].

- قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إنكارٌ واستِبعادٌ لكَونِه صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

عليه وسلَّمَ حفيظًا عليه يَزجُرُه عمَّا هو عليه مِنَ الضَّلالِ، ويُرشِدُه إلى الحقِّ طَوعًا أو كَرهًا. والفاءُ في ﴿أَفَأَنتَ﴾ لتَرتيبِ الإنكارِ على ما قبْلَه مِنَ الحالةِ المُوجِبةِ له[١].

- وإنْ كان مَجموعُ جُملتَيْ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ كلامًا واحدًا متَّصِلًا ثانيهِ بأوَّلِه اتِّصالَ المفعولِ بعامِلِه؛ تَعيَّنَ فِعلُ «رأيْتَ» لأنْ يَكونَ فِعلًا قَلْبيًّا بمعنَى العِلمِ، وكان الاستِفهامُ الَّذي في الجملةِ الأُولى بقولِه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ إنكاريًّا كالثَّاني في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، وكان مجموعُ الجُملتَينِ كلامًا على طريقةِ الإجمالِ، ثمَّ التَّفصيلِ. والمعنَى: أَرأيْتَكَ تكونُ وَكيلًا على مَنِ اتَّخذ إلهَه هَواهُ؟ وتكونُ الفاءُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ﴾ فاءَ الجوابِ للمَوصولِ؛ لمُعاملَتِه مُعاملةَ الشَّرطِ، وهمزةُ الاستِفهامِ الثَّانيةُ تأكيدٌ للاستِفهامِ الأوَّلِ، كقولِه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: ٤٩] على قِراءةِ إعادةِ همزةِ الاستِفهامِ، وتكونُ جُملةُ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ عِوَضًا عنِ المفعولِ الثَّاني لفِعلِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾، والفِعلُ مُعلَّقٌ عنِ العملِ فيه؛ بسببِ الاستِفهامِ، على نحْوِ قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وعليه لا يُوقَفُ على قوله: ﴿هَوَىٰهُ﴾، بلْ يوصَلُ الكلامُ. وإنْ كانتْ كلُّ جملةٍ مِنَ الجُملتَينِ مُستقِلَّةً عنِ الأُخرى في نظْمِ الكلامِ، كان الاستِفهامُ الَّذي في الجُملةِ الأُولى مُستعمَلًا في التَّعجيبِ مِن حالِ الَّذين اتَّخذوا إلهَهم هَواهُم تَعجيبًا مَشوبًا بالإنكارِ، وكانتِ الفاءُ في الجُملةِ الثَّانيةِ للتَّفريعِ على ذلك التَّعجيبِ والإنكارِ، وكان الاستِفهامُ الَّذي في الجُملةِ الثَّانيةِ مِن قَولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ بمعنَى: أنَّك لا تَستطيعُ قَلْعَه عن ضَلالِه، كما أشار إليه قَولُه قبْلَه: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[(١)] [الفرقان: ٤٢].

- و(مَن) في قَولِه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ صادِقةٌ على الجَمْعِ المُتحدَّثِ عنه في قَولِه: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [الفرقان: ٤٢]، ورُوعيَ في ضَمائرِ الصِّلةِ لفْظُ (مَن)؛ فأُفرِدَتِ الضَّمائرُ[(٢)].

- وفي قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ تَقديمُ المُسنَدِ إليه (أَنْت) على الخَبرِ الفِعليِّ؛ للتَّقوِّي؛ إشارةً إلى إنكارِ ما حَمَّل الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نفْسَه مِنَ الحِرصِ والحُزنِ في طلَبِ إقلاعِهم عنِ الهوَى[(٣)]. ولَمَّا كان مُرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -حِرْصًا عليهم، ورَحمةً لهم- ردَّهُم عنِ الغَيِّ ولا بدَّ؛ عَبَّر بأداةِ الاستِعلاءِ في قَولِه: ﴿عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[(٤)].

٤- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ عنِ التَّأْييسِ مِن اهتِدائِهم؛ لغلَبةِ الهوَى على عُقولِهم، إلى التَّحذيرِ مِن أن يُظَنَّ بهم إدراكُ الدَّلائلِ والحُجَجِ، وهذا تَوجيهٌ ثانٍ للإعراضِ عن مُجادلَتِهمُ الَّتي أَنبأَ عنها قَولُه تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، فـ (أَمْ) مُنقطِعةٌ للإضرابِ الانتِقاليِّ مِن إنكارٍ إلى إنكارٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٤).

وهي مؤذِنةٌ باستِفهامٍ عطَفَتْه على الاستِفهامِ الَّذي قبْلَها. والتَّقديرُ: أَمْ أَتَحسَبُ أنَّ أكثرَهم يَسمَعون أو يَعقِلون(١)؟

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ نُفيَ فَهمُ الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ والعَقليَّةِ عن (أكثرِهم) دُونَ جميعِهم؛ لأنَّ هذا حالُ دَهْمائِهم ومُقَلِّدِيهم فقطْ، ومِنهم مَن عَقَل الحَقَّ وكابَرَ استِكبارًا، وخَوفًا على الرِّئاسةِ؛ ففيهم مَعشَرٌ عُقلاءُ يَفهَمون ويَستَدِلُّون بالكائناتِ، ولكنَّهم غَلَبَ عليهم حُبُّ الرِّئاسةِ، وأَنِفوا مِن أن يَعُودوا أتْباعًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُساوِينَ للمؤْمنِينَ مِن ضُعفاءِ قُرَيشٍ وعَبيدِهم مِثْلِ: عَمَّارٍ وبِلالٍ. وأيضًا تَخصيصُ الأكثَرِ؛ لأنَّه كان مِنهم مَن آمَنَ(٢).

- وضَميرُ ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لـ (مَن)، وجمْعُه باعتِبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُوَلِ باعتِبارِ لفْظِها(٣).

- وعَطْفُ ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ على ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ لنفْيِ أن يَكونوا يَعقِلون الدَّلائلَ غَيرَ المَقاليَّةِ، وهي دَلائلُ الكائناتِ(٤).

- قولُه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتَقريرِ النَّكيرِ وتَأكيدِه، وحَسْمِ مادَّةِ الحُسبانِ بالمرَّةِ(٥). وقيل: مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن إنكارِ أنَّهم يَسمَعون يُثيرُ في نفْسِ السَّامِعينَ سؤالًا عن نفْيِ فَهمِهم لِما يَسمَعون مع سلامةِ حَواسِّ السَّمعِ منهم؛ فكان تَشبيهُهم بالأنعامِ تَبيينًا للجَمعِ بيْن حُصولِ اختِراقِ أصواتِ الدَّعوةِ آذانَهم مع عدَمِ انتِفاعِهم بها؛ لعدَمِ تَهيُّئِهم للاهتِمامِ بها؛ فالغرضُ مِنَ التَّشبيهِ التَّقريبُ والإمكانُ[1].

- وقولُه: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه تشبيهٌ لأكثرِ النَّاسِ بالأنعامِ، والجامعُ بيْن النوعينِ: التَّساوي في عدمِ قَبولِ الهدى والانقيادِ له[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

الآيات (٤٥-٥٤)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
(٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا
وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا
(٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى
كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ۞
وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا
(٥٣) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَبَضْنَٰهُ﴾: أي: أزَلْناه ونسَخْناه، وأصلُ (قبض): يدُلُّ على شيءٍ مأخوذٍ[1].

﴿لِبَاسًا﴾: أي: ساتِرًا وغِشاءً، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[2].

﴿سُبَاتًا﴾: أي: راحةً لأبدانِكم، وقَطعًا لأعمالِكم، وأصلُ (سبت): يدُلُّ على القَطعِ[3].

﴿نُشُورًا﴾: أي: يَقظةً وحياةً، يَنتشِرونَ فيه، ويَبتَغونَ الرِّزقَ، ويَتصرَّفونَ في

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢).

حاجاتِهم، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه(١).

﴿بُشْرًا﴾: أي: مُبَشِّراتٍ بالغَيثِ، والبُشرى تُطلَقُ على الإِخْبار بِمَا يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشِّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ(٢).

﴿وَأَنَاسِيَّ﴾: الأناسيُّ: جَمعُ إنسيٍّ، وهو مرادِفُ إنسانٍ، مِثلُ كُرسيٍّ وكَراسيَّ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وكلِّ شَيءٍ خالَفَ طريقةَ التَّوحُّشِ(٣).

﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: قسَّمْناه، يعني المطرَ: يَسقي أرضًا، ويترك أرضًا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ(٤).

﴿كُفُورًا﴾: أي: جُحُودًا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ(٥).

﴿مَرَجَ﴾: أي: خلَطَ أو خلَّى بيْنهما، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ واضطرابٍ(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

﴿فُرَاتٌ﴾: الفُراتُ: الماءُ الشَّديدُ العُذوبةِ، قِيل: سُمِّي الماءُ الحُلوُ فُراتًا؛ لأنَّه يَفْرُتُ العطشُ، أي: يقطَعُه ويكسِرُه(١).

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: شَديدُ المُلوحةِ، وأصلُ (أجج): يدُلُّ على الشِّدَّةِ(٢).

﴿بَرْزَخًا﴾: أي: حاجِزًا ومانِعًا؛ لئلَّا يَختلطا، وكلُّ حاجزٍ بيْنَ شَيئينِ فهو برزخٌ(٣).

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي: حَرامًا مُحَرَّمًا على صاحبِه أنْ يُغَيِّرَه ويُفْسِدَه، أو مانِعًا مَمْنوعًا، وأصلُ (حجر): المَنعُ والإحاطَةُ على الشَّيءِ(٤).

﴿نَسَبًا﴾: النَّسبُ: اشتِراكٌ مِن جهةِ أحدِ الأبوَينِ، أي: أن يجتمعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، وقيل: ﴿نَسَبًا﴾ أي: ذا نسبٍ، وهو ما لا يَحِلُّ نكاحُه، وأصلُ (نسب): اتِّصالُ شَيءٍ بشَيءٍ، ومنه النَّسَبُ؛ سُمِّيَ لِاتِّصالِه ولِلاتِّصالِ به(٥).

---

(١) ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤، ٧٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٢٢٠).
قال ابن فارس: (مِمَّا فيه حرفٌ زائدٌ «البرزَخُ»: الحائِلُ بيْنَ الشَّيئيْنِ، كأنَّ بيْنهما بَرازًا، أي: مُتَّسَعًا مِن الأرضِ، ثُمَّ صارَ كُلُّ حائِلٍ بَرْزَخًا، فالخاءُ زائِدَةٌ). ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٣٣).
وقال الراغب: (وقيل: أصلُه «برزه»، فعُرِّب). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ١١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) (٥/ ٤٢٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٠١)، =

﴿وَصِهْرًا﴾: الصِّهرُ: قرابةُ النِّكاحِ، وأهلُ بَيتِ المرأةِ، وأصلُ (صهر): يدُلُّ على قُربى[١].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ قدرتِه، ويمتَنُّ على عبادِه ببيانِ بعضِ النِّعمِ التي أنعَم بها عليهم، فيقول: ألَمْ ترَ -يا محمَّدُ- إلى كيفيَّةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ دائمًا لا يتحَرَّكُ، ثمَّ جعَلَ الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ، ثمَّ نقَصَ ذلك الظِّلَّ.

واللهُ سُبحانَه الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ سِترًا يَستُرُكم بظَلامِه، وجعَل النَّومَ قاطعًا لحركتِكم لِتَستريحوا، وجعل النَّهارَ حياةً تنتَشِرونَ فيه لطلَبِ الأرزاقِ.

واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ تبَشِّرُ النَّاسَ بنُزولِ المطَرِ، وأنزَل مِن السَّماءِ ماءَ المطَرِ الطَّهورَ؛ ليُحييَ به أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها، ويَسقيَ به ما خلَقَه مِن الأنعامِ والنَّاسِ.

ولقد قسَّم سُبحانَه ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ للتذكُّرِ والاعتِبارِ، فأبى أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ باللهِ والجُحودَ، ولو شاء اللهُ تعالى لجعَلَ في كلِّ قَريةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويدعوهم إليه؛ فلا تُطِعِ الكافرين -يا محمَّدُ- فيما يُريدونَه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو تَرْكِ شَيءٍ مما أُرسِلتَ به، وجاهِدْهم بالقُرآنِ جِهادًا شديدًا.

واللهُ وحْدَه هو الذي أرسل البَحرينِ وخلَّاهما؛ أحدُهما شديدُ العذوبةِ، والآخَرُ شديدُ الملوحةِ، وهو بقدرتِه يَفصِلُ بيْنهما ويمنَعُهما التَّمازُجَ والاختِلاطَ.

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

وهو وحْدَه الذي خلَقَ مِن المَنيِّ إنسانًا، فجعَلَ ذلك الإنسانَ ذا نَسَبٍ وذا صِهرٍ، ولم يزَلْ سُبحانَه قَديرًا على كلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمّا بَيَّنَ سُبحانَه جهْلَ المُعرِضين عن دلائلِه، وفَسادَ طريقِهم في ذلك؛ ذَكَرَ بعْدَه أنواعًا مِن الدَّلائلِ الدالَّةِ على وجودِ الصَّانعِ، فقال تعالى(١):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾.

أي: ألم تَرَ(٢) -يا محمَّدُ- إلى هيئةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٤).

(٢) قال الشوكاني: (هذه الرُّؤيةُ إمَّا بَصَريَّةٌ، والمرادُ بها: ألم تُبصِرْ إلى صُنعِ رَبِّك؟ أو ألم تُبصِرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟ وإمَّا قَلبيَّةٌ، بمعنى العِلمِ؛ فإنَّ الظِّلَّ مُتغيِّرٌ، وكُلُّ مُتغيِّرٍ حادثٌ، ولكُلِّ حادِثٍ مُوجِدٌ. قال الزَّجَّاجُ: ألم تَرَ: ألم تَعلَمْ، وهذا مِن رؤيةِ القَلبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ القلبِ، والمراد: ألَمْ تَعلَمْ: الفرَّاءُ، والزجَّاجُ، وابنُ عطية، وأبو حيان، والعليمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ بصَريَّةٌ، أي: ألَمْ تَنظُرْ: البيضاويُّ، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٩).

وجمَع السعديُّ بيْن القولينِ، فذكَر أنَّ المعنى: (ألم تشاهِدْ ببصرِك وبصيرتِك). ((تفسير =

طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ مَمدودًا دائِمًا لا يتحَرَّكُ بزيادةٍ ولا نُقصانٍ[1]؟!

= السعدي)) (ص: ٥٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠، ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٠).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالظِّلِّ: مِن طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والبَغَوي، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠، ٤٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمَرَ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو العاليةِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، ومسروقٌ، والحسَنُ، وقتادةُ، وأبو مالِكٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّي، وأبو سِنانٍ الشَّيبانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠١).

قال الواحديُّ: (والمفَسِّرون جميعًا قالوا في معنى الظِّلِّ هاهنا: إنَّه الظِّلُّ مِن وَقتِ طُلوعِ الفَجرِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ). ((البسيط)) (١٦/ ٥١٧).

ونَسَب النَّسَفيُّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٠).

قال البغوي: (وهو ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، جعَلَه ممدودًا؛ لأنَّه ظِلٌّ لا شَمسَ معه، كما قال في ظِلِّ الجنَّةِ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] لم يكُنْ معه شمسٌ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧).

واعترض ابنُ عطيَّةَ على هذا المعنى بأنَّ ذلك في غيرِ نهارٍ، بل في بقايا اللَّيلِ، وهذا لا يُقالُ له ظِلٌّ، واختار أنَّ المرادَ بمَدِّ الظِّلِّ بإطلاقٍ هو بيْنَ أوَّلِ الإسفارِ إلى بُزوغِ الشَّمسِ، ومِن بَعدِ مَغيبِها مُدَّةً يَسيرةً؛ فإنَّه في هذينِ الوقتَينِ على الأرضِ كُلِّها ظِلٌّ ممدودٌ على أنَّها نهارٌ، وفي سائِرِ أوقاتِ النَّهارِ ظِلالٌ مُتقَطِّعةٌ، والمَدُّ والقَبضُ مُطَّرِدٌ فيها. قال: (وهو عندي المرادُ في الآيةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢).

وقيل: المرادُ به: ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظِّلُّ طويلًا ممدودًا، ثم يُقبَضُ شيئًا فشيئًا. وهذا ظاهِرُ اختيار ابن القيِّمِ، وابنِ عاشور. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن =

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

أي: ثمَّ جعلْنا الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ؛ فهو يَتبَعُها، ويتفاوَتُ بحَركتِها[1].

= القيم (٣/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٩-٤١).

وقيل: المرادُ بالظِّلِّ هنا: اللَّيلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: أبو القاسم النيسابوريُّ، والبقاعي. يُنظر: ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٧).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على جميعِ هذه المعاني: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩١-١٩٢).

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالظِّلِّ على الخِلافِ ثلاثةُ آراءٍ: إمَّا أنَّه ما بينَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طلوعِ الشَّمسِ... أو أنَّه اللَّيلُ كُلُّه، ويكونُ مَدُّه تطويلَه ثمَّ ينقُصُ، ففي هذا من قدرةِ الله تعالى: تغيُّرُ الفُصولِ بسبَبِ طولِ اللَّيلِ وقِصَرِه. أو أنَّ المرادَ به ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظلُّ طويلًا ممدودًا، ثمَّ يُقبَضُ شيئًا فشيئًا، ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ اللهُ سُبحانَه وتعالى ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، والسُّكونُ هنا يختلفُ معناه بحسَبِ اختلافِ معنى الظلِّ؛ فإذا قُلْنا: المرادُ بالظلِّ ما بينَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، كان المرادُ بالسكونِ أنَّ الشمسَ تخرجُ دَفعةً واحدةً بدون أن يكونَ ظِلُّها شَيئًا فشَيئًا، وإذا قُلْنا: إنَّ المرادَ به اللَّيلُ، كان المرادُ بسكونِه أن يبقَى الليلُ دائمًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وإذا قلنا: إنَّ المرادَ بالظلِّ ظلُّ الشاخصِ، صار المرادُ بسكونِه أنَّ الشمسَ لا تتحرَّكُ، وتبقَى في مكانٍ واحدٍ، ويكونُ الظلُّ ساكنًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ... [و] ما دام أنَّ هذه المعانيَ لا تتنافى، فالواجِبُ أن تُحمَلَ الآيةُ على الجميعِ، وهذه قاعدةٌ ... قرَّرها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ المعانيَ المذكورةَ فيها، فالواجِبُ أن تُحمَلَ على كلِّ هذه المعاني؛ لأنَّ كلامَ الله سُبحانه وتعالى لا يُحيطُ به شيءٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ جعْلُ الشَّمسِ دَليلًا على الظِّلِّ فيه دليلٌ ليس على مجرَّدِ وجودِ الظلِّ، بل دليلٌ على ما فيه مِن المصالحِ، وهي أيضًا مدلولٌ عليها به؛ فالشَّمسُ الآنَ يُستدَلُّ بها على ما في الظلِّ مِن المصالحِ، ويُستدَلُّ بالظِّلِّ على ما فيها من =

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: ثمَّ نَقَصْنا ذلك الظِّلَّ الممدودَ بسُهولةٍ وتدريجٍ(١).

= المصالحِ أيضًا؛ لأنَّ غيبَ الشَّمسِ عن الأرضِ قد يؤثِّرُ، وبقاءَها دائمًا على وجهِ الأرضِ قد يؤثِّرُ، مِثلُ قولِ الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، فكونُ هذا دليلًا على هذا، وهذا دليلًا على هذا: هو أيضًا مِن رحمةِ الله؛ لأنَّه لولا الشمسُ ما عرَفْنا فائدةَ الظلِّ، ولولا الظلُّ ما عرَفْنا فائدةَ الشَّمسِ، فكُلٌّ منهما في الحقيقةِ دالٌّ ومدلولٌ). ((تفسير ابن عثيمين – سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٦، ٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

قال الواحدي: (﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ ﴾ الكنايةُ تعودُ إلى الظِّلِّ الذي سَبَق ذِكرُه، وهو: ظِلُّ الغَداةِ بإجماعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ٥٢٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾: الظِّلُّ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والماوَرْدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٦١).

وقيل: المعنى: قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٢).

وقال البقاعي: (﴿إِلَيْنَا﴾ أي: إلى الجهةِ التي نُريدُها، لا يقدِرُ أحَدٌ غَيرُنا أن يحوِّلَه إلى جهةٍ غَيرِها). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٨). =

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يَسِيرًا﴾ أي: على مَهلٍ، قَبضًا خفيفًا، جُزءًا فجُزْءًا، وشيئًا بعْدَ شَيءٍ، لا دَفعةً واحدةً: السمرقنديُّ، والزمخشري، والخازن، وابن جُزي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

قال ابنُ قُتَيْبةَ: (وقولُه: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: خفيًّا؛ لأنَّ الظلَّ بعْدَ غروبِ الشَّمسِ لا يذهَبُ كُلُّه دَفعةً واحدةً، ولا يُقبِلُ الظلامُ كُلُّه جملةً، وإنما يَقبِضُ الله جلَّ وعزَّ ذلك الظِّلَّ قَبضًا خفيًّا شَيئًا بعدَ شَيءٍ، ويُعقِبُ كُلَّ جزءٍ منه يَقبِضُه بجزءٍ مِن سوادِ الليلِ حتى يذهبَ كُلُّه. فدلَّ الله عز وجلَّ بهذا الوصفِ على قدرتِه ولطفِه في معاقبتِه بيْن الشمسِ والظلِّ واللَّيلِ؛ لمصالحِ عِبادِه وبلادِه. وبعضُهم يجعَلُ قبْضَ الظِّلِّ عندَ نَسخِ الشَّمسِ إيَّاه، ويجعلُ قَولَه: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا خفيفًا عليه. وهو وجهٌ، غيرَ أنَّ التفسيرَ الأوَّلَ أجمَعُ للمعاني، وأشبَهُ بما أراد). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يَسِيرًا﴾: أي: خفيًّا سريعًا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٢).

وقال ابنُ جرير: (وقولُه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: ثمَّ قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ إلينا قَبضًا خَفيًّا سَريعًا بالفَيءِ الذي نأتي به بالعَشِيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤).

وقال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا: الظِّلُّ ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ أو ما بيْنَ وَقتِ الإسفارِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ، فإنَّه يُقبَضُ هذا الظِّلُّ شَيئًا فشَيئًا، لا يزالُ النُّورُ يَسطَعُ تدريجيًّا حتى تطلُعَ الشَّمسُ. هذه واحِدةٌ.

وإذا قُلْنا: المرادُ به اللَّيلُ، فهو أيضًا يُقبَضُ شَيئًا فشَيئًا، يعني: لا يكونُ اللَّيلُ في هذا اليومِ اثنَتي عَشْرةَ ساعةً، ويكونُ تِسعَ ساعاتٍ في اليومِ الذي يليه، وإنَّما يُقبَضُ شيئًا فشيئًا.

كذلك إذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بالظِّلِّ ظِلُّ الشَّاخِصِ، فهو نفْسُ الشَّيءِ؛ إنَّما يتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا، وليس في الآيةِ إشكالٌ سِوى قَولِه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، ﴿إِلَيْنَا﴾ هذه الغايةُ فيها إشكالٌ؛ لأنَّه كان مِن المُمكِنِ أن يَقتَصِرَ على قَولِه: «ثمَّ قَبَضْناه قَبضًا يَسيرًا»، فما الحِكمةُ مِن هذه الغايةِ في قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؟ =

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن الاستِدلالِ باعتبارِ أحوالِ الظِّلِّ والضَّحاءِ إلى الاعتِبارِ بأحوالِ اللَّيلِ والنَّهارِ: ظاهِرةٌ؛ فاللَّيلُ يُشبِهُ الظِّلَّ في أنَّه ظُلمةٌ تَعقُبُ نورَ الشَّمسِ(١).

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنتْ هذه الآيةُ اللَّيلَ والنهارَ؛ قال مُصَرِّحًا بهما دليلًا على الحَقِّ، وإظهارًا للنِّعمةِ على الخلْقِ(٢):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾.

= بعضُهم يرى أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ أي: الشَّمسَ، باعتِبارِها دَليلًا، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أي: قَبَضْنا هذا الدَّليلَ ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

وعلى كلِّ حالٍ يُوجَدُ احتِمالُ أنَّه يَجعَلُ المرادَ بقولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ يعني: الدَّليلَ، أي: الشَّمسَ، ويكونُ المرادُ بالقَبضِ إليه ما أشار إليه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِه في حديث أبي ذرٍّ: «فإنَّها تَذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ» [البخاري (٣١٩٩) ومسلم (٢٥٠)].

ويوجَدُ احتِمالٌ ثالِثٌ ذهب إليه الزمخشريُّ، وقال: إنَّ المرادَ بالقَبضِ هنا ما ذكَرَه اللهُ بقَولِه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، وإنَّ المرادَ به قَبضُ هذه النَّيِّراتِ -الشَّمسِ وغَيرِها- يومَ القيامةِ، وجَعَل اليسيرَ ليس صفةً للقَبضِ، يعني: أنَّه يكونُ شيئًا فشيئًا، بل هو صِفةٌ للفِعلِ، يعني أنَّه يسيرٌ عليه، كقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، لكنِ الأخيرُ بَعيدٌ؛ لأنَّ الله تعالى إنما يمتَنُّ بذلك على أمرٍ يُدرِكُ الناسُ فائدتَه في الدُّنيا، وتمامَ قُدرةِ الله تعالى فيه، فيكونُ على هذا إمَّا أن يُقالَ: إنَّ الغايةَ التي ذكرها اللهُ سبحانه وتعالى إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن تصرُّفِه وحْدَه، وأنَّ الأمرَ إليه وحْدَه لا إلى غَيرِه، فيكونُ دليلًا على عَظَمةِ اللهِ سبحانه وتعالى، أو أنَّ المرادَ بالقَبضِ إليه أنَّ الشَّمسَ تُقبَضُ إلى اللهِ، بمعنى أنَّها تذهَبُ وتسجُدُ تحت العَرشِ، كما جاء به الحديثُ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٩).

أي: واللهُ هو الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ- غِطاءً وسِترًا يَستُركم ويُغشِّيكم بظَلامِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّومَ قاطِعًا لحركتِكم وأشغالِكم، فتستريحُ به أبدانُكم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤، ٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٠).

قال ابنُ عثيمين: (وهل هو لباسٌ للأرضِ أو لباسٌ لنا؟ للجميعِ؛ لأنَّه يكسو الأرضَ، ويكسو الإنسانَ في الواقعِ، فهو كاسٍ للأرضِ، وكاسٍ أيضًا للإنسانِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

قال الشنقيطي: (وأمَّا جَعلُه لهم النَّومَ سُباتًا، فأكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الرَّاحةُ مِن تَعَبِ العَمَلِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ يَقطَعُ العمَلَ النَّهاريَّ، فينقَطِعُ به التَّعبُ، وتحصُلُ الاستراحةُ كما هو معروفٌ...). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الراحةُ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدينِ المحليُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّهارَ حَياةً بعْدَ نَومِكم الذي يُشبِهُ الموتَ، ويَقَظةً تَنتَشِرون في ضيائِه لطَلَبِ الأرزاقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

= وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ: يَسبُتُ النائمُ حتَّى لا يَعقِلَ كأنَّه مَيتٌ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٤).

قال الزمخشريُّ: (والسُّباتُ: الموتُ. والمَسبوتُ: الميتُ؛ لأنَّه مقطوعُ الحياةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣).

وقال الشنقيطيُّ: (وإيضاحُ كلامِه: أنَّ النُّشورَ هو الحياةُ بعد الموتِ...، وعليه فقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: حياةً بعد الموتِ، وعليه فالموتُ هو المعبَّرُ عنه بالسُّباتِ في قَولِه: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، وإطلاقُ الموتِ على النَّومِ معروفٌ في القرآنِ العظيمِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦١)

وقال ابن عاشور: (وفسَّر الزمخشريُّ السُّباتَ بالموتِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، ناظرًا في ذلك إلى مُقابَلتِه بقولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

وقال البقاعي: (﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: نومًا وسكونًا وراحةً، عبارة عن كونِه موتًا أصغرَ طاويًا لِما كان مِن الإحساسِ، قطعًا عمَّا كان مِن الشُّعورِ والتقلُّبِ، دليلًا لأهلِ البصائرِ على الموتِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أراد أن ينامَ قال: باسمِك اللَّهمَّ أموتُ وأَحْيَا. وإذا استيقَظَ مِن مَنامِه قال: الحمدُ لله الذي أحيانا بعْدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ))[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دلَّ على عظَمتِه بتصَرُّفِه في المعاني بالإيجادِ والإعدامِ، وخَتَمَه بالإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ قريبةٍ؛ أتبَعَه التصرُّفَ في الأعيانِ بمِثلِ ذلك؛ دالًّا على الإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ بعيدةٍ، وبدأه بما هو قريبٌ لِلَطافتِه مِن المعاني، فقال[٢]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿بُشْرًا﴾ أي: تُبشِّرُ بالمطَرِ[٣].

٢- قراءةُ ﴿نَشْرًا﴾، قيل: المرادُ: يُرسِلُ الرِّياحَ حياةً، أي: تحيا بها البلادُ الميتةُ. وقيل: أي: تهبُّ مِن كُلِّ وجهٍ لجمعِ السَّحابِ الممطِرةِ. وقيل: النَّشْرُ مِن الرِّياحِ: الطيِّبةُ الليِّنةُ التي تُنشئُ السَّحابَ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

(٣) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٤٥).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠). =

٣- قراءةُ ﴿نُشْرًا﴾ جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السَّحابَ وتَبسُطُها في السَّماءِ، وقيل: ليِّنةً طيِّبةً. وقيل: متفرِّقةً، وهي الرِّياحُ التي تهبُّ مِن كُلِّ ناحيةٍ[1].

٤- قراءةُ ﴿نُشُرًا﴾ جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السحابَ، وتبسطُها في السماءِ. وقيل: متفرقةً[2].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ فتبَشِّرُ النَّاسَ بمَجيءِ السَّحابِ ونُزولِ المطَرِ قبْلَ أن يفجَأَهم بنُزولِه[3].

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان السَّحابُ قريبًا مِن الرِّيحِ في اللَّطافةِ، والماءُ قريبًا منهما، ومُسَبَّبًا عمَّا تحمِلُه الريحُ مِن السَّحابِ؛ أتبَعَهما به، فقال[4]:

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٥٧)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٥).

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ، الطَّاهِرَ في نفْسِه، المطَهِّرَ لِغَيرِه(١).

﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ٤٩ ﴾.

﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾.

أي: لِنُحييَ بالمطَرِ أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

أي: ونُسقِيَ بالمطَرِ كَثيرًا مِمَّا خلَقْنا مِن الأنعامِ والنَّاسِ، فيَشرَبون مِن ماءِ المطَرِ، ويَسقُونَ به زُروعَهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٥٠ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وعلَّله بحياةِ البَلدةِ المَيْتةِ، وسَقْيِ بعضِ الأنعامِ وبَعضِ الأَناسيِّ، عُرِف أنَّ ذلك كان بقَدْرِ الاحتِياجِ، ولا بدَّ مِن قادرٍ مُختارٍ عالِمٍ بجُزئيَّاتِ أحوالِ المَخلوقينَ، حتَّى يُحوِّلَ إلى كلٍّ مِن ذلك ما يَحتاجُ إليه[1]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾.

أي: ولقد قسَّمْنا ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ؛ لأجْلِ أن يتذكَّروا ويعتَبِروا[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩، ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٢، ٦٣).

قال أبو حيان: (والضَّميرُ في ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ عائدٌ على الماءِ المنزَّلِ مِن السَّماءِ، أي: جعَلْنا إنزالَ الماءِ تَذكِرةً بأن يُصرِّفَه عن بعضِ المواضِعِ إلى بعضٍ، وهو في كلِّ عامٍ بمقدارٍ واحدٍ، قاله الجمهورُ؛ منهم: ابنُ مسعود، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، فعلى هذا التأويلِ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ هو قولُهم بالأنواءِ والكواكِبِ، قاله عِكرمةُ. وقيل: ﴿كُفُورًا﴾ على الإطلاقِ لَمَّا ترَكوا التذكُّرَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا: عائدٌ على القرآنِ وإن لم يتقدَّمْ له ذِكرٌ؛ لوضوحِ الأمرِ، ويعضُدُه: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾؛ لتوافُقِ الضَّمائرِ. وعلى أنَّه للمطَرِ يكونُ ﴿بِهِۦ﴾ للقرآنِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ يعودُ على المطرِ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والرازيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٢).

ونسَب السمعانيُّ هذا القولَ إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥). =

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

أي: فلمْ يتذكَّرْ أكثَرُ النَّاسِ بتَصريفِ اللهِ للمطَرِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ باللهِ، وجُحودِ نِعَمِه، وإنكارِ قُدرتِه وحِكمتِه[1].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٦٤).

قال الشنقيطيُّ: (المعنى: ولقد صرَّفْنا ماءَ المطرِ بيْن الناسِ؛ فأنزَلْنا مطرًا كثيرًا في بعضِ السِّنينَ على بعضِ البلادِ، ومنَعْنا المطرَ في بعضِ السِّنينَ عن بعضِ البلادِ، فيَكثُرُ الخِصبُ في بعضِها، والجدبُ في بعضِها الآخَرِ. وقولُه: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، أي: صرَّفْناه بيْنَهم لأجْلِ أن يَتذكَّروا، أي: يتذكَّرَ الذين أخصبَتْ أرضُهم لكثرةِ المطرِ نعمةَ الله عليهم، فيَشكُروا له، ويتذكَّرَ الذين أجدبت أرضُهم ما نزَل بهم مِن البلاءِ، فيُبادِروا بالتَّوبةِ إلى الله جلَّ وعلا؛ لِيَرحمَهم ويَسقيَهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٣).

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ الله تعالى غيَّرَ هذا المطرَ بالنسبةِ للنَّاسِ، ووزَّعه بيْنهم ما بيْن مُقِلٍّ ومُستكثِرٍ؛ فمِنهم مَن يكثُرُ المطرُ عندَه، ومِنهم مَن يقِلُّ، هذا بالنِّسبةِ للبيئَةِ، كذلك أيضًا صرَّفه الله سبحانه وتعالى بيْنهم بالنِّسبةِ لكلِّ أحدٍ؛ أحيانًا يكونُ المطرُ كثيرًا في عامٍ، وقليلًا في عامٍ... ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي: نِعمةَ الله فيما إذا نزَلَ عليهم، و﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ يتَّعِظوا ويَذكُروا ما هم عليه مِن المعاصي والآثامِ فيما إذا لم ينزِلْ، وكذلك أيضًا ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بذلك قدرةَ الله، حيث صرَفَ في محلٍّ دونَ محلٍّ. فالمهمُّ أنَّ تصريفَ هذا المطرِ في محلٍّ دونَ محلٍّ، أو في سَنةٍ دون سَنةٍ هذا لا شَكَّ أنَّه سَبَبٌ لِتَذكُّرِ الإنسانِ؛ إما تذَكُّر النعمةِ إذا كان ناسيًا، وإما تذكُّر النِّقمةِ ومعاصيه إذا كان ممتنعًا، وإما تذكُّر القدرةِ حينما يَعرفُ أنَّه في مكانٍ يكونُ غَزيرًا، وفي مكانٍ يكونُ قليلًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾: أي: القرآنَ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عطاءٌ الخُراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٧).

وقيل: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ أي: هذا القولَ، وهو ذكرُ إنشاءِ السَّحابِ، وإنزالِ المطرِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إثرِ السَّماءِ(١) كانت من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ أقبَلَ على النَّاسِ، فقال: هل تَدرُونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبَحَ مِن عِبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورحمتِه، فذلك مؤمِنٌ بي كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنَوءِ(٢) كذا

= (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٣).

قال النحاسُ: (لا يُعلَمُ بينَ أهلِ التَّفسيرِ اختِلافٌ أنَّ الكُفرَ هاهنا قولُهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا، وأنَّ نظيرَه قَولُ المنجِّمِ: فعَلَ النَّجمُ كذا وكذا، وأنَّ كُلَّ مَن نَسَبَ إليها فعلًا، فهو كافرٌ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١١٤).

قال ابنُ عثيمينَ: (ومِن الكُفرِ بهذا المطَرِ... أن يجعَلَ ذلك سببًا للأشَرِ والبطَرِ، مِثلَما يحصُلُ مِن بعضِ الناسِ: إذا نزلَتِ الأمطارُ وكثُرت الأبيارُ صارت سببًا لأشَرِه وبطَرِه وفُسوقِه، فهذا من أسبابِه. ومِن أسبابِ الكُفرِ أيضًا: أنَّه إذا امتنَع المطَرُ صار امتناعُه سببًا لقُنوطِ الإنسانِ مِن رحمةِ الله سبحانَه وتعالى، والقُنوطُ مِن رحمةِ الله مِن كبائرِ الذنوبِ، وليس بالأمرِ الهَيِّنِ؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أن يَقنَطَ مِن رحمةِ الله، ولا أن يأمَنَ مَكرَ الله، لا هذا ولا هذا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٦).

(١) إثرِ السَّماءِ أي: بعْدَ نُزولِ مطرٍ. والإثرُ: هو ما يعقُبُ الشيءَ، والسماءُ: المطرُ، وأُطلِق عليه سماءً؛ لكونِه ينزلُ مِن جهةِ السماءِ، وكلُّ جهةِ علوٍّ تُسمَّى سماءً. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٩٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٢٣).

(٢) مُطِرنا بنَوءِ كذا: أي: بسُقوطِ نَجمٍ وطُلوعِ نظيرِه، (والأنواءُ): ظهورُ الكواكبِ، أو منازلِ القَمَرِ في السَّماءِ، وكانت العربُ تزعُمُ أنَّ بسقوطِ المنزلةِ وطلوعِ رقيبِها يكونُ مطرٌ، ويَنسبونه إليها، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا. وإنَّما سُمِّيَ نَوءًا؛ لأنَّه إذا سقَطَ السَّاقِطُ منها بالمَغربِ ناء الطَّالع =

وكذا، فذلك كافِرٌ بي مؤمِنٌ بالكوكَبِ))(١).

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ تعالى ما كابَدَه الرَّسولُ مِن أذى قَومِه؛ أعْلَمَه أنَّه تعالى لو أراد لَبَعثَ في كلِّ قريةٍ نذيرًا فيُخفِّفُ عنك الأمرَ، ولكنَّه أعظَمَ أجرَك وأجَلَّك؛ إذْ جعَلَ إنذارَك عامًّا للنَّاسِ كلِّهم، وخَصَّك بذلك؛ لِيَكثُرَ ثوابُك؛ لأنَّه على كثرةِ المجاهَدةِ يكونُ الثَّوابُ، ولِيَجمعَ لك حَسَناتِ مَن آمَنَ بك؛ إذْ أنت مُؤَسِّسُها(٢).

وأيضًا فهذه الآيةُ متَّصِلةٌ بقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيةَ، فبعْدَ أن بيَّنَ إبطالَ طَعنِهم، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢]، انتقَل إلى تنظيرِ القُرآنِ بالكتابِ الذي أوتيَه موسى عليه السَّلامُ وكيف استأصل اللهُ مَن كذَّبوه، ثمَّ استطرَد بذِكرِ أُمَمٍ كذَّبوا رسُلَهم، ثم انتقَل إلى استهزاءِ المُشرِكين بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشار إلى تحرُّجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن إعراضِ قَومِه عن دعوتِه، بقَولِه: ﴿ أَرَءَيۡتَ

= بالمشرِقِ، أي: نهضَ وطلَعَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤١٥) (٧/ ٢٩٠٦).

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٧).

وقال ابن باديس: (لمَّا تبيَّن مِن الآياتِ المتقَدِّمةِ ما كان يُكابِدُه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أذيَّةِ قَومِه، وما كان يَلْقاه مِن مُكابرتِهم للحقِّ، وتعنُّتِهم بالباطلِ، وما كان يُعانيه مِن الجَهدِ الجَهيدِ في إنذارِهم، وتبليغِ دِينِ اللهِ تعالى إليهم، وهو في ذلك كلِّه جاهِدٌ في القيام بتبليغِ الأمانةِ، ناهِضٌ بأعباءِ الرِّسالةِ، ماضٍ في تلك السبيلِ، وليس معه مِن نذيرٍ، وقد كان ذلك مما تَتفسَّخُ له القُوى البشريَّةُ لولا تأييدٌ مِن اللهِ- فأراد تعالى في هذه الآيةِ أن يُثبِّتَه في مقامِه، ويُؤنِسَه في انفرادِه، فيُبيِّنَ له أنَّ تخصيصَه بالقيامِ هذا المقامَ العظيمَ هو لأجْلِ تعظيمِه وتكريمِه، وتخصيصِه بالأجرِ الكثيرِ، والثوابِ الذي ليس له مِن مثيلٍ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]. وتسلْسَلَ الكلامُ بضَربِ المثَلِ بمَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه، وبحالِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وبإرسالِ الرِّياحِ، أمارةً على رحمةِ غَيثِه الذي تحيا به المَواتُ، حتى انتهى إلى قَولِه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١]، ويؤيِّدُ ما ذكَرْنا اشتِمالُ التَّفريعِ على ضميرِ القُرآنِ في قَولِه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، وممَّا يَزيدُ هذه الآيةَ اتِّصالًا بقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢]: أنَّ في بَعثِ نذيرٍ إلى كُلِّ قَريةٍ ما هو أشَدُّ مِن تنزيلِ القرآنِ مجزَّأً، فلو بعَثَ اللهُ في كلِّ قَريةٍ نَذيرًا لقال الذين كفَروا: لولا أُرسِلَ رسولٌ واحِدٌ إلى الناسِ جميعًا؛ فإنَّ مَطاعِنَهم لا تقِفُ(١).

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: ولو شِئْنا لجعَلْنا في كُلِّ مدينةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويَدْعوهم إليه، ولكِنَّا خَصَصْناك -يا محمَّدُ- بالرِّسالةِ إلى جميعِ النَّاسِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ قَبلي:... وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٤).

قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))[(١)].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سبحانَه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ما خَصَّصَه به مِن الكرامةِ؛ دعاه إلى مُقابَلةِ ذلك بعدَمِ طاعةِ أهلِ الكُفرِ، والثَّباتِ على جهادِهم بالقُرآنِ[(٢)].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: فلا تُطِعِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- فيما يَدْعونَك إليه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو في تَركِ شَيءٍ مِمَّا أُرسِلْتَ به[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا * فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤].

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

أي: وجاهِدِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ جِهادًا شَديدًا بكُلِّ طاقتِك بلا فُتورٍ؛ نُصرةً للحَقِّ، وقمعًا للباطِلِ[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((أضواء =

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ عَودٌ إلى الاستِدلالِ على تفرُّدِه تعالى بالخَلقِ(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي أرسَل البَحرينِ وخلَّاهما، لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ(٢).

= البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٥).

قال الشنقيطيُّ: (اعلمْ أنَّ لفظةَ: مرَج، تُطلَقُ في اللُّغةِ إطلاقينِ:

الأوَّل: مرَج بمعنى: أرسَلَ وخلَّى، ... وعلى هذا، فالمعنى: أرسَل البحرينِ وخلَّاهما، لا يختلِطُ أحَدُهما بالآخَرِ.

والإطلاقُ الثَّاني: مرَج بمعنى: خلَط، ومنه قولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، أي: مختلِطٍ. فعلى القولِ الأوَّلِ: فالمرادُ بالبحرينِ: الماءُ العَذبُ في جميعِ الدُّنيا، والماءُ المِلحُ في جميعِها. وقولُه: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، يعني به: ماءَ الآبارِ والأنهارِ والعيونِ في أقطارِ الدُّنيا. وقولُه: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: البحرُ المِلحُ؛ كالبحرِ المُحيطِ وغَيرِه مِنَ البحارِ الَّتي هي مِلحٌ أُجاجٌ، وعلى هذا التفسيرِ فلا إشكالَ.

وأمَّا على القولِ الثَّاني -بأنَّ مرَج بمعنى خلَط- فالمعنى: أنَّه يوجَدُ في بعضِ المواضعِ اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العَذبِ في مجرًى واحِدٍ، ولا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ، بل يكونُ بيْنهما حاجزٌ مِن قُدرةِ الله تعالى، وهذا محقَّقُ الوُجودِ في بعضِ البلادِ... فسبحانَه جلَّ وعلا ما أعْظَمَه، وما أكمَلَ قُدرتَه!). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ المعنى الأوَّلَ، أي: أرسَلَهما وخلَّاهما مُتجاورينِ مُتلاصقينِ: =

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

أي: أحدُهما شَديدُ الحَلاوةِ، والآخَرُ شَديدُ الملوحةِ والمرارةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ بقُدرتِه بيْنهما حاجِزًا، ومانِعًا حصينًا يمنَعُهما منعًا شديدًا مِن

= الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، وأبو السعود، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٢). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٢).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ -أنَّ مرَج بمعنى خلَط-: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٦).

قال ابن عطية: (والذي أقولُ به في الآيةِ: إنَّ المقصدَ بها التَّنبيهُ على قدرةِ الله تعالى، وإتقانِ خَلقِه للأشياءِ في أنْ بَثَّ في الأرضِ مِياهًا عَذبةً كثيرةً مِن أنهارٍ وعُيونٍ وآبارٍ، وجعَلَها خِلالَ الأُجاجِ وجعَل الأُجاجَ خِلالَها، فتَلْقَى البحرَ قد اكتنَفَتْهُ المياهُ العَذبةُ في ضَفَّتَيهِ، وتَلْقى الماءَ العَذبَ في الجزائرِ ونَحوِها قد اكتنَفَه الماءُ الأُجاجُ، فبَثُّها هكذا في الأرضِ هو خلطُها، وهو قولُه: ﴿مَرَجَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٤).

وقال القرطبيُّ: (مرَج: خلَّى وخلَط وأرسَل). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٣، ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٥).

الامتِزاجِ والاختِلاطِ ببَعضِهما[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى قُدرتَه في منْعِ الماءِ مِن الاختِلاطِ؛ أتبَعَه القُدرةَ على خَلطِه؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه مُمتَنِعٌ؛ تقريرًا للفِعلِ بالاختيارِ، وإبطالًا للقَولِ بالطَّبائعِ[2].

وأيضًا فمُناسَبةُ مَوقِعِ هذا الاستِدلالِ بعْدَ ما قبْلَه أنَّه استِدلالٌ بدَقيقِ آثارِ القُدرةِ في تكوينِ المياهِ وجعْلِها سببَ حياةٍ مُختلِفةِ الأشكالِ والأوضاعِ، ومِن أعظَمِها دقائقُ الماءِ الذي خُلِقَ منه أشرفُ الأنواعِ التي على الأرضِ، وهو نطفةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١، ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أي: بينَ العذْبِ والمالِحِ ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجِزًا، وهو اليَبَسُ مِن الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧).

وقال الشوكاني: (وقيلَ: معنى «حِجْرًا مَحْجُورًا» ... أنَّها كلمةٌ يقولُها المُتَعَوِّذُ، كأنَّ كلَّ واحدٍ مِن البحرَيْنِ يَتَعَوَّذُ مِن صاحِبِه، ويقولُ له هذا القولَ. وقيلَ: حَدًّا محدودًا. وقيلَ: المرادُ مِن البحرِ العذْبِ: الأنهارُ العظامُ؛ كالنِّيلِ والفُراتِ وجَيْحونَ، ومِن البحرِ الأُجاجِ: البحارُ المشهورةُ، والبرزخُ بيْنَهما: الحائلُ مِن الأرضِ. وقيلَ: معنى «حِجْراً مَحْجُورًا» حرامًا مُحَرَّمًا أنْ يَعْذُبَ هذا المالِحُ بالعذْبِ، أو يُمَلَّحَ هذا العذْبُ بالمالِحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

وتقدَّم ذِكرُ المعنى الثَّاني وهو اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العذبِ في مجرًى واحدٍ، دونَ امتزاجِ أحدِهما بالآخَرِ.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٨).

الإنسانِ؛ بأنَّها سببُ تكوينِ النَّسلِ للبشَرِ؛ فإنَّه يكونُ أوَّلَ أمرِه ماءً، ثم يتخلَّقُ منه البَشرُ العظيمُ(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي خلَقَ مِن المَنيِّ إنسانًا ذكَرًا أو أُنثى(٢).

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

أي: فجعَلَ اللهُ الإنسانَ ذا نَسَبٍ، وذا صِهرٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالنَّسبِ سَبعةُ أصنافٍ مِن القرابةِ يجمعُها قولُه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]، وأنَّ المرادَ بالصهرِ خمسٌ، يجمعُها قولُه تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣).

وقيل: المرادُ بالنَّسَبِ: الذي لا يحِلُّ نِكاحُه، والمرادُ بالصهرِ: الذي يحِلُّ نكاحُه؛ وممَّن ذهب إلى ذلك في الجملةِ: الفرَّاءُ -وقصَر الصِّهرَ على النَّسبِ الذي يحلُّ نكاحُه، كبناتِ العمِّ والخالِ وأشباهِهنَّ- والكرماني، وابن الجوزي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٧٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

وقيل: المعنى: فقسَّم البَشرَ قِسمَين: ذَوِي نَسَبٍ ذُكورًا يُنسَبُ إليهم، فيقال: فلانُ بنُ فلان، وفلانةُ بنتُ فلان. وذواتِ صِهرٍ، أي: إناثًا يُصاهَرُ بهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في =

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

أي: ولم يَزَلْ رَبُّك -يا محمَّدُ- مُتَّصِفًا بكَمالِ القُدرةِ، ومِن ذلك قُدرتُه البالِغةُ على خَلقِ ما يشاءُ(١).

= الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والقاسميُّ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٥).

وقيل: النَّسبُ أن يجتمِعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، والصِّهرُ هو الاختِلاطُ بالنكاحِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وقال القرطبي: (النَّسَبُ والصِّهرُ مَعنيانِ يعُمَّانِ كُلَّ قُربى تكونُ بينَ آدميَّين). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩).

وقال ابن عاشور: (﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾: مصدران سمِّي بهما صِنفانِ مِن القرابة، على تقدير: ذا نسَبٍ وصِهرٍ، وشاع ذلك في الكلامِ. والنسَبُ: لا يخلو مِن أُبوَّةٍ وبُنوةٍ وأُخوَّةٍ لأولئك، وبُنُوَّةٍ لتلك الأُخوَّةِ. وأمَّا الصِّهرُ فهو: اسمٌ لِما بيْن المرءِ وبيْن قَرابةِ زوجِه وأقاربِه مِن العَلاقةِ، ويُسمَّى أيضًا مُصاهرةً؛ لأنَّه يكونُ مِن جهتينِ، وهو آصرةٌ اعتباريَّةٌ تقومُ بالإضافةِ إلى ما تُضافُ إليه، فصِهرُ الرجلِ قَرابةُ امرأتِه، وصِهرُ المرأةِ قَرابةُ زَوجِها؛ ولذلك يقال: صاهَرَ فُلانٌ فُلانًا: إذا تزوَّجَ مِن قرابتِه ولو قرابةً بعيدةً، كقرابة القبيلةِ. وهذا لا يخلو عنه البَشَرُ المتزوِّجُ وغيرُ المتزوِّجِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

وقال ابن عثيمين: (مِن كمالِ قُدرةِ الله سُبحانه وتعالى أنْ خلَقَ من الماءِ بَشَرًا، وقسَّمه إلى قسمينِ؛ هما: النَّسبُ، والصِّهرُ، أي الزوجيَّةُ، وهذه أسبابُ الصِّلةِ بين الناس؛ إمَّا صلةٌ بالوِلادة: النَّسَبُ، أو بالنِّكاحِ: وهو المصاهَرةُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٢٤) بتصرف يسير.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، أي: عظيمَ القُدرةِ، إذ أوجَد مِن هذا الماءِ خَلقًا عَظيمًا صاحِبَ عَقلٍ وتَفكيرٍ، فاختَصَّ باتِّصالِ أواصِرِ النَّسَبِ وأواصِرِ الصِّهرِ، وكان ذلك أصلَ نظامِ الاجتِماعِ البشريِّ لتكوينِ القبائِلِ والشعوبِ وتعاوُنِهم ممَّا جاء بهذه الحضارةِ المرتقيةِ مع =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ ألَّا يَجعَلَ النِّعَمَ أُمورًا عاديَّةً لا بُدَّ منها، بل يُقَدِّرُها بضِدِّها، فمَثَلًا: طُلوعُ الشَّمسِ على هذه الأرضِ وغُروبُها أمرٌ مُعتادٌ، ومِن أجْلِ كَونِه مُعتادًا لا يُحِسُّ الإنسانُ بأنَّه نِعْمةٌ، لكِنْ قَدِّرْ هذا الشَّيءَ بضِدِّه ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، كذلك فإنَّ خُروجَ النَّفَسِ مِن جِسمِ الإنسانِ أمرٌ مُعتادٌ؛ ولهذا لا يُحِسُّ الإنسانُ بقَدْرِ هذه النِّعْمةِ، لكِنْ قَدِّرْ أنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ لحَبَسَه، وحينَئِذٍ يتَبيَّنُ قَدْرُ النِّعْمةِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ هذه الآيةُ نصٌّ صريحٌ في أنَّ الجهادَ في الدعوةِ إلى اللهِ وإحقاقِ الحقِّ: هو مِن الدِّينِ، وأنَّ إبطالَ الباطلِ مِن شُبَهِ المشبِّهين، وضلالاتِ الضالِّين، وإنكارِ الجاحدِين: هو بالقرآنِ العظيمِ؛ ففيه بيانُ العقائدِ وأدلَّتِها، وردُّ الشُّبَهِ عنها، وفيه بيانُ الأخلاقِ محاسِنِها ومساويها، وطُرُقِ الوصولِ إلى التحلِّي بالأولى، والتخلِّي عن الثانيةِ ومعالجتِها، وفيه أصولُ الأحكامِ وعِلَلُها، وهكذا فيه كلُّ ما يَحتاجُ إليه المجاهِدُ به في دينِ اللهِ، فيُستفادُ منها -كما يُستفادُ مِن آياتٍ أخرى غيرِها- أنَّ على الدعاةِ والمرشِدين أنْ تكونَ دعوتُهم وإرشادُهم بالقرآنِ العظيمِ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ عندَما يختلفُ عليك الدعاةُ الذين يَدَّعي كلٌّ منهم أنَّه يَدعوك إلى اللهِ تعالى، فانظُرْ مَن يَدعوك بالقرآنِ إلى القرآنِ -ومثلُه ما صَحَّ مِن السُّنَّةِ؛ لأنَّها تفسيرُه وبيانُه- فاتَّبِعْه؛ لأنه هو المُتَّبِعُ

= العصورِ والأقطارِ. ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في دعوتِه وجهادِه بالقرآنِ، والمُتمثِّلُ لِمَا دلَّتْ عليه أمثالُ هذه الآيةِ الكريمةِ مِن آياتِ القرآنِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ في مَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه نِعمةُ مَعرفةِ أوقاتِ النَّهارِ للصَّلواتِ وأعمالِ النَّاسِ، ونِعمةُ التناوُبِ في انتِفاعِ الجماعاتِ والأقطارِ بفوائِدِ شُعاعِ الشَّمسِ وفوائِدِ الفَيءِ، ووراءَ ذلك عِبرةٌ عِلميَّةٌ كُبرى توضِّحُها قواعِدُ النِّظامِ الشَّمسيِّ، وحَركةُ الأرضِ حولَ الشَّمسِ، وظهورُ الظُّلمةِ والضِّياءِ، ونشَأ عن تداوُلِ الظُّلمةِ والنُّورِ نِظامُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وعن ذلك نظامُ الفُصولِ، وخطوطُ الطولِ والعَرضِ للكُرةِ الأرضيَّةِ، وبها عُرِفت مناطِقُ الحرارةِ والبرودةِ.

ومِن وراءِ ذلك إشارةٌ إلى أصلِ المخلوقاتِ كيف طَرأَ عليها الإيجادُ بعْدَ أنْ كانت عَدَمًا، وكيف يَمتدُّ وُجودُها في طَورِ نَمائِها، ثُمَّ كيف تعودُ إلى العدَمِ تدريجًا في طَورِ انحطاطِها إلى أنْ تصيرَ إلى العدمِ؟ فذلك ممَّا يشيرُ إليه ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾، فيكونُ قد حصَلَ مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ في هذه الآيةِ -مع المِنَّةِ والدَّلالةِ على نظامِ القدرةِ- تقريبٌ لحالةِ إيجادِ النَّاسِ، وأحوالِ الشَّبابِ، وتقَدُّمِ السِّنِّ، وأنَّهم عَقِبَ ذلك صائرونَ إلى ربِّهم يومَ البعثِ مَصيرًا لا إحالةَ فيه ولا بُعْدَ -كما يزعمون-، فلمَّا صار قَبضُ الظِّلِّ مثلًا لمصيرِ النَّاسِ إلى اللهِ بالبَعثِ، وصَفَ القَبضَ بـ﴿يَسِيرًا﴾؛ تلميحًا إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، وفي هذا التَّمثيلِ إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

إلى أنَّ الحياةَ في الدُّنيا كظلٍّ يَمتدُّ ويَنقَبضُ، وما هو إلَّا ظِلٌّ، فهذان المحمَلانِ في الآيةِ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فيه الاستِدلالُ بالشَّيءِ على ضِدِّه (وبضِدِّه يُعرَفُ الضِّدُّ)، ويقولُ بعضُهم: (وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ)[٢]، والمرادُ بالاستِدلالِ بالشَّيءِ على ضِدِّه: النِّعَمُ؛ ففيه مَعرِفةُ قدْرِ النِّعَمِ بمَعرفةِ ضِدِّها، وأنَّ الإنسانَ يستَدِلُّ على مِقدارِ هذه النِّعمةِ بضِدِّها[٣].

٣- جمعَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ استِدلالًا وامتِنانًا؛ فهي دَليلٌ على عِظَمِ قُدرةِ الخالقِ، وهي أيضًا تذكيرٌ بنِعَمِه؛ فإنَّ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٍ جَمَّةً لِما يدُلُّ عليه حُصولُ الظُّلمةِ مِن دِقَّةِ نظامِ دَورانِ الأرضِ حوْلَ الشَّمسِ، ومِن دِقَّةِ نِظامِ خَلقِ الشَّمسِ، ولِما يتوقَّفُ عليه وُجودُ النَّهارِ مِن تغيُّرِ دورانِ الأرضِ، ومِن فوائِدِ نورِ الشَّمسِ، ثمَّ ما في خلالِ ذلك مِن نظامِ النَّومِ المناسِبِ للظُّلمةِ حين ترتخي أعصابُ النَّاسِ فيَحصُلُ لهم بالنَّومِ تجَدُّدُ نشاطِهم، ومِن الاستعانةِ على التستُّرِ بظُلمةِ اللَّيلِ، ومِن نِظامِ النَّهارِ مِن تجَدُّدِ النَّشاطِ وانبِعاثِ النَّاسِ للعَمَلِ وسآمتِهم مِنَ الدَّعةِ، مع ما هو ملائِمٌ لذلك مِن النُّورِ الذي به إبصارُ ما يَقصِدُه العامِلون[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٣).

(٢) هذا عجُزُ بيتٍ للمتنبي، وهو:

ونَذِيمُهُم وبهم عَرَفْنا فَضْلَه ... وبِضِدِّها تَتَبيَّنُ الأشياءُ

يُنظر: ((شرح ديوان المتنبي)) للعكبري (١/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

نُشُورًا ﴾، وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، فانظُرْ إلى هاتين الآيتينِ وما تضَمَّنَتاه مِن العِبرِ والدَّلالاتِ على ربوبيَّةِ اللهِ وحِكمتِه؛ كيف جعل اللَّيلَ سَكنًا ولِباسًا يغشى العالَمَ فتَسكُنُ فيه الحَرَكاتُ، وتأوي الحيواناتُ إلى بيوتِها، والطيرُ إلى أوكارِها، وتستجِمُّ فيه النُّفوسُ وتستريحُ مِن كَدِّ السَّعيِ والتَّعَبِ؟! حتى إذا أخَذَت منه النُّفوسُ راحتَها وسُباتَها، وتطَلَّعَت إلى معايِشِها وتصَرُّفِها، جاء فالِقُ الإصباحِ سُبحانَه وتعالى بالنَّهارِ يَقدُمُ جَيشَه بشيرُ الصَّباحِ، فهزَم تلك الظُّلمةَ، ومَزَّقَها كُلَّ مُمَزَّقٍ، وكشَفَها عن العالَمِ، فإذا هم مُبصِرون، فانتشر الحيوانُ، وتصَرَّف في معاشِه ومصالحِه، وخرجت الطيورُ مِن أوكارِها، فيا له مِن مَعادٍ ونشأةٍ دالٍّ على قدرةِ الله سُبحانَه على المعادِ الأكبرِ! وتكَرُّرُه ودوامُ مُشاهَدةِ النُّفوسِ له بحيثُ صار عادةً ومألَفًا منَعَها مِن الاعتِبارِ به والاستِدلالِ به على النَّشأةِ الثَّانيةِ وإحياءِ الخَلقِ بعْدَ موتِهم، ولا ضَعْفَ في قدرةِ القادِرِ التَّامِّ القُدرةِ، ولا قُصورَ في حكمتِه ولا في عِلمِه يوجِبُ تخلُّفَ ذلك، ولكِنَّ اللهَ يَهدي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ، وهذا أيضًا مِن آياتِه الباهرةِ: أن يُعميَ عن هذه الآياتِ الواضحةِ البَيِّنةِ مَن شاء مِن خَلقِه، فلا يهتديَ بها ولا يُبصِرَها، وبهذا وأمثالِه يُعرَفُ اللهُ عزَّ وجَلَّ، ويُشكَرُ ويُحمَدُ، ويُتضَرَّعُ إليه ويُسأَلُ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النَّومَ واليقظةَ أُنموذجانِ للمَوتِ والنُّشورِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٦٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قُدرةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في إرسالِ الرِّياحِ؛ لأنَّ هذه الرِّياحَ لو اجتمَعَ الخلْقُ كلُّهم على أنْ يأتوا بواحدةٍ منها، ما استطاعوا إلى ذلك سَبيلًا، مع أنَّ هذه الرِّياحَ في بعضِ الأحيانِ تقتَلِعُ الأشجارَ، وتُدمِّرُ المنازِلَ، هذه القوَّةُ العظيمةُ لو أتيتَ بمولِّداتِ الدُّنيا كلِّها لِتَخلُقَ مِثلَ هذا الهواءَ، ما حَصَلَ هذا[١].

٧- إرسالُ المُبَشِّراتِ والمُقَدِّماتِ بيْن يدَيِ الأشياءِ لقوَّةِ الرَّجاءِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾[٢].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ هو أصلٌ في الطَّهارةِ بالماءِ[٣]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الماءَ يُطَهِّرُ مِن الحَدَثِ والنَّجاسةِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أنَّ الأصلَ في الماءِ الطَّهارةُ، ونحن نَعرفُ أنَّ الماءَ الموجودَ في الأرضِ كلَّه مِن السماءِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، فإذا كان مِن السَّماءِ فإنَّ الأصلَ فيما نَبَعَ مِن الأرضِ، أو فيما نَزَلَ مِن السَّماءِ أنْ يكونَ طَهورًا[٥]، فكلُّ ماءٍ نزَلَ مِن السَّماءِ فهو طَهورٌ[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حِكمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بكَونِ المطرِ يَنزِلُ مِن السَّماءِ، لو كان هذا المطرُ -الذي تحيا به الأرضُ- يأتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).
(٤) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الطهارة)) لابن تيمية (ص: ٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).
(٦) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٠٦).

جريًا على سَطحِ الأرضِ ما كان فيه هذا النَّفعُ؛ لأنَّه لا يَصِلُ إلى قِمَمِ الجبالِ إلَّا بعدَ أنْ يُغرِقَ ما تحتَها، لكنَّه إذا نَزَلَ مِن فوقٍ أتَى على قِمَمِ الجبالِ، وأتَى على ما هو أسفَلَ منها، وهذا مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بذلك(١).

١١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ لِماءِ المطرِ خاصيَّةُ الإحياءِ لكُلِّ أرضٍ؛ لأنَّه لخُلوِّه مِن الجراثيمِ ومِن بعضِ الأجزاءِ المعدِنيَّةِ والترابيَّةِ التي تشتَمِلُ عليها مياهُ العُيونِ ومياهُ الأنهارِ والأوديةِ، كان صالحًا بكُلِّ أرضٍ وبكلِّ نباتٍ على اختِلافِ طِباعِ الأرَضينَ والمنابِتِ(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ إخبارٌ أنَّه سُبحانَه يَجعَلُ حياةَ بعضِ مخلوقاتِه ببَعضٍ(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ إيماءٌ إلى تقريبِ إمكانِ البَعثِ(٤).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ(٥).

١٥- نستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إثباتَ الحِكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾، وهذه «اللامُ» هي لامُ التَّعليلِ، وهذا دليلٌ مِن مئاتِ الأدلَّةِ على إثباتِ الحِكمةِ؛ فيكونُ فيه رَدٌّ على طائفةٍ مِن طوائفِ المبتدِعةِ وهم الجهميَّةُ؛ لأنَّهم يَرَون أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

فِعْلَ اللهِ لمجرَّدِ المشيئةِ ليس لعلَّةٍ، فإنَّه لا يُرَجِّحُ شيئًا على شَيءٍ لحِكمةٍ، إنَّما لمجرَّدِ المشيئةِ، ولا يَفعَلُ شيئًا إلَّا لمجرَّدِ المشيئةِ(١)!!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ جوازُ ذِكرِ بَعضِ الفوائدِ، وأنَّ الاقتِصارَ على البَعضِ لا يُعَدُّ نقصًا، فهنا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى مِن فوائدِ المطرِ فائدتينِ فقط: إحياءَ الأرضِ، وسَقْيَ الأنعامِ والأناسيِّ، مع أنَّ للمَطرِ فوائدَ أُخرى؛ كالتطهُّرِ به مثلًا، فالتطهُّرُ به ليس سَقيًا، وليس إحياءً للأرضِ، وغير ذلك أيضًا مِن الفوائدِ، لكنَّه لَمَّا كان أشَدُّ ما يكونُ ضرورةً للمَطرِ هو إحياءَ الأرضِ بالنباتِ؛ لِيأكُلَ الناسُ والأنعامُ، وكذلك السَّقيُ؛ فالطعامُ والشرابُ ضرورةٌ مِن ضرورياتِ الحياةِ بالنِّسبةِ للأنعامِ وبالنِّسبةِ للناسِ، فاقتصَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ على ذِكرِ هاتينِ الفائدتينِ فقط؛ لأنَّهما هما الفائدتان الضروريَّتانِ الحاصِلتان بنزولِ المطرِ(٢).

١٧- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ يؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ الماءَ المنزَّلَ مِن السَّماءِ لا يختلفُ مِقدارُه، وإنما تختلفُ مقاديرُ توزيعِه على مواقعِ القَطرِ؛ فعن ابنِ عباس: (ما عامٌ أقَلَّ مطرًا مِن عامٍ، ولكنَّ اللهَ قَسَمَ ذلك بيْن عِبادِه على ما شاء. وتلا هذه الآيةَ)(٣)، فحصَلَ مِن هذا أنَّ المقدارَ الذي تفضَّل اللهُ به مِن المطَرِ على هذه الأرضِ لا تختَلِفُ كَمِّيَّتُه، وإنَّما يختَلِفُ توزيعُه. وهذه حقيقةٌ قَرَّرها عُلَماءُ حوادثِ الجوِّ في القرن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٧/ ٤٦٨)، والحاكم (٣٥٢٠)، والبيهقي (٦٧١٧) واللفظ له.
صحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وصحَّحه الألباني على شرط الشيخين في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٤٦١).

الحاضِرِ، فهو من معجزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ[١].

١٨- ثبوتُ الحكمةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، فـ «اللامُ» للتَّعليلِ[٢].

١٩- إبطالُ مذهَبِ الجبريَّةِ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، فجعَلَ هذا باختيارِهم؛ أبَوا إلَّا أن يكفُروا بذلك[٣].

٢٠- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ يدخُلُ فيه مَن قال: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، ومَن قال: مُطِرْنا بالبُخارِ، يعني: أنَّ البحرَ يتصاعَدُ منه بُخارُ الماءِ ثمَّ يتجَمَّعُ، ثمَّ يَنزِلُ على الأرضِ بمُقتضى الطَّبيعةِ لا بفِعلِ فاعلٍ، وأنَّ المطَرَ منه[٤]!

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ أنَّ مِن إكرامِ اللهِ تعالى عبدَه تحميلَه أعباءَ الرِّسالةِ وحْدَه[٥].

٢٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ المرادُ مِن ذلك تعظيمُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وذلك لوُجوهٍ:

أحدُها: كأنَّه تعالى بيَّن له أنَّه مع القُدرةِ على بَعثةِ رَسولٍ ونَذيرٍ في كُلِّ قَريةٍ، خَصَّه بالرِّسالةِ وفضَّلَه بها على الكُلِّ؛ ولذلك أتبَعَه بقَولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾، أي: لا تُوافِقْهم.

وثانيها: المرادُ: ولو شِئْنا لخفَّفْنا عنك أعباءَ الرِّسالةِ إلى كُلِّ العالَمينَ، ولَبَعَثْنا في كُلِّ قَريةٍ نَذيرًا، ولكنَّا قصَرْنا الأمرَ عليك، وأجلَلْناك وفضَّلْناك على سائرِ الرُّسُلِ، فقابِلْ هذا الإجلالَ بالقوَّةِ في الدِّينِ.

وثالثها: أنَّ الآيَةَ تقتضي مَزْجَ اللُّطفِ بالعُنفِ؛ لأنَّها تدُلُّ على القُدرةِ على أن يَبعَثَ في كُلِّ قريةٍ نَذيرًا مِثلَ محمَّدٍ، وقَولُه: ﴿وَلَوْ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه لا يفعَلُ ذلك، فبالنَّظَرِ إلى الأوَّلِ يحصُلُ التأديبُ، وبالنظَرِ إلى الثاني يحصُلُ الإعزازُ(١).

٢٣- قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ كما لا تجوزُ طاعةُ الكافرين في شيءٍ ممَّا يُمليه عليهم كُفرُهم؛ كذلك لا تجوزُ طاعةُ العصاةِ في شيءٍ ممَّا تُمليه عليهم معصيتُهم؛ لأنَّ الجميعَ فيه مخالفةٌ لدينِ اللهِ، وكما يُجاهَدُ أهلُ الكُفرِ بالقرآنِ العظيمِ الجهادَ الكبيرَ، كذلك يُجاهَدُ به أهلُ المعصيةِ؛ لأنَّه كتابُ الهدايةِ لكلِّ ضالٍّ، والدَّعوةِ لكل مُرشِدٍ، وفي ذِكرِ الكافرين تنبيهٌ على العصاةِ مِن بابِ التَّنبيهِ بالأعلى على الأدنى؛ لاشتِراكِهم في العلَّةِ، وهي المخالَفةُ(٢).

٢٤- قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ النهيَ عن الشَّيءِ لا يقتضي كونَ المنهيِّ عنه مُشتغِلًا به(٣).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ أنَّه قد سمَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤).

تعالى الجهادَ بالقرآنِ جهادًا كبيرًا، وفي هذا مَنقبةٌ كبرى للقائمِين بالدَّعوةِ إلى اللهِ بالقُرآنِ العظيمِ، وفي ذلك نِعمةٌ عظيمةٌ مِن اللهِ عليهم حيثُ يَسَّرَهم لهذا الجهادِ، حتى لَيَصِحُّ أن يُسَمَّوا بهذا الاسمِ الشَّريفِ «مجاهدون»؛ فحُقَّ عليهم أنْ يُقَدِّروا هذه النِّعمةَ، ويُؤدُّوا شُكرَها بالقَولِ والعَمَلِ والإخلاصِ، والصَّبرِ والثَّباتِ واليقينِ[1].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الله سُبحانَه جعل الماءَ سَبَبَ الاجتِماعِ والتآلُفِ[2].

٢٧- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فيه إشارةٌ إلى المحرَّماتِ بالسَّبَبِ والنَّسَبِ، وأنَّ كُلَّ ذلك تولَّد مِن الماءِ[3].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ بيانُ خطأِ مَن يُسمِّي أقاربَ الزَّوجِ أو الزَّوجةِ «أنسابي» لأنَّه تزوَّجَ منهم، وهذا خطأٌ على اللُّغةِ؛ فإنَّ الأنسابَ هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، والأرحامَ كذلك هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، وأمَّا أقاربُ الزَّوجينِ فإنهم يُسمَّون أصهارًا لا أنسابًا؛ فقد جَعَلَ اللهُ تعالى الصِّلةَ بيْن البشَرِ بهذينِ الأمْرينِ: النَّسبِ، والصِّهرِ، وهما قَسيمانِ، أي: أنَّ بعضَهما قسيمٌ للآخَرِ، ومُبايِنٌ له[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٥١٦).

﴿ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، فيه انتِقالٌ مِن إثباتِ صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإثباتِ أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ أنزَلَه على رَسولِه، وصِفاتِ الرُّسلِ وما تَخلَّلَ ذلك مِنَ الوَعيدِ، وهو مِن هذا الاعتِبارِ متَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيةَ. وفيه انتِقالٌ إلى الاستِدلالِ على بُطلانِ شِرْكِهم، وإثباتِ الوَحدانيَّةِ للهِ، وهو مِن هذه الجهةِ متَّصِلٌ بقولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ [الفرقان: ٣] الآيةَ[1].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ[2].

- وأصْلُ النَّظمِ: (ألَمْ تَنظُرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟)، فغُيِّر النَّظمُ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ إشعارًا بأنَّه المعقولُ مِن هذا الكلامِ؛ لوُضوحِ بُرهانِه، وهو دَلالةُ حُدوثِه وتَصرُّفِه على الوجهِ النَّافعِ بأسبابٍ مُمكِنةٍ، على أنَّ ذلك فِعلُ الخالِقِ الحَكيمِ كالمُشاهَدِ المَرْئيِّ، فكيف بالمَحسوسِ منه؟! ولو قيل: (ألَمْ تَرَ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه؟) كان الانتِقالُ مِنَ الأثرِ إلى المؤثِّرِ، والَّذي عليه التِّلاوةُ عكْسُه، والمَقامُ يَقتَضِيه؛ لأنَّ الكلامَ في تَقريعِ القَومِ، وتَجهيلِهم في اتِّخاذِهمُ الهوَى إلهًا مع وُضوحِ هذه الدَّلائلِ؛ ولذلك جَعَل ما يدُلُّ على ذاتِه مُقدَّمًا على أفعالِه في سائرِ آياتِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ [الفرقان: ٤٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان: ٤٨]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا﴾ [الفرقان: ٥١][3]. وأيضًا لعلَّ تَوجيهَ الرُّؤيةِ إليه سبحانه وتعالى مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٨، ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٥).

أنَّ المرادَ تَقريرُ رؤْيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لكيفيَّةِ مَدِّ الظِّلِّ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نظَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَيرُ مَقصورٍ على ما يُطالِعُه مِنَ الآثارِ والصَّنائعِ، بل مَطمَحُ أنظارِه مَعرِفةُ شُؤونِ الصَّانعِ المَجيدِ(١).

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿رَبِّكَ﴾؛ لتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وللإيذانِ بأنَّ ما يَعقُبُه مِن آثارِ رُبوبيَّتِه ورحمتِه تعالى(٢).

- وقُوبِلَ قَولُه: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بقَولِه: ﴿سَاكِنًا﴾، ومقابِلُ السُّكونِ الحرَكةُ؛ فيكونُ إطلاقُ مَدِّ ظِلٍّ وبَسْطِه على الحركةِ مِن بابِ تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ مُلابِسِه أو سببِه. وعَدَل عن (متحرِّكًا) إلى (مَدَّ)، وهو أظهَرُ مِن (مَدَّ) في تَناوُلِه الانبِساطَ والامتِدادَ؛ ليُدمِجَ فيه معنَى الانتِفاعِ المقصودِ بالذَّاتِ، وهو معرفةُ أوقاتِ الصَّلَواتِ؛ فإنَّ اعتِبارَ الظِّلِّ فيها بالامتِدادِ دُونَ الانبِساطِ، وتَمَّمَ معنَى الإدماجِ بقَولِه: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾، أيْ: بالتَّدريجِ والمَهَلِ لمعرفةِ السَّاعاتِ والأوقاتِ، وفيه لَمحةٌ مِن معنَى قَولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٨](٣)؛ فلَمَّا كان مَدُّ الظِّلِّ يُشبِهُ صورةَ التَّحرُّكِ أَطلَقَ على انتِفاءِ الامتِدادِ اسمَ السُّكونِ بأنْ يُلازِمَ مِقْدارًا واحدًا لا يَنقُصُ ولا يَزيدُ. ودلَّتْ مُقابَلةُ قَولِه: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بقَولِه: ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ على حالةٍ مَطْويَّةٍ مِنَ الكلامِ؛ وهي حالةُ عُمومِ الظِّلِّ جميعَ وجْهِ الأرضِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١).

- وجُملةُ ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملةٌ معترِضةٌ للتَّذكيرِ بأنَّ في الظِّلِّ مِنَّةً[1]، وأيضًا قدِ اعترَضتْ بيْن المَعطوفَينِ؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه لا مَدخَلَ فيما ذُكِر مِنَ المَدِّ للأسبابِ العاديَّةِ، وإنَّما المؤثِّرُ فيه المَشيئةُ والقُدرةُ. ومَفعولُ المشيئةِ مَحذوفٌ، أي: ولو شاء سُكونَه لجَعَله ساكنًا، أي: ثابتًا على حالِه مِنَ الطُّولِ والامتِدادِ، وإنَّما عُبِّر عن ذلك بالسُّكونِ؛ لِما أنَّ مُقابِلَه الَّذي هو تَغيُّرُ حالِه حسَبَ تَغيُّرِ الأوضاعِ بيْن الظلِّ وبيْن الشَّمسِ يُرَى رأيَ العَينِ حرَكةً وانتِقالًا، وحاصِلُه: أنَّه لا يَعترِيهِ اختِلافُ حالٍ بألَّا تَنسَخَه الشَّمسُ[2].

- وجُعِل امتِدادُ الظِّلِّ لاختِلافِ مَقاديرِه كامتِدادِ الطَّريقِ، وعلاماتُ مقاديرِه مثلَ صُوَى الطَّريقِ (أي: الأعلامِ المنصوبةِ التي يُستدلُّ بها عليه)، وجُعِلَتِ الشَّمسُ -مِن حيثُ كانتْ- سببًا في ظهورِ مَقاديرِ الظِّلِّ كالهادي إلى مَراحِلَ، بطريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ؛ فكما أنَّ الهادي يُخبِرُ السَّائرَ أين يَنزِلُ مِنَ الطَّريقِ، كذلك الشَّمسُ بتَسبُّبِها في مَقاديرِ امتِدادِ الظِّلِّ تُعرِّفُ المُستدِلَّ بالظِّلِّ بأوقاتِ أعمالِه ليَشرَعَ فيها. وتَعديةُ ﴿دَلِيلًا﴾ بحرف (على) تُفيدُ أنَّ دَلالةَ الشَّمسِ على الظِّلِّ هنا دَلالةُ تَنبيهٍ على شَيءٍ قد يَخفَى[3].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الالتِفاتُ إلى نُونِ العظَمةِ؛ لِمَا في الجَعْلِ المَذكورِ العاري عنِ التَّأثيرِ مع ما يُشاهَدُ بيْنَ الشَّمسِ والظِّلِّ مِنَ الدَّورانِ المُطَّرِدِ المُنبِئِ عنِ السَّببيَّةِ: مِن مَزيدِ دَلالةٍ على عِظَمِ القُدرةِ، ودِقَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

الحكمةِ، وهو السِّرُّ في إيرادِ كلمةِ التَّراخي[١]. وقيل: الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾؛ لأنَّ ضميرَ المتكلِّمِ أدخَلُ في الامتِنانِ مِن ضَميرِ الغائبِ، فهو مُشعِرٌ بأنَّ هذا الجَعْلَ نِعمةٌ، وهي نعمةُ النُّورِ الَّذي به تَمييزُ أحوالِ المَرئيَّاتِ؛ وعليه فقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ارتِقاءٌ في المِنَّةِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، وأفادَتْ (ثُمَّ) أنَّ مَدلولَ المَعطوفِ بها مُتَراخٍ في الرُّتبةِ عن مَدلولِ المعطوفِ عليه، شأنُ (ثُمَّ) إذا عَطَفَتِ الجملةَ. ومعنَى تَراخي الرُّتبةِ أنَّها أبعَدُ اعتِبارًا، أي: أنَّها أرفَعُ في التَّأثيرِ أو في الوُجودِ؛ فإنَّ وُجودَ الشَّمسِ هو عِلَّةُ وُجودِ الظِّلِّ للأجسامِ الَّتي على الأرضِ، والسَّببُ أرفَعُ رُتبةً مِنَ المُسبَّبِ، أي: أنَّ اللهَ مَدَّ الظِّلَّ بأنْ جَعَل الشَّمسَ دليلًا على مَقاديرِ امتِدادِه[٣].

- وموقعُ (ثُمَّ) في هذَينِ المَوضعَينِ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ لبيانِ تَفاضُلِ الأمورِ الثَّلاثةِ (مَد الظِّل، وسُكونه، وقَبْضه): كأن الثَّاني أعظَمُ مِنَ الأوَّلِ، والثَّالثَ أعظَمُ منهما -لأنَّ في إزالةِ الظِّلِّ بالشَّمسِ دَليلًا على جُودِه؛ فلولا الشَّمسُ ما عُرِفَ الظِّلُّ-؛ تشبيهًا لتَباعُدِ ما بيْنَهما في الفضلِ بتَباعُدِ ما بيْنَ الحَوادثِ في الوقتِ، أو لتَفاضُلِ مَباديِ أوقاتِ ظُهورِها. أو أنَّ «ثمَّ» تُفيدُ التَّراخيَ في الزَّمانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٣).

٢- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الزَّمانيِّ؛ لِما أنَّ في بيانِ كَونِ القبضِ والمدِّ مُرتَّبينِ دائرَينِ على قُطبِ مَصالحِ المَخلوقاتِ مَزيدَ دَلالةٍ على الحكمةِ الرَّبَّانيَّةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتْبيِّ، أي: أزَلْناه بعْدَ ما أنشأْناهُ مُمتَدًّا، ومَحَوْناه بمَحْضِ قُدرتِنا ومَشيئتِنا عِندَ إيقاعِ شُعاعِ الشَّمسِ مَوقعَه، مِن غَيرِ أن يكونَ له تأثيرٌ في ذلك أصلًا، وإنَّما عَبَّر عنه بالقَبضِ المُنبِئِ عن جمْعِ المُنبسِطِ وطَيِّه؛ لِمَا أنَّه قد عَبَّر عن إحداثِه بالمَدِّ الَّذي هو البَسْطُ طُولًا[1].

- وجُملةُ ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا... ﴾ إلخ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، أو على جُملةِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ لأنَّ قَبضَ الظِّلِّ مِن آثارِ جعْلِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ. و(ثمَّ) الثَّانيةُ مِثلُ الأُولى مُفيدةٌ التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ مَضمونَ جملةِ ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أهَمُّ في الاعتِبار بمَضمونِها مِن مَضمونِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ إذْ في قَبضِ الظِّلِّ دَلالةٌ مِن دَلالةِ الشَّمسِ هي عكْسُ دَلالتِها على امتِدادِه؛ فكانت أَعجَبَ؛ إذْ هي عمَلٌ ضِدٌّ للعملِ الأوَّلِ، وصُدورُ الضِّدَّينِ مِنَ السَّببِ الواحدِ أَعجَبُ مِن صُدورِ أحدِهما السَّابقِ في الذِّكرِ[2].

- قولُه: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتَّنصيصِ على كَونِ مَرجعِه إليه تعالى، كما أنَّ حُدوثَه منه عزَّ وجلَّ[3].

- قولُه: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ أفادَ قولُه: ﴿إِلَيْنَا﴾ وصِيغةُ الجَمعِ: القَبضَ التَّامَّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[١] [فاطر: ٢].

- ومَوقِعُ وصْفِ القَبضِ بـ (يَسيرٍ) هنا أنَّه أُريدَ أنَّ هذا القَبضَ يَحصُلُ بِبُطْءٍ دُونَ طَفْرةٍ؛ فإنَّ في التَّريُّثِ تَسهيلًا لقَبضِه؛ لأنَّ العملَ المُجزَّأَ أيسَرُ على النُّفوسِ مِنَ المُجتمِعِ غالِبًا، فأُطلِقَ اليُسرُ، وأُريدَ به لازِمُ معناهُ عُرْفًا، وهو التَّدريجُ بِبُطْءٍ، على طريقةِ الكِنايةِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ بيانٌ لبعضِ بَدائعِ آثارِ قُدرتِه تعالى وحِكمتِه ورَوائعِ أحكامِ رحمتِه ونِعَمِه الفائِضةِ على الخَلْقِ. وتَلوينُ الخِطابِ لتَوفيةِ مَقامِ الامتِنانِ حقَّه، واللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿جَعَلَ﴾، وتَقديمُها على مَفعولَيْهِ؛ للاعتِناءِ ببَيانِ كَونِ ما يَعْقُبُه مِن مَنافعِهم، وفي تَعقيبِ بَيانِ أحوالِ الظِّلِّ ببَيانِ أحكامِ اللَّيلِ -الَّذي هو ظِلُّ الأرضِ- مِن لُطْفِ المَسلَكِ ما لا مَزيدَ عليه[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ التِفاتٌ؛ حيث رَجَع أسلوبُ الكلامِ مِنَ المُتكلِّمِ إلى الغَيبةِ[٤].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ جُزْأَيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ قَصْرُ إفرادٍ، أي: لا يَشْرَكُه غَيرُه في جَعْلِ اللَّيلِ والنَّهارِ، أمَّا كَونُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

الجَعلِ المذكورِ بخَلْقِ اللهِ فهُم يُقِرُّون به، ولكنَّهم لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَتْ شَرِكَتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في الأزمانِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ اختَلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزئةَ(١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شُبِّه ما يَستُرُ مِن ظَلامِ اللَّيلِ باللِّباسِ السَّاترِ، على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ قيل: عبَّر عنِ النَّومِ بالسُّباتِ الَّذي هو الموتُ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ لِما بيْنهما مِنَ المُشابَهةِ التَّامَّةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أيْ: جعَل النَّهارَ زمانَ بَعثٍ ونُشورٍ مِن ذلك السُّباتِ كبَعثِ الموتَى؛ على حَذفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مقامَه، أو: جعَل النَّهارَ نفْسَ البَعثِ على طَريقِ المبالَغةِ(٤). والنُّشورُ هنا الإحياءُ؛ شَبَّهَ اليَقظةَ به؛ لِيَتطابَقَ الإحياءُ مع الإماتةِ اللَّذَينِ يَتضمَّنُهما النَّومُ والسُّباتُ(٥).

- وإعادةُ فِعلِ (جَعَل) في قَولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ دُونَ أن يُعادَ في قَولِه: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ مُشعِرةٌ بأنَّه تَنبيهٌ إلى أنَّه جَعْلٌ مُخالِفٌ لجَعلِ اللَّيلِ لِباسًا؛ وذلك أنَّه أخبَرَ عنه بقولِه: ﴿نُشُورًا﴾، والنُّشورُ: بَعثُ الأمواتِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٤).

إدماجٌ[١] للتَّذكيرِ بالبَعثِ، وتَعريضٌ بالاستِدلالِ على مَن أَحالُوه بتَقريبِه بالهُبوبِ في النَّهارِ. والنُّشورُ: الحياةُ بعْدَ المَوتِ، وهو هنا يَحتمِلُ مَعنيَينِ: أن يكونَ مُرادًا به البُروزُ والانتِشارُ؛ فيكونَ ضِدَّ اللِّباسِ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾، فيكونَ الإخبارُ به عنِ النَّهارِ حقيقيًّا، والمِنَّةُ في أنَّ النَّهارَ يَنتشِرُ فيه النَّاسُ لحَوائجِهم واكتِسابِهم. ويحتمِلُ أن يكونَ مرادًا به بَعْثُ الأجسادِ بعْدَ مَوتِها؛ فيكونَ الإخبارُ على طريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ الاعتِبارُ بحالةِ سَترِ اللَّيلِ على الاعتِبارِ بحالةِ النَّومِ؛ لرَعيِ مناسَبةِ اللَّيلِ بالظِّلِّ، بخِلافِ قَولِه في سُورةِ النَّبَأ: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا * وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا * وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [النبأ: ٨-١٠]؛ فإنَّ نِعمةَ النَّومِ أهَمُّ مِن نِعمةِ السَّترِ، ولأنَّ المناسَبةَ بيْنَ نِعمةِ خلْقِ الأزواجِ وبيْنَ النَّومِ أَشَدُّ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ فيه احتِباكٌ[٤]؛ حيثُ ذَكَر السُّباتَ أوَّلًا دليلًا على الحركةِ ثانيًا، والنُّشورَ ثانيًا

---

(١) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشَّيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٥).

(٤) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، =

دليلًا على الطَّيِّ والسُّكونِ أوَّلًا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ استِدلالٌ على الانفِرادِ بالخَلْقِ، وامتِنانٌ بتَكوينِ الرِّياحِ والسُّحبِ والمطرِ، ومَردودُ الاستِدلالِ قَصْرُ إرسالِ الرِّياحِ وما عُطِف عليه على اللهِ تعالى؛ إبطالًا لادِّعاءِ الشُّرَكاءِ له في الإلهيَّةِ بنَفيِ الشَّرِكةِ في التَّصرُّفِ في هذه الكائناتِ، وذلك ما لا يُنكِرُه المشركونَ، ولكنَّهم لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَت شَرِكتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في الرِّياحِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ المَوجوداتِ اختلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزِئةَ[٢].

- وجملةُ ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ عطْفٌ على جملةِ ﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ فهي داخلةٌ في حَيِّزِ القَصرِ، أي: وهو الَّذي أَنزَل مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ التِفاتٌ إلى نونِ العَظَمةِ؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بالإنزالِ؛ لأنَّه نتيجةُ ما ذُكِر مِن إرسالِ الرِّياحِ[٤]. وأيضًا الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾، ﴿لِّنُحۡـِۧيَ﴾، ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ﴾، ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ﴾؛ لِمَا في إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وإحياءِ البلدِ المَيْتِ به، وسَقْيِه للنَّاسِ والدَّوابِّ، وتَصريفِ الماءِ: مِن مَزيدِ دَلالةٍ على عِظَمِ القُدرةِ، ودِقَّةِ الحِكمةِ،

= إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

ولأنَّ ضَميرَ المُتكلِّمِ أَدخلُ في الامتِنانِ مِن ضَميرِ الغائبِ؛ فهو مُشعِرٌ بأنَّ (الإنزالَ، والإحياءَ، والسَّقيَ، والتصريفَ) نِعمةٌ(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وصَفَ الماءَ بالطَّهارةِ، وعلَّلَ إنزالَه بالإحياءِ والسَّقْيِ؛ لأنَّه لَمَّا كان سَقْيُ الأناسيِّ مِن جملةِ ما أنزَلَ له الماءَ، وصَفَه بالطَّهورِ إكرامًا لهم، وتَتْميمًا للمِنَّةِ عليهم، وبيانًا أنَّ مِن حقِّهم حينَ أرادَ اللهُ لهمُ الطَّهارةَ، وأرادَهم عليها أن يؤْثِرُوها في بَواطِنِهم ثمَّ في ظَواهِرِهم، وأنَّ يَرْبَؤوا بأنفُسِهم عن مُخالَطةِ القاذُوراتِ كلِّها، كما رَبَأ بهم ربُّهُم. وقيل: الظَّاهرُ في قَولِه: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أن يكونَ للمُبالَغةِ في طَهارتِه، وجِهةُ المُبالَغةِ: كَونُه لم يَشُبْهُ شَيءٌ بخِلافِ ما نَبَع مِنَ الأرضِ ونَحوِه؛ فإنَّه تَشوبُه أجزاءٌ أرْضيَّةٌ مِن مَقرِّه أو مَمَرِّه أو ممَّا يُطرَحُ فيه، ويَجوزُ أن يوصَفَ بالاسمِ وبالمَصدرِ(٢). والطَّهورُ -بفَتحِ الطَّاءِ- مِن أمثلةِ المُبالَغةِ في الوَصفِ بالمصدرِ، ووصْفُ الماءِ بالطَّهورِ يَقتَضي أنَّه مُطهِّرٌ لغَيرِه؛ إذِ العُدولُ عن صيغةِ (فاعِلٍ) إلى صيغةِ (فَعولٍ) لزِيادةِ معنًى في الوَصفِ، فاقتِضاؤُه في هذه الآيةِ أنَّه مُطهِّرٌ لغَيرِه اقتِضاءٌ التِزاميٌّ؛ ليَكونَ مُستكمِلًا وصْفَ الطَّهارةِ القاصِرةِ والمُتعدِّيةِ، فيكونَ ذِكرُ هذا الوَصفِ إدماجًا لمِنَّةٍ في أثناءِ المِنَنِ المَقصودةِ، ويكونَ كقَولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وصَفَ الطَّهارةَ الذَّاتيَّةَ وتَطهيرَه، فيكونُ هذا الوَصفُ إدماجًا، ولولا ذلك لكان الأحَقَّ بمَقامِ الامتِنانِ وصْفُ الماءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١- ٤٢، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

بالصَّفاءِ أو نَحوِ ذلك[١].

٥- قوله تعالى: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾

- قولُه: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لَمَّا كان المقصودُ بإحياءِ الأرضِ بالنَّباتِ إحياءَ البلادِ لإحياءِ أهْلِها؛ قال: ﴿بَلْدَةً﴾، ولو كان مِلْحًا أو مُرًّا أو مُكَبرتًا لم تكنْ فيه قوَّةُ الإحياءِ. ولَمَّا كُره أن يُفهَمَ تَخصيصُ البلادِ، أُجريَ الوَصفُ باعتِبارِ المَوضعِ؛ لِيَعُمَّ كلَّ مكانٍ، فقال: ﴿مَّيْتًا﴾[٢].

- وقيل: ذكَّر الصِّفةَ ﴿مَّيْتًا﴾ مع أنَّ المَوصوفَ ﴿بَلْدَةً﴾ مؤنَّثٌ؛ لأنَّه أُريدَ به اسمُ المَيتِ، ووصْفُ البَلدةِ به وصْفٌ على معنَى التَّشبيهِ البَليغِ[٣]. وقيل: ذَكَّره نظرًا إلى معنَى البلدةِ وهو المكانُ، لا إلى لفْظِها، والسِّرُّ فيه تَخفيفُ اللَّفظِ. وقيل: التَّذكيرُ لأنَّ البَلدةَ بمعنَى البلدِ، ولأنَّه غَيرُ جارٍ على الفعلِ كسائرِ أَبنيةِ المُبالَغةِ؛ فأُجريَ مَجرَى الجامدِ[٤].

- قولُه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ المَوصولُ (ما) للإيماءِ إلى علَّةِ الخَبرِ، أي: نُسْقِيَهم؛ لأنَّهم مَخلوقاتٌ؛ ففائدةُ هذا الحالِ الإشارةُ إلى رحمةِ اللهِ بها؛ لأنَّها خَلْقُه[٥].

- وفي قولِه: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أنواعًا أُخرى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠١، ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤، ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

مِنَ الخَلائقِ تُسقَى بماءِ السَّماءِ، ولكنَّ الاقتِصارَ على ذِكرِ الأنعامِ والأناسيِّ؛ لأنَّهما مَوقِعُ المِنَّةِ؛ فالأنعامُ بها صَلاحُ حالِ البادينَ بألْبانِها وأصوافِها وأشعارِها ولُحومِها، وهي تَشرَبُ مِن مياهِ المطرِ مِنَ الأحواضِ والغُدْرانِ[١].

وقيل: خَصَّ الأنعامَ بالذِّكرِ مِن بيْنِ ما خَلَق مِنَ الحَيوانِ الشَّاربِ بخِلافِ الأنعامِ؛ لأنَّ أهلَ القُرَى والأمصارِ يُقيمون بقُربِ الأنهارِ والمَنابعِ، فبهم وبما لهم مِنَ الأنعامِ غُنْيةٌ عن سُقْيَا السَّماءِ؛ فكان الإنعامُ عليهم بسَقيِ أنعامِهم كالإنعامِ بسَقْيِهم، والطَّيرُ والوَحْشُ وسائرُ الحيواناتِ بخِلافِ ذلك؛ إذ تُبعِدُ في طلَبِ الماءِ فلا يُعوِزُها الشُّربُ غالبًا، مع أنَّ مَساقَ الآياتِ الكريمةِ كما هو للدَّلالةِ على عِظَمِ القُدرةِ فهو لتَعدادِ أنواعِ النِّعمةِ، والأنعامُ -حيثُ كانتْ- قُنْيةٌ للإنسانِ، وعامَّةُ مَنافِعِهم ومَعايشِهم مُتعلِّقةٌ بها[٢].

- وتَنكيرُ الأنعامِ والأَناسيِّ ووصْفُها بالكَثرةِ في قولِه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ عِلْيةَ النَّاسِ وجُلَّهم قَريبونَ مِنَ الأوديةِ والأنهارِ ومَنابعِ الماءِ؛ ففيهم غُنْيةٌ عن سَقيِ السَّماءِ، وأعقابُهم -وهُم كثيرٌ منهم- لا يُعيِّشُهم إلَّا ما يُنزِلُ اللهُ مِن رَحمتِه، وسُقْيَا سَمائِه[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ فقد قَدَّمَ حَياةَ الأرضِ وإسقاءَ الأنعامِ على إسقاءِ النَّاسِ، وإنْ كانوا أَشرَفَ محلًّا؛ لأنَّ حياةَ الأرضِ هي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

سبَبٌ لحَياةِ الأنعامِ والنَّاسِ؛ فلمَّا كانت بهذه المَثابةِ جُعِلَتْ مُقدَّمةً في الذِّكرِ، ولَمَّا كانتِ الأنعامُ مِن أسبابِ التَّعيُّشِ والحياةِ للنَّاسِ قدَّمَها في الذِّكرِ على النَّاسِ؛ لأنَّ حياةَ النَّاسِ بحياةِ أرْضِهم وأنعامِهم، فقُدِّمَ سَقْيُ ما هو سبَبُ نَمائِهم ومَعاشِهم على سَقْيِهم، وهذا الوَجهُ مَبنيٌّ على تَقدُّمِ الأسبابِ على المُسبَّباتِ. ووجْهٌ آخَرُ: أنَّهم إذا وجَدوا ما يَسقي أرضَهم ومواشيَهم وجَدوا سُقياهُم، وهذا الوجهُ مَبنيٌّ على تقديمِ ما يَشتَدُّ فيه الاحتِياجُ إلى الماءِ، ويَكثُرُ به الانتِفاعُ؛ فإنَّ انتِفاعَ الإنسانِ بحياةِ الأرضِ أكثَرُ، واهتِمامَه بسُقياها أشَدُّ مِن سُقيَا الأنعامِ، ثمَّ اهتِمامُه بسُقْيا الأنعامِ أقدَمُ مِن سُقيا نفْسِه؛ لأنَّهم إذا ظَفِروا بما يكونُ سُقْيَا أرْضِهم ومواشيهم لمْ يَعدَموا سُقياهم. وهذا الوجهُ أحسَنُ، ولمعنَى الإيغالِ(١) والتَّتميمِ(٢) أجمَعُ؛ إذْ ليس اهتِمامُ مَن يَقرَبُ الأَوديةَ والأنهارَ ومَنابعَ الماءِ كاهتِمامِ مَن هو بعيدٌ منها؛ فعلى هذا المرادُ بالأناسيِّ: أصحابُ البَوادي والمُتبعِّدونَ مِن مَظانِّ الماءِ(٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قَدَّم ذِكرَ الأنعامِ على الأَناسيِّ؛ لأنَّه اقتَضاهُ نَسْجُ الكلامِ على طريقةِ الإحكامِ في تعقيبِه بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠]، ولو قُدِّمَ ذِكرُ (أَناسيَّ) لتَفكَّكَ النَّظمُ. ولم يُقدِّمْ ذِكرَ النَّاسِ في قَولِه تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣، عبس: ٣٢]؛ لانتِفاءِ الدَّاعي للتَّقديمِ؛ فجاءَ

(١) سبق تعريفه (ص: ١٢٦).

(٢) سبق تعريفه (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٥).

على أصلِ التَّرتيبِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ ﴾ جيءَ بالجملةِ القَسَميَّةِ، لإبطالِ زَعمِ مَن يَزعُمُ أنَّ ذلك بسببِ الأنواءِ[٢].

- قولُه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ فيه توكيدُ الجُملةِ بلامِ القَسمِ و(قد) لتَحقيقِ التَّعليلِ؛ لأنَّ تَصرُّفَ المطرِ مُحقَّقٌ لا يَحتاجُ إلى التَّأكيدِ، وإنَّما الشَّيءُ الَّذي لم يَكُنْ لهم عِلمٌ به هو أنَّ مِن حِكمةِ تَصريفِه بيْن النَّاسِ أن يَذْكروا نِعمةَ اللهِ تعالى عليهم مع نُزولِه عليهم، وفي حالةِ إمساكِه عنهم؛ لأنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ لا يَقدُرُ قَدْرَ النِّعمةِ إلَّا عِندَ فَقدِها، فيَعلَموا أنَّ اللهَ هو الرَّبُّ الواحِدُ المُختارُ في خلْقِ الأسبابِ والمُسبَّباتِ[٣].

- ولَمَّا كان التَّذكُّرُ شاملًا لشُكرِ المُنعَمِ عليهم بإصابةِ المطرِ، ولتَفطُّنِ المَحرومينَ إلى سببِ حِرمانِهم إيَّاه لعلَّهم يَستَغفِرون، جيءَ في التَّعليلِ بفِعلِ ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾؛ لِيَكونَ علَّةً لحالتَيِ التَّصريفِ بيْنهم[٤].

- وقولُه: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ تَركيبٌ جرَى بمادَّتِه وهَيئتِه مَجرَى المَثَلِ في الإخبارِ عن تَصميمِ المُخبَرِ عنه على ما بعْدَ حَرْفِ الاستِثناءِ، وذلك يَقتَضي وُجودَ الصَّارفِ عنِ المُستثنَى، أي: فصَمَّموا على الكُفورِ لا يَرجِعون عنه؛ لأنَّ الاستِثناءَ مِن عُمومِ أشياءَ مُبهمَةٍ جُعِلَتْ كلُّها ممَّا تَعلَّقَ به الإباءُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩، ٥٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٠).

كأنَّ الآبِينَ قد عُرِضَتْ عليهم -مِنَ النَّاسِ أو مِن خَواطِرِهم- أمورٌ وراجَعوا فلمْ يَقبَلوا منها إلَّا الكُفورَ، وإنْ لم يَكُنْ هنالك عَرْضٌ ولا إباءٌ[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾

- الأصلُ في (بَعَث) و(أرسل) وأمثالِهما أنْ يَتعدَّى بـ (إلى)، وهنا قال: ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾؛ فجُعِلتِ القريةُ موضعًا للإرسالِ؛ فلم يُعَدَّ بـ (في) كما عُدِّي بـ (إلى)، ولم يُجعَلْ صِلةً مِثلَه، يعني: أنَّ «في» هنا ليستْ للتَّعديةِ، مِثل «إلى»، لكنها: ظرفٌ له، اقتطع «بَعَثْنا» مِن صِلتِه، وجُعِلَ مطلقًا[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ هذا النهيُ مرادٌ به تَهييجُه صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَهييجُ المؤمنينَ وتَحريكُهم على عَدمِ طاعةِ الكافِرينَ فيما يُريدونَهم عليه؛ والخِطابُ وإنْ كان له فالحُكمُ شاملٌ لِأُمَّتِه[٣].

- وتفريعُ قَولِه: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ على جُملةِ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾؛ لأنَّها تَتضمَّنُ أنَّه مُرسَلٌ إلى المشْركينَ مِن أهلِ مكَّةَ، وهُم يَطلُبون منه الكَفَّ عن دَعوَتِهم، وعن تَنقُّصِ أصنامِهم. والنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ والتَّذكيرِ، وفِعلُ ﴿تُطِعِ ﴾ في سِياقِ النَّهيِ يُفيدُ عُمومَ التَّحذيرِ مِن أدْنى طاعةٍ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

- قولُه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ قيل: إنَّه أُمِر بالحِرصِ على الدَّعوةِ والمُبالَغةِ فيها، وعُبِّرَ عن ذلك بالجِهادِ -وهو الاسمُ الجامعُ لمُنتهَى الطَّاقةِ- وصِيغةِ المُفاعَلةِ فيه؛ ليُفيدَ مُقابلةَ مَجهودِهم بمَجهودِه فلا يَضعُفُ؛ ولذلك وُصِف بالجِهادِ الكَبيرِ، أي: الجامعِ لكلِّ مُجاهَدةٍ[١]. قيل: لأنَّ مُجاهَدةَ السُّفهاءِ بالحُجَجِ أكبَرُ مِن مُجاهَدةِ الأعداءِ بالسَّيفِ، أو لأنَّ مُخالفتَهم ومُعاداتِهم فيما بيْن أظهُرِهم مع عُتُوِّهم وظُهورِهم[٢]، أو جعَلَه جِهادًا كبيرًا لِما يُحتمَلُ فيه مِنَ المَشاقِّ العِظامِ، أو لأنَّه جِهادٌ مع كلِّ الكَفرةِ؛ لأنَّه مَبعوثٌ إلى القُرى كافَّةً[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ جمعَتْ هذه الآيةُ: استِدلالًا، وتَمثيلًا، وتَثبيتًا، ووعْدًا؛ فصريحُها استِدلالٌ على شَيءٍ عظيمٍ مِن آثارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، وهو التِقاءُ الأنهارِ والأَبحُرِ. وفي ضِمْنِها تَمثيلٌ لحالِ دَعوةِ الإسلامِ في مكَّةَ يوْمَئذٍ واختِلاطِ المؤْمنينَ مع المشْركينَ بحالِ تَجاوُزِ البَحرينِ: أحدِهما عَذْبٌ فُراتٌ، والآخَرِ مِلْحٌ أُجاجٌ. وتمثيلُ الإيمانِ بالعَذْبِ الفُراتِ، والشِّركِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وأنَّ اللهَ تعالى كما جَعَل بيْن البَحرَينِ بَرْزخًا يَحفَظُ العَذْبَ مِن أنْ يُكدِّرَه الأُجاجُ، كذلك حَجَز بيْن المُسلِمينَ والمُشركينَ فلا يَستطيعُ المُشرِكونَ أنْ يَدُسُّوا كُفرَهم بيْن المسْلمينَ. وفي هذا تَثبيتٌ للمسْلمينَ بأنَّ اللهَ يَحجُزُ عنهم ضُرَّ المُشركينَ، لقَولِه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. وفي ذلك تَعريضٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٧).

كِنائيٌّ بأنَّ اللهَ ناصِرٌ لهذا الدِّينِ مِن أن يُكدِّرَه الشِّركُ؛ ولأجْلِ ما فيها مِنَ التَّمثيلِ والتَّثبيتِ والوعدِ كان لِمَوقِعِها عَقِبَ جملةِ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أكمَلُ حُسنٍ(١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ القَصرُ المُستفادُ هنا مِن تَعريفِ جُزأَيِ الجُملةِ، هو قَصرُ إفرادٍ، أي: لا يَشرَكُه غَيرُه في مَرْجِ البَحرَينِ؛ لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَتْ شَرِكَتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في مَرْجِ البَحرَينِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ اختلَّتْ حَقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزِئةَ(٢).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿مَّحْجُورًا﴾ وصْفٌ لـ ﴿حِجْرًا﴾ مُشتَقٌّ مِن مادَّتِه؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ المعنَى المُشتَقِّ منه، كما قالوا: لَيْلٌ أَلْيَلُ(٣).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾

- عَبَّر بالضَّميرِ ﴿وَهُوَ﴾ -كما تقدَّمه- حَثًّا على استِحضارِ الأفعالِ والصِّفاتِ التي تقَدَّمتْ؛ لِتُعرفَ الحيثيَّةُ التي كُرِّرَ الضَّميرُ لأجلِها(٤).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ ...﴾ القَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ الجُزأَينِ قَصرُ إفرادٍ؛ لإبطالِ دَعْوى شَرِكةِ الأصنامِ للهِ في الإلهيَّةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣، ٥٤).

وهذا المذكورُ مِن قبيلِ التفسيرِ الإشاريِّ، وهو مِن بابِ الاعتبارِ والقياسِ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

- والماءُ في قَولِه: ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ مُطلَقٌ دَلَّ على شائعٍ في جِنسِ الماءِ؛ فتَقييدُه بقَولِه: ﴿بَشَرًا﴾ دَلَّ على أنَّ المرادَ منه النُّطفةُ الواحدةُ، ثمَّ تَقسيمُه بقَولِه: ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ دَلَّ على نَوعَينِ: ذكَرٍ وأُنثى، وإنَّما عَدَل عنِ الذَّكرِ والأُنثى؛ ليؤْذِنَ بالانشِعابِ نَصًّا؛ فالنُّطفةُ الواحدةُ نُطفةُ آدَمَ عليه السَّلامُ؛ فإذَنِ الآيةُ على وِزانِ قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[(١)] [النساء: ١].

- والتَّنوينُ في قَولِه: ﴿بَشَرًا﴾ للتَّعظيمِ[(٢)].

- وفي تَركيبِ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ مِن دَقيقِ الإيذانِ بأنَّ قُدرتَه راسِخةٌ واجِبةٌ له، مُتَّصِفٌ بها في الأَزَلِ بما اقتَضاهُ فِعلُ (كان)، وما في صِيغةِ (قَدير) مِنَ الدَّلالةِ على قوَّةِ القُدرةِ المُقتضيةِ تمامَ الإرادةِ والعِلمِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٦).

الآيات (٥٥-٦٢)

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى
ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا
سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُظاهِرًا ومُعاوِنًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿خَبِيرًا﴾: أي: عالِمًا، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، والخبيرُ في أسماءِ الله: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطَةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ[2].

﴿نُفُورًا﴾: أي: هَرَبًا، وذَهابًا عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٩٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، =

﴿بُرُوجًا﴾: أي: مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ[١]، وقيل: البُروجُ: الكواكبُ العِظامُ، وأصلُ البرجِ: القَصرُ والحِصْنُ، وبه سُمِّي بروجُ السماءِ لمنازِلِها المختصةِ بها[٢].

﴿خِلْفَةً﴾: أي: مُتعاقِبَينِ؛ يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

(١) قال الخازن: (هي بروجُ الفَلَك الاثنا عشرَ بُرجًا، وهي: الحمَلُ، والثورُ، والجوزاءُ، والسرطانُ، والأسدُ، والسنبلةُ، والميزانُ، والعقربُ، والقوسُ، والجَدْي، والدلوُ، والحوتُ. وهذه البروجُ مَقسومةٌ على ثمانيةٍ وعشرين منزِلًا، لكلِّ برجٍ منزلان وثلثُ منزلٍ... وهذه البروجُ مقسومةٌ على ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ درجةً، لكلِّ برجٍ منها ثلاثونَ درجةً تقطَعُها الشَّمسُ في كلِّ سَنةٍ مرَّةً، وبها تتِمُّ دورةُ الفَلَك، ويقطَعُها القمرُ في ثمانيةٍ وعشرينَ يومًا). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩).

وقال ابن عاشور: (أُطلِق البُرجُ على بقعةٍ معيَّنةٍ مِن سَمْتِ طائفةٍ مِن النجومِ غيرِ السيَّارةِ -وتُسمَّى النجومَ الثوابتَ- متجمعٍ بعضُها بقربِ بعضٍ على أبعادٍ بينَها، لا تتغيَّرُ فيما يُشاهَدُ مِن الجوِّ، فتلك الطائفةُ تكونُ بشكلٍ واحدٍ يشابهُ نُقطًا لو خُطِّطت بينَها خطوطٌ لخرجَ منها شِبهُ صورةِ حيوانٍ أو آلةٍ، سمُّوا باسمِها تلك النجومَ المشابهةَ لهيئتِها، وهي واقعةٌ في خطِّ سَيرِ الشمسِ... تخيَّلوا أنَّها منازلُ للشمسِ؛ لأنَّهم وقَّتوا بجهتِها سَمْتَ موقعِ الشمسِ مِن قُبةِ الجوِّ نهارًا فيما يخيَّلُ للناظرِ أنَّ الشمسَ تسيرُ في شبهِ قوسِ الدائرةِ، وجعلوها اثني عشرَ مكانًا بعددِ شهورِ السنةِ الشمسيَّةِ... فبما كان لها مِن النظامِ تسَنَّى أن تُجعلَ علاماتٍ لمواقيتِ حلولِ الفصولِ الأربعةِ، وحلولِ الأشهرِ الاثني عشرَ، فهُم ضبَطوا لتلك العلاماتِ حدودًا وَهْميَّةً عيَّنوا مكانَها في الليلِ مِن جهةِ موقعِ الشمسِ في النهارِ... وللتمييزِ بينَ تلك الطوائفِ مِن النجومِ جعلوا لها أسماءَ الأشياءِ التي شبَّهوها بها، وأضافوا البرجَ إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

مَجيءِ شَيءٍ بعْدَ شَيءٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن هذه النِّعمِ العظيمةِ: ويعبُدُ هؤلاء المُشرِكون آلهةً مِن دونِ اللهِ لا تنفَعُهم ولا تضُرُّهم، وكان الكافِرُ مُظاهِرًا ومُعاونًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ الله؛ يُشرِكُ به ويعصيه، ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى الوظيفةَ التي مِن أجْلِها أرسَل رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقول تعالى: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَهم بثوابِ اللهِ إذا آمَنوا بالله، ولِتُنذِرَهم عِقابَه وغَضَبَه إنْ كَفَروا وكذَّبوا. ويأمرُ الله نبيَّه أن يقولَ لمَن أُرسِل إليهم: لا أسألُكم على تبليغِ رِسالةِ الله إليكم مالًا، لكِنْ مَن شاء منكم أن يتَّخِذَ إلى مَرضاةِ رَبِّه سَبيلًا، كالصَّدَقةِ في سبيلِ الله، فليفعَلْ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتوكَّلَ عليه، ويستعينَ به، فيقول: واعتَمِدْ على اللهِ الحيِّ الباقي الذي لا يموتُ، ونزِّهْه عن كلِّ نَقصٍ مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، وكفى برَبِّك خبيرًا عَليمًا بذُنوبِ عِبادِه، وسيُجازيهم عليها.

الذي خلق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثُمَّ علا على العَرشِ علُوًّا يليقُ بجَلالِه: الرَّحمنُ؛ فاسأَلْ -يا محمَّدُ- عن الرَّحمنِ عالِمًا يخبِرْك عنه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن جهالاتِ المشركينَ وسخافاتِهم، فيقول: وإذا قيل

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٦).

لهؤلاء المُشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ، قالوا: لا نَعرِفُ الرَّحمنَ! أنسجُدُ لِما تأمُرُنا أنت أن نسجُدَ له مِن غيرِ أن نَعرِفَه، ومِن غيرِ أن نُؤمِنَ به؟ وزادهم الأمرُ بالسُّجودِ للرَّحمنِ نُفورًا عن الإيمانِ. ثمَّ يرُدُّ الله سبحانه عليهم بما يدُلُّ على عظيمِ قدرتِه، فيقولُ: تعاظَمَ اللهُ وجلَّ شأنُه وكثُرتْ خيراتُه؛ فهو الذي جعَل في السَّماءِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ، وخلَق فيها شَمسًا مُشرِقةً وقَمرًا مُضيئًا، وهو الذي جعل اللَّيلَ والنَّهارَ مُتعاقِبَين يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه التي لا تُحصى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عدَّدَ النِّعَمَ، وبيَّنَ كمالَ قُدرتِه؛ عَجَّب مِن المشرِكين في إشراكِهم به مَن لا يقدِرُ على نَفعٍ ولا ضرٍّ، أي: إنَّ اللهَ هو الذي خلَقَ ما ذكَرَه، ثمَّ هؤلاء لجَهلِهم يعبُدونَ مِن دونِه أمواتًا جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[1]!

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تَنفعُهم بشَيءٍ، ولا تضُرُّهم أبدًا، ويتركونَ عِبادةَ اللهِ الذي خلَقَهم، وأنعَمَ عليهم، ويَملِكُ نَفعَهم وضُرَّهم[2].

﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾.

أي: وكان الكافِرُ مُعينًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ اللهِ؛ يُشرِكُ به ويعصيه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه[١]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

تعلُّقُ ذلك بما تقَدَّم هو أنَّ الكُفَّارَ يطلُبونَ العَونَ على اللهِ تعالى وعلى رَسولِه، واللهُ تعالى بَعَثَ رسولَه لِنَفعِهم؛ لأنَّه بعَثَه لِيُبَشِّرَهم على الطاعةِ، ويُنذِرَهم على المعصيةِ، فيَستحقُّوا الثوابَ، ويَحترِزوا عن العقابِ، فلا جهلَ أعظَمُ مِن جهلِ مَنِ استفرغَ جُهْدَه في إيذاءِ شخصٍ استفرغَ جُهْدَه في إصلاحِ مهمَّاتِه دينًا ودُنيا، ولا يسألُهم على ذلك البتَّةَ أجرًا[٢]!!

وأيضًا لَمَّا أفضى الكلامُ بأفانينِ انتِقالاتِه إلى التَّعجيبِ مِن استمرارِهم على أنْ يعبُدوا ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم؛ أعقَبَ بما يُومِئُ إلى استِمرارِهم على تكذيبِهم محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم في دعوى الرِّسالةِ، بنِسبةِ ما بَلَّغَه إليهم إلى الإفكِ، وأنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّه سِحرٌ، فأُبطِلَتْ دعاويهم كلُّها بوَصفِ النَّبيِّ بأنَّه مُرسَلٌ مِن الله، وقَصْرِه على صفتَيِ التَّبشيرِ والنِّذارةِ[٣].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَ مَن آمنَ بك واتَّبعَك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦، ٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وتُنذِرَ مَن كفَرَ بك وكذَّبَك وعصاك بالشَّقاءِ والعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وقَعَ جوابُهم عن قَولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧]، وكان قد بقِيَ قولُهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ [الفرقان: ٨]، أُشيرَ إلى مَزيدِ الاهتِمامِ بجوابِه بإبرازِه في صورةِ الجوابِ لِمَن كأنَّه قال: ماذا يُقالُ لهم إذا تظاهَروا وطَعَنوا في الرِّسالةِ بما تقدَّمَ وغَيرِه؟ فقال[2]:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أرسلْتُك إليهم: أنا لا أسألُكم على تبليغِ رسالةِ اللهِ إليكم مالًا[3].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال سُبحانه: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

أي: لكنْ مَن شاء مِنكم أن يتَّخِذَ طَريقًا يقَرِّبُه إلى اللهِ، فليفعَلْ، ومِن ذلك أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

يُنفِقَ مِن مالِه في سبيلِ اللهِ[(١)].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ الكُفَّارَ مُتظاهِرونَ على إيذائِه، فأمَرَه بألَّا يطلُبَ منهم أجرًا البتَّةَ- أمَرَه بأنْ يتوكَّلَ عليه في دفْعِ جَميعِ المَضارِّ، وفي جَلْبِ جميعِ المنافعِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه فَطَمَ نفْسَه عن سؤالِهم شَيئًا؛ أمَرَه تعالى بتفويضِ أمرِه إليه، وثِقَتِه به، والاعتِمادِ عليه؛ فهو المتكفِّلُ بنَصرِه وإظهارِ دينِه[(٣)].

وأيضًا لَمَّا كان المقصودُ رَدَّهم عن عِنادِهم، وكان ذلك في غايةِ الصُّعوبةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ كثير: (﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ومَسلَكًا ومَنهجًا يُقتَدى فيها بما جِئتُ به). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨).

وقال البقاعي: (﴿إِلَّا مَن﴾ أي: إلَّا أجرَ مَن ﴿شَآءَ أَن يَتَّخِذَ﴾ أي: يكَلِّفَ نفْسَه ويخالِفَ هواه، ويجعَلَ له ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ فإنَّه إذا اهتدى بهدايةِ رَبِّه، كان لي مِثلُ أجرِه، لا نفْعَ لي من جهتِكم إلَّا هذا، فإنْ سمَّيتم هذا أجرًا فهو مطلوبي، ولا مِريةَ في أنَّه لا يَنقُصُ أحدًا شيئًا مِن دنياه، فلا ضررَ على أحدٍ في طَيِّ الدُّنيا عنِّي، فأفاد هذا فائدتينِ؛ إحداهما: أنَّه لا طمعَ له أصلًا في شيءٍ يَنقُصُهم، والثانيةُ: إظهارُ الشَّفَقةِ البالِغةِ بأنَّه يَعتَدُّ بمنفعتِهم الموصلةِ لهم إلى ربِّهم ثوابًا لنَفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

وكان هذا الكلامُ لا يَرُدُّ مُتعنِّتيهم -وهم الأغلبُ- الذين تُخشَى غائلتُهم؛ عطَفَ على ﴿ قُلْ ﴾ قولَه[1]:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾.

أي: واعتَمِدْ -يا محمَّدُ- في دينِك ودُنياك على اللهِ الذي له الحياةُ الكامِلةُ الدَّائِمةُ التي لا موتَ معها أبدًا، وفوِّضْ أمورَك كُلَّها إليه وحْدَه لا إلى غيرِه، لا سيَّما في مُواجهةِ المُشركين بالإنذارِ، وتبليغِهم رسالةَ الله إليهم[2].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٨، ٩].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾.

أي: ونزِّهْ -يا محمَّدُ- ربَّك عن النَّقائِصِ والأندادِ والشُّركاءِ، مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، شاكرًا له على نِعَمِه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أي: فلا ضياعَ لِمَن تَوكَّل عليه أصلًا، بل هو المتولِّي لمصالحِه في حياتِه وبعْدَ مماتِه، ولا تلتفِتْ إلى ما سِواه بوجهٍ؛ فإنَّه هالِكٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

قال ابن جُزَي: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي: قُلْ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه. والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، ومعنى بحَمْدِه: أي: بحَمْدِه أقولُ ذلك. ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه؛ فهو أمرٌ بأن يَجمَعَ بينَ التَّسبيحِ والحَمدِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥). =

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المُسَلَّى ربَّما وقَعَ في فِكرِه أنَّ مَن سَلَّاه إمَّا غيرُ قادرٍ على نَصرِه، أو غيرُ عالِمٍ بذُنوبِ خَصمِه، وكان السِّياقُ للشِّكايةِ مِن إعراضِ المبلِّغِينَ عن القُرآنِ، وما يَتبَعُ ذلك مِن الأذى- أشار بالعَطفِ على غيرِ مذكورٍ إلى أنَّ التقديرَ:

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ أن يقولَ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه: ابنُ عطية، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه -أي أن يقولَ: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ لِلهِ-: جلالُ الدينِ المحليُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٧).

وقال ابن كثير: (اقرِنْ بيْنَ حمدِه وتسبيحِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: نزِّهْه عن صفاتِ النُّقصانِ، مُثنيًا عليه بنعوتِ الكمالِ: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٧).

وممَّن فسَّر التَّسبيحَ بالتَّنزيهِ أيضًا: القرطبيُّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: اعبُدْهُ شُكرًا منك له على نِعَمِه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: صَلِّ له شكرًا على نِعَمِه: البغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٧).

وقال الثعلبي: (اعبُدْه وصَلِّ له شكرًا منك له على نِعَمِه). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقال العليمي: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ صلِّ له شكرًا، ونَزِّهْه عن صفات النقصان). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٦).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا أمْرُه بالتَّسبيحِ فهو تنزيهُ الله عمَّا لا يليقُ به، وأوَّلُ ذلك الشَّركةُ في الإلهيَّةِ، أي: إذا أهمَّك أمرُ إعراضِ المشركينَ عن دعوةِ الإسلامِ، فعليك نفْسَك، فنَزِّهِ اللهَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

«فكفى به لك نصيرًا»، وعطَفَ عليه[(١)]:

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

أي: وحَسْبُك -يا محمَّدُ- ربُّك الخَبيرُ بذُنوبِ عبادِه، فلا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها يومَ القيامةِ؛ فليس عليك هُداهم، ولا حِفظُ أعمالِهم، فذلك كلُّه بيَدِ اللهِ وحْدَه[(٢)].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه نبيَّه بالتوكُّلِ والتَّسبيحِ، وذكَرَ صفةَ الحياةِ الدَّائمةِ؛ ذَكَرَ ما دلَّ على القدرةِ التامَّةِ، وهو إيجادُ هذا العالَمِ[(٣)]، وأنَّه جديرٌ بأن يُخَصَّ بالتوكُّلِ، تبارَكَ وتعالى[(٤)].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

أي: توكَّلْ على الحيِّ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في سِتَّةِ أيامٍ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٧).

قال ابن كثير: (والسِّتَّةُ الأيامِ هي: الأحدُ، والاثنينُ، والثُّلاثاءُ، والأربِعاءُ، والخميسُ، والجُمُعةُ =

= -وفيه اجتمَع الخَلْقُ كلُّه، وفيه خُلِق آدمُ عليه السلام. واختلَفوا في هذه الأيَّام: هل كلُّ يَومٍ منها كهذه الأيَّامِ كما هو المتبادرُ إلى الأذهانِ؟ أو كلُّ يَومٍ كألْفِ سَنةٍ كما نَصَّ على ذلك مجاهِدٌ، والإمامُ أحمدُ بنُ حَنبلٍ، ويُروى ذلك مِن روايةِ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ؟ فأمَّا يومُ السَّبتِ فلمْ يقَعْ فيه خَلْقٌ؛ لأنَّه اليَومُ السابعُ، ومنه سُمِّيَ السبت، وهو القطعُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦).

ممَّن اختار أنَّها مِقدارُ ستَّةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطية -ونَسَبه للجمهورِ-، والبِقاعي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

قال الألوسي عن هذا القول: (وهو الأنسَبُ بالمقامِ؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الباهرةِ بخَلقِ هذه الأجرامِ العظيمةِ في مِثلِ تلك المُدَّةِ اليسيرةِ، ولأنَّه تعريفٌ لنا بما نعرِفُه). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٢).

وقال ابنُ عثيمين عن القَولِ بأنَّ الأيامَ السِّتَّةَ هي مِن أيامِ الدُّنيا: (هذا هو القَولُ المشهورُ، وهو الراجِحُ، وأمَّا مَن قال: في ستةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الآخرةِ، وإنَّ اليومَ كألْفِ سَنةٍ، أو مَن قال: إنَّ المرادَ بالأيَّامِ مُطلقُ الزمَنِ، أي: في لحظاتٍ- فذلك أيضًا قولٌ مرجوحٌ؛ لأنَّ القرآنَ إنَّما يخاطِبُ النَّاسَ بما يَعرِفونَ، فالصَّحيحُ أنَّ المرادَ سِتةُ أيامٍ مِن أيامِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

وقال الشنقيطي: (العلماء يقولون: إنَّ هذه الأيَّامَ، المرادُ بها أوقاتُها؛ لأنَّه في ذلك الوقتِ لم يكُنْ هنالك يومٌ؛ لأنَّ اليومَ مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، وإن لم يكُنْ هنالك شَمسٌ لا يُعرَفُ اليومُ، إلَّا أنَّ اللهَ قبْلَ أن يخلُقَ الشَّمسَ والقَمَرَ يعلمُ زمَنَ الأيَّامِ قبْلَ وُجودِ الشَّمسِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

وقال الزمخشري: (أمَّا الدَّاعي إلى هذا العَدَدِ -أعني: السِّتَّةَ دونَ سائرِ الأعدادِ- فلا نشُكُّ أنَّه داعي حِكْمةٍ؛ لعِلْمنا أنَّه لا يُقدِّر تقديرًا إلَّا بداعي حِكمةٍ، وإن كنَّا لا نطَّلِعُ عليه، ولا نهتدي إلى معرفتِه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨).

وقال البيضاوي: (ولعلَّ ذِكرَه زيادةُ تقريرٍ؛ لكونِه حقيقًا بأن يُتوكَّلَ عليه؛ من حيثُ إنَّه الخالِقُ للكُلِّ، والمتصَرِّفُ فيه، وتحريضٌ على الثباتِ والتأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى -مع كمالِ قدرتِه، وسرعةِ نفاذِ أمرِه في كلِّ مُرادٍ- خلَقَ الأشياءَ على تُؤَدةٍ وتدَرُّجٍ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩).

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ الرَّحمنُ على عرشِه بعْدَ خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه[(١)].

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان العِلمُ لازمًا للمُلْكِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قولَه[(٢)]:

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

أي: فاسأَلْ[(٣)] ....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٠).

قال السعدي: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ بعْدَ ذلك ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ الذي هو سَقفُ المخلوقاتِ وأعلاها، وأوسَعُها وأجمَلُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقال أبو عمرو الداني: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ تامٌّ، إذا ارتفَع ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بالابتِداءِ، وجُعِل الخبرُ فيما بعْدَه. فإنْ رُفِع بتقدير: هو الرَّحمنُ؛ كان الوقفُ على ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ كافيًا. وإن جُعِل بدَلًا مِنَ المُضمَرِ الذي في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ لم يَكفِ الوقفُ على ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾، وكفى على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾). ((المكتفى في الوقف والابتدا)) (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٥).

(٣) قيل: الخطابُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسلامُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١).

وقال الواحديُّ: (هذا الخِطابُ ظاهِرُه للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه). ((الوسيط)) (٣/ ٣٤٤).

وقال أيضًا: (﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ فاسأَلْ -أيُّها الإنسانُ الذي لا تَعلَمُ صِفتَه- خَبيرًا يُخبِرْك بصِفاتِه). ((الوجيز)) (ص: ٧٨٢).

وقال أبو السعود: (وما قيل مِن أنَّ التَّقديرَ: إنْ شككتَ فيه فاسأَلْ به خَبيرًا، على أنَّ الخطابَ =

عن(١) الرَّحمنِ عالِمًا(٢) يُخبِرْك عنه وعن عَظَمتِه، وعن خَلقِه وسُلطانِه، وأفعالِه

= له صلَّى الله عليه وسلَّم والمرادَ غيرُه؛ بمعزلٍ مِن السَّدادِ، بل التَّقديرُ: إنْ شئتَ تحقيقَ ما ذُكِر أو تفصيلَ ما ذُكر، فاسألْ معنيًّا بهِ ﴿خَبِيرًا ﴾). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

(١) قال ابنُ عثيمين في بيانِ أوجُهِ التَّعْدية بالباءِ:

(الوَجهُ الأوَّلُ: أن تكونَ «الباءُ» بمعنى «عن»، وهذا واضِحٌ: فاسألْ عنه خَبيرًا.

الوَجهُ الثَّاني: أن تكونَ «الباء» متعلِّقةً بمحذوفٍ تقديرُه: مُعْتنيًا أو مُهتَمًّا به، حالٌ مِنَ الضَّميرِ المُستترِ في قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ ﴾. وعندي أيضًا أنَّه يوجدُ احتِمالٌ أنَّ المعنى: فاسألْ تُجَبْ به خَبيرًا، يعني كأنَّه ضُمِّنَ السُّؤالُ ما يدُلُّ على الجوابِ، مِثلُ ما قيلَ في: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١]: سأل سائِلٌ وأُجيب بعَذابٍ واقعٍ، ويكونُ عَدَل عن «عن» إلى «الباء»؛ لأنَّ «عن» إنَّما تدُلُّ على مجرَّدِ السُّؤالِ، و «الباء» تدُلُّ على الإجابةِ أيضًا. وعلى كلِّ حالٍ فالمعنى أنَّ الرحمنَ الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ واستوى على العَرشِ اسألْ عنه خَبيرًا يُخبِرْك). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٣).

(٢) قيل: المرادُ بالخبير: اللهُ تعالى. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، وأبو السعود، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٤).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠).

قال أبو السعود: (﴿خَبِيرًا ﴾ عظيمَ الشأنِ، محيطًا بظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، وهو اللهُ سبحانه؛ يُطلِعْك على جليَّةِ الأمرِ. وقيل: فاسألْ به مَن وَجَدَه في الكُتُبِ المتقدِّمةِ؛ ليَصْدُقَك فيه). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

وقال السعدي: (﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ يعني بذلك: نَفْسَه الكريمةَ؛ فهو الذي يعلَمُ أوصافَه وعَظَمَته وجَلالَه، وقد أخبَرَكم بذلك، وأبانَ لكم مِن عظمَتِه ما تَسعَدونَ به مِن معرفتِه، فعَرَفه العارفون وخضَعوا لجلالِه، واستكبَرَ عن عبادتِه الكافِرونَ واستنكَفوا عن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقيل: المرادُ به: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

قال ابن كثير: (أي: استعلِمْ عنه مَن هو خبيرٌ به عالمٌ به، فاتَّبِعْه واقتَدِ به، وقد عُلِم أنَّه لا أحدَ =

وصفاتِ كَمالِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ إحسانَه إليهم، وإنعامَه عليهم؛ ذَكَرَ ما أبدَوْهُ مِن كفْرِهم في مَوضِعِ

= أعلَمُ بالله ولا أخبَرُ به مِن عبدِه ورسولِه محمدٍ -صلواتُ الله وسلامُه على سيِّدِ ولدِ آدمَ- على الإطلاقِ في الدُّنيا والآخرةِ، الذي لا ينطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى؛ فما قاله فهو حقٌّ، وما أخبَر به فهو صِدقٌ، وهو الإمامُ المحكَّمُ الذي إذا تنازَع الناسُ في شَيءٍ وجَب ردُّ نزاعِهم إليه، فما يوافِقُ أقوالَه وأفعالَه فهو الحقُّ، وما يخالِفُها فهو مردودٌ على قائلِه وفاعِلِه، كائنًا مَن كان؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

وقيل: المرادُ: أهلُ العلمِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ الأنباري. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) (٢/ ٨٠٩).

قال ابن جُزي: (الأظهرُ أنَّ المُرادَ: اسألْ عنه مَن هو خبيرٌ عارفٌ به، وانتصَب ﴿خَبِيرًا﴾ على المفعوليَّةِ، وهذا الخبيرُ المَسؤولُ هو جِبريلُ عليه السَّلامُ، والعلماءُ، وأهلُ الكتابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وقال الرسعني: (إمَّا أن يُرادَ بالخِطابِ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أو غيرُه بخِطابِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤]: فإن كان المرادُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فالخبيرُ هو جبريلُ عليه السَّلامُ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ. وقال مجاهدٌ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ، على معنى: فسَلْني؛ فإنِّي الخبيرُ. وإن أُريدَ به غيرُه فالمعنى: فاسألْ رجُلًا خبيرًا، أي: عالمًا بما تسألُه عنه. وقيل: الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ يرجِعُ إلى ما دَلَّ عليه ﴿فَسْـَٔلْ﴾، وهو السؤالُ... المعنى: فاسألْ بسؤالِك خبيرًا أيُّها الإنسانُ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٣).

شُكْرِهم، فقال[١]:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾.

أي: وإذا قيلَ لأولئك المُشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ الذي أنعَمَ عليكم بالنِّعَمِ، ودفَعَ عنكم النِّقَمَ دونَ غيرِه؛ قالوا متعَجِّبين وكافرين بالله ومُنكِرين لاسمِه الرَّحمنِ: لا نعرِفُ الرَّحمنَ! أنطيعُك -يا محمَّدُ- فنَسجُدُ لله وحْدَه لمجرَّدِ قَولِك وأمْرِك بذلك[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

قال ابنُ عثيمين: (هذا السجودُ يحتَمِلُ أن يرادَ به السجودُ الخاصُّ الذي هو خرورُ الإنسانِ على أعضائِه السبعةِ، ويحتمِلُ أنَّ المرادَ به السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ المُطلَقُ؛ لأنَّ السجودَ يُطلَقُ بالمعنيين: السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ والذُّلُّ مُطلقًا، أو السجودُ الخاصُّ على هذه الأعضاءِ المعروفةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٩).

وقيل: المعنى: صَلُّوا للرَّحمنِ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٣/ ١٣١).

واختار القاسميُّ أنَّ المرادَ بالسُّجودِ: الإذعانُ بالإيمانِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٥).

قال ابن عاشور: (السجودُ الذي أُمِروا به سُجودُ الاعتِرافِ له بالوَحدانيَّةِ، وهو شِعارُ الإسلامِ، ولم يكنِ السُّجودُ مِن عبادتِهم، وإنَّما كانوا يَطوفون بالأصنامِ، وأمَّا سُجودُ الصَّلاةِ التي هي مِن قواعدِ الإسلامِ فليس مُرادًا هنا؛ إذ لم يكونوا ممَّن يُؤمَرُ بالصَّلاةِ، ولا فائدةَ في تكليفِهم بها قبْلَ أن يُسْلِموا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٢).

وذَكَر النَّسَفي أنَّ المعنى: صَلُّوا لله، واخضَعوا له. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٦).

قال الشنقيطي: (وما ذَكَرَه هنا مِن أنَّهم أُمِروا بالسُّجودِ له وحْدَه -جَلَّ وعلا- مذكورٌ في غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقَولِه تعالى: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم: ٦٢]، =

كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

أي: وزاد المُشرِكينَ أمْرُهم بالسُّجودِ للرَّحمنِ كراهيةً وفِرارًا مِن الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾.

= وقد وَبَّخَهم تعالى على عدَمِ امتِثالِ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]. ((أضواء البيان)) (٦/ ٧٠).

ومِمَّن اقتصَر على تفسيرِ السجودِ في الآيةِ بالسجودِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والواحديُّ، والرازي، والخازن، والعليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٥٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عنِ الكُفَّارِ مَزيدَ النُّفرةِ عن السُّجودِ؛ ذكَرَ ما لو تفكَّروا فيه لعَرَفوا وجوبَ السُّجودِ والعبادةِ للرَّحمنِ(١).

وأيضًا لَمَّا سألَ المُشرِكون بقَولِهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كما يَسألون عنِ المجهولِ؛ ذكَرَ لهم القرآنُ ما يُعَرِّفُهم به مِن عظيمِ آياتِه، وجلائلِ إنعاماتِه التي هي مِن آثارِ رحمتِه، فذَكَرَ لهم بُروجَ السماءِ والشَّمسَ والقمرَ، ثمَّ ذَكَرَ لهم تعاقُبَ اللَّيلِ والنهارِ(٢).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سبحانَه حالَ النَّذيرِ الذي ابتدأَ به السورةَ في دعائِه إلى الرَّحمنِ -الذي لو لم يَدْعُ إلى عبادتِه إلَّا رحمانيَّتُه لكفى، فكيف بكلِّ جمالٍ وجلالٍ- فأنكروه؛ اقتضى الحالُ أن يُوصَلَ به إثباتُه بإثباتِ ما هم عالِمونَ به مِن آثارِ رحمانيَّتِه، ففَصَّلَ ما أُجمِلَ بعْدَ ذِكْرِ حالِ النَّذيرِ، ثمَّ مِن المُلْكِ، مُصَدِّرًا له بوَصفِ الحقِّ الذي جعَلَه مَطلِعَ السورةِ؛ رادًّا لِمَا تضمَّنَ إنكارُهم مِن نفيِه، فقال(٣):

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبَتَتْ بَرَكاتُه، فهو الذي جعَلَ في السَّماءِ منازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦١، ٢٦٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿سُرُجًا﴾ على الجَمعِ، قيل: المرادُ بها: ما أضاءَ مِن النُّجومِ، وقيل: المرادُ بها: الشَّمسُ، وإنَّما جاءت بصيغةِ الجَمعِ؛ لِتَعظيمِها[1].

---

(١) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٧).
قال ابن زنجلة: (ومَن قرأ ﴿سُرُجًا﴾: الشمسُ والقمرُ والكواكِبُ العِظامُ معها). ((حجة القراءات)) (ص: ٥١٢).
وقال السمعاني: (على هذه القراءةِ قد دخَل القمرُ في السُّرُجِ، إلَّا أنَّه خصَّه بالذِّكرِ لنوعِ فَضيلةٍ له، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨).
وقال ابن عثيمين: (فعَطفُ القمَرِ المنيرِ على السُّرجِ مِن بابِ عَطفِ المتغايرينِ، لا مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالقمَرُ ليس من السُّرُجِ؛ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، فالشَّمسُ -بلا شكٍّ- سراجٌ، ولكنَّ القمرَ نورٌ؛ فعليه لا يكونُ منها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٣).
وقال البِقاعي: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ بصيغةِ الجَمعِ؛ للتَّنبيهِ على عَظَمتِه في ذلك، بحيثُ إنَّه أعظَمُ مِن ألوفِ ألوفٍ مِن السُّرجِ، فهو قائمٌ مقامَ الوصفِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٧).

٢- قِراءةُ ﴿سِرَاجًا﴾ على الإفرادِ، والمرادُ: الشَّمسُ[(١)].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ في السَّماءِ شَمسًا مُشرِقةً تبعَثُ النُّورَ والحرارةَ، وقمرًا مُضيئًا في اللَّيلِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الآيتينِ: الشَّمسَ والقمرَ؛ ذكَرَ ما هُما آيَتاهُ[(٣)].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.

أي: واللهُ هو الذي جعَل اللَّيلَ والنَّهارَ بحيث يَخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، فهُما يَتعاقبانِ أبدًا، ولا يجتَمِعانِ[(٤)].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٦٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦). =

كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

القِراءات ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَذْكُرَ﴾ على معنى: الذِّكرِ لله، وقيل: هي بمعنى ﴿يَذَّكَّرَ﴾(١).

٢- قراءةُ ﴿يَذَّكَّرَ﴾ أي: يَتذكَّرَ ويتَّعِظَ، ويعتبِرَ ويتفَكَّرَ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ(٢).

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

أي: جعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ خِلفةً لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ ويتفَكَّرَ في اختِلافِهما، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه، فيَعبُدُه فيهما، ويَستَدرِكُ ما فاته في

= وقال البقاعي: ﴿خِلْفَةً﴾ أي: ذوي حالةٍ معروفةٍ في الاختلاف؛ فيأتي هذا خَلفَ ذاك، بضِدٍّ ما له مِن الأوصافِ، ويقومُ مقامَه في كثيرٍ مِن المراداتِ، والأشياءِ المقدَّراتِ، ويُعلَمُ قدرُ التسامُحِ فيها، ومَن فاته شَيءٌ مِن هذا قَضاهُ في ذاك. ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٨).

(١) قرأ بها حمزة، وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٣)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٩).

أحَدِهما فيَعمَلُه في وقتِ الآخَرِ(١).

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها))(٢).

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن نام عن حِزبِه أو عن شَيءٍ منه، فقرأه فيما بيْن صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ الظُّهرِ؛ كُتِب له كأنَّما قَرأه مِنَ اللَّيلِ))(٣).

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا فاتَتْه الصَّلاةُ مِن اللَّيلِ مِن وَجَعٍ أو غَيرِه، صلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشْرةَ ركعةً))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٥، ٦٦).

قال ابن عاشور: (التذكُّر: تفعُّلٌ مِن الذِّكر، أي: تكَلُّفُ الذِّكر. والذِّكرُ جاء في القرآن بمعنَى التأمُّل في أدلَّةِ الدِّينِ، وجاء بمعنى: تذكُّرِ فائتٍ أو مَنسيٍّ، ويجمَعُ المعنيَينِ استِظهارُ ما احتَجب عن الفِكرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٥).

وقال ابنُ عثيمين: (وأمَّا قَولُه: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فـ (أو) هنا هل هي للتقسيمِ والتنويعِ، بمعنى أن يجعلَ هذا قسيمًا للأوَّلِ، فتكونَ مانعةَ اجتماعٍ، أو هي مانعةُ خُلوٍّ؟

الجوابُ: مانعةُ خُلوٍّ؛ لأنَّ مانعةَ الاجتماعِ معناها أنَّه إذا وُجِدَ الأول امتنعَ الثاني، لكنْ مانعةُ الخلوِّ معناها إمَّا أن يوجَدَ هذا أو هذا، أو هما. ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فهل يمكِنُ أن يجتَمِعا؟ نعَمْ؛ إذَنْ هي مانعةُ خُلوٍّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩).

(٣) رواه مسلم (٧٤٧).

(٤) رواه مسلم (٧٤٦).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المرءَ الكاملَ لا يَثِقُ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ التوكُّلَ على الأحياءِ المُعرَّضينَ للموتِ لا يَدومُ[١]؛ لأنَّه إذا مات المتوكَّلُ عليه صار المتوكِّلُ ضائِعًا، أمَّا هو سُبحانه وتعالى فإنَّه حيٌّ لا يموتُ، فلا يَضيعُ المتوكِّلُ عليه البتَّةَ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ دليلٌ على أنَّ واجبَ الدَّاعِيةِ أنْ يدعوَ إلى اللهِ، سواءٌ امتَثلَ المدعوُّ أم نفر[٣]، وألَّا يربطَ دعوتَه بنتائِجِها، بمعنى: أنَّه لا يقولُ: إنْ وجَدْتُ نتيجةً وإلَّا وقَفْتُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أنَّ عدَمَ استجابةِ المدعوِّين للدَّاعي لا يدُلُّ على فسادِ قصْدِه أو عمَلِه، ولا يدُلُّ أيضًا على تَقصيرِه، يعني: إذا دعا الإنسانُ ولكِنَّه لم يَنجَحْ، فلا يجوزُ لنا أن نَتَّهِمَه ونقولَ: هذا لو كانت نيَّتُه صالحةً لانتفَعَ الناسُ به! إذنْ هذه فائدةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّه ربَّما يكونُ مِن بَعضِ النَّاسِ اعتِراضٌ على الدَّاعي، يقولُ: هذا الدَّاعي نيَّتُه باطِلةٌ، لو أنَّ نيَّتَه صحيحةٌ ما نفَرَ النَّاسُ منه[٥]!

٤- إنَّ حياةَ الإنسانِ مِن بدايتِها إلى نهايتِها مَبنيَّةٌ على الأركانِ الثلاثةِ: الإرادةِ، والفِكرِ، والعمَلِ، وهي المذكوراتُ في قَولِه تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ لأنَّ التذكُّرَ بالتفكُّرِ، والشُّكرَ بالعملِ، فاستِفادةُ الإنسانِ ممَّا خَلَقَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهُ له وجَعَلَه لأجْلِه لا تكونُ إلَّا بهذه الثَّلاثةِ، وهذه الثَّلاثةُ متوقِّفةٌ على ثلاثةٍ أخرى لا بُدَّ للإنسانِ منها؛ فالعملُ متوقِّفٌ على البدَنِ، والفِكرُ متوقِّفٌ على العقلِ، والإرادةُ متوقِّفةٌ على الخُلُقِ، فالتَّفكيرُ الصحيحُ مِن العقلِ الصحيحِ، والإرادةُ القويةُ مِن الخُلُقِ المتينِ، والعملُ المفيدُ مِن البدنِ السليمِ؛ فلهذا كان الإنسانُ مأمورًا بالمحافظةِ على هذه الثلاثةِ: عقْلِه، وخُلُقِه، وبدنِه؛ ودَفْعِ المضارِّ عنها، فيُثَقِّفُ عقْلَه بالعلمِ، ويُقَوِّمُ أخلاقَه بالسلوكِ النبويِّ، ويقُوِّي بدنَه بتنظيمِ الغذاءِ، وتوقِّي الأذى، والتريُّضِ على العمَلِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لِمن أراد أن يتذكَّرَ باللَّيلِ والنَّهارِ ويعتَبِرَ ويستَدِلَّ بهما على كثيرٍ مِن المطالِبِ الإلهيَّةِ، ويشكُرَ اللهَ على ذلك، ولِمَن أراد أن يذكُرَ اللهَ ويَشكُرَه وله ورِدٌ مِن اللَّيلِ أو النَّهارِ، فمَن فاته ورِدُه مِن أحَدِهما أدركَه في الآخَرِ، وأيضًا فإنَّ القُلوبَ تتقَلَّبُ وتنتَقِلُ في ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فيَحدُثُ لها النَّشاطُ والكسَلُ، والذِّكرُ والغَفلةُ، والقَبضُ والبَسطُ، والإقبالُ والإعراضُ، فجعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ يتواليانِ على العبادِ ويتكرَّران؛ ليَحدُثَ لهم الذِّكرُ والنَّشاطُ والشُّكرُ لله في وَقتٍ آخَرَ، ولأنَّ أورادَ العباداتِ تتكرَّرُ بتكرُّرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فكلَّما تكرَّرت الأوقاتُ أحدَثَ للعبدِ هِمَّةً غَيرَ هِمَّتِه التي كَسِلت في الوَقتِ المتقَدِّمِ، فزاد في تذكُّرِها وشُكرِها، فوظائِفُ الطَّاعاتِ بمنزلةِ سَقيِ الإيمانِ الذي يمُدُّه، فلولا ذلك لَذَوى غَرسُ الإيمانِ ويَبِسَ[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ هذا مِن ألطَفِ خِطابِ القرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وأشرفِ معانيه، وأنَّ المؤمنَ دائمًا مع اللهِ على نفْسِه وهواه وشَيطانِه وعدوِّ ربِّه، وهذا معنى كونِه مِن حزبِ اللهِ وجُندِه وأوليائِه؛ فهو معَ اللهِ على عدوِّه الداخلِ فيه والخارجِ عنه، يُحاربُهم ويُعاديهم ويُغضِبُهم له سُبحانَه، كما يكونُ خَواصُّ الملِكِ معه على حَربِ أعدائِه، والبعيدونَ منه فارِغونَ مِن ذلك، غيرُ مهتمِّينَ به، والكافِرُ معَ شيطانِه ونفْسِه وهواهُ على ربِّه. وعباراتُ السَّلَفِ على هذه تدورُ، فمعنى الآيةِ أنَّه يوالي عدُوَّه على معصيتِه والشِّركِ به، فيكونُ مع عدوِّه مُعينًا له على مَساخِطِ رَبِّه، فالمَعيَّةُ الخاصَّةُ التي للمؤمِنِ مع ربِّه وإلهِه قد صارت لهذا الكافِرِ والفاجِرِ مع الشيطانِ ومع نفْسِه وهواهُ وقُربانِه؛ ولهذا صدَّر الآيةَ بقَولِه: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡ ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وهذه العبادةُ هي الموالاةُ والمحبَّةُ والرِّضا بمعبوديهم، المتضَمِّنةُ لمعيَّتِهم الخاصَّةِ، فظاهَروا أعداءَ اللهِ على معاداتِه ومخالفتِه ومَساخِطِه، بخلافِ وليِّه سُبحانَه؛ فإنَّه معه على نفْسِه وشيطانِه وهواه، وهذا المعنى مِن كنوزِ القُرآنِ لِمَن فَهِمَه وعَقَلَه، وبالله التوفيقُ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ لَمَّا كان سياقُ السُّورةِ للإنذارِ -لِمَا ذُكِر فيها مِن سوءِ مقالِهم، وقُبْحِ أفعالِهم- حَسُنَ التعبيرُ في البِشارةِ بما يدُلُّ على كثرةِ الفِعلِ، ويُفهِمُ كثرةَ المفعولِ؛ بِشارةً بكثرةِ المطيعِ، وفي النِّذارةِ بما يقتضي أن يكونَ صفةً لازمةً، فقال: ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا ﴾ أي: لكُلِّ مَن يؤمِنُ، ﴿وَنَذِيرٗا ﴾ لكلِّ مَن يعصي(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾ سؤالٌ: أنَّ الأيَّامَ عِبارةٌ عن حرَكاتِ الشمسِ في السَّمواتِ، فقَبْلَ السَّمواتِ لا

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١١).

أَيَّامَ، فكيف قال اللهُ: خَلقَها في ستَّةِ أيَّامٍ؟

الجوابُ: يعني في مُدَّةٍ مِقدارُها هذه المدَّةُ[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ سؤالٌ: لِمَ لمْ يَخلُقْها سُبحانَه في لحظةٍ وهو قادرٌ على ذلك؟

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّه يَجبُ على المُكَلَّفِ أن يَقطَعَ الطَّمَعَ عن مِثلِ هذا؛ فإنَّه بَحرٌ لا ساحِلَ له، مِن ذلك تَقديرُ الملائكةِ الذين هم أصحابُ النَّارِ بتِسعةَ عَشَرَ، وحَملةِ العَرشِ بثَمانيةٍ، والشُّهورِ باثنَي عَشَرَ، والسَّمواتِ بالسَّبْعِ، وعَدَدِ الصَّلواتِ، ومَقاديرِ النُّصُبِ في الزَّكَواتِ، والحُدودِ والكَفَّاراتِ؛ فالإقرارُ بأنَّ كُلَّ ما قاله اللهُ حَقٌّ: هو الدِّينُ، والواجِبُ تَركُ البَحثِ عن هذه الأشياءِ.

الثَّاني: ما جاء عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ: (إنَّما خَلَقَها في سِتَّةِ أيَّامٍ، وهو قادرٌ أنْ يُخلقَها في لَحظةٍ واحِدةٍ؛ تَعليمًا لخلْقِه الرِّفقَ والتثَبُّتَ)[٢].

٥- اسمُ الرَّحمنِ هو على وزنِ (فَعْلان) الذي يدُلُّ على سَعةِ هذا الوَصفِ، وثبوتِ جَميعِ معناه الموصوفِ به، ألا ترَى أنَّهم يقولونَ: (غَضبانُ) للمُمتلئِ غَضَبًا، و: (نَدْمانُ وحَيرانُ وسَكْرانُ ولَهْفانُ)، لِمن مُلِئَ بذلك، فبناءُ (فَعلان) للسَّعةِ والشُّمولِ؛ ولهذا يَقرِنُ استِواءَه على العَرشِ بهذا الاسمِ كثيرًا، كقَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فاستوى على عرشِه باسمِ «الرَّحمنِ»؛ لأنَّ العرشَ محيطٌ بالمخلوقاتِ قد وَسِعَها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٦٩).

والأثر ذكره الثعلبيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٢٣٨).

والرَّحمةَ محيطةٌ بالخَلقِ واسِعةٌ لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوَى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسعِ الصِّفاتِ؛ فلذلك وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وفي الصَّحيحِ مِن حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((لَمَّا قضَى اللهُ الخَلْقَ كتَب في كتابٍ فهو عندَه موضوعٌ على العرشِ: إنَّ رحمتي تغلِبُ غَضَبي))(١)، وفي لفظٍ: ((فهو عندَه على العَرشِ))(٢). فتأمَّلِ اختِصاصَ هذا الكِتابِ بذِكرِ الرَّحمةِ، ووضْعِه عندَه على العَرشِ، وطابِقْ بيْنَ ذلك وبيْن قَولِه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقَولِه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ ينفَتِحْ لك بابٌ عظيمٌ مِن معرفةِ الربِّ تبارك وتعالى إنْ لم يُغلِقْه عنك التَّعطيلُ والتجَهُّمُ(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أثبتَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ خَلْقَه للمخلوقاتِ، واطِّلاعَه على ظاهِرِهم وباطِنِهم، وعُلوَّه فوقَ العرشِ، ومباينتَه إيَّاهم(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أنَّ الاستِواءَ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، ليس مِن الصِّفاتِ الذاتيَّةِ؛ لأنَّه مرتَّبٌ بعْدَ خلْقِ السَّمواتِ، يعني: حادِثًا(٥).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ أنَّه لا تُطلَبُ معرفةُ اللهِ إلَّا مِن اللهِ؛ مِن الخبيرِ به، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى -على قولٍ في التفسيرِ-. وهذه

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٦، ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٦).

الآيةُ تَشهَدُ لِمَا عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مِن أنَّ أسماءَ اللهِ وصفاتِه توقيفيَّةٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يُثبِتَ منها إلَّا ما أثبَتَه اللهُ ورسولُه، يعني: أنَّ وصْفَ اللهِ تعالى لا يكونُ إلَّا بحسَبِ ما عَلِمْناه منه، فلا يمكِنُ أن نَصِفَ اللهَ تعالى بما لم يَصِفْ به نفْسَه[١]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أنَّ السُّجودَ مِن أسبابِ الرَّحمةِ، سواءٌ السجودُ العامُّ أو السُّجودُ الخاصُّ؛ فإنَّه مِن أسبابِ الرَّحمةِ؛ ولهذا لم يَقُلْ: «اسجُدوا للهِ»، بل قال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، يعني: لِتَصِلوا إلى رحمةِ هذا المَسجودِ له[٢].

١٠- مِن عادةِ الكُفَّارِ إنكارُ ما لا يَعرفونَ، سواءٌ كان عمليًّا أو اعتقاديًّا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ إنَّ تعطيلَ الجَهميَّةِ وشِبهِهم أعظَمُ مِن تعطيلِ هؤلاء، فإذا كان هؤلاء كُفْرُهم بإنكارِ الرَّحمنِ، فكيف بمَن يُنكِرُ جميعَ الأسماءِ، مِن الجهميَّةِ ونحوِهم؟! ومعروفٌ أنَّ المعتزلةَ لا يُنكِرون الأسماءَ، لكنْ يُنكِرُها غُلاةُ الجهميَّةِ، ومعلومٌ أنَّ الذي يُنكِرُ الأسماءَ أعظَمُ مِن الذي يُنكِرُ اسمًا واحدًا، والكفَّارُ يُقِرُّون باللهِ ويُقِرُّون بالرَّحيمِ، لم يُنكِروا إلَّا الرَّحمنَ، قالوا: ما نعرفُ إلَّا رحمنَ اليمامةِ[٤]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ أنَّ المعاصيَ يَجُرُّ بعضُها بعضًا[٥].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أنَّه لَمَّا كان جَعلُ اللَّيلِ والنهارِ خِلفةً لأجلِ التذكُّرِ والعمَلِ، كان كلُّ واحدٍ منهما صالحًا للعمَلِ الذي يُعمَلُ في صاحبِه، فمَن فاته عَمَلٌ بالليلِ أتى به في النَّهارِ، ومَن فاته عَمَلٌ بالنَّهارِ أتى به في الليلِ، وهذا إذا كان مِن العاداتِ فهو على سبيلِ التدارُكِ، وإذا كان مِن العباداتِ فهو على سبيلِ القضاءِ(١)، وفيه حجَّةٌ في قضاءِ النَّوافلِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قولُه تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الواوُ للحالِ، وهذا مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن استِمرارِهم في الشِّركِ؛ أُعقِب ذِكرَ ما نَفَع اللهُ به النَّاسَ مِن إلطافِه بهم في تَصاريفِ الكائناتِ؛ إذْ جَعَل لهمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وخَلَق لهمُ الماءَ، فأنبَتَ به الزَّرعَ، وسَقَى به النَّاسَ والأنعامَ، مع ما قارَنَه مِن دَلائلِ القُدرةِ، بذِكرِ عبادتِهم ما لا يَنفَعُ النَّاسَ؛ عَوْدًا إلى حكايةِ شَيءٍ مِن أحوالِ مُشركي مكَّةَ(٣).

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارعِ (يَعْبُدُونَ)؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ عبادتِهمُ الأصنامَ، وعدَمِ إجداءِ الدَّلائلِ(٤). فالتعبيرُ بالمضارعِ فيه إشارةٌ إلى أنَّهم لو فعَلوا ذلك مرَّةً لكان في غايةِ العجبِ، فكيفَ وهو على سبيلِ التجديدِ والاستمرارِ؟! وهو مصوِّرٌ لحالِهم زيادةً في تبشيعِها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

- قولُه: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فيه نَفيُ الضُّرِّ بَعْدَ نَفيِ النَّفعِ؛ للتَّنبيهِ على انتِفاءِ شُبهةِ عَبَدةِ الأصنامِ في شِركِهم؛ لأنَّ موجبَ العبادةِ إمَّا رَجاءُ النَّفعِ، وإمَّا اتِّقاءُ ضُرِّ المَعبودِ، وكِلاهما مُنتَفٍ عنِ الأصنامِ بالمُشاهَدةِ(١).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ هنا النَّفعُ على الضُّرِّ، فقالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، وعكَسَ ذلك في سُورةِ (يونسَ) فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وفائِدتُه: أنَّه في سُورةِ (يونسَ) بدَأَ بما هو أبلَغُ إذا ابتُدِئَ به؛ لأنَّ امتِلاكَ الضُّرِّ أَسهَلُ مِنَ امتِلاكِ النَّفعِ؛ فالواحدُ منَّا يَقدِرُ لغَيرِه مِنَ الضُّرِّ ما لا يَقدِرُ عليه مِنَ النَّفعِ، ويَتَسهَّلُ عليه ضُرُّه ما لا يَتسهَّلُ عليه نفْعُه، أي: يَعبُدون أصنامًا لا تَقدِرُ على ما يَتسهَّلُ على الفاعِلينَ؛ فكيف ما يَتعذَّرُ؟! ثمَّ ذَكر بَعدَه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لاستِيعابِ ما في البابِ. وأمَّا هنا في سورةِ (الفُرقانِ) فإنَّه تَبعَ على ما قُدِّمَ فيه الأفضلُ على الأنقصِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقولِه بعْدَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، فقَدَّمَ خِلطةَ النَّسبِ على خِلطةِ السَّببِ -وهي المُصاهَرةُ-، ثمَّ جاءَ بعدَ ذلك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ فقَدَّم النَّفعَ على الضُّرِّ اتِّباعًا لِمَا تقدَّمَ(٢).

- وأيضًا لَمَّا كان هذا السياقُ لِتَعدادِ نِعَمِه سُبحانَه، وكان الحامِلُ للإنسانِ على الإذعانِ رجاءَ الإحسانِ أو خوفَ الهَوانِ، وكان رجاءُ الإحسانِ مُقبِلًا به إلى المحسِنِ في السِّرِّ والإعلانِ- قَدَّمَ النفعَ فقال: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٥).

بوَجهٍ، ولَمَّا كان الخوفُ إنَّما يوجِبُ الإقبالَ ظاهِرًا فقط؛ أتبَعَه قولَه: ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: أصلًا في إزالةِ نعمةٍ مِن نِعَمِ اللهِ عنهم، فلا أسخَفَ عقلًا ممَّن يترُكُ مَن بيدِه كلُّ نفعٍ وضرٍّ، وهو يتقلَّبُ في نِعَمِه في يقظتِه ونومِه، وأمسِه ويومِه، ويُقبِلُ على مَن لا نَفعَ بيَدِه ولا ضُرَّ أصلًا(١)!

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ تَذْييلٌ لِما قَبلَه؛ فاللَّامُ في تَعريفِ الكافرِ للاستِغراقِ، أي: كُلُّ كافرٍ على ربِّه ظَهيرٌ. وجُعِل الخَبرُ عنِ الكافرِ خَبرًا لـ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَه بالخبرِ أمْرٌ مُتقرِّرٌ مُعتادٌ مِن كلِّ كافرٍ. وكذلك جُعِل المُشرِكُ في إشراكِه -مع وُضوحِ دَلالةِ عدَمِ استِئهالِ الأصنامِ للإلهيَّةِ- كأنَّه يَنصُرُ الأصنامَ على ربِّه الحقِّ(٢).

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، فالسياقُ يقتضي أنْ يقولَ: (وكانوا على ربِّهم)، لكنْ قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذه العبادةَ أوصلَتْهم إلى الكُفرِ، وأيضًا لفائدةِ التعميمِ(٣).

- وفي ذِكرِ الرَّبِّ تعالى: تَعريضٌ بأنَّ الكافرَ عاقٌّ لمَولاهُ(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٥). وهذا الكلامُ الواردُ في الرَّدِّ عليهم جامعٌ بيْن إبطالِ إنكارِهم لرِسالتِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦، ٥٧).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٩).

وبيْن تأنيسِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه ليس بمُضِلٍّ، ولكنَّه مُبشِّرٌ ونَذيرٌ. وفيه تَعريضٌ بألَّا يَحزَنَ لتكذيبِهم إيَّاهُ[١].

- وهاهنا نُكتةٌ شَريفةٌ؛ وهي أنَّه تعالى لَمَّا خَصَّ ذِكرَ النَّذيرِ في فاتحةِ السُّورةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] أَمسَكَ عن ذِكرِ المؤْمنينَ، وحين قَرَنه بالبَشيرِ في هذه الآيةِ، أتَى بذِكرِ الفَريقَينِ -أَعْني: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]-؛ لتكونَ الخاتِمةُ مُشتمِلةً على ذِكرِ الأولياءِ، فلا تَخْلو السُّورةُ مِن ذِكرِهم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ استِثناءٌ، وهو تأكيدٌ لنَفيِ أنْ يَكونَ يَسألُهم أجْرًا؛ لأنَّه استِثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ مَحذوفٍ ما يدُلُّ عليها لقَصدِ التَّعميمِ، والاستِثناءُ مِعيارُ العُمومِ؛ فلذلك كثُرَ في كلامِ العربِ أن يُجعَلَ تأكيدُ الفِعلِ في صورةِ الاستِثناءِ، ويُسمَّى تأكيدَ المدحِ بما يُشْبِهُ الذَّمَّ، أو: تأكيدَ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ فقولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ مِن قَبيلِ التأكيدِ في الجُملةِ؛ لأنَّ الكلامَ على حذْفِ مُضافٍ يُناسِبُ أجْرًا؛ إذِ التَّقديرُ: إلَّا عمَلَ مَن شاءَ أن يَتَّخِذَ إلى ربِّه سبيلًا، وذلك هو اتِّباعُ دِينِ الإسلامِ. ولَمَّا كان هذا إجابةً لدَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَشبَهَ الأجرَ على تلك الدَّعوةِ، وقد يُسمَّى مِثلُ هذا الاستِثناءِ: الاستِثناءَ المُنقطِعَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٢).

ويُقدِّرونه كالاستِدراكِ(١).

- وقدْ صَوَّرَ ذلك بصُورةِ الأجرِ مِن حيثُ إنَّه مَقصودُ الإتيانِ به، واستَثْنى منه قلعًا كُلِّيًّا لشَائبةِ الطَّمعِ، وإظهارًا لغايةِ الشَّفقةِ عليهم، حيثُ جَعَل ذلك مع كَونِ نَفعِه عائدًا إليهم، عائدًا إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

- وجُعِل السَّبيلُ هنا إلى اللهِ؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى إجابتِه فيما دَعاهُم إليه، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩]. وذِكرُ وصْفِ الرَّبِّ دُونَ الاسمِ العَلَمِ؛ للإشارةِ إلى استِحقاقِه السَّيرَ إليه؛ لأنَّ العبدَ مَحقوقٌ بأن يَرجِعَ إلى ربِّه، وإلَّا كان آبِقًا(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ هذا أمرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَشمَلُ الأُمَّةَ ما لم يكنْ دَليلٌ على الخُصوصيَّةِ(٤). وأصلُ الكلامِ: تَوكَّلْ علَيَّ، ثمَّ حُوِّل إلى: تَوكَّلْ على اللهِ؛ فخَصَّ الحَيَّ الَّذي لا يَموتُ بالذِّكرِ؛ ليَكونَ تَعريضًا بأنَّ غَيرَه لا يَصِحُّ أن يُتوكَّلَ عليه؛ أمَّا الأصنامُ فإنَّها أَمواتٌ لا يُكْفى أَمْرُ مَن يَتوكَّلُ عليها، وأمَّا الأحياءُ الَّذين يَموتون فإنَّهم إذا ماتوا ضاعَ المُتوكِّلُ. أو نقولُ: إنَّ التَّركيبَ مِن بابِ تَرتيبِ الحُكمِ على الوَصفِ المُناسِبِ، وهو أنَّ المتوكِّلَ إذا عَلِم أنَّ المُتوكَّلَ عليه دائمٌ باقٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٩).

يَعتَمِدُ عليه بشَراشِرِه -أي: بكُلِّيَّتِه-، ولا يَتوزَّعُ خاطِرُه إلى الغَيرِ بخِلافِه إذا لم يَكنْ كذلك؛ فإذَنْ لا يَصِحُّ التَّوكُّلُ إلَّا على الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ، وهو اللهُ تعالى؛ فصَحَّ الحَصرُ(١).

- قولُه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ وصَفَ تعالى نفْسَه بالصِّفةِ الَّتي تَقتَضي التَّوكُّلَ في قَولِه: ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾؛ لأنَّ هذا المعنى يختصُّ به تعالى دُونَ كلِّ حَيٍّ، كما قال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾(٢) [القصص: ٨٨].

- قولُه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ وصْفٌ بالصِّفةِ الفِعليَّةِ بعدَ وصْفِه بالأبَديَّةِ الَّتي هي مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ. والإشارةُ إلى اتِّصافِه بالعِلمِ الشَّاملِ؛ لتَقريرِ وُجوبِ التَّوكُّلِ عليه تعالى وتَأكيدِه؛ فإنَّ مَن أَنشَأَ هذه الأجرامَ العِظامَ على هذا النَّمطِ الفائقِ، والنَّسَقِ الرَّائقِ، بتَدبيرٍ مَتينٍ، وتَرتيبٍ رَصينٍ، في أوقاتٍ مُعيَّنةٍ، مع كمالِ قُدرتِه على إبداعِها دَفعةً، لحِكَمٍ جليلةٍ، وغاياتٍ جميلةٍ، لا تَقِفُ على تفاصيلِها العُقولُ: أَحَقُّ مَن يُتوكَّلُ عليه، وأَوْلى مَن يُفوَّضُ الأمرُ إليه(٣).

- قولُه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ الحَيُّ الَّذي لا يَموتُ هو اللهُ تعالى، وعَدَل عنِ اسمِ الجلالةِ إلى هذَينِ الوَصفَينِ؛ لِما يؤْذِنُ به مِن تَعليلِ الأمرِ بالتَّوكُّلِ عليه؛ لأنَّه الدَّائمُ، فيُفيدُ ذلك معنَى حَصرِ التَّوكُّلِ في الكَونِ عليه؛ فالتَّعريفُ في الحَيِّ للكاملِ، أي: الكاملِ حياتُه؛ لأنَّها واجبةٌ باقيةٌ مُستمِرَّةٌ، وحياةُ غَيرِه مُعرَّضةٌ للزَّوالِ بالمَوتِ، ومُعرَّضةٌ لاختِلالِ أثرِها

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

بالذُّهولِ كالنَّومِ ونَحوِه، فإنَّه مِن جِنسِ المَوتِ؛ فالتَّوكُّلُ على غَيرِه مُعرَّضٌ للاختِلالِ وللانخِرامِ. وفي ذِكرِ الوَصفَينِ تَعريضٌ بالمشرِكينَ؛ إذْ ناطُوا آمالَهم بالأصنامِ، وهي أمواتٌ غيرُ أَحياءٍ[1].

- ولَمَّا كان الوَكيلُ يَحمِلُ عن الموكِّلِ ثِقَلَ ما أظهَرَ له عَجْزَه فيه، ويَقومُ بأَعبائِه حتَّى يَصيرَ كمَنْ يَحمِلُ عن آخَرَ عَينًا مَحسوسةً لا يَصيرُ له عليه شَيءٌ منها أصلًا؛ عَبَّر بحرفِ الاستِعلاءِ تَمثيلًا لذلك، فقال: ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ الباءُ في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: سبِّحه تَسبيحًا مُصاحِبًا للثناءِ عليه بما هو أهلُه، وقد جَمَع له في هذا الأمرِ التَّخليةَ والتَّحليةَ، مُقدِّمًا التَّخليةَ؛ لأنَّ شأنَ الإصلاحِ أن يَبدَأ بإزالةِ النَّقصِ[3].

- قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ، فيُفيدُ معنَى التَّذييلِ؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على عمومِ عِلمِه تعالى بذُنوبِ الخَلْقِ، ومِن ذلك أحوالُ المُشركينَ الَّذين هُم غرَضُ الكلامِ؛ ففي (ذُنوبِ عِبادِهِ) عُمومانِ: عُمومُ ذُنوبِهم كلِّها؛ لإفادةِ الجَمعِ المُضافِ عمومَ إفرادِ المُضافِ، وعمومُ النَّاسِ؛ لإضافةِ (عِبادِ) إلى ضَميرِ الجلالةِ، أي: جميعِ عِبادِه، مع ما في صيغةِ (خَبير) مِن شدَّةِ العِلمِ، وهو يَستلزِمُ العُمومَ؛ فكان كعُمومٍ ثالثٍ[4].

- والعِلمُ بالذُّنوبِ كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو أنَّه يُجازيهم على ذُنوبِهم[5].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ تَعريضٌ بتَسليةِ الرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٩، ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٦٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُلاقيهِ مِن أذاهُم، ووعيدٌ للكفَّارِ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ في ذِكرِ هذه الآيةِ زِيادةُ تَقريرٍ لكَونِه حَقيقًا بأنْ يُتوكَّلَ عليه؛ مِن حيثُ إنَّه الخالقُ للكلِّ والمُتصرِّفُ فيه، وتَحريضٌ على الثَّباتِ والتَّأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى مع كَمالِ قُدرتِه وسرعةِ نَفاذِ أمْرِه في كلِّ مُرادٍ خلَقَ الأشياءَ على تؤَدَةٍ وتَدرُّجٍ(٢).

- وأُجريَتْ هذه الصِّلةُ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴾ وصْفًا ثانيًا لـ ﴿ ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]؛ لاقتِضائِها سَعةَ العِلمِ، وسَعةَ القُدرةِ، وعَظيمَ المجدِ؛ فصاحبُها حَقيقٌ بأنْ يُتوكَّلَ عليه، ويُفوَّضَ أمْرُ الجزاءِ إليه. وهذا تَخلُّصٌ إلى العَودِ إلى الاستِدلالِ على تَصرُّفِ اللهِ تعالى بالخَلقِ(٣).

- وقولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هو خَبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو الرَّحمنُ - وذلك على قولٍ-، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه الغالِبِ في الاستِعمالِ عِندَ ما تَقدَّمُ أَخبارٌ أو أوصافٌ لصاحبِها، ثمَّ يُرادُ الإخبارُ عنه بما هو إفصاحٌ عن وصْفٍ جامعٍ لِما مضَى أو أهَمَّ في الغرضِ ممَّا تَقدَّمَه؛ فإنَّ وصْفَ الرَّحمنِ أهَمُّ في الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو الأمرُ بالتَّوكُّلِ عليه؛ فإنَّه وصْفٌ يَقتَضي أنَّه يُدبِّرُ أُمورَ مَن تَوكَّلَ عليه بقَويِّ الإسعافِ(٤).

- وفُرِّعَ على وَصْفِه بالرَّحمنِ قَولُه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾؛ للدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ في رَحمتِه مِنَ العَظَمةِ والشُّمولِ ما لا تَفِي فيه العِبارةُ، فيَعدِلُ عن زِيادةِ التَّوصيفِ إلى الحَوالةِ على عَليمٍ بتَصاريفِ رَحمتِه، مُجرِّبٍ لها، مُتلَقٍّ أحاديثَها ممَّن عَلِمَها وجرَّبَها[١]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وتَنكيرُ ﴿خَبِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على العُمومِ، فلا يَظنُّ خبيرًا مُعيَّنًا؛ لأنَّ النَّكِرةَ إذا تَعلَّقَ بها فِعلُ الأمرِ اقتَضَتْ عُمومًا؛ فقولُه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يَجري مَجرَى المَثَلِ، ولَعلَّه مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ، نَظيرَ قَولِ العربِ: «على الخَبيرِ سَقَطْتَ»، يَقولُها العارِفُ بالشَّيءِ إذا سُئِل عنه. والمَثَلانِ وإنْ تَساوَيَا في عددِ الحُروفِ المَنطوقِ بها؛ فالمَثَلُ القُرآنيُّ أَفصَحُ؛ لسَلامتِه مِن ثِقَلِ تَلاقي القافِ والطَّاءِ والتَّاءِ في (سقَطْتَ)، وهو أيضًا أَشرَفُ؛ لسَلامتِه مِن مَعنَى السُّقوطِ. وهو أَبلَغُ مَعنًى؛ لِما فيه مِن عُمومِ كلِّ خَبيرٍ، بخِلافِ قَولِهم: «على الخَبيرِ سقَطْتَ»؛ لأنَّها إنَّما يَقولُها الواحدُ المُعيَّنُ[٢].

- والباءُ في قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يَجوزُ أن تَكونَ مُتعلِّقةً بـ﴿خَبِيرًا﴾، وتَقديمُ المَجرورِ للرَّعيِ على الفاصِلةِ، وللاهتِمامِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ لَمَّا جَرَى وصْفُ اللهِ تعالى بالرَّحمنِ مع صِفاتٍ أُخَرَ؛ استَطرَدَ بذِكْرِ كُفرِ المُشركينَ بهذا الوَصفِ، والخَبرُ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً في التَّعجُّبِ مِن عِنادِهم وبُهتانِهم، وليس المَقصودُ إفادةَ الإخبارِ عنهم بذلك؛ لأنَّه أمْرٌ مَعلومٌ مِن شأنِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٦١، ٦٢).

- قولُه: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ استفهَمَ كُفَّارُ قُرَيشٍ عنِ الرَّحمنِ استِفهامَ مَن يَجهَلُه وهُم عالِمونَ به؛ فأَظهَروا التَّجاهُلَ بهذه الصِّفةِ الَّتي للهِ؛ مُغالَطةً منهم ووقاحةً، فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهُم عارِفونَ به وبصِفتِه الرَّحمانيَّةِ، كما قال فِرعونُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] حين قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] على سَبيلِ المُناكَرةِ، وهو عالِمٌ برَبِّ العالَمينَ[١]! فـ (ما) في قَولِه: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ استِفهاميَّةٌ، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الاستِغرابِ، يَعْنونَ تَجاهُلَ هذا الاسمِ؛ ولذلك استَفهَموا عنه بـ (ما) دُونَ (مَن)، باعتِبارِ السُّؤالِ عن معنَى هذا الاسمِ[٢].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وامتِناعٍ[٣].

- ومَفعولُ ﴿تَأۡمُرُنَا﴾ في قولِه: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، تَقديرُه: يَأمُرُنا سُجودَه، نَحوَ قَولِهم: أَمَرْتُك الخَيرَ[٤].

- قولُه: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ فيه إسنادُ زيادةِ النُّفورِ إلى القَولِ؛ لأنَّه سبَبُ تلك الزِّيادةِ، فهُم كانوا أصحابَ نُفورٍ مِن سُجودٍ للهِ، فلمَّا أُمِروا بالسُّجودِ للرَّحمن زادُوا بُعدًا مِنَ الإيمانِ، وهذا كقَولِه في سورةِ (نوح): ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾[٥] [نوح: ٦].

٧- قولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ جُعِل تمهيدًا لقَولِه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٣).

ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ...﴾ الآياتِ[1] [الفرقان: ٦٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ على قِراءةِ (سُرُجًا) بالجَمعِ، وهو يَجمَعُ الأنوارَ؛ يكونُ خَصَّ القمرَ بالذِّكرِ تَشريفًا[2]. وقولُه: (سُرُجًا) جَمعُ سِراجٍ؛ فيَشمَلُ مع الشَّمسِ النُّجومَ؛ فيكونُ امتِنانًا بحُسنِ مَنظرِها للنَّاسِ، كقَولِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. والكلامُ جارٍ على التَّشبيهِ البَليغِ؛ لأنَّ حقيقةَ السِّراجِ: المِصباحُ الزَّاهِرُ الضِّياءِ. والمقصودُ: أنَّه جعَل الشَّمسَ مُزيلةً للظُّلْمةِ كالسِّراجِ، أو خَلَقَ النُّجومَ كالسِّراجِ في التَّلأْلُؤِ وحُسنِ المَنظرِ[3].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

- اختِيرَتْ لَفظةُ (الخِلْفةِ) هنا؛ لدَلالتِها على الهيئةِ، فتكونُ مُنبِّهةً على هيئةِ هذا الاختِلافِ؛ بالطُّولِ والقِصَرِ المُختلفينِ في جِهاتٍ مِن الأرضِ، وذلك مُنبِّهٌ على أسبابِ هذا الاختِلافِ مِن وضْعِ جِرمِ الأرضِ وجِرمِ الشَّمسِ، وذلك كلُّه مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ عليه، وبتلك الهيئةِ مِنَ الاختلافِ المُقدَّرِ المُنظَّمِ عَظُمَت النِّعمةُ على البشرِ، وشَمِلَتْهم الرَّحمةُ؛ فكانتْ هذه اللَّفظةُ الواحدةُ مُنبِّهةً على ما في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ مِن آيةٍ دالَّةٍ، ومِن نِعمةٍ عامَّةٍ؛ وهكذا جميعُ ألْفاظِ القرآنِ في انتِقائِها لِمواضعِها[4].

- والجارُّ في ﴿لِّمَنْ أَرَادَ﴾ يتعلَّقُ بـ ﴿جَعَلَ﴾، وكان الجَعلُ لهما؛ لأنَّهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٣، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠).

المُستفيدانِ منه، ولم يُكرِّرِ الاسمَ الموصولَ؛ لأنَّ الشَّخصَ الواحدَ يُمكِنُ أنْ يتَّصِفَ بالصِّفتينِ معًا. وكرَّرَ فِعلَ الإرادةِ؛ لأنَّها لا بدَّ منها في التَّذكُّرِ وفي الشُّكرِ[١].

- قولُه: ﴿خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جِيءَ في جانبِ المُتذكِّرينَ بقَولِه: ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾؛ لدَلالةِ المضارعِ على التَّجدُّدِ والحُدوثِ؛ فإنَّ الغَفلةَ مُستوليةٌ على الإنسانِ، والآياتُ المرئيَّةُ ما تَزالُ تُحدِثُ له التذكُّرَ وتُجدِّدُه له. واقتصَر في جانبِ الشَّاكِرينَ على المصدرِ بقَولِه: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ لأنَّ الشُّكرَ يَحصُلُ دَفعةً. ولأجْلِ الاختِلافِ بيْن النَّظْمَينِ أُعيدَ فِعلُ (أَرَادَ)؛ إذْ لا يَلتئِمُ عَطْفُ ﴿شُكُورًا﴾ على ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾، وقيل: ﴿شُكُورًا﴾؛ لمُناسَبةِ رُؤوسِ الآيِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ نَشْرٌ لمعنَى اللَّفِّ[٣] في قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦).

(٣) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلٍّ واحد-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظ يشتملُ على متعدِّد- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامع ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين: الوجه الأوَّل: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّب». الوجه الثاني: أن يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّب»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً ﴾؛ فإنَّ مجرَّدَ الانتِقالِ والتَّغييرِ يدُلُّ على ناقِلٍ ومُغيِّرٍ عظيمِ القُدرةِ، وكَونَ ذلك الانتِقالِ مؤدِّيًا إلى النَّفعِ العظيمِ يدُلُّ على مُنعِمٍ واسعِ النِّعمةِ، وهُمَا يوجِبانِ المعرفةَ والعِبادةَ[1] [المرسلات: ٦].

و﴿ أَوۡ ﴾ للتنويعِ على معنى الاشتمالِ على هذينِ المعنيينِ، أو للتخييرِ على معنى الاستقلالِ بكلٍّ، ولا منعَ مِن الاجتماعِ. وفائدةُ هذا الأسلوبِ إفادةُ الاستقلالِ، ولو ذكَر الواوَ بدلَها لتُوُهِّمَ المعيةُ[2].

- وقوله: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا ﴾ أبَوُا التَّفكُّرَ في آياتِ اللهِ جُحودًا وعِنادًا، وامتَنَعوا عنِ الشُّكرِ لآلائِه عُتُوًّا واستِكبارًا، وتَصريحٌ بأنَّ الَّذين تَوسَّموا بعِبادِ الرَّحمنِ على خِلافِ ذلك؛ ولذلك قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ ليُقابِلَ قَولَهم: ﴿أَنَسۡجُدُ ﴾، وقولَه: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ﴾[3].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٢).

وتقدَّمت الإشارةُ إلى أنَّ (أو) مانعةُ خلوٍّ؛ فإمَّا أنْ يوجدَ هذا أو يُوجدَ هذا، ويمكنُ أن يجتمِعا.

يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٧٩).

الآيات (٦٢-٦٧)

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿هَوْنًا﴾: أي: بالرِّفْقِ والسَّكينةِ والوَقارِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على سُكونٍ أو سَكينةٍ أو ذُلٍّ[١].

﴿سَلَٰمًا﴾: أي: سَدادًا مِن القَولِ ومَعروفًا، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[٢].

﴿غَرَامًا﴾: أي: دائِمًا لازِمًا، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[٣].

﴿وَمُقَامًا﴾: أي: إقامةً، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عن الدَّوامِ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٢) و(١٧/ ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

انتِصابٍ أو عَزمٍ[1].

﴿يَقۡتُرُواْ﴾: يُضَيِّقوا ويَبخَلوا، والقَترُ: تقليلُ النَّفَقةِ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ[2].

﴿قَوَامًا﴾: أي: وسَطًا وعَدلًا، والقَوامُ هو الشَّيءُ بينَ الشَّيئَيْنِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا صفاتِ عِبادِه المؤمنينَ: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشونَ على الأرضِ بسَكينةٍ ووَقارٍ ولِينٍ، وإذا خاطَبَهم السُّفَهاءُ بالسَّيِّئِ مِن القَولِ لم يُقابِلوهم بالمِثْلِ، بل قابَلوهم بالقَولِ الطيِّبِ، وهم الذين يُصَلُّون لله في اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ، والذين يقولونَ خَوفًا مِن عِقابِ رَبِّهم: ربَّنا أبعِدْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ؛ إنَّ عذابَها كان مُهلِكًا ومُلازِمًا لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، إنَّها قَبُحَت مَنزِلًا ومُقامًا لِمن يُقيمُ فيها.

والذين إذا أنفَقوا لم يُبذِّروا ولم يُضيِّقوا ويَبخَلوا، وكان إنفاقُهم وسَطًا بيْن الإسرافِ والتَّقتيرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٨).

سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تجاهَلَ المشرِكون الرحمنَ، واستكبَروا عن السجودِ له؛ عَرَّفَهم القرآنُ بالرحمنِ: بخَلْقِه، وتدبيرِه وإنعامِه -كما مضى في الآياتِ المتقدمةِ- ثم عَرَّفَهم بعِبادِه الذين عَرَفوه بذلك فآمنوا به وخضَعوا له، بما اشتملتْ عليه هذه الآياتُ مِن صفاتِهم، وكما كانت مخلوقاتُ الله المذكورةُ سابقًا دالَّةً عليه، ومعَرِّفةً به، بما فيها مِن آثارِ قدرتِه وآثارِ رحمتِه، كذلك كان عِبادُه المذكورون أدِلَّةً عليه ومعَرِّفين به؛ بأقوالِهم وأفعالِهم، وهَديِهم وسلوكِهم، ومَظاهِرِ آثارِ رحمةِ الله عليهم، فذكَروا بعْدَ ذلك تلك المخلوقاتِ، وذُكِرت هي قبلَهم؛ لأنها كانت أدِلَّةً لهم، والدليلُ سابقٌ على المستدِلِّ سَبْقَ المُستفادِ منه على المستفيدِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سبحانه التذكُّرَ والشُّكرَ في اللَّيلِ والنهارِ في الآيةِ المتقدِّمةِ؛ ذَكَرَ صفاتِ المتذكِّرينَ الشاكرينَ، وما أثمَرَه لهم تَذكُّرُهم وشُكرُهم؛ ترغيبًا في التذكُّرِ والشُّكرِ[2].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ الله سُبحانه الكُفَّارَ في هذه السُّورةِ بما وَصَفَهم به مِن الفَظاظةِ والغِلظةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعداوتِهم له، ومُظاهَرتِهم على خالِقِهم، ونحوِ ذلك مِن جلافتِهم، وخَتَمَ بالتذكُّرِ والشُّكرِ، وكان التقديرُ: فعِبَادُ الشَّيطانِ لا يتذكَّرون ولا يشكُرون؛ لِما لهم مِن القسوةِ- عَطَفَ على هذا المُقَدَّرِ أضْدادَهم، واصفًا لهم بأضْدادِ أوصافِهم، مُبَشِّرًا لهم بضِدِّ جزائِهم، فقال تعالى[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشون بحِلْمٍ وسَكينةٍ، ووَقارٍ وتواضُعٍ، ورِفقٍ ولينٍ، مِن غَيرِ مَرَحٍ وتكبُّرٍ وتجبُّرٍ، وسَعيٍ للإفسادِ وارتكابِ المعاصي(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

قال ابن كثير: (المرادُ بالهَونِ هاهنا السَّكينةُ والوقارُ، كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إذا أتيتُمُ الصَّلاةَ فلا تأتُوها وأنتم تَسْعَونَ، وأْتُوها وعليكم السَّكينةُ، فما أدركتُم فصَلُّوا، وما فاتَكم فأتِمُّوا»[البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٣)]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١، ١٢٢). ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٦١).

وقال ابنُ جُزي: (﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: رِفقًا ولِينًا بحِلمٍ ووقارٍ، ويحتمِلُ أن يكون ذلك وَصْفَ مَشيِهم على الأرضِ، أو وصْفَ أخلاقِهم في جميعِ أحوالِهم، وعبَّرَ بالمَشيِ على الأرضِ عن جميعِ تصرُّفِهم مدَّةَ حياتِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قَولِه ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أنَّه مدحٌ لمِشْيةٍ بالأرجُلِ، وهو الذي حمَل عليه جمهورُ المفسِّرينَ... [و] تقييدُ المشيِ بأنَّه على الأرضِ؛ لِيَكونَ في وَصفِه بالهَونِ ما يقتضي أنَّهم يَمشون كذلك اختيارًا، وليس ذلك عندَ المشيِ في الصُّعُداتِ أو على الجنادِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿يَمْشُونَ﴾ عبارةٌ عن تصرُّفاتِهم في معاشرةِ النَّاسِ، وأنَّه ذكَر مِن ذلك المعظَمَ، لاسيَّما وفي ذلك الانتقالِ في الأرضِ معاشرةُ الناسِ وخلطتُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطية، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٨).

وقال ابن عثيمين: (ثمَّ إنَّ هذا المَشيَ، هل هو المشيُ الحِسِّيُّ، أو يعُمُّ المشيَ الحسِّيَّ والمعنويَّ؟ الجوابُ: يَعُمُّهما جميعًا، حتَّى المشيَ المعنويَّ؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، وهذا مِن هَونِ المشيِ المعنويِّ؛ أنَّهم إذا خاطَبَهم الجاهلون لا يتسرَّعون فيقابلونَه بمِثلِ جَهلِه، ولكنَّهم يقولون: سلامًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧١).

طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

أنَّها بيانٌ لحالِ عِبادِ الرحمنِ في المُعامَلةِ مع غَيرِهم إثْرَ بَيانِ حالِهم في أنفُسِهم(١).

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾.

أي: وإذا خاطَبَ السُّفَهاءُ عِبادَ الرَّحمنِ بما يَكرَهونَه، أجابوهم بقَولٍ سَدادٍ وصَوابٍ، ويَعفُون عنهم ويَصفَحون، فيَسْلَمون مِن الإثمِ، ومِن مُقابَلةِ جَهلِهم بالإساءةِ إليهم، ومِن تطاوُلِهم في أذيَّتِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧١).

قال ابنُ باديس: (﴿سَلَٰمًا ﴾ ... مفعولٌ مطلَقٌ، والتقديرُ: قالوا قولًا سلامًا، أي: ذا سلامٍ، فيشملُ كلَّ قولٍ فيه سلامةٌ مِن الأذَى والمكروهِ؛ كسلام عليكم، ويغفرُ الله لكم، وسامحكم الله، ونحو ذلك. أو... مفعولٌ به، أي: قالوا هذا اللفظَ ﴿سَلَٰمًا ﴾ نفْسَه). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: رَدُّوا معروفًا، وأجابوا بالسَّدادِ مِن الخِطابِ، ولم يقولوا إلَّا خيرًا: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، وابنُ جُزي، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وصْفَهم بالنَّهارِ مِن وَجهَينِ؛ أحدُهما: ترْكُ الإيذاءِ، بقَولِه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، والثَّاني: تحمُّلُ الإيذاءِ، بقولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ

= (٢/ ٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٢).

قال السعدي: (﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: خاطَبوهم خِطابًا يَسْلَمون فيه مِنَ الإثمِ، ويَسلَمون مِن مُقابَلةِ الجاهلِ بجَهلِه. وهذا مدحٌ لهم بالحِلمِ الكثيرِ، ومُقابَلةِ المُسيءِ بالإحسانِ، والعفوِ عن الجاهلِ، ورَزانةِ العقلِ الذي أوصَلَهم إلى هذه الحالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وممَّن اختار أنَّهم قالُوا هذا اللَّفظَ -أي: سلامًا-: ابنُ عطية، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢١٧).

وقال القاسمي: (﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: إذا خاطَبَهم السُّفهاءُ بالقولِ السَّيِّئِ لم يُقابِلوهم بمِثلِه، بل قالوا كلامًا فيه سلامٌ مِن الإيذاءِ والإثمِ؛ سواء كان بصيغةِ السلامِ، كقولهم: «سلامٌ عليكم»، أو غيرِها ممَّا فيه لُطفٌ في القولِ، أو عفوٌ أو صفحٌ، وكَظمٌ للغَيظِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: تسلُّمًا منكم لا نُجاهِلُكم، ومُتاركةً لا خَيرَ بيْننا ولا شَرَّ: المُبَرِّدُ، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((المقتضب)) للمبرِّد (٣/ ٢١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٢).

وقال ابنُ عاشور: («السَّلامُ» يجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى السَّلامةِ، أي: لا خيرَ بيْننا ولا شرَّ؛ فنحن مُسلِّمون منكم. ويجوزُ أن يكونَ مرادًا به لفظُ التحيَّةِ، فيكونَ مُستعمَلًا في لازِمِه، وهو المتاركةُ؛ لأنَّ أصلَ استعمالِ لفظِ السَّلامِ في التحيَّةِ أنَّه يؤذِنُ بالتأمينِ، أي: عدَمِ الإهاجةِ. والتأمينُ: أوَّلُ ما يَلقَى به المرءُ مَن يريدُ إكرامَه؛ فتكون الآيةُ في معنى قَولِه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٩).

قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾؛ شرَحَ صِفتَهم في اللَّيلِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ سُبحانه فيما تقدَّمَ سلوكَهم مع الخَلقِ؛ ذَكَر في هذه الآيةِ سلوكَهم في القيامِ بعبادةِ الحقِّ، وفيما تَقَدَّمَ بيانُ حالِهم عندَ اختلاطِهم بالعِبادِ، وفي هذه بيانُ حالِهم عندَ تَفرُّدِهم لربِّ العبادِ[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هُمُ الذين يُصَلُّونَ في اللَّيلِ مُخلِصينَ لرَبِّهم، وهم في ذلك بيْنَ سُجودٍ وقِيامٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

قال الزجاج: (كلُّ مَن أدركه اللَّيلُ فقد بات يبيتُ، نام أو لم ينَمْ... إنَّما المَبيتُ إدراكُ اللَّيلِ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٧٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سبحانه حُسنَ سلوكِهم مع الخَلقِ، واجتهادَهم في عبادةِ الحقِّ؛ ذَكَر خَوفَهم مِن ربِّهم، واعتمادَهم عليه في نجاتِهم، وعدَمَ اعتزازِهم بأعمالِهم، فهُم يَأتون ما يَأتون مِن مَحاسِنِ الأعمالِ، ولا يَعتمدون إلَّا على الكبيرِ المُتعالِ(١).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾.

أي: والذين يقولونَ خَوفًا وحَذَرًا مِن عَذابِ اللهِ: ربَّنا ادفَعْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ، بتَوفيقِنا للطَّاعاتِ، واجتِنابِ المعاصي، وتَكفيرِ السَّيِّئاتِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ [المعارج: ٢٦ - ٢٨].

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.

أي: إنَّ عذابَ جهنَّمَ مُلازِمٌ لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، مُهلِكٌ لهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٤).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿ كَانَ غَرَامًا ﴾ فيه خمسةُ أقوالٍ تتقارَبُ معانيها: أحدُها: دائمًا... والثاني: موجِعًا، رواه الضَّحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثالث: مُلِحًّا، قاله ابنُ السائبِ، وقال ابنُ جُرَيجٍ: لا يفارِقُ. والرابعُ: هلاكًا، قاله أبو عُبَيدة. والخامسُ: أنَّ الغَرامَ في اللُّغةِ: أشَدُّ العذابِ... قاله الزجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٧). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧].

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

أي: إنَّ جَهنَّمَ قَبُحَت مَنزِلًا يَستقِرُّ فيه أهلُها، وبِئسَت موضِعَ إقامةٍ يَمكُثونَ فيها(١).

= ممَّن اختار في الجملةِ أن ﴿غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا كملازَمةِ الغَريمِ لغريمِه، مُلِحًّا، لازمًا، دائمًا، لا يفارِقُ صاحبَه: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والسمين الحلبيُّ، وابنُ كثير، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٦).

وممَّن اختار أنَّ ﴿غَرَامًا﴾ أي: هلاكًا وخسرانًا مُلِحًّا لازمًا: الزمخشريُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨١).

وقال ابن جرير: (﴿غَرَامًا﴾ مُلِحًّا دائمًا لازمًا، غيرَ مفارقٍ مَن عُذِّب به مِن الكفَّارِ، ومُهلِكًا له). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥).

قال ابن عاشور: (وجملة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يجوزُ أن تكونَ حكايةً مِن كلامِ القائلينَ، ويجوزُ أن تكونَ مِن كلامِ اللهِ تعالى مُعترضةً بيْن اسمَيِ الموصولِ. وعلى كلٍّ فهي تعليلٌ لسؤالِ صَرْفِ عذابِها عنهم. والغرامُ: الهلاكُ المُلِحُّ الدَّائِمُ، وغلَبَ إطلاقُه على الشرِّ المستمِرِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى أفعالَهم وأقوالَهم؛ أتبَعَ ذلك بذِكرِ إنفاقِهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه أفعالَهم وأقوالَهم فيما بيْنهم وبيْن الخلْقِ والخالقِ؛ ذكَرَ أحوالَهم في أموالهم نظرًا إلى قول الكفرةِ ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ [الفرقان: ٨]، وهدايةً إلى طريق الغنى؛ لأنَّه ما عالَ مَنِ اقتصدَ، فقال[2]:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾.

أي: والذين إذا أنفَقوا أموالَهم على أنفُسِهم وأهليهم وغَيرِهم، لم يُجاوِزوا الحَدَّ في إنفاقِها فيُبَذِّروا، ولم يُقصِّروا في النَّفَقةِ عن قَدرِ الحاجةِ فيَبخَلوا[3].

= (٦/ ١٢٣)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

قال أبو حيان: (والظَّاهرُ أن التَّعليلينِ غيرُ مترادفينِ؛ ذكرَ أوَّلًا لُزومَ عذابِها، وثانيًا مَساءةَ مكانِها، وهما متغايرانِ، وإن كان يلزمُ مِن لزومِ العذابِ في مكانٍ ذَمُّ ذلك المكانِ. وقيل: هما مترادِفان، والظَّاهِرُ أنَّه مِن كلامِ الداعينَ وحكايةٌ لقولِهم. وقيل: هو مِن كلامِ الله). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

وقال ابن عاشور: (جملة: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ يجوزُ أن تكونَ حِكايةً لكلامِ القائلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتعليلِهم الأوَّلِ، وأن تكونَ مِن جانب الله تعالى دونَ التي قبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتعليلِ القائلينَ، وأن تكونَ مِن كلامِ الله مع التي قبْلَها؛ فتكونَ تكريرًا للاعتراضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٧، ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

= السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٥، ٧٦).

قال ابن عطية: (الوجهُ أن يُقالَ: إنَّ النَّفَقةَ في المعصيةِ أمرٌ قد حظَرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدِّي على مالِ الغيرِ، وهؤلاء الموصوفون منزَّهون عن ذلك، وإنَّما التأديبُ بهذه الآيةِ هو في نفقةِ الطاعاتِ وفي المباحات، فأدَبُ الشَّرعِ فيها ألَّا يُفَرِّطَ الإنسانُ حتى يضيِّعَ حَقًّا آخَرَ أو عيالًا ونحوَ هذا، وألَّا يضَيِّقَ أيضًا ويقتِّرَ حتى يُجيعَ العيال، ويُفرِطَ في الشُّحِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ النفقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ بأن يَزيدوا على الحدِّ فيَدخلوا في قسمِ التبذيرِ، وإهمالِ الحقوقِ الواجبةِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ فيدخلوا في بابِ البخلِ والشُّحِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وقال ابن عاشور: (أُريدَ بالإنفاقِ هنا الإنفاقُ غيرُ الواجبِ، وذلك إنفاقُ المرءِ على أهلِ بيتِه وأصحابِه؛ لأنَّ الإنفاقَ الواجِبَ لا يُذَمُّ الإسرافُ فيه، والإنفاقَ الحرامَ لا يُحمَدُ مُطلقًا بَلْهَ أن يُذَمَّ الإقتارُ فيه، على أنَّ في قولِه: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ إشعارًا بأنَّهم اختاروا أن يُنفِقوا ولم يكُنْ واجبًا عليهم. والإسرافُ: تجاوُزُ الحَدِّ الذي يقتضيه الإنفاقُ بحسَبِ حالِ المنفِقِ وحالِ المنفَقِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

وقال الشنقيطي: (واعلَمْ أنَّ أظهَرَ الأقوالِ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ اللهَ مدَحَ عبادَه الصالحينَ بتوسُّطِهم في إنفاقِهم، فلا يجاوِزون الحدَّ بالإسرافِ في الإنفاق، ولا يَقتُرون، أي: لا يُضَيِّقون فيَبخَلون بإنفاقِ القَدرِ اللازمِ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: الإسرافُ في الآيةِ: الإنفاقُ في الحرامِ والباطِلِ، والإقتارُ: منعُ الحقِّ الواجبِ. وهذا المعنى وإن كان حقًّا فالأظهرُ في الآيةِ هو القَولُ الأوَّلُ... والظَّاهِرُ أنَّ التوسُّطَ في الإنفاقِ الذي مدَحَهم به شامِلٌ لإنفاقِهم على أهليهم، وإنفاقِهم المالَ في أوجُه الخيرِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٧٥، ٧٦).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الإنفاقَ شامِلٌ للإنفاقِ على العيالِ والإنفاقِ في سبيلِ الله، وفي الزَّكَواتِ والصَّدَقات، والإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ، وفي كُلِّ ما يكونُ إنفاقًا، قال: (لأنَّه لم يبيِّنِ المتعَلَّقَ، لم يقُلِ اللهُ: «أنفَقوا على عيالِهم»، بل أطلَقَ؛ فيشمَلُ كُلَّ ما أنفقوه؛ على العيالِ وعلى غيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٩، ٢٨٠).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وعن عمَّارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال في دعائه: ((وأسألُك القَصدَ[١] في الفَقرِ والغِنى))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كُلوا واشرَبوا وتصَدَّقوا والبَسُوا، في غيرِ مَخِيلةٍ[٣]، ولا سَرَفٍ))[٤].

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

أي: وكان إنفاقُهم مُعتَدِلًا وسَطًا بيْنَ الإسرافِ والتَّقتيرِ[٥].

---

(١) أي: الاقتِصادَ والتوسُّطَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٧٣٥).

(٢) أخرجه النسائي (١٣٠٥) واللفظ له، وأحمد (١٨٣٢٥)، وابن حبَّان في ((صحيحه)) (١٩٧١).
وثَّق رجالَ إسنادِه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٣٣)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٣٠٥).

(٣) مَخِيلة: أي: كِبر. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٩٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزم قبلَ حديث (٥٧٨٣)، وأخرجه موصولًا النَّسائيُّ (٢٥٥٩) واللفظ له، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وأحمد (٦٦٩٥).
حسَّنه ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٣٢)، وصحَّحه الهيتميُّ المكِّيُّ في ((الزواجر)) (٢/ ٣٥)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٢ - ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٥، ٧٦). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا ﴾ قال: ﴿عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ تذكيرًا بما هم منه وما يَصيرون إليه، وحثًّا على السَّعيِ في معالي الأخلاقِ للترَقِّي عنه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا ﴾ استِحبابُ الرِّفْقِ في المَشيِ، وكراهيةُ العُنفِ والاضْطِرابِ، ومِن العُنفِ الضَّربُ بالرِّجلِ والخَفقُ بالنَّعلِ، فإذا كانا بعُجْبٍ وخُيَلاءَ فهو حرامٌ[2]. والمَشيُ الهَونُ مخالِفٌ لمَشْيِ المتجبِّرينَ المُعجَبين بنفوسِهم وقوَّتِهم. وهذا الهَونُ ناشئٌ عن التواضُعِ لله تعالى، والتخَلُّقِ بآدابِ النفْسِ العاليةِ، وزوالِ بطَرِ أهلِ الجاهليَّةِ، فكانت هذه المِشيةُ مِن خلالِ الذين آمنوا على الضِّدِّ مِن مَشيِ أهلِ الجاهليَّةِ... والتخَلُّقُ بهذا الخُلقِ مَظهرٌ مِن مَظاهرِ التخَلُّقِ بالرَّحمةِ المناسِبِ لعبادِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ ضِدُّ الشِّدَّةِ، فالهَونُ يناسِبُ ماهيَّتَها، وفيه سلامةٌ مِن صَدمِ المارِّينَ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا ﴾ ليس مِن الهَونِ في المَشيِ التثاقُلُ والتماوُتُ فيه[4]؛ تَصَنُّعًا ورياءً، فقد كان سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ

= قال ابنُ عطية: ((القَوامُ، أي: المعتَدِلُ، والقَوامُ في كلِّ واحدٍ بحسَبِ عيالِه وحالِه، وخِفَّةِ ظَهرِه، وصَبرِه وجَلَدِه على الكَسبِ، أو ضِدِّ هذه الخصالِ، وخيرُ الأمورِ أوسَطُها)). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

صَلَّى الله عليه وسَلَّم إذا مشَى كأنَّما يَنحَطُّ مِن صَبَبٍ[(١)]، وقد كَرِه بعضُ السَّلَفِ المشيَ بتَضعُّفٍ وتصَنُّعٍ، حتى رُوِيَ عن عُمَرَ أنَّه رأى شابًّا يَمشي رُوَيدًا، فقال: ما بالُك؟! أأنت مَريضٌ؟ قال: لا يا أميرَ المؤمِنينَ، فعلاه بالدِّرَّةِ، وأمَرَه أن يَمشيَ بقُوَّةٍ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ الإغضاءُ عنِ الجاهلِ، ومُقابَلةُ كلمتِه السيِّئةِ بالكلامِ الحسَنِ، وكراهةُ مجاراتِه في خِطابِه ومُماثَلتِه، وإذا كان في ذلك فِتنةٌ أو مَفسَدةٌ محقَّقةٌ كان حرامًا[(٣)].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ اشتمَلت الآيةُ على بيانِ الأدبِ في معاملةِ الجاهلينَ مِن أفرادِ النَّاسِ، سواءٌ أكانوا مسلمينَ أم غيرَهم، وما اشتملت عليه مِن الأدبِ قد جاء في آياتٍ كثيرةٍ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فهو أدبٌ مشروعٌ مؤكَّدٌ، وحُكمٌ دائمٌ محكَمٌ، وهو في معاملاتِ الأفرادِ كما ترى، فلا ينافي ما شُرِعَ مِن الحربِ عندَ وجودِ أسبابِها، وتوفُّرِ شروطِها بينَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧)، وأحمد (٧٤٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٤١٩٤)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٢/ ١٠٧)، وصحَّحه البَغَويُّ في ((شرح السنة)) (٦/ ٣٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٦٣٧)، وحسَّن الحديثَ لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٧٤٦).

وقوله: يَنحَطُّ مِن صَبَبٍ أي: مِن مَوضِعٍ مُنحَدِرٍ، والمعنى: يمشي مشيًا قويًّا سريعًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١، ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

الأُمَمِ والجماعاتِ، وهي مِن الأمورِ العامَّةِ كما ترى(١).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ أنْ يُسَلَّمَ على الجاهلِ إذا كان كافرًا، كما قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] ولم يَستثْنِ إلَّا قولَه لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، وهو سلامُ مُوادَعةٍ ومُتارَكةٍ؛ لا سلامُ تحيَّةٍ وكرامةٍ(٢)، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٧- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ القولُ السَّلامُ مَحمودٌ ومطلوبٌ في كلِّ حالٍ، وإنما خُصَّتْ حالةُ الخِطابِ بالجاهلِ؛ لأنَّها الحالةُ التي تَثورُ فيها ثائِرةُ الغضَبِ بما يكونُ مِن سَفَهِه ومهاترتِه، فعلى المؤمنِ أن يكونَ حاضِرَ البالِ بهذه الآيةِ عندَما تسوقُ إليه الأقدارُ جاهلًا فيُخاطبُه بما لا يُرضيه؛ حتى يَسلَمَ مِن شَرِّه، ويَكسِرَ مِن شِرَّتِه، فيَسلَمَ له عِرْضُه ومروءتُه ودينُه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٦).

ثم قال بعد ذلك: (فبطَلَ قولُ مَن زعمَ أنَّ هذه الآيةَ بالنِّسبةِ لغيرِ المسلمِ مَنسوخةٌ بآيةِ السيفِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ ثابتٌ حُكمُها في حالٍ، وآيةَ السيفِ ثابتٌ حُكمُها في حالٍ أخرى؛ فلا تَنْسَخُ إحداهما الأخرى، وما أكثَرَ ما قُتِلَتْ أحكامٌ بآيةِ السيفِ هذه، وهي عندَ التحقيقِ غيرُ معارِضةٍ لها؛ لمُبايَنةِ حالِها لحالِها).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٧).

وذلك بِناءً على الوجهِ الثاني في الآيةِ، وهو أنَّه يقولُ للجاهلِ هذا اللَّفظَ نفْسَه ﴿سَلَـٰمًا﴾، على أنَّه مفعولٌ به. ويُنظر المصدر السابق أيضًا (ص: ١٩٥).

قال ابنُ عثيمين: (وليس المرادُ ﴿سَلَـٰمًا﴾ يعني: السلامُ عليكم، كما يظُنُّ بعضُ العامَّةِ؛ ولذلك تسلَّط الفعلُ عليها فنصَبها، ولو كان المرادُ بالسلامِ الجملةَ السلاميَّةَ لقال: «قالوا: سلامٌ»). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٢).

وقال السمين: (ورَجَّح سيبويه أنَّ المرادَ بالسَّلام السَّلامةُ لا التسليمُ؛ لأنَّ المؤمنين لم يُؤْمَروا قَطُّ بالتسليمِ على الكفرة، وإنما أُمِروا بالمُسالَمةِ). ((الدر المصون)) (ص: ٣٧١٦).

ويَسلَمَ ذلك الجاهلُ أيضًا مِن اللَّجاجِ في الشَّرِّ والتمادي فيه، فيكونُ المؤمِنُ بقولِه «السَّلام» وتأدُّبِه بأدبِ القرآنِ قد حَصَّلَ السَّلامةَ للجَميعِ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ التَّحريضُ على قيامِ اللَّيلِ(٢).

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ المُرادُ مِن قولِهم ذلك: فزَعُهم منها، ووَجَلُهم الشديدُ المُستتبِعُ لِتَمسُّكِهم بالتَّقوى، واعتِصامِهم بالسَّببِ الأقوى، لا مجرَّدُ قلقلةِ اللِّسانِ، بلا تأثُّرٍ مِن الجَنانِ؛ فإنَّهم لم يَبتَهلوا إلى المولى ويَتعَوَّذوا به مِن سَعيرِها، إلَّا لعِلمِهم بسوءِ حالِها. ومُقتضى العلمِ بالشَّيءِ إيفاؤُه حقَّه، والعملُ بموجَبِه(٣).

١٠- قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ إنَّ جهنَّمَ هي أقبَحُ مُستقَرٍّ، وأقبَحُ مُقامٍ، وإنَّ الدنيا هي مَطيَّةُ الآخرةِ، فمَن ساء مُستقَرُّه ومُقامُه في الدنيا، ساء كذلك مُستقَرُّه ومُقامُه في الآخرةِ، وإنَّ مُلازَمةَ العذابِ في الآخرةِ على قَدْرِ مُلازمةِ المعاصي في الدُّنيا؛ فمَن لازَمَها بالكفرِ ومات عليه دامتْ له تلك الملازَمةُ، ومَن لازَمَها بالإصرارِ على الكبائرِ كانت له على حسَبِ تلك الملازمةِ؛ فعلى العاقلِ أن يُحسنَ مَقَرَّه ومُقامَه، وأن يَجتنبَ كلَّ موطنٍ تَلحَقُه فيه المَلامةُ، وأن يَجتنبَ مجالسَ السُّوءِ والبدعةِ، ويلازِمَ مجالسَ الطاعةِ والسُّنَّةِ، وأن يُسرعَ بالتوبةِ مفارِقًا الذنوبَ، وألَّا يُصِرَّ على شَيءٍ مِن القبائحِ والعُيوبِ، وأن يكونَ سريعَ الرُّجوعِ إلى اللهِ، ولو عَظُمَ ذَنبُه وبَلْواه؛ فاللهُ يحِبُّ التوَّابينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٧).

ويَغفِرُ للأوَّابينَ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ ذمُّ الإسرافِ والإقتارِ في النَّفَقةِ، ومدحُ التوسُّطِ(٢)، فلَمَّا كان المالُ هو أعزَّ شيءٍ في هذه الدنيا، وهو أعظَمُ سببٍ لِنَيلِ مُبتغياتِها؛ وُصِفوا بأنَّهم في تصرُّفاتِهم فيه على أكمَلِ حالٍ، وهي حالةُ العَدلِ التي أثمرَتْها لهم الصَّلاةُ؛ فلا يُمسِكونَه عن حقٍّ، ولا يَبذُلونَه في باطلٍ(٣)، وكان التوسُّطُ في الإنفاقِ هو حالَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان مُقتَصِدًا في حالِ فَقرِه وغِناهُ؛ فإن كان فقيرًا لم يقتِّرْ خوفًا مِن نَفادِ الرِّزقِ، ولم يُسرِفْ فيَحمِل ما لا طاقةَ له به، كما أدَّب اللهُ تعالى نبيَّه بذلك في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وإن كان غنيًّا لم يحمِلْه غِناهُ على السَّرَفِ والطُّغيانِ، بل يكونُ مقتَصِدًا أيضًا، وإن كان المؤمِنُ في حالِ غِناهُ يَزيدُ على نفَقتِه في حالِ فَقرِه، كما قال بعضُ السَّلَفِ: (إنَّ المؤمِنَ يأخُذُ عن الله أدبًا حَسَنًا؛ إذا وسَّع الله عليه وسَّعَ على نفْسِه، وإذا ضيَّقَ عليه ضَيَّق على نفْسِه، ثمَّ تلا قَولَه تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ [الطلاق: ٧]). لكِنْ يكونُ في حال غِناهُ مقتَصِدًا غيرَ مُسرِفٍ، كما يفعلُهُ أكثرُ أهلِ الغنى الذين يُخرِجُهم الغِنى إلى الطُّغيانِ، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾(٤) [العلق: ٦، ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٧، ١٦٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ فأثنَى على عِبادِه بالإعراضِ عن الجاهلينَ ومُتارَكتِهم، وهذا ممَّا يدُلُّ على قُبحِ الجَهلِ عندَه عزَّ وجَلَّ، وبُغضِه للجَهلِ وأهلِه، وهو كذلك عندَ النَّاسِ؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه، وإن كان فيه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ بيانُ أنَّ هؤلاء يُطيلون القيامَ والسُّجودَ، فما دام بياتُهم على هذا الوَصفِ فمعناه أنَّهم يُطيلون القيامَ والسُّجودَ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ البيتوتةَ هو ضِدُّ الظُّلولِ بالنَّهارِ، لا أنَّه النومُ، وكيف يكونُ نومًا وهو يقولُ: «سُجَّدًا وقيامًا»[3]؟!

٤- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ زعَم قَومٌ أنَّ أكمَلَ أحوالِ العابِدِ أن يعبُدَ اللهَ تعالى لا طمعًا في جنَّتِه، ولا خوفًا مِن نارِه! وهذه الآيةُ وغيرُها ردٌّ قاطعٌ عليهم، ومثلُها قولُ إبراهيمَ -عليه وعلى آلِه الصلاةُ والسلامُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفي نصوصٍ لا تُحصى كَثرةً، وزعموا أنَّ كمالَ التعظيمِ لله ينافيه أن تكونَ العبادةُ معها خوفٌ مِن عقابِه، أو طمَعٌ في ثوابِه! وأخطؤوا فيما زعموا؛ فإنَّ العبادةَ مَبْناها الخضوعُ والذُّلُّ والافتقارُ، والشعورُ بالحاجةِ والاضْطِرارِ، وإظهارُ العبدِ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٣) وسبَق نحوُه مِن كلامِ الزَّجَّاجِ.

هذه العبوديةَ بأتمِّها، ومِن أتمِّ مَظهرٍ لها أن يخافَ ويطمَعَ، كما يذِلُّ ويخضَعُ؛ ففي إظهارِ كَمالِ نَقصِ العبوديَّةِ القيامُ بحَقِّ الإجلالِ والتعظيمِ للربوبيَّةِ؛ ولهذا كان الأنبياءُ -عليهم وآلِهم الصلاةُ والسلامُ- هم أشَدَّ الخلقِ تعظيمًا لله، وأكثَرُهم خوفًا مِن الله، وتعوُّذًا مِن عذابِ الله، وسؤالًا لِما عندَ الله، وكفَى بهم حُجَّةً وقدوةً!

وإنَّ هذه المقالةَ تكادُ تُفضي إلى طرحِ الرجاءِ والخَوفِ، وعليهما مبنى الأعمالِ؛ لِما فيهما مِن ظهورِ العبوديَّةِ بالذُّلِّ والاحتياجِ، ومِثلُ هذه المقالةِ إنما يجُرُّ إليها الغُلوُّ وقلَّةُ الفقهِ في الدينِ، وفي الكتابِ والسُّنةِ، وما كان عليه هَدْيُ السابقينَ الأوَّلينَ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ يُثابُ عليه الدَّاعي، ألَا ترى أنَّ اللهَ تعالى جعَلَه في جملةِ ما مدَحَ به عِبادَه في هذا المدحِ؟! ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فسَمَّاه عبادةً[(٢)].

٦- هذه الآيةُ الكريمةُ -التي هي قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ...﴾ الآيةَ- بيَّنَت أحدَ رُكنَي ما يسمَّى الآنَ بالاقتِصادِ، وإيضاحُ ذلك أنَّه لا خِلافَ بيْن العُقَلاءِ أنَّ جميعَ مسائِلِ الاقتصادِ على كَثرتِها واختِلافِ أنواعِها راجِعةٌ بالتَّقسيمِ الأوَّلِ إلى أصلَينِ لا ثالثَ لهما؛ الأوَّلُ منهما: اكتِسابُ المال. والثَّاني منهما: صَرفُه في مَصارِفِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾

- قولُه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ أوصافِ خُلَّصِ عِبادِ الرَّحمنِ وأحوالِهمُ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ بعْدَ بيانِ حالِ النَّافِرينَ عن عبادتِه والسُّجودِ له[١]. وقيل: إنَّه عطْفُ جُملةٍ على جملةٍ؛ فالجملةُ المعطوفةُ هي: (عِبَادُ الرَّحْمَنِ) إلخ، والجملةُ المَعطوفُ عليها جُملةُ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ... ﴾ [الفرقان: ٦٢]؛ فبِمُناسَبةِ ذِكرِ مَن أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ تُخُلِّصَ إلى خِصالِ المؤمنينَ أتْباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تَستكمِلَ السُّورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالقُرآنِ ومَن جاءَ به ومَنِ اتَّبَعوه. وهذا مِن أبدَعِ التَّخلُّصِ؛ إذْ كان مُفاجئًا للسَّامعِ، مُطمِعًا أنَّه استِطرادٌ عارِضٌ كسَوابقِه؛ حتَّى يُفاجِئَه ما يؤْذِنُ بالخِتامِ، وهو: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي ... ﴾ الآيةَ[٢] [الفرقان: ٧٧].

- وقيل: وُصِلَتِ الجُملةُ بما قبْلَها بالواوِ؛ لاشتِراكِهما في القَصدِ، وهو التَّعريفُ بالرَّحمنِ وبعِبادِه[٣].

- قولُه: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ... ﴾ أضافَهم إلى الرَّحمنِ؛ تَخصيصًا وتَشريفًا وتَفضيلًا وتَقريبًا، أو لأنَّهمُ الرَّاسِخونَ في عِبادتِه، على أنَّ (عِبَاد) جَمعُ عابِدٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣، ١٩٤).

كتاجِرٍ وتجَارٍ. وفيه تَعريضٌ بأُولئكَ المُتجاهِلينَ المُتكبِّرينَ المُبعَدِينَ[١].
وأضافهم إلى وَصفِ الرَّحمةِ الأبلَغِ الذي أنكرَه أولئك؛ تبشيرًا لهم[٢]، وإشارةً إلى أنَّهم إنَّما وصَلوا إلى هذه الحالِ بسببِ رحمتِه[٣]، فعبادتُهم للهِ كانت مِن مقتضياتِ رحمتِه، ومِن ناحيةٍ أُخرَى أنَّهم يَرجونَ بهذه العبادةِ رحمةَ ربِّهم، لا يرجونَ بذلك دُنيا، ولا دفْعَ مَذمَّةٍ عنهم، وإنَّما يرجون بهذا رحمةَ الله[٤]. ثمَّ وصفَهم بضِدِّ ما وَصَف به المتكبِّرين عن السُّجودِ؛ إشارةً إلى أنَّهم تخلَّقوا مِن هذه الصِّفةِ التي أُضيفوا إليها بأمرٍ كبيرٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ﴾[٥].

- وأيضًا في تَعريفِ القرآنِ لعِبادِ الرَّحمنِ بعْدَ تَعريفِه بالرَّحمنِ: تَشريفٌ كَبيرٌ لهم، وتَبكيتٌ لأولئك المُتجاهِلين المُتكبِّرين[٦].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ ﴿هَوۡنٗا﴾ حالٌ، أو صِفةٌ للمَشيِ، بمعنَى: هَيِّنِينَ. أو: مَشْيًا هَيِّنًا، إلَّا أنَّ في وضعِ المَصدرِ مَوضِعَ الصِّفةِ مُبالَغةً[٧].

- وإذا كان المرادُ مِن عِبادِ الرَّحمنِ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ كان الخَبرُ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ إلى آخِرِ المَعطوفاتِ، وكان قَولُه الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٠).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١).

استِئنافًا لبَيانِ كَونِهم أَحْرِياءَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ. وإذا كان المرادُ مِن عِبادِ الرَّحمنِ جميعَ المؤمنينَ المتَّصِفينَ بمَضمونِ تلك الصِّلاتِ؛ كانتْ تلك المَوصولاتُ وصِلاتُها نُعوتًا لـ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، وكان الخبرُ اسمَ الإشارةِ في قَولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥] إلخ[1].

- قولُه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ تركيبٌ كِنائيٌّ، أُرِيدَ به معناهُ، ولازِمُ معناهُ؛ فهم يَمْشُون هيِّنِينَ برِفْقٍ وتثبُّتٍ، لا يَضْرِبون بأقدامِهم ولا يَخفِقون بنِعالِهم أشَرًا وبطَرًا، هذا أصْلُ المعنى، وهو مُرادٌ. ومُرادٌ أيضًا لازِمُه؛ وهو: سُهولتُهم، وتواضُعُهم، وعدَمُ تكبُّرِهم، ورِفْقُهم في الأمورِ، وبُعدُهم عن الإفسادِ. ومُرادٌ لازمٌ آخَرُ أيضًا: وهو سَيْرُهم في الحياةِ، وتصرُّفُهم في جميعِ الأمورِ، ومُعامَلتُهم للنَّاسِ، فإذا كانوا أهْلَ رِفْقٍ وسُهولةٍ في مِشيَتِهم في الأرضِ، فكذلك هم أهْلُ رِفْقٍ وسُهولةٍ في الأمورِ الأخرى ممَّا ذكَرْنا؛ لأنَّ الرِّفقَ والسُّهولةَ خُلُقٌ فيهم، فكما هو في المشْيِ هو في غيرِه. وكانتِ الصِّلةُ بالمُضارِعِ؛ لِيُفِيدَ التَّجدُّدَ؛ فإنَّ المشْيَ في الأرضِ ضَروريٌّ للإنسانِ[2].

- وفي الإطنابِ بصِفاتِهمُ الطَّيِّبةِ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين أبَوُا السُّجودَ للرَّحمنِ وزادَهُم نُفورًا هُم على الضِّدِّ مِن تِلك المَحامِدِ؛ تعَريضًا تُشعِرُ به إضافةُ (عِبَاد) إلى (الرَّحْمَنِ)[3].

- قولُه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ ذِكْرُهم بصِفةِ الجاهِلينَ دُونَ غَيرِها ممَّا هو أشَدُّ مَذمَّةً -مِثلَ الكافِرينَ-؛ لأنَّ هذا الوَصفَ يُشعِرُ بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٧).

الخِطابَ الصَّادرَ منهم خِطابُ الجَهالةِ والجَفْوةِ[١].

- ولأجْلِ المناسَبةِ بيْن الصِّيغتَينِ -﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ﴿خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾- عُطِفَتْ هذه الجُملةُ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ على الصِّلةِ الأُولى، ولم يُكرَّرِ اسمُ المَوصولِ كما كُرِّر في الصِّفاتِ بعْدَها[٢]؛ فقولُهم للجاهلينَ: (سَلامًا) مِن مُقْتضى هَوْنِهم ورِفْقِهم؛ فلذلك قُرِنَ به، وعُطِفَ عليه[٣].

- وكان المعطوفُ على الصِّلةِ -﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾- بصُورةِ الشَّرطِ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾؛ لأنَّ خِطابَ الجاهلينَ لهم ليس ممَّا يكونُ دائمًا. وكان التَّعليقُ بـ (إذا)؛ لأنَّ مُخاطَبةَ الجاهلينَ لهم بالسُّوءِ أمْرٌ مُحقَّقٌ. ومتى سلِمَ أهْلُ العلْمِ والدِّينِ مِن الجاهلينَ؟! ولم يَذكُرْ ما يُخاطِبُهم به الجاهلونَ؛ للعلْمِ بأنَّ خِطابَ الجاهلِ -أي: السَّفيهِ- لا يكونُ إلَّا سوءًا ممَّا يُمْلِيه عليه جهْلُه وسفَهُه[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ بيانٌ لحالِهم في مُعامَلتِهم مع ربِّهم[٥].

- وإعادةُ لفْظُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لتأكيدِ أنَّهم يُعرَفون بهذه الصِّلةِ، ولاستقلالِ الحالةِ الثَّانيةِ عن الأُولى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

- وتَخصيصُ البَيْتوتةِ؛ لأنَّ العبادةَ باللَّيلِ أَبعَدُ عنِ الرِّياءِ(١).

- وقُدِّمَ الجارُّ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لِيُفِيدَ تَخصيصَ عِبادتِهم بربِّهم، ويُفِيدَ الكلامُ عِبادتَهم وإخلاصَهم(٢)، وأنَّهم لا يقومون رياءً ولا سُمعةً، وإنما يقومون لله وحْدَه(٣).

- قولُه: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قُدِّم السُّجودُ وإنْ كان مُتأخِّرًا في الفِعلِ؛ لأجْلِ مُناسَبةِ الفَواصلِ، مع الإشارةِ إلى الاهتِمامِ بالسُّجودِ، وأيضًا لفَضلِ السُّجودِ؛ لأنَّ السُّجودَ أقرَبُ أحوالِ العَبدِ للربِّ، وأقرَبُ ما يَكونُ العبدُ فيها مِنَ اللهِ وهو ساجِدٌ(٤).

- وأيضًا لَمَّا كان السُّجودُ أشَدَّ أركانِ الصَّلاةِ تقريبًا إلى اللهِ، لكَونِه أَنْهى الخُضوعِ مع أنَّه الَّذي أَباهُ الجاهِلونَ؛ قدَّمَه لذلك، فقال: ﴿سُجَّدًا﴾، وأَتْبَعَه ما هو تِلْوُه في المَشقَّةِ تحقيقًا، فقال: ﴿وَقِيَامًا﴾(٥).

- وفي الإطنابُ في التَّعبيرِ عنِ الصَّلاةِ برُكْنَيْها في قولِه: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾: تَنويهٌ بكِلَيْهِما(٦).

- ولم يَذكُرِ اللهُ الرُّكوعَ، ولم يَذكُرِ القُعودَ؛ لأنَّ القيامَ أَشرَفُ ما في الصَّلاةِ مِن حيث ذِكْرُه، أي: مِن حيث الذِّكرُ الَّذي هو القُرآنُ، والسُّجودُ أَشرَفُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

في الصَّلاةِ مِن حيث الحالُ والهَيْئةُ، قال صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: ((أَقرَبُ ما يَكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ))[1]، فذَكَر القيامَ لشَرَفِه بذِكرِه، أي: بما يُقالُ فيه، وذَكَر السُّجودَ لشَرَفِه بهَيْئتِه؛ فدَلَّ لذلك على أنَّ هذا أَفضَلُ حالاتِ الصَّلاةِ، وهو كذلك[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ عَقَّبَ وصْفَهم بإحياءِ اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ بذِكرِ دَعوتِهم هذه؛ إيذانًا بأنَّهم مع اجتِهادِهم خائِفونَ مُبتهِلونَ إلى اللهِ في صَرفِ العذابِ عنهم؛ لعدَمِ اعتِدادِهم بأعمالِهم ووُثوقِهم على استِمرارِ أحوالِهم، كقَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[3] [المؤمنون: ٦٠].

- والتَّعليلانِ: قيل: يَصِحُّ أن يَكونَا مُتَداخِلَينِ -أي: يكونَ قَولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾ تَعليلًا لقَولِه: ﴿اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، وقَولُه: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ﴾ تَعليلًا لقَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾- أو مُترادِفَينِ؛ أي: يَكونَا تَعليلَينِ لقَولِه: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾[4].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ تَعليلٌ للجُملةِ الدُّعائيَّةِ، وفُصِلَت عنها لكَمالِ الانقطاعِ بيْنهما، وجُملةُ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مُؤكِّدةٌ لمَضمونِ الجُملةِ قبْلَها مع اختلافٍ في المعنى؛ فإنَّ ما أفادَتْه الأُولى مِن

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

فَداحةِ عَذابِها ومُلازَمتِه، أكَّدتْه الثَّانيةُ بما أفادَتْهُ مِن مُقامِه ومُستقَرِّها، ففُصِلَت عنها؛ لِمَا بيْنهما مِن كَمالِ الاتِّصالِ، نَظِيرُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢]. والتَّأكيدُ فيها بـ (إنَّ)؛ لأنَّه قد لُوِّحَ وأُشِيرَ في الكلامِ السَّابِقِ إلى هذا الخبرِ، وشأْنُ السَّامعِ لهذا أنْ يَستشرِفَ له استشرافَ المُتردِّدِ الطَّالبِ، فيُنزَّلُ مَنزِلةَ المُتردِّدِ، فيُؤكَّدُ له الخبرُ. ووجْهُ التَّلويحِ بهذا الخبرِ: أنَّه لمَّا سُئِلَ صرْفَ عذابِ جهنَّمَ، كان هذا مُشيرًا إلى قُبْحِ هذا العذابِ وشِدَّتِه. فهذا نظيرُ ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾(١) [هود: ٣٧].

- وقيل: يَجوزُ أن تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ حِكايةً لكلامِ القائِلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتَعليلِهِمُ الأوَّلِ. وأن تَكونَ مِن جانبِ اللهِ تعالى دُونَ الَّتي قَبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتَعليلِ القائِلينَ. وأنْ تكونَ مِن كلامِ اللهِ مع الَّتي قَبلَها؛ فتكونَ تَكريرًا للاعتِراضِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إشارةٌ إلى كَونِها مَضرَّةً خالِصةً عن شَوائِبِ النَّفعِ. وقوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ إشارةٌ إلى كَونِها دائمةً(٣).

- ويَظهَرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَمُقَامٗا﴾ مَعطوفٌ على سبيلِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ الاستِقرارَ والإقامةَ كأنَّهما مُترادِفانِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

- أفادَ قَولُه: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ أنَّ الإنفاقَ مِن خِصالِهم؛ فكأنَّه قال: والَّذين يُنفِقونَ، وإذا أَنفَقوا... إلخ(١).

- قولُه: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ ﴿قَوَامًا﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ، فلو قيل: (وكان بيْن ذلك) لكان كافيًا، ولكنْ أكَّدَ بـ ﴿قَوَامًا﴾؛ لِمَا فيه مِن صَريحِ اللَّفظِ المُفهِمِ للعَدْلِ. والإنفاقُ يكونُ ولا يكونُ، والشَّأنُ أنْ يكونَ؛ ولهذا عُلِّقَ، وكان التَّعليقُ بـ (إذا). وقدَّمَ نفْيَ السَّرَفِ على نفْيِ التَّقتيرِ؛ لأنَّ الإسرافَ شرُّهما؛ ففيه مُجاوَزةُ الحدودِ، وضَياعُ المالِ، وفي التَّقتيرِ مَفسدَتُه مع بقاءِ المالِ، فيُنفِقُه في الخَيرِ، وقد يَبْقى لغيرِه فيَنتفِعُ به(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٧).

الآيات (٦٨-٧١)

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَثَامٗا﴾: أي: عُقوبةً ونَكالًا، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ، والإثمُ مشتقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[١].

﴿مُهَانًا﴾: أي: ذليلًا مُبعَدًا، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذِلَّةٍ[٢].

﴿مَتَابٗا﴾: أي: رجوعًا، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا * يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾

﴿يُضَٰعَفۡ﴾: مضارِعٌ مجزومٌ بَدَلُ اشتِمالٍ مِنْ ﴿يَلۡقَ﴾؛ إذ كان مِن مَعناه؛ لأنَّ مُضاعَفةَ العذابِ لُقِيُّ الأثامِ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٠٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين لا يُشرِكونَ باللهِ غَيرَه، ولا يَقتُلون نفْسًا حرَّم اللهُ قَتلَها إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ، ولا يقَعون في فاحِشةِ الزِّنا، ومَن يفعَلْ ذلك الذي نَهَينا عنه مِمَّا تقدَّمْ، يجِدْ عِقابًا شَديدًا؛ يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامةِ، ويَبْقَ في ذلك العذابِ ذليلًا مُهانًا، إلَّا مَن تاب وآمنَ وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً؛ فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه وكَرَمِه، وكان اللهُ تعالى واسِعَ المَغفِرة والرَّحمةِ لِمَن تاب إليه وأناب، ومَن تاب عن المعاصي وداوَمَ على العمَلِ الصالحِ لِيَستدرِكَ ما فاته منه؛ فإنَّه يكونُ قد تاب ورجعَ إلى الله تعالى رُجوعًا صحيحًا مَقبولًا منه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ٦٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه ما تَحَلَّوا به مِن أصولِ الطَّاعاتِ بما لهم مِن العَدلِ والإحسانِ بالأفعالِ والأقوالِ في الأبدانِ والأموالِ؛ أتبَعَه ما تَخَلَّوا عنه مِن أمَّهاتِ المعاصي التي هي الفَحشاءُ والمُنكَرُ(١).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: (أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كفَّارةً، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٥).

مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾، ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣])[1].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: والذين لا يَدْعون مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل يُخلِصون العبادةَ للهِ وحْدَه، ولا يُشرِكون به شَيئًا[2].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سألتُ، أو سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الذنبِ عند الله أكبَرُ؟ قال: أن تجعَلَ لله ندًّا وهو خلَقَك. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ أن تقتُلَ ولَدَك خَشيةَ أن يَطعَمَ معك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِك. قال: ونزَلَت هذه الآيةُ تصديقًا لِقَولِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾))[3].

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى عنهم ما يُوجِبُ قتْلَ أنفُسِهم بخَسارتِهم إيَّاها؛ أتبَعَه نفيَ قتْلِ غَيرِهم[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٠) واللفظ له، ومسلم (١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابن عثيمين: (و ﴿لَا يَدْعُونَ﴾... يعني: لا يدْعون دعاءَ مسألةٍ، ولا يَدْعون دعاءَ عبادةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٦١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٤).

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: ولا يقتُلون مَن حرَّم اللهُ قَتْلَهم إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ يخوِّلُ قَتْلَهم[١].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ[٢]، وحِسابُهم على اللهِ))[٣].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه القتلَ الجليَّ؛ أتبَعَه الخفيَّ بتضييعِ نَسَبِ الولَدِ، فقال: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: رحمةً لِمَا قد يحدُثُ مِن ولَدٍ؛ إبقاءً على نَسَبِه، ورحمةً للمَزْنيِّ بها ولأقاربِها أنْ تُنتَهكَ حُرُماتُهم، مع رحمتِه لنَفْسِه، على أنَّ الزِّنا جارٌّ أيضًا إلى القَتلِ والفِتَنِ، وفيه التسبُّبُ لإيجادِ نَفْسٍ بالباطلِ، كما أنَّ القتلَ تَسَبُّبٌ إلى إعدامِها بذلك[٤].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابنُ عثيمين: (والنَّفسُ التي حرَّم اللهُ: أربعةُ أنفُسٍ: المسلمُ، والذمِّيُّ، والمعاهَدُ، والمستأمِنُ. هذه هي الأنفُسُ التي حرَّم اللهُ، فهذه الأربعةُ أنفُسٍ مُحرَّمةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨٤).

(٢) إلَّا بحَقِّ الإسلام: أي: مِن قَتْلِ نَفْسٍ، أو حَدٍّ، أو غَرامةٍ بمُتْلَفٍ، أو تَركِ صَلاةٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ١٠٨).

(٣) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٦).

أي: ولا يقَعونَ في الزِّنا فيأتونَ الفَرْجَ الحرامَ بلا نِكاحٍ ولا مِلكِ يَمينٍ[١].

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لمَّا ذَكَر في صدرِ الآيةِ نَفْيَ تلك المعاصي عن عبادِ الرحمنِ -الذي يُفيدُ النهيَ عنها-؛ ذَكَرَ هذا الوعيدَ لبيانِ سوءِ عاقبتِها، وقُبحِ أثَرِها[٢].

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾.

أي: ومَن يفعَلْ تلك الأفعالَ؛ مِن الشِّركِ باللهِ، وقَتلِ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ، والزِّنا- يجِدْ جزاءَه وعِقابَه في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٨).

قال ابنُ عاشور: (المتبادِرُ مِن الإشارةِ أنَّها إلى المجموعِ، أي: مَن يفعَلْ مجموعَ الثلاثِ. ويُعلَمُ أنَّ جزاءَ من يفعَلُ بعضَها ويتركُ بعضًا عدا الإشراكِ: دونَ جزاءِ من يفعَلُ جميعَها، وأنَّ البعضَ أيضًا مراتِبُ، وليس المرادُ: من يفعلْ كُلَّ واحدةٍ مِمَّا ذُكِرْ يلقَ أثامًا؛ لأنَّ لُقِيَّ الآثامِ بُيِّنَ هنا بمُضاعفةِ العذابِ والخلودِ فيه، وقد نَهَضت أدِلَّةٌ مُتظافرةٌ من الكتابِ والسنَّةِ على أنَّ ما عدا الكُفرَ من المعاصي لا يوجِبُ الخلودَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

وممَّن قال بأنَّ الجزاءَ هنا على المجموعِ، أي: ما ذُكِر مِن الشِّركِ بالله، وقتلِ النفْسِ بغيرِ حقٍّ، والزِّنا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والنسفيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ جُزي، والقاسميُّ، والألوسيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٨)، =

﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: يُغلِّظِ اللهُ له عذابَه يومَ القيامةِ ويُكَرِّرْه(١).

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٤/ ٣٠١).

وممن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: ومَن يفعَلْ شَيئًا ممَّا ذُكِر: مكِّي، والماوردي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال البقاعي: (ولا يُقالُ: إنَّ الإشارةَ تَرجِعُ إلى المجموعِ؛ فالتهويلُ خاصٌّ بمَن ارتكَبَ مجموعَ هذه الذُّنوبِ؛ لأنَّا نقول: السِّياقُ يأباه؛ لأنَّ تكرارَ «لا» أفاد -كما حقَّقه الرَّضِيُّ- وُرودَ النَّفيِ على وقوعِ الخِصالِ الثلاثِ حالَ الاجتِماعِ والانفرادِ، فالمعنى: لا يوقِعون شَيئًا منها، فكان معنى ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾: ومَن يفعَلْ شَيئًا من ذلك؛ لِيَرِدَ الإثباتُ على ما ورَدَ عليه النَّفيُ، فيحصُلَ التناسُبُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

قال الزمخشري: (إذا ارتكب المُشرِكُ معاصيَ مع الشِّركِ، عُذِّب على الشِّركِ وعلى المعاصي جميعًا؛ فتُضاعَفُ العقوبةُ لمُضاعَفةِ المعاقَبِ عليه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٤).

وقال ابن عثيمين: (إنما ضُوعِفَ له العذابُ لأنَّه فعَل ثلاثةَ أسبابٍ للعذابِ، وهي: الإشراكُ بالله، وقتلُ النفسِ، والزِّنا، ومعلومٌ أنَّ الأسبابَ إذا اجتمعَت صار لكلِّ واحدٍ منها أثَرُه، فمَن فعَل شيئًا واحدًا مِن الثلاثةِ فعليه إثمُه، ومَن فعَل اثنين فعليه إثمُهما، ومَن فعَل ثلاثًا فعليه إثمُهن. فهذا وجْهُ التضعيفِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٩٢). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

وقال البقاعي: (ومُضاعَفةُ العذابِ -والله أعلمُ- إتيانُ بعضِه في إثرِ بَعضٍ بلا انقِطاعٍ، كما كان يُضاعِفُ سيِّئتَه كذلك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٧).

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾.

أي: ويَبْقَ المُشرِكُ العاصي في العذابِ المُضاعَفِ إلى الأبَدِ ذَليلًا حَقيرًا(١).

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى عظائمَ الذنوبِ وأكبرَ كبائرِها، وتَوعَّدَ بالوعيدِ الشَّديدِ عليها؛ عَقَّبَها بذِكرِ التوبةِ منها، ورَغَّبَ فيها؛ لِيُنَبِّهَ عِبادَه على طريقِ الرجوعِ إليه، وأنَّ مَن تاب منهم إلى اللهِ تاب اللهُ عليه(٢).

سَببُ النُّزولِ:

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((نزَلَت هذه الآيةُ بمكَّةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢، ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

قال السعدي: (الوعيدُ بالخلودِ لمن فعلها كلِّها ثابتٌ لا شكَّ فيه، وكذا لمن أشرَكَ بالله، وكذلك الوعيدُ بالعذابِ الشديدِ على كلِّ واحدٍ مِن هذه الثلاثةِ؛ لكونِها إمَّا شركٌ وإما مِن أكبرِ الكبائرِ، وأمَّا خلودُ القاتلِ والزاني في العذابِ، فإنَّه لا يتناوَلُه الخلودُ؛ لأنَّه قد دلَّت النصوصُ القرآنيةُ والسنَّةُ النبويَّةُ أنَّ جميعَ المؤمنينَ سيخرجون من النارِ، ولا يخلدُ فيها مؤمنٌ ولو فعَل مِن المعاصي ما فعَل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وأيضًا قيل: يُرادُ مِن الخُلودِ المُكثُ الطويلُ الصادقُ بالخلودِ الأبَديِّ وغيرِه، ويكونُ لِمَن أشرَكَ باعتبارِ فَردِه الأوَّلِ، ولِمَنِ ارتكَب إحدى الكبيرتينِ الأخيرتينِ باعتبارِ فَردِه الآخرِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٤).

مُهَانًا ﴾ فقال المُشرِكون: وما يُغْني عنَّا الإسلامُ، وقد عدَلْنا باللهِ، وقد قتَلْنا النفْسَ التي حرَّم اللهُ، وأتَيْنا الفواحِشَ؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾))[1].

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾.

أي: إلَّا مَن تاب مِن الشِّركِ وقتْلِ النَّفسِ المحرَّمةِ والزِّنا، فنَدِمَ على ذلك وأقلَعَ عنه، وآمَنَ بما وجَبَ عليه الإيمانُ به، وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِرَسولِه- فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه ورَحمتِه[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦ - ١٢٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٣).

قال ابن جرير: (قَوْلُهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ اختلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ ذلك؛ فقالَ بعضُهم: معناه: فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ بقبائحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ، فيُبَدِّلُه بالشِّركِ إيمانًا، وبقِيلِ أهلِ الشِّركِ بالله قِيلَ أهلِ الإيمانِ به، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: فأولئك يبدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم في الدُّنيا حسناتٍ لهم يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٦، ٥١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ اللهَ يبدِّلُ سيِّئاتِهم حسناتٍ يومَ القيامةِ: الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، وابنُ كثير، وجلال الدين المحليُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سَلمانُ الفارسيُّ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، ومَكحولٌ، وعليُّ ابن الحسينِ، وعمرُو بنُ ميمونٍ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٠).

قال ابن كثير: (... تلك السيِّئاتُ الماضيةُ تنقلِبُ بنفْسِ التَّوبةِ النَّصوحِ حسناتٍ، وما ذاك إلَّا أنَّه كُلَّما تذَكَّر ما مضى نَدِم واسترجَع واستغفَر، فيَنقلِبُ الذنبُ طاعةً بهذا الاعتِبارِ. فيومَ القيامةِ =

= وإنْ وجَدَه مكتوبًا عليه لكنَّه لا يضُرُّه، ويَنقلِبُ حسنةً في صحيفتِه، كما ثبتَت السُّنَّةُ بذلك، وصحَّت به الآثارُ المَرويَّةُ عن السلَفِ رحمهم اللهُ تعالى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٧).

وقال السمعاني: (قال الحسَنُ البَصريُّ ومُجاهِدٌ وجماعةٌ: هذا في الدُّنيا. ومعناه: تَبديلُ الكُفرِ بالإيمانِ، والشِّركِ بالإخلاصِ، والمَعصيةِ بالطَّاعةِ. وقال سعيدُ بنُ المُسيِّبِ وجماعةٌ: هذا في الآخرةِ، واللهُ تعالى يُبدِّلُ سَيِّئاتِ التَّائبِ بالحَسناتِ في صحيفتِه. وقد ورد في القولِ الثاني خبرٌ صحيحٌ ... عن أبي ذَرٍّ، أن النبيَّ قال: «يؤتَى بالمؤمِنِ يومَ القيامة فيُعرَضُ عليه صِغارُ ذنوبِه، ويخبَأُ عنه كِبارُها، فيُسألُ ويعترِفُ وهو مشفِقٌ من الكبائرِ، فيقولُ الله تعالى: أعطوه مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حَسنةً، فيقولُ: يا ربِّ، إنَّ لي ذنوبًا ولا أراها هاهنا؟ فضَحِك رسولُ الله حتى بدت نَواجِذُه». أخرجه مسلم في صحيحه. وعن أبي هريرة أنه قال: يُعطى المؤمِنُ صَحيفتَه يومَ القيامةِ، فيَقرأُ بَعضَها وإذا هي سيِّئاتٌ، فإذا وصَل إلى الحَسَناتِ ينظُرُ نظرةً فيما قبْلَها، فإذا هي كلُّها صارت حسناتٍ. وقد أنكر جماعةٌ مِن المتقدِّمينَ أن تنقَلِبَ السيِّئةُ حسنةً، منهم الحسنُ البصريُّ وغيرُه، وإذا ثبت الخبَرُ عن النبيِّ لم يَبْقَ لأحدٍ كلامٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤).

وقال ابن القيم: (فهذا حديثٌ صحيحٌ، ولكِنْ في الاستدلالِ به على صِحَّةِ هذا القول نظَرٌ؛ فإنَّ هذا قد عُذِّب بسيِّئاتِه ودخَل بها النارَ، ثمَّ بعْدَ ذلك أُخرِجَ منها، وأُعطِيَ مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً، صَدقةً تصَدَّقَ الله بها عليه ابتِداءً بعددِ ذنوبِه، وليس في هذا تبديلُ تلك الذنوبِ بحسناتٍ؛ إذ لو كان كذلك لَما عوقِب عليها كما لم يعاقَبِ التائِبُ، والكلامُ إنَّما هو في تائبٍ أُثبِتَ له مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةٌ، فزادت حسناتُه، فأين في هذا الحديثِ ما يدُلُّ على ذلك؟

والناسُ استقبَلوا هذا الحديثَ مستدِلِّينَ به في تفسيرِ هذه الآيةِ على هذا القولِ، وقد عَلِمتَ ما فيه، لكنْ للسَّلَفِ غَورٌ ودِقَّةُ فَهمٍ لا يُدرِكُها كثيرٌ مِن المتأخِّرينَ. فالاستدلالُ به صحيحٌ بعْدَ تمهيدِ قاعدةٍ إذا عُرِفت عُرِف لُطفُ الاستدلالِ به ودِقَّتُه، وهي أنَّ الذنبَ لا بدَّ له مِن أثرٍ، وأثرُه يرتفِعُ بالتوبة تارةً، وبالحسناتِ الماحيةِ تارةً، وبالمصائبِ المكفِّرةِ تارةً، وبدخولِ النَّارِ ليتخلَّصَ مِن أثرِه تارةً، وكذلك إذا اشتَدَّ أثَرُه، ولم تَقْوَ تلك الأمورُ على مَحوِه، فلا بدَّ إذنْ مِن دخولِ النارِ؛ لأنَّ الجنةَ لا يكونُ فيها ذرَّةٌ مِن الخبيثِ، ولا يدخلُها إلَّا مَن طاب مِن كلِّ وجهٍ، فإذا بقِيَ عليه شيءٌ مِن خَبَثِ الذُّنوبِ أُدخِلَ كِيرَ الامتحانِ؛ ليَخلُصَ ذهَبُ إيمانِه مِن خَبَثِه، فيصلُحَ حينَئذٍ لدارِ المَلِكِ.

إذا عُلِمَ هذا فزوالُ موجِبِ الذنبِ وأثرِه تارةً يكونُ بالتوبةِ النصوحِ، وهي أقوى الأسبابِ، وتارةً يكونُ باستيفاءِ الحقِّ منه وتطهيرِه في النارِ، فإذا تطهَّر بالنارِ وزال أثرُ الوسَخِ والخَبَثِ عنه، =

= أُعطِيَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فإذا تطهَّر بالتوبةِ النصوحِ وزال عنه بها أثَرُ وسَخِ الذنوبِ وخَبَثِها، كان أَوْلى بأن يُعطى مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً؛ لأنَّ إزالةَ التوبةِ لهذا الوسخِ والخبَثِ أعظمُ من إزالةِ النارِ، وأحَبُّ إلى الله، وإزالةُ النَّارِ بَدَلٌ منها، وهي الأصلُ؛ فهي أَولى بالتبديلِ ممَّا بعْدَ الدخولِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٠، ٣١١).

وممَّن اختار أنَّ التَّبديلَ في الدُّنيا، وأنَّ المعنى: فأولئك يبَدِّلُ اللهُ سيِّئاتِهم حَسَناتٍ، بنَقلِهم عمَّا يَسخَطُه اللهُ مِن الأعمالِ إلى ما يَرضى، ويكونُ ذلك سببًا لِرَحمتِهم: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، السمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ البصريُّ في روايةٍ، وعطاءُ بن أبي رباح، وقتادةُ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٠).

قال البغوي: (ذهَب جماعةٌ إلى أنَّ هذا التَّبديلَ في الدُّنيا. قال ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحَسَنُ، ومجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، والضحَّاكُ: يُبدِّلُهم اللهُ بقبائِحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ؛ فيُبَدِّلُهم بالشِّركِ إيمانًا، وبقَتلِ المؤمِنينَ قَتلَ المُشرِكينَ، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا. وقال قومٌ: يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم التي عَمِلوها في الإسلامِ حَسَناتٍ يومَ القيامةِ. وهو قَولُ سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، ومَكحولٍ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٨).

وقال ابنُ القيم: (وأصلُ القولَينِ أنَّ هذا التبديلَ هل هو في الدنيا أو يومَ القيامةِ؟ فمَن قال: إنَّه في الدُّنيا؛ قال: هو تبديلُ الأعمال القبيحةِ والإراداتِ الفاسدةِ بأضْدادِها، وهي حَسَناتٌ، وهذا تبديلٌ حقيقةً ... الصوابُ إن شاء الله في هذه المسألةِ أن يُقال: لا ريبَ أنَّ الذنْبَ نفْسَه لا ينقلِبُ حَسنةً، والحسنةُ إنَّما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضي ثوابًا؛ ولهذا كان تاركُ المنهيَّاتِ إنَّما يُثابُ على كفِّ نفْسِه وحَبْسِها عن مُواقَعةِ المنهيِّ، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ، وهو متعلَّقُ الثَّوابِ ... وإذا كانت الحسَنةُ لا بدَّ أن تكونَ أمرًا وجوديًّا فالتَّائِبُ مِن الذُّنوبِ التي عَمِلها قد قارَن كلَّ ذَنبٍ منها ندمًا عليه، وكفَّ نفْسَه عنه، وعَزَم على تركِ معاودتِه، وهذه حَسَناتٌ بلا ريبٍ، وقد محَتِ التوبةُ أثَرَ الذَّنبِ، وخَلَفَه هذا النَّدمُ والعزمُ، وهو حسنةٌ قد بَدَّلت تلك السيِّئةَ حَسنةً... فإذا كانت كلُّ سيئةٍ مِن سيِّئاتِه قد تاب منها فتوبتُه منها حسَنةٌ حَلَّت مكانَها، فهذا معنى التَّبديلِ، =

= لا أنَّ السيِّئةَ نفْسَها تنقلِبُ حسنةً. وقال بعضُ المفَسِّرينَ في هذه الآيةِ: يُعطيهم بالنَّدَمِ على كلِّ سيِّئةٍ أساؤوها حسنةً، وعلى هذا فقد زال -بحمدِ الله- الإشكالُ، واتَّضَح الصَّوابُ، وظهَر أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الطائفتَينِ ما خرجت عن موجبِ العلمِ والحُجَّةِ. وأمَّا حديثُ أبي ذَرٍّ -وإن كان التبديلُ فيه في حَقِّ المُصِرِّ الذي عُذِّب على سيِّئاته- فهو يدُلُّ بطَريقِ الأَولى على حصولِ التبديلِ للتائبِ المقلِعِ النادِمِ على سيئاتِه؛ فإنَّ الذُّنوبَ التي عُذِّب عليها المصِرُّ لَمَّا زال أثرُها بالعقوبةِ بَقِيَت كأنْ لم تَكُنْ، فأعطاه الله مكانَ كُلِّ سيئةٍ منها حسَنةً؛ لأنَّ ما حصَل له يومَ القيامةِ مِن النَّدَمِ المُفرِطِ عليها مع العُقوبةِ، اقتضى زوالَ أثرِها وتبديلَها حَسَناتٍ، فإنَّ النَّدَمَ لم يكُنْ في وقتٍ ينفَعُه، فلمَّا عوقِبَ عليها وزال أثَرُها بدَّلها اللهُ له حسناتٍ، فزوالُ أثَرِها بالتَّوبةِ النصوحِ أعظَمُ من زوالِ أثَرِها بالعُقوبةِ، فإذا بُدِّلت بعْدَ زوالِها بالعقوبةِ حَسَناتٍ فلأنْ تُبَدَّلَ بعْدَ زوالِها بالتَّوبةِ حَسَناتٍ أولى وأحرى). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٢٤٥-٢٥٠). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٠ - ٣١٢).

وممَّن جمَع بيْن القولينِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٦).

قال السعدي: (تتبدَّلُ أفعالُهم وأقوالُهم التي كانت مُستَعِدَّةً لعملِ السيِّئاتِ، تتبدَّلُ حَسَناتٍ، فيتبدَّلُ شِركُهم إيمانًا، ومعصيتُهم طاعةً، وتتبدَّلُ نفْسُ السيِّئاتِ التي عمِلوها ثمَّ أحدَثوا عن كلِّ ذنْبٍ منها توبةً وإنابةً وطاعةً، تُبدَّلُ حسناتٍ كما هو ظاهِرُ الآيةِ، وورد في ذلك حديثُ الرجُلِ الذي حاسبه اللهُ ببعضِ ذنوبِه فعدَّدها عليه، ثم أُبدِلَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فقال: يا ربِّ، إنَّ لي سيئاتٍ لا أراها هاهنا. واللهُ أعلمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (التبديل: جَعْلُ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ، وهذا التبديلُ هل هو تبديلٌ قَدَريٌّ أو تبديلٌ جزائيٌّ؟

اختلَف في ذلك أهلُ العِلمِ؛ فمِنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ، ومنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ جزائيٌّ، كيف ذلك؟ الذين يقولون: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ يقولون: إنَّ معنى تبديلِ السَّيِّئاتِ حَسَناتٍ أنَّه لَمَّا آمَن وعَمِل عمَلًا صالحًا صار بدَلَ الشِّركِ إيمانٌ، وصار بدَلَ الزنا وقَتلِ النَّفسِ عمَلٌ صالحٌ، معناه: أنَّ هذا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ صار بدلًا عن الكُفرِ والزِّنا وقَتلِ النَّفسِ، فالمعنى أنَّ إيمانَه وعمَلَه الصَّالحَ الذي فعَلَه هو الحَسَناتُ التي أبدَل اللهُ السيِّئاتِ بها؛ فيكونُ هذا التبديلُ قدَريًّا.

وقيل: بل هو جزائيٌّ، بمعنى أن هذه المعاصيَ نفْسَها تكونُ حَسَناتٍ، يُبدِّلُ الله السيِّئاتِ السابقةَ يجعَلُها حسَناتٍ، بالإضافةِ إلى حَسَناتِه الأخيرةِ التي قُدِّرت له ففعَلَها، وكيف ذلك؟ يقولون: =

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ آخِرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها: رجُلٌ يؤتَى به يومَ القيامةِ، فيُقالُ: اعرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِه، وارفَعوا عنه كِبارَها، فتُعرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِه، فيُقال: عَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعَمْ، لا يَستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مُشفِقٌ مِن كِبارِ ذُنوبِه أن تُعرَضَ عليه، فيُقالُ له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سَيِّئةٍ حَسَنةً، فيقولُ: ربِّ، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا! فلقد رأيتُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ضَحِك حتى بَدَت نَواجِذُه))[١].

وعن أبي طويلٍ شَطبٍ الممدودِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه أتى رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ((أرأيتَ رجُلًا عَمِلَ الذُّنوبَ كُلَّها، فلم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترُكْ حاجَةً ولا داجَةً[٢] إلَّا أتاها، فهل له مِن توبةٍ؟ قال: فهل أسلَمْتَ؟ قال: أمَّا أنا فأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّك رَسولُ الله، قال: نعَمْ، تفعَلُ الخَيراتِ، وتَترُكُ السَّيِّئاتِ، فيَجعَلُهنَّ اللهُ لك خيراتٍ كُلَّهنَّ، قال: وغَدَراتي وفَجَراتي؟! قال: نعَمْ، قال: الله أكبَرُ! فما زال يُكبِّر حتى

= لأنَّ هذه السَّيِّئاتِ لَمَّا تاب منها صار له بكلِّ توبةٍ مِن هذه السَّيِّئاتِ حَسَنةٌ، فأُبدِلت السَّيِّئاتُ حَسَناتٍ بالتوبةِ منها، ولأنَّه كلَّما تذكَّر ما سبَق مِن أعمالِه السَّيِّئةِ أحدَثَ لها توبةً؛ فصارت هذه الأعمالُ السابقةُ حسناتٍ بالتوبةِ منها. والصحيحُ شُمولُ الآيةِ لهذا ولهذا، وأنَّ الآيةَ شاملةٌ للأمرينِ؛ فإنَّ مَن تاب وآمَن وعَمِل عملًا صالحًا تبدَّلت سيئاتُه السابقةُ فصارت حسناتٍ، لكنَّها ليست هي الأُولى نفْسَها، وكذلك إذا تاب منها جُوزِيَ على هذه التوبةِ بالثَّوابِ؛ فصارت السَّيِّئاتُ بالتَّوبةِ منها حَسَناتٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٥، ٣٠٦).

(١) رواه مسلم (١٩٠).

(٢) حاجَةً ولا داجَةً: أي: ما تَركْتُ شَيئًا دعَتْني إليه نَفْسي إلَّا رَكِبْتُه مِن الذُّنوبِ. وداجةً: في هذا الموضِع: إتْباعٌ. وقيل: الدَّاجَةُ: ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له، أي: قد قَضَيتُ الحوائجَ التي لها مَوقِعٌ مِن قلبي، وقَضَيتُ ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٤١٠)، ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) للأنباري (٢/ ٢٢٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٠٦).

تواري))(١).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: ولم يَزَلِ اللهُ يسترُ ذُنوبَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها ويَرحَمُهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أفادتِ الآيةُ السابقةُ أنَّ التوبةَ تمحو السيِّئاتِ، جاءتْ هذه الآيةُ إثرَها تُبَيِّنُ ما لأهلِها مِن جزيلِ الإنعاماتِ، وعظيمِ الدرجاتِ(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢٧١٨)، والبزَّار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (١/ ٣٦)، والطبراني (٧/ ٣١٤) (٧٢٣٥).

جوَّد إسنادَه وقوَّاه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ١٢٨)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٤٤): حسنٌ صحيحٌ غريب. وصحَّحه الألباني في ((الترغيب والترهيب)) (٣١٦٤).

قال ابن حَجر: (قال البغويُّ: أظنُّ أنَّ الصوابَ عن عبد الرحمن بن جُبَيرٍ أنَّ رجُلًا أتىَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم طويلًا شَطبًا، والشَّطبُ يعني في اللغة: الممدودَ، يعني: فظنَّه الراوي اسمًا، فقال فيه: عن شَطبٍ أبي طويلٍ). ((الإصابة في تمييز الصحابة)) (٣/ ٢٨٣). ويُنظر: ((معجم الصحابة)) للبغوي (٣/ ٣٢٣)، ((الاستيعاب)) لابن عبد البر (٢/ ٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وقال السعدي: (﴿رَّحِيمًا﴾ بعبادِه؛ حيثُ دعاهم إلى التوبةِ بعْدَ مبارزتِه بالعظائمِ، ثم وفَّقهم لها، ثم قَبِلها منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٨).

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: ومَن تاب إلى اللهِ وعَمِلَ بعْدَ تَوبتِه الأعمالَ الصَّالحةَ، فإنَّه يَرجِعُ إلى اللهِ رُجوعًا صَحيحًا حَسَنًا، مَقبولًا مَرضِيًّا[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مَن راضَ نفْسَه على الطاعةِ، ودانتْ نفْسُه بالإخباتِ والانقيادِ للأوامرِ الشرعيَّةِ؛ ضَعُفَتْ منه أو زالتْ دواعي الشَّرِّ والفسادِ؛ فانكفَّ عنِ المعصيةِ، لذا قدَّم الله تعالى إثباتَ الطاعاتِ في قولِه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ ... ﴾ على انتفاءِ المعاصي في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ ... ﴾؛ تنبيهًا على ذلك، ومِن هنا نعلَمُ أنَّ على المسلمِ الذي يعملُ لتزكيةِ نفْسِه أن يُواظِبَ على الطاعاتِ بأنواعِها، وأن يجتهِدَ في حصولِ الأُنسِ بها، والخشوعِ فيها؛ فإنَّ ذلك -زيادةً على ما يثبِّتُ فيه مِن أصولِ الخَيرِ- يَقلَعُ منه أصولَ الشَّرِّ، ويُميتُ منه بواعثَه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ يُذَكِّرُنا القرآنُ بمضاعَفةِ العذابِ على كبائرِ الآثامِ؛ لِنَذكُرَ عندما تُحدِّثُنا أنفُسُنا بالمعصيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٩).

سوءَ عاقبتِها، وتَعَدُّدَ شرورِها، وتَشَعُّبَ مفاسِدِها، ومُضاعَفةَ العذابِ بحسَبِ ذلك عليها؛ لِنَزدجِرَ ونَنكَفَّ، فنَسلَمَ مِن الشَّرِّ المتراكمِ، والعذابِ المضاعَفِ، ونفوزَ بأجرِ التذكُّرِ، وثمرةِ التذكيرِ(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أي: فلْيعلَمْ أنَّ توبتَه في غايةِ الكمالِ؛ لأنَّها رجوعٌ إلى الطريقِ الموصِلِ إلى اللهِ الذي هو عينُ سعادةِ العبدِ وفلاحِه؛ فلْيُخلِصْ فيها، ولْيُخَلِّصْها مِن شوائبِ الأغراضِ الفاسدةِ، فالمقصودُ مِن هذا الحَثِّ على تكميلِ التوبةِ، وإيقاعُها على أفضلِ الوجوهِ وأَجَلِّها؛ لِيَقدَمَ على مَن تاب إليه فيوفِّيَه أجرَه بحسَبِ كمالِها(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ دعا اللهُ بهذا عبادَه المذنِبينَ حتى لا يَتَسَرَّبَ القنوطُ إلى قلوبِهم -وهو مُحَرَّمٌ عليهم- ولا يَحُولَ بيْنَهم وبيْنَ خالقِهم ذنْبٌ وإنْ عَظُمَ، ورغَّبَهم في التَوبةِ بأنَّها رجوعٌ إليه وكفَى، وأنَّ الرجوعَ إليه فيه مِن الخَيرِ والشرفِ فوقَ ما تُصَوِّرُه الألفاظُ، فما أحلَمَه مِن ربٍّ كريمٍ، وما أرحمَه بعبادِه المذنِبين! فهذا داعي اللهِ فأجيبوه، وهذا بابُ اللهِ فَلِجُوه؛ فإنَّكم مهما رجعتُم إليه لا تُطرَدوا، ومهما قصَدتُم إليه تُقبَلوا وتُكْرَموا(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قامتِ الشَّريعةُ على المحافظةِ على حقوقِ اللهِ وحقوقِ عبادِه، وحَقُّ اللهِ على عبادِه أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، فمَن دعا مع اللهِ غيرَه، وأشركَ به سِواه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩).

فقد أبطَلَ حقَّ اللهِ، وأعدمَ عبادتَه، ومَن قتَلَ النَّفْسَ فقد تعدَّى على أولِ حقٍّ جَعَلَه اللهُ لعبادِه بفضلِه -وهو حقُّ الوجودِ- وعَمِلَ على إبطالِ وجودِهم، وفناءِ نوعِهم، وزوالِ عبادتِهم؛ فلهذا قُرِنَ قَتلُ النَّفسِ بدعاءِ غيرِ اللهِ معه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ هذه أكبَرُ الكبائرِ، وأعظَمُها ضَررًا، وأشَدُّها فسادًا للعالَمِ، وإذا تأمَّلَ العاقِلُ فَسادَ الوجودِ رآه مِن هذه الجِهاتِ الثَّلاثِ[٢]، وهي: الكفرُ، ثم قتلُ النفْسِ بغَيرِ الحقِّ، ثمَّ الزنا، كما رتَّبها الله[٣]؛ فالشِّركُ فيه فَسادُ الأديانِ، والقَتلُ فيه فَسادُ الأبدانِ، والزِّنا فيه فَسادُ الأعراضِ[٤].

٣- أصولُ المعاصي كلِّها؛ كبارِها وصغارِها، ثلاثةٌ: تعلُّقُ القلبِ بغيرِ الله، وطاعةُ القوَّةِ الغضبيَّةِ، والقوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، وهي: الشِّركُ، والظُّلْمُ، والفواحِشُ؛ فغايةُ التعلُّقِ بغيرِ الله شِركٌ، وأن يُدعَى معه إلهٌ آخَرُ، وغايةُ طاعةِ القوَّةِ الغضبيَّةِ القَتلُ، وغايةُ القوةِ الشهوانيَّةِ الزِّنا؛ ولهذا جمَع الله سُبحانَه بينَ الثلاثةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾، وهذه الثلاثةُ يدعو بعضُها إلى بعضٍ؛ فالشركُ يدعو إلى الظُّلمِ والفواحشِ، كما أنَّ الإخلاصَ والتوحيدَ يَصرِفُهما عن صاحبِه؛ قال تعالى: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالسوءُ: العِشقُ، والفحشاءُ: الزِّنا، وكذلك الظُّلمُ يدعو إلى الشركِ والفاحشةِ؛ فإنَّ الشِّركَ أظلَمُ الظُّلمِ، كما أنَّ أعدلَ العدلِ التوحيدُ؛ فالعدلُ قرينُ التوحيدِ، والظلمُ قرينُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

الشركِ؛ ولهذا يجمع سُبحانَه بيْنهما: أمَّا الأولُ، ففي قولِه تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأما الثاني فكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والفاحشةُ تدعو إلى الشِّركِ والظُّلمِ، ولا سيَّما إذا قَوِيت إرادتُها ولم تحصُلْ إلا بنوعٍ مِن الظُّلمِ والاستعانةِ بالسِّحرِ والشيطانِ، وقد جمَع سُبحانَه بينَ الزنا والشِّركِ في قَولِه تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، فهذه الثلاثةُ يجُرُّ بعضُها إلى بعضٍ، ويأمُرُ بعضُها ببعضٍ؛ ولهذا كلَّما كان القلبُ أضعَفَ توحيدًا وأعظَمَ شِركًا، كان أكثَرَ فاحشةً، وأعظَمَ تعلُّقًا بالصُّوَرِ وعِشقًا لها(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّه ليس بعْدَ الكُفرِ أعظَمُ مِن قَتلِ النَّفسِ بغيرِ الحَقِّ، ثمَّ الزِّنا؛ ولهذا ثَبَت في حَدِّ الزِّنا القَتلُ لِمَن كان مُحصَنًا، أو أقصَى الجَلدِ لِمن كان غيرَ مُحصَنٍ(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ مضاعفةُ العذابِ: أن يُعَذَّبَ على كلِّ جُرْمٍ ممَّا ذُكِرَ عذابًا مُناسبًا؛ ولا يُكتفَى بالعذابِ الأكبرِ عن أكبرِ الجرائمِ، وهو الشِّركُ؛ تنبيهًا على أنَّ الشِّركَ لا يُنجي صاحبَه مِن تَبِعةِ ما يَقترفُه مِن الجرائمِ والمفاسدِ؛ وذلك لأنَّ دعوةَ الإسلامِ للناسِ جاءتْ بالإقلاعِ عن الشركِ وعن المفاسدِ كلِّها، وهذا معنى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفارَ مخاطَبون

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٦).

بفروعِ الشريعةِ، يَعنون خطابَ المؤاخَذةِ على ما نُهوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنهم يُطْلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصالحاتُ بدونِ الإيمانِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ تمحو آثامَ كلِّ ذنبٍ مِن هذه الذُّنوبِ المعدودةِ، ومنها قتلُ النَّفْسِ بدونِ حقٍّ، وهو المعروفُ مِن عُموماتِ الكتابِ والسُّنَّةِ(٢)، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على صحَّةِ توبةِ القاتلِ، ولا تعارُضَ بينَ هذه وبينَ آيةِ (النساء): ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؛ فإنَّ هذه وإن كانت مدَنيَّةً إلَّا أنَّها مطلقةٌ، فتُحمَلُ على مَن لم يتُبْ؛ لأنَّ هذه مقيدةٌ بالتوبةِ، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وقد ثبَتت السنَّةُ الصحيحةُ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بصحَّةِ توبةِ القاتلِ(٣)، فالقاتِلُ إذا تاب لا يستحِقُّ الوعيدَ بنَصِّ القُرآنِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٦).

قال ابن تيميَّة: (قاتِلُ النَّفسِ بغير حقٍّ عليه حقَّان: حقٌّ لله بكَونِه تعدَّى حدودَ الله، وانتهَك حُرُماتِه. فهذا الذنبُ يغفرُه الله بالتوبةِ الصحيحةِ. والحقُّ الثاني: حقُّ الآدميِّينَ، فعلى القاتلِ أن يُعطيَ أولياءَ المقتولِ حقَّهم، فيُمكِّنَهم مِن القِصاصِ، أو يصالحَهم بمالٍ، أو يطلُبَ منهم العفوَ، فإذا فعَل ذلك فقد أدَّى ما عليه مِن حقِّهم، وذلك مِن تمامِ التوبةِ.

وهل يبقَى للمَقتولِ عليه حقٌّ يطالبُه به يومَ القيامةِ؟ على قولينِ للعُلَماءِ في مذهبِ أحمدَ وغَيرِه، ومَن قال: يبقَى له فإنَّه يستكثرُ القاتِلُ مِن الحَسَناتِ حتى يعطيَ المقتولَ مِن حَسَناتِه بقَدْرِ حقِّه، ويبقَى له ما يبقَى، فإذا استكثرَ القاتِلُ التائبُ مِن الحسناتِ رُجِيَت له رحمةُ الله، وأنجاه مِن النَّارِ). ((الفتاوى الكبرى)) (٣/ ٤٠٧، ٤٠٨). =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المنتَقِلَ مِن الضَّلالِ إلى الهُدى يُضاعَفُ له الثَّوابُ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ سؤالٌ؛ ما فائدةُ هذا التَّكريرِ مع ما سَبَقَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؟

الجوابُ مِن وجهينِ:

الأولُ: أنَّ هذا ليس بتكريرٍ؛ لأنَّ الأولَ لَمَّا كان في تلك الخصالِ بَيَّنَ تعالى أنَّ جميعَ الذُّنوبِ بمنزلتِها في صِحَّةِ التَّوبةِ منها.

الثاني: أنَّ التَّوبةَ الأُولى رجوعٌ عن الشِّركِ والمعاصي، والتَّوبةَ الثَّانيةَ رُجوعٌ

= وأمَّا ما ورد عن ابنِ عبَّاسٍ، وزَيدِ بنِ ثابتٍ: أنَّ القاتِلَ لا تَوبةَ له، فقد حُمِلَ على التَّغليظِ؛ فقد رُوِيَ عنهما أنَّ له توبةً، أو: أنَّه لا توبة له بالنِّسبةِ لحقِّ المقتولِ؛ فإنَّه لا يمكنُ استحلالُه.

أمَّا إن مات القاتِلُ مِن غيرِ توبةٍ فإنَّه تحتَ مشيئةِ الله تعالى؛ إنْ شاء غَفَر له، وأرضى خَصْمَه، وإنْ شاء عذَّبه على فِعْلِه، ثم يُدخِلُه الجنَّةَ بإيمانِه؛ فضلًا منه ورَحمةً. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٠).

قال القرطبي: (ثمَّ إنَّ الجَمعَ بيْنَ آيةِ «الفُرقانِ» وهذه الآيةِ -أي: قَولِه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]- مُمكِنٌ، فلا نَسْخَ ولا تعارُضَ؛ وذلك أن يُحمَلَ مُطلَقُ آيةِ «النساء» على مُقَيَّدِ آيةِ «الفرقان»، فيكونَ معناه: فجزاؤُه كذا إلَّا مَن تاب، لا سيَّما وقد اتَّحَد المُوجِبُ، وهو القَتلُ، والموجَبُ وهو التوعُّدُ بالعِقابِ. وأمَّا الأخبارُ فكثيرةٌ؛ كحَديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ الذي قال فيه: «تُبايِعوني على ألَّا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تَزْنُوا، ولا تَسرِقوا، ولا تَقتُلوا النَّفْسَ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، فمَن وَفَى منكم فأجرُه على اللهِ، ومَن أصاب شيئًا مِن ذلك فعُوقِبَ به فهو كفَّارةٌ له، ومَن أصاب مِن ذلك شَيئًا فسَتَرَه اللهُ عليه فأمْرُه إلى اللهِ؛ إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عَذَّبَه»). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٠٩).

إلى اللهِ تعالى للجَزاءِ والمكافأةِ، كقَولِه تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، أي: مَرجِعي[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾

- هذا شروعٌ في نفي أُمَّهاتِ المعاصي عنهم بعدَما أثبَت لهم أصولَ الطاعاتِ؛ إظهارًا لكمالِ إيمانِهم، وتنبيهًا على أنَّ الإيمانَ الكاملَ هو ما تثبتُ معه الطاعاتُ، وتنْتَفي المعاصي، وذلك هو غايةُ الامتثالِ للأوامرِ والنَّواهي، وإشعارًا بأنَّ الأجرَ المذكورَ موعودٌ للجامعِ بينَ ذلك، وفيه تعريضٌ بما كان عليه المشركونَ مِن الاتِّصافِ بهذه المعاصي؛ مِن دعائِهم آلهتَهم معَ الله، وقتلِهم النفسَ، وارتكابِهم فاحشةَ الزِّنا. كأنَّه قيل: والذين برَّأهم الله وطهَّرهم ممَّا أنتم عليه، ولذلك عقَّبه بالوعيدِ تهديدًا لهم؛ فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[2].

- والتَّصريحُ بوصفِ عباد الرحمن بنَفيِ الإشراكِ -معَ ظُهورِ إيمانِهم-؛ لإظهارِ كمالِ الاعتِناءِ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ، وتَهويلِ أمْرِ القَتلِ والزِّنا بنَظْمِهما في سِلْكِه[3].

- وقد جُمِع في قولِه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ التَّخلِّي عن هذه الجَرائمِ الثَّلاثِ في صِلَةِ مَوصولٍ واحِدٍ، ولم يُكرِّرِ اسمُ المَوصولِ كما كُرِّر في ذِكرِ خِصالِ تَحلِّيهم؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لَمَّا أَقلَعوا عنِ الشِّركِ، ولمْ يَدْعوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ؛ فقد أَقلَعوا عن أشدِّ القبائحِ لُصوقًا بالشِّركِ، وذلك قَتْلُ النَّفْسِ والزِّنا. فجُعِل ذلك شَبِيهَ خَصلةٍ واحدةٍ، وجُعِل في صِلَةِ مَوصولٍ واحِدٍ. وقد يكونُ تَكريرُ (لا) مُجْزِئًا عن إعادةِ اسمِ المَوصولِ، وكافيًا في الدَّلالةِ على أنَّ كلَّ خَصلةٍ مِن هذه الخِصالِ مُوجِبةٌ لمُضاعَفةِ العذابِ(١).

- قولُه: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وَصْفُ النَّفْسِ بـ ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بيانٌ لحُرمةِ النَّفْسِ الَّتي تَقرَّرَتْ مِن عهْدِ آدَمَ فيما حكَى اللهُ مِن مُحاوَرةِ ولَدَيْ آدَمَ بقَولِه: ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧] الآياتِ، فتَقرَّرَ تحريمُ قتْلِ النَّفْسِ مِن أقدَمِ أزمانِ البَشرِ، ولم يَجْهَلْه أحدٌ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فذلك معنَى وصْفِ النَّفْسِ بالمَوصولِ في قَولِه: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّه وصَف النَّفْسَ بالاسمِ الموصولِ المعروفِ الصِّلةِ؛ لأنَّ تَحريمَ اللهِ لها أمرٌ مَركوزٌ في النُّفوسِ، معروفٌ للبشَرِ بما جاءَهم مِن جَميعِ الشَّرائعِ(٢).

- وكان النَّفيُ للفعلِ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى استمرارِ ذلك النَّفيِ(٣).

- قولُه: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: التي حرَّمَها، بمعنى: حَرَّم قتْلَها، فحُذِف

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠).

المُضافُ، وأُقِيمَ المُضافُ إليه مقامَه؛ مُبالَغةً في التَّحريمِ(١).

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ مِن بَلاغةِ القرآنِ: أنَّه إذا أمَرَ بشَيءٍ ذكَرَ فائدتَه وثمرتَه للعِبادِ في الدَّارينِ، وكذلك إذا نهَى عن شَيءٍ ذكَرَ مضرَّتَه، وسُوءَ عاقبتِه عليهم فيهما؛ فلمَّا ذكَرَ في صدْرِ الآيةِ نفْيَ تلك المعاصي عن عِبادِ الرَّحمنِ الَّذي يُفِيدُ النَّهيَ عنها؛ ذَكَر هذا الوعيدَ؛ لبَيانِ سُوءِ عاقبتِها، وقُبْحِ أثَرِها(٢).

- الإشارةُ بأداةِ البُعدِ في قولِه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: الفعلَ العظيمَ القُبحِ، مع قُربِ المذكوراتِ؛ دلَّ على أنَّ البعدَ في رُتَبِها(٣).

- والتَّنوينُ في قَولِه: ﴿أَثَامًا﴾ للتَّفخيمِ(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾

- قولُه: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تَضعيفُ العذابِ: مُضاعَفتُه؛ لانضِمامِ المعصيةِ إلى الكُفرِ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ مضاعَفةُ العذابِ مُستعمَلةً في معنى قُوَّتِه، أي: يُعَذَّبُ عذابًا شديدًا، وليستْ لتكريرِ عذابٍ مُقدَّرٍ(٥).

- قولُه: ﴿مُهَانًا﴾ حالٌ قُصِد منها تَشنيعُ حالِهم في الآخِرةِ(٦).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ رُوعِيَتِ الحالةُ الأُولى فذُكِرَتِ التَّوبةُ، والثَّانيةُ فذُكِر الإيمانُ، والثَّالثةُ فذُكِر العملُ الصَّالحُ؛ لأنَّ العاصيَ يكونُ في غَمَراتِ مَعصيتِه، فإذا ذكَرَ اللهَ، ووفَّقَه اللهُ، أَسِفَ على حالِه، ورجَعَ إلى ربِّه، وهذه أوَّلُ الدَّرجاتِ في تَوبتِه، فإذا استشعَرَ قلْبُه اليقينَ، واطمأنَّ قلْبُه بذِكْرِ اللهِ؛ صمَّمَ على الإعراضِ عن المعصيةِ، والإقبالِ على الطَّاعةِ، فإذا كان صادقًا في هذا العزمِ، فلا بُدَّ أن يَظهَرَ أثرُ ذلك على عمَلِه[١].

- وعَطْفُ ﴿وَءَامَنَ﴾ على ﴿مَن تَابَ﴾؛ للتَّنويهِ بالإيمانِ، ولِيُبْنَى عليه قَولُه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وهو شرائعُ الإسلامِ؛ تحريضًا على الصَّالحاتِ، وإيماءً إلى أنَّها لا يُعتَدُّ بها إلَّا مع الإيمانِ، كما قال تعالى في سورة (البلد): ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البلد: ١٧]، وقال في عكسِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[٢] [النور: ٣٩].

- وقولُه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فيه ذِكرُ المَوصوفِ مع جرَيانِ الصَّالحِ والصَّالحاتِ مَجرَى الاسمِ؛ للاعتِناءِ والتَّنصيصِ على مُغايَرتِه للأعمالِ السَّابقةِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وقال في سورةِ (طه): ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [طه: ٨٢]؛ وذلك لأنَّه في سُورةِ (طه)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

أَوْجَزَ في ذِكرِ المعاصي فأَوجَزَ في التَّوبةِ، وأطالَ في الفُرقانِ فأطالَ في التَّوبةِ[١].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ...﴾ كلامٌ مَسوقٌ لبيانِ فضْلِ التَّوبةِ المَذكورةِ، واسمُ الإشارةِ أفادَ التَّنبيهَ على أنَّهم أَحْرياءُ بما أَخبَرَ عنهم به بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما ذُكِر مِنَ الأوصافِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢]. واسمُ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ (مَن)، والجَمعُ باعتِبارِ معناه، كما أنَّ الإفراد في الأفعالِ الثَّلاثةِ -(تَابَ)، و(آمَنَ)، و(عَمِلَ)- باعتِبارِ لفْظِه[٣].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ ...﴾ ذكَر الاسمَ الأعظمَ؛ تعظيمًا للأمرِ، وإشارةً إلى أنَّه سبحانَه لا منازِعَ له[٤].

- ولم تَتعرَّضِ الآيةُ لمِقدارِ الثَّوابِ، وهو مَوكولٌ إلى فضلِ اللهِ؛ ولذلك عَقَّبَ هذا بقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ المُقتضِي أنَّه عظيمُ المغفرةِ[٥].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه مِنَ المَحوِ والإثباتِ[٦].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ تعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ[٧]؛ فهو تَذْييلٌ لِما قبْلَه[٨].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٨) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٥).

- والتَّوكيدُ بـ (إنَّ)؛ لتَحقيقِ مَضمونِ الخبرِ[١].

- وقد وقَعَ الإخبارُ عنِ التَّائبِ بأنَّه تائبٌ؛ إذِ المَتابُ مَصدرٌ مِيميٌّ بمعنَى التَّوبةِ، فيَتعيَّنُ أن يُصرَفَ إلى معنًى مُفيدٍ، فيَجوزُ أن يكونَ المُقصودُ هو قَولَه: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾؛ فيكونَ كِنايةً عن عظيمِ ثَوابِه. ويَجوزُ أن يكونَ المقصودُ ما في المضارعِ مِنَ الدَّلالةِ على التَّجدُّدِ، أي: فإنَّه يَستمِرُّ على تَوبتِه، ولا يَرتَدُّ على عَقِبَيْه؛ فيكونَ وعْدًا مِنَ اللهِ تعالى أن يُثبِّتَه على القَولِ الثَّابتِ إذا كان قد تابَ وأيَّدَ تَوبتَه بالعملِ الصَّالحِ. ويَجوزُ أن يكونَ المقصودُ ما للمفعولِ المُطلَقِ مِن معنَى التَّأكيدِ، أي: مَن تاب وعمِلَ صالحًا فإنَّ تَوبتَه هي التَّوبةُ الكاملةُ الخالِصةُ للهِ[٢].

- وخالَفَ جوابُ الشَّرطِ -وهو ﴿يَتُوبُ﴾- فِعلَ الشَّرطِ -وهو ﴿تَابَ﴾- بمُتعلَّقِه -وهو ﴿إِلَى اللَّهِ﴾- ومَعمولِه -وهو ﴿مَتَابًا﴾-، وعُبِّرَ بالمُضارعِ في الجوابِ؛ لِيُفيدَ التَّجدُّدَ باعتِبارِ تجدُّدِ المَثوباتِ للرَّاجعينَ إلى اللهِ[٣].

- وتَنوينُ ﴿مَتَابًا﴾ تَنوينُ تَفخيمٍ وتَعظيمٍ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٧، ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٢-٧٧)

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْغُرْفَةَ﴾: أي: الدَّرَجةَ الرَّفيعةَ في الجنَّةِ، والغرفةُ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ، وأصلُ (غرف): يدُلُّ على رَفعِ الشَّيءِ[1].

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: أي: ما تَقَرُّ به أعْيُنُنا، قيل: أصلُه مِن القُرِّ، أي: البَردِ، فقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ الله عينَه، أي: أنامَها[2].

﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾: أي: يُستقبَلونَ، وتَتَلَقَّاهُم الملائكةُ، يُقال: تَلَقَّاهُ كذا، أي: لَقِيَه، ولَقِيتُه بكذا: إذا استَقْبلتَه به، وأصلُ (لقي) هنا يدُلُّ على المُلاقاةِ، وتوافِي شيئَيْنِ متقابلَيْنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، =

﴿يَعْبَؤُا﴾: أي: يُبالي، وأصلُ (عبأ): يدُلُّ على اجتِماعٍ في ثِقَلٍ[1].

﴿لِزَامًا﴾: أي: مُلازِمًا، وقيل: جَزاءً، وقيل: هلاكًا، وأصلُ (لزم): يدُلُّ على مُصاحبةِ الشَّيءِ للشَّيءِ دائِمًا[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن صِفةِ عِبادِ الرَّحمنِ أيضًا أنَّهم لا يَحضُرونَ مواضِعَ الباطِلِ، وإذا مرُّوا باللَّغْوِ -مِن غيرِ قَصدٍ منهم- أعرَضوا عنه؛ وهم الذين إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم لم يُعرِضوا عنها صامِّينَ آذانَهم وعامِينَ عنها، والذين يَدْعونَ رَبَّهم: ربَّنا هَبْ لنا مِن أزواجِنا وذرِّيَّاتِنا ما تَقَرُّ به أعيُنُنا برؤيتِهم على طاعتِك في الدُّنيا، وبدُخولِ جَنَّتِك في الآخرةِ، واجعَلْنا قُدوةً في الخَيرِ للمُتَّقينَ مِن عبادِك؛ فهؤلاء المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يَجزيهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجِنانِ بسَبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا، ويُستقبَلون بالتحيَّةِ والسَّلامِ، ماكثينَ في تلك الغُرَفِ أبدًا، حَسُنَت لهم قرارًا ومُقامًا.

قُلْ -يا محمَّدُ: لولا دعاؤُكم اللهَ تعالى لَما اكترَث بكم، فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكون- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم.

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٥).

(١) ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٦) (ص: ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٦)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

عَقَّبَ سُبحانه ترْكَهم الزِّنا بالإعراضِ أصلًا عن اللَّغوِ الذي هو أعظَمُ مقدِّماتِ الزِّنا[1].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَهم سُبحانه بالصِّفاتِ المتقَدِّمةِ الدالَّةِ كلِّها على كَمالِ أخلاقِهم، واستقامةِ أعمالِهم في ظواهرِهم وبواطِنِهم بانبِنائِها على قوَّةِ إيمانِهم، وصحَّةِ عِلْمِهم؛ فكانوا أهلَ الحقِّ المتَّصِفين به في عِلْمِهم وعَمَلِهم، القائمينَ عليه في جميعِ أحوالهِم- وَصَفَهم هنا ببُعدِهم عن الباطلِ ومَشاهِدِه، ومجانبتِهم لأهلِه[2].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه وتعالى عبادَه بأنهم تَحَلَّوا بأصولِ الفضائلِ، وتَخَلَّوا عن أمَّهاتِ الرَّذائلِ، ورَغَّبَ في التَّوبةِ؛ لأنَّ الإنسانَ لِعَجزِه لا يَنفَكُّ عن النَّقصِ- مَدَحَهم بصفةٍ أخرى، وهي الصفةُ المذكورةُ في قَولِه تعالى[3]:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾.

أي: والذين لا يَحضُرون شَيئًا مِن الباطِلِ، ويجتنبونَ جميعَ المجالِسِ المشتمِلةِ على أقوالٍ أو أفعالٍ محرَّمةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤٧٩ - ٤٨٣)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٢٤٤، =

= ١٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابن عاشور: (فِعلُ «شَهِد» يُستعملُ بمعنى «حضَر»، وهو أصلُ إطلاقِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويُستعملُ بمعنَى: أخبَر عن شَيءٍ شَهِدَه وعَلِمَه؛ كقولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]. والزُّورُ: الباطلُ مِن قَولٍ أو فعلٍ، وقد غلَب على الكذبِ... فيَجوزُ أن يكونَ معنَى الآيةِ: أنَّهم لا يَحضُرونَ مَحاضرَ الباطلِ الَّتي كان يَحضُرُها المشركون، وهي مَجالسُ اللَّهوِ والغِناءِ والغِيبةِ ونَحوِها، وكذلك أعيادُ المشركين وألعابُهم؛ فيكونَ الزُّورُ مفعولًا به لـ﴿يَشْهَدُونَ﴾. وهذا ثَناءٌ على المؤمنينَ بمُقاطَعةِ المشركينَ وتجنُّبِهم... ويجوزُ أن يكونَ فِعلُ ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنَى الإخبارِ عمَّا عَلِموه، ويكونَ الزُّورُ منصوبًا على نزعِ الخافضِ، أي: لا يَشهَدون بالزُّورِ، أو مفعولًا مُطلقًا لبيانِ نوعِ الشَّهادةِ، أي: لا يَشهدون شهادةً هي زُورٌ لا حقٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨، ٧٩).

وقال ابن الفَرَس: (الزُّورُ: كلُّ الباطلِ، فأعظَمُه: الشِّركُ، وبه فسَّرَ الضحَّاكُ وابنُ زَيدٍ. ومنه: الغِناءُ، وبه فسَّر مجاهِدٌ. ومنه: الكذِبُ، وبه فسَّر ابنُ جُرَيجٍ. و﴿يَشْهَدُونَ﴾ على القولينِ الأوَّلينِ مِنَ المُشاهَدةِ، وعلى القولِ الثالثِ مِنَ الشَّهادةِ لا مِن المشاهَدةِ، فالمُرادُ: الشَّهادةُ بالزُّورِ، وهو قولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وغيرِه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٠). ويُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الشِّركُ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ أبي زمنين، والسمعانيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٩).

ونسَبَ الواحديُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٦/ ٦٠١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الكذِبُ: أي: لا يَشهدون بالزُّورِ أو شهادةَ الزُّورِ: ابنُ جُزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٢).

قال ابن تيميَّةَ: (قال قومٌ: إنَّ المُرادَ: شَهادةُ الزُّورِ الَّتي هي الكذبُ، وهذا فيه نظَرٌ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، ولم يقُلْ: لا يَشهدون بالزُّورِ. والعربُ تقولُ: شهِدتُ كذا: إذا حضَرْتَه... وأمَّا: شَهِدتُ بكذا، فمعناه: أخبرتُ به). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤٨٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: لا يَشهدون شَيئًا مِن الباطلِ؛ لا شِركًا، ولا غِناءً، ولا كَذِبًا ولا غيرَه مِن الباطلِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وعن أبي بكْرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ألَا أُنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-؟ الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادةُ الزُّورِ أو قَولُ الزُّورِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُتَّكِئًا فجلَسَ، فما زال يُكرِّرها حتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَت))(١).

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفَى عنهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- حضورَ مَشاهِدِ الزُّورِ؛ أخبرَ هنا أنَّهم لا يَقِفون عندَ اللَّغوِ عندَما يَمُرُّون عليه؛ تَرَقِّيًا في وصْفِهم بالبُعدِ عن الباطلِ والإثمِ

= الثعالبي)) (٤/ ٢٢٠).

قال السعدي: (أي: لا يحضُرون الزُّورَ، أي: القولَ والفِعلَ المحَرَّمَ، فيجتنبون جميعَ المَجالسِ المشتَمِلةِ على الأقوالِ المحرَّمةِ أو الأفعالِ المحرَّمةِ... وإذا كانوا لا يَشهَدون الزُّورَ فمِن بابِ أَولى وأَحرى ألَّا يقولوه ويفعلوه، وشهادةُ الزُّورِ داخلةٌ في قَولِ الزورِ، تدخُلُ في هذه الآيةِ بالأولويَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨، ٧٩).

وقال ابن عثيمين: (فالزُّورُ: كُلُّ مَيلٍ قوليٍّ أو فعليٍّ؛ إن كان قولًا وُصِف بالكَذِب، وإن كان فِعلًا وُصِف بالباطِلِ. فكلُّ قولٍ أو فعلٍ مائلٍ عن الطريقِ فإنَّه زورٌ؛ فالكَذِبُ زورٌ، والشَّتمُ واللَّعنُ والغِيبةُ زورٌ أيضًا، والغَصبُ والسَّرقةُ والزِّنا وغيرُ ذلك: زورٌ أيضًا، لكن قد نُسَمِّيه باطلًا إذا كان فِعلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٥).

وقال السيوطي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ هو شامِلٌ لكُلِّ باطلٍ؛ فمِنه الشِّركُ، وبه فسَّره الضَّحَّاكُ، واللَّهوُ والغناءُ، وبه فسَّر ابنُ الحنفيَّةِ، والكَذِبُ، وبه فسَّر قَتادةُ، والنِّياحةُ، وبه فسَّر الحسَنُ). ((الإكليل)) (ص: ١٩٨).

(١) رواه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (٨٧) واللفظ له.

والعبثِ، ومجانبةِ أهلِه[١].

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾.

أي: وإذا صادَف أنْ مَرُّوا باللَّغوِ[٢] فسَمِعوه أو رَأَوْهُ -مِن غَيرِ قَصدٍ منهم-،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٢).

(٢) قال السعدي: (﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ وهو الكلامُ الذي لا خيرَ فيه، ولا فيه فائدةٌ دينيَّةٌ ولا دنيويَّةٌ؛ ككلامِ السفهاءِ ونحوِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٩).

وقال ابن جُزي: (اللَّغوُ: هو الكلامُ القبيحُ على اختِلافِ أنواعِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ اللَّغوُ الصوابُ أنَّه ليس الكلامَ القبيحَ؛ لأنَّ الكلامَ القبيحَ داخِلٌ في الزُّورِ، لكنِ المُرادُ باللَّغوِ: ما لا فائدةَ فيه، فكلُّ ما لا فائدةَ فيه فهو لَغْوٌ؛ وذلك لأنَّه لا يُقصَدُ، وما لا يُقصدُ فهو لَغْوٌ، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فاللَّغوُ ما لا فائدةَ فيه؛ سواءٌ كان قولًا أو فعلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٦).

وقيل في معنى اللَّغوِ أيضًا: هو ما كان المشركونَ يَقولونَه للمؤمنينَ، ويُكَلِّمونَهم به مِن الأذَى، وقيل: اللَّغوُ هو ما كان المشركونَ فيه مِن الباطِلِ، وقيل: هو المعاصي كُلُّها... إلى غيرِ ذلك. قال ابنُ جريرٍ بعْدَ أن ذكَر الخلافَ في معنَى اللَّغوِ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أخبَرَ عن هؤلاءِ المؤمنينَ الَّذينَ مَدَحهم بأنَّهم إذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كرامًا، واللَّغوُ في كلامِ العربِ هو كُلُّ كلامٍ أو فِعلٍ باطلٍ لا حقيقةَ له ولا أصلَ، أو ما يُستقبَحُ... فلا وجْهَ إذْ كان كلُّ ذلك يَلْزَمُه اسمُ اللَّغْوِ أن يُقالَ: عُنِيَ به بعضُ ذلك دونَ بعضٍ، إذ لم يَكُنْ لخصوصِ ذلك دَلالةٌ مِن خبرٍ أو عقلٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣- ٥٢٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ اللَّغوَ: كلُّ ما يَنبغي أن يُلغى ويُطَّرَحَ، وكلُّ سَقَطٍ مِن قولٍ أو فعلٍ: الزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ الفَرَس، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٤).

أعرَضوا عنه، وأكرَموا أنفُسَهم عن الخَوضِ والمشاركةِ فيه(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- بإعراضِهم عن الباطِلِ، ومجانبتِهم لأهلِه، وبُعْدِهم عنه؛ وَصَفَهم هنا بإقبالِهم على الحقِّ، وإكبابِهم عليه، متفهِّمِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٠، ٨١)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٩).

قال الرسعني: (﴿ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ أي: مرُّوا مرَّ الكرماءِ، مُعرضينَ عنهم، مُكرمينَ أنفسَهم عن التوقُّفِ عليهم، والخوضِ معهم؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥]). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٥٨).

وقال البقاعي: (﴿ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ أي: آمِرينَ بالمعروفِ، ناهينَ عن المنكَرِ -إن تعلَّقَ بهم أمرٌ أو نهيٌ- بإشارةٍ أو عبارةٍ، على حسَبِ ما يَرَونَه نافعًا، أو مُعرِضينَ إن كان لا يصلُحُ شَيءٌ من ذلك؛ لإثارةِ مَفسدةٍ أعظَمَ مِن ذلك أو نحوِه؛ رحمةً لأنفُسِهم وغيرِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

وقال ابن جرير: (فتأويلُ الكلامِ: وإذا مَرُّوا بالباطِلِ فسَمِعوه أو رَأَوْه، مَرُّوا كِرامًا؛ مُرورُهم كِرامًا في بعضِ ذلك بأنْ لا يَسْمَعوه، وذلك كالغناءِ. وفي بعضِ ذلك بأنْ يُعْرِضوا عنه ويصفحُوا، وذلك إذا أُوذُوا بإسماعِ القبيحِ مِن القولِ. وفي بعضِه بأنْ يَنْهَوْا عن ذلك، وذلك بأنْ يَرَوْا مِن المُنكَرِ ما يُغَيَّرُ بالقولِ فيُغَيِّرُوه بالقولِ، وفي بعضِه بأنْ يُضارِبوا عليه بالسُّيوفِ، وذلك بأنْ يَرَوْا قومًا يَقْطَعونَ الطَّريقَ على قومٍ، فيَستَصْرِخُهم المُرادُ ذلك منهم، فيُصْرِخونَهم، وكلُّ ذلك مُرورُهم كِرامًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥).

مُستبصِرينَ[1].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

أي: والذين إذا ذكَّرَهم مُذَكِّرٌ بآياتِ رَبِّهم[2]، لم يُقابِلوها بالإعراضِ عنها، والصَّمَمِ عن سَماعِها، وصَرفِ النَّظَرِ والقلوبِ عنها، كالكُفَّارِ الذين إن ذُكِّروا بها أنكَروا وكَذَّبوا، وأقاموا على كُفرِهم، كأنَّهم لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: القرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والنسفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥١).

وقيل: المرادُ بها: عمومُ الآياتِ، شَرعيَّةً كانت أو كونيَّةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بالقرآنِ، أو بما فيه موعظةٌ وعِبرةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٠، ٨١).

قال الزمخشري: (﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ليس بنَفيٍ للخُرورِ، وإنَّما هو إثباتٌ له، ونَفيٌ للصَّمَمِ والعَمَى، كما تقولُ: لا يَلقاني زيدٌ مُسَلِّمًا، هو نَفيٌ للسَّلامِ لا للِّقاءِ. والمعنى: أنَّهم إذا ذُكِّرُوا بها أكَبُّوا عليها حِرصًا على استِماعِها، وأقبَلوا على المُذَكِّرِ بها، وهُم في إكبابِهم عليها سامِعون بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرونَ بعُيونٍ راعيةٍ، لا كالذين يُذَكَّرونَ بها فتراهم مُكِبِّينَ عليها مُقبِلينَ على مَن يُذَكِّرُ بها، مُظهِرينَ الحِرصَ الشَّديدَ على استِماعِها، وهم كالصُّمِّ العُميانِ؛ حيث لا يَعُونَها، ولا يَتبَصَّرونَ ما فيها، كالمُنافِقينَ وأشباهِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يحتَمِلُ تأويلين:

أحدُهما: أن يكونَ المعنى: لم يكُنْ خرورُهم بهذه الصِّفةِ، بل يكون سُجَّدًا وبُكِيًّا، وهذا كما تقولُ: لم يخرجْ زيدٌ للحربِ جَزِعًا، أي: إنما خرَج جريئًا مُقْدِمًا. وكأنَّ الذي يَخِرُّ أصَمَّ =

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَهم سبحانه في الآياتِ المتقدِّمةِ بما دلَّ على أنَّهم أهلُ خَيرٍ وكمالٍ في أنفُسِهم؛ وَصَفَهم في هذه بما دلَّ على محبَّتِهم الخَيرَ والكمالَ لغَيرِهم مِن قرابتِهم: أزواجِهم، وذُرِّيَّتِهم، ومَن سِواهم(١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

أي: والذين يَدْعُونَ اللهَ قائلينَ: ربَّنا أصلِحْ أزواجَنا وأولادَنا وأحفادَنا، فنُسَرَّ في الدُّنيا برُؤيتِهم على طاعتِك، وفي الآخرةِ بدُخولِ جَنَّتِك(٢).

= وأعمى هو المنافِقُ أو الشاكُّ.

والتأويلُ الثاني ذهب إليه الطبريُّ، وهو: أنَّ ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هي صِفةٌ للكافِرِ، وهي عبارةٌ عن إعراضِهم وجهدِهم في ذلك، وقَرَنَ ذلك بقَولِه: قعَد فلان يشتُمُني، وقام فلانٌ يبكي، وأنت لم تَقصِدِ الإخبارَ بقعودٍ ولا قيامٍ، وإنما هي توطئاتٌ في الكلامِ والعبارةِ. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٨).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ الخرورُ واقِعًا منهم أو مِن بَعضِهم حقيقةً؛ لأنَّهم يكونون جلوسًا في مجتمعاتِهم ونَواديهم، فإذا دعاهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الإسلامِ طأطَؤوا رؤوسَهم وقَرَّبوها مِن الأرض؛ لأنَّ ذلك للقاعد يقومُ مقامَ الفرارِ، أو سَترِ الوجهِ... وقريبٌ مِن هذا المعنى قولُه تعالى حكايةً في سورة نوح: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٠، ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير =

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

أي: واجعَلْنا قُدوةً للذين يمتَثِلونَ أوامِرَك، ويجتَنِبونَ نواهيَك، فيَقتَدون بنا في الخَيرِ[1].

= البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٢).

قال ابن العربي: (معناه: أنَّ النفوسَ تتمنَّى، والعيونَ تمتدُّ إلى ما ترى مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ، حتى إذا كانت عندَه زوجةٌ اجتمعت له فيها أمانيه مِن جمالٍ وعِفَّةٍ ونظَرٍ وحَوطةٍ، أو كانت عندَه ذريَّتُه محافِظينَ على الطاعة، معاونينَ له على وظائفِ الدِّينِ والدُّنيا؛ لم يلتَفِتْ إلى زوجِ أحدٍ، ولا إلى ولَدِه؛ فتسكُنُ عينُه عن الملاحظةِ، وتزولُ نفْسُه عن التعلُّقِ بغيرِها؛ فذلك حينَ قُرَّةِ العَينِ، وسُكونِ النَّفسِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

لكن قال الرازي: (لا شُبْهَةَ أنَّ المرادَ أنْ يكونَ قُرَّةَ أعينٍ لهم في الدِّينِ لا في الأمورِ الدُّنيويَّةِ مِن المالِ والجمالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦).

وقال الزمخشري: (﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ ... يحتمِلُ أن تكونَ بيانيَّةً... وأن تكونَ ابتدائيَّةً). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦).

وقال أبو حيان: (قُرَّةُ العينِ فيمَنْ ذكروا رُؤْيَتُهم مُطيعينَ لِلَّهِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢).

وقال الرازي: (فيه وجهان؛ أحدُهما: أنَّهم سألوا أزواجًا وذرِّيَّةً في الدُّنيا يُشارِكونهم، فأحَبُّوا أن يكونوا معهم في التمسُّكِ بطاعةِ الله، فيَقْوى طمَعُهم في أن يَحصُلوا معهم في الجنَّةِ؛ فيَتكامَلَ سرورُهم في الدُّنيا بهذا الطمعِ، وفي الآخرةِ عندَ حصولِ الثَّوابِ. والثَّاني: أنَّهم سألوا أن يُلحِقَ اللهُ أزواجَهم وذريَّتَهم بهم في الجنَّةِ؛ لِيَتِمَّ سرورُهم بهم). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦، ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: يَقتدون بنا في الدِّينِ، ويأتمون بنا في الخَيرِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير البغوي)) =

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

= (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٤).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ: أئمَّةً يُقتدى بنا في الخيرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

قال السعدي: (من المعلومِ أنَّ الدُّعاءَ بحُصولِ شَيءٍ: دُعاءٌ به وبما لا يَتِمُّ إلَّا به، وهذه الدَّرَجةُ دَرَجةُ الإمامةِ في الدِّينِ التي لا تَتِمُّ إلَّا بالصَّبرِ واليَقينِ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فهذا الدُّعاءُ يَستلزِمُ مِن حُصولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، والصَّبرِ على طاعةِ الله، وعن معصيتِه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، ومن العِلمِ النَّافِعِ التامِّ الرَّاسخِ الذي يُوصِلُ صاحِبَه إلى درجةِ اليَقينِ- خَيرًا كثيرًا، وعَطاءً جزيلًا). ((تيسير اللطيف المنان)) (ص: ٦٧).

وقيل: معنى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: نأتَمُّ بهم، ويأتَمُّ بنا مَن بَعْدَنا. وممَّن قال به مِن السلَفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦).

وعن مجاهدٍ -في روايةٍ أخرى-، قال: (اجعَلْنا مؤتَمِّينَ بهم، مُقتَدينَ بهم). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٢).

قال ابنُ القيِّم عن تفسير مجاهدٍ المذكورِ: (أَشكَلَ هذا التفسيرُ على مَن لم يَعرِفْ قَدْرَ فَهمِ السلَفِ وعُمقَ عِلمِهم، وقال: يجبُ أن تكونَ الآيةُ على هذا القولِ مِن بابِ المقلوبِ، على تقديرِ: واجعَلِ المتَّقينَ لنا أئمَّةً، ومَعاذَ اللهِ أن يكونَ شَيءٌ مقلوبًا على وَجهِه! وهذا مِن تمامِ فَهمِ مجاهدٍ رحمه الله؛ فإنَّه لا يكونُ الرجُلُ إمامًا للمتَّقينَ حتى يأتَمَّ بالمتَّقينَ، فنَبَّهَ مجاهدٌ على هذا الوجهِ الَّذي يَنالون به هذا المطلوبَ، وهو اقتِداؤُهم بالسلَفِ المتَّقينَ مِن قَبْلِهم، فيَجعَلُهم الله أئمَّةً للمتَّقينَ مِن بَعدِهم. وهذا مِن أحسَنِ الفَهمِ في القرآنِ وألطَفِه، ليس مِن باب القلبِ في شَيءٍ، فمَنِ ائتَمَّ بأهلِ السنَّةِ قَبْلَه، ائتَمَّ به مَن بعْدَه ومَن معه). ((رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)) (ص: ١٢، ١٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَدَّدَ سُبحانَه صِفاتِ المتَّقينَ المخلِصينَ؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنواعَ إحسانِه إليهم، وهي مجموعةٌ في أمْرينِ: المنافعِ، والتَّعظيمِ؛ فالمنافِعُ في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، والتعظيمُ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

أي: عِبادُ الرَّحمنِ المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يُثيبُهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجنَّةِ[2]؛ بسبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٧).

(٢) قيل: الغرفةُ: المنزلةُ الرَّفيعةُ، والدرجةُ العاليةُ في الجنَّة. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ، وجلال الدين المحليُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

وقال الزمخشري: (المرادُ: يُجزَونَ الغُرُفاتِ، وهي العَلاليُّ في الجنَّةِ، فوَحَّدَ اقتِصارًا على الواحِدِ الدالِّ على الجنسِ، والدَّليلُ على ذلك قولُه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٢).

وقال الشنقيطي: (الظاهرُ أنَّ المرادَ بالغُرفةِ في هذه الآيَة الكريمةِ جِنسُها الصادِقُ بغُرَفٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨١).

وقيل: هي الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ، وقال: (قال أبو جَعفرٍ الباقِرُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ: سُمِّيَتْ بذلك؛ لارتِفاعِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ فيها وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ الغُرفةَ الجنَّةُ، قاله الضحَّاكُ. الثَّاني: أنَّها أعلى مَنازِلِ الجنَّةِ وأفضَلُها، كما أنَّ الغُرفةَ أعلى مَنازِلِ الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المَنزِلُ لا يَطيبُ إلَّا بالكرامةِ والسَّلامةِ؛ قال تعالى(١):

﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾.

أي: ويُستقبَلُ عِبادُ الرَّحمنِ في الغُرَفِ بالتحيَّةِ والسَّلامِ عليهم(٢).

= كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨١).

قال القرطبي: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبرُ «عِبَادُ الرَّحْمَنِ»... وما تخلَّل بيْن المبتدإِ وخبَرِه أوصافُهم مِن التحلِّي والتخلِّي، وهي إحدى عَشْرةَ: التواضُعُ، والحِلمُ، والتهجُّدُ، والخوفُ، وتركُ الإسرافِ والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّركِ والزِّنا والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّبُ الكَذِبِ، والعفوُ عن المسيءِ، وقَبولُ المواعظ، والابتهالُ إلى الله). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال البغوي: (وقوله: ﴿تَحِيَّةٗ﴾، أي: مُلْكًا. وقيل: بقاءً دائمًا، ﴿وَسَلَٰمًا﴾ أي: يُسلِّمُ بعضُهم على بعضٍ. وقال الكَلْبيُّ: يُحيِّي بعضُهم بعضًا بالسلامِ، ويُرسِلُ الرَّبُّ إليهم بالسَّلامِ. وقيل: سلامًا: أي سلامةً مِنَ الآفاتِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٠).

وقال البقاعي: (﴿فِيهَا تَحِيَّةٗ﴾ أي: دُعاءً بالحياةِ مِن بعضِهم لبعضٍ، ومِن الملائكةِ الذين لا يُرَدُّ دعاؤُهم، ولا يُمترَى في إخبارِهم؛ لأنَّهم عن الله يَنطِقون، وذلك على وجهِ الإكرامِ والإعظامِ مكانَ ما أهانهم عبادُ الشيطان. ﴿وَسَلَٰمًا﴾ أي: مِن الله، ومِن الملائكة وغيرِهم، وسلامةً مِن كلِّ آفةٍ مكانَ ما أصابوهم بالمصائبِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٧).

وقال السعدي: (﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ مِن ربِّهم، ومِن ملائكتِه الكرامِ، ومِن بعضٍ على بعضٍ، ويَسلَمونَ مِن جميعِ المنَغِّصاتِ والمكدِّراتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ هل هما مُترادِفان أو مُتغايِران؟ =

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَعَدَ سُبحانَه بالمنافِعِ أولًا، وبالتَّعظيمِ ثانيًا؛ بيَّنَ أنَّ مِن صفتِهما الدَّوامَ(١).

وأيضًا لَمَّا كان ما سبَقَ ناطِقًا بدوامِ حياتِهم، سالِمِين بصَريحِه، وبعَظيمِ شَرَفِهم بلازِمِه؛ دلَّ على أنَّهم لا يَبرَحون عنه، بقَولِه(٢):

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

= التحيَّةُ أعمُّ؛ فكُلُّ سَلامٍ تحيَّةٌ، ثم أيضًا التحيَّةُ كما تكونُ بالقَولِ تكونُ بالفعلِ؛ ولهذا يُقالُ: حيَّاه بالتُّحَفِ وبطِيبِ المنزِلِ، وما أشبَهَ ذلك. قولُه: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ يعني: أنَّهم يُلَقَّونَ بالتحيَّةِ قولًا، وبالسلامةِ بقاءً، يعني: يبقَونَ سالمينَ، وهذه المعاني ثابتةٌ بالنِّسبةِ لأهلِ الجنةِ؛ فإنَّهم يُحَيَّون بأنواعِ التحياتِ المَرْضيَّةِ المُفرحةِ المسِرَّةِ، وكذلك أيضًا يَسلَمونَ من كلِّ الآفاتِ... يُحيِّي بعضُهم بعضًا، ويحَيِّيهم الله سبحانه وتعالى، وكذلك الملائكةُ. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣٧).

أي: ماكِثِينَ في الغُرَفِ، لا يموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

أي: حَسُنَت تلك الغُرَفُ قرارًا لأهلِها، ومكانَ إقامةٍ لهم[٢].

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استَوعبتِ السورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالرِّسالةِ والقرآنِ، وما تضمَّنَتْه مِن توحيدِ اللهِ، ومِن صفةِ كبرياءِ المعانِدِين وتعلُّلاتِهم، وأحوالِ المؤمنين، وأُقيمتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

قال أبو منصور: (﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾): تأويلُه -واللهُ أعلم- أي: حَسُنت لهم الجنَّةُ مُستقَرًّا ومُقامًا؛ حتى لا يَمَلُّوا فيها ولا يَسْأموا، ولا تأخُذَهم الوحشةُ والكآبةُ؛ كنَعيمِ الدُّنيا يُمَلُّ ويُسأَمُ عندَ الكثرةِ وطُولِ المُقامِ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٧).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حسُنت منظرًا، وطابت مَقِيلًا ومَنزِلًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

وقال القاسمي: (﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ لسَلامةِ أهلِها عن الآفاتِ، وخلودِهم أبَدَ الآبادِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

وقال ابن عثيمين: (المستَقَرُّ باعتِبارِ المكانِ، والمُقامُ باعتبارِ ما يحصُلُ لهم مِن النعيمِ والسرورِ والتحيَّةِ وغيرِ ذلك، تقولُ: مُقامي فيكم سرورٌ، أو مُقامي في هذا المكان حُزنٌ، أو ما أشبَهَ ذلك. ويمكنُ أيضًا أن يُقالَ: المقامُ بالنِّسبةِ للزمنِ، يعني: أنَّ الله أثنى عليها مكانًا وزمنًا، وكَوْنُنا نُحاوِلُ أن يكونَ بينَ اللفظينِ تغايرٌ أَولى مِن الترادُفِ؛ لأنَّنا إذا قُلْنا بالترادُفِ في هذا وغيرِه صار في المسألةِ تكرارٌ، والأصلُ عدمُ التَّكرارِ؛ فحاوِلْ ما استطعْتَ أن تجعلَ اللَّفظينِ متغايرينِ إذا أمكَنَ في كلِّ آيةٍ في آياتِ القرآنِ، وغيرِ القرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤١، ٣٤٢).

الحُجَجُ الدامغةُ للمعرِضِينَ؛ خُتِمَتْ بأمرِ اللهِ رسولَه عليه الصلاةُ والسلامُ أنْ يُخاطِبَ المشركينَ بكلمةٍ جامعةٍ يُزالُ بها غرورُهم وإعجابُهم بأنفُسِهم؛ فبَيَّنَ لهم حقارتَهم عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه ما بَعَثَ إليهم رسولَه وخاطبَهم بكتابه إلَّا رحمةً منه بهم لإصلاحِ حالِهم، وقطعًا لعُذْرِهم، فإذا كذَّبوا فسوف يَحُلُّ بهم العذابُ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان اللهُ تعالى قد أضاف هؤلاءِ العِبادَ إلى رحمتِه، واختَصَّهم بعبوديَّتِه لِشرَفِهم وفَضلِهم؛ رُبَّما توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّه: وأيضًا غيرُهم لِمَ لا يدخُلُ في العبوديَّةِ؟! فأخبَرَ تعالى أنَّه لا يُبالي ولا يَعبأُ بغيرِ هؤلاء، وأنَّه لولا دعاؤُكم إيَّاه دُعاءَ العبادةِ ودُعاءَ المسألةِ، ما عبأَ بكم ولا أحَبَّكم، فقال[(٢)]:

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أُرسِلتَ إليهم: لولا دُعاؤُكم إيَّاه لَمَا بالى، ولا اكترَث بكم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨) و(٢٧/ ٤٣٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال الشنقيطي: (العُلماءُ اختلَفوا في المصدَرِ في قَولِه: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾: هل هو مُضافٌ إلى فاعِلِه، أو إلى مَفعولِه، وعلى أنَّه مُضافٌ إلى فاعِلِه فالمخاطَبونَ بالآيةِ داعُونَ لا مَدْعُوُّونَ، أي: ما يَعبأُ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له. وأمَّا على أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى مَفعولِه فالمُخاطَبونَ بالآيةِ مَدْعُوُّونَ لا داعُونَ، أي: ما يَعبأُ بكم لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى توحيدِه وعبادتِه على ألْسِنَةِ رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨١). =

= وممَّن اختار أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أي: لولا أنَّكم تَدْعونَه: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وأبو السعود، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨) و (٢٧/ ٤٣٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال الشنقيطي: (أشهَرُ الأقوالِ وأكثرُها قائِلًا، وهو أنَّ المعنى: لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له وحْدَه ... واعلَمْ أنَّ قَولَ مَن قال: لولا دعاؤُكم، أي: دعاؤُكم إيَّاي لأغفِرَ لكم، وأُعطيَكم ما سألتُم: راجِعٌ إلى القَولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ دُعاءَ المسألةِ داخِلٌ في العبادةِ، كما هو معلومٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٣).

وقال ابنُ القيم في قولِه تعالى: ﴿دُعَآؤُكُمْ﴾: (المرادُ به نوعَا الدُّعاءِ، وهو في دُعاءِ العبادَةِ أظهرُ، أي: ما يَعْبأُ بكم لولا أنَّكم تَعبدونه، وعِبادَتُه تَستلْزِمُ مسألَتَه؛ فالنَّوعانِ داخِلانِ فيه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٢).

وقال السعدي: (﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ إيَّاه دعاءَ العبادةِ، ودعاءَ المسألةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

وقال الشنقيطي: (وعلى هذا القولِ فالخِطابُ عامٌّ للكافرينَ والمؤمنينَ، ثُمَّ أفرَد الكافرينَ دونَ المؤمِنينَ بقولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ...﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٢).

وذكَر الشنقيطي قولينِ آخَرينِ مبنيَّينِ أيضًا على كونِ المصدرِ مُضافًا إلى فاعِلِه:

الأول: أنَّ المعنَى: لولا دُعاؤُكم أيُّها الكفَّارُ له وحْدَه عندَ الشَّدائدِ والكروبِ، أي: ولو كنتُم تَرجِعونَ إلى شِرْكِكم، إذا كَشَف الضُّرَّ عنكم.

وممَّن اختار هذا المعنى، وهو أنَّ الخطابَ للمشركينَ، وأنَّ المرادَ دعاؤُهم عندَ الشدائدِ: جلال الدين المحليُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٥).

الثاني: أنَّ معنَى ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾، أي: ما يصنَعُ بعذابِكم، لولا دُعاؤُكم معه آلِهةً أُخرى.

وقال عن هذا القولِ الأخيرِ: (ولا يخفَى بُعْدُ هذا القولِ، وأنَّ فيه تقديرَ ما لا دليلَ عليه، ولا حاجةَ إليه). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٢).

وقيل: إنَّ المصدرَ في قولِه: ﴿دُعَآؤُكُمْ﴾ مُضافٌ إلى مفعولِه، فالمخاطَبونَ بالآيةِ مَدعُوُّونَ، فالمعنى: ما يصنَعُ بكم ربِّي لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى الإيمانِ به وتوحيدِه وعبادتِه. وممَّن قال =

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

أي: فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكونَ- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم(١).

= بذلك: الفَرَّاءُ، وابنُ العربي، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨١ - ٨٥).

وقال البقاعي: (أي: أيُّها الكافِرون... ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: نداؤُكم له في وقتِ شدائدِكم الذي أنتم تبادِرونَ إليه فيه؛ خضوعًا له به ليُنجيَكم، فإذا فعلتُم ذلك أنقَذكم مما أنتم فيه؛ معاملةً لكم معاملةَ مَن يبالي بالإنسانِ، ويعتدُّ به ويُراعيه، ولولا دعاؤُه إيَّاكم لتَعبُدوه؛ رحمةً لكم؛ لِتَزْكُوا أنفسُكم، وتَصْفوا أعمالُكم، ولا تكونوا حطبًا للنارِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٨).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٤، ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥، ٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٤).

قال ابن جُزي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: سوف يكونُ العذابُ لِزامًا ثابتًا، وأضمَرَ العَذابَ، وهو اسمُ كان؛ لأنَّه جزاءُ التَّكذيبِ المتقَدِّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال البيضاوي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ لازِمًا يَحيقُ بكم لا محالةَ، أو أثَرُه لازِمًا بكم حتى يَكُبَّكم في النَّارِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢).

وقال ابنُ جرير: (يكونُ تَكذيبُكم رَسولَ رَبِّكم، وخِلافُكم أمرَ بارِئِكم: عَذابًا لكم مُلازِمًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٧).

وقال القرطبي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكونُ تكذيبُكم مُلازِمًا لكم. والمعنى: فسوف يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ... وحَسُنَ إضمارُ التكذيبِ؛ لتقَدُّمِ ذِكرِ فِعلِه؛ لأنَّك إذا ذكَرْتَ الفِعلَ دَلَّ بلَفظِه على مَصْدَرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥).

وقال ابنُ جُزي: (واختُلِفَ: هل يُرادُ بالعَذابِ هنا القَتلُ يَومَ بَدرٍ، أو عذابُ الآخرةِ؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال القرطبي: (جمهورُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ باللِّزامِ هنا: ما نَزَل بهم يومَ بَدرٍ، وهو قَولُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ، وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ، وأبي مالِكٍ، ومجاهِدٍ، ومُقاتِلٍ، وغَيرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: (خمسٌ قد مَضَيْنَ: الدُّخانُ، والقَمَرُ، والرُّومُ، والبَطشةُ، واللِّزامُ[١] ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾)[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ ولم يَقُلْ: بالزُّورِ؛ لأنَّ ﴿يَشْهَدُونَ ﴾ بمعنى: «يَحضُرونَ»، فمدَحهم على تَركِ حُضورِ مجالسِ الزُّورِ، فكيف بالتكَلُّم به وفِعلِه[٣]؟!

٢- لا يجوزُ الاستِماعُ إلى الكلامِ الفاحشِ؛ لأنَّ اللهَ وصَفَ عِبادَ الرحمنِ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾، فكلُّ شيءٍ حرامٍ لا تستمِعْ إليه، ولا تقرَأْه[٤].

٣- بعْدَما ذكَرَ تعالى مِن صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ ما ذكَرَ، ذكَرَ استماعَهم للتَّذكيرِ،

= وقال ابنُ كثير: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي: فسوف يكونُ تكذيبُكم لِزامًا لكم، يعني: مُقتَضِيًا لهلاكِكم وعَذابِكم ودَمارِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ويَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ، كما فَسَّره بذلك عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ، وأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، ومحمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم. وقال الحَسَنُ البَصريُّ: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعني: يومَ القيامةِ. ولا مُنافاةَ بَينَهما). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤).

(١) الدُّخانُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠].
والقَمَرُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].
والرُّومُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ [الروم: ١، ٢].
والبَطْشةُ: المشارُ إليها في قَولِه جَلَّ وعَلَا: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ [الدخان: ١٦]، وهو القَتلُ يومَ بَدرٍ.
واللِّزامُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: (﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾). قيل: يَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ. وقيل: يعني: يَومَ القيامةِ؛ لأنَّه لتحقُّقِ وقوعِه عُدَّ ماضيًا. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (٤٧٦٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٦٨).

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ تنبيهًا على أنَّ التَّذكيرَ مُحتاجٌ إليه في كلِّ حالٍ، فإذا كان الموصوفونَ بتلك الصِّفاتِ يَحتاجون إليه فغيرُهم أَولى؛ وذلك لأنَّ الغفلةَ مِن طَبْعِ الإنسانِ، ودوامُ الغفلةِ صدَأُ القلوبِ، وصِقالُها هو التَّذكيرُ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ كما تُقْبَلُ كلمةُ الحقِّ مِن كلِّ قائلٍ، كذلك يُقْبَلُ التذكيرُ مِن كلِّ مُذَكِّرٍ، ولو كان المذكِّرُ مِن أكملِ العِبادِ، والمذكِّرُ مِن أوساطِهم أو أدناهم، وفي عِبادِ الرحمنِ المذكورِينَ؛ في استِماعِهم إذا ذُكِّروا مِن أيِّ مُذَكِّرٍ: القدوةُ الحسنةُ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ فيه تقبيحٌ لعدَمِ التفهُّمِ والتدبُّرِ للآياتِ، وتحذيرٌ منه، وتنبيهٌ على أنَّ الانتِفاعَ بالقرآنِ الذي تتفتَّحُ به البصائرُ، وتتَّسِعُ به المدارِكُ، وتتهذَّبُ به الأخلاقُ، وتتزَكَّى به النفوسُ، وتتقوَّمُ به الأعمالُ، وتستقيمُ به الأحوالُ: إنَّما يكونُ بتفهُّمِه وتدَبُّرِه، دونَ مجردِ الانكبابِ عليه بلا تَفَهُّمٍ ولا تدبُّرٍ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ سؤالُ العبدِ مِن ربِّه أن يَهَبَ له مِن الزَّوجِ والذرِّيَّةِ ما تَقَرُّ به عَيْنُه، وهذا يقتضي سَعْيَه بقَدْرِ استِطاعتِه لتحصيلِ ذلك فيهما؛ لِيَقومَ بالسَّببينِ المشروعينِ مِن السعيِ والدعاءِ؛ فعليه أنْ يختارَ ويجتهِدَ عندما يريدُ التزوُّجَ، وأنْ يَقصِدَ إلى ذاتِ الدِّينِ، وفي اختيارِه واجتهادِه في جانبِ الزوجةِ سَعْيٌ في اختيارِ الولدِ؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

الزوجةَ الصالحةَ شأنُها أن تُربِّيَ أولادَها على الخَيرِ والصَّلاحِ، ثمَّ عليه أنْ يقومَ بتعليمِ زوجِه وأولادِه، وتهذيبِهم وإرشادِهم، فيكونَ قد قام بما عليه في الابتِداءِ والاستِمرارِ، مع دوامِ التضرُّعِ إلى اللهِ تعالى والابتهالِ(١).

٧- قال عكرمةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: (لم يُريدوا بذلك صباحةً ولا جمالًا، ولكنْ أرادوا أن يكونوا مُطيعينَ)(٢).

وقال الحسنُ في هذه الآيةِ: (واللهِ ما شيءٌ أحبَّ إلى المرءِ المسلمِ مِن أنْ يرَى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مُطيعًا للهِ عزَّ وجلَّ)(٣).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ طَلَبُ الرُّتَبِ العُليا في الخَيرِ والكمالِ، والسَّبْقُ إليها، والتقدُّمُ فيها: هو ممَّا يَدْعونا إليه اللهُ، ويُرَغِّبُنا بمِثلِ هذه الآيةِ فيه، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ لأنَّ طَلَبَ الكمالِ كمالٌ، ولأنَّ مَن كانت غايتُه الرُّتَبَ العليا إنْ لم يَصِلْ إلى أعلاها لم يَنحَطَّ عن أدناها، وإنْ لم يُساوِ أهلَها لم يَبْعُدْ عنها، ومَن لم يَطْلُبِ الكمالَ بقِيَ في النقصِ، ومَن لم تكن له غايةٌ ساميةٌ قَصَّرَ في السَّعيِ، وتوانَى في العملِ؛ فالمؤمنُ يَطلُبُ أسمَى الغاياتِ، حتى إذا لم يَصِلْ لم يَبْعُدْ، وحتى يكونَ في مَظِنَّةِ الوصولِ بصحَّةِ القصدِ، وصِدْقِ النِّيَّةِ(٤).

٩- هذا الدعاءُ ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يتضمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: العِلمَ، والتَّقوى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/ ٤٠٢) (٨٦٦٨)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

والتأثيرَ؛ لأنَّ مَن لم يكُنْ عالِمًا لم يكُنْ قُدوةً، ومن لم يكُنْ مُتَّقيًا لم يكُنْ قدوةً، ومَن لم يكُنْ مؤثِّرًا لم يكُنْ قُدوةً أيضًا، والتأثيرُ بالقولِ والفعلِ له دَورٌ كبيرٌ، تَجِدُ مثَلًا رجُلينِ مُتقارِبينِ في العِلمِ، لكنْ أحدُهما يَصرِفُ اللهُ القلوبَ إليه فيَتَّخِذونه قُدوةً، والآخَرُ لا يحصُلُ له هذا الأمرُ؛ فلهذا نقولُ: نَزيدُ على العِلمِ والتَّقوى التأثيرَ، والتأثيرُ -كما هو معروفٌ- يكونُ سببُه قوَّةَ البيانِ والفصاحة، إذا كان التأثيرُ بالقولِ، ويكونُ سببُه أيضًا الاستِقامةَ وحُسْنَ السُّلوكِ إذا كان تأثيرًا بالفعلِ. وعلى كلِّ حالٍ فلا تتِمُّ الإمامةُ إلَّا بهذه الأمورِ الثَّلاثةِ: العِلمِ، والتَّقوى، والتَّأثيرِ بالقولِ أو بالفعل(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ دَلالةٌ على السَّببِ الذي أفضَى بهم إلى هذا الجزاءِ العظيمِ، وهو أعمالُهم، ودَلالةٌ على السببِ الذي تَمَكَّنوا به مِن القيامِ بهذه الأعمالِ، وهو الصَّبرُ، فلا يَنهَضُ بامتِثالِ المأموراتِ وترْكِ المنهيَّاتِ إلَّا مَن صَبَرَ، والصبرُ خُلُقٌ مِن الأخلاقِ التي تتربَّى وتنمو بالمِرانِ والدَّوامِ؛ فواجبٌ على المكلَّفِ أنْ يَجعَلَ تربيةَ نَفْسِه عليه وتعويدَها به مِن أكبرِ هَمِّه؛ إذْ لا يقومُ بالتكاليفِ الشرعيةِ إلَّا به، بل ولا يستطيعُ الحياةَ في هذه الدارِ الدُّنيا الموضوعةِ على المحنةِ والابتلاءِ إلَّا إذا تمسَّك بسببِه(٢).

١١- قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ لَمَّا ذَكَرَ سبحانَه في الآياتِ المتقَدِّمةِ صفاتِهم وأعمالَهم؛ ذَكَر ما أَعَدَّ لهم مِن عظيمِ الجزاءِ على تلك الأعمالِ؛ تنبيهًا على ما وَضَعَه تعالى -بمشيئتِه وحكمتِه ورحمتِه- مِن الارتباطِ بيْن هذه الأعمالِ وهذا الجزاءِ، وإفضائِها إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٢).

إفضاءَ السببِ لمسبَّبِه؛ لِيَسعَى الراجونَ لهذا الجزاءِ مِن طريقِ هذه الصفاتِ وهذه الأعمالِ، كما يُسعَى لسائرِ المسَبَّباتِ مِن طريقِ أسبابِها، وتُؤتَى جميعُ الأمورِ مِن أبوابِها، وفي هذا حَثٌّ لأهلِ هذه الأعمالِ على التمسُّكِ بما هم به عامِلون، وتنبيهٌ لأهلِ الغرورِ على بُطلانِ ما هم به مُغترُّون، والكَيِّسُ مَن دانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِمَا بعْدَ الموتِ، والعاجزُ مَن أتبَعَ نَفْسَه هواها، وتمنَّى على اللهِ الأمانيَّ[1].

١٢- قد أفادت الآياتُ السَّابقةُ كَمالَ حالِ عِبادِ الرَّحمنِ في نفوسِهم وعُقولِهم، وأخلاقِهم وأعمالِهم، وأفادت عظيمَ مَنزلتِهم عندَ ربِّهم، ورفيعَ ما أعَدَّ لهم مِن درجاتِهم؛ جزاءً على صالحاتِهم وحَسَناتِهم، وجاءتْ هذه الآيةُ ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ لِتُفيدَ أنَّ ذلك المقامَ العظيمَ -الذي كان عندَ ربِّهم- إنَّما هو بسبَبِ عبادتِهم، وتُعلِنَ للنَّاسِ أنَّ عبادتَهم هي الشَّيءُ الوحيدُ الذي يكونُ لهم به قدْرٌ وقيمةٌ عندَ ربِّهم، وبدونها لا يكونُ لهم وزنٌ عندَ خالقِهم، ولا يكونون شيئًا يُبالى به، وأنَّ مَن كَذَّبَ وخَلَعَ بتكذيبِه رِبقةَ العبادةِ، فقد حَقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ، وهو واقعٌ به لا محالةَ[2].

١٣- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾، قد بُيِّنَ لك الطريقُ الذي يُوصِلُك إلى مولاك، ويُرقيك في مراتبِ كمالِك وعُلاك، وما هو إلَّا عبادةُ ربِّك، فكُنْ عبدًا له في اختيارِك واضْطِرارِك، وفي جميعِ أحوالِك، واحذَرْ أنْ تعتمدَ على شَيءٍ غَيرِ عبادتِه، واحذَرْ أنْ تتوجَّهَ بشَيءٍ مِن عبادتِك لغيرِه، ومِن عبادتِك -بل هو أصلُ عبادتِك- دعاؤُك وسؤالُك واستِغاثتُك؛ فإيَّاك إيَّاك أنْ تتوجَّهَ منه بشَيءٍ لغيرِه، فكُنْ دائمًا عبدًا للهِ، وكُنْ دائمًا عبدًا له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٣).

وحْدَه؛ فذلك حَقُّه عليك، وذلك هو السببُ الوحيدُ الذي يُنجيك ويُعليك[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ فيه ثَناءٌ على المؤمنينَ بمقاطَعةِ المشركينَ وتَجنُّبِهم[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا يَقصِدون حُضورَه ولا سماعَه، ولكنْ عندَ المصادَفةِ -التي مِن غيرِ قصدٍ- يُكرِمون أنفُسَهم عنه[٣].

٣- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ما أحسَنَ اقتِرانَ هذا الوصفِ مع قَولِه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾! لا يَختلِطُ جِدُّهم بهَزْلٍ، وحقُّهم بباطِلٍ، فإذا اعتَراهُمُ الهَزْلُ تَنزَّهوا عنه كلَّ تَنزُّهٍ، وإذا اشتَغَلوا بالحقِّ لا يَحومُ الباطلُ حَوْلَه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ الدُّعاءُ بصَلاحِ الزَّوجاتِ والأولادِ والذريَّةِ[٥].

٥- قد فُطِرَ الإنسانُ على محبَّتِه لنفْسِه؛ لِتَحمِلَه هذه الفِطرةُ على المُحافظةِ عليها، والدِّفاعِ عنها، وتكميلِها بكلِّ وُجوهِ الكَمالِ، وكان مِن مُقْتضى هذه المحبَّةِ رغْبتُه في الوجودِ والبقاءِ، وممَّا هو قوَّةٌ في وُجودِه ومُظهِرٌ لبقائِه: أنْ يَرى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

النَّاسَ على فِكْرِه وصِفاتِه وأحوالِه؛ فيَرى نفْسَه مُمثَّلةً في غيرِه، وأفكارَه وصِفاتِه وأحوالَه باقيَةً ببقاءِ النَّاسِ؛ فالخيرُ الكاملُ مِن طبْعِه، ومِن مُقْتضى فِطرتِه أنَّه يُحِبُّ انتشارَ الخيرِ والكمالِ في النَّاسِ. والشِّرِّيرُ النَّاقصُ مِن طبْعِه، ومِن مُقْتضى فِطرتِه أنَّه يُحِبُّ انتشارَ الشَّرِّ والنَّقصِ فيهم؛ فلذا كان لازمًا لتَتميمِ وصْفِ عِبادِ الرَّحمنِ ذِكْرُ محبَّتِهم الخيرَ والكمالَ لغَيرِهم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

وقد تخفَى عليك دخيلةُ نَفْسِ الإنسانِ، فيُمكِنُك أن تَعْرِفَها بما يجري به لسانُه؛ فإذا جَرَتْ كلماتُه بمحبَّةِ انتشارِ الخَيرِ والكمالِ فهو مِن أهلِهما، وإذا جَرَتْ بالضِّدِّ فهو على الضِّدِّ؛ فما يُحِبُّ الإنسانُ انتشارَه هو الدليلُ على صِفاتِ نَفْسِه، وهو ميزانٌ تَزِنُه به في الشَّرِّ والخَيرِ، والنَّقصِ والكمالِ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فيه جوازُ الدُّعاءِ بالولدِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أنَّ التزوُّجَ وطَلَبَ النَّسْلِ هو السُّنَّةُ؛ سُنَّةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وسُنَّةُ أصحابِه عليهم الرِّضوانُ، وسُنَّةُ عِبادِ الرحمنِ، وليس مِن شريعتِه الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ الرَّهبانيَّةُ والتَّبَتُّلُ، وقد رأى قومٌ مِن الزهَّادِ رُجحانَ الانقِطاعِ إلى العبادةِ على التزوُّجِ، والاشتغالِ بالسَّعيِ على الزوجِ والذريَّةِ، فردَّ عليهم أئمَّةُ الدِّينِ والفتوى بأنَّ في التزوُّجِ اتِّباعًا للسُّنَّةِ، وفي السَّعيِ على الأهل ما هو مِن أعظَمِ العبادةِ، وفي التزوُّجِ تكثيرَ سَوادِ الأمَّةِ والمدافعينَ عن المِلَّة والقائمينَ بمصالحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

الدِّينِ والدنيا، وفي هذا ما فيه مِن الأجرِ والمثوبةِ، وفي التبتُّلِ مخالفةَ السنَّةِ، وانقِطاعَ النسلِ، وضَعفَ الأمَّةِ، وتعطيلَ المصالحِ، وخرابَ العُمرانِ، وكفَى بهذا كلِّه شرًّا وفَسادًا[1]!

٨- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ما تقَرُّ به الأعينُ يحصُلُ به الفرَحُ والسرورُ؛ فالفرَحُ والسرورُ بما هو خيرٌ وطاعةٌ، مِن حيثُ إنَّه نعمةٌ مِن اللهِ وفَضلٌ: محمودٌ ومَشروعٌ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ حُجَّةٌ على أنَّ فِعلَ العبدِ مخلوقٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ الإمامةَ في الدِّينِ لا تكونُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ، فدلَّ على أنَّ العِلمَ والعمَلَ إنَّما يكونان بجَعلِ اللهِ تعالى وخَلقِه[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ حُبَّ المنزلةِ الرَّفيعةِ والإشارة به إلى مُحِبِّه في الدِّينِ، ليس بمُنكَرٍ إذا أحبَّه المُحِبُّ جلالةً للإسلامِ، وظُهورًا لنعمةِ اللهِ عليه فيه، بل هو طاعةٌ؛ إذْ قد أثنى اللهُ على طالِبيه فيما دَعَوه به، كما ترى[4].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ دَليلٌ على فضيلةِ الإمامةِ في الدِّينِ، ومنها إمامةُ المساجِدِ؛ فإنَّ الإمامَ في المسجدِ إمامٌ للمتَّقينَ؛ لأنَّ الذين يأتون للصَّلاةِ متَّقونَ إنْ شاء اللهُ، فهو إمامٌ لهم، فيدُلُّ ذلك على فَضيلةِ تولِّي الإمامةِ في المساجِدِ، وفَضلُ الإمامةِ في المساجِدِ مَعلومٌ، ولو لم يكُنْ منها إلَّا أنَّ الإنسانَ يكونُ قُدوةً، وأنَّ الإمامةَ تُعينُه على أداءِ الصَّلاةِ، فالإمامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٨).

لا تفوتُه الصَّلاةُ كُلَّ يَومٍ، وغيرُه تفوتُه أو يفوتُه بعضُها، كذلك الإمامُ إذا تكَلَّم يُسمَعُ له أكثَرَ، وكم مِن إنسانٍ ما برَز وظهرَ إلَّا بسبَبِ إمامتِه، لا سيَّما إذا تولَّى الخَطابةَ(١).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ مِن الدِّينِ الاقتداءُ بأهلِ العلمِ والعمَلِ والاستقامةِ في الهَدْيِ والسَّمتِ(٢).

١٣- قال الله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ لا يكونُ الإمامُ إلَّا تقيًّا فاق غيرَه في التقوى(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أنَّ اقتداءَ المتَّقين بأئمَّتِهم إنَّما هو في التقوى؛ لأنَّهم ما كانوا أئمةً إلَّا بها، فالآيةُ أفادتْ أنَّ المتَّقين يَقتدون بأئمَّتِهم، وأنَّ أئمَّتَهم متَّقون مِثْلَهم، وأكمَلُ منهم تَقوى، وأنَّ اقتداءَهم بهم في التقوى لا في غيرِها، فمَن حاد عنها فلا إمامةَ له(٤).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ كمالُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يَعبأُ بأحَدٍ مِن خلقِه مهما كثُروا عَددًا وعُدَّةً(٥).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ عِظَمُ فضيلةِ الدُّعاءِ(٦).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أنَّ الدُّعاءَ مانِعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٦).
(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

مِن العُقوبةِ[١]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

١٨- الأمنُ مِن عذابِ اللهِ وحُصولُ السَّعادةِ إنَّما هو بطاعتِه تعالى؛ لِقَولِه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: لو لم تَدْعُوه كما أمَرَ فتُطيعوه فتَعبُدوه وتُطيعوا رسُلَه؛ فإنَّه لا يَعبأُ بكم شيئًا[٢].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وفيه أيضًا إثباتُ الموانِعِ لِمَا انعقَدَ سببُه، وإثباتُ الأسبابِ لِمَا لم يوجَدْ حتَّى يكونَ[٣].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ لَمَّا كانت مقاديرُ العِبادِ عندَ ربِّهم بحسَبِ عبادتِهم، فالأنبياءُ عليهم السلامُ أعلى النَّاسِ منزلةً عندَ اللهِ؛ فهم أعظمُهم عبادةً للهِ، وهم أتقاهم له، وأشدُّهم خشيةً منه[٤].

٢١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ في قَولِه: ﴿لِزَامًۢا﴾ تنبيهٌ على ضَعفِهم وعَجزِهم، وذُلِّهم وقَهرِهم؛ لأنَّ الملزومَ لا يكونُ إلَّا كذلك، فأَسْرُهم يومَ بدرٍ مِن أفرادِ هذا التَّهديدِ؛ فقد انطبقَ آخِرُ السُّورةِ على أوَّلِها بالإنذارِ بالفُرقانِ لِمَن أنكَرَ حقيقةَ الرَّحمنِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣٩).

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ إذا فُسِّر قولُه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ بأنَّهم يَنفِرون عن مَحاضرِ الكذَّابينَ والخَطَّائينَ، على أنَّ ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى يَحضُرون؛ كانت كالتَّتميمِ له، وإذا فُسِّر بأنَّهم لا يَشهَدونَ شَهادةَ الزُّورِ كانت كالتَّكميلِ له، ويجوزُ أن يكونَ تَتميمًا على تفسيرِ ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾: لم تُسفِّهْهُم المعاصي؛ لأنَّ مَن وقَفَ مواقفَ السُّفهاءِ سُفِّهَ، ويكونُ قدْحًا في عدالتِه[1]؛ فمِن بلاغةِ القرآنِ: أنْ تأتِيَ مِثلُ هذه الآياتِ بوُجوهٍ مِن الاحتمالاتِ مُتناسِباتٍ غيرَ مُتناقضاتٍ؛ فتكونَ الآيةُ الواحدةُ بتلك الاحتمالاتِ كأنَّها آياتٌ، فهذه الآيةُ باحتمالِها معنيينِ -الَّذين لا يَحضُرون مجالِسَ الزُّورِ، أو الَّذين لا يَشهَدُون شَهادةَ الزُّورِ ولا يُخبِرون إلَّا بالحقِّ الواقعِ- مُفيدةٌ تنزُّهَهم عن شُهودِ الباطلِ، وعن شَهادتِه[2].

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ مَعنَى المُرورِ باللَّغْوِ: المرورُ بأصحابِه اللَّاغينَ في حالِ لَغْوِهم؛ فجُعِل المرورُ بنَفْسِ اللَّغوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ أصحابَ اللَّغوِ مُتلبِّسونَ به وقتَ المُرورِ[3]، وقدْ أخبَرَ هنا أنَّهم لا يَقِفون عندَ اللَّغوِ عندما يَمُرُّون عليه؛ تَرَقِّيًا في وصْفِهم بالبُعدِ عن الباطلِ والإثمِ والعبثِ، ومُجانبةِ أهْلِه[4]. وتَخصيصُ المرورِ بالذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك دأبُهم وعادتُهم[5].

- وإعادةُ فِعلِ ﴿مَرُّوا﴾؛ لبِناءِ الحالِ عليه، وذلك مِن مَحاسنِ الاستِعمالِ[6].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾

- قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: أكَبُّوا عليها سامِعينَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرينَ ناظِرينَ لها بعُيونٍ راعيةٍ؛ وإنما عَبَّر عن ذلك بنَفيِ الضِّدِّ تَعريضًا بما يَفعَلُه الكفرةُ والمُنافِقون(١).

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا﴾ عبَّر بـ (إذا)؛ لأنَّ التَّذكيرَ ممَّا هو واقعٌ مُحقَّقٌ كالَّذي يُسمَعُ مِن القرآنِ في الصَّلاةِ، ومِن الخُطَبِ في الجُمَعِ(٢).

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بُنِيَ الفِعلُ للمُفعولِ، ولم يُبَيِّنِ المُذكِّرَ (الفاعِل)؛ إشارةً إلى أنَّهم يَقْبَلون الحقَّ لأنَّه حقٌّ، لا مِن أجْلِ مَن قال به، فهُم لا يَقبَلون التَّذكيرَ لأجْلِ شَخصِ المُذكِّرِ، أو يَرُدُّونه مِن أجْلِ شخصِ المُذكِّرِ، وإنَّما يَقبَلونه لأنَّه تَذكيرٌ؛ لأنَّ التذكيرَ بالآياتِ يَجِبُ قَبولُه مِن أيِّ مُذكِّرٍ كانَ، وهذه هي الفائدةُ في حَذْفِ الفاعلِ(٣).

- قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أُريدَ تمييزُ المؤْمنينَ بمُخالَفةِ حالةٍ هي مِن حالاتِ المشركينَ، وتلك هي حالةُ سماعِهم دَعوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وما تَشتمِلُ عليه مِن آياتِ القُرآنِ، وطلَبِ النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ؛ فلذلك جيءَ بالصِّلةِ مَنفيَّةً لتحصيلِ الثَّناءِ عليهم، مع التَّعريضِ بتَفظيعِ حالِ المُشركينَ؛ فإنَّ المُشرِكينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ اللهِ خَرُّوا صُمًّا وعُمْيانًا، كحالِ مَن لا يُحِبُّ أن يرَى شيئًا فيَجعَل وجْهَه على الأرضِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٠).

- قولُه: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ حالانِ مِن ضَميرِ ﴿يَخِرُّواْ﴾، مرادٌ بهما التَّشبيهُ بحذْفِ حرْفِ التَّشبيهِ، أي: يَخِرُّون كالصُّمِّ والعُميانِ في عدَمِ الانتِفاعِ بالمَسموعِ مِنَ الآياتِ، والمُبصَرِ منها، ممَّا يُذَكَّرونَ به؛ فالنَّفيُ -على هذا- مُنصَبٌّ إلى الفِعلِ وإلى قَيْدِه، وهو استِعمالٌ كثيرٌ في الكلام. وقيل غيرُ ذلك[١].

- وفيها تَنديدٌ وتَقريعٌ للكافِرينَ؛ لأنَّهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ؛ لا يَتجاوَزُ آذانَهم ما يَسمَعون، ولا يَنتفِعونَ بما يَقرؤون، ولا يَعتَبِرون بما يُشاهِدون[٢].

- وقَيَّده بهاتينِ الحاسَّتينِ؛ لأنَّهما الوسيلةُ إلى وُصولِ الشَّيءِ إلى القلبِ؛ إذ الأشياءُ إمَّا مرئيَّةٌ فوسيلتُها النظَرُ، وإمَّا مسموعةٌ فوسيلتُها السَّمعُ، فنفَى أن يكونوا صُمًّا، ونفَى أن يكونوا عُميانًا[٣].

- قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ صِفةٌ سلبيَّةٌ، ولم يَقُلْ: (إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم أَقبَلوا عليها مُبصِرينَ سامِعينَ)، معَ أنَّ الصِّفاتِ الثبوتيَّةَ أبلَغُ في الثَّناءِ؛ وذلك لأنَّ هذه السورةَ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها في مُجادَلةِ المُنكِرينَ لِمَا جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم إذا كانوا مُنكِرين فإنَّهم يَخِرُّون على الآياتِ صُمًّا وعُميانًا، فهذا -واللهُ أعلمُ- وجْهُ المناسبةِ في العُدولِ عن ذِكْرِ الصِّفةِ الثبوتيَّةِ إلى ذِكْرِ الصِّفةِ السَّلبيَّةِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

- إعادةُ المَوصولِ في المواقعِ السَّبعةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا ...﴾ مع كِفايةِ ذِكرِ الصِّلاتِ بطَريقِ العَطفِ على صِلَةِ المَوصولِ الأوَّلِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا ذُكِر في حَيِّزِ صِلَةِ المَوصولاتِ المذكورةِ وصْفٌ جليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خطيرٌ، حَقيقٌ بأنْ يُفرَدَ له مَوصوفٌ مُستقِلٌّ، ولا يُجعلَ شَيءٌ مِن ذلكَ تَتِمَّةً لغَيرِه. وتَوسيطُ العاطفِ بيْن المَوصولاتِ؛ لتَنزيلِ اختِلافِ الصِّفاتِ مَنزلةَ اختِلافِ الذَّواتِ[1]، وتَنبيهًا على أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تَستقِلُّ بالقَصدِ؛ لعِظَمِ خطَرِها، وكِبَرِ أثَرِها[2].

- قولُه: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، أي: هَبْ لنا أزواجًا وذُرِّيَّاتٍ مُطيعِينَ لك، ولَمَّا كانت طاعتُهم سببًا لسُرورِهم؛ وُضِع المُسبَّبُ مَوضَعَ السَّببِ للمُبالَغةِ، وأنَّ المطلوبَ الأوَّليَّ بالأولادِ طاعةُ اللهِ، وجُعِل هذا الدُّعاءُ مِن جُملةِ صِفاتِ الكَمَلةِ مِنَ المؤمنينَ؛ للدَّلالةِ على عِظَمِ منزلةِ مَن يَطلُبُ النِّكاحَ لذلك، وهذا بالنِّسبةِ إلى الدَّاعي، فكيف بمَن يتَّصِفُ بذلك[3]؟

- و(مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ يحتمِلُ أن تكونَ بَيانيَّةً، كأنَّه قيل: هَبْ لنا قُرَّةَ أعْيُنٍ، ثمَّ بُيِّنَتِ القُرَّةُ وفُسِّرَتْ بقَولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾. ومعناه: أنْ يَجعَلَهمُ اللهُ لهم قُرَّةَ أعْيُنٍ، وهو مِن قَولِهم: رأيتُ منك أسَدًا، أي: أنتَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠١).

أسَدٌ. وأن تكونَ ابتِدائيَّةً، على معنَى: هَبْ لنا مِن جِهَتِهم ما تَقَرُّ به عُيونُنا مِن طاعةٍ وصلاحٍ(١).

- وقدَّمَ الأزواجَ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّهم ألْصَقُ، ولأنَّهم الأصلُ(٢).

- وقولُه: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تَركيبٌ كِنائيٌّ؛ فإذا كانتِ القُرَّةُ مِن (القُرِّ) فهي كِنايةٌ عن السُّرورِ؛ لأنَّ العَيْنَ في حالةِ السُّرورِ باردةٌ، وإذا سالَتْ منها دُموعٌ في حالةِ الفرحِ كانت باردةً؛ فقُرَّةُ أعينِهم على هذا كِنايةٌ عن سُرورِهم بأزواجِهم وذُرِّيَّتِهم، بما هم عليه مِن الخَيرِ والكمالِ، وإعانتِهم لهم عليهما. وإذا كانت القُرَّةُ مِن القُرورِ، فهي كِنايةٌ عن سُكونِ النَّفْسِ بحُصولِها على ما يُرْضِيها مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ(٣).

- في قولِه تعالى: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ نُكتَتانِ؛ الأُولى: التَّنكيرُ، وإنَّما جُنِح إليه لأجْلِ تَنكيرِ القُرَّةِ، والمُضافُ لا يُمكِنُ تَنكيرُه إلَّا بتَنكيرِ المُضافِ إليه؛ لِيَكونَ السُّرورُ غَيرَ مُتَناهٍ ولا محدودٍ. وإنَّما قَلَّل الأعْيُنَ -أي: جُمِع جَمْعَ القِلَّةِ-؛ لأنَّ أَعْيُنَ المُتَّقينَ قِلَّةٌ بالإضافةِ إلى غَيرِهم، يدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(٤) [سبأ: ١٣]. وهناك وجْهٌ آخَرُ لعلَّه أبلَغُ ممَّا تَقدَّمَ، وهو أنَّ المَحكيَّ كلامُ كلِّ أحدٍ مِنَ المُتَّقينَ، فكأنَّه قال: يَقولُ كلُّ واحدٍ مِنَ المُتَّقينَ: اجعَلْ لنا مِن ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ؛ فإنَّ المتَّقينَ وإنْ كانوا بالإضافةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

إلى غَيرِهم قليلًا فإنَّهم في أنفُسِهم على كَثرةٍ مِنَ العددِ، والمُعتبَرُ في إطلاقِ جَمعِ القِلَّةِ أن يكونَ المجموعُ قليلًا في نفْسِه، لا بالنِّسبةِ والإضافةِ[1].

- قولُه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ كالتَّكميلِ للدُّعاءِ، أي: اجعَلْنا كامِلينَ في أنفُسِنا، ومُكمِّلينَ لغَيرِنا، وفي جَعلِ المُقتدينَ مُتَّقِينَ إشارةٌ إلى عُلُوِّ درجةِ الإمامِ[2].

- قولُه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإمامُ هو المُتَّبَعُ المُقتَدَى به، وأُفرِدَ (إمامًا)؛ إمَّا اكتِفاءً بالواحِدِ عنِ الجَمعِ، ويدُلُّ على الجنسِ ولا لَبْسَ، وإمَّا لأنَّه مَصدَرٌ في أصْلِه، وإمَّا لأنَّ المعنى: واجعَلْ كلَّ واحدٍ منَّا إمامًا، وإمَّا لاتِّحادِهم واتِّفاقِ كَلِمَتِهم قالوا: واجعَلْنا إمامًا واحدًا، وقيل غيرُ ذلك. وحَسَّنَ الإفرادَ مِن جِهةِ اللَّفظِ: وُقوعُه فاصلةً على وَزنِ ما قَبْلَها وما بَعْدَها. ومِن جِهةِ المعنى: أنَّ أئمَّةَ الهُدَى كنَفْسٍ واحدةٍ؛ لاتِّحادِ طَريقِهم بالسَّيرِ على الصِّراطِ المستقيمِ، واتِّحادِ وِجهتِهم بالقَصدِ إلى اللهِ تعالى وحْدَه[3].

- ومَدارُ الكُلِّ صُدورُ هذا الدُّعاءِ إمَّا عنِ الكُلِّ بطريقِ المَعيَّةِ وأنَّه محالٌ؛ لاستِحالةِ اجتِماعِهم في عصرٍ واحدٍ، فما ظَنُّك باجتِماعِهم في مجلسٍ واحدٍ، واتِّفاقِهم على كلمةٍ واحدةٍ؟! وإمَّا عنْ كلِّ واحدٍ منهُم بطريقِ تَشريكِ غَيرِه في استِدعاءِ الإمامةِ، وأنَّه ليس بثابتٍ جَزْمًا، بلِ الظَّاهرُ صُدورُه عنهم بطريقِ الانفِرادِ، وأنَّ عِبارةَ كلِّ واحدٍ منهم عِندَ الدُّعاءِ: (واجعَلْني للمتَّقينَ إمامًا)،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣، ١٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٦).

خَلَا أنَّه حُكيَتْ عِباراتُ الكلِّ بصيغةِ المُتكلِّمِ مع الغَيرِ؛ للقَصدِ إلى الإيجازِ، على طريقةِ قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾[١] [المؤمنون: ٥١].

٤- قولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾

- قولُه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى المتَّصفينَ بما فُصِّل في حينِ صِلَةِ المَوصولاتِ الثَّمانيةِ من حيثُ اتِّصافُهم به. وفيه دَلالةٌ على أنَّهم مُتميِّزونَ بذلك أكمَلَ تَميُّزٍ، مُنتَظِمونَ بسببِه في سِلكِ الأمورِ المُشاهَدةِ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضلِ. والجملةُ مُستأنَفةٌ مُبيِّنةٌ لِما لهُم في الآخرةِ مِنَ السَّعادةِ الأبديَّةِ، إثْرَ بَيانِ ما لهُم في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ السَّنِيَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ التَّصديرُ باسمِ الإشارةِ للتَّنبيهِ على أنَّ ما يَرِدُ بعْدَه كانوا أَحْرياءَ به؛ لأجْلِ ما ذُكِر قبلَ اسمِ الإشارةِ من صِفاتٍ[٣].

- جُملةُ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ... ﴾ مُستأنَفةٌ؛ فإنَّ تلك الصِّفاتِ والأعمالَ تُشوِّقُ السَّامعَ إلى معرفةِ مآلِهم، وثمرةِ أعمالِهم، فيَسأَلُ عنهما؛ فكانت الجُملةُ جوابًا لذلك السُّؤالِ المُقدَّرِ[٤].

- قولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ يدُلُّ على أنَّهم يُجْزَون غُرفةً واحدةً، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك؛ كقَولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١).

تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]، وكقَولِه: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

والجوابُ: أنَّ الغُرفةَ هنا بمعنَى الغُرَفِ؛ اسمُ جِنسٍ أُريدَ به الجَمْعُ. وقيل: إنَّ المرادَ بالغُرفةِ الدَّرجةُ العُلْيا في الجنَّةِ؛ وعليه فلا إشكالَ. وقيل: الغُرفةُ الجنَّةُ؛ سُمِّيَتْ غُرفةً لارتِفاعِها(١).

- قولُه: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ لم يؤْتَ بمُتعَلِّقِ ﴿صَبَرُوا﴾؛ لئلَّا يُقتصَرَ عليه، فيَتناوَلُ كلَّ مَصبورٍ عليه إلى أن يُحاطَ به(٢)، ولِيَعُمَّ جميعَ أنواعِ المشاقِّ(٣).

- فإنْ قيل: قد تَقرَّرَ أنَّ اسمَ الإشارةِ إذا عُقِّب به مَن أَجرى عليه الأوصافَ دَلَّ على أنَّ المَذكورَ قَبْلَه جَديرٌ بما بعْدَه لأجْلِ تلك الأوصافِ الجاريةِ عليه، فإذَنِ السَّببُ في أنَّهم يُجْزَونَ الغُرفةَ تلك الأوصافُ الَّتي أُجريَتْ على عِبادِ الرَّحمنِ، فكان مِن حقِّ الظَّاهرِ أنْ يُجاءَ بدَلَ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: بما فَعَلوا؛ كِنايةً عن تلك المَذكوراتِ بأسْرِها، فما فائدةُ العُدولِ؟

فالجوابُ: الإيذانُ بأنَّ مِلاكَ العِباداتِ الصَّبرُ، وأنَّ حَبْسَ النَّفْسِ على طاعةِ اللهِ هي الطَّلِبةُ، وقَطْعَها عن مُشتَهياتِها هي المَرامُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٤)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٧٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤).

- قولُه: ﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاءَ قَولُه: ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ مُفرَدًا، وجاء في سورةِ (سبأ) بالجَمعِ: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]؛ وفائدةُ العُدولِ في هذا المَقامِ إلى المُفرَدِ ﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ فلاتِّحادِ تَرتُّبِ الحُكمِ على الأوصافِ المُشترَكةِ، بخِلافِه في (سبأ)؛ فإنَّه مُرتَّبٌ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ مُطْلقًا. ولا ارتيابَ في التَّفاوُتِ في الأعمالِ، فناسَبَ الجَمعُ؛ ليَتفاوَتَ الجزاءُ بحسَبِ العامِلينَ. وأمَّا على قراءةِ الإفرادِ في سورةِ (سبأ)[١] فيُقالُ: إنَّ المرادَ مِنَ الإفرادِ الجِنسُ؛ ليتوافَقَ القِراءتانِ. ويُمكِنُ أن يُقالَ: القَرينةُ هي إثباتُ الغُرفةِ الواحدةِ للجَماعةِ[٢].

- قولُه تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾، جُمِع بيْن التَّحيَّةِ والسَّلامِ، مع أنَّهما بمعنًى؛ لقَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ [الأحزاب: ٤٤]؛ لأنَّ المُرادَ هنا بالتَّحيَّةِ: سَلامُ بعضِهم على بعضٍ، أو سلامُ الملائكةِ، وبالسَّلامِ: سلامُ اللهِ عليهم؛ لقَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]، أو المرادُ بالتَّحيَّةِ: إكرامُ اللهِ لهم بالهَدايا والتُّحَفِ، وبالسَّلامِ: سَلامُه عليهم بالقَولِ. ولو سُلِّمَ أنَّهما بمعنًى، فساغَ الجَمْعُ بيْنَهما؛ لاختِلافِهما لفظًا[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾

- جُملةُ ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ مُستأنَفةٌ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ مَن عرَفَ حالتَهم مِن الحياةِ والسَّلامةِ والبقاءِ يَتشَوَّفُ لمعرفةِ حالِ مكانِ هذه الحياةِ السَّالمةِ

---

(١) قرأ بالإفرادِ حمزةُ، والباقون بالجمعِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٦).

الباقيةِ، فيَسأَلُ عنه؛ فوقعَتْ جُملةُ ﴿حَسُنَتْ﴾ موقعَ الجوابِ عن هذا السُّؤالِ المُقدَّرِ. وهي إنشائيَّةٌ أفادتْ إنشاءَ مدْحِ الغُرفِ بالحُسنِ، وتَعظيمِ ذلك الحُسنِ[1].

- وقدَّمَ المُستقَرَّ؛ لأنَّ أوَّلَ الحُلولِ استِقرارٌ، والمُقامَ ببَقاءِ الاستِقرارِ واستِمرارِ المُكثِ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (ما) يَجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً فيها معنَى النَّفيِ، كأنَّه قيل: وأيُّ عبءٍ يَعبأُ بكم لولا دُعاؤُكم؟! ويجوزُ أن تكونَ نافيةً[3]، وتَركيبُ: ما يَعبأُ به، يدُلُّ على التَّحقيرِ، وضِدُّه (عَبَأَ به) يُفيدُ الحَفاوةَ. فأصلُ ﴿مَا يَعْبَؤُا﴾: ما يَحمِلُ عِبْئًا؛ تمثيلًا بحالةِ المُتعَبِ مِنَ الشَّيءِ، فصار المقصودُ: ما يَهتَمُّ وما يَكترِثُ، وهو كِنايةٌ عن قِلَّةِ العِنايةِ[4].

- وجَوابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ، وتقديرُ الكلامِ: لولا دُعاؤُكم ما عبَأَ بكم. وجُملةُ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لكلامٍ مُقدَّرٍ تَقديرُه -واللهُ أعلَمُ-: لا يَعبأُ بكم فقد كذَّبْتم، أي: لأنَّكم قد كذَّبْتم، فالفاءُ تَعليليَّةٌ. وأمَّا جُملةُ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ فمُتَسبِّبةٌ عمَّا قبْلَها؛ فالفاءُ فيها سَببيَّةٌ. وضَميرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٥).

﴿يَكُونُ﴾ عائدٌ على العذابِ المفهومِ مِن المقامِ(١).

- وفائدةُ قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الإيذانُ بأنَّ مَناطَ فوزِ أحدِهما، وخُسرانِ الآخَرِ -مع الاتِّحادِ الجِنسيِّ المُصحِّحِ للاشتِراكِ في الفَوزِ- ليس إلَّا اختلافَهما في الأعمالِ(٢). وأيضًا فيه تهديدٌ للمُشركينَ(٣).

- وحُذِفَ مُتعلِّقُ الدُّعاءِ؛ لظُهورِه مِن قَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أي: الدَّاعيَ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٤)، وذلك على أنَّ الدُّعاءَ المرادُ به: الدعوةُ إلى الإسلامِ.

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ تُرِكَ اسمُ كان غَيرَ مَنطوقٍ به بعْدَما عُلِم أنَّه ممَّا تُوعِّدَ به؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِه، وتَهويلِ أمْرِه، وللتَّنبيهِ على أنَّه ممَّا لا يَكتنِهُه البيانُ، كما تَقولُ للجاني: قد فعلْتَ كذا فسوف تَتحمَّلُ ما فعلْتَ(٥).

- واللِّزامُ: مَصدَرُ لازَمَ، وقد صِيغَ على زِنَةِ المُفاعَلةِ لإفادةِ اللُّزومِ، أي: عدَمِ المُفارَقةِ؛ فالإخبارُ باللِّزامِ مِن بابِ الإخبارِ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ بيْنَ المُكذِّبينَ والعذابِ مُلازَمةً مِن الطَّرفينِ: فهُم بتَكذيبِهم قد ألْزَموا أنفُسَهم العذابَ، فلازَمَهم العذابُ. وقد اجتَمَع فيه مُبالَغتانِ: مُبالَغةٌ في صيغتِه تُفيدُ قوَّةَ لُزومِه، ومُبالَغةٌ في الإخبارِ به تُفيدُ تَحقيقَ ثُبوتِ الوَصفِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٤).

- وهذه الخاتمةُ ناظرةٌ إلى الفاتحةِ، أي: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، المعنى: قد أَنذَرَ وبالَغَ فيه، وبيَّن بالآياتِ الظَّاهرةِ، والبَراهينِ الباهِرةِ، تَصريحًا وتَعريضًا: أنَّ الحكمةَ في الإيجادِ مَعرفةُ الخالِقِ وعبادتُه؛ أمَّا تَصريحًا ففي قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وأمَّا تَعريضًا ففي عَدِّ فضائِلِ المؤْمنينَ، وإذا أَعلَمَكُم رَسولي أنَّ حُكْمي ذلك، وأنِّي لا أعتَدُّ بعِبادي إلَّا بعِبادتِهم، فقد خالَفْتُم أنتُم بتَكذيبِكم كِتابي ورَسولي حِكمتي في الإيجادِ، فسوف يَلزَمُكُم أثَرُ تَكذيبِكُم، وهو الاستِئصالُ يَومَ بَدْرٍ، والعذابُ السَّرْمَدُ في النَّارِ يَومَ القِيامةِ(١).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ العِشرونَ

ويليه المجلدُ الحادي والعِشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سُورةِ الشُّعَراءِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٨).

الفهرس

الفهرس

سورةُ الفُرقانِ.. ٧
أسماءُ السُّورةِ: ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:.. ٨
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:.. ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ:.. ٩
الآيات (١-٣) ١١
غَريبُ الكَلِماتِ:.. ١١
المعنى الإجماليُّ: ١٢
تَفسيرُ الآياتِ:.. ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:.. ٢٠
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨
الآيات (٤-٦) ٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ:.. ٣٩
المعنى الإجماليُّ: ٤٠
تَفسيرُ الآياتِ:.. ٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:.. ٤٦
بلاغةُ الآياتِ: ٤٧
الآيات (٧-١٠).. ٥٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ٥٣
المعنى الإجماليُّ: ٥٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٦٠
بلاغةُ الآياتِ: ٦٣
الآيات (١١-١٦) ٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٧
المعنى الإجماليُّ: ٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ٧٦
الآيات (١٧-١٩) ٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٤
المعنى الإجماليُّ: ٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩١
بلاغةُ الآياتِ: ٩٣
الآيات (٢٠-٢٤) ١٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٠١
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠٢
المعنى الإجماليُّ: ١٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٣

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١١٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٢٠
الآيات (٢٥-٢٩) ١٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٢٩
المعنى الإجماليُّ: ١٢٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٢
الآيات (٣٠-٣٤) ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٩
المعنى الإجماليُّ: ١٥٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٦٢
بلاغةُ الآياتِ: ١٦٨
الآيات (٣٥-٤٠) ١٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٧٧
المعنى الإجماليُّ: ١٧٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٨٧
بلاغةُ الآياتِ: ١٨٩

الآيات (٤١-٤٤) ١٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٩٧
المعنى الإجماليُّ: ١٩٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٠٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢١٠
الآيات (٤٥-٥٤) ٢١٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢١٨
المعنى الإجماليُّ: ٢٢١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٢٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: ٢٤٥
بلاغةُ الآياتِ: ٢٥٣
الآيات (٥٥-٦٢) ٢٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٢
المعنى الإجماليُّ: ٢٧٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٩٩
الآيات (٦٣-٦٧) ٣١٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣١٢
المعنى الإجماليُّ: ٣١٣

تَفسيرُ الآياتِ: ٣١٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٢٩
بلاغةُ الآياتِ: ٣٣١
الآيات (٦٨-٧١) ٣٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٣٩
المعنى الإجماليُّ: ٣٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٥٨
الآيات (٧٢-٧٧) ٣٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٦٤
المعنى الإجماليُّ: ٣٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٨٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩١
الفهرس ٤٠٦

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠